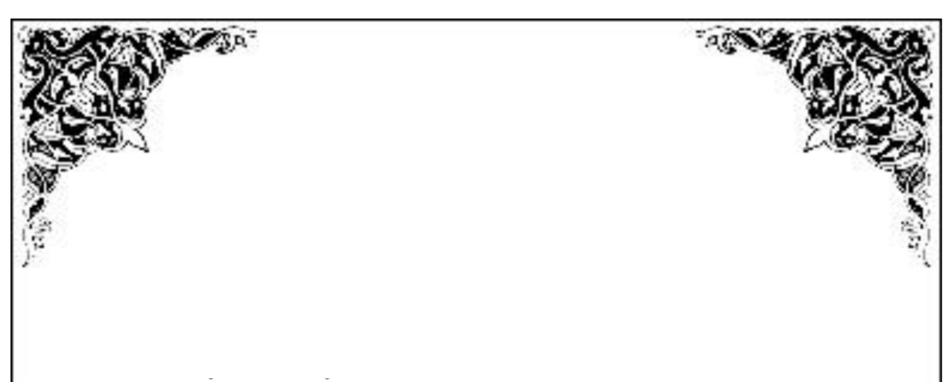


الدلالة الصوتِية

في القرآنِ الكرِيم

الدكتور

ماجد النجار




بسم الله الرحمن الرحیم

إهداء

إلَى الرَّسولِ الأعظَم مُحَمَّد ﷺ

سَــيِّدي أيُّها الرَّسُولُ الحَبيبُ   أيُّها المُصْطَفَى المُجابُ المُجيبُ

أيُّها الشّـافِـعُ المُشَـفَّعُ فِيـنا   وَ المُرَجَّى إذا آسْتَشَاطَ اللَّهيبُ

جِئتُ أسعَى إليكَ أحمِلُ زاداً   هُوَ إنْ تَرتَضِيهِ غُصْنٌ رَطيبُ

صِيغَ مِن مُحكَـمِ الكِتابِ فَهلاّ   يَكُ لِي فيهِ مِنْ رِضاكَ نَصيبُ

جِئْتُ لا أرتَجي سِواكَ مُجيباً   يا نَبِيَّ الهُدَى ، فَكَيفَ أخيبُ

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، وأفضَلُ الصَّلاةِ وأتَمُّ السَّلامِ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى، لا سِيَّما مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله المبعوثُ بالهدَى والكتابِ المبين، وعلَى آلِهِ الطيِّبين الطاهرين وأصحابهِ الأخيار المنتجَبين.

أما بعد:

فَكُلُّ كتابٍ ـ إذا أُعمِلَ النظَرُ فيه، وداوَمَ الباحثونَ على دراسَتِهِ وتَقَصِّيه ـ يَرِثُّ رداؤُه، وينضَبُ عَطاؤُه، ويَقِلُّ رُواؤُه إلاّ كتابَ اللهِ، فإنه كلَّما تَدَبَّرَه المَرءُ وَقَعَ منه علَى أمرٍ طارِف، و رَسَى علَى بحرٍ جارِف، واستفاء بِظلٍّ وارف. فَما يتَلَقَّاه قارئُه اليوم غيرُ ما كان قد فُتِحَ عليه منه بالأمس. فهو كُلَّما اسْتَزادَ منه زادَه، ومهما اسْتَرفَدَه رَفَدَه، ذلك لأنّه كما قال عنه الصّادق الأمين الذي أُنزِلَ عليه لِيُبلِّغَهُ إلى النّاسِ أجمعين: هو حبلُ اللهِ المتين، ونورُه المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم الذي «لا تَنْقَضِي عَجائِبُه»[1] «وَ لا تُخلِقُه كَثرَةُ الرَّدّ»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٥/١.

(٢) نهج البلاغة: ٢١٩.

وَ لله دَرُّ الشاعرِ حيث يقول، كأنَّه يَعنِـي القـرآنَ، ومـا يسـتجدُّ فيـه كُـلُّ حـينٍ مِـن الحسنِ والبيان:

يَزيدُكَ وَجهُــهُ حُسْــناً إذا مَـا زِدْتَــهُ نَظَــرَا

نعم.. إنه القرآن.. معجزةُ اللهِ الخالدةُ علَى مَرِّ الدهورِ و الأزمان، والـذي سَـيظلّ إعجازُه كما تقول بنتُ الشّاطئ: «مَشغَلَةَ الدارسينَ والعلماءِ جيلاً بعدَ جيل، ثـم يَبقَـى أبداً رَحبَ المدَى سَخيَّ المورد، كلَّما حَسِبَ جِيلٌ أنه بلَغَ منه الغايةَ امْتَـدَّ الأفـقُ بعيـداً وراءَ كُلِّ مَطمَح، عالياً يَفوقُ طاقةَ الدارسين»[1].

وهذا البحث جُهدٌ آخَرَ يُحاول أن يُضيفَ بُعْداً جديداً للإعجاز الفنيّ القرآني، يَستنطق قدرتَه الصوتيةَ الفريدةَ في البيان والتوصيل والتأثير، و ذلك بهدف الكشفِ عن القيمةِ الدلاليةِ الدقيقةِ للصَّوت القرآنيّ، و إماطةِ اللثامِ عن بعضِ أسرارِهِ و رموزه في مستوياته المختلفة التي ورد عليها كلامُ الله المجيد.

إنّ بلوغَ هذا الهدف ليس بالأمر اليسير، فهو يتطلّبُ تَظافُرَ جُهودٍ عديدةٍ، وليس لباحثٍ، مَهما بلَغَ شأوُه، أن يُلِـمَّ بِه، أو يَبلغَ أدنَى مَدًى لَه. ولقد أحسَسْتُ بِبُعدِ المقصَد، و وُعورَةِ المسْلَك، و بِعِظَمِ المسؤولية وثِقَلِها منذ أُلهِمتُ اختيارَ هذا الموضوع في شهر نزول القرآن. وَ قد لازمني هذا الإحساس طوالَ سنواتٍ أربعٍ بأيامها ولياليها، إلى أنْ فَرَغتُ من كتابة الفصل الأخير في آخِرِ يومٍ من رمضان هذا العام.

وَ قد تَهيّبتُ التصَدِّيَ لهذا الموضوع لِسَبَبَين اثنين:

الأوّل: كونـه يتنـاول كـلامَ الله تعـالَى. ولطالمـا كنـتُ استَحضِـرُ حـديثَ المصطفى ﷺ: «مَنْ قالَ في القرآنِ بِرأيِهِ أو بِما لا يَعلَم فَلْيَتبَوّأ مَقعَدَهُ مِن النّار»[2].

(١) الاعجاز البياني للقرآن: ١٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٦/١.

فَهالَني أنْ يَغلِبَ عَلَيَّ رَأيي، أو أنْ أقولَ في كتابِ اللهِ بِغَيرِ عِلمٍ، فتَزِلَّ قَدَمي عن جادَّةِ الصّوابِ.

الثاني: دِقَّةُ مباحثِ هذا الموضوعِ وَ صُعوبتُها من جهة، وَ ارتباطُها بعلومٍ متعدِّدةٍ متبايِنةٍ من جهة أخرَى. وَ من ثَمَّ فإنني باختياري هذا الموضوع قد أُقحِمُ نفسي فيما لا قِبَل لَها بِه، وأُحَمِّلُها مِنَ الأمرِ فوقَ ما تُطيق.

وَ قد ارتفعَ كلُّ سَبَبٍ بآيةٍ من كتابِ الله؛ أمّا خَشيَتي مِن أن أقولَ في كتابِ اللهِ ما ليس فيه، فقد ارتفعَ بقوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]. فهذه الآية قبل أن تَكونَ دعوةً صريحةً لِتَدبُّرِ آياتِ القرآنِ، فيها من التقريعِ والتوبيخِ ما تَرتَعشُ له قلوبُ المؤمنين، و تَقشَعِرُّ منه أبدانُهم، إذا ما شَعروا بأنَّهم هَجَروا كلامَ الله، أو قصَّروا في تأمُّلِ مَغارسِهِ وَ مغانيه، وَ استِكناهِ صُوَرِه ومعانيه. لذلك فقد ألزَمت نفسي العكوفَ علَيه مُستعيناً بأمَّهات المصادر التي تناولت النصّ القرآنيّ توضيحاً وتفسيراً وبياناً.

أمّا تَهَيُّبي من التصدِّي لهذا الموضوع لِدِقَّتِه وسَعَتِه، فقد ارتفع بقولِه تعالَى:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فقد لَجأتُ إلَى مَنْ يُستَشارُ فَيُهتدَى برأيه، مِن أُولي البصيرة وسَدادِ الرأي مِمَّن تَلمَذْتُ لهم، أَخُصُّ منهم بالذكر: أستاذي المشرف العالم الفاضل الدكتور سيد علي مير لوحي ونخبة طيبة من أساتذة آخرين، حيث لَمَستُ منهم من الترغيب و التشجيع ما رَسَّخَ في نَفسي عَزيمَةَ المضِيِّ قُدُماً في هذا المضمار، فتوكَّلتُ علَى الله وَ كُلِّي ثِقَةٌ بأنَّهُ آخِذٌ بيدي إلى سَواء السَّبيل، فهو نِعمَ المولَى ونِعمَ النصير.

وَ لقد لَبِثْتُ عاماً ونَيِّفاً أجمَعُ من المصادرِ والمراجعِ والبحوثِ في علوم الدلالة والأصوات وفقه اللغة والتفسير والبلاغة والتجويد وغيرها ما يُعينُني علَى رَسمِ مَلامحِ البحثِ، وتشكيلِ خُطوطِهِ العريضَة.

ولَعلَّ أوّلَ ما لفَتَ نظَري من تلك المطالعات الأوّليّة هو الوقوف على حقيقةِ أنَّ القرآنَ الكريمَ كان مُنطَلَقاً أساسيّاً لِثلاثِ مجموعاتٍ من الدراسات العربية والإسلامية، هي: الدراسات اللغوية والقرآنية و البلاغية وكانت بوادرُ الدراسات الصوتية قد ظهرت بِنَسَبٍ متفاوتةٍ في كلٍّ من هذه المجموعات الثلاثة.

وكان أوَّلُ من التَفَتَ إلى صِلَةِ الدرسِ الصوتيِّ بالدراساتِ اللغويةِ والصرفيةِ والنحويةِ هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، فتلميذُه سيبويه (ت١٨٠هـ) الذي أضاف إلى هذا العلم ما جعلَ علماء النحو والقراءة من بعده يسيرون على مذهبه. ثم نَهَضَ بأعباءِ الصوتِ اللغوي بعد مدرسةِ الخليل العالِمُ الكبير ابنُ جِني (ت٣٩٢هـ) مُتجاوزاً مرحلةَ البناءِ إلى مرحلةِ التأصيل، مُتَعَرِّضاً لقضايا الصوت في كتابَيْه: (سِرِّ صناعةِ الإعراب) و(الخصائص) في بحوثٍ غايةً في الدقة.

وَ وجدتُ مَلامحَ أساسيةً لهذا العلمِ عند علماءِ البلاغة الذين تَعَرَّضوا لمسائلِ الفصاحة، وَ اللفظ وَ المعنى في النص الأدبي. وكذلك عند علماء الإعجاز الذين دَرَسُوا القرآنَ علَى مستوَى اللفظ والمعنى، وقالوا بالإعجاز بالنظم، كالرماني (ت٣٨٦هـ) والخطّابي (ت٣٨٨هـ) والباقلاني (ت٤٠٣هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ثم ابنِ الأثير (ت٦٣٧هـ) وابنِ أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ) وحازمِ القرطاجني (ت٦٨٤هـ) وغيرهم.

كما أنّ علماءَ القراءات انطلَقوا من الدرسِ الصوتي لتأصيلِ علمِ التجويد، فوضَعوا عَشَراتِ المصطلحاتِ الخاصَّةَ بالأداءِ الصوتيِّ الدقيقِ للقرآنِ الكريم فيما يُسَمِّيهِ علماءُ الأصواتِ اليوم بـ (علم وظائف الأصوات) (phonology).

أما في العصر الحديث فقد أفادَ الكثيرُ من اللغويين العرب ممّا تَوَصَّلَ إليه الغربُ في مجالِ علمِ الأصوات، أمثال: إبراهيم أنيس، و تَمّام حسّان، و كمال بِشر، وغيرهم، كما تنبّه غيرُ واحدٍ من أهلِ العلم والدين والأدب بِحِسِّهم المرْهَفِ، وَ ذَوقِهم السَّليم إلى الارتباطِ الوثيقِ بين الصوت والدلالة، فَتَعَرَّضوا في كُتبِهم إلَى شَذَراتٍ مِمّا وَقَعَ منه في القرآن الكريم، كالرافعي، و بنتِ الشاطئ، و سيد قطب، وغيرهم.

وَ مِن خلالِ ما تجَمَّعَ لَديَّ مِن المُلاحَظات المشار إليها آنفاً، و ما كانَ يَعتمِلُ في ذهني مِن ملاحَظاتٍ صوتيّة كنتُ قد لَمَستُها في كتابِ اللهِ المجيد، فأثارَت فِيَّ حَفيظةَ البحثِ فيها، وَ تَتَبُّعِ ضوابِطِها وأُصولِها، تَمَّ اعتمادُ الفرضيةِ التاليةِ أساساً تقومُ عليه الأطروحةُ، و هي:

(إنَّ الصوتَ القرآني قد تَمَّ توظيفُه ـ بجميعِ مستوَياتِه و بشكلٍ دقيقٍ ـ لِخدمةِ المعنى الذي أُفرِغَ فيه)

وقد عَمِلتُ جاهداً على إثباتِ هذه الفرضيةِ من خلالِ الإفادةِ من كتبِ اللغةِ والتفسيرِ والقراءاتِ والبلاغة، إضافةً إلى مُعطَيات عِلمَي الدلالةِ والأصوات.

وبناءً على ذلك فقد تَمَّ تقسيمُ الأطروحةِ إلى فصولٍ سبعةٍ، اشتملَ كلٌّ منها علَى تَمهيدٍ و عِدَّةِ مباحث.

ولَمّا كانت أصولُ هذا البحثِ تستَندُ إلى قاعِدَتَين أساسِيَّتَين هما: **علمُ الدلالةِ وعلمُ الأصوات**، فقد أُفرِدَ لكُلٍّ منهما فصلٌ قائمٌ بذاتِه، استَوفَى أهَمَّ الضوابطِ التي يَقومُ عليها كلٌّ عِلمٍ، لِكَي يَتِمَّ توظيفُها والرجوعُ إليها في الفصولِ اللاّحِقَة، فلا

يَختلطَ الجانبُ النظريّ بالجانبِ التطبيقي.

وَعلَى الرُّغمِ من صَرامةِ المادّةِ العلميةِ التي تَمَيَّزَ بهما هذان الفَصلان، إلاّ أنّهما تَضَمَّنَا إلى جانبِ ذلك نَماذجَ تطبيقيةً عديدةً من صُوَرِ الدلالةِ الصوتيةِ التي أشارَ إليها الباحثونَ قديماً وحديثاً، وقد أضَفتُ إليها ما تَوَصَّلتُ إليه فأثْبَتُّه في مَضانّه.

ثم خُصِّصَتِ الفصولُ الخمسةُ اللاّحقةُ بِتَناولِ صَميمِ البحثِ ومادَّتَه الأساسية. وَجاء الفصلُ الثالثُ الموسوم بـ: **الإعجاز الصوتي في القرآن** مُتَمِّماً لِسابِقَيه، وَمُمَهِّداً للفصولِ التاليةِ من الدراسة. وقد اشتملَ على مَبحَثَين هما: ١ـ الإعجاز الصوتي عند القدماء ٢ـ الإعجاز الصوتي عند المعاصرين.

وقد تَوَقَّفْنا في المبحث الأوّل عند أربعةِ علماء مِمّن اشتغلوا بالإعجاز القرآني، وأشاروا إلى الجانب الصوتي منه بصورةٍ أو بأخرى، حيث استَوقَفَنا الباقلاني بِما طَلَعَ بِهِ علينا بخصوص الإعجاز الصوتي في فواتح السُّوَر من الحروف المقطّعة، فَتَقَصَّيْنا مَلامِحَ الإعجازِ الصوتي فيها عند مَن جاء بعده، مُضيفينَ إليها ما فَتَحَ الله علينا، فكانت لنا مَعَها وَقْفَةُ تأمُّلٍ وخُشوع.

كما استَوقَفَنا عند ابنِ الأثير اعتمادُه مقياسَ (الذّوق) استناداً إلَى حاسّةِ السَّمع، وَجَعْلُها أداةً للحُكمِ الجمالي علَى ألفاظ اللُّغة. وقد تناوَلْنا معاييرَ الإعجازِ الصوتي لديه، مشيرين إلى تعليقات المعاصرين عليها، وإضافاتهم إليها.

أمّا الإعجاز الصوتي عند المعاصرين فقد قصَرناه على اثنين منهم، هما: الرافعي، وسيد قطب؛ وقد عَرَضنا للأوّل تَحديدَه لِسِرِّ الإعجاز في الصوت القرآني. كما عَرَضنا للثاني ما ذَكَرَه من أوجُهِ التناسُقِ الفني الصوتي في التصويرِ القرآني.

إنّ ما تَضَمَّنَتْه الفصولُ الثلاثةُ الأُولَى من موضوعاتٍ يُعَدُّ تمهيداً للفصولِ الأربعةِ الأساسيةِ اللاّحقة، ذلك لأنّ الدخولَ في صُلبِ الموضوع مِن دونِ التَّعرُّضِ لِما تَمَّ

تَسجيلُه من قِبَلِ السّابقينَ وَ اللاّحقين مِمّن شَغَلَهم الإعجازُ الصوتي القرآني يُمكِنُ أن يُشَكِّلَ ثَغرةً كبيرةً في مَنهَجِيَّةِ البحثِ من جهة ، و إهمالاً صريحاً و مُتعَمَّداً لِجُهودٍ حَثيثةٍ بُذِلَتْ للكَشفِ عن مَواطِنِ الجمال والإعجازِ في كتاب الله من جهةٍ ثانية.

من ناحيةٍ أُخرَى فإنَّ اقتفاءَ خُطَى الأوائلِ في مُعالَجَةِ النصِّ القرآنيِّ ، مع مُحاولَةِ تَوظيفِ مُعطَياتِ الدرسِ الصوتي الحديث ، مِن شأنِهِ أن يَمنَحَ الباحثَ مُبرِّراتِ الخوضِ في هذا المجالِ من الدراسات القرآنية ، وَ يُكسِبُ بَحثَه مُقوِّماتِ البحثِ العلمِيِّ الأصيل ، وَ من ثَمَّ يُضفِي عَلَيهِ مِصداقِيةَ النتائجِ الناجِمَةِ عنه.

وَ قد تناولَتِ الفصولُ الأربعةُ التاليةُ الدلالةَ الصوتيةَ في القرآن الكريم وفقَ أربعةِ مستَوَياتٍ أساسِيةٍ يَتَشَكَّلُ منها النصُّ القرآني ، ويَقومُ عليها بِناؤُهُ الصَّوتي. وقد احتَلَّ كلُّ مُستوًى فَصلاً بِعَينِه ، كما يلي :

الفصل الرابع : الدلالة الصوتية على مستوى الحروف (الأصوات الصامتة)

الفصل الخامس : الدلالة الصوتية على مستوى الحركات (الأصوات الصائتة)

الفصل السادس : الدلالة الصوتية على مستوى الألفاظ (المفردات)

الفصل السابع : الدلالة الصوتية على مستوى التراكيب (الإيقاع)

وَ بذلك نكون قد بَدَأنا أصلَ المادّةِ البحثِيةِ بدراسةِ الدلالةِ الصوتِيةِ للحرفِ ، فالحركةِ (القصيرةِ والطويلةِ) ، فاللّفظةِ ، فالتركيبِ القرآني ، ثم خَتَمناهُ بمبحث الفاصلَة التي بها تُختَم الآيات والسور.

إنّ أهميةَ هذا البحث يَكمُنُ في كونِه يَتَّخِذُ من كتابِ الله مادةً للدراسة ، و هدفاً يَستَجلي مَعالِمَ إعجازِهِ اللغَويّ والبياني ، وهو يُعَدُّ خُطوةً جَديدةً ، تَتَلَمَّسُ لَها مَوطِئَ قَدَمٍ في الدراساتِ القرآنيةِ المعاصرة ، نأمُلُ أن تَكونَ انطلاقةً فاعلةً لمزيدٍ من الأبحاثِ العلميةِ التي تخدمُ الدراساتِ اللغويةِ من جهة ، والقرآنية من جهة أخرى ، عَبرَ تطبيقِ الجانبِ الصوتي على جَميعِ حروفِ القرآنِ الكريمِ وكلماتِهِ وتَراكيبِهِ وآياتِهِ ، وصولاً

إلى كشفِ المزيدِ من مَكامِنِ الإعجازِ في هذا الكتابِ الذي لا تَنتَهي عَجائِبُه، ولا يَخْبو نورُه.

و أخيراً فإني أرفَعُ يَدَ الرجاءِ داعِياً بقولِهِ تَعالَى:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]

مُتَوَسِّلاً إليه أنْ لا يُؤاخِذَني بِما صَدَرَ عَني من خَطَلٍ في رأي، أو خطأٍ في بيان، فإنّ غايةَ ما كنتُ أبغي رِضاه، وهو مُنتَهى أمَلي في كُلِّ ما تَوَخَّيتُه وأتوخّاه. راجياً منه سُبحانه أن يُباركَ لنا جميعاً في هذا العمل، و يُثَبِّتَه في ميزانِ حسَناتي وحَسَناتِ كُلِّ مَن أعانَني عليه، أو كانَ له سَهمٌ فيه مِن قريبٍ أو بعيد، وأسألُه تعالَى أن يجعلَنا من التالينَ للقرآن، العاملين به، وأن يُشَفِّعَه فينا يومَ نلقاه.

وآخِرُ دَعوانا أن الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين.

ماجد مهدي حسن النجار

اصفهان ٢٠٠٧ م



الفَصلُ الأوَّل

عِلمُ الدّلالَة

- المبحث الأوّل: ماهية الدلالة
- المبحث الثاني: مفهوم الدلالة وتطوره في التراث العربي
- المبحث الثالث: الدلالة عند المحدثين
- المبحث الرابع: موضوع علم الدلالة
- المبحث الخامس: مستويات الدرس الدلالي

الفصل الأوّل

عِلمُ الدلالـة

تمهيد

يعتبر علـم الدلالـة أو علـم المعنـى مـن العلـوم القديمـة جـداً، وهـو يـرتبط بلغـة التواصل التي صُنِّفَ على أساسها الكائنُ البشري على أنه كائن إجتماعي[1] يتفاعل مع أبناء جنسه، ويستجيب لهـم انطلاقـاً مـن رمـوز صـوتية معيّنـة، تحكمهـا ضـوابط خاصة، تم الاصطلاح عليها مسبقاً في بيئة لغوية وجغرافية محددة[2].

لكـنّ هـذا العلـم لم يكـن يومـاً مـا علمـاً مسـتقلاً بذاتـه بحيـث تكـون لـه حـدوده وأحكامه الخاصة به، بل كان مرتبطاً دائماً بعلوم أخرى يسير في كنفها ويعمل على

---

(١) اللغة والمجتمع: ٣.

(٢) عرّف ابن جني اللغة بأنّها «أصوات يُعَبِّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم» (الخصائص: ١/٣٣). ومن خلال النظر في هذا التعريف نلحظ أنه لا يبتعد كثيراً عن أحدث التعريفات، فهو يتضمن ثلاثة جوانب أساسية في اللغة، هي: الجانب الصوتي، والجانب الاجتماعي، والجانب الوظيفي (دور الكلمة في اللغة: ٢٣) و(فصول في علم اللغة العام: ١٥).

خدمتها، سواء عند العرب أم عند غيرهم من الأمم والشعوب[(١)]، فقد تناوله العلماء العرب والمسلمون في مباحثهم اللغوية والنحوية والبلاغية إضافة إلى مباحثهم في أصول الفقه والتفسير والمنطق.

وبذلك يكون علم الدلالة العربي قد بسط نفوذه على مساحة واسعة من العلوم اللغوية والشرعية التي كانت تصبّ جميعاً في هدف واحد، لتنتهي إلى نتيجة واحدة هي فهم القرآن الكريم، والوقوف على معانيه الدقيقة، واستكناه إعجازه البياني.

فعلم الدلالة العربي أو دراسة العرب للمعنى يُعَدُّ غاية تلك العلوم الأساسية، وإنه ليقف على القمة من تلك العلوم جميعها وليس على قمة الدراسات اللغوية فقط، وهو وإن كان فرعاً من فروع علم اللغة الحديث إلا أنّ ولادته عند العرب كانت نتاجاً طبيعياً لذلك التحاور الذي كان قائماً بين «المنطق وعلوم المناظرة وأصول الفقه والتفسير والنقد الأدبي والبيان»[(٢)].

أما علم الدلالة عند غير العرب فقد درس الهنود موضوعَ الدلالة في كتابهم الديني (الفيدا) الذي يُعَدّ منبعاً للدراسات اللغوية والألسنية، فقسموا دلالات الكلمات ــ بناءً على الأصناف التي تشكل عالم الموجودات عندهم ــ إلى أربعة أقسام[(٣)]، هي:

١ـ قسم يدل على مدلول عام أو شامل (مثل لفظ: رجل).

٢ـ قسم يدل على كيفية (مثل كلمة: طويل).

٣ـ قسم يدل على حدث (مثل الفعل: جاء).

٤ـ قسم يدل على ذات (مثل الاسم: محمد).

أما اليونان فقد كان لهم كذلك باع طويل في دراسة المعنى، كما كان لهم «أثرهم

---

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٢٦١.

(٢) علم الدلالة عند العرب: ٥.

(٣) علم الدلالة: ١٩.

البيِّن في بلورة مفاهيم لها صلة وثيقة بعلم الدلالة، فلقد حاور أفلاطون أستاذه سقراط حول موضوع العلاقة بين اللفظ و معناه، وكان أفلاطون يميل إلى القول بالعلاقة الطبيعية بين الدال ومدلوله، أما أرسطو فكان يقول باصطلاحية العلاقة. ثم كان لعلماء الرومان جهد معتبر في الدراسات اللغوية، خاصة ما تعلق منها بالنحو، وإليهم يرجع الفضل في وضع الكتب المدرسية التي بقيت صالحة إلى حدود القرن السابع عشر»[١].

ولقد تَهيّأ لهذا العلم أن يتبلور وتكتمل صورته على يد العالم الفرنسي بريل (breal) صاحب أوّل دراسة علمية حديثة خاصة بالمعنى في كتابه الموسوم بـ (Essai de semantique) سنة ١٨٩٧. وقد كانت المبادىء والأصول التي جاء بها بريل في كتابه هذا عن الدلالة مأخوذة كلّها، تقريباً، من دراسة اللُّغات الكلاسيكية: كاليونانية، واللاّتينية، والسنسكريتية. فكان لهذا الكتاب أثره الكبير في لفت أنظار اللّغويين وعلماء الألسنيات في العصر الحديث إلى مشكلة المعنى، لتتوالى بعد ذلك المؤلفات الكثيرة والغنيّة في هذا المضمار من الدراسات اللّغوية[٢].

(١) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ١٦.

(٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٢٩١ ـ ٢٩٢.

المبحث الأوّل

١.١ ـ ماهيّة الدلالة

بالرجوع إلى أمهات المعاجم اللغوية يمكن الاسترشاد إلى المعنى الدقيق للفظ ما، ولكن عند انضمام ذلك اللفظ إلى غيره من الكلمات والحروف والأدوات فإنه يكتسب ألواناً وظلالاً إيحائية جديدة من خلال المحيط التعبيري الذي انتظم في عقده، ثم إنّ الزمن كفيل بتغيير المعنى المعجمي، ومنح اللفظ دلالاتٍ قد لا تربطه بأصله عند الوضع سوى خيوط واهية، وذلك بسبب حيوية اللغة وانفعالها بحركة التاريخ.

ولفظ (دَلَّ) كغيره من الألفاظ، مَرَّ بمراحل من التطور عبر التاريخ، انطلاقاً من استعماله اللغوي المعجمي، ومروراً باستعماله المجازي، وصولاً إلى المعنى الاصطلاحي الذي اكتسبه من خلال التداخل الحضاري والامتزاج الثقافي بين الأمم والشعوب، حيث تَمَّ اعتماده في الكتب الحديثة من قبل اللّغويين العرب.

١.١.١ ـ الدلالة لغةً

عند البحث عن لفظ (دَلّ) في المعاجم العربية نجد له معاني عديدة أخرى إضافة إلى المعنى الذي نحن بصدده. فقد جاء في معجم مقاييس اللّغة مايلي: « دلّ: الدال واللام أصلان، أحدهما: إبانة الشيء بأمارةٍ تَتعلّمها، والآخَر: اضطرابٌ في الشّيء، فالأوَّل قولهم: دلَلْتُ فلاناً على الطريق، وَالدليل: الأمارة في الشيء، وهو بَيِّنُ الدَّلالة وَالدِّلالة [بفتح الدال وكسرها]. والأصل الآخَر قولهم: تَدَلْدَل الشَّيءُ، إذا اضطرَبَ... ومن الباب دَلال المرأة، وهو جُرْأتُها في تغَنُّجٍ وشِكْلٍ، كأَنَّها مخالِفَةٌ وليس بِها خِلاف، وذلك لا يكون إلاّ بتمايُلٍ واضطراب؛ ومن هذه الكلمة: فلانٌ يُدِلُّ على

أقرانِهِ في الحرب، كالبازي يُدِلُّ على صيده. ومن الباب الأوّل قوُل الفرّاء عن العرب: أدَلّ يُدِلّ إذا ضَرَبَ بقَرَابَةٍ..»[1].

وعند الرجوع إلى مادّة (د ل ل) في لسان العرب نجد معاني أخرى تضاف إلى هذا الأصل، فقد ورد: «دلل: أَدَلَّ عليه وتَدَلَّل: انبسط. وقال ابن دريد: أدل عليه وَثِق بِمحبته فأَفْرَط عليه... ودَلَّ فلان إِذا هَدَى. ودَلَّ إِذا افتخر. والدَّلُّ: قريب المعنى من الهَدْي، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والـمَنْظر والشمائل وغير ذلك... ودَلَّه على الشيء يَدُلُّه دَلاً ودَلالةً فانْدَلَّ: سَدَّده إِليه... والدَّلِيل: ما يُسْتَدَلُّ به. والدَّلِيل: الدَّالُّ. وقد دَلَّه على الطريق يَدُلُّه دَلالة ودِلالة ودُلولة، والفتح أَعلَى؛ وأَنشد أَبو عبيد: [من الرجز] إِنِّي امرُؤٌ بالطُّرْق ذو دَلالات.

والدَّلِيل والدِّلِّيلي: الذي يَدُلُّك...والجمع أَدِلَّة وأَدِلاَّء، والاسم الدِّلالة والدَّلالة، بالكسر والفتح، والدُّلُولة والدَّلِّيلي. قال سيبويه: والدَّلِّيلى عِلْمُه بالدلالة ورُسوخُه فيها. وفي حديث عليٍّ، رضي الله عنه، في صفة الصحابة، رضي الله عنهم: ويخرجون من عنده أَدِلَّة، وهو جمع دَلِيل أَي بِما قد علموا فيَدُلُّونَ عليه الناس، يعني يخرجون من عنده فُقَهاء فجعلهم أَنفسهم أَدلَّة مبالغة. ودَلَلْت بِهذا الطريق: عرفته، ودَلَلْتُ به أَدُلُّ دَلالة، وأَدْلَلت بالطريق إِدْلالاً..»[2].

أما استعمال الكلمة مجازاً فمنه قولهم: (الدّالُّ علَى الخير كَفاعِلِه)، و(لي عَلَى هذا دلائلُ) و (تناصَرَتْ أدلَّةُ العقل، وأدلَّةُ السمع)، و (استدلَّ به عليه). و (دَلَّه علَى الصِّراطِ المستقيم): أرشَدَه إليه وسَدّدَه نحوَه وهداه[3].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، باب الدال، فصل دلّ.

(٢) لسان العرب، مادة: دلل.

(٣) أساس البلاغة: ١٣٤.

ولا يخفَى ما في النصوص المذكوره أعلاه من تغيُّرٍ دلاليٍّ طَرأ على الكلمة من الحِسيِّ إلى المعقول[١]. وهذا هو دَيدَن النظام اللغوي الذي تخضع مكوناته الدلالية لنظام العقل في التحليل والتركيب والوظيفة انطلاقاً من التطور اللّغوي الذي لا تَحدُّه حدود، ولا تحكمه ضوابط سوى المعايير الذهنية والعقلية.

وقد أورد الراغب الاصفهاني (٥٠٢هـ) في مفرداته في باب (دَلَّ) ما يُشير إلى هذا المعنى العقلي العام من دون أن يشير إلى أصله اللّغوي الحِسِّي، بقوله: «الدِّلالةُ: ما يُتَوَصَّلُ به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات، والرموز، والكتابة، والعقود في الحساب، وسواءٌ كان ذلك بقصدٍ مِمَّن يجعله دلالةً، أو لم يكن بقصدٍ، كمن يَرَى حركة إنسان فيَعلم أنه حَيٌّ. قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤]. أصل الدلالة مصدر كالكناية والأمارة، والدَّالُّ: مَن حَصَلَ منه ذلك، والدَّليلُ في المبالغة كَعالِم، وعَليم، وقادر، وقَدير، ثم يُسمَّى الدَّالُّ والدَّليلُ دِلالةً، كتَسمية الشَّيءِ بِمَصدره»[٢].

وكما هو بيِّن فإنَّ تفسير الراغب لمفهوم الدلالة فيه إشارة إلى عمومية اللفظ، وعدم انحصاره في الرموز اللغوية فقط، بل إنه، كما يرَى، ينطبق على الرموز اللغوية وغيرها[٣]. وهذا هو الجانب الذي يتميَّز فيه لفظ (الدلالة) من (المعنى) حيث يَنحصِر الأخير في الرموز اللّغوية دون غيرها.

وهذا اللّفظ أي؛ (الدلالة) وما يتضمنّه من معنىً عقليّ هو الذي رَسَى عليه

---

(١) علم الدلالة، دراسة نظرية تطبيقية: ١١.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٣) من خلال تعريف الراغب للدلالة يقسمها إلى ستة أقسام: أولها الألفاظ، ثم الإشارات، فالرموز، فالكتابة، فالحساب، وأخيراً دلالة الهيئة التي مثل لها بالآية المباركة في نبي الله سليمان ﷺ.

اللّسانيون العرب المعاصرون آخِر الأمر، فاتَّخذوه ليقابلَ مصطلح (السيمانتيك) (semantique) بالأجنبية أي؛ علم الدلالة، وهو المصطلح «الذي أطلقه العالم اللّغوي (بريل) على تلك الدراسة الحديثة، التي تَهتم بجوهر الكلمات في حالاتها الإفرادية المعجمية، وفي حالاتها التركيبية السياقية وآلياتِها الداخلية»[1].

١. ١. ٢ ـ لفظ (الدلالة) في القرآن الكريم

بعد أن استعرضنا لفظ (الدلالة) في أمهات المعاجم العربية، ووقفنا على معانيه الحسِّية والمعنوية ننتقل إلى القرآن الكريم باعتباره مادة بَحثنا الأساسية، لنطَّلعَ على معنَى هذه الكلمة فيه. فقد ورد لفظ (دَلَّ) ومشتقاته في القرآن الكريم ثماني مرات في مواضع مختلفة، وبصيغ متباينة[2]:

ورد مَرةً واحدة بصيغة الإسم، في قوله تعالى:

١ـ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٥].

ومرَّتين بصيغة الفعل الماضي، في قوله تعالى:

٢ـ ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٤].

وقوله تعالى:

٣ـ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وخمس مَّرات بصيغة الفعل المضارع، في قوله تعالى:

٤ـ ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ [طه: ٤٠].

---

(١) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ٢٣.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢٦٦.

وقوله تعالى:

٥ـ ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[طه: ١٢٠].

وقوله تعالى:

٦ـ ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص: ١٢].

وقوله تعالى:

٧ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٧].

وقوله تعالى:

٨ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠].

والمعاني التي ورد فيها لفظ (دلَّ) في الآيات الشريفة أعلاه تنسجم كلّها من حيث السياق الذي وردت فيه مع المفهوم العام الذي إنتهينا إليه في كتاب الراغب، وتشترك جميعاً في إبراز الإطار اللّغوي المفهومي لهذه الصيغة التي تعني «الإشارة إلى الشيء أو الذات سواء أكان ذلك تجريداً أم حِسّاً، ويَترتَّب على ذلك وجود طرفين: طرف دالّ وطرف مدلول»[1].

فالعلاقة بين الدّال والمدلول ـ اللّذين يُمثّلان قُطْبَي الفعل الدلاليّ ـ تبدو بارزةً جليّةً في الآية الأولى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، حيث العلاقة الدلالية بين كلٍّ من الشمس

(١) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ٢٤ ـ ٢٥.

والظلّ، فلولا أنّ «الشمسَ تطلع عليه، لَما عُرف، فإنّ الضدّ لا يُعرَف إلا بضدِّه»[١].

وقيل: معنى دلالتها عليه «أنه لولم تكن الشمس التي تنسخه لم يُعلم أنه شيء»[٢].

فالشمس تدلّ على وجود الظلّ، وعلاقتها به شبيهة بعلاقة النار بالدخان، وهو الشاهد الذي يورده علماء الدلالة مثالاً للعلاقة الطبيعية التي تربط الدّال بمدلوله، ويمكن تَمثُّل هذه العلاقة في أي صيغة أخرى.

ولقد دَلَّت دابةُ الأرضِ ـ وهي الأرضة ـ الجنَّ علَى موتِ نَبِيِّ الله سليمان× عندما وقعت في عصاه التي كان متكئاً عليها، فأكلَتها حتى خرَّ[٣]، كما ورد في الآية الثانية من الآيات المذكورة، وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤].

وللوقوف على معنى الآية بشكل دقيق، لابدَّ قبل كل شيءٍ من تعيين طرفَي الفعل الدلاليّ كما حَدَّدتْه الآية؛ فأكلُ الدابة للعصا يمثل الطرف الأول وهو الدال، فيما هيئة سليمانعليه السلام وهو ميِّت تُمثِّل الطرف الثاني وهو المدلول، ولولا وجود الأرضة (الدال) لما كان هناك معرفة بموت سليمان (دالّ عليه)[٤].

كذلك نجد طَرَفَي المعادلة الدلالية شاخصين في بقية الآيات المباركة؛ فإشارة الشيطان إلى الشجرة المنهيّ عنها، وسوقه آدم و زوجه إليها ليتناولا منها تُعَدُّ دالاً، ومفهوم تلك الاشارة الذي استقر في ذهنهما، وما ترتّب عليه يُعتبرُ مدلولاً في الآية الثالثة من قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢].وإلى نفس المعنى تشير الآية الخامسة من سورة طه، وكذلك بقية الآيات.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٢١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٩/١٩.

(٣) م.ن: ٢٢/٧٤.

(٤) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ٢٥.

وهكذا فإنَّ الآيات التي ورد فيها لفظ (دَلَّ) بصيغه المختلفة، « تشترك في تعيين الأصل اللغوي لهذا اللفظ، وهو لا يختلف كثيراً عن المصطلح العلمي الحديث ودلالته، فإذا كان معنى اللفظ (دلّ) وما صِيغ منه في القرآن الكريم يعني الإعلام والإرشاد والإشارة والرمز، فإنّ المصطلح العلمي للدلالة الحديثة لا يخرج عن هذه المعاني إلا بقدر ما يضيف من تحليل عميق للفعل الدلالي، كالبحث عن البنية العميقة للتركيب اللغوي بملاحظة بنيته السطحية، أو افتراض وجود قواعد دلالية على مستوى الذهن تكفل التواصل بين أهل اللغة الواحدة، وهو يفسر توليد المتكلم لجمل جديدة لم يكن قد تعلمها من قبل» [(١)].

ويبقى استعمال علماء العربية لهذا اللفظ (الدلالة) ومضارعه (المعنى) في كتبهم ومباحثهم اللغوية وغير اللغوية، خاضعاً بشكل أساس لظاهرتَي التطور الدلالي للألفاظ من جهة، وللمخاض العسير الذي كان يَمرّ به هذا اللفظ، باعتباره اصطلاحاً، خلال مرحلة التأسيس والتأصيل في الفكر العربي والاسلامي من جهة أخرى.

١ . ١ . ٣ ـ الدلالة إصطلاحاً

يتناول علم الدلالة العام المعنى بالشرح والتفسير، مع الاهتمام بمسائل الدلالة وقضاياها، ويدخل فيه كلُّ رمز يؤدي معنىً خاصّاً، لغوياً كان ذلك المعنى أم غير لغويٍّ مثل «الحركات، والإشارات، والهيئات، والصور، والألوان، والأصوات غير

(١) م.ن: ٢٦.

اللغوية، وغير ذلك من الرموز التي تؤدي دلالةً في التواصل الاجتماعي»[١].

وهذا التعريف عام شامل لكلِّ رمزٍ تمَّ الإصطلاح على دلالته لدَى بيئةٍ اجتماعيةٍ ما. وبناءً عليه فإنّ علم الدلالة العام يأخذ على عاتقه دراسة العلاقة بين أيِّ رمز ومعناه.

أما علم الدلالة الذي يقابل المصطلح الانكليزي (semantics) فإنه يُعَدُّ فرعاً أساسياً من فروع علم اللغة ، و«يدرس العلاقة بين الرمز اللّغوي ومعناه، ويدرس تطور معاني الكلمات تاريخياً، وتنوع المعاني، والمجاز اللغوي، والعلاقات بين كلمات اللغة»[٢]. وفي هذا التعريف إشارة صريحة إلى أنّ علم الدلالة يبحث في الدلالة اللغوية، أي العلامات اللّغوية دون سواها.

وبذلك يكون موضوع علم الدلالة هو البحث في المعنى اللغوي. وينطلق المعنى اللغوي من «معنى المفردة من حيث حالتها المعجمية، ومتابعة التطورات الدلالية، والتغيرات التي تأخذها الكلمة في السياقات المختلفة... بالاضافة إلى دراسة الأصوات، وعلاقات التركيب المؤثرة التي تُفضي إلى الدراسة التكاملية»[٣].

ولم يكتفِ الدكتور محمد السعران بأن جعل علم الدلالة أو دراسة المعنى فرعاً من فروع علم اللغة، بل اعتبره غاية الفروع الأخرى قائلاً في كتابه: علم اللغة مقدمة للقارىء العربي، أنه: «غاية الدرايات الصوتية، والفونولوجية، والنحوية، والقاموسية، إنه قمة هذه الدراسات»[٤]. في حين قصره علماء المعاجم على مجال واحد

(١) الدلالة اللفظية: ٤ ـ ٥.

(٢) معجم علم اللغة النظرية: ٢٥١.

(٣) علم الدلالة: ٨، مقدمة المترجمة.

(٤) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٢٦١.

من مجالات اهتمام علم اللغة، فهم يُعرِّفون علم الدلالة بأنّه: «ذلك الفرع من علم اللّغة الذي يقوم بدراسة المعنى المعجمي»[1].

ويدلّ هذا التعريف فيما يدلّ على أنّ علماء المعاجم إنّما ينظرون إلى علم الدلالة على انه «يختصّ بدراسة الألفاظ المفردة، دون القضايا والنظريات المختلفة التي يتناولها علماء اللغة عند دراستهم لعلم الدلالة»[2]. كما يشير التعريف إلى نظرة ضيِّقة، لم تأتِ بجديد سوى أنّها جاءت بتسمية جديدة، لدراسة قديمة معروفة، ألا وهي صناعة المعجمات، وما يرتبط بها من تصنيفٍ لكلمات اللغة وبيان معانيها العامة[3].

ومِمّا لا شكّ فيه أنّ المعجم يشارك بنصيب كبير في توضيح الدلالة، إلاّ أنه ليس المرجع الوحيد الذي يتم الرجوع إليه لمعرفة المعنى. فهناك مستويات عديدة من الدرس اللّغوي تشارك كلّها مجتمعة إلى جانب المعنى المعجمي في توضيح الدلالة.

ومن أهم تلك المستويات: المستوى الصوتي، أو علم الأصوات، حيث تشكل الأصوات بنية الكلمة، ولَبِنَتها الأساسية. وتَبايُنُ كلمتين متشابِهتين في صوت واحد كفيلٌ بتغيير المعنى. كما هو الحال في الفرق بين (هَزَّ) و (أزَّ) في قوله تعالى:

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

و ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

فالهمزة والهاء لفظان متقاربان، وقد خُصَّ الشياطين بالهمزة؛ لأنّها أقوى من الهاء، و(الأزّ) أعظم في النفوس من (الهزّ)[4].

---

(١) (zgusta, manual of lexicography, p.٢٣.) نقلاً عن: الكلمة دراسة لغوية معجمية: ١٢٩.

(٢) م.ن: ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٣) دراسات في علم اللغة: ١٥٣.

(٤) الخصائص: ١٤٦/٢.

وتتعدد جوانب المستوى الصوتي في أبعاده الدلالية ليشمل صوراً مختلفة، وظواهر متنوعة، منها: تَغَيُّر المعنى الذي يمكن أن يتركه نوع النبر في الكلمة، أو طبيعة التنغيم في الجملة. وهو ما سنأتي عليه في حينه إن شاء الله.

ويشارك المستوى الصرفي إلى جانب المستوى الصوتي، في توضيح الدلالة أو تحديدها. وكثيراً ما يتداخل هذان المستوَيان معاً، فيصعب تفكيك أحدهما عن الآخر، ذلك أنّ الكلمة تتأثر تأثراً كبيراً بصيغتها الصرفية، القائمة أساساً على قوالب صوتية خاصّة. ومن أمثلة ذلك ما ذكره سيبويه عن المصادر التي جاءت على وزن الفَعَلان بأنها «تأتي للاضطراب والحركة، نحو النَّقَزان، والغَلَيان، والغَثَيان. فقابَلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال»[1].

وهذه الدلالة التي نقلها ابن جني عن سيبويه بهذا المثال (الفَعَلان) إنما هي دلالة صرفية خاصة، وهي كما يبدو «دلالة زائدة على دلالة المصدر الأساسية»[2].

ويشارك المستوى النحوي بدور كبير في توضيح الدلالة، وهو غير بعيد عن المستوى الصوتي أيضاً، لأنّ القواعد النحوية تقضي بترتيب الألفاظ وفق نظام خاص. فإذا تغيّرَ ترتيب الألفاظ، ولم تكن هناك قرينة معينة، تَغَيَّرَ المعنى. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]. فالواو التي تسبق ﴿رَسُولُهُۥ﴾ لا يمكن أن تكون عطفاً على المشركين بأيِّ حالٍ من الأحوال. وإنما لابد أن تكون عطفاً على«المنوي في ﴿بَرِيٓءٌ﴾ ، أو على محل (إنّ) المكسورة واسمها. وقُرِئ: بالنصب عطفاً على اسم (إنّ)، أو لأنّ الواو بمعنَى مع أي: بريء معه منهم، وبالجر

(١) م.ن: ١٥٢/٢.

(٢) علم الدلالة، دراسة نظرية تطبيقية: ٤٢.

على الجوار. وقيل على: القسم، كقوله: لعمرك»[1]. وهذا موضوع واسع.

إضافةً إلى المستويات الآنفة الذكر، هناك المستوى السياقي أيضاً. فالظروف التي تحيط بالكلمة أو الجملة، سواء أكانت ظروفاً مقالية أم مقامية من شأنِها تغيير المعنى، ونقله إلى مجال آخر، بعيداً عن المجال المعجمي. فكلمة (ضَرَبَ) تعني في المعجم شيئاً، ولكنها في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ تعني شيئاً آخر. و(أتَى) فعل ماضٍ، ولكنّه في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] ليس فيه ما يدلُّ على المُضِيِّ، بل إنه لَيَدلُّ دلالةً قطعيّةً على المستقبل بالقرينة السياقية اللّفظية في قوله تعالى بعده: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾

كل هذه المستويات تشترك مجتمعة في توضيح دلالة الألفاظ والتعابير والجمل. وليس بالإمكان الاستغناء عن أيٍّ منها لدى تحليل أيِّ نَصٍّ من النصوص. ولهذا مررنا عليها سراعاً تتميماً لتعريف علم الدلالة، وسنتناولها بالتفصيل لاحقاً، بإذن الله تعالى.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢/٢٤٥.

المبحث الثاني

١. ٢ ـ مفهوم الدلالة وتطوره في التراث العربي

كان العرب أمة لا تمتلك من أسباب العلم والحضارة سوى البيان والأدب، وبخاصة الشعر الذي كان كلّ ما يَشغلهم يصُبُّ فيه، وجُلُّ ما يهمُّهم يدور حواليه. فلم يكن لهم عِلم أعلم منه[١]، وكان الشعر ـ بحقّ ـ ديوانَهم[٢] الأوفَى، وقِدحَهم المعلّى، به يفخرون، وإليه يتسابقون، ومن بيانه وحِكَمه يَقبسون[٣]، ولكنهم سرعان ما انصرفوا عنه ـ أو كادوا ـ إلى منهل أصفَى، ومنبع أعذب وأوفَى، نزلَ على محمدٍ الأمين ﷺ، المبعوث رحمةً للناس أجمعين، مبشراً ونذيراً بلسانٍ عربيٍ مبين. فَبَهَرَ عقولَهم حكمُه، وأخذَ بجنانهم بيانُه وعلمُه، فغدت تلك الآيات المعجزات موضعَ اهتمامهم، وشغلَهم الشاغل، به يتغنّون[٤]، ومن معينه الذي لا يَنضَب يَنهَلون.

---

(١) من عبارة شهيرة للخليفة الثاني عمر بن الخطاب يقول فيها: «الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه» (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٢٧).

(٢) «الشعر ديوان العرب» عبارة مأثورة عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٣٠).

(٣) قال رسول الله ﷺ: «إنّ من البيان لسحراً، وإنّ من الشعرِ لحكمة» (زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ٣٩).

(٤) كان العرب في الجاهلية وحتى قبيل الاسلام يتغنّون بأشعارهم، قال حسّان بن ثابت شاعر الرسول

«تغنَّ بالشعر إما كنت قائله ... إنّ الغناءَ لهذا الشعر مضمارُ»

(العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٢/ ٣١٣). ولما نزل القران الكريم فيما بعد، وجد المسلمون فيه ضالتهم المنشودة، فأخذوا يتغنّون به ويُزَيِّنون به أصواتهم آناء الليل وأطراف النهار، عملاً بقول رسول الله ﷺ: «زيِّنوا القرآنَ بأصواتكم» (الموضح في التجويد: ٦٩).

ثم إنّ تَدبُّرَ العرب للقرآن الكريم أيقظهم من سباتهم العميق، وفتحَ لهم آفاق العلم والمعرفة على كل صعيد، كانت جميعها تصبّ في خدمة هذا الكتاب العزيز، حتى غَدا محوراً تدور حوله جميع دراساتهم، وبحوثهم، وعلومهم.

وبما أنّ فهم القرآن الكريم بِحَدِّ ذاته يُعَدُّ بُعداً دلالياً، فليس من المبالغة القول بأنّ جميع المعارف والعلوم التي دُوِّنت بعد الإسلام، كاللغة والنحو والبلاغة والمنطق والفلسفة وأصول الفقه، بَله العلوم المتصلة اتصالاً وثيقاً بالقرآن الكريم، كان الهدف من سبر أغوارها، و تأصيلها جميعاً، إنّما هو كشف الأبعاد الدلالية المختلفة للنصّ القرآني، والوقوف على مضامينه ومعانيه. وبذلك يكون علم الدلالة هو غاية العلوم والمعارف التي أنتجتها الحضارة العربية والاسلامية.

وقد اهتم العرب والمسلمون بالقضايا الدلالية شأنهم في ذلك شأن الأمم الأخرى، فبلغوا في ذلك مبلغاً كبيراً، أصبح بلا شك منبعاً، اغترف منه الباحثون المعاصرون من العرب وغيرهم، واستعانوا به في إرساء أسس هذا العلم، وتقعيد أصوله وضوابطه.

لكنّ مباحث الدلالة في التراث العربي لم تُدرس ضمن إطار واحد، بل تقاسَمَتْها ميادين العلم المختلفة التي تناولها العرب والمسلمون، فتوزَّعت مطالبه فيها. ولا عجب في ذلك، طالما كان الهدف من الخوض في جميع تلك الميادين واحداً، لا غير، وهو فهم كتاب الله، وبلوغ مقاصده ومراميه.

و فيما يلي استعراضٌ لدور العلماء العرب والمسلمين، على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، في تحديد معالم مصطلح الدلالة منذ مطلع الحركة العلمية في العالم الاسلامي.

١. ٢. ١ ـ مفهوم الدلالة عند اللغويين والنحاة

نشأت الحركة اللغوية العربية نشأةً دينيةً بحتة، فقد دارت حول القرآن الكريم، وكان علماء الدين هم واضعو لبناتها الأساسية، حيث «اتصل الدّين باللغة اتصالاً وثيقاً في العصور الإسلامية كلها، وكان الباعث على اهتمام علماء اللغة بجمع الشواهد اللغوية، وتقعيد اللغة باعثاً دينياً، وهو ضبط نصوص القرآن الكريم، وتعليم الطلاب لغة القرآن.

وجرت مناهج التعليم منذ أقدم العصور الإسلامية على المزج بين المعارف الدينية و اللغوية... ومِنْ ثَمَّ كان اللّغوي غالباً رجلَ دِيْنٍ، ولا ترى عالماً من علماء اللغة القدامى إلاّ كان مُقْرِئاً أو مفسِّراً أو مُحَدِّثاً أو متكلِّماً أو فقيهاً»[1]. ولعل أوّل أولئك اللغويين الفقهاء والمفسرين هو الصحابي الجليل عبد الله بن عباس.

١. ٢. ١. ١ ـ عبد الله بن عباس(ت ٦٨هـ)

كانت تستعصي على الكثير من الصحابة، وحتى الكبار منهم، معاني بعض المفردات القرآنية. وقد روت بعض المصادر أنّ الخليفة الأوّل أبا بكر الصديق سُئِلَ عن معنى (الأبّ) في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١] فقال: «أيُّ أرضٍ تُقلّني؟! أو أيُّ سَماءٍ تُظلُّني؟! إذا قلتُ في كتابِ اللهِ بِما لا أعلم»[2]. لذا كان يلجأ الصحابة إلى أهل العلم من أقرانِهم، ليُفسِّروا لهم ما غَمَضَ من مفردات كتاب الله.

وكان الصحابي الجليل عبد الله بن عباس من أولئك الذين يُصار إليهم لهذا الغرض. وهو يُعَدّ أول مَن فسّر مفردات القرآن الكريم تفسيراً لغوياً. فقد كان تلميذاً

(١) المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية: ١٠٢.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٢٧١/١٣.

نابِهاً من تلامذة الإمام علي عليه السلام، فتعلّم على يديه الكثير من هذا العلم. وقد استجاب الله لدعاء رسوله الكريم صلى الله عليه وآله حيث قال فيه: «اللّهم فَقِّهه في الدين وعَلِّمه التأويل»[١].

وكان ابن عباس أوّل من علّم القرآن واشتغَلَ في تفسيره وبيان غريب ألفاظه ومعانيه بالبصرة[٢]. ولذلك عُدَّ أول اللغويين، كما عُدَّ من أوائل المفسرين. فقد رُوي عنه العمل في مجال اللغة، فيما يتعلّق بتفسير مفردات القرآن الكريم وبيان دلالاتها. وكتاب (اللغات في القرآن) برواية ابن حسنون المقرئ (ت ٣٨٦هـ) مرفوع فيه الإسناد بجملته إليه[٣]. وهذا الكتاب عنَى بتفسير معاني الألفاظ القرآنية الواردة بلغات القبائل العربية المختلفة، مشيراً إلى ثمانية وعشرين قبيلة عربية منها؛ قريش وهذيل وكنانة والأوس والخزرج وخثعم وقيس عيلان وغيرها.كما دَلَّ على اللغات الأجنبية التي وافقت العربية، مما ورد في كتاب الله، كبعض لغات الفرس والنبط والحبشة والقبط والروم والعمالقة، وكذلك اللغات السريانية والعبرية.

ومن أمثلة ما أورده قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣] والسّفيه: الجاهل بلغة كنانة. وقوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] يعني: (بعد نسيان) بلغة تميم وقيس عيلان. وقوله تعالى: ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ [الكهف: ٩] الرقيم: الكلب بلغة الروم.

وفي ذلك كله دليل على سعة علم عبد الله بن عباس، وإحاطته بلهجات العرب،

---

(١) النهاية في غريب الاثر: ٣/٤٦٥.

(٢) البيان والتبيين: ١/١٧٥.

(٣) حققه الدكتور صلاح الدين المنجِّد، وطُبع في بيروت ـ لبنان سنة ١٩٧٢م.

ولغات الأمم المجاورة لهم، إضافةً إلى إلمامه بأشعارهم وعنايته بها. ولعله كان أول من فتح باب الاستشهاد بالشعر في تفسير القرآن الكريم. فكان إذا سُئل عن شيءٍ من القرآن أنشد فيه شعراً. وقد أُثِرَ عنه قوله المعروف: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإنّ الشعرَ ديوانُ العرب»[١].

والأسئلة التي وجّهها نافعُ بن الأزرق (ت٦٥هـ) لابن عباس، وأجوبته عليها بشواهد من أشعار العرب مشهورة ومعروفة[٢]. ولقد أورد المفسرون كثيراً من شواهده الشعرية تلك خلال تفسيرهم للآيات القرآنية، ومن أمثلة ذلك أنه سُئلَ عن قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] فقال: لا تلبس ثيابك على غدر، وتَمثّل بقول غيلان الثقفي: [من الطويل]

فَإني بِحمدِ اللهِ لا ثَوبَ غادرٍ لَبِسْتُ وَلا مِن سَوءَةٍ أَتَقَنَّعُ[٣]

وبهذا يكون ابن عباس قد وضع اللّبنات الأولى لأوّل مدرسة في التفسير، اعتمدت على توضيح معاني غريب مفردات القرآن و تبيين دلالاتها، من خلال معرفته بلغات القبائل العربية، ولغات الأمم المجاورة لها، وبالإستعانة بأشعار العرب.

ولقد توالت فيما بعد المؤلفات التي سارت على نهجه فيما عُرفَ بكتب غريب القرآن، وخاصة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، لكن أغلب تلك الكتب فُقِدَ. ومِمّا وصل إلينا منها: كتاب (غريب القرآن) لابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)[٤].

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٣٠.

(٢) جمع الدكتور ابراهيم السامرائي تلك الأسئلة والأجوبة في كتاب بعنوان: (سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس)، وطبع ببغداد سنة ١٩٦٨م.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٥.

(٤) حققه أحمد صقر، وطبع بدار إحياء الكتب العربية، بالقاهرة، سنة ١٩٥٨م.

وكتاب (نزهة القلوب في تفسير علام الغيوب) لأبي بكر السجستاني (ت٣٣٠هـ)[١]. وفي القرن الخامس الهجري وضع الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢ هـ) كتابه المسمّى (المفردات في غريب القرآن)[٢]، وقد رتَّبه على حروف المعجم. وفي القرن السادس الهجري ألف أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)كتابه تذكرة الأريب[٣]. وفي القرن الثامن الهجري وضع أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) كتابه الشهير (تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب)[٤]. وهكذا استمر التأليف في غريب القرآن حتى عصرنا الحاضر.كما ظهرت إلى جانب ذلك أيضاً كتب تحمل عنوان (لغات القرآن) لمؤلفين كبار مثل الفرّاء (ت٢٠٧هـ)، والأصمعي (ت٢١٣هـ)، والقاسم بن سلام (ت٢٢٣هـ).

١. ٢. ١. ٢ ـ أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ)

إلى جانب الإهتمام الذي حَظِيَت به المفردات والألفاظ، على المستوى الدلالي، بَرَز هناك اهتمام آخر، أخذ يوازيه ويتفوّق عليه، وهو الإهتمام بتركيب الجملة العربية، وذلك لما له من أهمية كبيرة في تحديد الدلالة وتبيين المعنى. وقد كثرت الدواعي لمثل هذا الاهتمام ــ الذي قاد إلى نشوء علم النحو ــ منها تفشي اللحن في المجتمع العربي، بسبب كثرة اختلاط العرب بالأعاجم.

وقد بلغ شيوع اللحن درجة كبيرة، بحيث بدأ يتسرّب إلى بيوت علماء العربية

---

(١) تم طبعه عدة مرات، منها طبعة عام ١٩٣٦م، بإشراف مصطفى عناني.

(٢) طبع مرات عديدة، وأحدثها الطبعة التي حققها محمد خليل عيتاني، عن دار المعرفة، ببيروت، عام ٢٠٠٥م

(٣) حققه علي حسين الغرب، ونشرته مكتبة المعارف بالرياض، ط١، عام ١٩٨٦.

(٤) نشره محمد بن سعيد بن مصطفى الوردي النعساني بحماة عام ١٩٢٦ ثم طبع ببغداد عام ١٩٧٧.

الكبار أنفسهم. ولا أدلّ على ذلك من القصّة التي ترويها كتب اللغة والأدب عن ابنة أبي الأسود الدؤلي عندما تحدثت مع أبيها فأنشأت قائلة: «يا أبَتِ ما أشدُّ الحرِّ! على لفظ الاستفهام. فقال لها: أي بُنيّة؛ وغُرَةُ القيظ ومَعمَعان الصّيف. فقالت له: إنّما أتعجّبُ منه. فقال لها: قولي: ما أشَدَّ الحرَّ!»[1]. فقد نتج عن اللحن في الحركة الإعرابية لَبْس في المعنى بسبب ما ترتّب عليه من تغيُّر دلالي. وكان ذلك مدعاةً إلى وضع قواعد العربية.

ويُروى أنّ الإمام علياً عليه السلام هو أول من فعل ذلك، وأنّ أبا الأسود كان قد استنار بِهديه في وضع أصول العربية، وذلك عندما دخل على الإمام ووجد في يده رقعةً، فسأله عنها، فقال الإمام عليه السلام: إني تأمّلت كلام العرب فوجدته قد فَسَدَ بِمخالطة هذه الحمراء، يعني الأعاجم، فأردتُ أن أضع شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه، وإذا في الرقعة: الكلام كلّه: اسم وفعل وحرف، فالإسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أُنبِئ به، والحرف ما أفاد معنى. يقول أبو الأسود: فقال لي: أنحُ هذا النحو، و أضف إليه ما وقع إليك[2]. وقد كانت هذه الحادثة الخطوة الأولى على طريق وضع أصوال وضوابط النحو العربي الذي به تُعرَف صحّة التراكيب ودلالاتها.

وكان مِمّا قام به أبو الأسود كذلك أنه وضع الحركات والعلامات الإعرابية للمصحف الشريف[3]، ومحاولة نقط المصحف وإعجامه يراها البعض خطوةً أوّلية في سبيل النحو تتمشّى مع قانون النشوء. يمكن أن تأتي من أبي الأسود[4].

---

(١) طبقات النحويين واللغويين: ١٤.

(٢) م.ن: ٨.

(٣) مراتب النحويين: ٢٩.

(٤) ضحَى الإسلام: ٢٨٦/٢.

كما انّ الحركات القصيرة، وخاصة تلك التي تظهر على أواخر الكلمات، تُعَدّ مؤشِّراتٍ دلاليةً لا يمكن الاستغناء عنها في الجملة العربية. ومن هنا كان عمل أبي الأسود هذا يحمل في طياته دلالاتٍ في التراكيب اللغوية تؤدي وظائف نحوية تمثل أبواباً معروفة في الدرس النحوي العربي. فإنّ الضّمة «تمثل بابَ المرفوعات ومنه الدلالة على الفاعلية في التركيب الفعلي، والمبتدئية أو الخبرية في التركيب الاسمي، وإنّ الفتحة تمثل بابَ المنصوبات، وأنها تدل إما على المفعولية بشتى أنواعها، أو تدل على الهيئة كالحال أو النوع أو العدد كما هو الحال في المصادر، وإنّ الكسرة تمثل الدلالة على المجرورات والإضافة والإتباع»[1].

وهكذا نجد أن النحو العربي كان قد وُضع بالأساس صوناً للسان من الوقوع في الزلل والخطأ، ولكننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن ننفي العنصر الدلالي عنه، فالترابط بين الوظيفة النحوية والدلالية في الجملة العربية يحكمه عامل التأثير والتأثر، فدلالة الجملة تحكم القانون النحوي، والقانون النحوي يضبط دلالة الجملة، وإذا اختلّ أحدهما اختلّ الآخر.

١. ٢. ١. ٣ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)

يُعَدُّ الخليل بن أحمد من أعاظم مَن أنجَبَتهم أمة الإسلام. فقد خرج عليهم بعلوم جديدة لم يُسبَق إليها، كما أصّل ما كان قائماً قبله من العلوم والمعارف. ورغم أنه لم يترك لنا كتاباً مدوّناً يحوي نظراته الدلالية النحوية واللغوية، إلا أنّ تلامذته لم ينسوا له خدماته، فأشاروا إليها ودوّنوها، كما فعل سيبويه في الكتاب. أما أهمّ جهوده الدلالية فيمكن تحديدها في المسائل التالية:

---

(١) الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية: ١٨.

١. ٢. ١. ٣. ١ ـ المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله

كان الخليل أول من تطرّق إلى وجود العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله. فقد رُوي عنه بخصوص التّمييز الدلالي بين استعمال (صَرّ صَريراً للجُندُب)، و(صَرصَر صَرصَرةً للبازيّ)، قوله: «كأنهم تَوهَّموا في صوت الجندب استطالةً ومداً، فقالوا: صرّ. وتوهَّموا في صوت البازيّ تقطيعاً، فقالوا: صرصر»[١] فقابلوا بتوالي حَرَكات المثال توالي حَرَكات الأفعال.

وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل، تدلّ على آراء الخليل و نظراته العميقة في الحقل الدلالي، نجدها مبثوثةً في كتب فقه اللغة التي دُوِّنَت بعدَه بقرون. فالخليل يُعدّ بِحقّ رئيس المدرسة اللغوية التي نُسبت فيما بعد إلى ابن جني، وأستاذه أبي على الفارسي «وهو الذي مهّد لهذه المدرسة السبيل إلى دراسة اللغة على أساس هذا المبدأ اللغوي القائم على أساس من حكاية اللغة للأصوات، ووجود المناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومدلولاتها، ولا أظن ما جاء به أبو علي وتلميذه إلاّ شرحاً لما قاله الخليل، وتفصيلاً لما أجمله.

وليست فكرة الإشتقاق الكبير القائم على أساس التقاليب المختلفة للكلمة إلا تطبيقاً للفكرة التي أجملها الخليل، وهي تشير بوضوح إلى أنّ دلالة اللفظ على معناه إنما تقوم على ما للأصوات من دلالة وحكاية للمسموع من أصوات الطبيعة والإنسان والحيوان»[٢].

وهكذا تَميّزت نظرات الخليل بالجدّة والابتكار، ليس في الجانب اللغوي فحسب، بل في جوانب أخرى تَمس صميم الحقل اللغوي كمبحث الأصوات الذي سنأتي على ذكره في حينه.

---

(١) الخصائص: ١٥٢/٢.

(٢) الفراهيدي عبقري من البصرة: ٥٦.

١. ٢. ١. ٣. ٢ ـ معجم (العين)

يُسَجّل للخليل أنّه وضع أول معجم جامع للعربية هو (العين)[١]، ويتميّز هذا المعجم عن غيره بميزتين: إحداهما: اعتمد فيه الخليل فكرة التقاليب المختلفة للكلمة أساساً في عمله. وكان من حسنات هذه الطريقة أنّه استطاع أن يضبط ويحصر جميع ما يمكن أن يتألّف من اجتماع الأصوات العربية من مفردات وألفاظ. فأثبت المستعمل (الدّال) منها، والمهمل (غير الدّال)، والميزة الثانية أنه تناول اللغة من القاعدة وليس من القمة.

وقد بدأه الخليل «بدراسة الأصوات (الحروف) التي تتألف منها مفردات اللغة، ليعرف مواقع تلك الأصوات من جهاز النطق، ويقف على خصائصها، وما يترتّب على تآلفها وتجاورها، واستطاع بذلك أن يفسِّر ظواهر لغوية لم تكن لتُفهم بدون فهم سابق لطبيعة الحروف وتفاعلها بتجاورها وتمازجها»[٢]. وهو بذلك يكون قد أسّس لفهم دقيق لمفردات العربية ودلالاتها.

١. ٢. ١. ٣. ٣ ـ العلامات الإعرابية

أكمل الخليل ما بدَأه أبو الأسود من نقط الإعراب. فبعد أن أتَمّ الأخير مهمته بنجاح، جاء من بعده تلميذه نصر بن عاصم (ت٨٩هـ) و وضع نقط الإعجام، بهدف حفظ القرآن من التصحيف، لخلوّ المصحف آنذاك من نقط الحروف. فأدّى تشابه نقط الإعراب و الإعجام إلى وقوع البعض في الخطأ عند تلاوة القرآن الكريم،

(١) حققه الكرملي، وطبع ببغداد عام ١٩١٣م. ثم قام بتحقيقه كل من مهدي المخزومي و ابراهيم السامرائي، وصدر عن وزارة الثقافة والاعلام العراقية ببغداد.

(٢) الفراهيدي عبقري من البصرة: ٣٥.

«فاهتدَى الخليل بن أحمد إلى أن يغاير بين نقط الإعجام ونقط الإعراب، فأبدل نقط الإعراب الذي وضعه أبو الأسود بِجرّات أسفل وأعلى الحرف للدلالة على العلامة الإعرابية... وهكذا جَعلَ صنيعُ الخليل بن أحمد القرآنَ منقوطاً نقط إعجام، ومشكولاً بعلامات الإعراب»[1] المعروفة، والتي انتقل استعمالها كذلك من كتابة المصاحف إلى الكتابة العربية بصورة عامة.

١.٢.١.٤ ـ سيبويه (ت١٨٠هـ)

كان الدرس اللغوي والنحوي قد نضج على يد الخليل بن أحمد، ثم اكتملت أصوله وفروعه في كتاب سيبويه. وتكاد الرؤية الدلالية تبدو واضحة في كثير من أبواب كتابه. وهو في ذلك يكاد يسير على خطَى أستاذه الخليل. ويمكن إجمال رؤيته الدلالية في ثلاث مجالات هي: دلالة الألفاظ ودلالة الصيغة الصرفية ودلالة التركيب النحوي.

١.٢.١.٤.١ ـ دلالة الألفاظ

فيما يَخصّ العلاقة بين اللفظ ومدلوله، واختلاف الألفاظ وتباينها من خلال بعدها الدلالي، كان سيبويه أول من سبق إلى التنظير في هذا المجال، حين أفرد باباً سَمّاه (هذا باب اللفظ للمعاني)، قال فيه: «اعلمْ أنّ من كلامهم اختلافَ اللّفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللّفظين والمعنَى واحد، واتفاق اللّفظين واختلاف المعنيين.. فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلسَ وذهبَ. واختلاف اللّفظين والمعنَى واحد نحو: ذهبَ وانطلقَ. واتفاق اللّفظين والمعنَى مختلف قولك: وجدتُ عليه، من

(١) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ١٠.

الموجدة، ووجدتُ إذا اردتَ وجدان الضّالّة»[(١)] [(٢)].

جدول رقم (١ ـ ١)

التركيب	اللّفظان	المعنَيان
- جلس - ذهب	اختلاف	اختلاف
- ذهب - انطلق	اختلاف	اتفاق
- وجدتُ عليه - وجدتُ الضّالة	اتفاق	اختلاف

فإن حصَل الاتفاق بين لفظين فلا يعني ذلك أنه حاصلٌ معنًى، وإن حَصَل بين معنيين فلا يعني ذلك أنه حاصل لفظاً. وكلام سيبويه هذا ينهض على ضرب من التقليب يشمل علاقة اللفظ بالمعنى في إطار الكلمتين اتفاقاً واختلافاً. وهو بذلك لم يخرج في تحرّيه عن روح المنهج الرياضيّ الذي اعتمده شيخه الخليل فيما يتعلّق بتوليد الكلم[(٣)].

كما أنه في عمله هذا يكون قد أسّس لما عُرف فيما بعد، ضمن مصطلحات فقه اللغة العربية بالمختلف، والمترادف، والمشترك اللفظي، والتضادّ، مِمّا يدخل في حَيِّز

(١) الكتاب: ١٥/١.

(٢) يُنظر: الجدول رقم (١ ـ ١) الذي يوضح نظرة سيبويه إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى.

(٣) قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب: ١٧٨/١.

التمييز الدلالي بين الألفاظ ومعانيها. فقد فَتَحَ سيبويه الباب واسعاً لمن جاؤوا بعده فدوّنوا كتباً كثيرةً تناولت هذه الموضوعات، وذلك قبل أن تأخذ هذه المصطلحات طريقها إلى الاستعمال[١].

١. ٢. ١. ٤. ٢ ـ دلالة الصيغة الصرفية

هناك في كتاب سيبويه ما يشير إلى العلاقة الوثيقة بين الجانب الصرفي والجانب الصوتي، بحيث لا يُمكن الفصل بينهما. ومن ذلك ما ذكره في باب (فَعْلَان) ومصدره وفعله، ودلالة هذا الباب على معنى خاص. فهو يقول: «أمّا ما كان من الجوع والعطش، فإنَّه أكثر ما يُبَنى في الأسماء على فَعْلان، ويكون المصدر الفعل، ويكون الفعل على فَعِلَ يَفْعَل، وذلك نحو: ظَمِئَ يَظْمَأ ظَمَأً وهو ظَمْآن، وعَطِش يَعْطَش عَطَشاً وهو عَطْشَان»[٢] [٣].

(١) من الكتب الأولى التي دونت في هذا المجال بعد سيبويه بوقت قصير، منها في حقل الترادف، كتاب (ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه) للأصمعي(ت٢١٧هـ) حققه: ماجد حسن الذهبي. وطبع بدار الفكر بدمشق، عام ١٩٨٦م. وفي حقل المشترك اللفظي، كتاب (المأثور فيما اتفق لفظه واختلف معناه) لابن الأعرابي (ت٢٤٠هـ)، حققه حديثاً محمد عبد القادر أحمد، وطبع بالقاهرة، عام ١٩٨٨م. وفي حقل التضاد، كتاب (الأضداد) لقطرب (ت٢٠٦هـ)، حققه حنّا حدّاد، وطبعته دار العلوم بالرياض عام١٩٨٤م.

(٢) الكتاب: ٢/٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٣) يُنظر: الجدول رقم (١ ـ ٢).

جدول رقم (١ ـ ٢)

الصيغة الصرفية	الدلالة	المثال
فَعْلَان	صفة إنسانية غير ثابتة	عَطِش يَعْطَش عَطَشاً، هو عَطْشَان

كما سجّل ابن جني لسيبويه قوله «في المصادر التي جاءت على وزن فَعَلان أنها تأتي للاضطراب والحركة نحو النّقَزَان والغَلَيان والغَثَيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال»[١][٢].

جدول رقم (١ ـ ٣)

الصيغة الصرفية	الدلالة	المثال
فَعَلَان	الإضطراب والحركة	القَفَزَان / الغَلَيان / والغَثَيان

وفي كلا المثالين أعلاه إشارة إلى موضوع المناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومدلولاتها. وهو الموضوع الذي سبق أن تناوله الخليل بن أحمد فوافقه عليه تلميذه سيبويه.

١ . ٢ . ١ . ٤ . ٣ ـ دلالة التركيب النحوي

أما ما ذكره سيبويه في باب الإستقامة والمحال من الكلام فإنه يُشير بدون أدنى شك

(١) الخصائص: ١٥٢/٢.
(٢) يُنظر: الجدول رقم (١ ـ ٣).

إلى ارتباط النحو العربي واهتمامه بالظواهر الدلالية، فهو يقسِّم الكلام إلى خمسة أقسام: فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب.

ـ **فالمستقيم الحسن**: هو الترتيب أو التعبير المألوف في اللغة نحو: (أتيتك أمس) و(سآتيك غداً).

ـ **والمحال**: هو المتناقض في الاستعمال أو نقض أوّل الكلام بآخر، نحو: (أتيتك غداً) و(سآتيك أمس).

ـ **والمستقيم الكذب**: وهو تركيب مستقيم من حيث النحو، لكنه غير ممكن الوقوع، في نحو: (حملتُ الجبل) و(شربتُ ماء البحر).

ـ **والمستقيم القبيح**: وهو وضع اللفظ في غير موضعه على الرغم من استقامته، نحو: (كي زيد يأتيك) و(قد زيداً رأيت).

ـ ثم **المحال الكذب**: وهو ما لا يتوافق مع الواقع، و فيه خروج عن منطق اللغة، نحو: (سوف أشرب ماء البحر أمس)[1][2].

---

(1) الكتاب: 1/15 ـ 16.

(2) يُنظر الجدول رقم (1 ـ 4).

<u>جدول رقم (١ ـ ٤)</u>

ت	أقسام الكلام عند سيبويه	الأمثلة
١	المستقيم الحسن	(أتيتك أمس) و (سآتيك غداً)
٢	المحال	(أتيتك غداً) و (سآتيك أمس)
٣	المستقيم الكذب	(حملت الجبل) و (شربت ماء البحر)
٤	المستقيم القبيح	(كي زيد يأتيك) و (قد زيداً رأيت)
٥	المحال الكذب	(سوف أشرب ماء البحر أمس).

وهكذا نَجد «أنّ استقامة الجملة في جميع عناصرها عند سيبويه لا تختلف عما يسمّيه المحدثون بأصولية الجملة ومقبوليتها في نظرية النحو التوليدي التحويلي الذي رائده نوم شومسكي، وعدم استقامة الجملة معناه أنَّها صحيحة قواعدياً ونحوياً ولكنها غير صحيحة دلالياً»[1].

و الدكتور الجابري لا يرى تحليلَ سيبويه في النص المذكور تحليلاً نحوياً محضاً، وإنما يراه مركباً من جهات عقلية منطقية تخص المعنى، وجهاتٍ لغويةً نحويةً تخصُّ تركيب الكلام، فيتألف من هذه الجهات البُعد الدلائلي العام للجملة في التمييز بين (ما يصحُّ) من الكلام و(ما لا يصحُّ) وبين (ما يجوز) و(ما لا يجوز) من خلال الاستعانة

(١) نشأة الدراسة الدلالية العربية وتطورها: ٥ ـ ١٦.

بمصطلحات المنطق في ترسيم قواعد اللغة وقوانينها[1].

١. ٢. ١. ٥ ـ ابن جني (ت٣٩٢هـ)

لا تكاد تَخفى مكانة ابن جني في البحوث اللغوية واللسانية على من له أدنَى إلمامٍ بالتراث اللغوي العربي، سواءٌ على مستوى التنظير والتأسيس، أو على مستوى التطبيق والتمثيل. ولولم يخرج علينا ابن جني سوى بكتابيه ؛ (الخصائص) و(سِرّ صناعة الإعراب) لكفاه بذلك فخراً، وهو يُؤسِّس للنظرية اللغوية العربية، ويقدمها للعالم بأوسع مَدَياتها، وأبهى صورها. ونكتفي هنا بذكر ما تطرّق إليه في كتابه الأوّل. لأنه في كتابه الثاني رسم بشكل مفصّل ملامح المدرسة الصوتية التي سنأتي على ذكرها في الفصل الخاص بعلم الأصوات.

أما في كتابه الأوّل فقد تناول اللغة بمستوياتها المختلفة، والتي منها المستوى الدلالي الذي يمكن ملاحظته في جميع أبواب الكتاب. وفيما يلي إشارة إلى أهم ما توصل إليه ابن جني في الحقل اللغوي والدلالي.

١. ٢. ١. ٥. ١ ـ تعريف اللغة

نبدأ مع ابن جني في تعريفه للّغة ذلك التعريف الجامع المانع، والذي يَنِمّ عن عقلية مبدعة، سبقت أوانها، وقدّمت تعريفاً تكاد تجمع الدراسات الألسنية الحديثة على تَبنِّيه. فقد عرّف اللغة بأنّها: «أصواتٌ يُعبِّر بِها كلّ قومٍ عن أغراضِهم»[2]. ومن خلال النظر في هذا التعريف نلحظ أنه لا يبتعد كثيراً عن أحدث التعريفات[3]، فهو

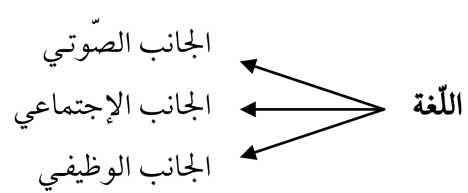
---

(١) بنية العقل العربي: ٤٧ والبحث الدلالي عند ابن سينا: ٣٩.

(٢) الخصائص: ١/٣٣.

(٣) ينظر: دور الكلمة في اللغة: ٢٣.

يتضمن ثلاثة جوانب أساسية في اللغة، هي: الجانب الصوتي، والجانب الاجتماعي، والجانب الوظيفي[١].



١.٢.١.٥.١.١ ـ الجانب الصوتي

يشير التعريف إلى الطبيعة الصوتية للغة. فالظاهرة اللغوية عند ابن جني أساسها النطق، وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه الدراسات اللغوية الحديثة التي تعنَى بالكلام المنطوق بالدرجة الأولى. وبذلك يستبعد ابن جني من يتوهّم خطأً بأن اللّغة في جوهرها ظاهرة مكتوبة[٢]. بل إنها نظام من الأصوات، تَمّ التعارف عليها من قبل مجموعة لغوية معينة، وقد استعاض بعض المحدثين عن الأصوات بالرموز[٣].

١.٢.١.٥.١.٢ ـ الجانب الإجتماعي

يتضمّن التعريف الإشارة إلى كون اللغة تَحيى في ظلّ بيئة إنسانية اجتماعية. فلكلّ قوم لغتهم الخاصة بهم، ولكل بيئة اجتماعية خصائصها اللغوية المميزة. فاللغة تكتسب خصائص تلك البيئة الاجتماعية، وتتلوّن بألوانها الثقافية والحضارية و التاريخية. والبنية اللغوية تختلف باختلاف المجتمعات الانسانية.

---

(١) فصول في علم اللغة العام: ١٥ ـ ١٦.

(٢) المدخل إلى علم اللغة: ١٠.

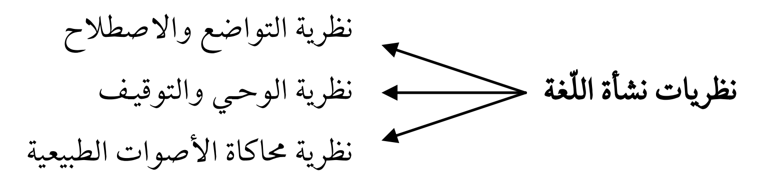
(٣) ينظر كتاب: اللغة: ٦٦ لفندريس.

١. ٢. ١. ٥. ١. ٣ـ الجانب الوظيفي

يشـير التعريـف كـذلك إلى وظيفيـة اللغـة في التعـبير ونقـل الأفكـار، مِمّـا تَـمّ الاصطلاح عليه سلفاً بين أبناء المجموعة اللغوية الواحدة، وذلك وفق أسس وضوابط ألِفوها وتعارَفوا عليها.

١. ٢. ١. ٥. ٢ـ نشأة اللغة

يتطرّق ابن جني في كتابه الخصائص لمسألة نشأة اللغة، وذلك في باب القول على أصل اللغة؛ إلـهام هـي أم اصطلاح. ويطرح على بساط المناقشة ثلاث نظريات في نشأة اللغة:



١. ٢. ١. ٥. ٢. ١ـ نظرية التواضع والاصطلاح

ذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن أصل اللّغة لا بد فيه من المواضعة. وقد عرّف ابن جني المواضعة بقوله: «وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سِمة ولفظاً، إذا ذُكر عُرف به مُسَمّاه، ليمتاز من غيره، وليُغنَى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخفّ وأسهل من تَكلُّف إحضاره لبلوغ الغرض في إبانة حاله... فكأنّهم جاءوا إلى واحد من بني آدم، فأومئوا إليه وقالوا: إنسان إنسان. فأيّ وقت سُمع هذا اللفظ عُلِم أنّ المراد به هذا الضرب من المخلوق. وإنْ أرادوا سِمةَ عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا: يد، عين، رأس، قدم، أو نحو ذلك. فمتى سُمعت اللفظة من هذا

عُرف مَعنيُّها، وهلُّم جرّاً فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف.

ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول: الذي اسمه إنسان فليُجعل مكانه (مرد)، والذي اسمه رأس فليجعل مكانه (سر)، وعلى هذا بقيّة الكلام. وكذلك لو بُدئت اللّغة الفارسية فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تُنقل، ويُولَد منها لغات كثيرة: من الرومية والزنجية وغيرهما»[1].

ويشير ابن جني إلى «أنّ أكثر أهل النظر على أنّ أصل اللغة إنّما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف»[2]، وهي النظرية الثانية التي تقف على النقيض منها.

١. ٢. ١. ٥. ٢. ٢ ـ نظرية الوحي والتوقيف

أشار ابن جني إلى أنّ أستاذه أبا علي الفارسي من جملة من يعتقدون بأنّ اللّغة إلهام وتوقيف من جانب الله عزّ وجل. ويستند أصحاب هذه النظرية إلى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. فالله سبحانه علّم آدمَ أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات، وكان آدم وولده يتكلّمون بها، ثم إنّ ولده تفرّقوا في الدنيا، وعلق كلٌّ منهم بلغة من تلك اللّغات فغلبت عليه.

ولكنّ ابن جني سرعان ما يَجنح إلى تأويل لفظ (علّم) في الآية الشّريفة، ليسقط الاستدلال بها، وذلك بقوله: «يجوز أن يكون تأويله: أقدَرَ آدمَ علَى أنْ واضَعَ عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة»[3].

---

(١) الخصائص: ١/٤٥.

(٢) م.ن: ١/٤٠.

(٣) م.ن: ١/٤١.

١. ٢. ١. ٥. ٢. ٣ ـ نظرية محاكاة الأصوات الطبيعية

أما النظرية الثالثة التي أوردها ابن جني في كتابه فيذهب أصحابها إلى أنّ أصل اللغة محاكاة أصوات الطبيعة، كأصوات الحيوان، وأصوات مظاهر الطبيعة، والأصوات التي تُحدثها الأفعال عند وقوعها. ومن ثَمّ تطوّرت الألفاظ الدّالة على المحاكاة وارتقت، بفعل ارتقاء الإنسان.

وقد عرض ابن جني لهذه النظرية بقوله: «إنّ أصل اللّغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات؛ كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك. ثم ولدت اللّغات عن ذلك فيما بعد»[1]. ويُعلّق ابن جني على هذه النظرية مبدياً إعجابه بها بقوله: «وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل»[2].

أما موقف ابن جني من هذه النظريات، فإنه بعد أن استحسن النظرية الأخيرة، وعدّها نظريةً صحيحة ومقبولة، وقف موقفاً محايداً إزاء النظريتين الأولى والثانية، وأظهر تَردّده في القبول بهما معاً قائلاً: «واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع.. وذلك أنني إذا تأمّلت حال هذه اللّغة الشّريفة الكريمة اللّطيفة وجدت فيها من الحكمة والدّقة والإرهاف والرقّة ما يَملك عليّ جانب الفكر... فمن ذلك ما نَبّه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حَذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده، وبُعد مراميه.. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنّها من عند الله عزّ وجلّ، فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه، وأنّها

(١) م.ن: ١/٤٧.

(٢) م.ن: ١/٤٧.

وحي. ثم أقول في ضِدِّ هذا.. فأقف بين تَين الخلّتين حسيراً، وأكاثرهما فأنكفىء مكثوراً»[١].

إنّ مبحث نشأة اللغة، والنظريات التي أوردها ابن جني تُعَدُّ من صميم الدرس الدلالي. فكون اللغة اصطلاحاً، أوتوقيفاً، أو محاكاةً، لا يمنع وجود العلاقة بين الألفاظ ومعانيها. فاصطلاحية اللغة تعني ترجيح لفظ على غيره، ليتمّ اتخاذه سِمةً لمسمّىً خاص، عند بيئة لغوية خاصة. أما توقيفية اللّغة[٢] فتعني وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله حاملةً للواضع، الذي هو الله سبحانه، أنْ يضع هذا اللفظ لمعناه، وإلاّ لكان تخصيص الاسم المعيّن بالمسمّى المعيّن ترجيحاً من غير مرجّح.

وأما محاكاة اللغة للأصوات الطبيعية فتعني لزوم المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومعناه من خلال محاكاته وتقليده.

---

(١) م.ن: ١/٤٧.

(٢) أشار السيوطي في المزهر إلى أنّ بعض المعتزلة «ذهب إلى أنّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع. قال: وإلاّ لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح.. وأنكر الجمهور هذه المقالة. وقالوا: لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة، ولما صَحّ وضع اللفظ للضدين؛ كالقرء للحيض والطهر، والجون للأبيض والأسود، وأجابوا عن دليله بأنّ التخصيص بإرادة الواضع المختار، خصوصا إذا قلنا: الواضع هو الله تعالى، فإن ذلك كتخصيصه وجود العالم بوقت دون وقت. وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني، لكنّ الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد أنّ عباداً يراها ذاتية موجبة، بخلافهم. وهذا كما تقول المعتزلة: بمراعاة الأصلح في أفعال الله تعالى وجوبا، وأهل السنة لا يقولون بذلك. مع قولهم: إنه تعالى يفعل الأصلح، لكن فضلاً منه ومنّاً، لا وجوباً، ولو شاء لم يفعله» (المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١/٤٠).

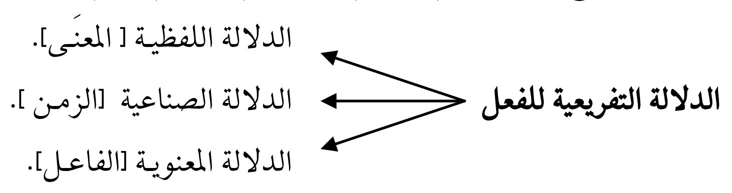
١. ٢. ١. ٥. ٣ ـ أنواع الدلالة

تنبّه ابن جنّي وهو يستعرض علاقة الصوت بالمعنى في حالتي البساطة والتركيب إلى موضوع أنواع الدلالة وتقسيماتها، فميّز بين ثلاثة أنواعٍ منها وهي: الدلالة اللفظية، والدلالة الصناعية، والدلالة المعنوية.

ثم فاضل بين هذه الدلالات الثلاث جاعلاً الدلالة اللفظية على رأسها، ثم تليها الدلالة الصناعية، فالمعنوية. يقول: «فأقواهنّ الدلالة اللفظية ثم تليها الصناعية، ثم تليها المعنوية. ولنذكر من ذلك ما يصحّ به الغرَض، فمنه جميع الأفعال، ففي كلّ واحد منها الأدلة الثلاثة. ألا ترى إلى قام و (دلالة لفظه على مصدره) ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله.

فهذه ثلاث دلائل من لفظه وصيغته ومعناه وإنّما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قبل أنّها وإن لم تكن لفظاً فإنّها صورة يحملها اللفظ، ويخرج عليها ويستقر على المثال المعتزم بها. فلمّا كانت كذلك لحقت بحكمه، وجرت مجرَى اللفظ المنطوق به، فدخلا بذلك في باب المعلوم بالمشاهدة، وأما المعنَى فإنّما دلالته لاحقة بعلوم الاستدلال، وليست في حَيِّز الضروريّات»[1].

ويمكن توضيح هذا التقسيم الدلالي لابن جنّي بالرّسم التالي[2]: .



---

(١) الخصائص: ٣/٩٨.

(٢) ينظر: علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ١٣٢.

١. ٢. ١. ٥. ٣. ١ ـ الدلالة اللفظية

الدلالة اللفظية هي الدلالة اللغوية أو المعجمية على الحدث. وقد جعلها ابن جني على رأس الدلالات الثلاثة، وذلك لأنّها «دلالة أساسية تُعَدّ جوهر المادّة اللغوية المشترك في كلّ ما يُستعمل من اشتقاقاتها وأبنيتها الصرفية»[1].

١. ٢. ١. ٥. ٣. ٢ ـ الدلالة الصناعية

قصَد ابن جني من مفهوم الدلالة الصناعية دلالة بنية اللفظ وصيغته الصرفية على معناها الزمني، وجعلها التالية للدلالة اللفظية، كما عدّها أقوى من الدلالة المعنوية وذلك لأنّ صيغة الكلمة حاملة للفظها متلبّسة به فدخلت في حكمه.

١. ٢. ١. ٥. ٣. ٣ ـ الدلالة المعنوية

إنّ من شأن الفعل تحديد سِمات فاعله الذاتية والعرَضية، وذلك من جهة دلالته. «ويعرف ذلك بطريق الاستدلال، فيتحدّد جنس الفاعل، وعدده، وحاله، ليس من الصيغة الفونولوجية للفعل بل من مؤشّرات خارجة عن الفعل»[2]. وهذه هي ذاتها الدلالة اللّزوميّة التي يلزم منها فهم معنًى لآخر[3].

إنّ ما توصّل إليه ابن جني بخصوص البحث الدلالي، وبخاصّة تقسيماته الدلالية لم تكن وليدة أفكاره الشخصيّة ابتداءً، بل سبقه إلى الخوض فيها النّقّاد والبلاغيون والمناطقة والأصوليون وغيرهم مِمّن سبقوه أو عاصروه. كما أنّ هناك الكثير من نظرائه اللغويين مِمّن ساهم في البحث الدلالي تأصيلاً وتطبيقاً. ومن هؤلاء؛ أحمد بن فارس

(١) علم الدلالة العربي: ٢٠.

(٢) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ١٣٤.

(٣) البحث الدلالي في تفسير الميزان: ٣٤.

(ت٣٩٥هـ) في كتابيه؛ (الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها)[١]، و (معجم مقاييس اللغة)[٢]. وأبو منصور الثعالبي (ت٤٣٠هـ) في كتابه (فقه اللغة وأسرار العربية)[٣] وغيرهما. و لكنّ من تطرّقنا إليهم من اللغويين كانوا قد تركوا بصماتٍ أقوى من سواهم في مجال الدلالة وخاصّة الصوتية منها، كما رأينا، لذا تَمّ الاكتفاء بذكر جهودهم فحسب.

١ . ٢ . ٢ ـ مفهوم الدلالة عند النقّاد والبلاغيين

يرتبط مفهوم (الدلالة) عند النقّاد والبلاغيين ارتباطاً وثيقاً بمصطلح (المعنى) الذي يرتبط بدوره بمصطلح (اللفظ). و ثنائية (اللفظ والمعنى) هذه التي عُبّر عنها أحياناً بصور لفظية أخرى مثل: (الشكل والمضمون) أو (الدال والمدلول) تعتبر إحدى أهم الإشكاليات اللغوية والأدبية التي شغلت العقل البياني العربي من جهة، وساهمت في تشكيله وصياغته من جهة ثانية.

ولعلّ أول ظهور لإشكالية اللفظ والمعنى كان قد بدأ عند المتكلمين عند تناولهم لمسألة (خلق القرآن) وحقيقة «كلام الله: هل هو معانٍ فقط أم إنه معانٍ وألفاظ وحروف»[٤]. ثم قيّض لهذه الإشكالية الثنائية أن تمتدّ من دائرة المتكلمين البيانية إلى دائرة النقّاد والبلاغيين، ولتأخذ حيّزاً كبيراً من الدراسات البيانية العربية.

---

(١) حققه الدكتور عمر فاروق الطبّاع، وصدرت طبعته الأولى عن مكتبة المعارف ببيروت سنة ١٩٩٣م.

(٢) حقّقه الشيخ عبد السلام هارون، وصدر عن دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٦٦هـ.

(٣) حققه الدكتور ياسين الأيوبي، وطبع عدّة مرّات، آخرها الطبعة الثالثة والأنيقة الصادرة عن المكتبة العصرية ببيروت سنة ٢٠٠١م.

(٤) بنية العقل العربي: ٦٤.

وقد كان النقّاد والبلاغيون كنظرائهم من أهل اللّغة والنحو و الفقه والكلام، يميلون بشكل واضح إلى «النظر إلى اللفظ والمعنى ككيانَين منفصلَين، أو على الأقلّ كطرفين يتمتّع كلّ منهما بنسبة واسعة من الاستقلال عن الآخر»[1]. ولكنّ هذا الانفصال لم يَنْأَ باللفظ عن وظيفته الإبلاغية، كما لم يُخرج المعنى عن طبيعته الغائية، وبقي كلّ منهما يستند إلى الآخر، ويُلقي بظلاله عليه.

وكان ظهور مسألة اللفظ والمعنى لأول مرّة عند النقاد على شكل ملاحظات عابرة في صحيفة بشر بن المعتمد (ت٢١٠هـ)، وفي البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وفي الشعر والشعراء لإبن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، كما ظهرت في كتب البلاغة المختلطة بالنقد مثل كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق بن وهب (ت٣٣٥هـ)، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)

وسرعان ما انتقلت هذه المسألة إلى بساط المناقشات البلاغية، وأصبحت من اختصاص كتب البلاغة الخالصة، حيث بَنى ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) كتابه سرّ الفصاحة على دراسة اللفظ ثم المعنى، كما خصّص عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) صفحات كثيرة من كتابه دلائل الإعجاز لإعادة مناقشة مسألة اللفظ والمعنى كما بدأها الجاحظ[2]. و الأخيران هما اللّذان سَيُكتَفَى بعرض ما قدّماه في هذا المجال.

١ . ٢ . ٢ . ١ ـ الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)

تناول الجاحظ في كتبه وخاصة في كتابيه: البيان والتبيين والحيوان كثيراً من المسائل الدلالية، فقد كان أوّل من أماط اللثام عن خبايا البيان العربي، وكشف أسرار الجمال

(١) م.ن: ٤١.

(٢) مقالات في تاريخ النقد العربي: ٤٤٨.

فيه. وفيما يلي أهم ما تفتّقت عنه قريحته في مجال البحث الدلالي.

١. ٢. ٢. ١. ١ ـ اللفظ والمعنى عند الجاحظ

تحدّث الجاحظ عن جدلية العلاقة بين اللّفظ والمعنى من خلال بيان حكم كلّ منهما، ومدى تَمايزهما بقوله: «إنّ حكم المعاني خلاف حكم الالفاظ، لأنّ المعاني مبسوطة الى غير غاية، ومُمتدّة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة»[١]. وإنما كانت المعاني مبسوطة الى غير غاية، ومُمتدّة إلى غير نهاية وذلك لأنها قائمة في الصدور، ومتصورة في الأذهان، ومتخلّجة في النفوس. وصدور الناس وأذهانهم ونفوسهم لا يمكن لها أن تضيق بالمعاني، أو تنكفئ على عدد من التصورات والأفكار. أما الألفاظ فإنها حبيسة الأصوات المألوف في لغة ما، ويمكن أن تُحاط بين دفّتي معجم أو كتاب.

ثم إنّ الألفاظ بمفردها لا يمكنها أن تحمل كلّ ما يراد من دلالات المعاني المتصوّرة، وإنّما «على قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الإختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. و كلّما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع»[٢]، فظهور المعنى لا يتوقف على وضوح الدلالة فقط، وإنّما يجب أن تسنده ثلاث قرائن أخرى هي: الإشارة والإيجاز والمدخل الدقيق.

ومن ثَمّ يُعرِّف الجاحظ الدلالة فيجعلها صنواً للبيان، أما البيان فيعرّفه بأنه كلّ ما من شأنه كشف القناع عن المعاني فيقول: «والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سَمعت الله تبارك وتعالى يمدحه يدعو اليه ويحث عليه، وبذلك نطق

---

(١) البيان والتبيين: ١/٥٥.

(٢) م.ن: ١/٥٤.

القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت وأصناف الاعجام. والبيان: اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان ذلك الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسامع إنّما هو الفهم والافهام فبأيّ شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذاك هو البيان في ذلك الموضع»[1].

وهكذا نلاحظ أنّ الوسائل التعبيرية عند الجاحظ لا تنحصر فقط بالرموز اللغوية، وإنما تشمل جميع الوسائل الممكنة التي بها ترتفع الحجب عن المعاني. وهو بهذا التنظير كان قد أرسى إحدى دعائم اللسانيات الحديثة فيما يُعرف بعلم الرموز (semiologie).

١. ٢. ٢. ١. ٢ ـ أنواع الدلالات عند الجاحظ

قسّم الجاحظ الدلالات التي بها تتم عملية الإبلاغ وانتقال المعاني إلى المتلقي إلى لغوية وغير لغوية، وجميعها عنده خمسة أنواع؛ أوّلها عنده اللفظ فالإشارة فالعقد فالخط وأخيراً الحال. يقول في ذلك: «وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الاشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال، وتسمى نصبة، والنصبة: هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات. ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ثم عن حقائقها في التفسير»[2].

وكما يبدو من النص فقد رتّب الجاحظ هذه الأصناف الدلالية الخمسة بحسب

---

(١) م.ن: ١/ ٥٤.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٥٤.

الأهمية والأولوية، وذلك باستعماله أداة العطف (ثم). وبذلك تقف دلالة اللفظ عنده على رأس الدلالات. وقد أورد أقوالاً لمن سبقوه حول أهمية المستوى البياني وعلّة تقديمه على سائر المستويات مثل قولهم: (البيان بصَر، والعيّ عَمَى)، و(البيان من نتاج العلم، والعيّ من نتاج الجهل)، و(العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم)، وقول المناطقة: (حدّ الانسان الحي: الناطق المبين)[1].

أما الرموز غير اللغوية فتتصدّرها الإشارة وتكون بأعضاء الجسم كاليد والرأس والعين والحاجب والمنكب، و غيرها كأن تكون الإشارة بالثوب وبالسّيف وقد يتهدّد رافع السّوط والسّيف فيكون ذلك رادعاً ويكون وعيداً وتحذيراً.

ثم يجعل الجاحظ من الإشارة واللّفظ شريكين، فتعين الإشارةُ اللّفظَ على بيان المعنى، بل وغالباً ما تنوب عنه وتحلّ محلّه. وأحياناً يقف اللّفظ عاجزاً عن توصيل مبتغاه فتسدّ الإشارة مَسَدّه. ويستشهد الجاحظ بنماذج شعرية في دلالات الإشارة منها قول الشاعر: [من الطويل]

أشارتْ بطرفِ العَينِ خِيفةَ أهلِها ... إشارةَ مَذعورٍ وَلَم تَتَكلّمِ
فأيقنتُ أنّ الطّرفَ قد قالَ مَرحباً ... وأهلاً وسَهلاً بالحبيبِ المتيّمِ

وفي معرض مقارنته بين الإشارة واللّفظ، ومدى ارتباط بعضهما ببعض يُشير الجاحظ إلى الصّوت باعتباره مادّة اللّفظ واحتياجه إلى الإشارة، مُلَمّحاً إلى أحد لوازم البيان وقدرته الفذّة في التوصيل والتأثير، فيقول: «ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصّوت، فهذا أيضا باب تتقدّم فيه الإشارةُ الصّوتَ. والصّوتُ هو آلة اللّفظ، وهو الجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللّسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصّوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع

(١) م.ن: ١/ ٥٥.

الذي يكون مع الاشارة من الدّلّ والشّكل والتفتّل والتثّني واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الامور»[١].

والجاحظ في هذا النص مزَجَ بين ثلاثة مستويات دلالية، فهو إضافة إلى مَزجِه بين دلالَتي اللّفظ والإشارة، وبيان حاجة أحدهما إلى الآخر واكتماله به، أشار بصورة عابرة إلى دلالة النبر والتنغيم[٢].

وهذه الإشارة الدقيقة إلى الحالات التعبيرية التي تصدر من المتكلم أثناء الكلام، فتُعين على إيصال المعنى الدقيق إلى المتلقّي تُعدّ سبقاً علمياً كبيراً للجاحظ سبق فيه علماء اللسانيات الحديثة بعدّة قرون.

ويلي الإشارةَ الخطُّ، وقد قال عنه الجاحظ: «فأمّا الخطّ فما ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه من فضيلة الخط والانعام بمنافع الكتاب قوله لنبيه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٣ ـ ٥]. وأقسم به في كتابه المنزَل على نبيه المرسَل حيث قال: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، ولذلك قالوا: القلم أحَدُ اللّسانين..»[٣].

ثم يقارن بين الخط واللفظ، أو القلم واللسان فيرجح الأول على الثاني من جهتين؛ جهة الحضور والغياب، وجهة الزمان والمكان. فاللسان يخصّ الحاضر دون الغائب، وزماناً ومكاناً خاصّين، بينما القلم مطلق في الحاضر والغائب، وفي الماضي والحال والمستقبل، لأنّ «الكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان واللسان لا يعدو

(١) م.ن: ١/٥٥ ـ ٥٦.

(٢) يراجع مبحث: (٢. ٤ ـ النبر) و (٢. ٥ ـ التنغيم).

(٣) البيان والتبيين: ١/٥٧.

سامعه ولا يتجاوزه الى غيره»[١]

أما وسيلة الإبلاغ الأخرى عند الجاحظ فهي العقد، ويعني بها دلالات الأرقام الحسابية. ويستشهد على فضيلة هذا الصنف الدلالي وعظيم قدره ببعض الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٥].

ثم يعرض لأهمية هذا النوع من أنواع البيان قائلاً: «والحساب يشتمل على معانٍ كثيرة ومنافع جليلة. ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل ذكره معنى الحساب في الاخرة. وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فساد جُلّ النعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كلّ ما جعله الله عزّ وجل لنا قواماً ومصلحةً ونظاماً»[٢]

وأخيراً ينتقل الجاحظ إلى النوع الخامس من أنواع الدلالات، الذي لا يحتاج معه إلى لفظ أو إشارة أو خط أو حساب، وهو دلالة الموجودات الصامتة في الطبيعة. فكلّ ما في الكون وإن كان جامداً صامتاً إلاّ أنه ينطق عن حالٍ، ويصوِّر معنًى في ذهن الرائي. وهذه الدلالة هي دلالة النصبة أو الحال.

والجاحظ في حقيقة الأمر استلهم هذه الدلالة مِمّا ورد في القرآن الكريم من آيات الله الدالّة على وحدانيته وعظمته. فكما استدل بالآية الخامسة على دلالة العقد أو الحساب نرى أنه استلهم من الآية التالية دلالة النصبة أو الحال وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[يونس:

(١) المصدر والصفحة نفسها.

(٢) المصدر والصفحة نفسها.

٦]، بدليل ما استشهد به من عبارات فيها قبسات من هذه الآية القرآنية، فهو يقول: «وأما النّصبة[١] فهي الحال الناطقة بغير اللّفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السّموات والأرض، وفي كلّ صامت وناطق، وجامد ونامٍ، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص. فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان. ولذلك قال الأوّل: سَلِ الأرض فقل من أجرَى أنهارك وغرَس أشجارك وجنَى ثمارك فإنْ لم تُجِبْك حواراً أجابتك اعتباراً. وقال بعض الخطباء: أشهد أنّ السموات والأرض آيات دالات، وشواهد قائمات، كلٌّ يؤدّي عنك الحجة، ويُعرب عنك بالربوبية. موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك التي تجلّيت بها لخلقك، فأوصلت الى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر ورجم الظنون فهي على اعترافها لك وذلِّها إليك شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفاتُ، ولا تحدّك الأوهام، وأنّ حظّ المفكِّر فيك الاعتراف لك.. ومتى دَلّ الشّيء عَلَى معنىً فقد أخبر عنه»[٢].

إنّ الجاحظ في تصنيفه لأنواع الدلالات وتعرُّضه لوسائل التعبير والبيان «كان يؤسِّسُ لمفاهيم لسانية ودلالية تتوخّى الشمولية في التناول، منطلقاتها شروط توصيل الدلالة كما يَقصد إليها المتكلم، مع وعيٍ دقيق بأوضاع المستمع المتلقي، وأجوائه النفسية والحالية العامة»[٣].

والوعي الدقيق بأوضاع المتلقي وأجوائه النفسية والحالية ينعكس على طبيعة

---

(١) النَّصْبُ والنُّصُبُ: العلم المنصوب. وفي التنزيل العزيز: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]. وكل شيءٍ رُفعَ واستُقبلَ به شيءٌ فقد نُصِبَ (لسان العرب، مادة: نصب).

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ١٢٥.

المقال مِمّا يُضفي عليه دلالات سياقية. وللجاحظ في ذلك ملاحظات وآراء أسّست لتقسيمات دلالية أخرى تناول هو منها الدلالة السياقية في ثنايا حديثه عن اللفظ والمعنى.

١. ٢. ٢. ١. ٢. ١ ـ الدلالة السياقية عند الجاحظ

تبيّن مما سبق مدى إسهام الجاحظ في إرساء القواعد والأسس التي بُنِيَ عليها البحث الدلالي العربي، والذي تمخّض عنه أو معه البحث البلاغي، فالجاحظ يُعَدُّ بِحقّ «أوّل مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدّر أنّ الكلام، وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرّد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تُراعَى فيه، بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحضة، جملةٌ من العوامل الأخرى كالسّامع والمقام وظروف المقال وكلّ ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية (Extra linguistique) من روابط»[1].

فالجاحظ يرى أنّ الكلام الذي يستحقّ أن يُسَمّى بليغاً هو الكلام الذي «يسابق معناه لفظَه ولفظُه معناه، فلا يكون لفظه إلى سَمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[2]. فالمعنى يصل إلى قلب السامع في الوقت نفسه الذي يصل فيه اللّفظ إلى سَمعه. لذلك فإنه يرى تلازماً وثيقاً بين الدّال والمدلول. وهذا التلازم لا يحصل إلاّ إذا حَصَل تناسبٌ بين اللفظ والمعنى، وذلك من خلال ما يجتمعان عليه من صفات مشتركة «فإنّما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرُها لكثيرها وقليلُها لقليلها، وشريفُها لشريفها وسخيفُها لسخيفها»[3].

---

(١) التفكير البلاغي عند العرب: ١٨٥.

(٢) البيان والتبيين: ١/٧٥.

(٣) كتاب الحيوان: ٦.

والجاحظ ينطلق من صفات الشرف والسّخف هذه في التعبير عن (أقدار المعاني) من فكرة (الطبقات) وذلك باعتبار أنّ «كلام الناس في طبقات كما أنّ النّاس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسميح والخفيف والثقيل وكلّه عربيّ، وبكلٍّ قد تكلّموا»[1]. فالألفاظ والمعاني طبقات، وإنّ أحدهما يأتي على قدر الآخر كما الناس. و«في ضوء هذا التمييز الطبقي بين الناس وقع التمييز بين طبقات اللفظ ومن ثم طبقات المعنى. وكان الإلحاح على ضرورة مراعاة التناسب بين اللفظ والمعنى»[2].

لكنّ هذا لا يعني أنّ الجاحظ يرى أنّ شرف المعنى وقيمته متعلقان بصاحبه، سواء كان من خاصة الناس أو من عامتهم؛ وإنما شرف المعنى وقيمته عنده يتعلّقان بِمدَى صحّته، وما ينطوي عليه من فائدة بالنظر إلى ما تقتضيه أحوال الكلام ومقاماته.

فما يعنيه الجاحظ بأقدار الألفاظ والمعاني هو أنه «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً، ولكلّ حالة من ذلك مقاماً حَتّى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين عَلَى أقدار تلك الحالات»[3].

وهكذا فإنّ على المتكلم أن يكون عارفاً بأقدار المعاني، وقادراً على أن يوازن بينها وبين أقدار المستمعين من جهة، وأقدار الحالات من جهة أخرى، ليكونَ كلامُه على حسب ما تقتضيه الأحوال، جاعلاً لكلِّ طبقةٍ كلاماً، ولكل حالةٍ مقاماً. فإذا

---

(١) البيان والتبيين: ١/٩٠.

(٢) قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب: ٢/٧٩٢.

(٣) البيان والتبيين: ١/٨٧ ـ ٨٨.

علم المتكلم مخاطبَه اختارَ له ما يناسبه من الكلام، وأبلغه إيّاه في الزمان والمكان والمقام المناسب. وبذلك تتحقق مستويات الكلام عند الجاحظ بحسب المعاني والمقامات والمستمعين وأحوالهم، فيتحقّق في الكلام سياق الحال والمقام.

وهنا يسجِّل الجاحظ سبقاً جديداً في مجال آخر من مجالات البحث الدلالي وهو ما يدخل في حقل النظرية السلوكية أو السياقية حيث ذهب كل من عالم الأجناس الأنثروبولوجي (مالينوفسكي)، واللغوي (جون فيرث) حديثاً إلى «أنّ وصف اللّغة لا يكتمل ما لم يكن معتمِداً على السياق المقاميّ الذي ترد فيه، لأنّ مذهبهما يرمي إلى شرح دلالة العناصر اللغوية إلى الموقف الذي تستعمل فيه. ويسَمّى مذهبهما بالسلوكية»[1]. حيث يقوم الكلام على مبدأ الإثارة بسبب الحال والمقام، ثم الاستجابة من قبل المتكلم. ويحول المقام هنا دون الافاضة في ما أنجزه الجاحظ في مجال البحث الدلالي لننتقل إلى غيره من أرباب النقد والبلاغة.

١. ٢. ٢. ٢ ـ عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ)

لقد أسّست جهود الجاحظ البيانية فيما بعد لنظرية متكاملة في النقد والبلاغة العربية. كما أثارت نظريته حول جدلية اللفظ والمعنى إشكاليات عديدة في الأوساط العلمية الاسلامية، في القرون التالية بصورة عامة، بلغت ذروتها عند شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني عندما أطلق نظرية النظم وقدّمها بثوبها الجديد المتكامل. وتبدو ملاحظات الجرجاني الدلالية واضحة جلية وهو يستعرض لنظريته تلك.

١. ٢. ٢. ٢. ١ ـ اللفظ والمعنى عند الجرجاني

إنّ أوّلّ ما يطالعنا به الجرجاني مِمّا قد يبدو فيه مخالفاً للجاحظ هو نظرته إلى

---

(١) مدخل إلى علم الدلالة: ١٠٢.

اللفظ. فالجاحظ رغم كونه يوازن بين اللفظ والمعنى حين وجدناه يصف الكلام البليغ بقوله: إنه الكلام الذي «يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»(١). إلا أنّ قولته الشهيرة في كتابه الحيوان: «والمعاني مطروحة مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني. وإنما الشّأن في إقامة الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وصحة الطبع، وجودة السّبك»(٢) لم تَحُل دون تصوّر البعض من ترجيح الجاحظ للّفظ على حساب المعنى. في حين قصد الجاحظ فيما ذهب إليه «أنّ التعبير عن المعاني بالألفاظ الجميلة المختارة أحسن من التعبير عن المعاني بألفاظ مجردة لا يُحسَب لاختيارها حساب. وهو في الواقع كأنه يدافع عن البيان مثل دفاع عبد القاهر»(٣).

وقد كان عبد القاهر من أشدّ أولئك الذين لم يَرُقْهُم تقديم اللّفظ على المعنى، فراحَ يُنافح عن المعنى جاعلاً اللفظ خاضعاً له بقوله: «إنه لا يُتصور أن تعرف للّفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وإنك تتوخّى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك فإذا تَمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ، وقفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تَحتَج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتّب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وإنّ العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدّالة عليها في النطق»(٤).

(١) البيان والتبيين: ١/٧٥.

(٢) كتاب الحيوان: ٣/١٣١.

(٣) مقالات في تاريخ النقد العربي: ٣٨٠.

(٤) دلائل الإعجاز: ٥٩.

وإذا كان من ذهبوا إلى تقديم الألفاظ على المعاني قد جانبهم الصّواب، فإننا لا نعدم ذلك عند عبد القاهر، ولكن على الطرف الآخر من القضية. فقد تحوّل إلى منافحٍ عن أولئك الذين طعنوا في فصاحة الألفاظ. فإذا كانت هناك من مزية في الكلام فإنها «من حَيِّز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل رويّتك، وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك»[1].

وخلاصة ما ذهب إليه الجرجاني بخصوص اللفظ هو انتزاعه لفصاحة اللفظة المجردة عن الجملة، وإنما تَكتسِب اللفظةُ قيمتها وفصاحتها عند انتظامها في سِلك الجملة والكلام. وهذه هي القاعدة التي بنَى عليها نظريته في إعجاز القرآن، فيما سُميت بنظرية النظم.

١. ٢. ٢. ٢. ٢ ـ نظرية النظم عند الجرجاني

إنّ الخوض في قضية اللفظ والمعنى هي التي قادت عبد القاهر إلى وضع نظرية النظم في إعجاز القرآن. فقد هالَهُ ما رأى من غلبة الاتجاه الشكلي، وتغليب اللّفظ على المعنى في بيان الإعجاز القرآني، وكثرة ما أُثيرَ حولها من جدال، فانبرى لِدَحضِ هذا التوجُّه بتأليف كتاب (دلائل الإعجاز) الذي حاول فيه إثبات (النظم) باعتباره وجه الإعجاز في القرآن لا غير.

وقد عرّف النظم بقوله: «واعلم أنّ ليس النظم إلاّ أن تضعَ كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَت لك، فلا تُخِلّ بشيءٍ منها، وذلك أنّا لا نعلم

(١) م.ن: ٦٥.

شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه»[١].

ثم يشرح الجرجاني مفهوم نظم الكلام بقوله: «لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك»[٢]. فالجرجاني يعتمد النحو أساساً في توصيل المعاني و إدراكها. بل إنّ قوانين النحو هي التي تحكم معايير الجودة في النص الأدبي أو الإعجاز الفني لأنّ الناظم لا يتوخّى في عمله شيئاً سوى النظر في أبواب النحو الذي به تتفاضل مراتب البلاغة.

١. ٢. ٢. ٢. ٣ـ مفهوم الدلالة عند الجرجاني

أما الجانب الدلالي في نظرية النظم فإنه يشغل حيِّزاً أساسياً منها، ويتجلّى في العنصر الأوّل من عنصري تحديد الجمال الأدبي في النص. فقد حدّد عبد القاهر الجمال الأدبي الذي تنطوي عليه مصطلحات البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، وحَصَرَها في أمرين إثنين هما:

١ـ حُسنُ الدلالة وتَمامها.

٢ـ جمال الصورة التي تخرج عليها هذه الدلالة.

فهو يقول: «ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها، مِمّا يُفرَد فيه اللفظ بالنعت والصّفة، ويُنسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى، غيرُ وصفِ الكلام بِحُسنِ الدلالة وتَمامها فيما له كانت دلالةً. ثم تَبَرُّجها في صورة هي أبهى وأزينُ وآنق وأعجب وأحقّ بأن تستولي على هوَى النفس، وتنال الحظّ الأوفر من مَيل القلوب»[٣].

(١) دلائل الاعجاز: ٧٧.

(٢) م.ن: ٥٩.

(٣) دلائل الإعجاز: ٥٢.

أما تحقّق هذا الجمال الأدبي المتمثّل بحُسنُ الدلالة وتمامها، وجمال الصورة التي تبدو عليها، فإنه منوطٌ بتحقّق أمرين آخرين أحدهما في المعنى، والآخر في اللفظ، وهما:

١ـ إتيان المعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته.

٢ـ اختيار اللفظ الخاصّ به، الكاشف عنه كشفاً تاماً.

حيث يقول في ذلك: «ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يُؤتَى المعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته، ويُختار له اللّفظ الذي هو أخصّ به، وأكشف عنه، وأتَمّ له، وأحرى بأنْ يكسبه نُبلاً، ويظهر فيه مزية»[1] [2].

شكل رقم (١ ـ ١)

(١) الإتيان بالمعنى الصحيح (٢) إختيار اللفظ الخاص ←←
(١) حسن الدلالة وتمامها (٢) جمال الصورة الدلالية ←←[الجمال الأدبي]

إنّ الحديث عن إتيان المعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته، واختيار اللفظ الذي هو أخصّ به قاد عبد القاهر إلى ولوج موضوع (جمالية اللفظ) ومرجع هذه الجمالية. فقد أكّد في أكثر من موضع على أنّ الجمالية الحقيقية للّفظ لا تتأتّى من كونه لفظاً مفرداً، بل من كونه جزءاً من تركيب ذي دلالة، أو وحدةً في مجموع كلمات يفيد معنًى من المعاني. وذلك يعني أنّ جمال الكلمة يُحدّده الموقع الذي تشغله في التأليف

---

(١) م.ن: ٥٢.

(٢) يُنظر الشكل رقم (١ ـ ١).

والنظم، ومدى إسهامها في الدلالة الكلّية للتركيب أو الصيغة التي ترد فيها[١].

١. ٢. ٢. ٢. ٣. ١ ـ دلالة اللفظ في نظرية النظم

توصّلنا إلى أنّ الجرجاني ينظر إلى اللغة باعتبارها مجموعة من العلاقات التي يُضمّ فيها اللفظ إلى غيره، ويكتسب قيمته من خلال التركيب. وهذا المنهج في تحليل النص الأدبي ينتزع من المفردة خصوصيتها الفردية في طبيعة تشكيلها وأصواتها وإيحاءاتها الكامنة فيها قبل التركيب «فالقيمة اللّفظية من حيث الإفراد لها أثر في إيحائية الدلالة بما تحمله الكلمة من طاقة صوتية، ودلالية، تتفاوت قيمة الكلمات فيها»[٢]، وهو ما لمسناه خلال إشارتنا إلى جهود السابقين في الحقل الدلالي، وخاصة في موضوع مناسبة اللفظ للمعنى.

لكن هذه القيمة للفظة، وهي مفردة، لا ترقَى إلى قيمتها في النظم والتأليف عند عبد القاهر الجرجاني لأنه يرى أنّ «الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني، وإلى ما يُدلّ عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها»[٣]. وأنّ اللّفظة لا تكتسب فصاحتها إلا باعتبار «مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا: لفظة متمكِّنة ومقبولة، وفي خلافه: قلقة ونابية ومستكرهة، إلاّ وغرضهم أن يعبِّروا بالتمكّن عن حُسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما»[٤]. وهو بذلك يلغي تماماً أيّ اعتبار للفظ بصورته الإفرادية سوى دلالته المعجمية. أما قيمته الصوتية والبيانية فيكتسبها من خلال التركيب.

---

(١) موسيقى الشعر العربي: ٣٠٥.

(٢) البحث الدلالي عند ابن سينا: ٥٤.

(٣) دلائل الإعجاز: ٢٠١.

(٤) م.ن: ٥٣.

والجرجاني بذلك ينسف كل ما بُنيَ من قبل بيد الخليل بن أحمد وسيبويه وابن جني، مِمّا رصدوه من مناسبة بين الألفاظ ومعانيها قبل انتظامها في التركيب. بل ويؤكِّد الجرجاني أكثر من ذلك على اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول بقوله: «وذلك أنّ نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بِمُقتَفٍ في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تَحرّاه، فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال: (رَبَضَ) مكان (ضَرَبَ) لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد.

وأمّا (نظم الكلم) فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذا نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض»[1]. وهذا يعني أنّ الألفاظ المشتركة المعنى تحمل رتبة دلالية واحدة في جميع اللغات، فلا تفاضُل في دلالة لفظ على معناه إذا قورِنَ بغيره من الألفاظ لأنه لا يتصوّر أساساً «أن يكون بين اللّفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدلّ على معناها الذي وضعت من صاحبتها على ما هي موسومة به حتى يُقال: إنّ (رجلاً) أدلّ على معناه من (فرس) على ما سُمِّيَ به»[2]. وينسحب الأمر على التفاضل بين لفظين في لغتين مختلِفَتين كالعربية والفارسية حيث لا تفاضل بين لفظ (أسد) و(شير) مثلاً إلا من خلال ائتلافهما، كلٌّ في لغته، في التركيب.

١. ٢. ٢. ٢. ٣. ٢ ـ دلالة المعنى في نظرية النظم

أما الدلالة في المعنى عند الجرجاني فهي على ضربين من الكلام: أحدهما: «ضرب أنتَ تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده. وذلك إذا قصدت أن تخبر عن

(١) دلائل الاعجاز: ٥٦.

(٢) م.ن: ٥٢.

زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق.. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل»[١].

فالضرب الأوّل يعني به الدلالة المباشرة، وهو ما أُلقِيَ فيه الكلامُ على حقيقته دون إرادة معنًى آخر، كما مثّل له بالجملتين أعلاه. فالألفاظ في هذا النوع من الدلالة تؤدي معناها المعجمي فحسب، لذا يُفهم المعنى بدون واسطة، أي:

[الدّال ← المدلول ← المعنى].

أما **الضرب الثاني** فهو الدلالة غير المباشرة، فإذا قال القائل: (رأيتُ أسداً) ودلّ الحال على أنه لم يُرِد (السّبع) وإنما قصد التشبيه، فهم من ذلك معنًى جديداً. وكذلك الحال في قولهم: (كثيرُ رمادِ القدر) فإنّ الاستدلال يقود السّامع إلى أن يفهم من هذا المعنى معنًى ثانياً، بحيث كنّى بالأول عن الثاني، وهو أنه مضياف، وقد سَمّى الجرجاني هذا النوع بتعبير (معنى المعنى) في مقابل (المعنى) الذي يعني الدلالة المباشرة[٢].

شكل رقم (١ ـ ٢)

[الدّال ← المدلول (١) ← المدلول (٢)]
أو **[اللفظ ← المعنى ← معنى المعنى]**

ويختصر الجرجاني هاتين الدلالتين بقوله: «وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى

(١) م.ن: ٢٠٣.

(٢) يُنظَر: الشكل رقم (١ ـ ٢).

تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»[(١)].

يمكن القول إنّ ما جاء به الجرجاني من القول بنظرية النظم جاء تتويجاً لمناقشات البلاغيين والنقاد والمتكلمين بشأن ثنائية اللّفظ والمعنى. أما البحث الدلالي عنده، وخاصة تقسيماته الدلالية فإنها تكاد تنطبق مع ما جاء به المنطقيون بخلاف تسمية المصطلح عند الاثنين، فـ «المعنى هو الحقيقة عند الجرجاني وهو دلالة المطابقة عند المناطقة، ودلالتا التضمّن والالتزام عندهم من المعاني المجازية، أو معاني العلاقات أو معنى المعنى عند الجرجاني»[(٢)].

وقد راقَ كثيراً من البلاغيين استعمال مصطلحات المناطقة في تقسيماتهم الدلالية. فهذا الخطيب القزويني في كتابه الايضاح بعد أن يُعرِّف علم البيان بأنه: «إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه»[(٣)] يُقسِّم الدلالة اللفظية وفقاً لتقسيم الجرجاني، لكنه يستعمل مصطلحات أهل المنطق بقوله: «ودلالة اللّفظ إمّا على ما وضع له، أو على غيره. والثاني إما داخل في الأول دخول السّقف في مفهوم البيت، أو الحيوان في مفهوم الإنسان، أو خارج عنه خروج الحائط عن مفهوم السقف، أو الضاحك عن مفهوم الإنسان. وتُسَمّى الأولى دلالة وضعية، وكلٌّ واحدة من الأخيرَتَين دلالة عقلية. وتختصّ الأولى بدلالة المطابقة، والثانية بالتضمُّن، والثالثة بدلالة الالتزام»[(٤)].

---

(١) دلائل الاعجاز: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) البحث الدلالي عند ابن سينا: ٥٧.

(٣) الايضاح في علوم البلاغة: ٢٠١.

(٤) م.ن: ٢٠١.

١ . ٢ . ٣ ـ مفهوم الدلالة عند أهل الفلسفة والمنطق

إذا كان المصطلح الذي يقف بإزاء مصطلح (الدلالة) ويرادفه عند اللّغويين والنقاد والبلاغيين هو (المعنى)، كما رأينا، فإنّ له من نظائره الكثير من المصطلحات في عُرف الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة. ومن تلك المصطلحات؛ (المغزَى) و (الجوهر) و(الفكرة). وهي مصطلحات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمقولات التفكير والوجود[1].

ولعلّ السبب في تنوّع هذه المصطلحات يعود إلى طبيعة الفكر الفردي عند هؤلاء، والذي كان من نتائجه تعدّد وجهات نظرهم إلى مفهوم (المعنى) أو (الدلالة) تارة من حيث هو كلمة مفردة، وتارة من حيث هو قضية، وتارة أخرى من حيث هو نتيجة منطقية يُتوصّل إليها من خلال مقدّمات. ومن هنا تعدّدت صوره عندهم؛ فكان محدَّد الدلالة حيناً كالتعريف، أو غير محدَّد كالرمز الرياضي[2].

وهم يعرِّفون (المعنى) بأنه كلُّ «ما يُقصَد بشيء»[3]، ويَقصدون (بالشّيء) «ما يجوز أن يُخبَر عنه، وتصحّ الدلالة عليه»[4].

فتصنيف أهل المنطق للألفاظ قائم على أساس إخضاع اللّفظ لدلالة عقلية محدَّدة للمعنى، لتكون الدلالة بذلك جزءاً من المعنى، في حين يُصنّف اللغويون والنحاة المعنى بأنه تابع للفظ، وبأنه جزءٌ من الدلالة اللغوية. وعلّة ذلك هو «أنّ المنطق يُعنَى أوّلاً بالمعاني، ثم يُعنَى بالألفاظ والحدود من حيث دلالتها على المعاني، على عكس

(١) الموسوعة الفلسفية: ٣٣٦.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها: ٢٧.

(٣) التعريفات: ١٢٢.

(٤) مفتاح العلوم: ١٧.

النحو الذي يبحث في اللفظ فيجعل المعنى تابعاً له»[١].

وهذه هي نقطة الإفتراق في مفهوم الدلالة لدى كلٍّ من الفريقين، حيث ينطلق الفريق الأول في مفهومه للدلالة من المعنى وصولاً إلى اللفظ الدّال عليه، بينما ينطلق الفريق الثاني في ذات الأمر من حيث انتهى إليه أولئك وصولاً إلى حيث انطلقوا منه[٢].

شكل رقم (١ ـ ٣)

المنطق ←	المعنى ← → اللفظ
النحو ←	اللفظ← → المعنى

أما تعريف الدلالة في اصطلاح المناطقة والفلاسفة فهو: «كون الشيء بحالةٍ يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدّال، والثاني هو المدلول»[٣].

وهذا التعريف قائم على الفصل بين المفاهيم والأفكار والصور الذهنية وبين أسماء تلك المفاهيم والأفكار والصور أو إشاراتها، فيتقدّم عندهم المدلول الحسِّي على الصورة الذهنية، كما تتقدّم الصورة الذهنية (المعنى) على الدلالة، وذلك انطلاقاً من المنطق الأرسطي حول الفكر والشيء في إدراك العالم الخارجي؛ فالفلاسفة المسلمون في تحديدهم للإشارة اللغوية يحاولون التوفيق بين هذا المنطق الأرسطي وبين النص القرآني[٤].

---

(١) البحث الدلالي عند ابن سينا: ٦٠.

(٢) يُنظَر: الشكل رقم (١ ـ ٣).

(٣) التعريفات: ١٣٩.

(٤) البحث الدلالي عند ابن سينا: ٦٨.

وقبل الخوض في استعراض نظرات الفلاسفة وأهل المنطق فيما يتعلّق بقضية الدلالة التي تناولوها من خلال قضية اللفظ والمعنى كنظرائهم من أصحاب الكلام والبلاغة، نشير إلى أنّ التفكير الفلسفي المنظّم كان قد ظهر نتيجة للجهود النظرية التي بذلها الفقهاء وعلماء الكلام وهم يتّخذون من القرآن هدفاً، يؤسِّسون لبلوغ مراميه مدارسَ في الفكر والحياة.

وقد ابتدأ هذا التفكير الفلسفي بالكندي (ت٢٥٢هـ) ثم برزت بعد ذلك أسماء لامعة مثل: الفارابي (ت٣٣٩هـ)، وابن سينا (ت٤٢٨هـ)، وابن باجة (ت٥٣٣هـ)، وابن طفيل (ت٥٣٣)، ثم ابن رشد (ت٥٩٥هـ). وسنقتصر في حديثنا على الفارابي وابن سينا لإسهاماتهما المهمة في الحقل الدلالي.

١. ٢. ٣. ١ ـ مفهوم الدلالة عند الفارابي (ت ٣٣٩هـ)

لم تقتصر جهود الفارابي على العمل في ميدان الفلسفة فحسب، بل اقترن اسمه كذلك بميدان علم المنطق، وذلك للارتباط الوثيق بين هذين الميدانين وعلوم اللغة العربية وقوانينها وسننها في البيان والتعبير. وقد أكد الفارابي على الأخذ بهذه القوانين والسنن باعتبارها أدوات تدخل في صميم الأبحاث المنطقية والفلسفية.

ومن هنا جاءت تنظيراته الدلالية مرتبطة بهذين العلمين[1]. وذلك في حقيقته راجع إلى ارتباط علم الدلالة بالفلسفة والمنطق أكثر من أي علم آخر حتى قال بعضهم: «إنّك لا تستطيع أن تقول متى تبدأ الفلسفة وينتهي السيمانتيك، وما إذا كان يجب اعتبار الفلسفة داخل السيمانتيك، أو السيمانتيك داخل الفلسفة»[2].

---

(١) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ٢٩.

(٢) علم الدلالة: ١٥.

١. ٢. ٣. ١. ١ ـ المنطق والدلالة عند الفارابي

والفارابي ينفذ إلى الدلالة من مصطلح (المنطق) ذاته، ذاهباً إلى «أنه مشتقّ من النطق وهي لفظة دالة على معان، منها الدلالة على القول الخارج بالصوت، وهو الذي به تكون عبارة اللّسان عمّا في الضمير، والثاني القول المتمركز في النفس، وهو المعقولات التي تدل عليها الألفاظ»[١]. فهو هنا يُميِّز بين النطق الحادث باللسان المتجسد في الصّوت المعبِّر عمّا في النّفس، وبين النطق النفسي. ويشترط، عند قصد التعبير، المطابقةَ بين النطق الخارجي المتلبِّس ببنية العبارة، وبين المنطوق الداخلي المجسِّد للمعاني النفسية، فهو يرى لزوم أن يكون «تركيب الألفاظ شبيهاً بتركيب المعاني المركبة التي تدل عليها تلك الألفاظ المركبة، وتجعل في الألفاظ المركبة أشياء ترتبط بها الألفاظ بعضها إلى بعض متى كانت الألفاظ دالة على معانٍ مركبةٍ ترتبط بعضها ببعض. ويتحرّى أن يجعل ترتيب الألفاظ مساوياً لترتيب المعاني في النفس»[٢]، وذلك في إشارة بليغة إلى طبيعة العلاقة المنطقية بين الفكر والكلام، أو بين المدلول والدّال.

وينطلق الفارابي من توجهاته الفلسفية والمنطقية فيطلق على المعاني أو الدلالات مصطلحاً منطقياً هو (المعقولات) التي يكون محلّها النفس، و يجعلها قسيماً للألفاظ بأقسامها المختلفة. يقول في ذلك: «و أمّا موضوعات المنطق، وهي التي تعطي القوانين، فهي المعقولات من حيث تدلّ عليها الألفاظ، والألفاظ من حيث هي دالّة على المعقولات»[٣].

(١) إحصاء العلوم: ٦٢.

(٢) كتاب الحروف: ١٤٠ ـ ١٤١.

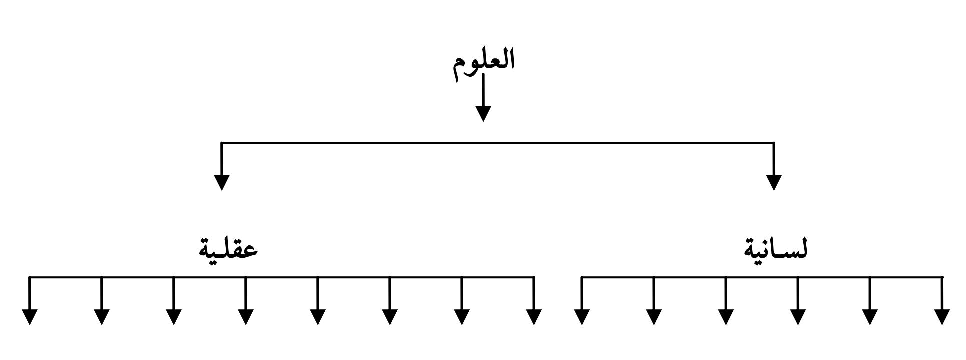
(٣) إحصاء العلوم: ١٦٧.

١. ٢. ٣. ١. ٢ ـ أقسام الدلالة عند الفارابي

وينطلق الفارابي من ذلك إلى تنظيراته الدلالية من خلال تقسيمه للعلوم، حيث قسّمها إلى لسانية وعقلية. فالعلوم اللسانية: ما اتّصل منها بعلوم المفردات والمركبات وقواعد الإعجام والإعراب والعروض وسواها. أما العلوم العقلية فتشمل المنطق بأجزائه الثمانية وهي: المقولات والعبارة والقياس والبرهان والجدل والفلسفة والخطابة والشعر[1].

وبذلك يدخل البحث الدلالي عند الفارابي في العلوم بشقّيها؛ اللِّسانية والعقلية. ففي العلوم اللِّسانية تدخل المفردات، وفي العلوم العقلية تدخل المقولات[2].

شكل رقم (١ ـ ٤)



ويظهر البحث الدلالي كذلك عند الفارابي في أوّل المعايير الثلاثة التي قسّم على أساسها الأقوال، وهي معيار (الدلالة)، ومعيار (الجزم) بالمعنى المعرفي، ومعيار

(١) قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب: ٢/٩٨٥.

(٢) يُنظر الشكل رقم (١ ـ ٤).

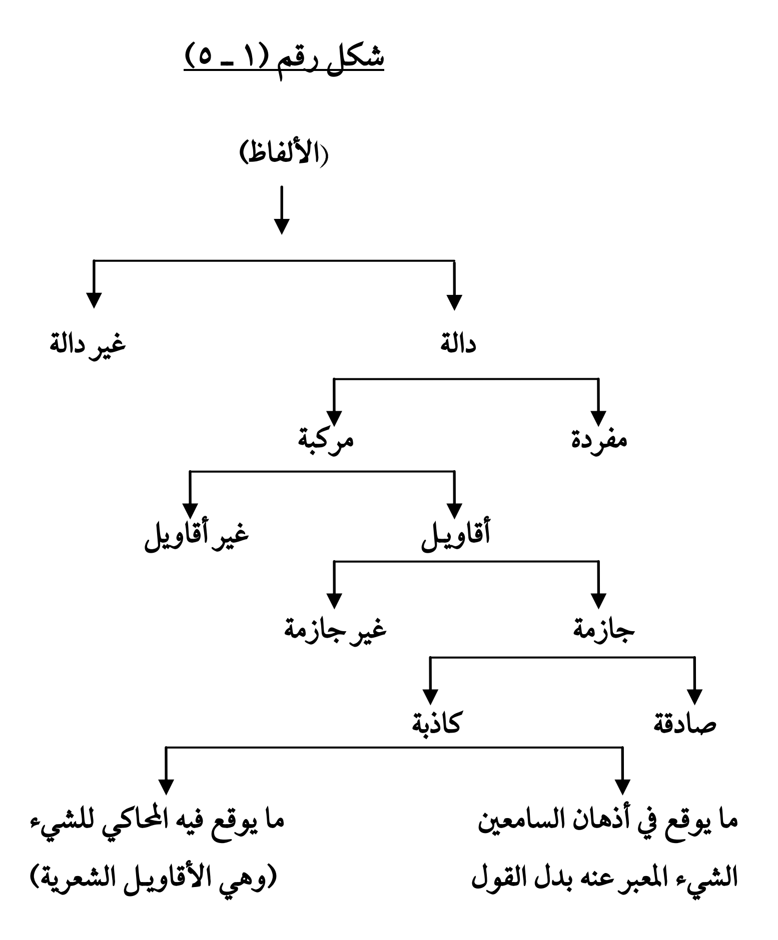
(الصدق والكذب). وقد صنّف الأقوال أو الألفاظ حسب معيار الدلالة إلى ألفاظ دالّة وأخرى غير دالّة، ويقصد بالألفاظ غير الدّالة تلك الأصوات أو الحروف التي يمكن أن تجتمع على غير معنى، مِمّا أطلق عليه الخليل بن أحمد بالمهمل أو (غير المستعمل) في معجم العين.

أما الألفاظ الدّالة فهي عنده؛ نوعان مفردة ومركبة، والألفاظ الدالة المركبة إما أقاويل أوغير أقاويل، ثم الأقاويل جازمة وغير جازمة، والجازمة منها صادقة و منها كاذبة، والكاذبة منها ما يوقع في ذهن السامعين الشيء المعبر عنه بدل القول، ومنها ما يوقع فيه المحاكي للشّيء، وهي الأقاويل الشعرية[1]. فالفارابي بعد أن يقسّم الألفاظ إلى دالّة وغير دالّة يقسّم الألفاظ الدالة على المعاني المفردة إلى ثلاثة أصناف: اسم وفعل وحرف بقوله: «والألفاظ الدالة على المعاني المفردة ثلاثة أصناف: اسم وكلمة [فعل] وأداة [حرف]، وهذه الأجناس الثلاثة تشترك في أنّ كلّ واحد منها دالّ على معنى مفرد»[2].

(١) ينظر: الشكل رقم (١ ـ ٥).

(٢) العبارة: كتاب في المنطق: ٧٤.

شكل رقم (١ ـ ٥)



وتبقى دلالة الإسم والفعل أكثر وضوحاً، عند الفارابي، من دلالة الحرف الذي يظل بحاجة إلى غيره من الألفاظ ليكتسب قيمته الدلالية، وذلك لأنّه يرى أنّ الحروف ليست لها دلالة في ذاتها، وإنما تكمن قيمتها الدلالية فيما يشير إليه[1].

---

(١) يشرح الفارابي في كتابه (الحروف) هذه المسألة ويفيض البحث فيها، ففي مقام حصره لاستخدامات الحرف (ما) يقول: «يستعمل [ما] في السؤال عن شيء ما مفرد، وقد يقرن باللفظ المفرد والذي ←

أما أقسام دلالة الألفاظ الدّالة عند الفارابي فثلاثة هي: دلالة المطابقة ودلالة التضمُّن ودلالة الالتزام[١]. وقد التَقَفَ البلاغيون هذا التقسيم وضمّنوه في تعريفهم لعلم البيان[٢]، فَحَوّلوه إلى علمٍ يَحتكم إلى أصول المنطق وقواعده بعد أن كان يحتكم إلى الذوق والحسّ الرفيعين.

١. ٢. ٣. ٢ ـ مفهوم الدلالة عند ابن سينا (ت ٤٢٧هـ)

تنحدر الأصول الفكرية (للدلالة) عند ابن سينا من منبعَين أساسيين، بنى عليهما أسس التفكير الدلالي. أحدهما منبع يوناني، والآخر منبع اسلامي. أمّا المنبع اليوناني فيتمثل بالمعلم الأول (أرسطو) الذي تناول بحث (الدلالة) بشكل متميز، وقسّمها إلى تقسيمات عدّة، منها: الدلالة الوضعية والدلالة الطبيعية التي تنطوي تحتها الدلالة العقلية. ومنها تقسيمه للدلالة إلى دلالة تصورية، ودلالة تصديقية. وقد اعتمد ابن سينا هذين التقسيمين في نظرياته المنطقية المختلفة، ومنها تحليلاته ومصطلحاته الدلالية[٣].

← للدلالة عليه أولاً وهو الشيء الذي جعل ذلك اللفظ دالاً عليه» (كتاب الحروف: ١١٥)، وينظر: (علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ٣١).

(١) إحصاء العلوم: ٧٨.

(٢) يقول الخطيب القزويني في معرض تعريفه لعلم البيان: «ودلالة اللفظ إما على ما وضع له أو على غيره والثاني إما داخل في الأول دخول السقف في مفهوم البيت أو الحيوان في مفهوم الإنسان أو خارج عنه خروج الحائط عن مفهوم السقف أو الضاحك عن مفهوم الإنسان وتسمى الأولى دلالة وضعية وكل واحدة من الأخيرتين دلالة عقلية وتختص الأولى بدلالة المطابقة والثانية بالتضمن والثالثة بدلالة الالتزام» (الايضاح في علوم البلاغة: ٢٠١).

(٣) البحث الدلالي عند ابن سينا: ١٠٢ ـ ١٠٣.

كما نهل ابن سينا من مدرسة ثانية من المنبع اليوناني، وهي المدرسة الرواقية[١]. وإلى هذه المدرسة تعود فكرة المثلّث الدلالي في الدراسات اللِّسانية الحديثة. فالمثلث له ثلاثة أركان هي:

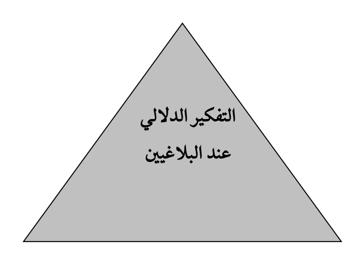
١ـ (الدال) ويمثل الصورة الصوتية المدركة بالحواس مباشرة.

٢ـ (المدلول) ويمثل المفهوم أو التصور الذهني المفهوم من خلال الدال.

٣ـ (موضوع الكلام) ويمثل الشيء الحقيقي الموجود في الخارج[٢].

شكل رقم (١ ـ ٦)

الدال (الصوت)



موضوع الكلام (الشيء الواقعي) **المدلول (المفهوم أوالتصور الذهني)**

أما المنابع الإسلامية التي استقَى منها ابن سينا تنظيراته الدلالية فكانت أكثر حضوراً وظهوراً في مؤلفاته. وقد كان ما اكتسبه في الحقل الدلالي من أستاذه الفارابي

---

(١) أو مدرسة الميغاريين نسبة إلى مؤسسها (اقليدس الميغاري) في القرن الرابع قبل الميلاد. وقد ازدهرت هذه المدرسة في عصر أرسطو وكانت تعارضه كمدرسة مناوئة. ويعتبر أعضاؤها المؤسسين الحقيقيين للمنطق المسمى بالرواقي. ينظر: (الموسوعة الفلسفية: ٤٦٦) و (البحث الدلالي عند ابن سينا: ١٠٤).

(٢) يُنظر: الشكل رقم (١ ـ ٦).

(المعلم الثاني) «يفوق بكثير ما اكتسبه من قراءاته للمعلم الأول»[1].

١. ٢. ٣. ٢. ١ ـ أنواع اللفظ الدّال عند ابن سينا

قبل أن نبدأ بعرض تقسيمات ابن سينا الدلالية نستعرض نظرته إلى أنواع اللفظ الدال لنرى مدى ما أضافه إلى هذا البحث بعد أستاذه الفارابي الذي أشرنا إلى تصنيفه للأقوال وأنواع الألفاظ.

فابن سينا يقسم الألفاظ الدالة إلى ستة أقسام، فهو يرى أنّ «كلّ لفظ دال، فإمّا حقيقي ومُستَولٍ، وإمّا لغة، وإمّا زينة، وإمّا موضوع، وإمّا منفصل، وإمّا متغيّر. والحقيقي: هو اللّفظ المستعمل عند الجمهور المطابق بالتواطؤ للمعنى.

وأما اللغة: فهي اللفظ الذي تستعمله قبيلة وأمة أخرى وليس من لسان المتكلم، وإنما أخذ من هناك ككثير من الفارسية المعرّبة بعد أن لم يكن مشهوراً متداولاً فقد صار كلغة القوم. وأما النقل: فأنْ يكون أوّل الوضع والتواطؤ على معنى وقد نقل عنه إلى معنى آخر، من غير أن صار كأنه اسمه صيرورة، لا يُميّز معهما بين الأول والثاني، فتارةً تنقل من الجنس إلى النوع، وتارةً من النوع إلى الجنس، وتارةً من نوع إلى نوع آخر، وتارةً إلى منسوب إلى شيء من مشابهه في النسبة إلى رابع...

وأما الاسم الموضوع المعمول: فهو الذي يخترعه الشاعر ويكون هو أول من استعمله...

وأما الاسم المنفصل والمختلط: فهو الذي احتيج إلى أن حُرّف عن أصله بمد قصر، أو قصر مد، أو ترخيم، أو قلب...

وأما المتغيّر: وهو المستعار والمشبّه على نحو ما قيل في (الخطابة).

---

(١) البحث الدلالي عند ابن سينا: ١٠٨.

والزينة: هي اللفظة التي لاتدلّ بتركيب حروفها وحده، بل بما يقترن به من هيئة نغمة ونبرة، وليست للعرب»[١].

وما يهمّنا في هذا النصّ هو النوع السادس من دلالة الألفاظ التي سَمّاها ابن سينا؛ (الزينة) التي عنَى بها ذلك النوع من الألفاظ التي لا يكفي تركيب حروفها وحده للدلالة على المعنى المراد، بل إنها تفتقر لوضوح الدلالة عليها إلى هيئة خاصة من التنغيم والنبر اللّذين يرافقان اللّفظ لتتضح بهما الدلالة ويتبيّن المعنى.

وهذه الإشارة الذكية من ابن سينا إلى ظاهرتي التنغيم (Intonation) والنبر (stress) تُعَدّ سابقة كبيرة في مضمار الدلالة الصوتية في التراث العربي لم يسبقه إليها إلاّ ابن جني في إشارة تكاد تكون عابرة، ولكن من دون ذكر للمصطلحين، وإنما عبّر عنهما بعبارات مثل التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم وإطالة الصوت والتمطيط[٢].

ولكن ما يُثير الإهتمام في عبارة ابن سينا السابقة أنه يختمها بقوله: (وليست للعرب). ولعله قصد بها ذلك النوع من التنغيم أو النبر الذي يُميِّز بعض اللغات، ويقوم بدور (مورفولوجيّ) مهم، حيث توجد فيها الكثير من الصيغ الصوتية المتماثلة بين لفظين، ولكنّ كلاً منهما ينطق بنغمة مخالفة فيكون لكلّ منهما معناها. وهذا واضح وكثير في لغات الشرق الأقصى كالصينية، وفي بعض اللغات الغربية الفرنسية وفي الانجليزية[٣].

أما تعريف ابن سينا لدلالة اللفظ فهو: «أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع

(١) التعليقات: ١٩٢.

(٢) يراجع مبحث (٢. ٥ ـ التنغيم).

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٢٢٥.

اسم ارتسم في النفس معنى فتعرف النفس أنّ هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه»[١]. والعكس كذلك إذ كلما حضر المدلول بالبال صحبه الدال.

ويُشبِّه ابن سينا هذا التلازم بين دلالة اللفظ والمعنى بدلالة العسل المشاهد على الحلاوة. فكما أنّ العسل تدرك حلاوته بحس الذوق، ويدرك لونه بحس البصر، وإذا ما رآه الإنسان ارتسمت حلاوته في نفسه «فكذلك الألفاظ إذا سُمعت أُدرك من سماعها معنى، فارتسم في النفس المعنى واللفظ معاً، فكلما خطر بالبال ذلك المعنى، أُدرك اللفظ، وكلما سُمع ذلك اللفظ أدرك المعنى»[٢].

فهناك عملية تلازم وطيدة تتبلور في تلازم الدال والمدلول على محور الإستبدال، وتبلغ عملية التلازم هذه أقصى درجات التفاعل في محور التوزيع، فيعمد الذهن إلى رصف الوحدات الدالة في لُحمة متكاملة لتحقيق غايات الاتصال أو التعبير عموماً، فتنتظم الوحدات انتظاماً متفاعلاً يطبع العبارة بطابع التفرد الدلالي والتوحد المعنوي[٣].

---

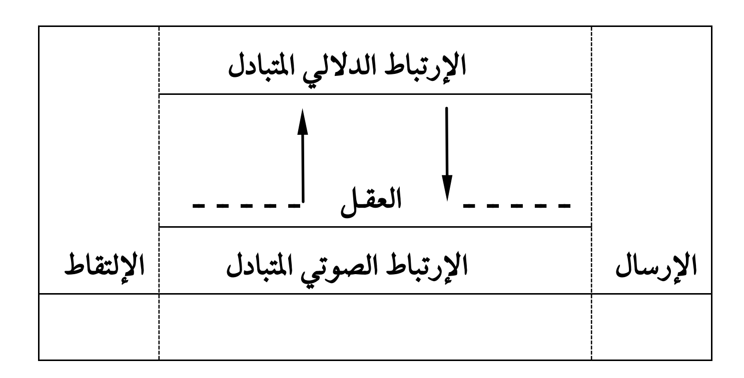
(١) الشفاء: ٤.

(٢) التعليقات: ١٦٢.

(٣) للإحاطة بفكرة التلازم على محوري الاستبدال والتوزيع، يُراجع (التفكير اللساني في الحضارة العربية: ١٦٦) و(البحث الدلالي عند ابن سينا: ١١٦). ويُلاحَظ: الشكل رقم (١ ـ ٧).

شكل رقم (١ ـ ٧)

عملية التواصل عند الفرد



١ . ٢ . ٣ . ٢ . ٢ ـ أقسام الدّلالة عند ابن سينا

سار ابن سينا على خطى أستاذه الفارابي فتعرّض للعلاقة بين اللفظ والمعنى أو الدال والمدلول وفق التقسيم الذي رسَمه، ولكن مع تفصيلات أوفى، فقد تناول تلك العلاقة من جوانبها الثلاثة المشار إليها سابقاً، وهي دلالة المطابقة ودلالة التضمن ودلالة الإلتزام. وفي تمثيله لدلالتي المطابقة والتضمّن يورد ما أورده الفارابي.

فدلالة المطابقة تعني عند ابن سينا التطابق الحاصل بين اللفظ وما يدل عليه، كالإنسان فإنه يدلّ على الحيوان الناطق.

أمّا **دلالة التضمُّن** فهي ما يتضمنه اللفظ من معان جزئية تدخل في ماهيته، كقولهم: الإنسان، فإنه يتضمَّن الحيوان.

أما **دلالة الالتزام** فتحتاج إلى أمر خارجي لعقد الصلة بين الدال ولازمه[١]، ويمثل لها ابن سينا بقوله: «ودلالة الالتزام مثل دلالة المخلوق على الخلق والأب على الابن، والسقف على الحائط، والإنسان على الضاحك، وذلك أن يدلّ أولاً دلالة المطابقة على المعنى الذي يدّل عليه أولاً، ويكون ذلك المعنى يصحبه معنى آخر، فينتقل الذهن أيضاً إلى ذلك المعنى الثاني الذي يوافق المعنى الأول ويصحبه. وتشترك دلالة المطابقة ودلالة التضمن في أنّ كلاًّ منها ليس دلالة على أمر خارج عن الشّيء»[٢].

فما يُميز دلالة المطابقة عن دلالة الإلتزام أنّ الأولى شرط للثانية، ولا يتم بلوغها إلاّ بتصور الأب كونه (أب له أولاد)، فدلالة الأب على الإبن علاقة التزام تم الإنتقال إليها عن طريق دلالة المطابقة بين لفظ الأب ومدلوله.

أما ما يُميِّز دلالة الالتزام عن سابقتيها فهو أنها «تستدعي مدلولاً خارجاً عن اللفظ، أما دلالتا التضمن والمطابقة فإنهما تستدعيان مدلولهما من لفظيهما، لأن دلالة اللفظ على كل أجزائه هي دلالة مطابقة، أما علاقته بجزء من هذه الأجزاء فهي علاقة تضمُّن»[٣].

إنّ بحوث الشيخ الرئيس في مجال الأقسام الدلالية لا تقف عند هذا الحدّ، فقد تحدث عن الدلالة اللفظية (الوضعية والطبيعية)، والدلالة الفلسفية، والدلالة التصوُّرية والتصديقية، كما فصّل الحديث في قضايا التحليل الدلالي والتحول الدلالي وغير ذلك. مما دعا الباحثين أن يفردوا لها الدراسات المستقلة[٤].

---

(١) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ١٤٤.

(٢) الشفاء، الإلهيات: ١/ ١٨٩.

(٣) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٤) للإطلاع على المباحث المشار إليها يراجع الفصل الثاني والثالث من كتاب: (البحث الدلالي عند ابن سينا ـ دراسة أسلوبية في ضوء اللسانيات) لمؤلفه الدكتور مشكور كاظم العوادي (٢٠٠٣م).

وخلاصة القول في ما قدمه ابن سينا في هذا المجال أنه «بِما أوتي من سَبرٍ عميق لبنية اللغة، وتحليل علمي لفعاليات الدلالة قد وضع أسس نظرية لغوية ذات رؤية متميزة في التراث العربي، ظهر فيها بوضوح أهمية العامل النفسي والذهني في تقديم التفسيرات الكافية للفعل الدلالي الموصوف بالتعقيد، وإنّ الذي أعان الشيخ الرئيس في استنباط تلك القواعد، التي تنتظم العالم الدلالي، هو امتلاكه للمنهج المنطقي القائم على الاستدلال والتعليل»[١].

١ . ٢ . ٤ ـ مفهوم الدلالة عند علماء أصول الفقه

يعرف الجرجاني علم أصول الفقه بأنه «العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى الفقه»[٢]. فهو إذن يتناول مجموعة القوانين المبتنية على الكتاب والسنة والعقل التي يعتمدها الفقهاء في استنباط الأحكام الشرعية.

وقد كان علماء أصول الفقه الإسلامي من أوائل من اهتم بدراسة اللغة بصورة عامة وبموضوع اللفظ والمعنى أو (الدلالة) والنظر في أنواعها بصورة خاصة. وذلك للصلة الوثيقة بين مجال بحثهم المتمثل بالقرآن والسنة وبين اللغة.

ونجد العلاقة المتبادلة بين اللفظ ومدلوله شاخصةً عند الأصوليين في نظرتهم إلى مراتب الوجود. يقول أبو حامد الغزالي: «إنّ الشّيء في الوجود له أربع مراتب؛ أولها: حقيقة في نفسه، ثانيها: ثبوت مثال حقيقته في الذهن، وهو الذي يعبر عنه بالعلم، ثالثها: تأليف صوت بحروف تدل عليه، وهو العبارة الدالة على المثال الذي

---

(١) م.ن: ١٤٨.

(٢) التعريفات: ٤٥.

في النفس، رابعها: تأليف رقوم تدرك بحاسة البصر دالة على اللفظ وهو الكتاب... إلا أنّ الأوّلَيْن وجودان حقيقيان لا يختلفان بالأعصار والأمم، والآخَرين وهو اللفظ والكتابة يختلفان بالأعصر والأمم لأنهما موضوعان بالاختيار»[١].

والدلالة عند الأصوليين قسمان: دلالة تصورية: وذلك باعتبار ما يحصل في الذهن وانتقاله إلى معنى اللفظ من مجرد سماعه. ودلالة تصديقية: وهي انتقال ما يحصل في الذهن إلى معنى اللفظ حينما يكون المعنى الذي يقصده المتكلم واقعاً جداً، ولا تتم دلالة الألفاظ على معانيها إلاّ بالدلالة التصديقية، وذلك لأنّ ظهورها في كون تلك المعاني مرادة لمتكلمها يتبع الإرادة لا محالة. أما الدلالة التصورية فهي غير ثابتة للإرادة بالإجماع[٢].

ودلالة اللفظ على المعنى تعني أن يرتبط كل لفظ بمعنى خاص ارتباطاً من شأنه أن ينتقل الذهن، عند تصور اللفظ انتقالاً مباشراً إلى تصور المعنى، ويسمى اللفظ (دالاً) والمعنى (مدلولاً)[٣].

١. ٢. ٤. ١ ـ أقسام اللفظ عند الأصوليين

قسّم الأصوليون الألفاظ انطلاقاً من كونها أحد الأسس الثلاثة التي اعتمدوها لبيان دلالات الألفاظ وتحديد معانيها وهذه الأسس الثلاثة هي:

الأول: مراعاة المقاصد الشرعية من الأحكام، لأنّ دلالة الألفاظ على المعاني قد تحتمل عدة وجوه، والذي يرجح وجهاً منها هو معرفة قصد الشارع.

(١) المستصفى من علم الأصول: ٣٢/١.

(٢) للإستزادة يُراجع: المستصفى من علم الأصول: ١١/١ والإشارات والتنبيهات: ١٢/١.

(٣) البحث الدلالي عند ابن سينا: ٧٩ ـ ٨٠.

الثاني: مراعاة السياق والقرائن المصاحبة، وتبدأ فكرة السياق عند الأصوليين من اللفظ في سياق الجملة، والجملة في سياق النصّ القرآني. ومن ذلك تفسير (الظلم) بالشرك[١] في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، لأنّ السياق اللفظي العام للسورة يدل على أن المراد بالظلم هنا هو الشرك، وبدليل ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

الثالث: مراعاة الفروق الدلالية بين الألفاظ[٢].

و قد قسّم علماء الأصول الألفاظ باعتبار الدلالة أو المعنى وفق معايير متعددة نوجز فيما يلي بعضاً منها:

١. ٢. ٤. ١. ١ ـ معيار وضع اللفظ للمعنى

يقسم الأصوليون اللفظ من جهة وضعه للمعنى إلى نوعين: خاص، وعام.

١. ٢. ٤. ١. ١. ١ ـ اللفظ الخاص

ويُقصد به اللفظ الموضوع للدلالة على واحد من هذه الأصناف: فرد؛ كعيسى، أو نوع؛ كرجل، أو جنس؛ كنبات، أو معنى؛ كالإيمان. واللفظ الخاص قد يكون مطلقاً، أو مقيداً. والمطلق: مالم يُقيّد بقيد لفظي يقلّل من شيوعه كرجل وبقرة وشجرة. والمقيّد: خلاف ذلك كرجل صالح، وبقرة صفراء، وشجرة تين.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٥٩/٧ وقاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ٣٠٨.

(٢) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٧٧.

١. ٢. ٤. ١. ١. ٢ ـ اللفظ العام

ويُقصد به اللفظ الموضوع للدلالة على أفراد غير محصورين على سبيل الشمول والاستغراق، وتسمَّى بألفاظ أو صيغ العموم. وهو أنواع، وقد ورد في القرآن الكريم منها ثلاث صور:

١. ٢. ٤. ١. ١. ٢. ١ ـ لفظ عام يُراد به العموم

كما في لفظ (دابّة) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

١. ٢. ٤. ١. ١. ٢. ٢ ـ لفظ عام يُراد به الخصوص

كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران: ٩٧]، فلفظ الناس في الآية عام يُراد الخصوص بقرينة ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ اللفظية.

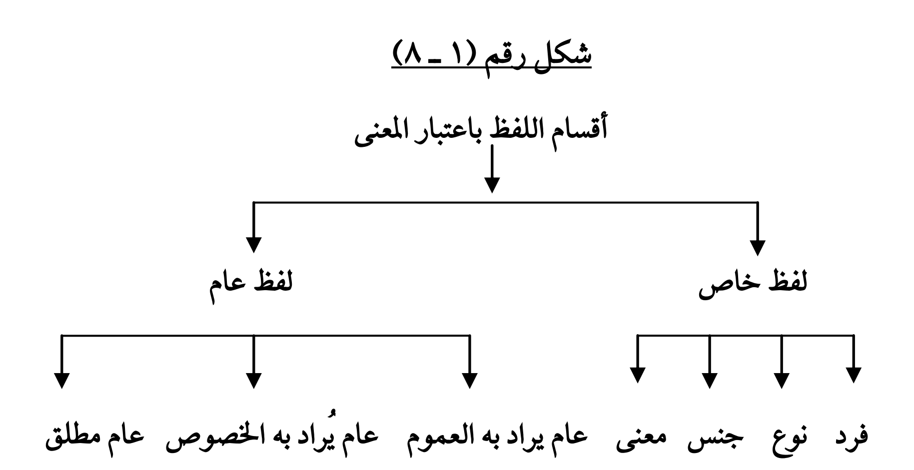
١. ٢. ٤. ١. ١. ٢. ٣ ـ لفظ عام مطلق

وهو اللفظ الذي لا تصحبه قرينة تفيد دلالته على العموم أو الخصوص، كلفظ (المطلّقات) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨][1].

---

(١) يُنظر: الشكل رقم (١ ـ ٨) الذي يُوضح أقسام اللفظ باعتبار المعنى.

شكل رقم (١ ـ ٨)



١. ٢. ٤. ١. ٢ ـ معيار طرق دلالة اللفظ على المعنى

عرّف الشريف الجرجاني الدلالة بقوله: «هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول»[١]. ثم بيّن بعد ذلك مباشرة انحصار دلالة اللفظ على المعنى عند الأصوليين في أربعة أقسام قائلاً: «وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص» وذلك تمييزاً لهم بين ما يُسمى بالمعنى الحرفي وبين المعنى اللزومي الذي يفرزه النص[٢]

ثم يبين الجرجاني ضوابط هذه الأقسام بقوله: «ووجه ضبطه أن الحكم المستفاد من النظم إمّا أن يكون ثابتاً بنفس النظم أو لا. والأول إن كان النظم مسوقا له فهو

(١) التعريفات: ١٣٩.

(٢) م.ن: ١٣٩.

العبارة، وإلا فالإشارة، والثاني إن كان الحكم مفهوماً من اللفظ لغةً فهو الدلالة، أو شرعاً فهو الاقتضاء، فدلالة النص: عبارة عما ثبت بمعنى النص لغةً لا اجتهاداً. فقوله: لغةً، كل من يعرف هذا اللسان بمجرد سَماع اللفظ دون تأمل، كالنهي عن التأفيف في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الاسراء: ٢٣] الإسراء يوقف به على حرمة الضرب وغيره مما فيه نوع من الأذى بدون الاجتهاد»[1].

١. ٢. ٤. ١. ٢. ١ ـ عبارة النص

وتُسمى أيضاً دلالة العبارة ويقصد بها ذلك «المعنى الذي يتبادر إلى الذهن من صيغة النص وهو الذي قصده الشارع من وضع النص، لأنّ المشرّع حين يضع النص يختار له من الألفاظ والعبارات ما يدل دلالة واضحة على غرضه ثم يصوغه بعد ذلك بحيث يتبادر المعنى المقصود من النص إلى ذهن المطلع بمجرد الاطلاع عليه»[2]. وتثبت الدلالة فيها باللفظ نفسه، وهي مقصودة من المتكلم. وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[النساء: ٣].

١. ٢. ٤. ١. ٢. ٢ ـ إشارة النص

ويُطلق عليها أيضاً دلالة الإشارة، وهي نوع من الدلالة الالتزامية، ولكنها غير مقصودة للمتكلم. ومن أمثلة هذا النوع من الدلالة ما يُفهم من الجمع بين كلٍّ من قوله تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وبين قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤] حيث يُستَنتَج من ذلك الجمع أنّ

---

(١) م.ن: ١٣٩.

(٢) التشريع الجنائي الإسلامي: ٨٦ ـ ٨٧.

«أقلّ مدة الحمل ستة أشهر»[١].

١. ٢. ٤. ١. ٢. ٣ ـ دلالة النص

وفيها لا تثبت الدلالة باللفظ نفسه أو بالحكم المستفاد من النظم، بل هي مفهومة لغةً في دلالة النص وفحوى الكلام. وقد مثّل لها الجرجاني بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الاسراء: ٢٣]، فالآية تنهى الأبناء عن التأفّف أو قول (أفٍّ) للوالدين، ولكن النهي لا يتوقّف عند هذه الكلمة بل يتعدّاها ليشمل كل أنواع الأذى من أقوالٍ أو أفعال.

١. ٢. ٤. ١. ٢. ٤ ـ اقتضاء النص

وهي تشترك مع دلالة النص في أنّ الدلالة لا تثبت باللفظ نفسه أو بالحكم المستفاد من النظم، وتختلف عنها في كونها مفهومة شرعاً أو عقلاً لا لغةً[٢]. ففي الكلام دلالة على لفظ مسكوتٍ عنه، لا يستقيم معناه إلا بتقديره، وعدم تقدير اللفظ المحذوف من الكلام يترتب عليه كذب المتكلم بما لا يتفق مع مبدأ الصدق الذي هو أصل من أصول التخاطب السليم.

ومن أمثلة اقتضاء النص (محذوف شرعاً) قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ ...﴾ [النساء: ٢٣] أي: حُرِّم الزواج منهنّ، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ

(١) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: ٦٢.

(٢) البحث الدلالي عند ابن سينا: ٨١.

ٱللَّهِ بِهِۦ ...﴾ [المائدة: ٣] أي: حُرِّم أكلُها.

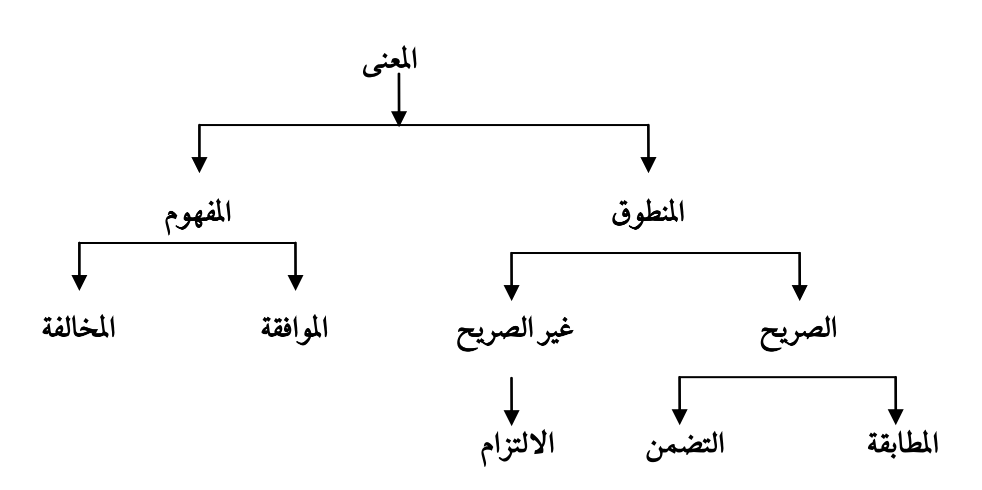
أما مثال اقتضاء النص (محذوف عقلاً) فقوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢]، فإنّ العقل يستدعي تقدير كلمة (أهل) أو ما شاكلها كي يستقيم المعنى.

١. ٢. ٤. ٢ ـ أقسام المعنى عند الأصوليين

اهتم الأصوليون بتقسيم المعاني بقدر اهتمامهم بتقسيم الألفاظ لأنهما شريكان في عملية البيان والتبليغ والإيصال. ونكتفي باستعراض سريع لمحاولة ابن الحاجب في تقسيم المعنى لأنها تمثل أحد أهم محاولات الأصوليين التي صنّفت المعنى أصنافاً مختلفة. ولنبدأ بتصنيف ابن الحاجب للمعاني[1]؛ فهو يرى أنّ «كل المعاني تدخل في نطاق المنطوق الصريح أو غير الصريح إلا مفهومي الموافقة، والمخالفة، فهما يدخلان في نطاق المفهوم. ويُقصد بالمنطوق الصريح المعنى الوضعي الذي يشمل دلالتي المطابقة، والتضمّن. أما المنطوق غير الصريح فيقتصر على ضربٍ من دلالة الالتزام، تلك التي لا توافق، ولا تخالف معنى المنطوق، فإن دلّت على أحد هذين المعنيين فهي من قبيل المفهوم، ولا تُعَدُّ من المنطوق.

(١) يُنظر: الشكل رقم (١ ـ ٩) الذي يُمثل تصنيف ابن الحاجب للمعاني.





ومن هنا يمكن استنتاج أنّ بعض اللوازم يدخل في دلالة المفهوم، وهو ما وافق أو خالف المنطوق، وبعضها يدخل في المنطوق غير الصريح، وهو ما لم ينطبق عليه هذا الشرط. وما ذهب إليه ابن الحاجب في قصره المفهوم على مفهومي الموافقة، والمخالفة مخالف للرأي المشهور عند علماء أصول الفقه»[1]. وفيما يلي نتناول تعريف أهم هذه المصطلحات مع توضيحها بشيء من الايجاز:

١. ٢. ٤. ٢. ١ ـ دلالة المنطوق

تقدّم أنّ المنطوق نوعان: المنطوق الصريح والمنطوق غير الصريح. وقد عرّف ابن الحاجب دلالة المنطوق بقوله: «الدلالة منطوق، وهو ما دل عليه اللفظ في محل النطق، والمفهوم بخلافه أي لا في محلّ النطق»[2].

---

(١) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: ٥٤.

(٢) مختصر المنتهى الأصولي: ٢/١٧١.

١. ٢. ٤. ٢. ١. ١ ـ المنطوق الصريح

ثم عرّف المنطوق الصريح بقوله: «وهو ما وضع اللفظ له»[١]. وتشمل دلالة المنطوق الصريح دلالتَي المطابقة، والتضمن.

١. ٢. ٤. ٢. ١. ١. ١ ـ المطابقة

يُقصد بالمطابقة أن يدلّ اللفظ وضعاً على كمال المسمى، كأن يدل لفظ (إمرأة) على ذلك الإنسان البالغ المؤنث (إنسان + بالغ + مؤنث)، وعلماء التراث، كما رأينا سابقاً، لم يختلفوا «في كون هذه الدلالة وضعيةً بل يتفقون في أنّ الوضع كان لها، وهي عادةً المقصودة عند الإطلاق، فإن قيل دلالة الجملة أو الكلمة دون أن يُضاف قيد على ذلك، فإنّ المقصود بذلك دلالة المطابقة. وهذا النوع من الدلالة هو الذي تتعلّق به النسبة الخارجية»[٢]، فنحكم من خلالها على الجملة (الإخبارية) بأنها صادقة أو كاذبة.

١. ٢. ٤. ٢. ١. ١. ٢ ـ التضمن

يُقصد بالتضمّن ـ كما أُشيرَ سابقاً ـ أنْ يدلّ اللفظ على جزءٍ من معناه[٣]، كأن يدلّ لفظ (إمرأة) على واحد من هذه الأمور (إنسان) أو (بالغ) أو (مؤنث)، كما دلَّ (الإنسان) وهو (الحيوان الناطق) على جزءٍ من معناه وهو (الحيوان) أو (الناطق)[٤].

وإذا كان الأصوليون قد عدّوا دلالة المطابقة دلالةً وضعية فإنهم قد اختلفوا «في

(١) م.ن: ٢/١٧١.

(٢) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: ٥٦.

(٣) إحصاء العلوم: ٧٨.

(٤) التعريفات: ١/١٤٠.

إدراج دلالة التضمن تحت الدلالة الوضعية، فمنهم من يرى أنها وضعية لفظية، ومنهم من يرى أنها عقلية، وممن قالوا بالرأي الأول سيف الدين الآمدي، وابن الحاجب، ومِمّن ذهب إلى الثاني الغزالي، والرازي»[١].

١. ٢. ٤. ٢. ١. ٢ ـ المنطوق غير الصريح

ذكرنا أنّ ابن الحاجب قسّم المنطوق إلى نوعين: صريح «وهو ما وضع اللفظ له» وغير صريح «وهو ما يلزم عنه»[٢] فيدلّ عليه بدلالة الإلتزام. والحكم في غير الصريح وإن لم يُذكر ولم يُنطق به، لكنه من أحوال المذكور[٣].

وقد أدخل ابن الحاجب في المنطوق غير الصريح دلالتين مما أشرنا إليهما سابقاً، وهما: دلالة الاقتضاء؛ وهي دلالة مقصودة، ودلالة الاشارة؛ وهي دلالة غير مقصودة، مضيفاً إلى الأولى دلالة التنبيه والإيماء التي سبق أن أشار إليها الآمدي بقوله: «وذلك بأن يكون التعليل لازماً من مدلول اللفظ وضعاً، لا أن يكون اللفظ دالاً بوضعه على التعليل»[٤]. ومن هنا فليست هناك إشارة صريحة إلى علّة الحكم بل إنّ النص يحمل في طيّاته عناصر التعليل ويومِئ إليه، «فإذا قلنا (عَظُمَ العالِم) فدلالة الإيماء (الدلالة الخفية) هي كون التعظيم كان للعالِم لعلمه، وهي قريبة إلى المعنى الإيحائي الذي يتصل بكلمات ذات قدرة على الإيماء، والإيحاء نظراً لشفافيتها»[٥] [٦].

---

(١) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: ٥٧.

(٢) مختصر المنتهى الأصولي: ١٧١/٢.

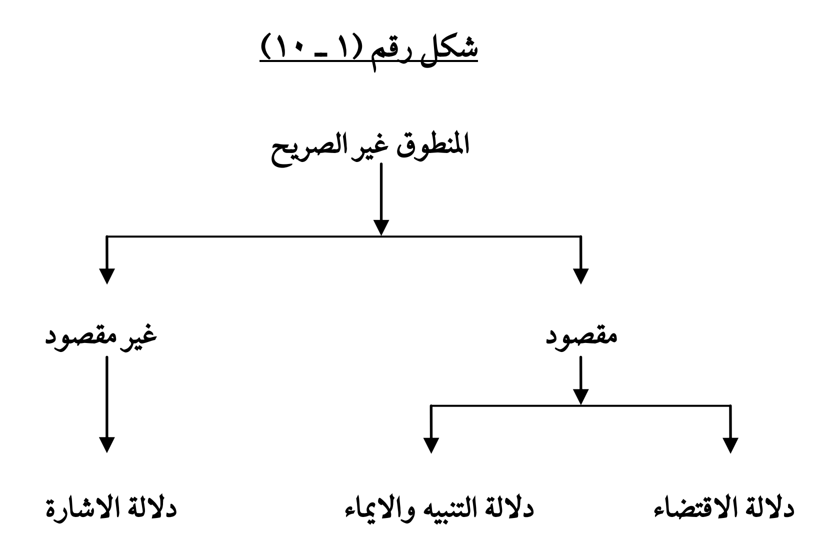
(٣) البحث الدلالي عند ابن سينا: ٨٠.

(٤) الإحكام في أصول الأحكام: ٢٧٩/٣.

(٥) علم الدلالة: ٣١.

(٦) يُنظر: الشكل رقم (١ ـ ١٠) الذي يُمثل تصنيف دلالة المنطوق غير الصريح عند الآمدي وكذلك عند غيره من علماء الأصول.

شكل رقم (١ ـ ١٠)



١. ٢. ٤. ٢. ٢ ـ دلالة المفهوم

تقف دلالة المفهوم في مقابل دلالة المنطوق، وقد قيل عن المفهوم بأنه «ما فهم من اللفظ في غير محل النطق»[1] فإذا كان المنطوق هو دلالة اللفظ على معناه في محل النطق، فإنّ المفهوم بخلافه، أي: لا تكمن دلالته في محل النطق، بل يكون حكماً لغير المذكور وحالاً من أحواله. وتنقسم دلالة المفهوم إلى قسمين: مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة، وكلا الموافقة والمخالفة يُفهم منه بطريق الالتزام[2].

١. ٢. ٤. ٢. ٢. ١ ـ مفهوم الموافقة

يُقصد بمفهوم الموافقة «أن يكون المسكوت موافقاً في الحكم»[3]، للمنطوق،

(١) الإحكام في أصول الأحكام: ٣/٧٤.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون أو موسوعة اصطلاحات العلوم: ٦/١٤٢٠ ـ ١٤٢١.

(٣) مختصر المنتهى الأصولي: ٢/١٧٢.

فالنهي عن قول (أُفّ) الوارد في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الاسراء: ٢٣] يستلزم (لا تضربهما)، وذلك «لأنّ العقل يدلّ على أنّ الضرب أشدّ أذىً من قول (أُفّ)»[(١)].

وقد نبّه الأصوليون إلى أنّ مفهوم الموافقة يشمل نوعين؛ فقالوا: «والدلالة في جميع هذه الأقسام لا تخرج عن قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى، وبالأعلى على الأدنى»[(٢)]:

(أ) التنبيه بالأدنى على الأعلى: ومثاله الآية السابقة، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، التي تدلّ (من بابٍ أولى) على أنّ (من يعمل أكثر من ذرّة خيراً يره).

(ب) التنبيه بالأعلى على الأدنى: ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وهو يستلزم (من بابٍ أولى) أنّ (من أهل الكتاب مَن إن تأمنه بأقلّ من قنطار يُؤدّه إليك).

وكما هو واضح في نوعي مفهوم الموافقة «فإنّ الحكم في محل السكوت أولى منه في محلّ النطق»[(٣)]. أي: إنّ حكم المسكوت عنه المفهوم من السياق أقوى وأسبق من حكم المنطوق به، وهذا ما عبّرنا عنه بالأولوية.

١. ٢. ٤. ٢. ٢. ٢ ـ مفهوم المخالفة

وهو القسم الثاني من دلالة المفهوم، أما تعريفه «فهو ما يكون مدلول اللفظ في

(١) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: ٦٢.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام: ٧٥/٣.

(٣) م.ن: ٧٥/٣.

محل السكوت مخالفاً لمدلوله في محل النطق، ويسمى أيضا فحوى الخطاب ولحن الخطاب»[1]. وهو بذلك يقف على النقيض من دلالة الموافقة، فإذا كان المسكوت عنه في مفهوم الموافقة يمثّل امتداداً لدلالة المنطوق، فإنّ المسكوت عنه في مفهوم المخالفة يخالف تماماً دلالة المنطوق.

ومن أمثلة مفهوم المخالفة قول أحدهم: (اليوم قمتُ باكراً) فمفهوم المخالفة فيه أنه بالأمس لم يكن كذلك، أي: لم يَقُمْ باكراً، بل قامَ متأخراً.

ويقسم أصحاب الأصول مفهوم المخالفة إلى عشرة أصناف متفاوتة في القوة والضعف[2]، منها على سبيل المثال:

١ـ مفهوم الصفة: وهو أن يُذكر الاسم العام مقترناً بصفة خاصة كقوله صلى الله عليه وآله: (في الغنم السائمة زكاة)[3]، ومفهوم المخالفة فيه عدم وجوب الزكاة في الغنم المعلوفة.

٢ـ مفهوم الشرط والجزاء: ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦] فمنطوق الآية أنّ شرط الإنفاق عليهن كونهنّ حوامل، أما مفهوم المخالفة فيقتضي أنّ أجل غير الحوامل خلاف ذلك.

٣ـ مفهوم الغاية: ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] ومفهوم المخالفة أنّ المطلقة ثلاثاً تحلّ إذا نكحت زوجاً غيره.

إنّ ما عُرف عند الأصوليين المسلمين بمفهوم المخالفة تَمّت مناقشة معظم أنواعه

(١) م.ن: ٧٤/٣.

(٢) نفس المصدر: ٧٨/٣.

(٣) السائمة: هي حيوانات مكتفية بالرعي في أكثر الحول» (التعريفات: ١٣٩). وينظر الحديث في: (الإحكام في أصول الأحكام: ٧٨/٣).

تحت مسمّى المفهوم التدرّجي (scalar implicature) ويبدو «أنّ تسمية الأصوليين جاءت من كون حكمه مخالفاً لحكم المنطوق أو المذكور، في حين جاءت تسمية الغربيين من كون المفهوم جزءاً من مفهوم افتراضيّ أعمّ تناول المنطوق جزءاً منه، وسكت المتكلم عن الجزء الآخر»[1].

وربما اختلف العلماء المسلمون ـ وقد سبقوا نظائرهم من علماء اللّغة الغربيين في بحوث الدلالة اللغوية بمختلف مستوياتها وأبعادها ـ في المسمّيات والمصطلحات، لاختلاف الزمان واللغة والبعد المعرفي كما هو حاصل في مصطلحات العلوم والمعارف الاسلامية ذاتها في الدرس الدلالي العربي، إلاّ أنّ ما أنتجته القريحة الإسلامية سيبقى نتاجاً حيّاً، رفد وسيظلّ يرفد الانسانية بعطاءاته ويَمُدّها بأسباب الفكر.

---

(١) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: ٦٢.

المبحث الثالث

١. ٣ ـ الدلالة عند المحدثين

غدت الدلالة عند المحدثين علماً قائماً بذاته، أُطلق عليه مصطلح (Semantics). واختار البعض أن يُسَمّيه (علم المعنى)، ولذلك عرّفوه «بأنه دراسةُ المعنى»[١]، وجعلوه بادئ ذي بدء مقصوراً على دراسة الألفاظ المفردة[٢]، وتحليل المعنى المعجمي الذي يدرس معاني الكلمات المفردة[٣]. لهذا كان اهتمام الأوربيين واللغويين العرب في العصور الوسطى مُنصَبّاً على دراسة الألفاظ بصفة عامة وعلاقاتها بالمعنى، والحقيقة والمجاز، وبعض الظواهر اللغوية الأخرى التي تتصل بالألفاظ، كالترادف (Synonmy) والمشترك اللفظي (polysemy) والجناس (Homonmy) والأضداد (Antonymy) والاشتقاق (Etmology) (أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٤٥).

١. ٣. ١ ـ الدلالة عند أوائل المحدثين

وقد استمرت الدراسة الدلالية تنحو هذا المنحَى حتى نهاية القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين حيث ظهر اللساني الفرنسي ميشال بريال (Mishel Breal)

---

(١) علم الدلالة: ٩.

(٢) البحث الدلالي في تفسير الميزان: ٤٥.

(٣) تغير هذا الاتجاه في السبعينات عند كل من كاتز (J.Katz) وفودر (A.Fodor) فلم يعد الدرس الدلالي مقتصراً على دراسة المفردات وتحليل المعنى المعجمي فحسب، بل عني كذلك بالمعنى التركيبي الذي يدرس معاني التراكيب (سيكولوجية اللغة والمرض العقلي: ١٠٧).

ولفت أنظار اللسانيين إلى مشكلة المعنى، من خلال إصدار أول دراسة علمية حديثة خاصة بالمعنى باللغة الفرنسية في كتابه: (Essai de Semantique) أي (دراسات في علم الدلالة) سنة ١٨٩٧م[١].

١. ٣. ٢ ـ الدلالة عند بريال وبعده

وهذا المصطلح (Semantique) الذي أطلقه بريال على دراسته هذه كان قد استعمله لأوّل مرّة اعتماداً على الكلمة اليونانية التي تشير إلى هذا المفهوم الذي ظهر في كلٍّ من بريطانيا وفرنسا للإشارة إلى الدلالة وتطورها. ويُذكر أنّ هذا الكتاب صدر بالإنجليزية عام (١٩٠٠م) أي بعد ثلاث سنوات من نشر الأصل بالفرنسية، ويُعَدّ من بواكير الأعمال اللسانية التي تتناول علم الدلالة وعلم المعنى[٢].

وقد كان ما توصّل إليه بريال في دراسته هذه من (مبادئ) و(أصول) مأخوذة كلّها، تقريباً، من دراسة اللغات الكلاسيكية؛ اليونانية، واللاتينية، والسنسكريتية. بحيث كانت الدراسة الدلالية عند بريال، وبعده بفترة غير قصيرة مقصورةً على (الاشتقاق التاريخي)، فقد كان يرى في (الأصول) التي تحكم تغيّر المعنى خصائص عقلية مجرّدة. لذلك كان هو «ومن خلفه إلى حين لا يعنون العناية الواجبة بالجوانب الاجتماعية وغير الاجتماعية للظروف الإنسانية التي يحدث فيها التغيّر»[٣].

ولكنّ بريكلي رأى أنّ ما جمعه بريال في كتابه المسَمّى بـ (مبحث في الدلالة) من

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٢٩١.

(٢) مدخل إلى علم الدلالة: ٣١.

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٢٩٢.

كتابات ودراسات تدور كلّها على ثلاثة أصول[١]، هي:

- توسّع المعنى وتقليصه.
- تحوّل المعنى.
- انحراف المعنى.

ثم اتسعت بعد ذلك البحوث والدراسات في المعنى والدلالة، واتّضحت المناهج، وتطوّرَ البحث فيها، ولم تَعُد تقتصر على الجوانب التاريخية فحسب، بل تَمّ إدخال الجوانب الإجتماعية والنفسية والإنسانية، وكلّ ما له علاقة بالمعنى في البحوث الدلالية[٢].

وقد أتيح لهذا المصطلح فيما بعد الانتقال إلى اللغات الأوربية الأخرى، وبدأت تظهر محاولات بعض المهتمين بالمعنى من اللسانيين وغيرهم لدراسة دلالات ومعاني الكلمات، فأخذ بعضهم يدرس دلالات مجموعات من الكلمات المترابطة التي تستعمل في ميدان من الميادين فيما عُرف فيما بعد بنظرية المجال الدلالي أو الحقول الدلالية.

فقد قام اللسانيون الألمان بمحاولات عديدة في مجال تصنيف مجموعات من الكلمات التي يجمعها معنىً واحد، كما فعل الألماني إبسن (Ipsen) عندما جمع الكلمات التي تتصل بالأغنام وصنّفها بحسب مولدها وأشكالها وترتيبها. كما قام لساني ألماني آخر يُدعَى هروكورت (Heraucourt) بدراسة دلالية للكلمات المتعلقة

---

(١) يُنظر: (Herbert.E.Bre'le: Semantique.Ed, Armant Colin Parism ١٩٧٤p ,١٩.) نقلاً عن بحث بعنوان: الدلالة اللسانية للدكتور منذر العياشي، منشور في مجلة الموقف الأدبي العدد ٢٨٦ و٢٨٧ شباط و آذار ١٩٩٥م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

(٢) يُنظر: (علم الدلالة، مقدمة المترجمة نور الهدى لوشن: ٧).

بالقيم الأخلاقية عند الشاعر الإنجليزي تشوسر. وتطالعنا دراسة ثالثة قام بها ترير (Trire) سنة (١٩٣٢م) تتعلق بالكلمات المتصلة بميدان (الذكاء)، وذلك انطلاقاً من نصوص اللغة الألمانية القديمة والوسطى[١].

يبدو مما سبق أنّ المرحلة التي تلت بريال بدأت تبتعد عن المنهج التاريخي في دراسة الكلمات، وإنما صارت تعتمد على المنهج الوصفي[٢] الذي انتهجه العرب والمسلمون في دراساتهم اللغوية. وقد بدأت تتضح معالم هذا المنهج بفضل ما جاء به العالم السويسري فردينان دي سوسير في مجال علم اللغة.

١. ٣. ٣ ـ فرديناند دي سوسير ونظرية الإشارة

إلى جانب ما ذكرنا من الدراسات التطبيقية التي أنجزها اللسانيون الألمان وغيرهم في تحديد مسار الدراسات اللغوية بصورة عامة ودراسة المعنى بصورة خاصة فقد كانت المحاضرات التي ألقاها دي سوسير[٣] (١٨٥٧ ـ ١٩١٣) ونشرها تلاميذه سنة ١٩١٦م

---

(١) يُنظر: (Guiraud: Pieere, La semantique,P.٧٧) نقلاً عن: (أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٤٦)، وينظر: (مقالات في تاريخ النقد العربي: ٢٩٣).

(٢) يتناول المنهج الوصفي بالدراسة لغة واحدة أو لهجة واحدة في زمان ومكان معينين. وقد ظلّ الباحثون في القرن التاسع عشر يستخدمون المنهجين المقارن والتاريخي في دراسة اللغة حتى جاء سوسير وفصل بين الدراستين الوصفية والتاريخية. واهتم اللغويون بعده بالمنهج الوصفي، ورفض بعضهم المنهج التاريخي للظواهر اللغوية (أصول التراثية في اللسانيات الحديثة: ٦٦) و(مقالات في تاريخ النقد العربي: ٢٤١ ـ ٢٤٥).

(٣) عالم لغوي ولد سنة ١٨٥٧م، ودرس في جنيف ثم ليبزغ، كما درس النحو المقارن بباريس، وأعدّ دراسة مهمة في اللغات الهندوأوربية، قام بعض تلاميذه بنشر دروسه التي ألقاها في الحقبة الأخيرة من حياته، وتم ترجمتها إلى اللغة العربية بعناوين مختلفة منها: (دروس في الألسنية العامة) ترجمة ←

من أهم المؤثرات التي أرست دعائم علم الدلالة، فغدا بحق مؤسس علم اللغة الحديث.

واللغة عند دي سوسير هي «نظام من الإشارات (System of signs) التي تعبر عن الأفكار»(١). فهو يرى «أنّ الإشارة اللغوية تتكون من (مُشير)[Signifier] و(مُشار إليه) [Object]، وهما الصورة السمعية والتصوّر اللّذان بينهما رابط نفسي، أي أنّ الأصوات التي ننطقها، أو الأشياء الواقعية التي نتكلّم عنها يُشار إليها برموز مصطلح عليها»(٢).

وبذلك يكون مفهوم المعنى عند دي سوسير عبارة عن «ارتباط متبادل أو (علاقة متبادلة) بين الكلمة أو (الاسم)، وهي الصورة السمعية، وبين الفكرة»(٣) ، وليس بين الشيء والتسمية.

ودي سوسير لا يقصد بالصورة الصوتية، الناحية الفيزياوية للصوت بل يعني بها الصورة السايكولوجية للصوت، أي ذلك الانطباع أو الأثر الذي تتركه في الحواس. وهكذا فإنه يربط ربطاً محكماً بين الدال المحسوس المتمثل في الصوت، وبين المدلول المجرّد المتجسد في الذهن(٤). فالإشارة اللغوية، إذن، هي

← صالح القرمادي وآخرون، و(محاضرات في الألسنية العامة) ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، و(علم اللغة العام) ترجمة يوئيل يوسف عزيز (البحث الدلالي عند ابن سينا: ٩٥).

(١) علم اللغة العام: ٣٤.

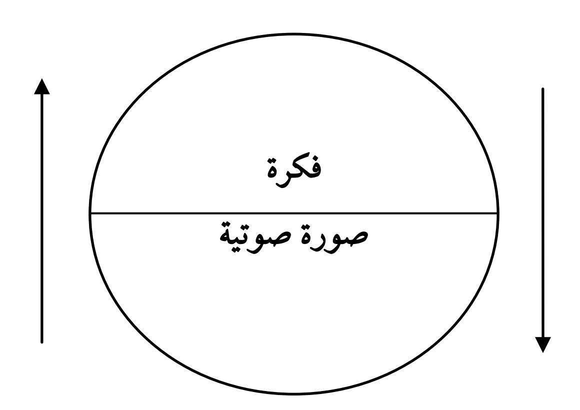
(٢) مدخل إلى علم الدلالة: ٦٤.

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٣٠٣.

(٤) كان ابن سينا قد سبق دي سوسير بتسعة قرون في إشارته إلى العلاقة التصورية بين الدال والمدلول في النظام اللغوي إذ يقول: «...كذلك في التصورات أشياء هي مبادئ للتصور وهي متصورة لذواتها، وإذا أُريد أن يدلّ عليها لم يكن ذلك بالحقيقة تعريفاً لمجهول بل تنبيهاً، وإخطاراً بالبال باسم أو ←

كيان سايكولوجي ؛ ذو جانبين[١].

شكل رقم (١ ـ ١١)



١ . ٣ . ٤ ـ أوجدن و ريتشارد والمثلث الدلالي

لقد غدا تصور دي سوسير للمعنى أساساً بَنَى عليه كثير من اللغويين ، وغيرهم ،

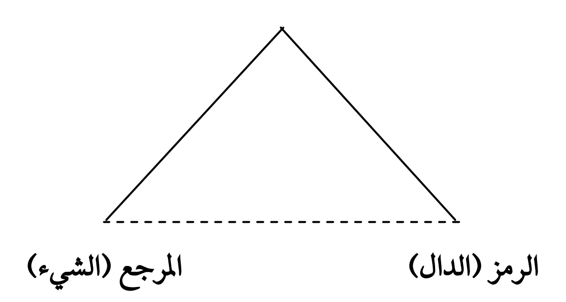
← علامة ، ربما كان في نفسها أخفى منه لكنها لعلة ما وحال ما تكون أظهر دلالة. فإذا استعملت تلك العلامة تنبّهت النفس على إخطار ذلك المعنى بالبال من حيث هو المراد لا غيره ، من غير أن تكون العلامة بالحقيقة معلمة إياها» (الإشارات والتنبيهات : ١/ ٢٩ ـ ٣٠). و يقول أيضاً : «وكلما سمع ذلك اللفظ أدرك المعنى ، لا أنّ اللفظ هو ذلك المعنى ، بل هو مؤدّ إلى إدراكه» (التعليقات : ١٦٢). و قوله : «ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس معنى فتعرف النفس أنّ هذا المسموع لهذا المفهوم فكلما أورده الحس على النفس التفت إلى معناه» (الشفاء : ٤)، ويُنظر : (البحث الدلالي في تفسير الميزان : ١١٥و ١٤٥).

(١) علم اللغة العام : ٨٥. ويُنظر : الشكل رقم (١ ـ ١١).

فيما بعد، تصوراتهم بخصوص المفهوم الدلالي، ويمكن ملاحظة ذلك في الدراسة التي قدمها كل من الناقدين الانجليزيين؛ أوجدن (Ogden) وريتشارد (Richards) في كتابهما الصادر سنة ١٩٢٣م بعنوان: معنى المعنى (The meaning of meaning) وهو الكتاب الذي أحدث ضجة كبيرة، وكان تأثيره أضعاف ما أحدثه كتاب بريال الذي كان السبّاق والموجّه في هذا المضمار[١].

لقد وضع هذان الناقدان في كتابهما هذا حوالي ستة عشرَ تعريفاً للمعنى، ذكرا أنها تمثل فقط أشهر هذه التعريفات[٢]. أمّا بخصوص العلاقة بين الدال والمدلول فقد لاحظا أنها ذات ثلاثة أبعاد يمثلها المثلث الدلالي (Semantics triangle) المكوّن من الرمز والمرجع والفكرة[٣].

شكل رقم (١ ـ ١٢)



(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٢٩٤.
(٢) سيكولوجية اللغة والمرض العقلي: ١١٤.
(٣) يُنظر: الشكل رقم (١ ـ ١٢).

ويمثل (الرمز) هنا العنصر اللغوي، سواءٌ كان كلمة أو جملة، و(المرجع) هو الشيء الموجود في العالم الخارجي، أما (الفكرة) فهي التصوّر. وقد تم الربط بين الرمز والمرجع بخط متقطّع لأنه «ليس هناك أيّ ربط مباشر بين الرمز والمرجع ـ أي بين اللغة والواقع ـ لأنّ الربط يمرّ عبر الذهن أي عبر التصوّرات الذهنية»[١] [٢].

ومِمّا تجدر الإشارة إليه تطابق هذا المثلث الدلالي مع ما رسَمه علماء الإسلام، في نظرتهم إلى الأبعاد الدلالية، وخاصة ما لحَظناه عند ابن سينا. والفرق الوحيد بين الإثنين هو اختيار مصطلح (الفكرة) من قبل أوجدن وريتشارد، في مقابل مصطلح (المفهوم) أو الصورة الذهنية في التراث العربي الإسلامي.

وقد تخَطّى هذان الناقدان حدود اللفظ وتجاوزاه إلى السياق فذهبا إلى أنّ معنى الكلمة لا يتّضح إلاّ بوضعها في سياقات مختلفة (Contextualization) ومن هنا بدأ اهتمام اللسانيين المهتمين بالمعنى بدراسة السياق (Contex) و«توالت الدراسات التي تعرض للمعنى ومشكلاته منذ أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، كما عرضت هذه الدراسات للنظريات المختلفة التي حاولت تحليل المعنى»[٣].

---

(١) مدخل إلى علم الدلالة: ٦٤.

(٢) للإستزادة يُنظر: (علم الدلالة: ٢٠)، و (سيكولوجية اللغة والمرض العقلي: ١١٤).

(٣) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

المبحث الرابع

١ . ٤ ـ موضوع علم الدلالة

تبيّن مِمّا سبق أنّ الدلالة (Signification) هي «العملية التي يقترن فيها الدال والمدلول في أذهاننا علم الدلالة يُعنى بدراسة الدلالات اللسانية»[١] ، وبتعبير آخر إنها «المعنى الذي تنقله الكلمة والذي يُعبر عن علاقة الدال بالمدلول عليه»[٢] ، تلك العلاقة التي تحكمها أركان أضلاع المثلث الدلالي.

أما علم الدلالة (Semantics) فإنه كما يُعرِّفه موريس أبو ناضر بأنه العلم الذي يعنى بدراسة الدلالات الألسنية، وخاصةَ الجانب المعنوي من هذه الدلالات، أي المدلول، والمدلول يدرس في ضوء هذا العلم من عدة جوانب[٣]، هي:

ـ **الجانب الأول**: ويتمثل في العلاقات التي يقيمها المدلول مع الأشياء التي يومئ إليها أو يعبر عنها (المفاهيم — العواطف ـ معطيات العالم الخارجي) وقد تم الإشارة إليها بخط متقطع في مثلث أوجدن وريتشارد.

ـ **الجانب الثاني**: ويتمثل في العلاقات التي يقيمها المدلول مع غيره من المدلولات.

ـ **الجانب الثالث**: يتمثل في العلاقات التي تنشأ بين السمات الأساسية التي

---

(١) الأسلوب والأسلوبية: ١٥١.

(٢) البحث الدلالي عند ابن سينا: ٩٠.

(٣) للإستزادة يُنظر: (مقال (مدخل إلى علم الدلالة الألسني) د. موريس أبو ناضر، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ١٨ ــ ١٩، السنة ١٩٨٢، ص٣٤)، و (علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي: ٦١).

تتكون منها المدلولات. لأنّ الدال قد يكون له أكثر من مدلول انطلاقاً من السياق اللغوي، وبذلك قد يكون المعنى أساسياً أو ثانوياً تصريحياً أو إيمائياً، حيث يرى (بيار جيرو) أنّ للكلمة أكثر من معنى تصريحيٍّ وآخر إيمائيٍّ، وذلك نظراً للتداعيات التي يمكن أن تحدثها أثناء الاستعمال، فأي كلمة قد تستدعي قيماً اجتماعية أو ثقافية أو حتى قيماً انفعالية[١].

و قد نظر البعض إلى علم الدلالة أو علم المعنى بأنه ذلك الفرع من فروع علم اللغة الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى. أما موضوعات علم الدلالة فتغطي فرعين:

أحدهما: يهتم ببيان معاني المفردات، وذلك عندما تعمل الوحدات اللغوية كرموز لأشياء خارج الدائرة اللغوية، ويسميها البعض بالمعاني المعجمية.

الثاني: يهتم ببيان معاني الجمل والعبارات أو العلاقات التي تحكم الوحدات اللغوية مثل المورفيمات، والكلمات، وذلك عندما تقوم العناصر اللغوية بدور الرموز لعلاقات بين عناصر لغوية أخرى، وهي ما يُسميها البعض المعاني النحوية[٢].

١. ٤. ١ ـ نظريات التحليل الدلالي

منذ أوائل النصف الثاني من القرن العشرين توالت الدراسات التي تعرّضت للمعنى ومشكلاته، وظهر عند الغربيين عدد من النظريات التي أخذت على عاتقها معالجة المعنى، وشرح طبيعته وتصنيفه إلى أنواع مختلفة وفقاً لمعايير متنوعة. نستعرض هنا أهم تلك النظريات:

(١) السيمياء: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) سيكولوجية اللغة والمرض العقلي: ١١٤.

١ . ٤ . ١ . ١ ـ النظرية الشكلية

تعتمد هذه النظرية في التصنيف الدلالي على الجذر اللغوي الواحد المشترك الذي تتفرع عنه هياكل دلالية مختلفة تحمل مدلولات ذات خصائص مشتركة تكشف القرابة بينها. وذلك نحو: علم، يعلم، تعليم، معلم، علامة. ولا تعالج هذه الطريقة الكلمات ذات المعاني المشتركة إذا لم تشترك في الجذر مثل: لَقّنَ، درّسَ، علّمَ(١).

١ . ٤ . ١ . ٢ ـ النظرية السلوكية

يتم تحديد المدلول وفق هذه الطريقة من خلال بعدين؛ أحدهما يتعلق المتكلم والموضع الذي يكون فيه، والثاني يتعلّق المستمع والموقف الذي يتخذه عند سماع المتكلم(٢). فتحديد المدلول يقوم على الفعل أو المثير الذي يحدده موضع المتكلم، والإثارة أو الاستجابة التي تتولد لدى المتلقي.

فالنظرية السلوكية تقوم على أساس مفهومي المثير (stimulus)، والاستجابة (response) المعروفين في علم النفس، لأنّ المدرسة السلوكية اللسانية هي في حقيقة أمرها امتداد للمدرسة السلوكية في علم النفس التي يتزعمها واطسن (Watson)، ويُعد بلومفليد (Bloomfield) صاحب كتاب اللغة (Language) حلقة الوصل بين المدرستين حيث اشتهر بنقل أفكار السلوكيين إلى مجال اللغة، وتطبيقها على الدراسات اللغوية(٣).

ويتم إطلاق (المثير)، وهو اصطلاح يتعلّق بالمتكلم، على الأحداث السابقة

---

(١) مفاتيح الألسنية: ١٢٥.

(٢) علم الدلالة: ٥٩ ـ ٦٠.

(٣) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: ٢٤ ـ ٢٥.

للكلام، والتي تكون مدعاةً للمتكلم أن يتكلم، أما (الاستجابة)، وهو اصطلاح يتعلّق بالسامع، فيطلق على الأحداث التي تلي الكلام، وتبدو بعض عناصر سياق الحال في المثال المشهور الذي عرض فيه بلومفيلد لقصة الزوجين جاك وجيل، حيث عرض أحداثها على النحو التالي:

١ـ أحداث عملية سابقة على الحدث الكلامي، وتتمثّل في رؤية جيل لتفّاحة وهي جائعة.

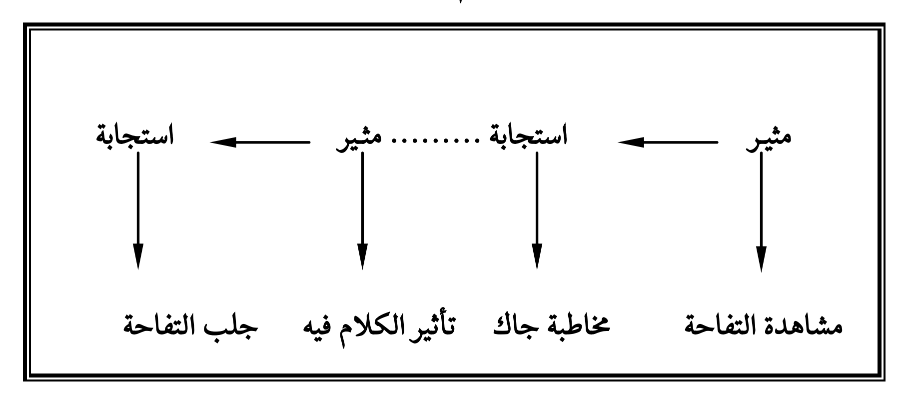
٢ـ الحدث الكلامي، والذي يتمثّل في تعبير جيل عن جوعها، وسماع جاك هذا التعبير.

٣ـ أحداث عملية تالية للحدث الكلامي، وتتمثّل في أن يقفز جاك السياج، ويتسلّق الشجرة، ويقطف التفّاحة، ويُحضرها، ويضعها في يد جيل، فتأكلها[1].
فهناك في هذه القصة (مثير) و (استجابة) يتكرّران بالتناوب مرتين[2].

---

(١) مدخل إلى علم الدلالة: ١٠٣.
(٢) يُنظر الشكل رقم (١ ـ ١٣) الذي يُصور ذلك.

<u>**شكل رقم (١ ـ ١٣)**</u>



وهكذا فإنّ النظرية السلوكية تأخذ بنظر الاعتبار شخصية المتكلم، وشخصية السامع، وبعض الظروف[1] المحيطة بالكلام؛ «بل إنّ هذه المدرسة بعنايتها بتحليل المظاهر الفسيولوجية والفيزيقية خاصة قد وجّهت عناية اللغويين نحو ربط المعنى بمجالات غير الكلام، مجالات تستلزم التحليل على مستويات خاصة»[2].

١. ٤. ١. ٣ ـ نظرية التحليل المكوّناتي

يرتبط مصطلح التحليل المكوناتي أو المؤلفاتي (Componential analysis) Component

---

(١) لقد اشار البلاغيون العرب إلى القرائن الخارجية المصاحبة للكلام وتأثيرها على قصد المتكلم، وتحديدها لدلالة الكلام، يقول القزويني: «وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدم مطابقته له فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب» (الايضاح في علوم البلاغة: ١٣).

(٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٣٠٩.

theory) بالأنثروبولوجي الأمريكي جوديناف (W.Goodenough) الذي أطلقه عام ١٩٥٦م كأداة لدراسة مصطلحات القرابة (Kinship terms).

وتعتمد هذه النظرية المنهجَ التركيبي في تحليل المعنى، «والتصوُّر التركيبي أو البنائي (Structuralist) للفونيم (الوحدة الصوتية) الذي يفترض أنّ الفونيم يشتمل على عدد من الصفات أو الملامح الدلالية التي تُميّز صوتاً عن صوت آخر في النظام الصوتي للغة معيّنة»[١].

ولذلك فإنّ أغلب تحليلات هذه النظرية مستلهمة من علم الأصوات الكلامي «إذ أنه يتعلّق بتطبيق طريقة الإبدال على الدلالة والتي تبرز الفونيمات أو الوحدات الصغرى للتعبير. مثلاً: (P) تتميّز عن (B) في مقطع مثل: (BO – PO)، كما أنّ (B) مؤلف من ميزات متلائمة صوتياً مثل الصوت الشفوي، والصوت الرّنان، والملفوظ (الشفهي)[٢]. ومثل هذا ينطبق على مورفيم [وحدة صرفية صغرى] أو مونيم [وحدة لغوية صغرى] معزول مثل كلمة (فرس)، فهي مؤلَّفة من تلاؤم دلالي وثيق الصلة بالموضوع مثل: حصان + أنثى»[٣].

فالتحليل الذي تقوم به هذه النظرية قائم على أساس تجزئة الوحدات المعجمية إلى مكوناتها الأساسية، من خلال تحديد الخطوط الدلالية الوثيقة الصلة باللفظ، وإبراز الصفات المشتركة للموضوعات المسمّاة باسم واحد. فإذا كان الشيء مادياً محسوساً أمكن ملاحظة ذلك مباشرةً بواسطة النظر، فالخطوط الدلالية الوثيقة الصلة بلفظ

---

(١) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٥٥.

(٢) إنّ هذه الملاحظات الصوتية التي توصّل إليها اللسانيون الغربيون في النصف الثاني من القرن العشرين كان قد فصّل القول فيها علماء فقه اللغة العربية قبل أكثر من عشرة قرون، كما فعل ابن جني (ت٣٩٢هـ) في كتابه الخصائص، باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني. يُنظر مبحث: (١. ٥. ١. ١).

(٣) علم الدلالة: ٦٧.

مثل: (كرسي) تتكوّن مما يلي:

(له مسند/ على أرجل/ لشخص واحد/ للجلوس/ بمواد تركيب صلبة)

فالملامح الدلالية التي يَشفّ عنها لفظ (كرسي) يتضمّن خمس خطوط دلالية تتبادر إلى الذهن عند سماعه. ومن خصائص هذا التحليل الدلالي تحديد الفروق الدلالية الدقيقة بين ما يمكن أن يُظَنّ من المترادفات[1]، وهي ليست كذلك. وتوضيحاً للمسألة نشير إلى المثال الذي أورده برنارد بوتر (Bernard Pottier)، فقد اختار خمس وحدات مخصصة لطراز الكراسي في اللغة الفرنسية، وأنشأ لها لائحة تعريفية بهدف تعريف كلّ منها تعريفاً شكلياً (فيزيائياً) يكون بمثابة الخطوط الملائمة للوحدة المدروسة[2].

---

(١) تنبّه اللغويون العرب إلى هذا النوع من التحليل الدلالي وأفردوا له المصنفات العديدة، ومن أولئك أبو منصور الثعالبي (ت٤٣٠هـ) في كتابه فقه اللغة وأسرار العربية، كما في الباب الثالث الموسوم بـ (في الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها) فقد أورد في الفصل الأول منه ما يلي: «لا يُقال كأس إلاّ إذا كان فيها شراب، وإلاّ فهي زجاجة. ولا يُقال مائدة إلاّ إذا كان عليها طعام، وإلاّ فهي خِوان... ولا يُقال أريكة إلاّ إذا كان عليها حَجَلَة، وإلاّ فهو سرير» (فقه اللغة وأسرار العربية: ٥٩).

(٢) علم الدلالة: ٦٧. ويُنظر: الجدول رقم (١ ـ ٥).

جدول رقم (١ ـ ٥)

الوحدة اللغوية	التعريف الشكلي
Tabourer	مقعد لا ظهر له ولا ذراعين
Fauteuil	كرسي بذراعين
Chaise	كرسي
Canape	أريكة
Pouf	وسادة صغيرة يُتّكأ عليها

إنّ فوائد هذه النظرية لا تتوقف عند معرفة الفروق الدلالية بين الألفاظ المترادفة فحسب، بل إنّها «تساعد على التوصل إلى تحديد نوع العلاقة بين معاني الوحدات المعجمية (أهي ترادف، أم تضاد، أم اندراج، أم تضمّن إلخ)، ودراسة علاقات المعنى دراسة علمية دقيقة، كما نجد لها تطبيقات بالغة الأهمية في مجال النحو، لا سيما التطابق والإسناد»[١].

١ . ٤ . ١ . ٤ ـ نظرية المجال الدلالي أو الحقول الدلالية

يعود الفضل في بلورة نظرية الحقول الدلالية (semantic field) إلى الألماني تريبي (Jost Trier) الذي نجح في بيان ما ظهر في عصره (حوالي١٩٣٠م) وبلورته في منهج يمكن تلخيصه بِما يلي: «مجموع الألفاظ للغة معينة تكون مبنيّة على مجموعة متسلسلة

(١) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: ٣٣.

لمجموعة كلمات أو (حقول معجمية)، كلّ مجموعة منها تغطي مجالاً محدّداً على مستوى المفاهيم (حقول التصوّرات)، زيادة على ذلك كل حقل من هذه الحقول سواء أكان معجمياً أم تصورياً، فهو متكون من وحدات متجاورة مثل حجارة الفسيفساء»[١].

وهذا يعني أنّ مدلولات اللغة تنتظم في حقول دلالية، وكلّ حقل دلالي مكوّن من عنصرين هما:

- الأوَّل: تصوَّري(champ conceptuel).
- والثاني: معجمي (Lexical).

ويتكوّن الحقل الدلالي من مجموعة من المعاني أو الكلمات المتقاربة التي تتميّز بوجود عناصر أو ملامح دلالية مشتركة، وبذلك تكتسب الكلمة معناها في علاقاتها بالكلمات الأخرى، خارج السياق الكلامي، لأنَّ الكلمة لا معنى لها بمفردها، بل إنَّ معناها يتحدّد ببحثها مع أقرب الكلمات إليها في إطار مجموعة واحدة[٢].

وقد عبّر اللساني الفرنسي فندريس عن الألفاظ التي تنتمي إلى حقل دلالي واحد بقوله: «إنَّ الذهن يميل دائماً إلى جمع الكلمات، وإلى اكتشاف عرى جديدة تجمع بينها، فالكلمات تتشّبت دائماً بعائلة لغوية»[٣].

وهكذا فإنّ تصنيف المدلولات في هذه النظرية قائم على أساس وجود قرابة دلالية معنوية بين مدلولات بعض الألفاظ دون أن يكون للهياكل الشكلية دور فيها، وذلك نحو: أبيض، أسود أخضر، أحمر، أزرق إلخ التي تُصنّف في حقل الألوان، ونحو:

---

(١) علم الدلالة: ٥٤.

(٢) أصول التراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٦٣.

(٣) كتاب: اللغة: ٣٣٣.

أب، وأم، وأخ، وأخت، وجد، وجدّة إلخ التي تُصنّف في حقل القرابة وهكذا[١].

وتعتبر هذه النظرية الأكثر حداثة في علم الدلالة، وذلك لأنها لا تسعى إلى تحديد البنية الداخلية (لمدلول أصغر الوحدات اللغوية المجردة والتي تمتلك معنى) (Moneme) فحسب، وإنما تعمل هذه النظرية كذلك على الكشف عن بنية أخرى تَسمح لنا معرفة أنّ هناك قرابة دلالية بين مدلولات عدد معيّن من هذه الوحدات اللغوية المجردة التي تمتلك معنى (المونمات)[٢].

إنّ هذه الخطوات الأولى التي شهدتها اللسانيات الحديثة في الغرب في الثلث الأول من القرن العشرين بخصوص الحقول الدلالية كانت قد اقتُبست فكرتها مما قام به علماء فقه اللغة العربية في أوائل القرن الثالث الهجري وبداية عصر التدوين، عندما صنّفوا الرسائل اللغوية على أساس فكرة المعنى أو المجال الدلالي الواحد، كخلق الإنسان، والإبل، والخيل، والشاء[٣]، والمطر، والوحوش، والحشرات، والنبات، والشجر، والمطر والأزمنة. وكذلك صنّفوا مؤلفات تحت عناوين أخرى غير الرسائل، مثل كتب

---

(١) يمكن تصنيف القسم الأول من كتاب (فقه اللغة وأسرار العربية) للثعالبي (٤٣٠هـ) والذي سماه بفقه اللغة بأنه يقوم أساساً على جمع ألفاظ العربية وتنظيمها بشكل دقيق وغير مسبوق وفقاً للحقول الدلالية، ومن ذلك على سبيل المثال: «فصل في ترتيب البياض: أبيضُ، ثم يَقِق، ثم لَهِق، ثم واضح، ثم ناصع، ثم هجان، وخالص» ثم يورد فصلاً في تقسيم البياض، وفصلاً في تفصيل البياض، وآخر في بياض أشياء مختلفة وهلّم جرّا (فقه اللغة وأسرار العربية: ١٢١ ـ ١٢٣).

(٢) علم الدلالة: ٧٩ ـ ٨٠.

(٣) وهو كتاب للأصمعي (ت٢١٤هـ)، وقد نشره هفنر (Haffner) محقّقاً لأوّل مرة في فيينا عام ١٨٩٦م في مجلة (SBWA)، كما نشر كتاب الإبل ضمن مجموعة (الكنز اللغوي) في ليبنرج عام ١٩٠٥م (أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٤٦).

الصفات، وكتب الغريب[١]، وكتب الألفاظ[٢] (أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ص٢٦٦ ومابعدها).

١. ٤. ١. ٥ ـ النظرية السياقية

تم استلهام النظرية السياقية (contextual theory) من مصطلح سياق الحال (Context of Situation) الذي استعمله البولندي مالينوفسكي (Malinowski) فأضفى عليه معنى خاصاً، ثم ما لبث أن تطور هذا المصطلح تطوُّراً آخر عندما استعمله اللساني البريطاني جون روبرت فيرث (J.R.Firth) (١٨٩٠ ـ ١٩٦٠م)[٣]، فارتبطت النظرية السياقية باسمه.

وتقوم هذه النظرية على أساس النظر إلى المعنى بوصفه «وظيفة في سياق»[٤]. وبهذا تُصنَّف المدلولات وفق هذه النظرية بحسب المعنى الذي يُحدّده السياق اللغوي. فالكلمة لا تُفهم إلا من خلال السياق[٥] بل إنها «لا معنى لها خارج السياق الذي تظهر فيه»[٦]. وبهذا الصدد أطلق الفيلسوف الألماني فتجنشتين (Wittgenstein) عبارته «لا تبحث عن الكلمة، بل ابحث عن استعمالها»[٧].

---

(١) للإستزادة، يُراجع: (فصول في فقه اللغة: ٢٠٣ ـ ٢٢٦).

(٢) من هذه الكتب: (الألفاظ) لإبن السكيت (ت٢٤٤هـ)، و(كتاب الألفاظ) للهمداني (ت٣١٠هـ)، و (جواهر الألفاظ) لقدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ)، و(متخيّر الألفاظ) لأحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ).

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٣٠٩.

(٤) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: ٢٧.

(٥) البحث الدلالي عند ابن سينا: ٩٣.

(٦) مفاتيح الألسنية: ١٢٥.

(٧) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٤٩.

ولقد أكّد فيرث (J.R.Firth) وتلامذته من أصحاب المدرسة الاجتماعية الانجليزية على أهمية دور السياق في تحديد المعنى، والاستعمال الفعلي للكلمة في إطار مجتمع بعينه، حيث يرى هؤلاء أنّ هذا الاستعمال يحكمه أمران:

الأول: السياق اللغوي نفسه (Verbal Context) الذي لا ينظر إلى الكلمات كوحدات منعزلة، لأنّ الكلمة لا يتحدد معناها إلا من خلال علاقاتها مع ما يجاورها من كلمات.

الثاني: سياق الحال (الموقف) (Context of Situation) أو فيما سمّاه البلاغيون العرب بالمقام[١] الذي يؤدي دوراً كبيراً في تحديد المعنى[٢].

ويُعرّفون سياق الحال بأنه: جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي، ومن هذه العناصر المكونة للموقف الكلامي أو الحال الكلامية:

١ ـ شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما (الثقافي) وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع ـ إن وُجدوا ـ وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي.

٢ ـ العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يُشارك في الموقف الكلامي، كحالة الجو إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي، وكمكان الكلام إلخ. وكلّ ما يطرأ أثناء الكلام من انفعال واستجابة، وغير ذلك.

---

(١) تنبّه البلاغيون العرب إلى أمر السياق، وعبّروا عنه بقولهم: (لكلّ مقام مقال). وقد أفاد المفسرون منه عندما نظروا في أسباب النزول، فهذا ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) يتحدث عن وظيفة السياق وأهميته بقوله: «...يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وتنوّع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير» (بدائع الفوائد: ٤/ ٩ ـ ١٠).

(٢) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٤٦و٢٥٠.

٣ ــ أثـر الـنص الكلامـي في المشـتركين، كالإقتنـاع، أو الألم، أو الإغـراء، أو الضحك إلخ[١].

ومفهـوم (فـيرث) لسـياق الحـال بوصـفه الوسـيلة لتحديـد المعنـى، وللفونولوجيـا بوصفها الصلة بين القواعد والصوتيات، يأخذ صورة الجدول رقم (١ ـ ٦) لعلم اللغـة الوصفي. والرسم المذكور يصوّر علم اللغة بوصفه علماً منظماً متّسقاً، ورغـم أنّ هـذا المفهوم قد تغيّر وتطور منذ عرضـه الأول عـام ١٩٦١م، إلاّ أنّ الصـورة المعروضـة هنـا بقيت تمثل الشكل الجوهري لهذه النظرية[٢].

جدول رقم (١ ـ ٦)

الصوتيات	علم اللغة			
المادة	↔	الشكل	↔	(الحال)
المادة الصوتية	الفونولجيا	القواعد (نظام مغلق)	السياق	خصائص
المادة المكتوبة	الهجاء	المعجم (نظام مفتوح)		غير لغوية

وهكـذا نجـد أنّ السـياق في هـذه النظريـة قـد استُخدم بمفهـوم واسـع بحيـث يشـمل جميع أنواع الوظائف الكلامية دون الاقتصار على جانب بعينه، لأنّ المعنى عند فـيرث يمثّل كلّاً مركباً من مجموعة مـن الوظـائف اللغويـة. وقـد فـرّق، كمـا رأينـا، بـين خمسـة

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٣١١.

(٢) موجز تاريخ علم اللغة: ٣٥٠.

وظائف أساسية مكونة للمعنى هي[1] :

١ ـ الوظيفة الصوتية (phonetic function)

٢ ـ الوظيفة الصرفية أو المورفولوجية (morphlogical function)

٣ ـ الوظيفة المعجمية (lexical function)

٤ ـ الوظيفة النحوية أو التركيبية (syntactical function)

٥ ـ الوظيفة الدلالية (semantic function)

لقد استقر كثير من العلماء على دراسة هذه المستويات مجتمعة عند محاولة تحليل النص الأدبي للوقوف على أسراره واستكناه مضامينه. وغدت هذه الوظائف تقف جنباً إلى جنب مع الوظيفة السياقية ، بل إنّ المستوى السياقي غدا هو الآخر واحداً من تلك المستويات عند تحليل النصوص ، ولكنها تلتقي معاً لكشف المعنى وإماطة اللثام عن مدلولاته.

---

(١) يُنظر : (J.R.firth,papers in linguistics ١٩٣٤ ـ ١٩٥١ (London: Oxford University Press, ١٩٥٧, P.(٧) نقلاً عن : (مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب : ٢٨) و (علم اللغة مقدمة للقارئ العربي : ٣١١).

المبحث الخامس

١. ٥ ـ مستويات الدرس الدلالي

توصّلنا إلى أنّ اللغة تُعَدّ كلّاً متماسكاً، ولمعرفة أبعاده الدلالية المختلفة لا يمكن بحال الفصل بين مكوناته الأساسية، لأنّ جميع العناصر اللغوية التي يتألّف منها متفاعلة ومتداخلة معاً في إيصال المعنى، و إهمال جانب، أو التأكيد على جانب على حساب الجوانب والمستويات الأخرى من شأنه المساس بالقيمة الدلالية، وتعطيل جانب مهم منها.

وبناءً على ذلك، وبما أنّ موضوع هذا البحث يختصّ بأحد الوظائف أو المستويات التي انتهينا إليها، بل تتصدّرها، وفق النظرية الفيرثية، فسنتعرّض فيما بقي من هذا الفصل إلى هذه المستويات، ومعالجتها من خلال النظر إلى تطبيقاتها المستقاة من النصوص القرآنية، وذلك بما يفي بتوصيل الفكرة، وبمقدار ما يتسع له المقام.

١. ٥. ١ ـ الدلالة الصوتية

بِما أنّ اللغة تقوم أساساً «على ربط مضمونات الفكر الإنساني بأصوات ينتجها النطق»[١] أي على إصدار واستقبال أصوات تُحدثها عملية الكلام، فليس ببعيد أن يكون للجانب الصوتي دوراً كبيراً في تحديد المعنى المراد. وتتحقّق الدلالة الصوتية عبر عدّة وسائط منها:

---

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٥٥.

ـ ائتلاف أصوات الكلمة المفردة من العناصر الصوتية الرئيسية، والتي يُطلق عليها اسم الحروف الأبجدية. و هذه الأصوات تنقسم إلى نوعين: صامتة وصائتة. والمفردة اللغوية قد تتألف من صوت (حرف) واحد أو أكثر، وهي عادةً ما ترمز إلى معنى معجمي خاص.

ـ ائتلاف عدد من الكلمات في جملة تحمل دلالة معينة، وطريقة الأداء الصوتي لهذه الجملة، ومظاهر هذا الأداء. وتسمَّى هذه بالعناصر الصوتية الثانوية «وهي أكثر إسهاماً في الدلالة من العناصر الصوتية التي تصاحب الكلمة المفردة»[١].

ويُسمِّي العلماء الصوت الصامت والصوت الصائت بالصوت المقطعي الأولي أو الصوت التركيبي (Segmental Phoneme). وهو أصغر وحدة صوتية.

أما العنصر الصوتي الثانوي فيُطلقون عليه تسمية الصوت فوق التركيبي (Plurisegmantac Phoneme). وهو عبارة عن «ملامح صوتية غير تركيبية مصاحبة تمتد عبر أطوال متنوعة في الأداء الصوتي، وتشارك في تنوع معاني الكلام مثلما تشارك فيه الأصوات التركيبية»[٢]. وهو ما سنأتي على ذكره في الفصل التالي إنشاء الله.

وقد اهتم ابن جني بالدلالة الصوتية في كتابه الخصائص من خلال تناوله موضوع المناسبة بين اللفظ والمعنى، في حالتي البساطة والتركيب.

فمرّةً أثبتَ للصّوت الواحد دلالته الخاصة به، سواءٌ حرفاً كان ذلك الصّوت، كما في (خَضَمَ) للرّطب، و(قَضَمَ) للصّلب، أو حركةً كما في حركة الحرف المبدوء به الكلام، أو سكوناً كما في الحرف الموقوف عليه آخر الكلام.

وتارةً أخرى أثبت للصّوت، وهو في حالته التركيبية، دلالته الخاصة به أيضاً،

---

(١) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: ١٨.

(٢) م.ن: ١٨.

سواءٌ ما أورده من نماذج تتعلّق بالصيغة الصرفية للّفظة، أو ما أورده في باب الاشتقاق من تقليب الأصول الثلاثية.

وقد أفرد لذلك عدّة أبواب خصصها للتعريف بهذا الجانب الدلالي المهم، فعُدّ لذلك رائد الدلالة الصوتية في التراث العربي، رغم أننا نجد في ثنايا بحثه إشارات إلى الخليل ابن أحمد الفراهيدي و تلميذه سيبويه وغيرهما.

وفيما يلي استعراض لأهم الجوانب الصوتية ذات البعد الدلالي عند ابن جني انطلاقاً من تبويبه لها في كتابه.

١. ٥. ١. ١ ـ تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني

يصف ابن جني هذا الباب بأنه: « غَور من العربية لا يُنتصَف[١] منه، ولا يكاد يُحاط به.وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غفلا مسهوّاً عنه »[٢]. ثم يُشير إلى بعض أضربه. ومنها: أن تتقارب الحروف لتقارب المعاني. وفيه يُثبت بالأمثلة كيف أنّ تقارب مخارج الحروف بين لفظين مختلفين دليل على تقاربهما في المعنى.

ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. ومعنى: ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ كما يقو ابن جني «أي: تزعجهم وتقلقهم. فهذا في معنى تهزّهم هزاً. والهمزة أخت الهاء فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين.وكأنهم خَصّوا هذا المعنى بالهمزة لأنّها أقوى من الهاء. وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ، لأنّك قد تَهزّ ما لا بال له، كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك»[٣].

---

(١) أي: لا يُدرك كلّه. يُقال: انتصف منه: استوفى منه حقّه كاملاً. (المحقق، نفس الصفحة).

(٢) الخصائص: ١٤٥/٢.

(٣) م.ن: ١٤٦/٢، و يُنظر: الجدول رقم (١ ـ ٧).

<u>جدول رقم (١ ـ ٧)</u>

ن	المثال	الصوت المتمايز	وجه التقارب	وجه التمايز	تعليل الاستعمال القرآني
١	﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾	الهمزة	الإشتراك في المخرج	(الهمزة) أقوى من (الهاء)	(الأزّ) أعظم في النفوس من (الهزّ)
٢	(تَهُزُّهُمْ هَزّاً)	الهاء			

ثم يُعرج على ضربٍ آخر سَمّاه: تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين. ذكر فيه أمثلة تشترك فيها الكلمتان بحرفين، وتختلف بحرف واحد يتقارب مع نظيره فونولوجياً، فيكون ذلك مدعاةً لاختلاف اللفظين واشتراكهما من جهة الدلالة في آنٍ واحدٍ.

ومن أمثلة ذلك استعمال تركيب (ج ب ل) و (ج ب ن) و (ج ب ر) لتقاربها في موضع واحد، وهو الإلتئام والتماسك. ومنه: الجبل لشدّته وقوّته. وجبن: إذا استمسك وتقف وتجمع. ومنه جبرت العظم ونحوه، أي: قوّيته[1].

---

(١) الخصائص: ١٣٥/٢، و يُنظر الجدول رقم (١ ـ ٨).

جدول رقم (١ ـ ٨)

النموذج	المثال	الصوتان المشتركان	المعنى المشترك	الصوت المتمايز	المعنى المتمايز
١	جَبَل	الجيم و الباء	الإلتئام والتماسك	اللام	الشّدّة
٢	جُبْنَ			النون	التجمع
٣	جَبَرَ			الراء	التقوية

١ . ٥ . ١ . ٢ ـ إمساس الألفاظ أشباه المعاني

يصف ابن جني هذا الباب بقوله: «اعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف. وقد نَبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته»[١]. ثم إنّه بعد أن يُضفي المشروعية على بحثه هذا بإيراد مثالين حول علاقة الصوت بالمعنى، أحدهما للخليل والآخر لسيبويه، يمضي في الاحتجاج لهذه القضية بشيءٍ من التوسّع.

ويشير ابن جني إلى العديد من الأمثلة التي زعم أنّه توصّل إليها قائلاً: «ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سَمْتِ ما حدّاه ومنهاج ما مثّلاه. وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو الزّعزعَة والقَلقَلة والصَلصَلة والقَعقَعة والصَعصَعة والجَرجَرة والقَرقَرة. ووجدت أيضاً (الفَعَلى) في المصادر والصفات إنما تأتى للسرعة نحو: البَشَكَى والجَمَزى والوَلَقَى... فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر ـ أعني باب القلقلة ـ والمثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت الحركات فيها»[٢].

(١) م.ن: ٢، ١٥٢.

(٢) الخصائص: ١٥٣/٢، و يُنظر: الجدول رقم (١ ـ ٩).

جدول رقم (١ ـ ٩)

الصيغة الصرفية	الدلالة	الأمثلة	التعليل
المصادر الرباعية المضعفة	التكرير	الزّعزعَة والقَلقَلة والصَلصَلة..	جعل المثال المكرر للمعنى المكرر
الفَعَلَى	السّرعة	البَشَكَى والجَمَزى والوَلَقَى	

ونظير ذلك ما أشار إليه من العلاقة بين تكرار الفعل وقوّة الحدث، وما بينهما من التناسب يقول: «ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل، فقالوا: كسّر وقطّع وفتّح وغلّق. وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابَل به قوّة الفعل... فلمّا كانت الأفعال دليلة المعاني كرّروا أقواها، وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدّث به، وهو تكرير الفعل...فهذا أيضاً من مساوقة الصيغة للمعاني»[1].

جدول رقم (١ ـ ١٠)

صيغة الكلمة	الدلالة	المثال	التعليل
تكرير عين المثال	تكرير الفعل	كسّر/ قطّع/ فتّح/ غلّق	مقابلة قوّة اللفظ لقوّة المعنى

وتستوقفه القاعدة الصرفية التي تقول: كلّ زيادة في المبنى تقابلها زيادة في

(١) م.ن: ١٥٥/٢، و يُنظر: الجدول رقم (١ ـ ١٠).

المعنى[١]، فينطلق منها للربط بين صيغة الكلمة الصرفية ودلالتها فيقول: «من ذلك... أنهم جعلوا استفعل في أكثر الأمر للطلب، نحو: استسقى، واستطعم، واستوهب، واستمنح، واستقدم عمراً، واستصرخ جعفرا. فَرُتِّبت في هذا الباب الحروف على ترتيب الأفعال... فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد، ثم وردت بعدها الأصول: الفاء والعين واللام. فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك. وذلك أنّ الطّلب للفعل والتماسه والسّعي فيه والتأتّي لوقوعه تَقَدَّمَه، ثم وقعت الإجابة إليه فتبع الفعل السؤال فيه، والتسبب لوقوعه. فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة»[٢].

جدول رقم (١ ـ ١١)

الصيغة الصرفية	الدلالة	المثال	الحروف الزائدة	الحروف الأصلية	التعليل
استفعل	الطلب	استطعم	أ / س/ ت	ط / ع / م	وقعت حروف الأصل بعد الحروف الزائدة لوقوع الفعل بعد الطلب

ثم يتوسّع أكثر فيما سَمّاه بمقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، واصفاً إيّاه بأنّه باب عظيم واسع، «وذلك أنّهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سَمت الأحداث المعبّر بِها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها. وذلك أكثر مِمّا تقدِّره

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/ ٦.

(٢) الخصائص: ٢/ ١٥٣ ـ ١٥٤، ويُنظر: الجدول رقم (١ ـ ١١).

وأضعاف ما نستشعره من ذلك قولهم: (**خَضَم**) و (**قَضَم**). فالخضم: لأكل الرّطب، كالبطيخ والقثاء، و ما كان نحوهما من المأكول الرطب. و القضم: للصّلب اليابس، نحو: قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك. وفي الخبر: (قد يدرك الخضم بالقضم). أي: قد يُدرَك الرَّخاء بالشدة واللين بالشّظف. وعليه قول أبي الدرداء: يخضمون ونقضم والموعد الله. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث. ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه. والنضخ أقوى من النضح. قال الله سبحانه: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٦]. فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لما هو أقوى منه»[١].

جدول رقم (١ ـ ١٢)

النموذج	الكلمة	وجه التمايز الصوتي	وجه التمايز المعنوي	التعليل
١	خَضَمَ	صوت الخاء	لأكل الرّطب	اختيار الخاء للرطب لرخاوتها
	قَضَمَ	صوت القاف	لأكل الصّلب	اختيار القاف لليابس لصلابتها
٢	نَضَحَ	صوت الحاء	للماء الضعيف	رقّة الحاء
	نَضَخَ	صوت الخاء	للماء القوي	غلظة الخاء

(١) م.ن: ٢/١٥٧ ـ ١٥٨، و يُنظر: الجدول رقم (١ ـ ١٢).

ويذهب ابن جني إلى أبعد من ذلك، ناظراً في ترتيب الأصوات من حيث ورودها في اللفظة المفردة، ودلالة كل صوت على جزءٍ مِمّا تعبّر عنه اللفظة بمجموعها، محاولاً من خلال إيراده للأمثلة الكثيرة إزالة أيّ شبهة لدى المشكّكين بوجود مناسبة بين اللفظ والمعنى فيقول: «ومن وراء هذا ما اللّطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع، وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبّر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقاً للحروف على سَمت المعنى المقصود والغرض المطلوب. وذلك قولهم: (**بَحَث**)[1]. فالباء لغلظها تشبه بصوتها خَفْقة الكفّ على الأرض. والحاء لصَحَلِها[2] تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض. والثاء للنفث والبثّ للتراب. وهذا أمر تَراه محسوساً مُحَصّلاً، فأيّ شبهة تبقى بعده أم أيّ شك يعرض على مثله[3]...

(١) البحث: طلبُك الشّيء في التراب. والبَحوث من الإبل: التي إذا سارت بحثت التراب بأيديها أُخُراً، أي: ترميه إلى خلفها في سيرها. (لسان العرب، مادة: بحث).

(٢) صَحِلَ الرجل، بالكسر، وصَحِلَ صوتُه يصحَلُ صَحَلاً فهو أصحل. وصَحِلَ: بَحَّ. ويقال: في صوته صَحَلٌ أي: بُحوحَة.. والصَّحَلُ: حِدّة الصوت.(لسان العرب، مادة: صحل).

(٣) يُنظر الجدول رقم (١ ـ ١٣).

جدول رقم (١٣)

الكلمة	الصوت	صفته	شبهه بـ	وجه مناسبة اللفظ للمعنى
بَحَثَ	الباء	الغلظة	خفقة الكف على الأرض	سوق الأصوات على سمت المعنى المراد
	الحاء	الصَّحَل	مخالب الأسد ونحوها إذا غارت في الأرض	
	الثاء	الانتشار	نفث التراب وبثّه	

ومن ذلك قولهم: (**شدّ الحبل**) ونحوه. فالشين بِما فيها من التفشّي تشبّه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد، ثم يليه إحكام الشّدّ والجذب وتأريب العقد، فيعبّر عنه بالدّال التي هي أقوى من الشين، ولاسيّما وهي مدغمة، فهو أقوى لصنعتها، وأدلّ على المعنى الذي أريد بها ...[1]

(١) يُنظر الجدول رقم (١ ـ ١٤).

جدول رقم (١ ـ ١٤)

التركيب	الصوت	صفته	شبهه بـ	وجه مناسبة اللفظ للمعنى
شَدّ الحبل	الشِّين	التّفشّي	أول انجذاب الحبل	سوق الأصوات
	الدّال المدغمة	القوة والقلقلة	استحكام العقد	على سمت المعنى المراد

ومن ذلك أيضاً (**جَرّ الشّيء يَجُرّه**) قدّموا الجيم لأنها حرف شديد، وأوّل الجرّ بِمشقّة علَى الجار والمجرور جميعاً، ثم عقّبوا ذلك بالرّاء، وهو حرف مكرّر، وكرّروها مع ذلك في نفسها. و ذلك لأنّ الشّيء إذا جُرّ على الأرض في غالب الأمر اهتزّ عليها و اضطرب صاعداً عنها ونازلاً إليها، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلق. فكانت الرّاء لما فيها من التكرير، ولأنها أيضاً قد كرّرت في نفسها في (جَرّ) و(جررت) أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها»[١].

(١) الخصائص: ١٦٢/٢ ـ ١٦٤، و يُنظر الجدول رقم (١ ـ ١٥).

<u>جدول رقم (١ ـ ١٥)</u>

التركيب	الصوت	صفته	علّة التقديم أو التأخير	وجه مناسبة اللفظ للمعنى
جَرَّ	الجيم	الشِّدّة	لأنّ أوّل الجرّ فيه مشقّة على الجار والمجرور	سَوْقُ الأصوات
	الرّاء	التكرير	لأنّ الشّيء يهتزّ إذا جُرّ عَلَى الأرض	على سَمت المعنَى المراد

لقد حاول ابن جني، وهو يورد الأمثلة الكثيرة، في هذا الباب إزالة كل شبهة يمكن أن تحيط بموضوع مناسبة اللفظ للمعنى ودلالته عليه، مقرِّراً بعد ذلك أنّ اللغة كلّها تجري وفق هذا المنوال، وأنّ من لم يَهتَدِ إلى الوقوف على مناسبة الألفاظ لمعانيها في العربية فذلك راجع إمّا لقصور فيه، أو لتقادم عهد اللغة العربية، بقوله: «فإنْ أنتَ رأيتَ شيئاً من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسَمناه، ولايتابعك على ما أوردناه فأحد أمرين: إمّا أن تكون لم تنعم النظر فيه، فيقعد بك فكرك عنه، أو لأنّ لهذه اللغة أصولاً وأوائل قد تَخفى عنا وتقصر أسبابُها دوننا»[1].

ويبدو أنّه كان في جعبته المزيد من الأمثلة التي تثبت مدّعاه، وتدعم ما ذهب إليه هو ومن سبقه، ولكنه كما يبدو ترك المجال لمن بعده للخوض في غمار العربية، داعياً إلى صرف الاهتمام إلى هذا الموضوع، وعدم الإعراض عنه، بقوله: «و لو شئت

---

(١) م.ن: ١٦٤/٢.

لكتبت من مثله أوراقا مئين، فَأْبَهْ له، ولاطفه، ولا تَجْفُ عليه، فيعرض عنك مشابِهه»[١].

فإذا كانت هذه عقيدة ابن جني، وهو العالم النحرير، بخصوص مناسبة الألفاظ لمعانيها في العربية، وهي لغة بشرية، فكيف هو الحال بنصٍّ القرآن الكريم الذي نزل بها، على لسان الله عزّ وجل.

١. ٥. ١. ٣ ـ قوة اللفظ لقوة المعنى

يواصل ابن جني الحديث عن المناسبة بين اللفظ والمعنى هذه المرّة بالإشارة إلى فصل آخر من فصوله المهمة، وهو اختيار اللفظ ليكون ملائماً لمعناه من حيث القوة. ويورد لبيان ذلك أمثلة عديدة منها: «قولهم: خَشُنَ واخشَوشَن. فمعنى خَشُنَ دون معنى اخشوشن، لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو. ومنه قول عمر رضي الله عنه: اخشَوشَنوا وتَمَعدَدُوا: أي اصلَبوا وتَناهوا في الخشنة. وكذلك قولُهم: أعشَب المكان، فإذا أرادوا كثرة العُشب فيه، قالوا: اعشَوشَب. ومثله حَلا واحلَولَى، وخلِق واخلَولَق، وغَدَن واغدودن[٢]. ومثله باب فَعَلَ وافتَعَلَ نحو: قَدَرَ واقتَدَرَ. فاقتَدَرَ أقوى معنًى من قولهم: قَدَر[٣]...قال الله سبحانه: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢] فمقتدر هنا أوفق من قادر من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدّة الأخذ. وعليه، عندي، قول الله عز وجل: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[البقره: ٢٨٦]،

---

(١) الخصائص: ١٦٤/٢.

(٢) جاء في لسان العرب مادة (غَدَن): الغَدَن: سَعة العيش والنعمة واللين. وفلان في غُدُنَّةٍ من عيشه أي: في نَعمة ورَفاهية. و اغدَودَن النبتُ: إذا اخضّر حتى يَضرب إلى السواد من شدّة ريِّه. وأرضٌ مُغدَودَنة: إذا كانت مُعشِبة. وشابٌّ غَدَودَن: ناعم. (لسان العرب، مادة: غَدَنَ).

(٣) يُنظر: الجدول رقم (١ ـ ١٦).

وتأويل ذلك أنّ كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيِّئة أمر يسير ومستصغر. وذلك لقوله عزّ اسمه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الانعام: ١٦٠]، أفلا ترى أنّ الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها صغر الواحد إلى العشرة.

جدول رقم (١ ـ ١٦)

النموذج	الكلمة	وجه التمايز الصوتي	وجه التمايز المعنوي	وجه مناسبة اللفظ للمعنى
١	خَشُنَ	تكرير العين وزيادة الواو في (اخشَوشَن)	التناهي في الخشنة في (اخشوشن)	مناسبة قوّة اللفظ لقوّة المعنى
	اخشَوشَن			
٢	قدَرَ	زيادة الهمزة والتاء في اقتدر	(اقتَدَرَ) أقوى معنًى (قَدَرَ)	
	اقتدَرَ			

ولَمّا كان جزاء السيئة إنما هو بِمثلها لم تحتقر إلى الجزاء عنها، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة. ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ ــ ٩١]. فإذا كان فعل السيئة ذاهباً بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية عظم قدرها وفخم لفظ العبارة عنها، فقيل: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾. فزيد في لفظ فعل السيئة وانتقص من لفظ فعل الحسنة لما ذكرنا»[1].

(١) الخصائص: ٣/٢٦٥، و يُنظر: الجدول رقم (١ ـ ١٧).

جدول رقم (١ ـ ١٧)

النموذج	الآية	الكلمة	وجه التمايز الصوتي	وجه التمايز المعنوي
١	﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾	قادر	الصيغة الصرفية وعدد المقاطع [(٢) إلى (٣)]	لفظ (مقتدر) أكثر تناسباً لشدة الأخذ والتفخيم
		مقتدر		
٢	﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾	كسبت	زيادة الهمزة والتاء في اكتسبت	قوة فعل السيئة: اكتسبت على فعل الحسنة: كسبت
		اكتسبت		

والنماذج التي جاء بها ابن جني في هذا الباب علاوة على كونها تدل دلالة قطعية على وجود المناسبة بين ألفاظها ومعانيها، تدلّ في الوقت ذاته على ارتباط الصيغة الصرفية للفظ بالمعنى الذي تدلّ عليه. وهو ما سبقت الإشارة إليه في الحديث عن سيبويه.

١. ٥. ١. ٤ ـ الاشتقاق الأكبر

ارتأى ابن جني أن يطلق على هذا النوع من الاشتقاق اسم الإشتقاق الأكبر بينما استقر اللغويون والصرفيون على تسميته بالإشتقاق الكبير، وهو «عبارة عن ارتباط مطلق غير مقيّد بترتيب بين مجموعات ثلاثية صوتية ترجع تقاليبها الستّة وما يتصرّف من كلٍّ منها إلى مدلول واحد مهما يتغاير ترتيبها الصوتي»[1].

وقد كان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) قد فطن إلى هذه الروابط

(١) دراسات في فقه اللغة: ١٨٦.

المعنوية في هذا النوع من الاشتقاق، وذلك عندما استعمل فكرة تقليب الأصول في معجم العين. كما أشار إليه من بعده أبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) أستاذ ابن جني. إلاّ أنّ ما يُحتسب للأخير هو توسُّعه فيه، وكثرة ما أورده عليه من الأمثلة في كتابه الخصائص حيث عقد له باباً خاصّاً تحت هذا العنوان[١]. ولكنه قبل ذلك كان قد افتتح كتابه «بتقليب حروف القول والكلام، كأنما أراد أن يرسم للقارئ منهجه وهو بعدُ في أوّل الطريق»[٢].

وقد صرّح ابن جني بأنه رسم للقارئ من منهجه رسماً ليحتذيه ويتقبّله فيحظَى به، ويكثر من إعظامه لهذه اللغة الكريمة من أجله. فقد قال في مقدمة كتابه: «هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول، ولنقدم أمام القول، على فرق بينهما، طرفاً من ذكر أحوال تصاريفهما واشتقاقهما، مع تقلّب حروفهما. فإنّ هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق[٣]، ويعلوه إلى ما فوقه. وستراه فتجده طريقاً غريباً ومسلكاً من هذه اللغة الشريفة عجيباً. فأقول: إن معنى (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت، من تقدم بعض حروفها على بعض، وتأخّره عنه، إنما هو للخفوف والحركة. وجهات تراكيبها الست مستعملة كلّها لم يهمل شيء منها. وهي: (ق و ل)، (ق ل و)، (و ق ل)، (و ل ق)، (ل ق و)، (ل و ق). الأصل الأوّل (ق و ل) وهو القول. وذلك أن الفم واللسان يخفّان له ويقلقان ويمذلان به، وهو بضدّ السكوت الذي هو داعية إلى السكون. ألا ترى أنّ الابتداء لما كان أخذاً في القول لم يكن الحرف المبدوء به إلا متحركاً، ولما كان الانتهاء أخذاً في السكوت لم يكن الحرف الموقوف عليه إلا

---

(١) الخصائص: ١٣٣/٢.

(٢) دراسات في فقه اللغة: ٢٠٢.

(٣) قصد بالاشتقاق علم التصريف والاشتقاق، وكل ما يندرج تحت اسم الاستقاق الأصغر (دراسات في فقه اللغة: ٢٠٢).

ساكناً»[١]. ثم ينتقل بعدها إلى (ك ل م) واصفاً إيّاها كسابقتها بأنّها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوّة والشّدّة[٢].

كلّ هذا يتطرّق إليه ابن جني قبل أن يعقد له الباب الخاص به، ويقوم بعرض نماذجه الكثيرة فيه. ولعلّ لولوع ابن جني بالاشتقاق الكبير أو الأكبر، كما يُسمّيه هو، ارتباط بمذهب القائلين بدلالة الحرف السحرية، وقيمته التعبيرية الموحية، مِمّن آمنوا بوجود المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله، إلى درجة رأوا فيها إثبات القيمة التعبيرية للصوت البسيط، وهو حرف واحد في كلمة، كإثبات هذه القيمة نفسها للصوت المركّب، كيفما كانت صورة تركيبه من حيث تقديم بعض الأصوات على بعض. وقد رأينا من خلال ما قدّمناه أنّ ابن جني يقف في طليعة القائلين بهذه القيمة التعبيرية للحرف العربي[٣].

بعد هذا العرض المفصَّل لمظاهر الدلالة الصوتية التي تَمَّ التركيز فيها على ما تناوله اللغوي ابن جني يمكن أن نستنتج ما يلي:

أولاً: ثَمّة علاقة بين أصوات الحروف ومخارجها وبين ما تدلُّ عليه من معانى.

ثانياً: إنَّ إضافة أصوات على أصول المباني لابدَّ أن يُضيف زيادة في المعاني.

ثالثاً: إنّ تكرار الصوت يؤدي إلى تكرار المعنى وتصويره وتقويته والمبالغة فيه.

رابعاً: إنّ كلّ صوتٍ في اللفظة قد يُعبِّر بصورةٍ أو بأُخرى عن جزءٍ من المعنى التي تُعبِّر عنه اللفظة بأصواتها جميعاً[٤].

---

(١) الخصائص: ١/٥.

(٢) م.ن: ١/١٣ ـ ١٥.

(٣) دراسات في فقه اللغة: ٢٠٤.

(٤) دراسات قرآنية في جزء عمَّ: ١٥٣.

خامساً: هناك علاقة دلالية وثيقة بين أصوات البناء اللّفظي الواحد من خلال اشتراكها بالمعنى العام عبر تقليباتها المختلفة.

١ . ٥ . ٢ ـ الدلالة الصرفية

علم الصرف (Morphology) هو العلم الذي بواسطته تُعرَف «الأبنية المختلفة للكلام، وما يُشتق منه كأبواب الفعل، وتصريفه، وتصريف الاسم، وأصل البناء (الفعل أو المصدر)، والمصادر بأنواعها، و المشتقات (اسم الفاعل، اسم المفعول، الصفة المشبهة، أفعل التفضيل، اسم الزمان، اسم المكان، اسم الآلة) و التصغير، والنسب»[١].

أما الدلالة الصرفية فيُقصَد بها «الوظائف الصرفية للكلمة، وهي المعاني المستفادة من الأوزان والصيغ المجرّدة»[٢] عن السياق الكلامي.

فالاسم يدل بصفة عامة دلالة صرفية على المسمّى، وهو يخلو عادةً من الدلالة على الزمان، ويدخل ضمنه المصدر، واسم المصدر، واسم المرّة واسم الهيئة، والدلالة الصرفية للصفات هي دلالتها على موصوف بالحدث، ودلالة أسماء الإشارة وضمائر التكلم والخطاب هي الدلالة على الحضور، وضمائر الغائب وأسماء الموصول دلالتها الصرفية على الغياب[٣].

أما الفعل فإنه بأقسامه الثلاثة يدل دلالة صرفية على الحدث والزمن معاً، غير أنّ الماضي يدل على الانقطاع الزمني، والمضارع يدل على الحال حقيقة، وعلى

---

(١) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: ٦١.

(٢) الكلمة دراسة لغوية معجمية: ٢٩.

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها: ٧٠.

الإستقبال مجازاً، والأمر يدل على الاستقبال، فإذا ما «زيدَ في المبنى الصرفي للفعل، بدخول حروف الزيادة عليه، أضافت إلى دلالته دلالات فرعية أخرى»[١].

وحروف الزيادة هذه يُطلَق عليها اسم اللَّواصق، وهي ثلاثة أنواع: السوابق (Prefixes) كحروف المضارعة (أ، ن، ي، ت). واللَّواحق (Suffixes): وهي التي تلحق بآخر البناء كياء النسب، وعلامات التثنية والجمع. والدواخل (Infixes) وهي التي تدخل بين الأصوات التي تؤلف بنية الكلمة كالألف في اسم الفاعل، والواو في اسم المفعول، والياء في الصفة المشبه التي تأتي على وزن (فعيل)، مثل: حكيم وعليم وسميع[٢].

ويتوقف معرفة المعنى الدقيق لكثير من الكلمات على بنائها وصيغتها الصرفية التي ترد عليها، بل إنّ كثيراً من الصيغ تحمل أكثر من دلالة واحدة، فالثلاثي المزيد بحرف، على سبيل المثال، يأتي بثلاثة أوزان هي: (أفعلَ) و (فَعّلَ) و (فاعَلَ). وتأتي صيغة (أفعلَ) غالباً لواحد من تسعة معاني[٣]. وأحد تلك المعاني التسعة دلالتها على أنك وجدتَ الشيء على صفة معينة، فلفظ (أغفَلْنا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف: ٢٨] لا يخلو «من أن يكون من باب أفعلت الشّيء أي صادفته ووافقته»[٤]ولو أنّ (أغفلنا) كان هنا بمعنى (مَنَعنا) و(صَدَدنا)، والعياذ بالله، «لوجب أن يكون العطف عليه بالفاء دون الواو، وأن يُقال (ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه)، وذلك أنه كان يكون على هذا الأول

(١) علم الدلالة، دراسة نظرية تطبيقية: ٣٦.

(٢) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: ٦١ ـ ٦٢.

(٣) التطبيق الصرفي: ٣٠ ـ ٣٦.

(٤) ابن جني، ١٩٥٢م/٣،٢٥٣.

علّة للثاني، والثاني مسبّباً عن الأول ومطاوعاً له، كقولك: أعطيته فأَخَذَ، وسألته فَبَذَلَ»[١].

وتأتي أبنية الأفعال المضعّفة العين (فَعّلَ) وهي تحمل دلالاتٍ عدّة، منها ما تفيده من معنى التكثير والمبالغة[٢] نحو قطّع وفتّحَ وكسّرَ. وقد وردت كلتا الصيغتين المذكورتين (أفعلَ) و (فَعّل) في القرآن الكريم بما يوحي بأنهما بمعنى واحد، ولكنّ إمعان النظر في الأمثلة القرآنية لهاتين الصيغتين كفيل بتعيين اللمسات البيانية ووجوه التباين بينهما[٣].

وكثيراً ما نجد أمثلة الصيغ الصرفية تشترك في دلالاتها مع نماذج الدلالة الصوتية، فالدلالتان الصرفية والصوتية تعملان معاً في أحايين كثيرة على تحديد المعنى وتعيين مساره. ومن ذلك ما أوردناه عن الخليل في الفرق بين صيغتي (صَرّ) و (صرصر) من جهة دلالتيهما الصرفية والصوتية، حيث قابلوا، في وضع الصيغتين، بتوالي حَرَكات المثال توالي حَرَكات الأفعال[٤]. ومنه كذلك ما أوردناه عن سيبويه في إشارته إلى صيغتي (فَعْلان) و (فَعَلَان)[٥]، ودلالة الأولى على الصفات غير الثابتة، ودلالة الثانية على الحركة والإضطراب، هذا إضافة إلى ما ذكرناه من أمثلة ابن جني في مبحث الدلالة الصوتية[٦].

---

(١) م.ن: ٣/٢٥٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٨٣.

(٣) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٦٢ ـ ٧٧.

(٤) (الخصائص: ٢/١٥٢)، ويراجع مبحث: (١. ٢. ١. ٣. ١ ـ المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله).

(٥) (الكتاب: ٢/٢٦١ ـ ٢٦٢) و(الخصائص: ٢/١٥٢)، ويراجع مبحث: (١. ٢. ١. ٤. ٢ ـ دلالة الصيغة الصرفية).

(٦) يراجع: مبحث (١. ٥. ١ ـ الدلالة الصوتية).

١. ٥. ٣ ـ الدلالة النحوية

وهي الدلالة المَحَصَّلة «من استخدام الألفاظ، أو الصور الكلامية في الجملة المكتوبة أو المنطوقة على المستوى التحليلي أو التركيبي»[١]، ويُطلق عليها اسم الوظائف النحوية، أو المعاني النحوية. وتنقسم الدلالة النحوية في اللغة العربية إلى قسمين[٢]:

١. ٥. ٣. ١ ـ دلالة نحوية عامة

و هي المعاني العامة التي تنتجها الجمل والأساليب الكلامية بشكل عام، كدلالتهما على الخبر أو الإنشاء، وعلى الإثبات أو النفي، والتأكيد، والطلب من استفهام، وأمر، ونهي، وعرض، وتحضيض، وتمنٍ، وترجٍ، ونداء، وشرط، وذلك باستخدام الأدوات الخاصة بها غالباً. فدلالة الاستثناء مستفادة من أداة الاستثناء في نحو قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. ودلالة التحضيض مستفادة من أداة التحضيض (لولا) في نحو قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]. ودلالة الظرفية مستفادة من حرف الجر (في) في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة: ٣٦]. وهكذا في سائر المعاني النحوية المحصّلة من أدواتها.

وبعض هذه الأدوات قد يخرج عمّا وضع له إلى دلالات أخرى، نحو: (في) التي تكون بمعنى (نحو) في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وبمعنى (الباء) في قوله تعالى: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]. وبمعنى (من) في

(١) أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة: ٢٠٩.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها: ١٧٨.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: ٢٥] وغير ذلك من المعاني[١].

لكنّ المعاني النحوية لا تتم كلّها عن طريق استخدام الأدوات، فإنّ «مِمّا يُستغنَى عن الأدوات جمل مثل: جاء عليٌّ. سَعِدَ زيدٌ. ونعلِّم العلمَ النافع، ولكنّ الوظائف النحوية العامة (الدلالات النحوية) تُحصّل في الأغلب الأعمّ باستخدام الأدوات»[٢].

١. ٥. ٣. ٢ ـ دلالة نحوية خاصة

وهي المعاني المحصّلة من الأبواب النحوية كباب الفاعل، والمفعول، والتمييز، والحال، الخ. وكلّ «كلمة مفردة تقع في باب من هذه الأبواب تقوم بوظيفة الباب نفسه»[٣]. فالكلمة التي تقع فاعلاً تدلّ على الفاعلية، والكلمة التي تقع مفعولاً تدل على المفعولية، وهكذا. وعن طريق الدلالات المحدَّدة لكلٍّ باب من هذه الأبواب «يمكن التمييز بين كلمات اللغة، لأنّ منها ما يصلح أن يقوم بوظيفة الفاعلية، وبعضها لا يصلح أن يقوم بهذه الوظيفة، فالأسماء والصفات والضمائر هي تقع فاعلاً في الكلام، أمّا الظروف والأدوات فلا تصلح أن تقوم بوظيفة الفاعل»[٤].

ومن خلال انضمام الدلالة النحوية إلى الدلالة الصرفية يتحدَّد معنى الكلمة، والموقع الذي يجب أن تحتلّه في الجملة، فإذا اختلَّ موقعها وترتيبها في الجملة اختل المعنى أو تغيّر. وقد كان سيبويه أوّل من تنبّه إلى ذلك فيما أطلق عليه استقامة

---

(١) حروف الجمل: ١٢/٨٢ ـ ٨٤.

(٢) علم الدلالة: ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة: ٢١٣.

(٤) علم الدلالة: ٤٦.

الجملة[١]. وبذلك تُستَمَدّ الدلالة النحوية الخاصة من جانبين هما:

١ـ جانب الباب النحوي الذي تنضمّ فيه الكلمة، والعلاقات القائمة بين الوظائف النحوية، وهنا تحكم الكلمة شروط دلالية معينة حتى يَصِحَّ وضعها في هذه الوظيفة أو تلك، إضافة إلى «الشروط التي تُحدِّدها البنية الأساسية من الصيغة والرتبة والورود النحوي والعلامات الإعرابية وغيرها من الشروط اللغوية التي بناءً عليها يُمكِنُ أن يُقال إنّ هذه الكلمة (فاعل) أو (حال) أو (نعت) مثلاً»[٢]. وشرط الصيغة في الفاعل، مثلاً، أن يكون (اسماً)، وشرط الرتبة فيه أن يأتي بعد الفاعل، وشرط العلامة الإعرابية أن يكون مرفوعاً وهكذا.

٢ـ اختيار الكلمة التي تشغل الوظيفة النحوية، والصّالحة للدخول في علاقات نحوية معيَّنة مع كلمات أخرى تشغل وظائف أخرى في الجملة الواحدة. فإذا حدثت موانع معينة عقلية أو عضوية في طبيعة العلاقة النحوية بين كلمات الجملة السليمة نحوياً بُنِيَتْ على المجاز، كما هو الحال في إيقاع فعل السؤال على القرية في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] حيث إنّ القرائن والسياق الخاص يمنع من إرادةَ (المعنى الأصلي) أو المعنى المعجمي للكلمة.

١. ٥. ٤ ـ الدلالة المعجمية

وهي الدلالة الأساسية التي تكتسبها الألفاظ عن طريق الوضع اللغوي. وتشكل دراسة المعنى المعجمي قطاعاً عريضاً وأساسياً من علم المعاجم (Lexicology)،

---

(١) يراجع مبحث (١. ٢. ١. ٤. ٣ ـ دلالة التركيب النحوي) عند سيبويه.

(٢) النحو والدلالة: ٤٩.

ولذلك يَعتبر علماءُ المعاجم أنّ دراسة المعنى هو الهدف الأول لهذا العلم[1]، وأنّ دراسة المعنى المعجمي تُعتبَر الخطوةَ الأولى التي يجب القيام بها عند دراسة الكلمة بهدف الوقوف على دلالتها.

وتعنَى الدلالة المعجمية بالبحث عن معنى الكلمة أو مرادفها أو مضادها أو ما يُفسّرها، وقد يقوم بتقديم معلومات عن أصل وضع الكلمة، وسبب تسميتها، وتطوّرها التاريخي، ومشتقاتها، كما قد يذكر بعض السياقات اللغوية التي ترد فيها لتوضيح دلالتها، حقيقية كانت أو مجازية[2].

وكان أوّل ما أُلِّفَ من معاجم تتناول تفسير ألفاظ القرآن، وقد رُتِّبَتْ بادئ الأمر وفقاً لترتيب آيات القرآن وسُوَرِه، ثم رُتِّبَتْ فيما بعد على أحرف الهجاء، و قد حَمَلَتْ أغلبُها عنوانَ (غريب القرآن)، وكان مِمَّن كَتَبَ تحت هذا العنوان كلٌّ من أبي سعيد البكري (ت١٤١هـ)، ومؤرّج السّدوسي (ت١٩٥هـ)، و أبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)[3]. وقد دأبت المعاجم العربية العامة منها والخاصة على ذكر مستويات عدّة من معاني الألفاظ ودلالاتها، أهمها: الترادف، والمشترك اللفظي ، والتضاد، كانوا قد تلَّقَفوها من كلام سيبويه حول تقسيمه لعلاقات الألفاظ بمعانيها، والتي سبقت الاشارة إليها[4]، نتناول بعضاً منها بإيجاز.

١. ٥. ٤. ١ ـ الترادف

أشار الجرجاني إلى الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للترادف بقوله:

---

(١) الكلمة دراسة لغوية معجمية: ١٣٨.

(٢) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: ١٥٧.

(٣) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٨.

(٤) يُنظر مبحث: (١. ٢. ١. ٤. ١ ـ دلالة الألفاظ) عند سيبويه.

«المترادف: ما كان معناه واحداً وأسماؤه كثيرة وهو ضد المشترك، أُخذ من الترادف الذي هو ركوبُ أحدٍ خلفَ آخَر، كأنّ المعنى مركوب واللّفظان راكبان عليه كالليثِ والأسد...»[١].

أمّا التعريف الجامع لمصطلح الترادف فهو التعريف الوارد عن الإمام فخر الدين بقوله: «الألفاظ المفردةُ الدالّة على شيءٍ واحد باعتبارٍ واحد. قال: واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحدّ، فليسا مترادفَين، وبوحدة الاعتبار عن المتباينين، كالسّيف والصّارم، فإنّهما دَلاّ على شيءٍ واحد، ولكن باعتبارين: أحدهما على الذّات والآخَر على الصفة»[٢].

وقد اختلف العلماء حول وجود الترادف في العربية، فأثبته البعض، وأنكره آخَرون[٣]. و مِمّن قال به الأصمعي (ت٢١٣هـ) الذي صنّف فيه كتاب (ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه)، والرماني (ت ٣٨٤هـ) صاحب كتاب (الألفاظ المترادفة).

ومِمّن أنكره أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابيّ (ت٢٣١ هـ)، وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ)، وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه (ت٣٣٠ هـ)، وأبو علي الفارسي (ت٣٧٧ هـ)، إضافةً الى الخطابي (ت٣٨٨ هـ)، وابن فارس (ت ٣٦٩هـ)، وأبو هلال العسكري (ت٤٠٠ هـ) الذي ألّف كتاباً في الفروق اللغوية رَدّاً على القائلين بالترادف.

وأغلب هؤلاء ينطلقون في إنكارهم لظاهرة الترادف من مبدأ كون اللُّغة توقيفية

---

(١) التعريفات: ٢٥٣/١.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ٣١٦/١.

(٣) يُنظر الخلاف الذي وقع حول الترادف بين عالمين كبيرين هما: أبو علي الفارسي وابن خالويه في مجلس سيف الدولة الحمداني (المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ٣١٨/١).

النشأة، لأنّهم يعتقدون أنّ «واضع اللغة حكيم، لا يأتي فيها بما لا يفيد صواباً، فهذا يدلّ على أنّ كلَّ اسمين يجريان على معنىً من المعاني، وعينٍ من الأعيان في لغةٍ واحدةٍ، فإنّ كلّ واحدٍ منهما يقتضي خلافَ ما يقتضيه الآخر، وإلاّ لكان الثاني فضلاً لا يُحتاج إليه. والى هذا ذهب المحققون من العلماء، وإليه أشار المبرّد في تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة: ٤٨] قال: فعطف شرعةَ على منهاج، لأنّ الشرعة لأوَّل الشّيء، والمنهاج لمعظمه ومتّسعه... والعطف يدلّ على أنّ جميع ما في القرآن وعن العرب من لفظين جاريين مجرى ما ذكرنا من العقل واللُّبّ، والمعرفة والعلم، والعمل والفعل»[١].

فأبو هلال العسكري لا يرى وجود ترادف في القرآن والعربية، وخاصة في ما ورد منها معطوفاً، وإنَّما عَدّ ذلك من قبيل المتباينات. وهو ما ذهب إليه أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) الذي عبّر عنه بالمشاكلة معتبراً «أنّ في كلٍّ واحدة منهما معنًى ليس في الأخرى»[٢]. ومثّل لذلك بالفرق بين (قَعَدَ) و (جَلَسَ) حيث «يكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالةٍ هي دون الجلوس، لأنّ (الجلْسَ: المرتفع)، فالجلوس ارتفاع عمّا هو دونه. وعلى هذا يكون الباب كلّه»[٣].

١. ٥. ٤. ٢ ـ المشترك اللفظي

وتعريفه: «اللفظ الواحد الدالّ على معنيَين مختلفَين فأكثر دلالةً على السواء عند أهل تلك اللغة»[٤]. واختصر ابن فارس تعريف المشترك اللفظي بقوله: إنه «اتفاق

(١) الفروق في اللغة: ١٣ ـ ١٤.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: ٩٩.

(٣) م.ن: ٩٩.

(٤) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ٢٩٢/١.

اللفظ واختلاف المعنى»[١]، ثم مثّل له بلفظ (العين) ودلالته على أكثر من معنًى، كما استشهد من كتاب الله بلفظ «﴿قَضَىٰ﴾ بمعنى: حَتَمَ، كقوله جَلّ ثناؤه: ﴿قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ [الزمر: ٤٢]، وقضى بمعنى: أمَرَ كقوله جَلّ ثناؤه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي أمَرَ. ويكون قضَى بمعنى: أعلَمَ كقوله جَلّ ثناؤه: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤]، أي: أعلمناهم. وقضَى بمعنى: صَنَعَ كقوله جَلّ ثناؤه: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]، وكقوله جَلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ [يونس: ٧١] أي: اعملوا ما أنتم عاملون. وقضى: فَرَغَ، يُقال للميت: قضَى أي فرَغَ»[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقد أفاضَ القدامى من اللغويين والمفسرين في تناول هذه الظاهرة في القرآن الكريم، فجاءت بعض كتبهم وهي تحمل مصطلح (الوجوه والنظائر)[٣]، أو (الأشباه والنظائر) في القرآن الكريم، لأنهم عدّوها «علماً من علوم القرآن وفرعاً من فروع علم التفسير يُعرف بهذا الاسم، كما اعتبروا هذه الظاهرة اللغوية من معجزات القرآن، حيث تنصرف الكلمة الواحدة إلى عشرين وجهاً أقلّ أو أكثر»[٤]كما في لفظ

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: ٢٠٧.

(٢) م.ن: ٢٠٧.

(٣) منها: (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم) لمقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ)، و(الوجوه والنظائر في القرآن) للدامغاني (ت٤٧٨هـ)، و(نزهة العيون النوظر في علم الوجوه والنظائر) لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، وكتاب (كشف الاسرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر) لابن العماد (ت٨٨٧هـ)، وكتاب (معترك الأقران في إعجاز القرآن) للسيوطي (ت ٩١١هـ). للإستزادة يُراجع: (أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٩٦ ـ ٢٩٧).

(٤) أصول التراثية في اللسانيات الحديثة: ٢٩٥.

(الهدى) الذي يُستعمل في سبعة عشر معنى في القرآن منها: البيان، والدين، والإيمان، والداعي، والمعرفة، والقرآن، وغير ذلك[١].

١. ٥. ٤. ٣ ـ التضاد

وهو اللفظ الدال على معنيين متقابلين، أو هو كما قال القدامى: «اتفاق اللفظ وتضادّ المعنى»[٢]، وهو في حقيقته جزء من المشترك اللفظي، فقد قال السيوطي: إنّ «المشترك يقع على شيئين ضدّين، وعلى مختلفَين غير ضدَّين، فما يقع على الضدّين كالجون[٣] وجلل، وما يقع على مختلفَين غير ضدّين كالعين»[٤]فكلُّ تضادّ مشترك لفظي، وليس العكس.

وقد بلغ من اهتمام اللغويين والمفسرين بهذه الظاهرة حَدّاً دفعهم إلى تأليف مصنّفات عديدة تحمل اسم الأضداد[٥]، وكان الدافع لذلك ورود عدد من الأضداد في القرآن الكريم، ومن ذلك الفعل (أسَرَّ) المستعمَل في الإخفاء وضدِّه، فقد جاء بمعنى إخفاء الحديث وكتمه في قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾[يوسف: ٧٧]. وفي قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، في حين ورد بحيث

---

(١) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ٤٧٣.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: ٢٠٧.

(٣) يُطلق (الجون) على الأبيض والأسود، ويُستعمل (الجلل) في الجليل والهيِّن، يُقال هذا مصاب جلل، وكلّ مصيبة تخطأتك جلل. فهو في المثال الأول: بمعنى العظيم، وفي الثاني: بمعنى الهيِّن (فقه اللغة: ١٩٢).

(٤) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١/٣٠٥.

(٥) أقدم كتاب وصل إلينا يحمل هذا العنوان هو كتاب الأضداد لقطرب (ت٢٠٦هـ)، ثم توالت الكتب التي تحمل هذا المصطلح بعد ذلك، ككتاب السجستاني (ت٢٥٥هـ)، فكتاب ابن الأنباري (ت٣٢٨هـ)، ثم كتاب الصاغاني (ت٦٥٠هـ) (أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ٣٠٢ ـ ٣٠٤).

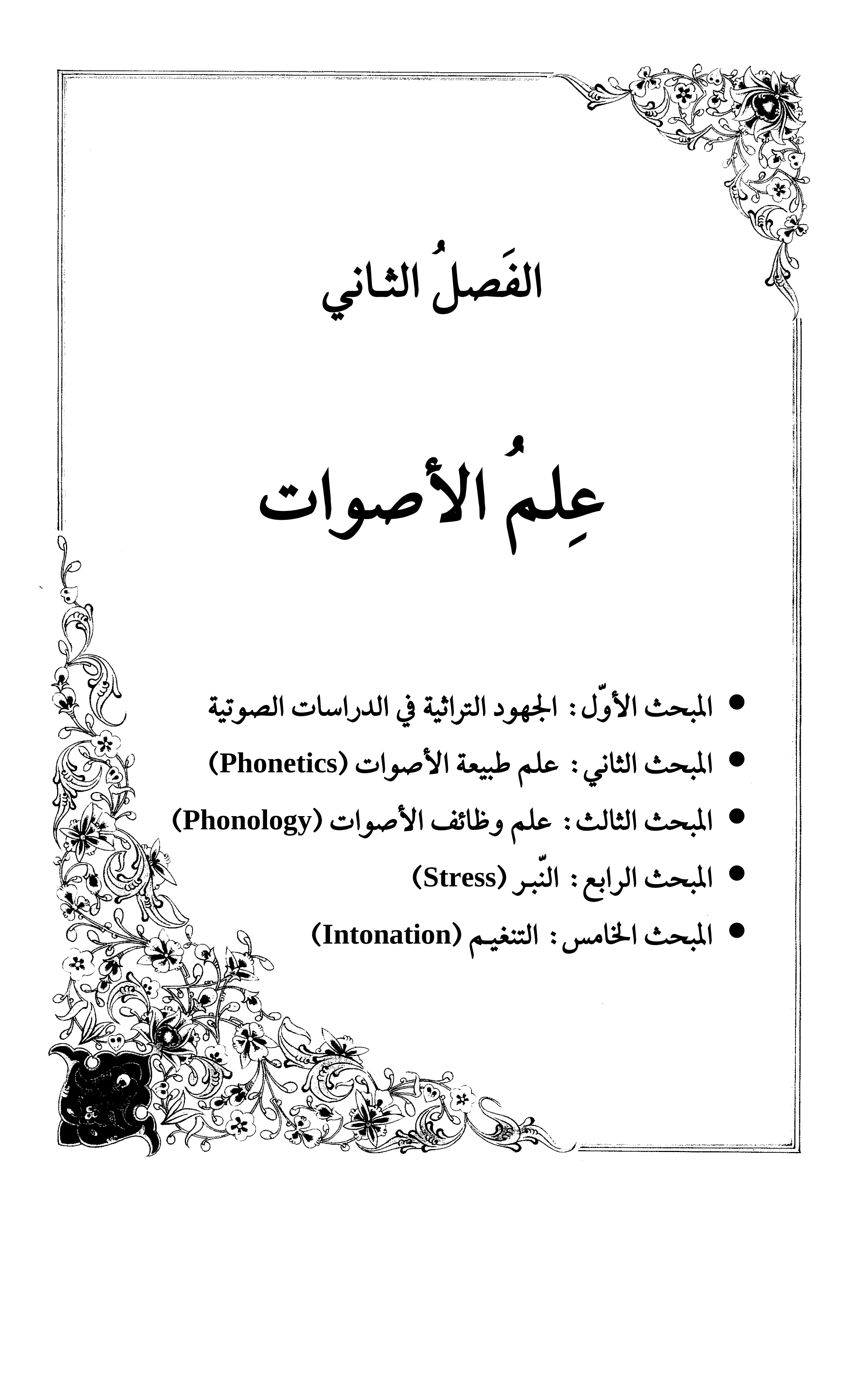
يحتمل الإظهار والإخفاء[١] في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤].

ويعود سبب وجود هذه الظاهرة في اللغة العربية إلى أسباب، منها ما يتصل بالوضع، ومنها ما يتصل بتعدُّد اللهجات العربية، ومنها ما يعود إلى الاقتراض من اللغات الأخرى، كما أنّ للمجاز والتطور الدلالي دوراً مهماً في إيجاد هذه الظاهرة ومثيلتيها؛ الترادف والمشترك اللفظي. وأهمّ من ذلك جميعاً هو التطور الصوتي الذي يحكم الكثير من أمثلة التضاد والمشترك اللفظي، فقد ينال الأصوات الأصلية للفظٍ ما بعضُ التغيير أو الحذف أو الزيادة وفقاً لقوانين التطور الصوتي، فيصبح هذا اللفظ متَّحِداً مع لفظ آخَر يختلف عنه في مدلوله فيصير مشتركاً لفظياً، أو يدلّ على ما يقابل معناه فيصير تضاداً[٢].

---

(١) يُنظر: (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢/ ٣٥٢).

(٢) فقه اللغة: ١٩٢/ ١٩٨.



الفَصلُ الثاني

عِلمُ الأصوات

- المبحث الأوّل: الجهود التراثية في الدراسات الصوتية
- المبحث الثاني: علم طبيعة الأصوات (Phonetics)
- المبحث الثالث: علم وظائف الأصوات (Phonology)
- المبحث الرابع: النّبر (Stress)
- المبحث الخامس: التنغيـم (Intonation)

الفصل الثاني
عِلمُ الأصوات

تمهيد

إنّ أوّل ما تبدأ به الدراسات اللّغوية المعاصرة بعد الإلمام بمجالها، هو دراسة الجانب الصوتي للّغة، لأنه الأساس الذي يقوم عليه بناء مفرداتها وصيغها وتراكيبها، بل يقوم عليه أدبها كلّه، شعراً كان أو نثراً. ومن هنا كان لابدّ لدارس اللغة، أية لغةٍ، من دراسة أصواتها دراسةً يُستقصَى فيها أهمّ مباحثه، إن لم تكن جميعها.

وقد كان للتطور العلمي، وظهور وسائل التقنية الحديثة أثر كبير في تطور الأبحاث الصوتية وتقدمها تقدماً باهراً، فظهرت علوم عديدة في مجال دراسة الأصوات، وتشعّبت مباحثها ومناهجها بحيث أصبح لكلٍّ منها علماء ومتخصِّصون، ومن أشهر هذه العلوم الصوتية، وأكثرها شيوعاً، علوم ثلاثة، هي:

١ــ علم الأصوات النطقي (الفسيولوجي)، ويَدرس كيفية إنتاج الصوت وخصائصه.

٢ــ علم الأصوات الفيزيائي (الأكوستيكي)، ويَدرس الموجات والذبذبات الصوتية الناتجة عن نطق الأصوات وانتقالها من فم المتكلم إلى أذن السامع.

٣ـ علم الأصوات السمعي، ويَدرس ما تُحدثه الذبذبات الصوتية من تأثيرات فسيولوجية في أذن السامع، وما يصاحب ذلك من تأثيرات نفسية لدى المستمع[١].

وما يهمّنا من هذه العلوم الثلاثة في دراسة الدلالة الصوتية هو القسم الأول منها، أي علم الأصوات النطقي الذي تتناول مباحثه ودراساته مُستَوَيَين اثنين؛ أولهما: علم الأصوات المجردة (الفوناتيك)، والثاني: علم الأصوات التشكيلي (الفونولوجي).

المستوى الأول:

وهو ما يُسمَّى بعلم الأصوات اللغوية[٢]، أو علم طبيعة الأصوات (Phonetics)[٣]، وهذا الجانب من الدراسة الصوتية يبدأ بدراسة التكوين التشريحي للجهاز لنطقي، ثم بعد ذلك يدرس وظيفته المباشرة، وغير المباشرة في إنتاج الأصوات، وتشكيلها. كما يتناول دراسة هذه الأصوات ومكوناتها أو عناصرها الأساسية، من حيث عدد الذبذبات وطبيعتها. وينتهي هذا الجانب بدراسة صفات الأصوات المثالية، من جهر وهمس، وانفجار واحتكاك، وغيرها على مستوى استعمال الانسان للغة[٤].

المستوى الثاني:

وهو ما يُسمّى بـ (علم وظائف الأصوات) (Phonology) (علم وظائف

---

(١) علم الأصوات: ٧.

(٢) علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا): ٣٥.

(٣) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ١٠٤.

(٤) في علم اللغة العام: ١٠٦.

الأصوات اللغوية[١]، كما يُسميه البعض علم التشكيل الصوتي[٢]. وهذا الجانب يدرس الصوت في سياقه اللغوي من خلال دراسة النظم الصوتية للغة معينة، كما ينطقها أصحابها، لأنّ الصوت في سياقه يختلف عن الصوت المجرد، سواء من حيث كمية الجهد اللازمة لإنتاجه، أو من حيث تأثره بالأصوات السابقة عليه، واللاحقة به، «ولهذا التأثر قوانين عامة، في جميع اللغات، بحيث نجد أنّ صوتاً كالنون مثلاً في العربية قد يُنطَق على سبع صور، بحسب الصوت التالي له، وكلُّ هذه الصُّوَر أعضاء لفونيم واحد هو (النون). وكلمة (فونيم) معناها (الوحدة الصوتية) التي تأخذ عدّة صُوَر باختلاف المواقع المؤثرة فيها»[٣].

وتتسع دائرة هذا الجانب من الدراسة الصوتية لتشمل دراسة البناء المقطعي، أو ما يُسمّى بالمقاطع الصوتية، لإختلافها من لغة إلى أخرى. إضافة إلى دراسة بعض الظواهر الصوتية كالنبر والتنغيم، ودور كل منهما في تحديد المستوى الدلالي أثناء وروده في سياق الكلام.

وسوف نقوم بعرض بعض مباحث هذين المستويين مِمّا يخدم ما نحن بصدده من مبحث الدلالة الصوتية، مُستَأنسين بإيراد الأمثلة والشواهد القرآنية أثناء ذلك، بهدف التخفيف من صرامة المادة النظرية التي يتّسم بها هذا الفصل من جهة، والتمهيد لفصل الدلالة الصوتية في القرآن من جهة ثانية. ولكننا نُؤثر التقديم لذلك أوّلاً بسردٍ تاريخي موجَز، يتناول نشأة الدرس الصوتي وتطوره عند العرب، لنقف على حقيقة إسهام علماء الإسلام، ودورهم الريادي في وضع أسس هذا العلم وتطوره، والذي كان الدافع إليه كالعادة هو كتاب الله المجيد.

---

(١) الفونولوجيا: ٣٥.

(٢) مناهج البحث في اللغة: ١١١.

(٣) في علم اللغة العام: ١٠٦.

المبحث الأوّل

٢. ١ ـ الجهود التراثية في الدراسات الصوتية

لم يَدرس العرب والمسلمون الأصوات باعتبارها علماً قائماً بذاته، كعلم النحو، وعلم البلاغة، وعلم التجويد، إلا أنّهم تناولوا أبحاثه الأساسية في ثنايا مصنفاتهم تلك، لدرجة يمكن معها القول: إنّ علم الأصوات كان علماً واضح الملامح والصفات، وخاصّة في علم التجويد، وهو علم أصوات، فقد استُعمِلَت فيه المصطلحات التي وجدت في المباحث الصوتية التي عُرفَت عند علماء اللغة والنحو، «ولولا أنّ علم التجويد اقتصرت مباحثه على قراءة القرآن لكان هو في العربية علم الأصوات»[١].

وبذلك يمكن القول إنّ الدرس الصوتي العربي كان قد انبثَق من أصلين أساسيين «هما: اللغة ومعارفها، والقراءات القرآنية، ووجوهها الصوتية»[٢]، حيث حفَلَت كتب النحاة واللغويين والبلاغيين، إضافة إلى كتب علم التجويد، بالجمِّ الغفير من الموضوعات الصوتية النظرية والتطبيقية[٣]. مِمّا سنأتي عليها سراعاً.

٢. ١. ١ ـ أبو الأسود الدؤلي

كانت أولى الملاحظات الصوتية قد صدرت عن أبي الأسود (ت٦٩هـ) عندما قام «بوضع نُقَطٍ تمثل الحركات القصيرة والتنوين، وكان ذلك قبل وضع (النحو)

---

(١) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ١٥.

(٢) اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي: ٦٤.

(٣) أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين: ١٣.

العربي»[١]. فقد طلب من أحد طلابه أن يُحضِرَ دواةً من لونٍ يُغاير لون خط المصحف، وقال له: «إذا رأيتَني قد فتحتُ شفتي بالحرف فانقط نقطة أعلاه، وإذا ضمَمتُ شفتَيّ فانقط نقطةً بين يَدَي الحرف، وإذا كَسرتُ شفتَيّ فاجعل نقطةً تحت الحرف، فإن اتبعتُ شيئاً من ذلك غنةً، فاجعل النقطة نقطتين»[٢]، وهو علامة التنوين.

ومحاولة أبي الأسود هذه تُعَدُّ خطوةً أولى على طريق تشخيص ما يُسمَّى بالأصوات القصيرة، والتفريق بينها، اعتماداً على وضع شفاه المتكلم، ومعلوم «أنّ تصنيف الحركات في الدرس الصوتي الحديث يعتمد ـ فيما يعتمد ـ على هذا الأساس الفسيولوجي الذي أدركه أبو الأسود»[٣]الذي أدرك ملامح صوتية أخرى، أوعلامات ثانوية في الكلام العربي عندما أمر بوضع نقطتين كعلامة للتنوين.

٢. ١. ٢ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي

تبدو ملامح الدرس الصوتي المنهجي جليةً، لأوّل مرة، عند الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) في كتابه (العين)، وذلك من جهتين:

الأولى: تصنيفه «للأصوات العربية حسب موضع النطق»[٤]، مستبعداً الإعتماد على الترتيب الأبجدي أو الترتيب الألفبائي في وضع معجمه، لأنه رأى أنهما «يهدران القيمة الصوتية التي جعلها الخليل مبدأً من مبادئ عمله»[٥]. فقد اعتمد وصف مخارج

---

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٩٣.

(٢) مراتب النحويين: ٢٩.

(٣) دراسات لغوية: ٢٨.

(٤) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ٩٤.

(٥) اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي: ٢٠.

الحروف بالإنطلاق من جهاز النطق «مبتدئاً بأقصاها من جهة الجوف[١]، ثم منتهياً إلى أدناها عند الشفتين»[٢]. وقد بنى معجمه وفقاً لهذا الترتيب.

الثانية: ما ورد في مقدمة كتاب العين من ملاحظات صوتية ونظرات عُدَّتْ «على إيجازها، أوّل مادة في علم الأصوات دلّت على أصالة علم الخليل، وأنه صاحب هذا العلم ورائده الأول»[٣].

وقد حصر الخليل، في مقدمته تلك، الحروفَ العربية في تسعة وعشرين حرفاً، «منها خمسة وعشرون حرفاً صِحاحاً لها أحياز ومدارج، وأربعة هوائية. وتُرَتَّب الصِّحاح على هذا النحو: (ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م). أما الهوائية فليس لها حيّز تنسب إليه إلاّ الهواء، وهي: (و، ا، ي، ء)»[٤]. وقد قدّم وصفاً كاملاً لجهاز النطق مقرِّراً لكلِّ حرفٍ من هذه الحروف مخرجه الخاص به، مع بيان بعض خصائصه، ومقارنته بغيره من الحروف والأصوات. وبهذا فَتَحَ بابَ علم الأصوات على مصراعيه لتلاميذه، ومن خَلَفَهم.

---

(١) جاء في المزهر أنّ بعضهم قال: إنّ الخليل بدأ كتابه «بحرف العين لأنها أقصى الحروف مخرجا. قال: والذي ذكره سيبويه أنّ الهمزة أقصى الحروف مخرجاً. قال: ولو قال: بدأت بالعين لأنها أكثر في الكلام وأشد اختلاطا بالحروف لكان أولى. وقال ابن كيسان: سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال: لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها، فنزلت إلى الحيِّز الثاني، وفيه العين والحاء، فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به، ليكون أحسن في التأليف. وليس العلم بتقدُّم شيء على شيء لأنه كلّه مِمّا يُحتاج إلى معرفته فبأيّ بدأت كان حسناً، وأولاها بالتقديم أكثرها تصرُّفا» (المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١/ ٧٠).

(٢) مدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٦٧.

(٣) مقدمة كتاب العين: ١/ ١٠، للمخزومي

(٤) مدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٦٧.

٢. ١. ٣ـ سيبويه

يمكن أن تُعَدَّ الملاحظات الصوتية المبثوثة في كتاب سيبويه (ت١٨٠هـ) (الكتاب) امتداداً لما أسَّسَه أستاذه الخليل في مجال علم الأصوات، على الرغم من مخالفته له في بعض القضايا الصوتية، فإذا كانت أعضاء النطق ومدارج الحروف عندهما واحدة فإنّ «ترتيب الحروف في كتاب سيبويه تخالف ترتيب الخليل[١]، فحينما وضع الخليل الأبجدية الصوتية للمعجم العربي مبتكراً لها، خالفه سيبويه في ترتيب تلك الأصوات، إذ بدأ بالهمزة والألف والهاء، وقدّم الغين على الخاء، وأخّرَ القاف عن الكاف وهكذا»[٢]. إضافة إلى خلافات ثانوية أخرى[٣].

ومن المباحث الصوتية التي تناولها سيبويه في كتابه، إضافة إلى مخارج الحروف، صفات الحروف وإدغامها و إبدالها لمناسبة الصوت[٤].كما تحدّث عن تحقيق الهمزة وتسهيلها، وهمزة بين بين، وعن الإمالة وأحكامها وأحوالها، وعن الإعلال والإبدال والتعليل الصوتي له[٥]. وغير ذلك من الأبحاث الصوتية الأخرى. ولذلك يمكن أن يُعَدَّ كتاب سيبويه بحقّ من خيرة المصادر القديمة التي عالجت موضوع الأصوات[٦].

---

(١) يُنظر: (الكتاب: ٥٠٢/٢)، و(الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن حني: ٢٩٨)، و(مدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٧٠ ـ ١٧٤).

(٢) الصوت اللغوي في القرآن: ٥٢.

(٣) منها مجيء حروف الصفير فكتاب العين بعد الضاد، والذي عند سيبويه بعد الضاد حروف الذلاقة. يُنظر: (الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن حني: ٢٩٨).

(٤) الكتاب: ٥٠٢/٢.

(٥) م.ن: ٤٨٨/٢.

(٦) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: ٥٩.

٢. ١. ٤ ـ ابن جني

يمكن اعتبار اللغوي العبقري ابن جني (ت ٣٩٢هـ) الوارث الحقيقي لجهود علماء المدرسة البصرية في الدرس الصوتي العربي، وذلك من خلال ما تعرّض له في كتابه (الخصائص) من قضايا صوتية هامّة كمضارعة الحروف للحركات، والحركات للحروف، ودلالة الأصوات على المعاني، والأصوات التي تحكي أصوات الطبيعة[١]، وغير ذلك من الجوانب الصوتية القيِّمة التي زخر بها هذا الكتاب.

لكنّ جهود ابن جني لم تقف عند هذا الحد في دراسة الأصوات، بل تعدّاه إلى ما هو أعمق منه وأوسع في كتابه الآخر (سرّ صناعة الإعراب)، حيث اعتُبر «الكتاب الأوّل الذي أُلِّفَ لدراسة الأصوات وما يتعلّق بها من مسائل لغوية»[٢]. بل إنّ ابن جني بكتابه الرائع هذا كان قد «تجاوز مرحلة البناء والتأسيس إلى مرحلة التأصيل والنظرية»[٣]في الفكر الصوتي العربي.

ومن خلال ضَمّ المباحث الصوتية التي تناولها ابن جني في هذين الكتابين إلى بعضهما البعض نتوصل إلى مجموعة مفضَّلة من مباحث علم الأصوات يمكن رصدها وتصنيفها على النحو التالي[٤]:

١- الحروف الصامتة والحروف الصائتة.
٢- علاقة اللهجات بالأصوات.
٣- علاقة الإعراب بالأصوات.

---

(١) يُراجع مبحث (١. ٥. ١ ـ الدلالة الصوتية) وما يندرج تحته من موضوعات.
(٢) مدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٧٤.
(٣) الصوت اللغوي في القرآن: ٥٦.
(٤) م.ن: ٥٨ ـ ٥٩.

٤- التقديم والتأخير في حروف الكلمات وتأثيرهما على الصوت.

٥- علاقة الأفعال بالأصوات.

٦- الإعلال والإبدال والإدغام وأثرها في الأصوات.

٧- الأصوات وعلاقتها بالمعاني.

٨- زيادة المبنى الصوتي وأثره في زيادة المعنى.

نضيف إلى ذلك تناوله للحركات الثلاث؛ الفتحة والكسرة والضمة التي عدّها أبعاض حروف المد واللِّين، وهي: الألف والياء والواو، «فكما أنّ هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث، وهي: الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدِّمو النحويين يُسَمُّون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة»[١]، وهي ما يُطلق عليها في اللسانيات الحديثة مصطلح الصوائت القصيرة[٢].

ولعل من المسائل المهمة الأخرى التي أدركها ابن جني، والتي بنينا على أساسها فصلاً من هذه الدراسة، هي علاقة علم الأصوات بالموسيقى والإيقاع حيث يقول: إنّ «علم الأصوات والحروف له تعلّق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم»[٣].

ولابد من الإشارة هنا إلى ملاحظات ابن جني حول تأليف حروف الكلمة بحسب مخارج الحروف، ووقوفه عند مسألة حسن التأليف، وخلاصة ما ذهب إليه بهذا الصدد قوله: إنّ «الحروف كلّما تباعدت في التأليف كانت أحسن، وإذا تقارب الحرفان

---

(١) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/١٧.

(٢) مدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٧٦.

(٣) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٩.

في مخرجيهما قبح اجتماعهما، ولا سيما حروف الحلق»[١].

والذي دعانا إلى ذكر هذا الجانب عند ابن جني هو أنّ دارسي الإعجاز القرآني وعلوم البلاغة والنقد فيما بعد كانوا قد أفادوا منه كثيراً، وذلك عندما «وجّهوا خُطاهم نحو تأليف الكلمة بحسب المخارج الصوتية، وما له من دور في حُسن التلفّظ وفصاحته، أو سوئه وعدم فصاحته»[٢].

وقد تناول البلاغيون والنقّاد هذه المسألة في باب فصاحة الكلمة والكلام، ومن هؤلاء ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) في كتابه: سرّ الفصاحة: ٦٦)، وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) في كتابه: دلائل الإعجاز: ٦٠)، وضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ) في كتابه: المثل السائر: ١/١٥٨، وغيرهم.

ومِمّا يُلاحَظ أيضاً أنّ معظم ما انتهى إليه ابن جني في درسه الصوتي، وخاصة ما تعرّض له في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) تَمّ الإعتماد عليه غالباً في كتب اللغة والتجويد منذ مطلع القرن الخامس الهجري وحتى العصر الحديث، مع اختلاف طفيف في عدد المخارج، وبعض الصفات الجزئية[٣]. وهذا الأمر لا يقتصر على نظراته الصوتية فحسب، بل ينسحب على بقية آرائه اللغوية التي كانت مَعيناً لِما صُنِّف بعده من المعجمات وكتب اللغة وكتب أصول النحو وكتب التصريف[٤].

---

(١) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٦٥.

(٢) مدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٨٢.

(٣) مدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٧٩.

(٤) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: ٢٠.

٢. ١. ٥ ـ ابن سينا

قبل أن نُنهي بحثنا حول الجهود التي بذلها علماء العربية، من غير علماء التجويد، في إرساء قواعد علم الأصوات لابدَّ من الإشارة إلى أنّ علماء آخرين من غير أهل اللغة والبلاغة والنقد كانت لهم إشارات ونظرات صوتية مهمة، منهم الحكيم ابن سينا (ت٤٢٨هـ) الذي ألّف رسالةً فريدةً من نوعها سَمّاها (مخارج الحروف أو أسباب حدوث الحروف) اشتملت على ستة فصول هي[١]:

١ـ في سبب حدوث الصوت.

٢ـ في سبب حدوث الحروف.

٣ـ في تشريح الحنجرة واللسان.

٤ـ في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب.

٥ـ في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب.

٦ـ في أنّ هذه الحروف قد تُسمع من حركات غير نطقية.

وابن سينا ــ كما هو واضح من عناوين الفصول ــ يتناول وصفاً تشريحياً فسيولوجياً لأعضاء النطق[٢]، وآلية خروج الصوت عبره، وقد ساعده على التوصل إلى ذلك معرفته بعلم الطب، كما يتناول وصفاً للحروف من خلال شبهها بأصوات وحركات غير نطقية، فالعين: يُسمَع عند اندفاع الهواء بقوة في الماء، والخاء: عن حَكِّ جسمٍ جافٍّ بجسم صلبٍ، والقاف: عن انشقاق الأجسام، وخصوصاً ذوات الرطوبة اللطيفة، وهكذا[٣].

---

(١) طبعت جامعة طهران هذه الرسالة (سنة ١٣٣٣) بالتقويم الهجري الإيراني، بروايتين بينهما شيء من الاختلاف، مترجمة ومصحَّحة من قبل الدكتور برويز ناتل خانلرى.

(٢) أسباب حدوث الحروف: ٩.

(٣) م.ن: ٢٥.

وقـد قسّـم ابـن سـينا الحـروف إلى نـوعين ؛ مفـردة ومركبـة ، يقـول في ذلـك : «والحـروف بعضـها مفـردة ؛ وحـدوثها عـن حبسـات تامـة للصـوت أو للـهواء الفاعـل للصوت يتبعها إطلاق دفعةً. وبعضها مركبة ؛ وحدوثها عن حبسات غير تامة لكن مع إطلاقات»[١].

أما الحروف المفردة : فهي عبارة عن : (الباء ، والتاء ، والجيم ، والدال ، والضـاد ، والطاء ، والقاف ، والكاف ، واللام ، والميم ، والنون) ، أمـا الحـروف المركبـة : فهـي مـا عدا ذلك[٢]. و تتضمّن الرسالة مباحث أخرى غاية في الدقة والأهمية.

٢ . ١ . ٦ ـ علماء القراءات والتجويد

يُعَدُّ علمُ القراءة والتجويـد الأصـل الثـاني الـذي انبثقـت عنـه المباحـث الصـوتية في الـتراث العربـي ، حيـث اهـتم أصـحاب هـذا العلـم بقـراءة القـرآن الكـريم ، وانصـبّت عنايتهم على تعيين الوجوه المختلفة التي يصـحّ بهـا تـلاوة آيـات الـذكر الحكـيم. فهـم ، علاوةً على ما أضـافوه مـن تفصـيلات صـوتية مهمـة إلى مـا أُثـر عـن الخليـل وسـيبويه ، «سَعَوا إلى وصف (تلاوة) القرآن الكريم حسب القراءات المختلفة ، فسجّلوا خصـائص صوتية تنفرد بها التلاوة القرآنية ، ووضعوا رموزاً كتابية تمثل هذه الخصائص»[٣].

ومن الملاحَظ في هذا المجـال مـن مجـالات علـم اللغـة «أنّ تـأثير الـدرس الصـوتي في علم التجويد كان أظهر وأقوى منه في الدراسات الأخـرى. فقـد حمـل أصـحاب الأداء القرآني تراث الدرس الصوتي المتقـدم وزادوا فيـه تفصـيلات كـثيرة مـأخوذة مـن قواعـد

(١) م.ن : ٧.

(٢) م.ن : ٧.

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي : ٩٦.

القراءات القرآنية، وكان الهدف من ذلك بالطبع هو صون الألسنة عن الخطأ في تلاوة القرآن من حيث الأداء الصوتي»[١].

وتتطلّب صحّة الأداء الصوتي في تلاوة القرآن، عند علماء التجويد، أن تكون قراءة قارئ القرآن سهلة سَمحة، عذبة الألفاظ، لطيفة المأخذ، لا يَخرج بها عن طباع العرب، وعمّا تكلّمت به الفصحاء، من المدّ، والهمز، والوصل، والتشديد، والتخفيف، والإمالة، والتفخيم، والإختلاس، والإشباع. مع مراعاة تجويد الإعراب، وإشباع الحركات، وتبيين السواكن، وإظهار بيان حركة المتحرك بغير تكلّف ولا مبالغة[٢].

ولاشك أنّ هذه الوفرة من المصطلحات الصوتية، وكثير غيرها مما تحفل به كتب القراءات والتجويد، لم تظهر هكذا فجأة إلى الوجود، بل تطلّب ذلك قرون عديدة من الجهود الحثيثة المتواصلة بذلَها علماء من كافة فروع علوم اللغة والشريعة.

ويمكن القول إنّ بداية هذا العلم من حيث تشكيل المصطلح واستقلاليته عن سائر العلوم التي نَما في أحضانها تعود إلى القرن الرابع الهجري، عند علماء من أمثال ابن مجاهد (ت٣٢٤هـ)، والخاقاني (ت٣٢٥هـ). ثم تلت ذلك مؤلفات أخرى كثيرة. وربما كان مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) هو رائد التأليف المنظّم في علم التجويد والقراءات[٣].

ويبقى أن نشير إلى أنّ ما تضمّنته كتب القراءات والتجويد من مباحث في أصوات

---

(١) مدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٨٢.

(٢) الموضح في التجويد: ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) للإستزادة والتوسع في هذا الموضوع يُراجع: (الحمد، غانم قدوري (١٩٨٦م). الدراسات الصوتية عند علماء التجويد).

اللغـة وأنواعهـا ومخارجهـا ، ومـا رصـدوا لكـلِّ ذلـك مـن مصـطلحات غايـةً في الدقـة والشمول لتتفق إلى حَدٍّ كبيرٍ مع معطَيات الدرس الصـوتي الحـديث الـذي يُعـرف باسـم (Phonetics)، أو مايُسمَّى بعلم دراسة الأصوات[١].

(١) أصول التراثية في اللسانيات الحديثة : ١٧.

المبحث الثاني

٢. ٢ ـ علم طبيعة الأصوات (Phonetics)

يتناول علم اللسانيات اللغة المنطوقة متمثلة في الأصوات الكلامية التي تنتظم في كلمات، تؤلِّف بدورها جملاً تحمل دلالات خاصّة، وهذه الأصوات تصدر بطبيعة الحال عن أعضاء جهاز النطق لدى الإنسان. ودراسة علم طبيعة الأصوات تستدعي سلفاً معرفة تكوين هذه الأعضاء ووظائفها، والإنطلاق منها إلى وصف الأصوات وتصنيفها على أساس علمي دقيق.

٢. ٢. ١ ـ جهاز النطق عند الإنسان

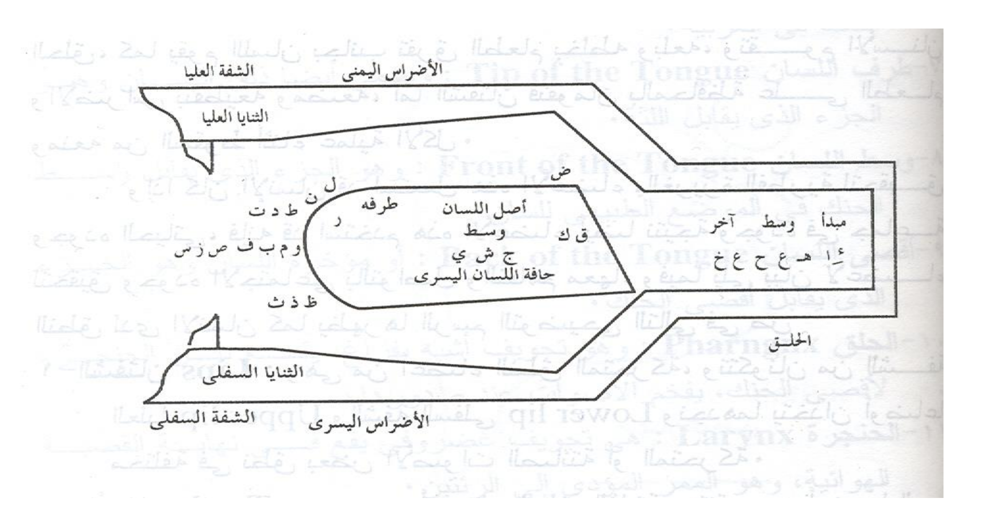
لقد حدّد علماء العربية الأوائل مخارج الحروف، وتناولوها بصورة نظرية، إلاّ إنّ عَلَماً كبيراً من أعلام العربية هو السكاكي (ت٦٢٦هـ) اهتدى بعد فترة وجيزة إلى وضع مخطّط أو رسم تشريحي لجهاز النطق عند الإنسان، يقترب كثيراً من رسم المحدثين[١]. وكان قد ثَبّت ذلك في كتابه[٢]. وصنيع السكاكي هذا يدلّ على عمق تفكيره، وسعة اطلاعه على أصول الدرس الصوتي وهو يشير إلى مخارج الأصوات وأحيازها من جهاز النطق.

---

(١) يُنظر الشكل رقم (٢ ـ ١).

(٢) مفتاح العلوم: ٧.

شكل رقم (٢ ـ ١)



وفيما يلي بيان لأعضاء النطق عند الإنسان مع توضيح موجز يُنبئ عن دور كلٍّ منها في عملية النطق، مشفوعاً بالرسم التوضيحي(١).

١ ـ **الشفتان (Lips):** وتتخذان أوضاعاً مختلفة في حال النطق تؤثر في نوع الأصوات وصفاتها. وخاصة في نطق الأصوات المسماة بالحركات. وفي حال انطباق الشفتين بشكل تام يصدر صوت الباء، أما في حال انفراجهما فتصدر أصوات، منها الكسرة.

٢ ـ **الأسنان (Teeth):** وهي تشترك مع اللسان في نطق بعض الأصوات كالثاء والذال والظاء. كما تقع الأسنان العليا فوق الشفة السفلى حال النطق بالفاء.

٣ ـ **اللثة (Alveolar):** وهو الجزء المحدّد والمحزّز الواقع خلف أصول الأسنان العليا.

---

(١) علم الأصوات: ١٣٤ ـ ١٤٥، وأصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ١١٨ ـ ١٢٠.

٤ ـ **الغار (Palate):** أو مايسمى بوسط الحنك، أو الحنك الصلب، وهو يلي مقدّم الحنك حيث ينتهي التحدُّب ويبدأ التقعُّر.

٥ ـ **الطبق (Velar):** وهو أقصى الحنك، أو ما يُسمى بالحنك اللين، وهو يلي الحنك الصلب، وهذا الجزء قابل للحركة، فإذا رُفع إلى النهاية إلتقى بالجدار الخلفي للتجويف الحلقي، فيمنع مرور الهواء، فيكون هذا الوضع سبباً لتكوّن أصوات مثل السين والصاد والباء والتاء. أمّا إذا خفض الحنك اللين فإنّ الطريق أمام الهواء الخارج من الرئتين يكون مفتوحاً لكي ينفذ من الأنف، فيكون هذا الوضع سبباً لنطق النون والميم.

٦ ــ **اللهاة (Uvula)**: وهي تمثل أقصى الحنك، ولها دخل في نطق صوت القاف.

٧ ـ **طرف اللسان (Tip of the Tongue)**: أو ذلق اللسان، وهو الجزء الذي يقابل اللثة.

٨ ــ **وسط اللسان (Front of the Tongue):** وهو الموضع الطبيعي للسان المقابل لوسط الحنك.

٩ ـ **أقصى اللسان (Back of the Tongue)**: أو مؤخَّرته، وهو الجزء المقابل لأقصى الحنك.

١٠ ــ **الحلق (Pharngnx)**: وهو تجويف واقع بين الحنجرة لأقصى الحنك، يفخّم الأصوات.

١١ ـ **الحنجرة (Larynx):** هي تجويف يقع في نهاية القصبة الهوائية، وهو الممرّ المؤدّي إلى الرئتين.

١٢ ـ **الوتران الصوتيان (Voeal Cards)**: من أعضاء النطق المتحركة والتي

تؤثر أوضاعها المختلفة في إحداث الأصوات المجهورة تارة كالعين والغين والضاد والظاء وغيرها، والمهموسة تارة أخرى كالتاء والثاء والحاء والخاء، عندما يكون الوتران في وضع التنفس.

١٣ ـ **لسان المزمار (Epiglottis):** وهذا الجزء لا يؤثر في تكوين أي صوت ينطقه الإنسان.

١٤ ـ **القصبة الهوائية:** وهو عبارة عن فراغ رنّان مؤلّف من حلقات غضروفية، يقف بعضها فوق بعض بشكل عمودي.

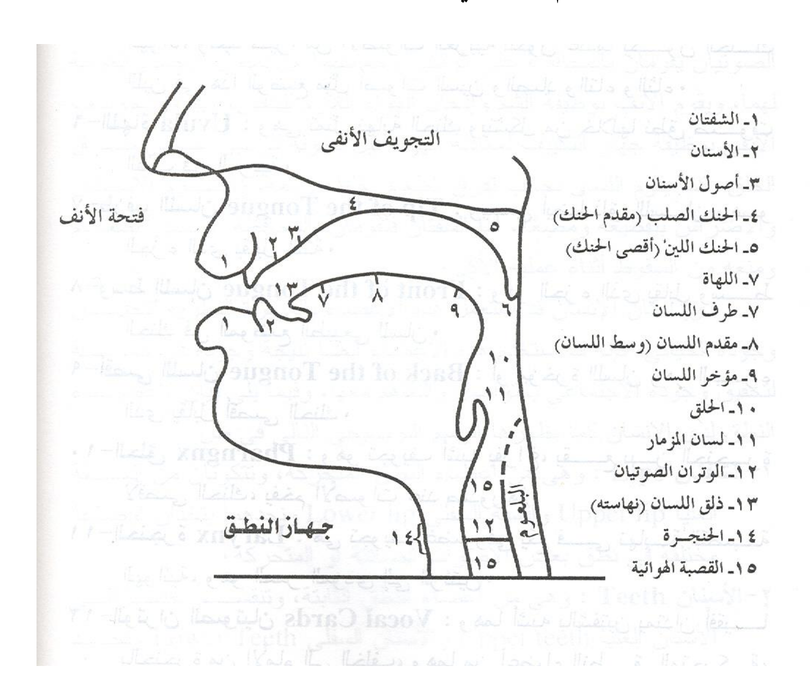
١٥ ـ **التجويف الأنفي (Nasal Cavity)** وهو فراغ يتصل بالأنف، يندفع الهواء من خلاله عند انخفاض الحنك اللين فيساهم في إنتاج صوتي النون والميم[١].

---

(١) يُنظر: الشكل رقم (٢ ـ ٢).

شكل رقم (٢ ـ ٢)

رسم توضيحي لأعضاء جهاز النطق



٢ . ٢ . ٢ ـ تصنيف الصوت اللغوي

لأصوات اللغة، التي تصدر عن جهاز نطق الإنسان، تصنيفات عدّة أساسها التقسيم الثنائي المعروف بالأصوات الأصوات الصائتة (Vowels) أو الحركات، والصامتة (Consonants) أو الحروف. والأساس الذي بُني عليه هذا التقسيم يتعلّق بطبيعة الأصوات، وخواصّها المميزة لها، فمن الملاحظ «أنّ الأصوات التي توسَم بأنها

(صوائت) أشدُّ وضوحاً في السمع من غيرها من الأصوات الكلامية»[١].

ويمكن تحديد هذا التقسيم في «معيارين مهمّين: الأول: وضع الأوتار الصوتية، والثاني: مرور الهواء من الحلق والفم أو الأنف عند النطق بالصوت المعين»[٢].

٢. ٢. ٢. ١ ـ الأصوات الصائتة (Vowels)

يُعرّف الصوت الصائت «بأنه الصوت المجهور الذي يحدث في تكوينه أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم، وخلال الأنف معهما أحياناً، دون أن يكون ثَمّة عائق يعترض مجرى الهواء اعتراضاً تاماً أو تضييق لمجرى الهواء من شأنه أن يُحدث احتكاكاً مسموعاً»[٣].

والأصوات العربية التي ينطبق عليها تعريف الصوت الصائت تنقسم إلى قسمين:

أولاً: ما اصطلح عليه علماء العربية اسم (الحركات)، أو الصوائت القصيرة، أو أبعاض حروف المد[٤] [٥]، وهي: الفتحة والضمة والكسرة.

ثانياً: ما اصطلحوا عليه اسم (حروف المد واللين)، أو ما يُسمَّى بالصوائت الطويلة، كالألف في مثل (دعا)، والواو في مثل (قالوا)، والياء في مثل (القاضي). ويمكن القول بأنّ الحركات أو الأصوات الصائتة في العربية كلّها مجهورة[٦].

وقد قسّم اللسانيون الأصوات الصائتة، طبقاً لحركة الشّفتين، إلى

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٥٠.

(٢) علم الأصوات: ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٤٨.

(٤) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/١٧.

(٥) يُنظر: مبحث: (٢. ١. ٤ ـ ابن جني).

(٦) علم الأصوات: ١٥١، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٨٤.

قسمين، هما[1]:

٢. ٢. ٢. ١. ١ ـ الصوائت الضيقة أو المغلقة (Close Vowels)

ويتمثل الصائت الضيّق أو المغلق في صوتي الكسرة والضمّة، حيث يبلغ اللسان معهما في ارتفاعه نحو الحنك الأعلى إلى أقصى مداه، فيصير معهما الفراغ بين اللسان والحنك الأعلى أضيق ما يمكن أن يكون عليه في نطق الصوائت. وقد سبق لعلماء العربية القدامى أن تنبّهوا إلى التشابه بين هاتين الحركتين فقد لاحظوا أنّ «الضمة أخت الكسرة في الثقل، كما أنّ الواو نظيرة الياء في الثقل والإعلال»[2].

٢. ٢. ٢. ١. ٢ ـ الصوائت الواسعة أو المنفتحة (Open Vowels)

ويتمثّل الصائت الواسع أو المفتوح في صوت الفتحة، حيث يصل اللسان معها إلى أقصى مداه أثناء هبوطه، فيصير معها الفراغ بين اللسان والحنك الأعلى أوسع ما يمكن أن يكون عليه في نطق الصوائت. ويُعتبر الصائت المنفتح، أي صوت الفتحة «في الجملة أشدّ بروزاً من الصوائت الضيّقة»[3] التي يمثلها صوتا الكسرة والضمة.

كما قسم اللسانيون الأصوات الصائتة مرة أخرى، وذلك طبقاً لحركة اللسان، إلى قسمين آخرين هما:

صائت خلفي (Back Vowels): وهي صوتا الضمة والفتحة، حيث تصعد مؤخرة اللسان نحو الحنك الأعلى أو تهبط إلى قاع الفم.

---

(١) للإستزادة يُنظر: (أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ١٢٨).

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١/١٦٤.

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٥١.

صائت أمامي (Front Vowels): وهو صوت الكسرة، حيث يصعد طرف اللسان نحو الحنك الأعلى أو تهبط إلى قاع الفم[(١)].

والحركات العربية، كما سبقت الإشارة، لا تقتصر على (الفتحة والضمة والكسرة)، التي يُطلق عليها مصطلح (الحركات القصيرة)، بل تشمل كذلك (الألف والواو والياء) التي يُطلق عليها مصطلح (الحركات الطويلة)، وهي ذاتها حروف المدّ واللين[(٢)].

وطول الحركة في اللغة العربية يُعتَبر عنصرا من عناصر المكونات الأساسية للكلمة، ولذلك «فهو عنصر ذو قيمة في البناء والدلالة، أي: فونيمي (Phonemic). قارن الأمثلة الآتية بعضها ببعض:

قَتَلَ (بفتحة قصيرة) **X** قَاتَلَ (بفتحة طويلة هي الألف)

رَحِمَ (بكسرة قصيرة) **X** رَحِيم (بكسرة طويلة هي الياء)

قُتِلَ (بفتحة قصيرة) **X** قُوتِلَ (بضمة طويلة هي الواو)

وهكذا نرى أنّ الطول في الحركات الثلاث قد أدّى دوراً مهماً في بناء الصيغ، وفي دلالاتها كذلك»[(٣)].

إنّ هذا التصنيف للحركات بنوعيها قائم على أساس كونها وحدات صوتية مستقلة (Phonemes) أو (units)، ولكن قد تعتريها كلّها ثلاث صفات نطقية متباينة، وذلك بحسب السياق الذي تقع فيه. وهذه الصفات هي: التفخيم، والترقيق،

---

(١) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ١٢٩.

(٢) أطلق عليها ابن جني اسم حروف المد والاستطالة، وعدّ الألف أشد امتداداً وأوسع مخرجاً من نظيريه، وأطلق عليه اسم الحرف الهاوي (سِرُّ صناعة الإعراب: ١/ ٦٢).

(٣) علم الأصوات: ٢٦١ ـ ٢٦٢.

وحالة وسطى بينهما. فالفتحة والضمة والكسرة، القصيرة منها والطويلة، قد تكون:

١ ــ مفخّمة: وذلك مع أصوات الإطباق، وهي: (الصاد والضاد والطاء والظاء).

٢ ـ بين التفخيم والترقيق: مع (القاف والغين والخاء).

٣ ـ مرقّقة: مع سائر الأصوات، أو في المواقع الصوتية الأخرى.

فتكون لدينا بحسب النطق الفعلي ثلاث صُوَر لكلِّ حركة قصيرة، ومثلها لكلِّ حركة طويلة. فهي إذن سِتُّ صُوَر لكلِّ حركة من الحركات الثلاث طويلة وقصيرة، فيكون مجموع الحركات العربية بهذا النظر السياقي ثماني عشرَةَ حركة. ولكن بالنظر إلى الجانب الوظيفي لهذه الحركات، أي من حيث تفريقها بين معاني الكلمات فهي ثلاث[1].

٢. ٢. ٢. ٢ ـ الأصوات الصامتة (Consonants)

يمكن تعريف الصوت الصامت بأنّه ذلك «الصوت المجهور أو المهموس الذي يحدث في نطقه أن يعترض مجرى الهواء اعتراضاً كاملاً (كما في حالة الباء)، أو اعتراضاً جزئياً من شأنه أن يمنع الهواء من أن ينطلق من الفم دون احتكاك مسموع (كما في حالة الثاء والفاء مثلاً)»[2].

ويتبيّن مما سبق أنّ الأصوات الصامتة تشمل الأصوات المجهورة والمهموسة، وذلك في مقابل الأصوات الصائتة التي تشمل الأصوات المجهورة فقط. فكل صوت مجهور (لا يحدث في نطقه اعتراض كامل لمجرى الهواء، أو تضييق له يحدث احتكاكاً)

(١) م.ن: ٤٦٢.

(٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٤٩.

يُعَدُّ صوتاً صائتاً، وما عدا ذلك يدخل تحت الأصوات الصامتة، في حين جميع الأصوات غير المجهورة (أي المهموسة) تُعتَبر أصواتاً صامتة. فالصوامت العربية هي الأصوات التالية:

همزة القطع ـ ب ـ ت ـ ث ـ ج ـ ح ـ خ ـ د ـ ذ ـ ر ـ ز ـ س ـ ش ـ ص ـ ض ـ ط ـ ظ ـ ع ـ غ ـ ف ـ ق ـ ك ـ ل ـ م ـ ن ـ هـ ـ و (في مثل وَلد) ـ ي (في مثل يَترك).

وتُصنَّف الأصوات الصامتة[1] على أساس معيارين معيار عضوي: يتمثل في موضع أو مخرج كل صوت، ومعيار صوتي: يتمثل في طبيعة كل صوت، أو الصفة التي يبدو عليها أثناء النطق. والتصنيف القائم على أساس الإعتبار العضوي، والشائع في معظم اللغات ومنها العربية، يمكن وصفه كما يلي[2] [3]

٢. ٢. ٢. ٢. ١ ـ معيار المخارج (مواضع النطق)

صنّف اللسانيون العرب الأصوات تصنيفاً عضوياً فسيولوجياً بحسب مدارجها أو مخارجها التي تصدر عنها من جهاز النطق إلى الأصوات التالية:

١ ـ **شفوي (Labial)**: يصدر بضم الشفتين، كصوتي: الباء والميم، وكذلك (الواو) في نحو (وعَدَ).

٢ ـ **شفوي أسناني (Labio)** يصدر باتصال الشفة السفلى بالأسنان العليا، كصوت: الفاء.

---

(١) هذا الأساس النظري في تقسيم الأصوات يخصّ الصوامت دون الصوائت (الألسنية العربية: ١/٤٢).

(٢) علم الأصوات: ١٣٤ ـ ١٤٥.

(٣) للإستزادة ينظر: (أصول التراثية في اللسانيات الحديثة: ١٢٤ ـ ١٢٥)، و(الألسنية العربية: ١/٤٣ ـ ٤٧)، و(مناهج البحث في اللغة: ٨٤ ـ ٨٥).

٣ ــ **أسناني (Dental):** يصدر باتصال طرف اللسان بأطراف الثنايا العليا، كأصوات: الثاء، والذال، والظاء.

٤ ـ **أسناني لثوي (Dentialveolar)**: يصدر بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا، كأصوات: التاء، والدال، والضاد، والطاء، واللام، والنون.

٥ ـ **لثوي (Alveolar):** يصدر باتصال طرف اللسان باللّثة، كأصوات: الراء، والزاي، والسين، والصاد، واللام، والنون. ويلاحظ تقارب مخرَجَي النطق (٤) و (٥) إلى درجة يصعب التفريق بينهما أحياناً.

٦ ـ **لثوي حنكي (Alveopalatal):** يصدر بالتقاء مقدم اللسان بالجزء الأمامي من الحنك، كالشين، والجيم.

٧ ــ **حنكي وسيط (Mediopalatal)**: يصدر بالتقاء سطح اللسان بوسط الحنك، كصوت: الياء.

٨ ـ **حنكي قصيّ (Postpalatal):** يصدر بالتقاء سطح اللسان بأقصى الحنك، كأصوات: الخاء، والغين، والكاف.

٩ ـ **لَهوي (Uvular)**: يصدر بالتقاء مؤخرة اللسان باللهاة، كصوت القاف.

١٠ ـ **حلقي (Pharyngeal):** يصدر بالتقاء مؤخرة اللسان بوسط الحلق، أو بتضييق الحلق، كصوتي: الحاء، والعين.

١١ ـ **حنجري (Glottal)**: يصدر بانغلاق ثم انفتاح الوترين الصوتيين فجأة، كصوتي: الهمزة والهاء[1].

---

(١) يُنظر: جدول رقم (٢ ـ ١) الخاص بصفات الأصوات.

<u>**جدول رقم (٢ ـ ١)**</u>

مخارج الأصوات	صفات الأصوات												
	شديد				رخو				مزدوج	متوسط			
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	مجهور			
	مُرقّق	□ مفخّم	مُرقّق	□ مفخّم	مُرقّق	□ مفخّم	مُرقّق	□ مفخّم		جانبي	تكراري	أنفي	شبه الحركة
شَفوي	ب		(ب)									م	و
شفوي أسناني				(ف)		(ف)							
أسناني				ذ	ظ	ث							
أسناني لَثوي	د	ض	ت	ط	ز	(ر)	س	ص					
لثوي										ل	ر	ن	
غاري					(ج)		ش		ج				ي
طبَقي	(ك)		ك		غ		خ						
لَهوي			ق										
حَلقي				ع		ح							
حَنجري			ء				هـ						

٢ . ٢ . ٢ . ٢ . ٢ ـ معيار الصفات

المعيار الثاني الذي تُصنّف على أساسه الأصوات هو معيار الصفة أو الصفات الصوتية التي يتميّز بها كل صوت عن غيره من الأصوات أثناء النطق به. ونظراً لِتَعاوُرِ الصفات المختلفة على الصوت الواحد فقد تَمَّ الإنطلاق في هذا التصنيف وفقاً لإعتبارات منها: الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والإطباق والإنفتاح، الاستعلاء والانخفاض، والتفخيم والترقيق، وهذه تُسمى بالصفات المتضادة أو المتقابلة، وهناك صفات أخرى مفردة، أو غير متقابلة، يمتاز بها صوت واحد أو أكثر منها: الانحراف، والتكرير، والتفشي، والاستطالة، والغنة وغيرها.

وهذه الأصوات منها القوي، ومنها الضعيف، فصفات القوة هي: الجهر، والشدّة، والاستعلاء، والإطباق، والإصمات، والصفير، والقلقلة، والانحراف، والتكرير، والتفشي، والاستطالة، والغنة، وبعض هذه الصفات أقوى من بعض. وصفات الضعف هي: الهمس، والرخاوة، والاستفال، والانفتاح، والذلاقة، واللين، والخفاء. ولابد لكلِّ صوتٍ أن يتّصف بخمس صفات متقابلة، أمّا غير المتقابلة فتارةً يتّصف الصوت بصفة بواحدة، أو بصفتين منها، وتارة لا يتّصف بشيء منها، فإذا ما كثرت صفات القوة في الصوت الواحد كان قوياً، وإذا كثرت فيه صفات الضعف كان ضعيفاً، أما إذا استوى فيه الأمران كان متوسطاً[1].

٢. ٢. ٢. ٢. ١ ـ الصفات المتقابلة

وهي مجموعة الصفات التي إذا ما اتصف الصوت بإحداها امتنع من الاتصاف بما يقابلها، أو ما يقف على النقيض منها. ولابدّ لكلِّ صوت من الاتصاف بواحد منها دون ضدّه.

٢. ٢. ٢. ٢. ١. ١ ـ الجهر والهمس

يقوم هذا التصنيف على أساس وضع الأوتار الصوتية من حيث ذبذبة هذه الأوتار أو عدم ذبذبتها في اثناء النطق. وتحكم هذه الأوتار ثلاثة أوضاع: تصدر عن الوضع الأول الأصوات المهموسة، وعن الثاني الأصوات المجهورة، وعن الثالث ما ليس بهذه ولا تلك:

١ ـ فإذا حصل انفراج للوترين الصوتيين بعضهما عن بعض عند مرور الهواء، بحيث يسمحان له بالخروج دون أيّ اعتراض، ومن دون أن يتذبذب الوتران

---

(١) أصوات اللغة العربية: ١٤٩.

الصوتيان، فسيصدر في هذه الحالة صوت مهموس (Voiceless). فتعريف الصوت المهموس إذن «هو الصوت الذي لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به»[١].

والأصوات المهموسة في اللغة العربية، كما ينطقها المختصون أو مجيدو القراءات، اثنا عشر حرفاً، هي: (ت ـ ث ـ ح ـ خ ـ س ـ ش ـ ص ـ ط ـ ف ـ ق ـ ك ـ هـ).

٢ ـ أما إذا اقترب الوتران الصوتيان بعضهما من بعض عند مرور الهواء، فيضيق الفراغ بينهما بحيث يسمح بمرور الهواء ولكن مع حدوث اهتزازات وذبذبات سريعة لهذين الوترين، فسيصدر في هذه الحالة صوت مجهور (Voiced). فتعريف الصوت المجهور إذن «هو الصوت الذي تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به»[٢].

والأصوات الصامتة المجهورة في العربية خمسة عشر حرفاً، هي: (ب ـ ج ـ د ـ ذ ـ ر ـ ز ـ ض ـ ظ ـ ع ـ غ ـ ل ـ م ـ ن ـ الواو في نحو (ولد، حوض) ـ الياء في نحو (يترك، بيت)[٣].

وبناءً على ما تقدّم فإنّ الفرق بين الأصوات المجهورة والأصوات المهموسة يكمن في اهتزاز أو تذبذب (Vibration) الوترين الصوتيين في الصنف الأول دون حدوث ذلك في الصنف الثاني[٤].

---

(١) علم الأصوات: ١٧٤.

(١) م.ن: ١٧٤.

(٣) كان علماء العربية قد أخرجوا ثلاثة أصوات هي: (الطاء) و (القاف) و (الهمزة) من مجموعة الأصوات المهموسة وأضافوها إلى الحروف المجهورة، وهو ما لا يوافق طريقة النطق الحالية لهذه الأصوات (علم الأصوات: ١٧٤). وقد عدّوا الحروف المجموعة في عبارة: (سكت فحثّه شخص) أصواتاً مهموسةً، وما عدا ذلك فهي أصوات مجهورة (سرُّ صناعة الإعراب: ٦٠/١)، و (الكتاب: ٤٨٩/٢).

(٤) يمكن تمييز الصوت المجهور من الصوت المهموس بعدة حالات منها وضع السبّابتين في الأذنين والنطق ←

٣ ـ وقد ينطبق الوتران انطباقاً تاماً، بحيث لا يُسمح بمرور الهواء أثناء ذلك، فينقطع النفس، ثم ينفرج الوتران، فيصدر صوت انفجاريّ نتيجة اندفاع الهواء المحبوس. وهذا الصوت الإنفجاري هو همزة القطع (Glottal Stop) التي عدّها بعض المعاصرين صوتاً صامتاً وسطاً، أو ليس بمهموس وليس بمجهور[1].

وعلى الرغم من أنّ نطق الصوامت المهموسة يتطلّب جهداً عضلياً، وقوّة في إخراج النفَس (الزفير) أقوى وأعظم من تلك التي يتطلّبها نطق الصوامت المجهورة إلاّ أنّ الصوامت المجهورة أشدّ بروزاً من الصوامت المهموسة. وتُعَدُّ أصوات اللاّم والصوامت الأنفية المجهورة أشدّ بروزاً من سائر الصوامت المجهورة[2].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ١. ٢ ـ الشدّة والرخاوة

يُقصد بمصطلح الشدّة أو الانفجار (Explosion) «الحبس أو الوقف التام لتيار الهواء الصادر من الرئتين في موضع من المواضع، وينتج عن هذا الحبس أو الوقف (Stop) نوع من الضغط (Pressure) خلف نقطة الحبس، يؤدي إلى انفراج أو إطلاق

← بصوت مجهور، وفي هذه الحالة سوف نحس برنين في تجاويف الرأس ينشره اهتزاز الوترين الصوتيين، وهو ما نحس به أثناء نطق الصوت المهموس في نفس الحالة. ومنها أيضاً وضع السبابة على تفاحة آدم ونطق الصوت المجهور مسبوقاً بألف وصل، ومن ثم سنشعر باهتزاز الوترين الصوتيين، وهو ما لا نشعر به أثناء نطق الصوت المهموس (أصوات اللغة العربية: ١٣٦)، و (علم الآصوات: ٥١). وقد ذكر ابن جني فرقاً بين الهمس والجهر يمكن من خلاله تمييز أحدهما من الآخر، وهو أنّ الصوت المهموس يمكن تكريره بحيث يجري معه النفس، مثل (سسسس) و (ههههه)، وليس الأمر كذلك مع الصوت المجهور (سِرُّ صناعة الإعراب: ١/ ٦٠).

(١) للإستزادة ينظر: (علم الأصوات: ١٧٤) و (مناهج البحث في اللغة: ٩٧) و (الأصوات اللغوية: ٨٠).

(٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٥١.

(Release) لتيار الهواء فجأة وبسرعة، محدثاً انفجاراً، وبذلك تتكوّن الأصوات الكلامية الشديدة أو الإنفجارية (Explosives)»[١].

وحروف الشدّة في العربية ثمانية، هي: (الهمزة — ق — ك ـ ج — ط — ت — د — ب) مجموعة في عبارة: (أجدت طبقك)[٢].

ومن الملاحظ أنّ خمسة من هذه الحروف تُسمَّى، أثناء الوقف عليها، عند علماء التجويد، بحروف القلقلة، وهي: (ق — ط — ب — ج — د) مجموعة في عبارة (قطب جد). وما يُميِّز حروف القلقلة أنها «تُحفَز في الوقف وتُضغَط من مواضعها... لأنك لا تستطيع الوقف عليها إلاّ بصوت ينبو معه اللسان عن موضعه، وذلك لشدّة الحفز والضغط، نحو: آلحقْ، واذهبْ، وآخلطْ، وآخرجْ، وآشددْ»[٣].

ويقابل الأصوات الشديدة أو الإنفجارية الأصوات الرّخوة أو الإحتكاكية (Fricatives)، وهي عبارة عن أصوات تتكوّن «عندما يضيق مجرى تيّار الهواء الصادر من الرئتين في موضع من المواضع بحيث يحدث الهواء في خروجه احتكاكاً مسموعاً، كما نرى في نطق (الفاء) من بين الشفتين، و(الثاء) في مخرجها من بين الأسنان»[٤].

والأصوات (الرخوة) كما سَمّاها الأقدمون، أو (الإحتكاكية) كما يُسمِّيها المعاصرون، ثلاثة عشر حرفاً (صوتاً) هي: (هـ ـ ع — ح — غ — خ — ش — ص — س — ز — ظ — ذ — ث — ف). وقد أضاف إليها الأوّلون (الضاد) وأخرجوا منها (العين). ولهم في العين وجهة نظر، يمكن تفسيرها على وجه معيّن[٥].

---

(١) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ١٣٢.

(٢) الكتاب: ٤٩٠/٢ وسرُّ صناعة الإعراب: ٦١/١.

(٣) الموضح في التجويد: ٩٣.

(٤) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ١٣٣.

(٥) علم الأصوات: ٢١٢.

وأكثر هذه الأصوات رخاوة هي: (السين والزاي والصاد) التي تُسَمّى بحروف الصفير، ومصطلح الصفير من مصطلحات سيبويه، سَمّاها بذلك لأنّها «أندَى في السَّمع»[١]، أو لأنّ مجرَى الهواء يضيق كثيراً عند مخرجها فتُحدث عند النطق بها صفيراً عالياً[٢].

وهناك أصوات تتوسط بين الشدة والرخاوة «يَمرّ معها الهواء دون أن يُحدث صفيراً أو حَفيفاً، إذ ليس في المجرى احتباس أو احتكاك»[٣]. وهي ثمانية أصوات: (ألف – ع – ي – ل – ن – ر – م – و) مجموعة في عبارة: (لَم يَروِ عَنّا)[٤].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ١. ٣ ـ الإطباق والإنفتاح

تتحقق صفة الإطباق (Valarization) في الأصوات المطبقة عندما تنطبق مؤخرة اللسان ووسطه بالحنك الأعلى انطباقاً تاماً أو شبه تام، بحيث ينحصر الصوت بينهما. وهو مصطلح أطلقه سيبويه، وقد عرّف الأصوات المطبقة بقوله: أنك «إذا وضعت لسانك في مواضعهنّ انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف»[٥].

وقد انطلق ابن جني من كلام سيبويه فعرّف الإطباق قائلاً: «والإطباق: أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له، ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد

(١) الكتاب: ٢/٥٠٧.

(٢) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ١٥٧.

(٣) مناهج البحث في اللغة: ٩٧.

(٤) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٦١.

(٥) الكتاب: ٢/٤٩٠.

سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس من موضعها شيء غيرها»[١].

وحروف الاطباق كما رأينا في عبارة ابن جني أربعة هي: (ص — ض — ط — ظ)، ومن خصائص هذه الأصوات أنّ الكلمة إذا تضمّنت أكثر من حرف منها، ولو لم يتجاوروا تُعَدّ من الكلمات العسِرة النطق التي لا نستريح لموسيقاها، وذلك لأنها «تتطلّب للنطق بها وضعاً خاصّاً للسان يحمل المتكلم بعض المشقّة إذا قيست بنظائرها من الحروف غير المطبقة»[٢]، وهي ما سوى هذه الحروف الأربعة، والتي تتصف بالانفتاح وعدم الانطباق[٣].

٢. ٢. ٢. ٢. ١. ٤ ـ الاستعلاء والانخفاض

وعند تتبع عبارة ابن جني نلمح صفةً أخرى تُمَيِّز هذه الأصوات الأربعة، وهي صفة (الاستعلاء) التي تقابل صفة (الانخفاض) واللّذان يُعَدّان تقسيماً آخر للأصوات العربية. والأصوات «المستعلية سبعة، وهي: الخاء والغين والقاف والضاد والطاء والصاد والظاء، وما عدا هذه الحروف فمنخفض. ومعنى الاستعلاء أن تتصعّد في الحنك الأعلى، فأربعة منها فيها مع استعلائها إطباق، وقد ذكرناها، وأمّا الخاء والغين والقاف فلا إطباق فيها مع استعلائها»[٤]. ولما كان الصوت يتصعّد بالحروف في الحنك الأعلى منعت الإمالة في هذه الأصوات[٥] .

---

(١) سِرُّ صناعة الإعراب: ٦١/١.

(٢) موسيقى الشعر: ٢٩.

(٣) سِرُّ صناعة الإعراب: ٦١/١.

(٤) م.ن: ٦٢/١.

(٥) الموضح في التجويد: ٩١.

فالأصوات المستعلية في العربية سبعة مجموعة في (قظ خص ضغط) أربعة منها أصوات مطبقة، والثلاثة الباقية (ق – خ – غ) ليس فيها إطباق.

أما صفة الانخفاض أو الاستفال فهي «انحطاط اللسان عند خروج الحرف من الحنك إلى قاع الفم»(١)، بمعنى «أن لا يتصعّد الصوت بالحروف»(٢). والأصوات المنخفضة أو المستفلة هي غير الأصوات المستعلية السبعة، فيكون عددها اثنان وعشرون صوتاً.

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ١. ٥ ـ التفخيم والترقيق

التفخيم (Velarisation) أثر سَمعيّ ينتج عن ارتفاع مؤخّر اللسان تجاه أقصى الحنك اللّين، بحيث يؤدي تغيّراً في الجويف الفموي محدثاً رنيناً مسموعاً. وللتفخيم صورتان:

صورة طبيعية: وهي أن يشكل التفخيم خاصية أساسية من خواص الصوت المفخّم ترجع إلى طبيعته، كما في الصاد والضاد والطاء والظاء، وهي الأصوات التي صُنِّفَت ضمن أصوات الإطباق والاستعلاء. وترقيق هذه الأصوات من شأنه أن يؤدي إلى حدوث لبس في المعنى.

صورة مكتسبة: وهي أن يكون التفخيم مَلمَحاً ثانوياً مكتسباً من السياق الذي يرد فيه الصوت داخل بنية الكلمة، كما في القاف والعين والخاء، التي صُنِّفَت ضمن

---

(١) مدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٩٠.

(٢) الموضح في التجويد: ٩١.

أصوات الاستعلاء. ويجب تفخيم هذه الأوات إذا أُتبِعَت بفتح أو ضمّ (قصيراً كان أم طويلاً)، مثل: قَتَلَ قاتَلَ، ولكنها تُرقّق إذا أُتبعت بكسر نحو: بَقِيَ و نخيل[١].

ويدخل (اللام) و (الراء) ضمن هذا النوع من أصوات التفخيم. أما اللاّم فهي مفخّمة من لفظ الجلالة (الله) بعد فتحة أو ضمة، أو بعد حروف الإطباق. أما الراء فتفخّم إذا كانت مضمومة أو مفتوحة مطلقاً، والساكنة في بعض الأحوال[٢] .

وترقيق هذه الأصوات في مواضع التفخيم لا يؤدي إلى لبس في المعنى، كما في أصوات الإطباق الأربعة، إلاّ إنه يُذهِب بخاصة من أهمّ خواص هذه الأصوات.

أما الأصوات المرَقّقة فهي الأصوات «الخالية من التفخيم، أو الممنوعة منه، وهي ما عدا أصوات الاستعلاء (ص — ض — ط — ظ) + (ق — غ — خ)، واللاّم والراء[٣] في حالات خاصّة»[٤].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢ ـ الصفات غير المتقابلة

وهي الصفات التي قد يتّصف الصوت بواحدة أو اثنتين منها، أو لا يتّصف بشيء منها على الإطلاق. وكثيراً ما يختصّ بعض هذه الصفات ببعض الأصوات دون غيرها.

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ١ ـ الصّوت المنحرف

الإنحراف (Lateral): صفة يتميّز بها صوت (اللام)، وسُمِّيَ بالمنحرف «لأنّ

---

(١) علم الأصوات: ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٢) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ١٤٩.

(٣) للإستزادة من أحكام تفخيم وترقيق (اللام والراء) يراجع: (علم الأصوات: ٤٠٤ ــ ٤١٣)، و(الجامع لأحكام القرآن: ١٠٦ ـ ١١١).

(٤) علم الأصوات: ٤٠٠.

اللسان ينحرف فيه مع الصوت، وتتجافى ناحيتا مستدقّ اللسان عن اعتراضهما على الصوت فيخرج الصوت من تينك الناحيتين ومِمّا فُوَيْقَهُما»[١]. ويُطلِق عليه المعاصرون مصطَلَحاً آخر هو الجانبي"[٢].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٢ ـ الصّوت المكرّر

التكرار (Rolled): صفة يتميّز بها صوت (الراء)، وقد عرّف سيبويه الصوت المكرّر بأنه: «حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره»[٣]. وسبب وصف الراء بالمكرّر هو «تتابع طرقات اللسان على اللثة تتابعاً سريعاً»[٤]. كما إنه إذا وُقِفَ عليه فإنّ «طرف اللسان يتعثر بِما فيه من التكرير، ولذلك احتُسِبَ في الإمالة بحرفين»[٥].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٣ ـ الصّوت المشرَب

معنى الإشراب اصطلاحاً: أن يختلط صوت بصوت آخر، فينجم صوت مزيج من صوتين[٦]. إلاّ أنّ القدامى كانوا يطلقون هذا المصطلح على الأصوات المتبوعة بنبرة أو نفخ، و هو ما ينطبق على (أصوات القلقلة)، وعلى أصوات (الزاي و الظاء و الذال و الضاد)، كما يُفهم من عبارة ابن جني: «و اعلم أنّ في الحروف حروفاً مشرَبة تحفز في الوقف وتضغط عن مواضعها، وهي حروف القلقلة و هي: (القاف والجيم والطاء والدال والباء)، لأنك لا تستطيع الوقوف عليها إلاّ بصوت، و ذلك لشدة

(١) سِرُّ صناعة الإعراب: ١٦٣/١.
(٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٧٠.
(٣) الكتاب: ٤٩٠/٢.
(٤) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٧١.
(٥) سِرُّ صناعة الإعراب: ٦٣/١.
(٦) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ٢٦٤.

الحفز والضغط، وذلك نحو: الحق، واذهب، واخلط، واخرج، وبعض العرب أشدّ تصويتاً. و من المشرَبة حروف يخرج معها عند الوقف عليها نحو النفخ، إلاّ أنها لم تضغط ضغط الأول، وهي: (الزاي و الظاء و الذال و الضاد)، وبعض العرب أشد تصويتاً»[١].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٤ ـ الصّوت المهتوت

الهتّ أو الهتّة: صفة يتميّز بها صوت (الهاء)[٢]، «وذلك لما فيها من الضعف والخفاء»[٣]، وهو رأي عبّر عنه سيبويه[٤]. ولما كان الصوت المهتوت موسوماً بالخفوت والخفاء فإنّه يتطلّب جهداً من الناطق في إيضاحه وتبيينه[٥].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٥ ـ الصّوت المتفشي

التفشّي: صفة يتميّز بها صوت (الشين)[٦]. وقد عَدَّ ابن جني (الضاد) من حروف التفشي أيضاً، معتبراً هذه الصفة فيه هي المانعة له من أن يُدغَم في صوت (الطاء)، لأنّ ذلك سيكون مدعاةً لذهاب ما فيه من التفشّي[٧]، ولأنّ مخرج الفاء يستطيل عائداً حتى يتصل بمخرج الثاء، فقد عدَّ علماء التجويد صوت (الفاء) من

---

(١) سِرُّ صناعة الإعراب: ٦٣/١.

(٢) عدّ بعض العلماء (الهمزة) و(التاء) من الأصوات المهتوتة (المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ١٧٥).

(٣) سِرُّ صناعة الإعراب: ٦٤/١.

(٤) لسان العرب: / مادة: هتت.

(٥) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ١٧٦.

(٦) الكتاب: ٤٩٨/٢.

(٧) سِرُّ صناعة الإعراب: ٢١٨/١.

حروف التفشّي الذي يعني عندهم: «انتشار الصوت بها عند النطق»[١].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٦ ـ الصّوت النافث

النّفث: صفة يتميّز بها صوت (الثاء) دون غيره عند القدامى[٢]. وذكر بعض العلماء أنّ الحروف النافثة هي: الثاء والفاء. ويَعنون بالنفث: انتشار الصوت عند النطق بهذين الحرفين[٣]، بما يُشبه النّفخ[٤].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٧ ـ الصّوت الأغنّ

الغنّة: صفة يتميّز بها صوتا النون والميم، أمّا معناها فقد جاء في اللسان «الغنة: صوت في الخيشوم، وقيل: صوت فيه ترخيم نحو الخياشيم تكون من نفس الأنف، وقيل: الغنة أن يجري الكلام في اللهاة، وهي أقل من الخَنّة. المبرد: الغنة أن يُشرب الحرف صوت الخيشوم، والخَنّة أشدّ منها، والترخيم حذف الكلام، غَنّ يغن وهو أغنّ، وقيل: الأغنّ الذي يخرج كلامه من خياشيمه، وظبي أغنّ: يخرج صوته من خيشومه»[٥]. وإنما قيل ظبيٌ أغنّ «لأنّ في ترنينه غُنّة: وهي ترخيم في صوته من نحو الخياشيم بعون من نَفَس الأنف، والنون أشدّ الحروف غنّة»[٦].

---

(١) القرطبي، ١٩٩٩م/٩٦.

(٢) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/١٧١.

(٣) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ١٧٣.

(٤) جاء في لسان العرب مادة (نفث) «النفث: أقلّ من التفل لأنّ التفل لا يكون إلاّ معه شيء من الريق، والنفث شبيه بالنفخ، وقيل: هو التفل بعينه. نفث الراقي... وفي الحديث أنّ النبي قال إنّ روح القدس نفث في روعي» (لسان العرب: مادة: نفث).

(٥) لسان العرب: مادة: غنن.

(٦) أساس البلاغة: ٣٣٠.

ويكاد معنى الغنّة الإصطلاحي يطابق معناها اللغوي، فهي عبارة عن رنين أنفي معيّن يُصاحب صوتي الميم والنون. ورغم اختلاف هذين الصوتين مخرجاً؛ حيث مخرج الميم الشفة، ومخرج النون اللثة، إلا أنهما يشتركان في كونهما من الأصوات الأنفية (Nasalization) فيلتقيان في طريقة إصدار الصوت، فعند النطق بأحد هذين الصوتين «يُحبَس الهواء حبساً تاماً في موضع من الفم، ويُخفض الحنك الأعلى (soft palate) فينفذ الهواء عن طريق الأنف»[١].

وبالنظر إلى الطبيعة الصوتية لهذه الظاهرة، وعدم انفكاكها عن هذين الصوتين في حالاتهما المختلفة التي يَرِدان عليها من السياق يمكن تعريف الغنّة بأنها: صفة لازمة للنون، ولو تنويناً، والميم سُكِّنَتا أو تَحَرَّكَتا، ظاهرَتَين أو مُدغَمَتَين أو مُخفاتَين[٢].

٢. ٢. ٢. ٢. ٢. ٨ ـ الصّوت المذلَق والمصمَت

الذلاقة: صفة لعدد من الأصوات المتقاربة في مخارجها، والتي يشيع استعمالها في الكلام العربي، وهي (الراء واللاّم والنون والفاء والباء والميم). سُميت بذلك «لأنه يُعتمد عليها بذلق اللسان، وهو صدره وطرفه»[٣].

وقد قسّم ابن دريد هذه الأصوات إلى جنسين: «جنس الشفة وهي: الفاء والميم والباء... والجنس الثاني من المذلقة بين أسَلَة اللسان إلى مقدم الغار الأعلى»[٤].

أمّا الإصمات: فهو صفة لغير الأصوات الذلقية[٥]، وقد سُميت بهذا الإسم لأنها

---

(١) علم الأصوات: ٣٤٨.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: ١/١٦٧.

(٣) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٦٤.

(٤) جمهرة اللغة: ١/٤٥.

(٥) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٦٤.

أُصمِتَت أن تَختَصّ بالبناء إذا كثرت حروفه لاعتياصها على اللسان[١].

وينطوي هذا المعيار في تقسيم الأصوات على سِرٍ لطيف يُنتفع به في اللغة، فمتى ما كان الاسم «رباعياً أو خماسياً غير ذي زوائد فلا بد فيه من حرف من هذه الستة [الذلقية]، أو حرفين، وربما كان فيه ثلاثة، وذلك نحو جعفر؛ ففيه (الفاء) و(الراء). وقعضب؛ فيه (الباء). وسلهب؛ فيه (اللام) و(الباء). وسفرجل؛ فيه (الفاء) و(الراء) و(اللام). وفرزدق؛ فيه (الفاء) و(الراء)... فهكذا عامة هذا الباب. فمتى وجدت كلمة رباعية أو خماسية مُعرّاة من بعض هذه الأحرف الستة فاقض بأنه دخيل في كلام العرب وليس منه، ولذلك سُميت الحروف غير هذه الستة مصمَتة أي: صمت عنها أن تُبنَى منها كلمة رباعية أو خماسية مُعَرّاة من حروف الذلاقة»[٢].

الصفات الصوتية التي تعرّضنا لها يمكن وصفها جميعاً بأنها صفات ذاتية متمكنة، يتميّز بها هذا الصوت أو ذاك، وتتشكل به صورته النطقية وفقاً لموضعه من جهاز النطق. وهناك صفات صوتية أخرى عارضة، أو تكاد تكون كذلك، يستجلبها موقع الصوت اللغوي في الكلمة أو الجملة، وأحياناً يستجلبها السياق الكلامي. كما أنّ هناك ظواهر صوتية عديدة يستدعيها كلُّ ذلك، أو بعض منه، تمنح الصوت اللغوي، بأبعاده المختلفة، لوناً خاصاً فيترتّب على ذلك تباين المعنى واختلاف الدلالة. وهذه الظواهر وتلك الصفات الثانوية يدرسها علم وظائف الأصوات أو الفونولوجيا.

---

(١) جمهرة اللغة: ١/٤٥.

(٢) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٦٤ ـ ٦٥.

المبحث الثالث

٢. ٣ ـ علم وظائف الأصوات (*Phonology*)

اختلف اللِّسانيون الجدد في ترجمتهم لمصطلح (Phonology) فإذا كنا قد اخترنا له مصطلح (علم وظائف الأصوات)[١]، فقد ترجمه الدكتور تمام حسّان إلى مصطلح (علم التشكيل الصوتي)[٢]، في حين اختار له الدكتور السعران مصطلح (علم الأصوات اللغوية الوظيفي)[٣].

وما يُميّز (الفونولوجيا) عن (الفوناتيك) (Phonetics) الذي انتهينا منه، هو انصراف هذا الأخير، كما رأينا، إلى دراسة الأحداث الصوتية المنطوقة بالفعل، ومحاولة استقصائها وتحليلها بوجه عام صالح للتطبيق على اللغات الأخرى في بعض جوانبه. أمّا الفونولوجيا فإنه يُخضع التحليل (الفوناتيكي) للتنظيم والتصنيف، بتجريد ضوابط وقواعد معينة لهذه المعطيات الصوتية في لغة معينة. فالأوّل عام والثاني خاص[٤]، من حيث مجال الدرس وأسلوب العمل. ويمكن تشبيه العلاقة بينهما على الوجه التالي: «علم الأصوات العام أو الفوناتيك يجمع المادة الخام، وعلم وظائف الأصوات أو الفونولوجيا يطبخها. فالأول يسعى إلى تجميع مادة الدراسة من أسواق

---

(١) علم الأصوات: ٤٧٣.

(٢) مناهج البحث في اللغة: ١١١.

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٩٤.

(٤) لذلك فإنّ مصطلحات علم التجويد داخلة في علم الفوناتيك، لأنّ قواعدها وضوابطها تخص اللغة العربية، وهي مقتصرة حالياً على القراءة القرآنية فقط.

الكلام (أفواه المتكلمين)، والثاني يسعى إلى تحقيق قيمها وأهميتها لهذه الطائفة أو تلك من أصحاب هذه الأفواه، بطبخها أو بإعدادها للإفادة منها وتناولها على وجه مقبول مِمّن تقدّم لهم، ومفصح عن موقعها في نظام لغتهم»[١]. لهذا فإنّ علم وظائف الأصوات أو الفونولوجيا يدرس الصوت من خلال سياقه اللغوي وذلك عبر دراسة النظم الصوتية للغة معينة، كما ينطقها أصحابها، لأنّ الصوت في سياقه يختلف عن الصوت المجرد، سواء من حيث كمية الجهد اللازمة لإنتاجه، أو من حيث تأثره بالأصوات السابقة عليه، واللاّحقة به[٢].

وتتسع دائرة هذا الجانب من الدراسة الصوتية لتشمل دراسة البناء المقطعي، أو ما يُسَمَّى بالمقاطع الصوتية، لإختلافها من لغة إلى أخرى. إضافة إلى دراسة بعض الظواهر الصوتية كالنبر والتنغيم، ودور كلٍّ منهما في تحديد المستوى الدلالي أثناء وروده في سياق الكلام. وهذه الظواهر مِمّا يدخل في مجال الفونيمات الثانوية، التي تشاطر الفونيمات الأساسية التي تضمّ كُلاًّ من الأصوات الصامتة والصائتة.

٢. ٣. ١ ـ الفونيم (*The Phoneme*)

يُطلَق مصطلح الفونيم أو ما يُسمّى بالوحدة الصوتية (Phonetic unit) على «كلِّ صوت قادر على إيجاد تغيير دلالي»[٣]، ويُعرّف كذلك بأنه «أصغر وحدة صوتية عن طريقها يمكن التفريق بين المعاني»[٤] (نفس المصدر والصفحة). وبذلك يدخل تحت

(١) علم الأصوات: ٤٧٣ ـ ٤٧٤.

(٢) في علم اللغة العام: ١٠٦.

(٣) دراسة الصوت اللغوي: ١٥١.

(٤) م.ن.ص.

هذا التعريف جميع أصوات العربية ؛ حروفاً كانت كالنون والباء والتاء إلخ ، وهي تسعة وعشرون ، أو حركاتٍ ؛ وتشمل الحركات القصيرة الثلاث (الفتحة والضمة والكسرة) ، والحركتان الطويلتان (الواو والياء) ، فيكون عددها أربعاً وثلاثين وحدة صوتية أو (فونيماً) هو مجموع ما تتضمنه العربية الفصحى من فونيمات[١].

فكلٌّ من صوتَي (النون) و (القاف) في العربية يُعتبر وحدة صوتية أو فونيماً مستقلاً ، لأنّ كلاًّ منهما يقوم بوظيفة دلالية مختلفة في النظام اللغوي العربي. فثمة (تقابل) أو (تعارض) بين هذين الصوتين ، لأننا نقول (نام) ثم نُحِلّ مَحَلَّ النون قافاً فنقول (قام) ، فيترتّب على ذلك التغيير الصوتي تغيير دلاليّ.

وكذلك الأمر مع الحركات ، فثَمة «تقابل في العربية بين (الفتحة) و (الضمّة) فكلمة (كَرْم) اسم في العربية ولكن (كَرُم) فعل ؛ فالفتحة في العربية (فونيم) والضمة (فونيم) ، كما أنّ الكسرة (فونيم) ، لأننا نقول (سَفْر) بمعنى جماعة المسافرين و (سِفْر) بمعنى الكتاب»[٢].

ولكن كلّ واحدة من هذه الوحدات الصوتية أو الفونيمات لا تَرِدُ في الكلام المنطوق وفق صورة صوتية واحدة ، بل تتعدّد أمثلة الفونيم الواحد بتعدد السياقات الصوتية التي يقع فيها. فالصُّوَر النطقية لصوت (اللام) في لفظ الجلالة (الله) ، وكذلك صوت (الراء) ، تتعدّد بحسب مواقعهما في بنية الكلمة ، فهما مرقّقان في مواقع ومفخّمان في مواقع أخرى[٣].

---

(١) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية : ٢٢٦.

(٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي : ١٩٧.

(٣) للإستزادة ينظر مواقع وحالات ترقيق الراء واللام ، وتفخيمهما في كتاب علم الأصوات (علم الأصوات : ٤٧٨).

ومن الصُّوَر البارزة لتعدُّد الصور النطقية للفونيم الواحد في العربية هو صوت (النون)، فهو صوت أسناني لثوي، ولكنه ينقلب إلى صوتٍ شفويٍّ في (انبهر) لمجاورته الباء الشفوية. ويتجلّى هذا التعدُّد بصورة أكثر وضوحاً عند ملاحظة صُوَر نطق النون الساكنة كما في العبارات التالية: (إنْ ثاب، إنْ شاء، إنْ قال، منْ يكن)، إلخ فإنّ «كلّ صورة من هذه النونات تختلف عن أختها في موضع النطق، ولكنها جميعاً، على الرغم من ذلك، ما تزال تكوِّن حُزمةً واحدةً تُمثل كُلاًّ أو وحدة صوتية واحدة اصطلح على تسميتها (صوت النون)»[1].

وهذا هو السبب الذي دعا (دانيال جونز) إلى اعتبار (الفونيم) عائلة صوتية تضمّ عدداً من الوحدات الصوتية عندما عرّفه بأنه: «أسرة من الأصوات، في لغة معينة، متشابهة الخصائص، مستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها أن يقع في كلمة، في نفس السياق الصوتي الذي يقع فيه الآخر»[2].

وظاهرة تعدد الصور النطقية للفونيم الواحد ليست مقصورة على الصوامت، بل إنّ الحركات أيضاً لها نصيب ملحوظ من تعدد الصور، سواء على مستوى الكلمة المفردة، أو على مستوى ورودها في السياق. فعلَى مستوى الكلمة المفردة فإننا نلاحظ أنّ (الفتحة الطويلة) مثلاً في أوائل الكلمات التالية: (طَاب) و (تَاب) و (قَال)، ليست واحدة، فهي مفخّمة في الأولى، ومرقّقة في الثانية، وبين بين في الثالثة.

أمّا على مستوى السياق فإنّ «السكون في (إنْ) يُنطَق بالكسر في نحو (إن ارْتَبْتُم)، للتخلص من التقاء الساكنين، وكذلك الحال في سكون الواو في مثل: (اخْشَوْا) حيث يُحرّك بالضّمة في (اخشوُا الله) ونحوه. وتخضع الحركات أيضاً للتغير والتعدد في الكمّ

---

(1) علم الأصوات: ٤٧٧.

(2) دراسة الصوت اللغوي: ١٤٩.

من حيث القصر والطول في الكلام المتصل. فالكسرة في الحرف (في) كسرة طويلة، ولكن يُصيبها القصر في نحو (في البيت)»[١] .

إنّ هذه الصور النطقية المختلفة للوحدة الصوتية الواحدة، أو للفونيم الواحد، سواء في الأصوات أو الحركات، على مستوى الكلمات المفردة أو على مستوى السياق الكلامي، لا يترتّب عليها عادةً تغيّر دلالي. ولهذا السبب فإنّ هذه الأصوات الجديدة لا تُعَدّ وحدات صوتية أو فونيمات، وإنما تُعتَبر تنوّعات صوتية، ويُطلق عليها مصطلح (ألفونات) وواحدها (ألفون)[٢].

نَخلص مِمّا سبق إلى أنّ الفونيم عبارة عن (عائلة صوتية) يمكن تحديد مكوّناتها وفقاً لأساسين اثنين هما:

١ـ الفونيم شيء ماديّ، يمكن أنْ يُحلَّل إلى عناصر أو مكونات أخرى، تُسمّى ألفونات.

٢ـ الفونيم عبارة عن مَلمَح أو كيفية نطقية، لا وجود لها بمفردها، وإنما هي بانضمامها إلى غيرها من الملامح تشكل الصوت اللغوي[٣].

وقد جرى العرف عند بعض اللسانيين على تصنيف الفونيم إلى صنفين؛ أطلقوا على الأول اسم الفونيم الرئيسي، وأطلقوا على الثاني اسم الفونيم الثانوي.

٢. ٣. ١. ١ ـ الفونيم الرئيسي (Primary Phoneme)

ويُطلق عليه أيضاً تسمية الفونيمات التركيبية أو القطعية (Segmental Phoneme).

---

(١) علم الأصوات: ٤٧٨.

(٢) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ٢٢٦.

(٣) دراسة الصوت اللغوي: ١٥١ ـ ١٥٢، وعلم الأصوات: ١٣٤.

ويُراد بها تلك الوحدة الصوتية التي تكون جزءاً من أبسط صيغة لغوية ذات معنى، منعزلة عن السياق. أو هو ذلك العنصر الذي يكون جزءاً أساسياً من بنية الكلمة المفردة، وذلك كالباء والتاء إلخ، وكذلك الحركات (الفتحة والكسرة والضمة)[١].

٢. ٣. ١. ٢ ـ الفونيم الثانوي (Secondary Phoneme)

ويُسمى أيضاً الفونيمات فوق التركيبية أو غير القطعية (Suprasegmenal Phoneme). ويُطلق هذا النوع من الفونيم على كلِّ ظاهرة أو صفة صوتية ذات مغزى أو قيمة في الكلام المتصل، وذلك حين تُضَمّ كلمة إلى أخرى، وتوظّف في جملة بذاتها. ومن أمثلة الفونيم الثانوي:

- درجة الصوت.
- النغمة.
- النبر.
- التنغيم (موسيقى الكلام).
- قِصَر الحركات وطولها، إلخ.

وهذا يعني أنّ الفونيمات الثانوية تكسو الكلام المنطوق باكمله، وتَمنحه سِمات مميّزة، تعبر عن حقيقته، وتكسبه جودة ودقّة، من دون أن تكوِّن أية عناصر من بنية هذا المنطوق أو مفرداته. ولذلك أطلق فيرث[٢] (Firth) وأعضاء مدرسته على الفونيمات الثانوية اسم الظواهر التطريزية (prosodic Features)، أو الفونولوجيا

---

(١) علم الأصوات: ٤٩٦ ـ ٤٩٧.

(٢) ينظر: مبحث: (١. ٤. ١. ٥ ـ النظرية السياقية).

التطريزية (prosodic phonology)، للتأكيد على قيمتها وأهميتها البالغة في الكلام المنطوق[١].

ويمكن اعتبار ظاهرَتَي (النبر) و (التنغيم) من أهم الظواهر التطريزية التي تميز الأداء الصوتي لأية لغة، ومنها العربية. ولكنّ فهمهما واستيعاب حقيقتهما، وخاصة النبر، مَنوط بالنظر إلى المقطع (Syllable)، أو التركيب المقطعي (Syllable Structure) الذي يختلف من لغة إلى أخرى. وتُعَدّ هذه الأشكال الثلاثة (المقطع – النبر – التنغيم) قوام الأداء الصوتي وأساسه.

٢. ٣. ٢ ـ المقاطع الصوتية

عندما يتكلّم الإنسان يقوم جهاز النطق بإنتاج إيقاعات صوتية متعددة ينضمّ بعضها إلى بعض فتتألّف منها الكلمات والجمل. فكلّ كلمة قائمة أساساً على عدد من هذه الإيقاعات أو التجمعات الصوتية التي تُسمّى بالمقاطع، وهذه المقاطع تتفاوت أشكالها وأنظمتها من لغة إلى لغة أخرى.

٢. ٣. ٢. ١ ـ تعريف المقطع

ويمكن تعريف المقطع الصوتي، انطلاقاً من العامل الفسيولوجي أو العضوي للنطق (Physiological)، بأنه اجتماع حرف صامت وحركة وفقاً لنظام اللغة في تأليف بنيتها، وذلك اعتماداً على الإيقاع التنفسي، فكلُّ ضغطة من الحجاب الحاجز على الهواء الصادر من الرئتين يمكن أن يُولِّد إيقاعاً يوازي مقطعاً مؤلفاً في أقل الأحوال من (صامت + صائت). فإذا حاولنا تحليل كلمة من الكلمات إلى مقاطعها الصوتية

---

(١) م.ن: ٤٩٦ ـ ٤٩٩.

كالفعل (كُتِبَ) فإننا سنجده، بناءً على هذا التعريف، يتكوّن من ثلاثة مقاطع: (كُ + تِ + بَ) تمثل الوحدات الأساسية لنظام الكلمة الصوتي والتي يمكن تمييزها بسهولة ويُسر[١].

٢.٣.٢.٢ ـ مكوّنات المقطع

فالمقطع يتكون من صوامت وصوائت، ولابدَّ لكلِّ مقطع من صائت واحد، طويلاً كان أم قصيراً، أمّا الصوت الصامت فقد يكون واحداً أو اكثر في المقطع الواحد، ولكنه لا يزيد على الثلاثة في العربية.

ومع وضوح معنى المقطع عملياً، إلاّ أنّ علماء اللغة لم يُحالفهم الحظ في «إعطاء وصف شامل دقيق له»[٢]. لذلك كثرت التعريفات الخاصة بالمقطع وتنوّعت بتنوع الرؤية والمنهج[٣]، ولكننا آثرنا اعتماد البنية الأساسية للمقطع، فاخترنا التعريف القائل بأنّه: عبارة عن «مجموعة صوتية تبدأ بصامت، يتبعه صائت، وتنتهي قبل أوّل صامت يَرِدُ متبوعاً بصائت، أو عند انتهاء الكلام»[٤].

إضافة إلى كون المقطع الصوتي يضمّ أصواتاً صامتة وصائتة، بنسب متفاوتة، فهو كذلك مكوّن من جزأين أساسيين أحدهما يُعرف بـ (القمّة)، والآخَر بـ (القاعدة) أو (الوادي). فقد لوحظ من خلال التجربة القائمة على تسجيل الذبذبات الصوتية

(١) المنهج الصوتي للبنية العربية: ٣٨.

(٢) م.ن: ٢٤١.

(٣) للإستزادة في موضوع اختلاف الدارسين بخصوص تعريف المقطع، ينظر: (علم الأصوات: ٥٠٤ ـ ٥٠٥)، و(في علم اللغة العام: ١٤١ ـ ١٤٣).

(٤) هذا الرأي للدكتور حسام سعيد النعيمي نقلاً عن كتاب (المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ٢٧٨).

للجمل أنّ أثر هذه الذبذبات يبدو في شكل خط متموّج يتكوّن من قِمَم ووديان[١].

وحقيقة ذلك تعود إلى درجة الوضوح السمعي للأصوات الداخلة في تركيب المقاطع الصوتية مفردة كانت أو مجتمعة. فأشدّ الأصوات وضوحاً، من بين اللّبنات التي يتشكل منها المقطع، تمثل (القمم)، وما سواها تمثل (القواعد) أو (الوديان).

ومن المسلّم به أنّ أصوات اللين أو العلة، أو الصوائت، تُعد أكثر وضوحاً في السمع من الصوامت، وهي في ذات الوقت غير متساوية في درجة الوضوح، وإنما تختلف فيما بينها نسبياً. فالصوائت الطويلة (ألف المد، واو المد، ياء المد) أوضح من الصوائت القصيرة (الفتحة، الضمة، الكسرة)[٢].

ويليها الأصوات الصامتة، مع تفاوت ملحوظ في درجة وضوحها، فاللام والنون والميم أوضح من غيرها من الصوامت، ويُطلَق عليها (أشباه أصوات اللين) لأنها تليها في درجة علوّها السمعي[٣]، ولإمكان أن تحلّ محلّها[٤]. وماسواها من الصوامت دونها وضوحاً.

والأصوات التي تقع (قمّة) في المقاطع الصوتية تُسمّى (أصواتاً مقطعية)، والأصوات التي تقع (وادياً) أو (قاعدة) تُسمّى (أصواتاً غير مقطعية). ولذلك فقد اعتُبرت أصوات اللين ومعها اللام، والنون، والميم أصواتاً مقطعية، وما عداها أصواتاً غير مقطعية[٥].

---

(١) الأصوات اللغوية: ١١٠.

(٢) موسيقى الشعر: ١٤٦.

(٣) الأصوات اللغوية: ١١٠.

(٤) أصوات اللغة العربية: ٢٠٠.

(٥) الأصوات اللغوية: ١١٠ ، وأصوات اللغة العربية: ٢٠١.

٢. ٣. ٢. ٣ ـ خصائص المقطع العربي

وقبل تحديد أنواع المقاطع وأقسامها نتوقف عند أهم الخصائص التي يتميز بها المقطع في اللغة العربية[١].

١- يتكوّن كلُّ مقطع من وحدتين صوتيتين (أو أكثر) إحداهما حركة.

٢- يبدأ المقطع بصوت صامت يليه صائت قصير أو طويل، ويمتنع البدء بصائت[٢].

٣- ينتهي المقطع بساكنٍ[٣] قد يُشدّد عند الوقف في بعض المقاطع

٤- يمتنع توالي صوتين صامتين في المقطع الواحد، إلاّ في نهاية المقطع عند الوقف أو إهمال الإعراب.

٥- غاية تشكيل المقطع أربع وحدات صوتية إذا اعتُبرت الحركة الطويلة وحدة صوتية واحدة.

٢. ٣. ٢. ٤ ـ أنواع المقاطع

من خلال تحديد الضوابط المميزة للمقطع في العربية يمكن تعيين ستة مقاطع صوتية يرد عليها الكلام العربي بِرُمّتِه، منها ما يشغل حَيِّزاً كبيراً من الكلام المنطوق، ومنها ما هو نادر. والمقاطع العربية الستة هي كالآتي:

١ـ (صوت صامت + حركة قصيرة)[٤]. و مثاله المقاطع الثلاثة في ﴿كُتِبَ﴾ من قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[البقرة: ١٨٣]، ومنه كلُّ فعل ثلاثيّ خالٍ من حروف المدّ. ويُرمز لهذا المقطع بالرمز **(ص ح)**؛ فـ(ص) يمثل الأصوات الثلاثة

---

(١) علم الأصوات: ٤٩٦ ـ ٤٩٧، وخواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٣.

(٢) معنى ذلك أنّ المقطع العربي يبدأ بحرف متحرك ولا يبدأ بحرف ساكن.

(٣) قد يكون الساكن صوتاً صامتاً كما في الميم من (قُمْ)، وقد يكون صائتاً كما في الألف من (مَا).

(٤) أي: صوت متحرك وليس بعد حركته صوت ساكن.

الصامتة (ك / ت /ب)، و(ح) يمثل حركات الضمّ والكسر والفتح على التوالي في كلّ منها.

٢ـ (صوت صامت + حركة قصيرة + صوت صامت)[1]. ومثاله المقاطع الثلاثة في ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ و﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. ومقاطعهما الثلاثة كالآتي: (فَلْ/ يُؤْ/ مِنْ) و(فَلْ/ يَكْ/ فُرْ). ويُرمَز لهذا المقطع بالرمز (ص ح ص)؛ فـ(ص) الأولى يمثل الفاء في المقطع الأول (فَلْ)، و(ح) يمثل حركة الفتح فيه، و(ص) الأخيرة يمثل اللام الساكنة فيه. وهكذا في بقية المقاطع.

٣ـ (صوت صامت + حركة طويلة)[2]. ومثاله المقاطع الثلاثة في ﴿لَا فِيهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]. ومقاطعها الثلاثة كالآتي (لَا / فِي / هَا). ويُرمز لهذا المقطع بالرمز (ص م)[3]؛ فـ(ص) يمثل اللاّم في المقطع الأول (لَا)، و(م) يمثل حركة المد الذي يليه. وهكذا في بقية المقاطع.

٤ـ (صوت صامت + حركة طويلة + صوت صامت)[4]. ومثاله المقطع الأوّل في كلّ من (ضَالِّين) و(صَاخَّة) و(طَامَّة)، من الكلمات القرآنية: ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، و﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ [النازعات: ٣٤]. ويُرمَز لهذا المقطع بالرمز (ص م ص)؛ فـ(ص) الأولى من الرمز تمثل (ض) ضَالِّين، و(ص)

---

(١) أي: صوت متحرك بعد حركته صوت ساكن.

(٢) أي: صوت متلوّ بالمد، وليس بعد المد سكون.

(٣) يرمز بعضهم لهذا المقطع بالرمز (ص ح ح) فالصاد للحرف الصامت، والحاء الأولى للحركة القصيرة على الصامت، والحاء الثانية لحرف المد (علم الأصوات: ٥١١).

(٤) أي: صوت متلوّ بالمد، وبعد المد سكون.

صَاخَّة، و(ط) طَامَّة. و(م) من الرمز يمثل المد أو الصائت الطويل في كلّ منها، و(ص) الأخيرة تمثل الساكن الذي يلي المد، والذي يُعتبر أوّل عنصريْ التشديد[١]، أما العنصر الثاني من التشديد في الكلمات الثلاث فيدخل في بداية مقطع جديد لكونه متحرك[٢].

٥ـ (صوت صامت + حركة قصيرة + صوت صامت + صوت صامت)[٣]. ومثاله المقطع الأخير (فَرّ) من ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾ و(قَرّ) من ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ حال الوقف على كلّ منهما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢]. ويُرمَز لهذا المقطع بالرمز (ص ح ص ص)؛ فـ (ص) الأولى من الرمز تمثل (ف) (فَرّ) و(ق) (قَرّ)، و(ح) يمثل الحركة القصيرة (الفتحة) في كلّ منهما، و(ص) الثانية تمثل الساكن الأول من التشديد في الراء من كلا الكلمتين، و(ص) الأخيرة تمثل الساكن الثاني من نفس التشديد في حال الوقف[٤].

٦ـ (صوت صامت + حركة طويلة + صوت صامت + صوت صامت)[٥]. ومثاله الكلمات التالية: (حَاجّ) و (تَامّ) و (خَاصّ) و (ضَالّ) في حال الوقف. فهذا المقطع كسابقه يُشترط وقوعه بالوقف أو عند إهمال الإعراب. ويُرمز لهذا المقطع بالرمز (ص م ص ص)؛ فـ (ص م) يمثلان الصامت الأول مع المدّ الذي يليه، و(ص ص) يمثلان

---

(١) يُقصد منه التشديد الموجود في (ل) (ضَالِّينَ)، و(خ) (صَاخَّةُ)، و(ط) (طَامَّةُ).

(٢) يراجع البند الثاني من خصائص المقطع (٢. ٣. ٢. ٣ ـ خصائص المقطع العربي).

(٣) أي: صوت متحرك وبعد الحركة صوتان ساكنان.

(٤) يتأتّى هذا النوع من المقاطع في الوقف على بعض الأوزان كـ (فَعْل) ومثاله (شَعْب)، و(افْعَلّ) ومثاله (اخْضَرّ)، وغيرهما (دراسة الصوت اللغوي: ٢٦١). فالساكنان في آخر هذا المقطع قد يكونان جزءاً من صوت مضعّف نحو: (حَرّ) أو غير مضعّف نحو: (حَرْفْ) عند الوقف على النموذجين.

(٥) أي: صوت متلوّ بالمد، وبعد المد صوتان ساكنان.

ساكِنَي التشديد الموقوف عليه في الأمثلة المذكورة[١].

والأنواع الثلاثة الأولى من المقاطع العربية أعلاه أكثر شيوعاً في الكلام العربي، وهي تشكل الغالبية العظمى منه، وعليها تُبنَى أوزان الشعر العربي، أمّا المقاطع الثلاثة الأخيرة فقليلة الشيوع، وهي عادةً ما تكون في أواخر الكلمات حين الوقف[٢].

٢. ٣. ٢. ٤. ١ ـ أنواع المقاطع باعتبار نهاياتها

يمكن تقسيم المقاطع العربية الستة المذكورة آنفاً، بالنظر إلى ما تنتهي به من الأصوات الليّنة أو الساكنة إلى قسمين: مفتوح و مغلَق أو مقفول.

٢. ٣. ٢. ٤. ١. ١ ـ المقطع المفتوح (Open)

وهو المقطع الذي ينتهي بحركة قصيرة أو طويلة، أي: صوت مَدٍّ ولين[٣]. ويتمثل في المقطعين الأول (ص ح) والثالث (ص م). وقد قصر بعضهم المقطعَ المفتوح على المقطع الثالث المنتهي بحركة طويلة أو مَدّ[٤].

٢. ٣. ٢. ٤. ١. ٢ ـ المقطع المغلق أو المقفول (Closd)

وهو المقطع الذي ينتهي بحرف ساكن، غير مدّي، أو حرفين، وإذا انتهى بحرفين سُمِّيَ مزدوج الإنغلاق[٥]. ويتمثل المنتهي بساكن واحد في المقطعين: الثاني (ص ح

(١) علم الأصوات: ٤٩٦ ـ ٤٩٧، وخواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٣.

(٢) الأصوات اللغوية: ١١٣ ـ ١١٤.

(٣) دراسة الصوت اللغوي: ٢٦١.

(٤) خواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٥.

(٥) أصوات اللغة العربية: ٢٠٢.

ص) والرابع (ص م ص). وقصر بعضهم المقطعَ المغلَق على المقطع الثاني فقط[١].

أما المقطع المنتهي بساكنين أو ما يُسَمَّى بمزدوج الإنغلاق فيتمثل في المقطعين الخامس (ص ح ص ص) والسادس (ص م ص ص)[٢]، ويُسمّي بعضهم المقطعَ السادس بمقطع الوقف[٣].

وتتفاوت اللغات في نسبة استعمالها للمقاطع المفتوحة والمغلقة. والعربية وإن كانت تستعمل النوعين معاً، إلاّ أنها تفضّل المغلق، ويمكن ملاحظة ذلك من عدّة ظواهر لغوية منها: تسكين لام الفعل الماضي عند اتصاله بضمير الرفع المتحرك مثل: (كَتَبْتُ) و (أكرمْتُ) و (استَرْشَدْتُ) إذ يقول النحاة في علّة ذلك: إنها كراهة توالي متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة، فالتسكين كما يبدو لكراهة العربية توالي أربعة مقاطع مفتوحة. وقد أباحوا توالي أربعة مقاطع مغلقة مثل: (اسْتَأْذَنْتُمْ) و (اسْتَفْهَمْتُمْ)[٤].

٢. ٣. ٢. ٤. ٢ ـ أنواع المقاطع باعتبار مدّة النطق بها

إضافة إلى التقسيم السابق فإنّ المقاطع العربية تُقسّم من حيث مدّة النطق بها إلى ثلاثة مقاطع[٥]: قصيرة، ومتوسطة، وطويلة[٦].

(١) خواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٥.

(٢) أصوات اللغة العربية: ٢٠٢.

(٣) خواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٥.

(٤) الأصوات اللغوية: ١١٣ وأصوات اللغة العربية: ٢٠٤.

(٥) اكتفى البعض بتقسيم المقاطع وفق هذا المعيار إلى قسمين: قصيرة: وهي التي تنتهي بحركة قصيرة، وتشمل المقطع الأول فقط، وطويلة: وهي التي تنتهي بحركة طويلة أو بحرف، وتشمل بقية المقاطع (موسيقى الشعر: ١٤٧).

(٦) موسيقى الشعر: ١٤٧.

٢. ٣. ٢. ٤. ٢. ١ ـ المقطع القصير

وهذا المقطع ذو نمط واحد، يتمثّل في المقطع الأول (ص ح) فقط. فهو إذن مقطع لا يزيد عن صوتين، وينتهي عادة بحركة قصيرة. فالمقطع القصير عبارة عن إحدى صورتي المقطع المفتوح[(١)].

٢. ٣. ٢. ٤. ٢. ٢ ـ المقطع المتوسط

وهذا المقطع ذو نمطين:

الأول: يتكون من ثلاثة أصوات. ويتمثل في المقطع الثاني (ص ح ص)، وهو مقطع مغلق أيضاً.

الثاني: يتكوّن من صوتين أحدهما لين طويل. ويتمثل في المقطع الثالث (ص م)، وهو مقطع مفتوح[(٢)]. ومنه المقطع الأول في كل اسم فاعل من الفعل الثلاثي[(٣)].

٢. ٣. ٢. ٤. ٢. ٣ ـ المقطع الطويل

وهو مقطع ذو ثلاثة أنماط:

الأول: ويشتمل على ثلاثة أصوات أحدها لين طويل. ويتمثل في المقطع الرابع (ص م ص)، ويُسمّى طويل المد[(٤)]، أو المقطع الطويل المغلق بحركة طويلة[(٥)].

الثاني: ويشتمل على أربعة أصوات بدون لين. ويتمثل في المقطع الخامس (ص ح

---

(١) أصوات اللغة العربية: ٢٠٣.

(٢) خواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٥.

(٣) علم الأصوات: ٥١١.

(٤) خواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٥.

(٥) علم الأصوات: ١٥٠.

ص ص)، ويُسمّى طويل التشديد[١]، أو المقطع الزائد الطول[٢].

الثالـث: ويشـتمل علـى أربعـة أصـوات أحـدها لـين طويـل. ويتمثـل في المقطـع السادس (ص م ص ص). ويُسمّى مقطع الوقف[٣].

ويمكن تلخيص ما تقدّم من أنواع المقاطع الصوتية وأقسامها وأنماطها كما يلي:

١ ـ **مقطع قصير مفتوح** (صامت + صائت قصير) **= (ص ح)** نحو: **(كَ).**

٢ ـ **مقطع متوسط مغلق** (صامت + صائت قصير + صامت) **= (ص ح ص)** نحو: **(قُمْ)**.

٣ ـ **مقطع متوسط مفتوح** (صامت + صائت طويـل) **= (ص م)** نحو: **(لا).**

٤ ـ **مقطع طويل مغلق بصامت** (صامت + صائت طويل+ صامت) **= (ص م ص)** نحو: **(كَانْ)**.

٥ ـ **مقطع طويل مغلق بصامتين** (صامت+ صائت قصير+ صامتان) **= (ص ح ص ص)** نحو: **(حَرّ)** و(**صَيْفْ**).

٦ ـ **مقطع زائد الطول مغلق بصامتين** (صامت + صائت طويل + صامتان) = **(ص م ص ص)** نحو: **(جافّ).**

وبما أنّ المقاطع الثلاثة الأولى هي الأكثر شيوعاً في العربية، كما أسلفنا، وأنّ المقاطع الثلاثة الأخيرة المغلقة، وخاصة المزدوجة الإغلاق، تكاد تكون معدومة في

(١) خواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٥.

(٢) علم الأصوات: ١٥٠.

(٣) خواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٥.

الكلام العربي لولا الوقف[١]، مع الأخذ بنظر الاعتبار عدم أصالة الوقف في الكلام غير التامّ، مقارنة بالوصل، لهذه الأسباب، وغيرها[٢]، فإننا سنكتفي عند تحليل النصوص القرآنية بإخضاعها لمعيار الطول والقصر فقط دون المتوسط.

٢. ٣. ٢. ٥ ـ عدد مقاطع الكلمات

عدد المقاطع التي تشتمل عليها الكلمات متفاوت، فأقلّها عدداً ما يشتمل على مقطع واحد فقط مثل بعض حروف الجر (لِ /مِنْ / في)، وأدوات الاستفهام (أ / كَمْ / ما)، وبعض الأفعال (قِ / دَعْ / قُمْ)، والأسماء (لَيْث / حَاجّ / دِين).

وقد لاحظ الباحثون أنّ الكلمة المشتقّة الخالية من الزوائد، فعلاً كانت أو اسماً، لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع، ويندر أن تأتي على خمسة[٣]، مثل وزن يَتَفَعّلُ (يَ / تَ / فَعْ / عَ / لُ)، ووزن يَتَفاعَلُ (يَ / تَ / فا / عَ / لُ).

---

(١) أصوات اللغة العربية: ٢٠٣.

(٢) بما أنّ الكلام العربي برمته يقوم على أساس المقاطع الثلاثة الأولى، وأنّ المقاطع الثلاثة الأخيرة مشروطة بالوقف عادة، فقد كان الأساس الإيقاعي للشعر العربي ولا يزال، وكذلك الشعر اليوناني (في البنية الايقاعية للشعر العربي/١٩٩) قائماً على وحدتين صوتيتين:

الأولى: مقطع قصير: ويُقصد به الصوت المتبوع بحركة قصيرة، أي: (حرف متحرك)، مثل **(ك)** بالفتح أو الضم أو الكسر، ورمزه الشعري (Ū)، وهذا المقطع الشعري يقابله المقطع الأول (ص ح).

الثانية: مقطع طويل: ويُقصد به الصوت المتبوع بحركة قصيرة، ويليه صوت صامت غير متبوع بحركة، مثل **(مَنْ)**، وكذلك الصوت المتبوع بحركة طويلة، مثل **(مَا)**، أي: (حرف متحرك يليه ساكن صامتاً كان هذا الساكن أم صائتاً)، ورمزهما الشعري (ــ)، وهذا المقطع الشعري يقابله المقطعان الثاني (ص ح ص) والثالث (ص م). وهكذا قسّم الفارابي المقاطع الصوتية في كتابه (الموسيقى الكبير). (علم الأصوات: ٥٠٧ ـ ٥٠٨).

(٣) الأصوات اللغوية: ١١٥.

وأقصى ما يمكن أن تصل إليه الكلمة العربية في تأليفها المقطعي، بعد أن تتصل بها السوابق واللواحق، هو سبعة مقاطع[١]. ومن أمثلة ما ورد من ذلك في الذكر الحكيم:

قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]،

وقوله تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]

ومقاطع كلٍّ منهما كما يلي:

[فَسَيَكْفِيكَهُمُ = فَ / سَ / يَكْ / فِي / كَ / هُـ / مُ].

[أَنُلْزِمُكُمُوهَا = أَ / نُلْ / زِ / مُ / كُ / مُو / ها].

وكما هو واضح فإنّ كلا منهما، يشتمل على مقاطع مفتوحة ومغلقة، ومقاطع قصيرة وطويلة. ولكن يبقى هذا الصنف من الكلمات نادر في العربية[٢].

إنّ الوقوف على طبيعة المقاطع العربية وأنواعها وأنماطها يُعتبر أمراً أساسياً للباحثين في الدراسات الصوتية، لأنّ التحليل الموضوعي الدقيق لكثير من الظواهر الصوتية والإيقاعية، وبخاصة النبر، مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً، وليس لها أن تقوم إلاّ به.

---

(١) دراسة الصوت اللغوي: ٢٦٠.

(٢) أصوات اللغة العربية: ٢٠٩.

المبحث الرابع

٢. ٤ ـ النّبر (Stress)

النبر لغةً: البروز والظهور. وقد جاء في لسان العرب «النبر بالكلام: الهمز، قال: وكلّ شيءٍ رفَع شيئاً فقد نَبَرَه، والنبر: مصدر نَبَرَ الحرف ينبره نبراً هَمَزَه... ابن الأنباري: النبر عند العرب ارتفاع الصوت، يقال نبر الرجل نبرة إذا تكلم بكلمة فيها علوّ... ونبرة المغني: رفعُ صوتِه عن خفضٍ.. والمنبر: مرقاة الخاطب، سُمّي منبراً لارتفاعه وعلوّه»[1].

وهذا المعنى اللُّغوي ملحوظ في دلالته الاصطلاحية؛ فالنبر اصطلاحاً: «هو نشاط ذاتي للمتكلم ينجم عنه نوع من البروز لأحد الأصوات أو المقاطع قياساً لما يُحيط به»[2]. ولهذا فإنّ «الصوت أو المقطع الذي يُنطق بصورة أقوى مَمّا يجاوره يُسمّى صوتاً أو مقطعاً منبوراً (stressed).

ويتطلّب النبر عادةً بذل طاقة في النطق أكبر نسبياً، كما يتطلّب من أعضاء النطق مجهوداً أشدّ»[3]. ونتيجة لذلك فإننا نلاحظ أنّ أداء المتكلم لا يجري وفق وتيرة صوتية، أو طبقة صوتية واحدة، بل إنّ صوته يرتفع عند بعض الفونيمات أو المقاطع مما ينتج عنه وضوح سمعي أكثر مما يكون لما يحيط بها من فونيمات أو مقاطع، وهذا الوضوح

(١) لسان العرب: مادة: نبر.

(٢) دراسة الصوت اللغوي: ١٨٨.

(٣) علم الأصوات: ٥١٣.

السمعي هو ما يُسمّى بالنبر[١]. وقد ارتأى البعض تسميته بالارتكاز[٢].

وكما أنّ الكلام لا يُؤدّى بوتيرة صوتية واحدة، فكذلك يكون النبر، فهو يرد بدرجات صوتية متفاوتة.

٢. ٤. ١ ـ درجات النبر

قد يكون النبر أولياً (Primary stress)، وقد يكون ثانوياً (Secondary stress). والفرق بين النبرين:

أ ـ أنّ النبر الأولي أصلي، والثانوي فرعي.

ب ـ أنّ الأصلي يُحسب من آخر الكلمة أو الصيغة، وأنّ الثانوي يُحسب من نقطة وقوع النبر الأولي.

ج ـ أنّ النبر الثانوي يقع في نقطة يصلح مقدار ما بينها وبين نقطة وقوع النبر الأولي أن يكون بمقدار كلمة عربية.

د ـ أنّ النبر الثانوي أضعف من النبر الأولي[٣].

وبناءً على ما ذُكر فإنّ كلمة مثل: (يستعينونْ) في حال الوقف، مكونة من أربعة مقاطع (يَسْـ / تَـ / عِيْـ / نُوْنْ)، والنبر الأولي فيها يقع على المقطع الأخير

(١) خواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٦.

(٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٨٩.

(٣) قسّم بعضهم النبر على أساس القوة والضعف إلى ثلاثة درجات: ١ ـ النبر القويّ ٢ ـ النبر الضعيف ٣ ـ النبر الثانوي أو المتوسط. وقد وُضعت رموز لهذه الدرجات من النبر تختلف أحياناً من باحث إلى آخَر. وقد أعرضنا عن تناولها لعدم اعتمادها في البحث. يُنظر: (علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٩٠) و(التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: ٤٣).

(نُونْ)، طبقاً لما سيأتي من قواعد النبر، أما النبر الثانوي فيقع على المقطع الأول (يَسْـ) لأنّ كمية ما قبل النبر الأولي هي بمقدار كلمة عربية تامة، والذي قبل النبر الأولي هو (يَسْتَعي)، وكميته تُشبه كمية كلمة تامة مثل (يرتقي) أو (مرتجي) أو (جاهدوا)، وغيرها من الكلمات التي لها هذه الكمية. ولما كانت هذه الكمية في (يَسْتَعي) جزءاً من كلمة، وليست كلمة مستقلة صالحة للإفراد فقد وقع النبر عليها ثانوياً لا أولياً، خلاف الكلمات الأخيرة الثلاث ذات الكمية المشابهة التي يقع عليها النبر أولياً بسبب استقلاليتها وصلاحيتها للإفراد[1].

٢ . ٤ . ٢ ـ مواضع النّبر في العربية

لا تكاد تخلو لغة من لغات العالم من ظاهرة النبر، فكل متحدث يضغط على بعض المقاطع في كلامه، والنبر يكون تارةً على مستوى الكلمة الواحدة، و يكون تارةً أخرى على مستوى الجملة، ولكل ضوابطه وأحكامه.

٢ . ٤ . ٢ . ١ ـ النّبر على مستوى الكلمة

للنبر على مستوى الكلمة (Word Stress) قيم صوتية (نطقية)، وأخرى فونولوجية (وظيفية). فهو «من الناحية النطقية ذو أثر سمعي واضح، يُميز مقطعاً من آخَر، أو كلمة من أخرى. أما من الناحية الوظيفية فإنّ النبر يقود إلى تعرُّف التتابع المقطعي في الكلمات ذات الأصل الواحد، عند تنوُّع درجات نبرها ومواقعه، بسبب ما يلحقها من تصريفات مختلفة. فالنبر في كَتَبَ ("ka/ta/ba") على المقطع الأول، ولكنه

(١) خواطر من تأمل لغة القرآن: ١٢٩ ـ ١٣٠.

يقع على الثاني في كَتَبْتُ (ka/"tab/tu)، وعلى الثالث في كَتَبْتُهُ (ka/tab/"tu/hu)»[١].

وقد يلزم النبر مقطعاً معيناً فيتسم بالثبات في الكلمة الواحدة، وقد تكون له حرية الانتقال فيها من مقطع إلى آخر. وعلى هذا الأساس صنّف الباحثون عموم اللغات إلى صنفين رئيسيين:

الصنف الأول: اللغات ذوات النبر الثابت (Fixed Stress).

الصنف الثاني: اللغات ذوات النبر الحر (Free Stress).

و اللغة العربية تنتمي إلى الصنف الأول «حيث إنّ النبر في كلماتها ثابت يخضع لقوانين منضبطة محدّدة، بحسب بنية الكلمة ومكوناتها، ولا ينتقل من مكان إلى آخر إلا بالطريق الخطأ أو التجاوز في النطق تأثّراً بلكنة خاصة أو محلية. فالفعل الماضي الثلاثي المجرد مثلاً منبور مقطعه الأول دائماً، وكذلك الحال في اسم الفاعل منه في حالة الوقوف عليه بالتسكين (kaa/tib)»[٢].

فالنبر في الكلمة العربية يخضع لقوانين مرسومة مطردة، يلزم على أساسها مقطعاً أو مقاطع معينة بحسب بنية الكلمة، ومكوّناتها المقطعية، وكيفية تتابعها. و قد تم استنباط مواضع النبر فيها من هدي القراءة القرآنية التي تمثل، إلى حد كبير، النطق العربي الفصيح الذي تناقله القرّاء جيلاً بعد جيل[٣].

وممن وضع مقاييس النبر في العربية اعتماداً على نُطق قرّاء القرآن الكريم المعاصرين الدكتور إبراهيم أنيس فقد حدّد لمعرفة موضع النبر من الكلمة العربية، النظر ابتداءً إلى المقطع الأخير، فإذا كان من النوع الرابع أو الخامس، فهو إذن المقطع

(١) علم الأصوات: ٥١٤.

(٢) م.ن: ٥١٦.

(٣) دراسة الصوت اللغوي: ٣٠٨.

الهام الذي يحمل النبر، ولا يكون هذا إلا في حالة الوقف، كما أُشير آنفاً، فالنبر في الكلمة العربية لا يكون على المقطع الأخير إلا في حالة الوقف، وذلك حين يكون المقطع الأخير من المقطعين الرابع (ص م ص)، أو الخامس (ص ح ص ص)، ويُضاف إليهما المقطع السادس[1].

أما إذا كانت الكلمة غير منتهية بأحد هذه المقاطع الثلاثة فإنّ النبر يكون على المقطع الذي قبل الأخير، بشرط ألا يكون هذا المقطع من النوع الأول (ص ح)، ومسبوقاً بمثله من النوع الأول أيضاً.

وموضع النبر في أغلب الكلمات العربية هو المقطع الذي قبل الأخير مثل: (نا) في يُنادي، و (التاء) في كلٍّ من قاتَلَ ويَكْتُبُ. وعلى الرغم من أنّ المقطع الذي قبل الأخير في المثالين الأخيرين من النوع الأول (ص ح)، إلاّ إنه لم يُسبق بمقطع نظير من النوع الأول أيضاً.

ولهذا السبب يقع النبر في الفعل الماضي الثلاثي على المقطع الثالث حين نَعدّ من آخر الكلمة، أي على المقطع الأول منها، وذلك لأنّ المقطع الأخير منه ليس من المقاطع الثلاثة الأخيرة، كما إنّ المقطع الذي قبل الأخير فيه من النوع الأول ومسبوق بنظيره. مثل: (كَتَبَ / فَرِحَ / صَعُبَ) فالنبر يكون على (كَ) و(فَ) و (صَ) منها. وكذلك في الأفعال أمثال (اجتَمَعَ/ انْكَسَرَ)، والمصادر أمثال: (لَعِبٌ / فَرَحٌ)، والأسماء أمثال (عِنَبٌ / بَلَحٌ) فإنّ النبر يكون على المقطع الثالث حين نعُدّ من آخر الكلمة[2].

---

(١) المقطع السادس هو المقطع زائد الطول المغلق بصامتين (صامت + صائت طويل + صامتان) = (ص م ص ص) الذي أضافه بعض الدارسين، وثَبّتناه في الدراسة.

(٢) الأصوات اللغوية: ١٧٢.

ويمكن تلخيص ما تقدّم من مواضع النبر في الكلمة العربية وتحديدها كما يلي:

٢. ٤. ٢. ١. ١ ـ النبر على المقطع الأول

ويكون في الحالات التالية:

أ ـ إذا توالت في الكلمة ثلاثة مقاطع متماثلة من النوع القصير المفتوح (ص ح) كما في (سَأَلَ) فالمقطع الأول والمنبور هو (سَ).

ب ـ إذا اشتملت الكلمة على أكثر من ثلاثة مقاطع، وكانت الثلاثة الأولى من النوع القصير المفتوح أيضاً مثل (عَقَبَة) فيكون النبر على (عَ).

ج ـ إذا كانت الكلمة كلّها مقطعاً واحداً (أحادية المقطع) فإنّ النبر يقع على كلٍّ منها كاملةً، مثل: (قُلْ / نار / بَأْسْ). فـ (قُـلْ): مقطع متوسط مغلق (ص ح ص). و(نَـارْ): مقطع طويل مغلق بصامت (ص م ص). و(بَـأْسْ): مقطع طويل مغلق بصامتين (ص ح ص ص).

٢. ٤. ٢. ١. ٢ ـ النبر على المقطع الأخير

ويكون عند الوقف في الحالات التالية:

أ ـ إذا كان المقطع الأخير من النوع الرابع أي: مقطع طويل مغلق بصامت (ص م ص) نحو: (نَسْتَعِينْ)، فالمنبور هو (عِينْ).

ب ـ إذا كان المقطع الأخير من النوع الخامس أي: مقطع طويل مغلق بصامتين (ص ح ص ص) نحو: (المسْتَقَرّ)، فالمنبور هو (قَرّ).

ج ـ إذا كان المقطع الأخير من النوع السادس أي: مقطع زائد الطول مغلق بصامتين (ص م ص ص) نحو: (يُضارّ)، فالمنبور هو (ضارّ).

٢. ٤. ٢. ١. ٣ ـ النبر على المقطع الذي قبل الأخير

وذلك عندما لا يكون المقطع الأخير في الكلمة من المقاطع الثلاثة الأخيرة، ولم تتوالَ فيها ثلاثة مقاطع من النوع (القصير المفتوح)، وهو كثير في الكلمات العربية. ومن أمثلته الكلمات في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فكل كلمة في هذه الجملة القرآنية وقع النبر فيها على المقطع الذي قبل الأخير، وهو على التوالي: (أُدْ) — (إِ) — (بِيـْ) — (بِـ).

٢. ٤. ٢. ١. ٤ ـ النبر على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير

ويكون في حالات منها:

أ ـ إذا كان المقطع الذي قبل الأخير من النوع الأول (القصير المفتوح)، وسُبق بنظير له من النوع نفسه، مثل: (ادّكَرَ) و (انقَلَبَ) و (انْفَجَرَ)، فالنبر فيها يقع على (دَ) و (قَ) و (فَ) وهي المقاطع السابقة لما قبل الأخير.

ب ـ إذا كان المقطع الأخير من النوع الثاني أي: مقطع متوسط مغلق (ص ح ص)، والذي قبله من النوع الأول (القصير المفتوح)، مثل: (فُجِّرَتْ) و (بُعْثِرَتْ) و (رَكَّبَكْ) حال الوقف عليها، فالنبر فيها يقع على (فُجْـ) و (بُعْـ) و (رَكْـ) وهي السابقة للمقطع الذي قبل الأخير.

ج ـ إذا كان المقطع الأخير من النوع المتوسط المفتوح[1] (ص م)، والذي قبله من القصير المفتوح (ص ح)، مثل: (اعْلَموا) و (اتّقوا) و (اسْألوا)، فالنبر فيها على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير، وهو هنا المقطع الأول في كلٍّ منها، وهي: (اعْـ)

(١) ويُطلق عليه (الطويل المفتوح).

و(اتْ) و (اسْـ) على التوالي[١].

٢. ٤. ٢. ١. ٥ ـ انتقال موقع النبر في الكلمة

ويبقى أن نشير إلى أنّ النبر يبقى ثابتاً في الكلمة مادامت الكلمة على حالها، فإذا تغيّر بناؤها أو تركيبها تغيّر موضع النبر فيها، لينتقل إلى مقطع آخَر تبعاً لذلك التغيير، ووفقاً للضوابط التي يقوم عليها النبر. فالأسباب الموجبة لانتقال النبر من مقطع إلى آخَر في الكلمة العربية، قد تكون موقعية أو تركيبية، ومن أهمها:

٢. ٤. ٢. ١. ٥. ١ ـ الاشتقاق

ومثاله انتقال موقع النبر في الفعل الماضي الثلاثي المجرد من المقطع الأول إلى غيره عند صياغة المضارع من المادّة نفسها. كالفعل الماضي (نَـفَرَ) للقتال، حيث يقع النبر على المقطع الأول (نَـ) لتوالي ثلاثة مقاطع متماثلة، وعند صياغة المضارع (يَنْفِـرُ) أو الأمر (انْفِـرْ) منه يتغيّر موضع النبر، ففي المضارع ينتقل النبر إلى المقطع الذي قبل الأخير وهو (فِـ)، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٨]، وفي الأمر يتغيّر نوع المقطع الأول من القصير المفتوح (ص ح) إلى المتوسط المقفل (ص ح ص) فيكون النبر عليه وهو (انْ).

٢. ٤. ٢. ١. ٥. ٢ ـ إسناد الفعل إلى الضمائر

قد ينتقل النبر من مقطع إلى آخَر عند إسناد الفعل الماضي إلى أحد ضمائر الرفع المتحركة، كما في الفعل الماضي (نَفَرَ) مثلاً، حيث ينتقل النبر من المقطع الأول إلى المقطع الذي قبل الأخير عند إسناده إلى ضمير المتكلم أو المتكلمين، والمخاطب أو

---

(١) دراسة الصوت اللغوي: ٣٠٩، وأصوات اللغة العربية: ٢٢١.

المخاطبين فيصير (نَفَرْتُ، نَفَرْنا)، (نَفَرْتَ، نَفَرتُم)، فحينئذٍ يتحوّل النبر إلى المقطع (فَرْ) وهو المقطع الذي قبل الأخير.

ومما يلاحظ بهذا الصدد «أنّ إسناد الفعل الماضي إلى ضمائر الرفع الساكنة، كألف الاثنين وواو الجماعة، لا يُغيّر من موضع النبر، فإذا قلنا: (المقاتلان نَفَرا) أو (المقاتلون نفروا للجهاد) بقي النبر في الفعلين (نَفَرا) و (نَفَروا) على المقطع الأول لتوالي ثلاثة مقاطع متوالية»[1] .

٢. ٤. ٢. ١. ٥. ٣ ـ جزم المضارع

يتغير موضع النبر في الفعل المضارع بحسب حالته الإعرابية وخاصة في حالتي الرفع والجزم. فالنبر في الفعل (يَعْلَمُ) (يَعْ/ لَـ/مُ) يكون على المقطع الذي قبل الأخير وهو (اللام)، فإذا جُزِمَ وصار (لَمْ يَعْلَمْ) (يَعْ/ لَمْ) تغيّر نوع المقاطع التي يشتمل عليها، وعددها، فيصير المضارع المجزوم مكوّناً من مقطعين متماثلين من المتوسط المغلق (ص ح ص) بدلاً من ثلاثة مقاطع؛ إثنان منها من القصير المفتوح (ص ح) يسبقهما مقطع متوسط مغلق في المضارع المرفوع، وبهذا ينتقل النبر في المضارع المجزوم إلى المقطع الأول (يَعْـ). و قد جمعا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠].

٢. ٤. ٢. ٢ ـ النّبر على مستوى الجملة

إذا كان النبر على مستوى الكلمة يقع على أحد مقاطعها، من خلال الوضوح الصوتي لهذا المقطع في الأداء قياساً إلى ما يجاوره من المقاطع، فإنّ النبر على مستوى الجملة (Sentence Stress) يقع على كلمة معينة من الجملة، من خلال وضوحها

(١) أصوات اللغة العربية: ٢٢٣.

الصوتي في الأداء قياساً إلى ما يجاورها من الكلمات.

والسبب الذي يدعو المتكلم إلى تخصيص كلمة ما بالنبر دون غيرها يعود إلى أنّ «كلّ جملة أو عبارة تحتوي عادة على مجموعة من الكلمات ذات الأهمية النسبية. وتختلف الأهمية النسبية باختلاف الجمل نفسها وباختلاف المقامات المناسبة لها. فتنوّع هذه المقامات أو المواقف اللغوية يؤثر حتماً في درجة الأهمية بالكلمات. ومن مؤشرات هذا الاهتمام توظيف النبر توظيفاً مناسباً من حيث قوته وكيفية توزيعه في الجملة»[(١)].

ويتمثل نبر الجملة في الاهتمام بنطق لفظ معيّن فيها، وإبراز دوره في الجملة بمنحه مزيداً من قوّة الصوت في الأداء، ليؤدي دوراً وظيفياً في التركيب يؤثر في دلالته، ومن ذلك التفريق بين معنى وآخَر يُغايره، أو يُناقضه.

ومن أمثلة المغايرة قول الرجل لصاحبه: (صلّيتُ الفجرَ في المسجد الحرام أمس) فإذا كان السامع شاكّاً في أدائه الصلاة ذاتها عمد القائل إلى النبر على الفعل (صلّيتُ)، وإذا كان شاكّاً في وقتها نبر (الفجرَ)، وهكذا إذا كان الشك في المكان وقع النبر على (المسجد الحرام)، وإذا كان في الزمان انتقل النبر إلى (أمس)[(٢)].

ومن أمثلة المناقضة جملة: (هذا ما قلتُهُ) فإذا وقع النبر على (ما) أعطت معنى النفي، فتكون الجملة منفية، أما إذا وقع النبر على (قُلته) فإنه سيدل على أنّ (ما) اسم موصول بمعنى الذي، فيصير معنى التركيب: (هذا الذي قُلتُه)، فتكون الجملة مثبتة. وبهذا يكون السياق الأدائي قد شارك، عن طريق النبر، في تحقيق الدلالتين[(٣)].

وكثيراً ما يقع النبر في العربية على أدوات الاستفهام والنداء وأدوات النفي والنهي

(١) علم الأصوات: ٥١٩.

(٢) أصوات اللغة العربية: ٢٢٣.

(٣) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: ٤٧.

لأظهار وظيفتها في التركيب، كما يقع على أدوات الشرط في الجمل الشرطية للغرض ذاته، كما في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِكْكُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾[النساء: ٧٨] حيث يقع النبر على أداة الشرط (أينما) إظهاراً لوظيفتها الدلالية.

وبقدر أهمية النبر في تحديد دلالة الجملة وبيانها على أكمل وجه، فإنّ المبالغة في نبر المقطع من الكلمة، أو الكلمة من الجملة، أو إهماله كليةً قد يؤدي إلى الإخلال بمعناها أو تغيير دلالتها.

فإذا قرأ أحدهم قوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ [القصص: ٢٤]بنبر الفاء في ﴿ فَسَقَىٰ ﴾ فحينئذٍ يكون هذا الفعل مشتقّاً من (الفِسق) لا من السّقي، لأنّ الحرف الأول من الفعل هو (السين) وهو أول مقطع في كلمة (سَقَى) وعليه يقع النبر لانتهاء الكلمة بمقطع متوسط مفتوح (ص م). وكذلك إذا قُرئ قوله تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦]من دون النبر على الفاء في ﴿فَقَسَتْ﴾ صار الفعل مشتقّاً من (الفقس) لا من (القسوة)[(١)].

ومن المواطن التي تُبرز أهمية نبر الكلمة في الجملة إرادة التأكيد على عنصر من عناصر الجملة دون غيرها، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فالنبر على كل كلمة من هذه الجملة القرآنية يصرف التأكيد إلى جهة معينة، وتوضيحه كالآتي:

١ ـ النبر على الكلمة الأولى ﴿أَنَا۠﴾ يعني التأكيد على المسند إليه، وكونه هو لا غيره الربّ الأعلى.

٢ ـ النبر على الكلمة الثانية ﴿رَبُّكُمُ﴾ يعني التأكيد على المسند، وكون المسند

(١) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ١٦٢.

إليه يريد التأكيد على ربوبيته.

٣ ـ النبر على الكلمة الثالثة ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ يعني التأكيد على كون المسند إليه وما أُسند إليه موصوف بهذه الصفة، فهنا توكيد على صفة العلوّ.

ومما لا يخفى أنّ النبر على مستوى الجملة، من ارتفاع الصوت وما ينجم عنه من الإختلاف في درجة التوقيع الصوتي، يعني إضفاء صورة صوتية خاصة على الجملة. وهذه الصورة الصوتية تتنوّع في الكلام المنطوق فترقى إلى درجة التنغيم التي تحتضن جميع الظواهر الصوتية السابقة.

المبحث الخامس

٢. ٥ ـ التنغيم (*Intonation*)

التنغيم لغةً: من النغم بفتح الغين وسكونها، وواحدها، كما جاء في اللسان، النغمة: وهي جَرْس الكلمة، وحُسن الصوت في القراءة وغيرها، وهو حَسَنُ النغْمة، والنغمة كذلك: الكلام الحسَن، وقيل: الكلام الخفيّ، نغَم ينغَم وينغِم، وسكت فلان فما نغَم بحرف وما تنغّم بمثله وما نغم بكلمة[١].

أما التنغيم اصطلاحاً: فهو «تتابعات مطّردة من مختلف أنواع الدرجات الصوتية على جملة كاملة، أو أجزاء متتابعة. وهو وصف للجمل وأجزاء الجمل، وليس للكلمات المختلفة المنعزلة»[٢].

والتتابعات المطردة هذه منشؤها الارتفاع والانخفاض في درجة (pitch) الجهر (voice) في الكلام نتيجة «التغير في نسبة الوترين الصوتيين، هذه الذبذبة التي تحدث نغمة [Tone] موسيقية. ولذلك فالتنغيم يدل على العنصر الموسيقي في الكلام»[٣].

وقد سبق لعلماء العربية أن أشاروا إلى ظاهرة التنغيم دون ذكر المصطلح[٤] ومن أولئك ابن جني وذلك في معرض حديثه عن حذف الصفة من الجملة ودلالة الحال عليه في قولهم: (سِيرَ عليه ليلٌ) فيقول: «وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من

---

(١) لسان العرب: مادة: نغم.

(٢) دراسة الصوت اللغوي: ١٩٤.

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٩٢.

(٤) يراجع مبحث: (١. ٢. ٣. ٢. ١ ـ أنواع اللفظ الدّال عند ابن سينا)، ومبحث: (١. ٢. ٢. ١,٢ ـ أنواع الدلالات عند الجاحظ).

التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: (طويل) أو نحو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: (كان والله رجلاً)، فتزيد في قوة اللفظ بالله هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها، أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً، وتمكّن الصوت بإنسان وتفخمه فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سَمحاً أو جواداً أو نحو ذلك. وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً، وتزوى وجهك وتقطبه، فيغنى ذلك عن قولك: إنسانا لئيماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك»[1].

فابن جني يستخدم مصطلحات مثل التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ويُريد بها صور التنغيم المختلفة التي يتطلبها الحال أو المقام أو السياق الكلامي.

٢. ٥. ١ ـ صور التنغيم

تبيّن مما سبق أنّ التنغيم يظهر في الكلام بطريقة يتم التمييز بها بين المعاني المختلفة التي قد تحتملها الجملة الواحدة، كما هو الحال في عبارة مثل (يا إلهي) التي قد تعني التحسّر أو الزجر أو عدم الرضا أو الدهشة، وغير ذلك من المعاني التي يتطلبها الحال أو المقام، فيتنوع معناها بتنوع صور نطقها، وكيفية التنويع في إيقاعها الموسيقي. ولذلك تنوّعت صور التنغيم وإمكاناته. ويمكن حصر نغماته الرئيسية، بالنسبة إلى نهاياتها، في نغمتين اثنتين: نغمة هابطة وأخرى صاعدة[2].

---

(١) الخصائص: ٢ / ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) علم الأصوات: ٥٣٤.

٢. ٥. ١. ١ ـ النغمة الهابطة (Falling tone)

وهي نغمة تتصف بالهبوط في نهايتها على الرغم مما قد تنتظمه من تلوينات وتنويعات جزئية في إطارها الداخلي. وأمثلتها كثيرة، ولكنها تظهر بوجه خاص في الجمل التالية:

ـ الجمل التقريرية: ويُقصد بها الجمل التامة ذات المعنى الكامل غير المعلّق، كما في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

ـ الجمل الاستفهامية بالأدوات الخاصة: وهي الجمل التي تحتوي على أداة استفهام خاصة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧].

ـ الجمل الطلبية: وهي الجمل التي تحتوي على فعل أمر أو نحوه، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف: ١٩].

٢. ٥. ١. ٢ ـ النغمة الصاعدة (Rising tone)

وهي نغمة تتصف بالصعود في نهايتها، على الرغم من تنوع أمثلتها الجزئية الداخلية. ومن أمثلتها:

ـ الجمل الاستفهامية التي تستوجب الإجابة بكلمة واحدة ؛ إيجاباً أو سلباً كما في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ـ الجمل المعلّقة: ويُقصد بها الكلام غير التام لارتباطه بما يليه، ومن أهم أمثلته الجزء الأول من الجمل الشرطية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وهذه الجملة القرآنية بتمامها تعد جملة تقريرية، لذلك فهي تنتهي بنغمة هابطة، أما جزؤها الأول وهو جملة الشرط ﴿ وَإِذَا

قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ فهو كلام معلّق غير تام ويتوقف تمامه على الجواب[١].

٢. ٥. ١. ٣ ـ النغمة المستوية (Sustaind tone)

وتُطلق على عدد من المقاطع الصوتية التي تكون درجاتها متّحدة سواءٌ هابطة أم صاعدة[٢]. ويمكن التمثيل لها بمواضع السكت في القرآن الكريم، ويُقصد بالسكت «قطع الصوت، على آخر الكلمة، من غير تنفس ـ منتظراً استئناف القراءة ـ زمناً أقلّ من زمن الوقف العادي»[٣]. ومواضع السكت في القرآن أربعة فقط، هي: عند ﴿ مَّرْقَدِنَا ﴾من قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [يس: ٥٢]. وعند ﴿ مَنْ ﴾من قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾[القيامة: ٢٧]. وعند ﴿بَلْ ﴾من قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾[المطففين: ١٤]، إضافة إلى أول الكهف المذكورة أعلاه.

و ينشأ عن هذا السكت أو قطع الصوت من غير تنفس نغمة مستوية، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الكهف: ١ ــ ٢]، فالسكت الذي على ﴿عِوَجَا﴾ نغمة مستوية ترتفع بعد معاودة القراءة[٤]، وبدون هذا السكت يفسد المعنى كما يجوز الوقف عليها لأنها آخر آية.

---

(١) ينظر: المصدر السابق: ٥٣٤ ـ ٥٣٧.

(٢) علم الأصوات: ١٦٥.

(٣) مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦٢٩.

(٤) التنغيم في التراث العربي: ١٩.

٢ . ٥ . ٢ ـ وظيفة التنغيم الدلالية

الوظيفة الأساسية للتنغيم هي وظيفة دلالية، حيث لا يقوم المعنى في كثير من الجمل والعبارات إلا به، سواء على مستوى الكلام العادي، أو على مستوى النصوص الأدبية؛ شعراً[1] ونثراً. وتتجلّى ظاهرة التنغيم في القرآن الكريم في مواضع عدّة قامت من خلالها بالكشف عن الأبعاد الدلالية المتعددة للأساليب النحوية والبيانية على اختلاف وجوهها.

٢ . ٥ . ٢ . ١ ـ علاقة التنغيم بالاستفهام

ومن أمثلة ذلك علاقة التنغيم بأسلوب الاستفهام، ويمكن النظر إلى طبيعة هذه العلاقة بصورة عامة من جهتين: الأولى: دلالة التنغيم على إرادة الاستفهام مع حذف الأداة، والثانية: دلالة التنغيم على عدم إرادة الاستفهام مع ذكر الأداة.

٢ . ٥ . ٢ . ١ . ١ ـ دلالة التنغيم على إرادة الاستفهام مع حذف الأداة

وهو أن تُحذف أداة الاستفهام في الجملة ويُستعاض عنها بالتنغيم للدلالة على إرادة معنى الاستفهام حقيقياً كان أم مجازياً. ومن أمثلة **الاستفهام الحقيقي** الذي حُذفت فيه أداة الاستفهام قوله تعالى:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] حيث ذهب الفرّاء إلى جواز حذف همزة الاستفهام في الكلام، فيأتي الكلام الخبري دالاً على معنى الاستفهام الحقيقي، فتقدير

(١) للإطلاع على نماذج التنغيم من الشواهد الشعرية ينظر: (المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[(١)] عنده: أوَ من ذريتي[(٢)]؟.

ومن أمثلة **الاستفهام المجازي** الذي حُذفت فيه أداة الاستفهام قوله تعالى:

- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: ٢٢] حيث قدّر الأخفش أول الكلام همزة؛ أي: قبل ﴿وَتِلْكَ﴾، فيكون التقدير: أوَ تلك؟ أي: ليست تلك نعمةً حتّى تَمُنَّ بِها عليّ، وهذه الهمزة للإستفهام الإنكاري المتضمن معنى النفي[(٣)].

- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وتقديره: أهذا ربّي[(٤)].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١]، حيث قرَّرَ جماعة من المفسرين أنّ التقدير: (أتبتغي) إشارة إلى أنّ همزة الاستفهام محذوفة[(٥)].

٢. ٥. ٢. ١. ٢ ـ دلالة التنغيم على عدم إرادة الاستفهام مع ذكر الأداة

وهو أنْ تُذكر أداة الاستفهام في الجملة، ولكن من دون إرادة المعنى الطلبي الاستفهامي من ذكرها، ومن ثَمّ يُستعان بالتنغيم بنغمة هابطة للدلالة على تقريرية الجملة.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾

---

(١) جاء في الكشاف: «كأنه قال: وجاعل بعض ذريتي، كما يُقال لك: سأُكرمك، فتقول: وزيداً» (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/١٨٤).

(٢) معاني القرآن: ١/٧٦.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٥/٣٩٦، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٢٣.

(٤) إملاء ما مَنَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن: ١/٢٤٩، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٢٣.

(٥) علم الأصوات: ٥٤٤.

[الانسان: ١]، فحرف الاستفهام (هل) لا يُشير إلى معنى الاستفهام، لأنّ دلالة الآية عن طريق التنغيم تفيد التقرير، سواء اعتُبرت بمعنى (قد)، أو أُبقيت على بابها وهو الاستفهام، لأنّ الاستفهام هنا يُفيد التقرير أيضاً (إملاء ما مَنَّ به الرحمن من وجوه[١]).

وتتعدَّد أمثلة هذا النوع من خلال خروج الاستفهام عن أصله اللغوي إلى معانٍ مجازية مختلفة، أحصاها ابن فارس في (باب الاستخبار) فأوصلها إلى خمسة عشر وجهاً، منها: التعجّب، والتفخيم، والتفجّع، والتبكيت، وغيرها[٢].

فإذا كان السياق هو الذي يُشير إلى إستفهامية الجمل القرآنية أعلاه من عدمها، باعتبارها نصّاً مكتوباً ، فإنّ التنغيم يُرشد السامع إلى هذه الدلالات المختلفة، وهو يستمع إليها، باعتبارها نصّاً مقروءاً[٣].

ولا يقتصر التنغيم على أسلوب الاستفهام فحسب، بل إنه يلعب دوراً كبيراً في أساليب التعبير المختلفة. ولكن قادنا البحث إلى الإكتفاء بهذا النموذج حتى لا تتشعب الأمثلة من جهة، ويأخذ هذا الأسلوب حقّه من بيان ملامح التنغيم فيه من جهة ثانية، وللتلميح إلى مدى الحاجة إلى معرفة هذه الظاهرة الصوتية عند دراسة النص القرآني من جهة ثالثة.

فالتنغيم إذن ظاهرة صوتية لا يمكن إدراكها إلا بالكلام المنطوق، ويُقصِّر الكلام المدوّن المكتوب في الافصاح عنها، والكشف عن حالاتها. وهنا تكمن أهمية المشافهة

---

(١) الإعراب والقراءات في جميع القرآن: ٢/٢٧٥، وإعراب القرآن الكريم وبيانه: ٨/١٦٠.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: ١٨٦ ـ ١٩٠.

(٣) عُبِّر عن كلام الله بألفاظ وتعابير مختلفة ومتعددة، ولكلّ دلالته التي تميزه عن سواه، ومن هذه الأسماء: الكتاب: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ [إبراهيم: ١]، فهو كتابٌ مسطور ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ [الطور: ٣]، ومنها القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فهو نص مقروء، يُتلى آناء الليل وأطراف النهار.

التي اعتمدها القرّاء في تلقي ضوابط القراءة الصحيحة للقرآن الكريم، والمقرئ لا ينال هذا اللقب إلا بمشافهة أساتذته والنقل من أفواههم سماعاً، ولذلك قالوا بشأنه: إنه «العالم بالقراءات رواها مشافهة، فلو حفظ (التيسير) مثلاً ليس أن يقرأ بما فيه إنْ لم يُشافهه مَنْ شُوفِه به، مسلسلاً؛ لأنّ في القراءات أشياء لا تُحكم إلا بالسماع والمشافهة»[(١)].

ومن هذه الأشياء التي لا تُحكم إلا بالسماع والمشافهة صور التنغيم التي تتنوّع بتنوّع معاني القرآن الكريم، والتي يجب أن تَحكم التلاوة القرآنية. فالوعد، والوعيد، والإنذار، والتقريع، والتوبيخ، والتعظيم، والتنبيه، والإخبار، ووصف نعيم الجنان، وأهوال النيران، وغيرها من وجوه المخاطبات القرآنية التي تربو على الأربعين وجهاً[(٢)] يجب أن تُنزّل منازلها من التلاوة والتنغيم عملاً بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١]. وبذلك تُعطى التلاوة حقّها، فيُوقف على المراد من كلام الله، وعلى كثيرٍ من معاني الآيات التي وردت بأسلوب، وأُريد به نقيضه، كما في قوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] الذي ورد بلفظ التعزيز والتكريم، وأُريد به نقيضه على سبيل الهُزؤ والتهكّم[(٣)].

ويدخل ضمن السماع والمشافهة في تلاوة القرآن الكريم، إلى جانب التنغيم، جميع قواعد التجويد وأصوله التي توارثها قرّاء القرآن وتناقلوها شفاهاً من عصر الرسالة وحتى زماننا هذا، كالإدغام، والإبدال، والإمالة، والإظهار، والإخفاء،

---

(١) منجد المقرئين ومرشد الطالبين: ٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٢١٧.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/ ٢٨٢.

والإشمام، والإشباع، والمدّ، والتفخيم، والترقيق، وغير ذلك، وهي كما أسلفنا داخلة في علم الفوناتيك[١].

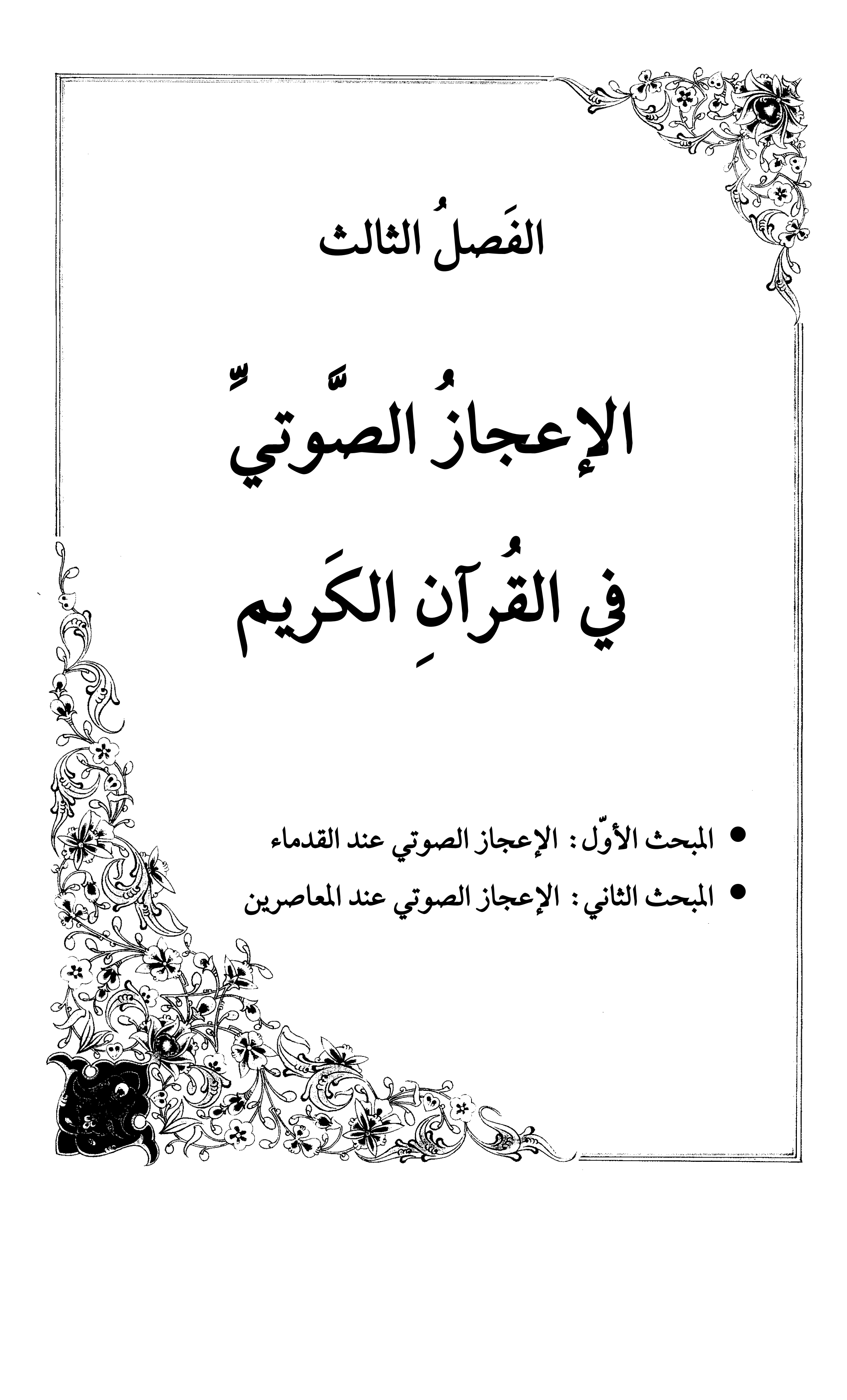
ويرتبط التنغيم بقواعد التجويد من خلال كونه يمثل «الخاصة الصوتية الجامعة التي تلفّ المنطوق بأجمعه، وتتخلّل عناصره المكونة له، وتكسبه تلويناً موسيقياً معيّناً حسب مبناه ومعناه، وحسب مقاصده التعبيرية، ووفقاً لسياق الحال أو المقام»[٢]. فقواعد التجويد تمثل نظماً صوتية جزئية، خاصة باللغة العربية تحكم القراءة القرآنية، أما التنغيم فيمنح كلّ ذلك لوناً إيقاعياً خاصاً يُواكب المعاني التي تُجسدها الجمل والعبارات، ويُميط اللثام عنها.

ونترك الحديث عن الظواهر الصوتية (التجويدية) التي تندرج مصطلحاتها ضمن إطار هذا المبحث (علم الفوناتيك) لكتب القراءات والتجويد التي تحدّثت عنها بإسهاب، رغم ارتباطها الوثيق بما سنعرض له فيما نستقبل من البحث، وبخاصّة عند تحليل الشواهد القرآنية صوتياً. لذا سنقوم بالتنويه بها والرجوع إلى مصادرها كلّما تطلّب الأمر ذلك في الفصول التالية.

---

(١) ينظر: مبحث (٢. ٣ ـ علم وظائف الأصوات Phonology). أما مخارج الحروف وصفاتها فإنها تدخل في علم الفونوتيك. ينظر: مبحث (٢. ٢ ـ علم طبيعة الأصوات Phonetics).

(٢) علم الأصوات: ٥٣١.



الفَصلُ الثالث

الإعجازُ الصَّوتيُّ في القُرآنِ الكَريم

- المبحث الأوّل : الإعجاز الصوتي عند القدماء
- المبحث الثاني : الإعجاز الصوتي عند المعاصرين

الفصل الثالث
الإعجاز الصَّوتيِّ في القُرآنِ الكَريم

تمهيد

تناولت الدراسة في الفصلين السابقين علمَي الدلالة والصَّوت، وقد لاحظنا كيف أنّ القرآن كان يمثل منطلقاً وهدفاً أساسيّين لمباحث هذين العلمين، يستلهمانه ويستمدّان منه مادّة بحثهما، بُغيةَ الوقوف على أسرار معانيه، وذلك منذ باكورة نشأتهما، وحتى اكتمالهما عِلمين شاخصين، لكلٍّ قواعده وأصوله.

وخَلُصنا إلى أهمية كلٍّ منهما، ومدى ارتباط أحدهما بالآخر. فإذا كانت مادّة الدلالة اللِّسانية هي الصّوت اللغوي، فإنّ الصّوت اللغوي ينطلق أساساً من دلالته على المعاني التي انتُدب لبيانها والتعبير عنها وتصويرها. فالدلالة اللغوية منطلَق صوتيّ، والصّوت اللغوي منطلَق دلاليّ.

وبِما أنّ الدراسة تتناول الصوت في القرآن الكريم، فإنّ أصغر وحدة صوتية فيه يمكنها أن تمثل مادّة بحثية لها قيمتها الدلالية. فكلّ صوت في هذا الكتاب الحكيم وُضِع موضعه الذي لا يَصلح غيره ليحلَّ محلّه، فإذا وُقِفَ على سرِّه انكشف بعضٌ مِمّا فيه،

وخَفِي ما هو أعظم، فإنه ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]، وإذا لم يُوقَف عليه فإنّ لسان الحال يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وإذا كان كرمُ الله وفضلُه قد شَمل قوماً فأطلعهم على بعضٍ من مكنون كتابه، فإنّ كرمه عزّ وجلّ ككلماته الأبدية ليس لها أن تنفد، وكرحمته الواسعة ليست حِكراً لقوم دون آخرين، والله تعالى يقول في محكَم كتابه العزيز: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

لقد شغل بيانُ القرآن العربَ منذ اللحظات الأولى لنزوله، فغدا شغلهم الشاغل، سواء مَن آمَنَ به، أو مَن لم يُؤمن، فقد طَلَع عليهم القرآن الكريم فرأوا في أسلوبه ذات ألفاظهم وقد تساوقت فيما ألِفوه من طُرُق الخطاب وألوان المنطق، دون عنَتٍ أو تصنُّع، غير أنه «ورد عليهم من طُرُق نظمِه، ووجوهِ تركيبِه، ونَسَقِ حروفه في كلماتها، وكلماته في جُملها، ونَسَق هذه الجمل في جملته ما أذهلَهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوفٍ تقشَعِرُّ منه الجلود، حتى أحَسّوا بضعف الفطرة القوية، وتخلّف المَلَكة المستَحكَمة، ورأى بلغاؤهم أنه جنسٌ من الكلام غير ما هم فيه، وأنّ هذا التركيب هو روح الفطرة اللُّغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب، أو اعتراض مساغه إلى هذه النفس، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم، واطّلع على قلوبهم، بل هو السِّرُّ الذي يفشي نفسَه وإن كَتَموه، ويظهر على ألسنتهم، ويتبيّن في وجوههم، وينتهي إلى حيث ينتهي الشعور والحسّ»[1].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٣٤.

وهذه اللغة القرآنية السّاحرة التي أذهلت الناس عن أنفسهم، واقشعرّت لها أبدانُهم، فخرّوا لها خاشعين هي التي دَعَت إلى بَسْطِ القول في فنون فصاحة القرآن ونظمه ووجوه تأليف الكلام فيه. فانبرى علماء المسلمين للتأليف في وجوه إعجازه. وقد كان لنظم القرآن، وما يمكن أن يكون مرجعه الصّوت من وجوه البلاغة المحلّ الأرفع من بين وجوه الإعجاز الأخرى.

لقد كانت موضوعات الآيات والسُّوَر القلائل الأولى التي انبهر بها العرب أوّل الأمر خاليةً تماماً من أيّ تشريع، أو إخبار عن غيب يتحقّق بعد أعوام، أو علوم كونية في خلق الكون والإنسان، لكي تسترعي إحساسَهم، وتستحقّ منهم كلّ هذا الإعجاب. فلابد إذن أن يكون في تلك السُّور القلائل عنصرٌ آخَر غير ما ذكرنا، هو الذي سَحَر المستمعين، وأخَذَ عليهم قلوبَهم وعقولَهم.

وقد ثبت أنّ مِمّن لا يفهم القرآن ولا يعلم تفاسيره قد تأثّر به وهو يستمع إليه لأوّل مرّة، كما رُوِيَ عن نصرانيّ أنه مرّ بقارئٍ فوقف يبكي، فقيل له مِمَّ بكيت؟ قال: للشجاعة والنَّظم[١].

فأين يكمن هذا السِّحر، وما هو مصدره، وكيف استحوذ القرآن على العرب هذا الاستحواذ؟ وكيف اجتمع على الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون على حدٍّ سواء؟

إنّ عنصر السِّحر الذي عَناه الوليد بن المغيرة في مقولته الشهيرة[٢] بعد أن استوقفه

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/١٦٨.

(٢) كان الوليد بن المغيرة من أشدّ كفّار قريش عناداً وإصراراً على الكفر؛ ويُروى أنّه عندما سَمع شيئاً من كتاب الله رَقّ له قلبه، فقالت قريش: صَبأ والله الوليد، ولتصبوّن قريش كلّهم. فأوفدوا إليه أبا جهل يثير حَمِيّته وكبرياءه واعتزازه بماله ونسبه، ويطلب إليه أن يقول في القرآن قولاً يُعلِم به قومَه أنه كارهٌ له. فردّ عليه قائلاً: «وماذا أقول! فَوَ الله! ما منكم رجلٌ أعرَفُ بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ←

القرآنُ طويلاً، ففكّر وقَدّر، ثم قُتِل كيف قَدّر، ثم نَظَرَ، ثم عَبَسَ وبَسَر، ثم أدبَرَ واستَكبَرَ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] لابدّ أنه «كان كامناً في مظهر آخر غير التشريع والغيبيّات والعلوم الكونية. لابدّ أنّه كامنٌ في صميم النّسَق القرآنيّ ذاته»[1].

وقد اشتغل المسلمون بدراسة هذا النسق القرآني منذ نزوله وحتى يومنا هذا، لذلك كان حريٌّ بنا تناول ما قدّمه أولئك وهؤلاء، لنقف على مدَى إسهامِهم في هذا المضمار قبل أن نُدْلِيَ بِدَلْونا.

←ولا بقصيده مني، ولا باشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، و والله إنّ لقوله الذي يقوله حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وانه لَمثمرٌ أعلاه، مغدِق أسفلُه، وإنه لَيعلو ولا يُعلَى، وإنه ليحطم ما تحته. قال [أبو جهل]: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال [الوليد]: قف عني حتى أُفكِّرَ فيه، فلما فكّر قال: إنْ هذا إلاّ سِحرٌ يُؤثر يأثره عن غيره» (البداية والنهاية: ٦١/٣). فنزَلَ فيه قوله تعالى من سورة المدثر: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ وما بعدها.

(١) التصوير الفني في القرآن: ١٧.

المبحث الأوّل

٣. ١ ـ الإعجاز الصوتي عند القدماء

بحث القدماء على اختلاف مشاربهم وعلومهم في موضوع الاعجاز القرآني، وتركوا الباب مفتوحاً على مصراعيه لأخلافهم في العصور التالية، فتوسّل كلُّ أهل زمان بما ظهر من علوم وفنون في زمانهم مستعينين بها لالتقاط دُرَرٍ من هذا البحر الزَّخّار، وراح كلٌّ يُدلي بدَلوِه، ويحوز من هذا النبع الالهيّ ما استطاع إلى حوزته. فبرزت وجوهٌ من الإعجاز عديدة، ينبغي الوقوف عندها، والتنويه بِها، لكي يُحفَظ لِكلٍّ حقُّه وفضلُه. وفيما يلي ذكرٌ لأهم العلماء الذين أشاروا إلى ملامح من الإعجاز الصوتي في آثارهم.

٣. ١. ١ ـ الرُّماني

عدّ الرماني (ت٣٨٦هـ) من وجوه الإعجاز سبعة، جاعلاً البلاغة على رأس هذه الوجوه فابتدأ بها كتابه النُّكَت. و قد حَصَرَ البلاغةَ في ثلاث طبقات: «منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو مُعجِزٌ، وهو بلاغة القرآن»[1].

ثم حَصَرَ وجوه البلاغة في عشرة أقسام هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

(١) النكت في إعجاز القرآن: ٧٥.

وكما نرى فإنّ من هذه الأقسام العشرة ما يرتبط بالصوت كالتلاؤم، والفواصل، والتجانس. والتلاؤم أهمُّها جميعاً لأنها ألصق بمباحث الصّوت، وقد عرّفه الرماني بأنه: نقيض التنافر، وأنه تعديل الحروف في التأليف، جاعلاً التأليف على ثلاثة أقسام:

- متنافر.
- متلائم في الطبقة الوسطى.
- متلائم في الطبقة العليا.

والقسم الثالث أي المتلائم الذي في الطبقة العليا يشمل القرآن كلَّه. والرمّاني يرى أنّ تلاؤم الحروف في القرآن بَيِّنٌ لكلِّ متأمِّل فيه، والفرق بينه وبين غيره من الكلام كالفرق بين المتنافر والمتلائم من الطبقة الوسطى، ولكنّ الناس يتفاوتون في شدّة إحساسهم بذلك وفطنتهم له، كما يتفاوتون في شدّة إحساسهم بالشعر الموزون من المكسور.

ولما كانت مخارج الحروف متفاوتة بسبب موضعها من جهاز النطق، فمنها ما هو من أقصى الحلق، ومنها ما هو من أدنى الفم، ومنها ما هو بين هذا وذاك، فقد كان لزاماً أن يكون التلاؤم في تعديل الحروف من غير بعد شديد أو قرب شديد بين مخارجها، ويظهر ذلك «بسهولته على اللِّسان، وحسنه في الأسماع، وتقبّله في الطِّباع، فإذا انضاف إلى ذلك حُسنُ البيان[1] في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز

(١) قسّم الرماني حُسن البيان في الكلام على مراتب: «فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبّله النفس تقبُّل البرد، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقّه من المرتبة» (النكت في إعجاز القرآن: ١٠٧).

للجيِّد الطِّباع البصير بجواهر الكلام»[١].

والرمّاني يرى أنّ التحدّي بالتلاؤم يعَمّ جميع الناس، لا فرق في ذلك بين عربيّ وأعجميّ، وذلك أنّ الله تعالى قال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال أيضاً: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤]. «ولما تعلّلُوا بالعلم والمعاني التي فيه قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. فقد قامت الحجة على العربي والعجمي بعجز الجميع عن المعارضة إذ بذلك تبين المعجزة»[٢].

ولا تخلو الأقسام الأخرى (البلاغية) من إشارات صوتية، كما في قسم الإيجاز، وذلك حين قارن بين قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩] وبين قول العرب: (القتل أنفى للقتل) فقال: «وأما الإيجاز في العبارة فإنّ الذي هو نظير (القتل أنفى للقتل) قوله: ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ والأوّل أربعة عشر حرفاً، والثاني عشرة أحرف. وأما بُعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقّة فإنّ في قولهم: (القتل أنفى للقتل) تكريراً غيره أبلغ منه، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصِّر في باب البلاغة عن أعلى طبقة.

وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مُدرَك بالحسّ وموجود في اللفظ، فإنّ الخروجَ من (الفاء) إلى (اللام) أعدل من الخروج من (اللام) إلى (الهمزة)، لبُعد (الهمزة) من (اللام)، وكذلك الخروج من (الصاد) إلى (الحاء) أعدل من الخروج من

(١) م.ن: ٩٦.

(٢) م.ن: ٩٧.

(الألف) إلى (اللام)[١]، فلاجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغ منه وأحسن، وإن كان الأول بليغاً حسَناً»[٢].

وأضاف السيوطي إلى أسباب ملائمة الحروف في الآية ما «فيها من الخروج من (القاف) إلى (الصّاد)، إذ (القاف) من حروف الاستعلاء، و (الصّاد) من حروف الاستعلاء والإطباق، بخلاف الخروج من (القاف) إلى (التاء) التي هي حرف منخفض فهو غير ملائم (للقاف)»[٣].

كما أضاف السيوطي بُعداً آخَر يُميِّز هذه الآية ويجعلها أخَفّ نطقاً وأكثر سلاسةً من المثل، ويتمثّل ذلك في الجانب الإيقاعي الناتج عن المقاطع الصوتية المشتملة عليها فيقول: «إنّ في المثل توالي أسباب كثيرة خفيفة[٤]، وهوالسكون بعد الحركة، وذلك مستَكرَهٌ، فإنّ اللّفظ المنطوق به إذا توالت حركاته تَمكّن اللِّسان من النُّطق به، وظهرت بذلك فصاحته، بخلاف ما إذا تعقّب كلَّ حركة سكونٌ فالحركات تنقطع بالسّكَنات»[٥].

---

(١) وذلك «لبعد ما دون طرف اللسان وأقصى الحلق» (الإتقان في علوم القرآن: ١٨٧/٣).

(٢) م.ن: ٧٨.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ١٨٧/٣.

(٤) يتوالى في المثل سببان خفيفان، فوتد مجموع، فأربعة أسباب خفيفة، أما الآية فتبدأ بسبب خفيف، فوتد مجموع، فسبب ثقيل، فسببان خفيفان. وبذلك يكون عدد الحركات في الآية أكثر من المثل، إضافةً إلى تنوّع المقاطع فيها.

(٥) الإتقان في علوم القرآن: ١٨٧/٣.

٣ . ١ . ٢ ـ الخطّابي

كان أبو سليمان الخطابي (ت٣٨٨هـ) معاصراً للرماني وذهب هو الآخَر إلى أنّ سبب إعجاز القرآن هو بلاغته التي حازت من طبقات الكلام أرفعها ؛ (البليغ ، الرصين، الجزل)، وأوسطها ؛ (الفصيح ، القريب ، السهل)، وأقصَدها ؛ (الجائز ، الطلق ، الرسل) فحازت بلاغات القرآن من كلّ قسم من هذه الأقسام حصّة «فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نَمَط من الكلام يجمع صِفَتَي الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادّين لأنّ العذوبة نِتاج السُّهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تُعالجان نوعاً من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نُبوّ كلٍّ واحدٍ منهما على الآخر فضيلة خُصَّ بها القرآن ، يَسّرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آيةً لنبيِّه ، ودلالةً له على صِحّة ما دعا إليه من دينه»[1].

ثم يأتي بعبارة غاية في الحكمة والرَّوعة حَدّدَ بها عوامل الإعجاز بثلاثة أمور هي : اللفظ والمعنى والنظم ، ووازن فيما بينها موازنةً دقيقةً فقال : «وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة :

- لفظٌ حامل
- ومعنًى به قائم
- ورباطٌ لهما ناظم

وإذا تأمّلت القرآن وجدتَ هذه الأمور منه في غاية الشَّرف والفضيلة... فتفهّم الآن واعلم أنّ القرآن إنما صار معجِزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمَّناً أصحّ المعاني»[2].

---

(١) بيان إعجاز القرآن: ٢٦.

(٢) م.ن: ٢٧.

فسبب إعجاز القرآن في رأي الخطابي هو فصاحة ألفاظه، ونظم تأليفه، ثم تَضَمُّنه للمعاني الصَّحيحة، وبذلك فإنّ ثُلُثَي إعجازه راجع في حقيقته إلى طبيعته الصوتية.

ورغم ذلك فإننا لا نكاد نلمح في كتابه بيان إعجاز القرآن شواهد قرآنية تتضمّن إشاراتٍ صوتيةً إلا في موضع واحد، وذلك في معرض الاستشهاد ببلاغة اللفظ القرآني ومقارنته لنماذج منه بما يرادفها من ألفاظ عَزَفَ عن استعمالها الأسلوب القرآني مؤثراً تلك عليها.

فالخطابي كأنّما يُلمِّح إلى الإيحاء الصوتيِّ للفظ (الصّدع) وما يُلقيه في ذهن السّامع من صوت الكسر، في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [الحِجر: ٩٤] قائلاً: وهذا «أبلغ من قوله: (فاعمَلْ بِما تُؤمَرْ)، وإن كان هو الحقيقة، والصّدع مستَعار، وإنّما يكون ذلك في الزجاج ونحوه من فلزِّ الأرض، ومعناه المبالغة فيما أمَر به حتّى يُؤَثِّرَ في النفوس والقلوب تأثير الصّدع في الزُّجاج ونحوه»[1].

٣. ١. ٣ ـ الباقلاني

سار القاضي الباقلاني (ت٤٠٣هـ) على خُطَى الخطابي عند وقوفه على الوجه البلاغي للإعجاز، وعنده أنّ بلاغة القرآن معجزة بنظمها، فهو يقول عن القرآن: «أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة، إلى الحدِّ الذي يُعلَم عجزُ الخلق عنه. فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوهٌ منها: مايرجع إلى الجملة، وذلك أنّ نظم القرآن على تصرُّف وجوهه، واختلاف مذاهبه، خارج عن

(١) م.ن: ٤٤.

المعهود من نظام جميع كلامهم، ومُبايِن للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوبٌ يَختصُّ به، ويتميّز في تصرّفه عن اساليب الكلام المعتاد»[1].

إنّ ما طرَحَه الباقلاني من أنّ القرآن (بديع النظم، عجيب التأليف) إشارة واضحة ودقيقة إلى فكرة النظم التي تطوَّرت فيما بعد عند عبد القاهر الجرجاني، خاصة في قوله: إنه تأمّلَ نظمَ القرآن فوجَدَ جميعَ ما يتصرّف فيه من الوجوه «على حدٍّ واحدٍ في حُسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا..»[2].

لهذا يمكن القول: «أنّ فكرة النظم عند الباقلاني تكاد تكون إرهاصاً لولادة فكرة النظم عند الجرجاني»[3]. وبِما أنّ موضوع نظرية النظم عند الجرجاني كان قد بُحثَ في الفصل الأول من الدراسة لذا يُكتفَى بالإرجاع إليه[4].

أمّا أهم ما طلع به علينا الباقلاني بخصوص الإعجاز الصوتي في القرآن فهو التفاتته الرائعة إلى فواتح السُّوَر من الحروف المقطّعة التي افتُتِحَت بها سِتٌّ وعشرون سورة مكية، وثلاث سور مدنية، وما قدّمَه من تصنيف صوتيّ لهذه الحروف، استوقف عندها من جاء بعده من المشتغلين بإعجاز القرآن، معلِّقين ومُضيفين، وبذلك أوقفونا على سِرٍّ عظيم من أسرار الصوت القرآني، ومازال الباب مفتوحاً أمام الباحثين ليكتشفوا أسرار هذه الحروف النورانية، ولابدّ أنّ القادم من الأيام والقرون بِما يحمله من اكتشافات معرفية وعلمية سيقوم بِحَلِّ كثيرٍ من أسرارها الدفينة،

---

(1) إعجاز القرآن: ٣٠.

(2) م.ن: ٣٢.

(3) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية: ٢٤٩.

(4) يراجع مبحث: (١. ٢. ٢. ٢. ١ ـ اللفظ والمعنى عند الجرجاني).

وحِكَمِها الخفية، وآياتها الباهرة ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. فلأهمية هذه الحروف في بيان الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم نتوقف عندها وقفة تأمُّل وخشوع.

٣. ١. ٣. ١ ـ الإعجاز الصوتي في فواتح السور

تَجدر الإشارةُ إلى أنّ القرآن الكريم افتَتَحَ عامةَ سُوَرِه الـ (١١٤) بعشرة أنواع بيانية من فنون القول، لا يَخرج شيءٌ من السُّوَر عنها، وهي:

١ـ الاستفتاح بحروف التهَجِّي: نحو: ﴿قٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿الٓمٓ﴾ وغيرها، في (٢٩) سورة.

٢ـ الاستفتاح بالجمل الخبرية: نحو: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وغيرها، في (٢٣) سورة.

٣ـ الاستفتاح بالقَسَم: نحو: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ و﴿ٱلطُّورِ﴾ وغيرها، في (١٥) سورة.

٤ـ الاستفتاح بالثناء على الله: نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿تَبَارَكَ﴾ و﴿سُبْحَانَ﴾ وغيرها، في (١٤) سورة.

٥ـ الاستفتاح بالنداء: نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وغيرها، في (١٠) سُوَر.

٦ـ الاستفتاح بالشرط: نحو: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ و﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وغيرها، في (٧) سُوَر.

٧ـ الاستفتاح بالأمر: نحو: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وغيرها، في (٦) سُوَر.

٨ ـ الاستفتاح بالاستفهام: نحو: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ و ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ وغيرها، في (٦) سُوَر.

٩ـ الاستفتاح بالدعاء: في (٣) سُوَر: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ و ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾ و ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾.

١٠ـ الاستفتاح بالتعليل: في سورة واحدة: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾[1].

والنوعُ الأوّل والأكثر مِمّا افتُتِحَت به السُّوَر هو الذي يَعنينا في هذا المجال. وقد شغلت فواتح السُّوَر من حروف الهجاء العلماءَ كثيراً، ففصّلوا القولَ في بيانها وتفسيرها، فاختلفوا في كثير من ذلك واتفقوا على كثير. أما ما يَعنينا من تلك التفصيلات فهو الأسرار الصوتية أو الإعجاز الصوتي الذي لَمَحوه فيها، والذي لم يختلف في شأنه إثنان منهم.

وكان أوّلُ مَن أشار إلى ذلك ودَوَّنَه في كتاب هو الباقلاني حيث قال عن فواتح السُّوَر أو الحروف المقطّعة: «إنّ الحروف التي بُنيَ عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السُّوَر التي افتُتِح فيها بذكر الحروف ثَمان وعشرون سورة. وجملة ما ذُكر من هذه الحروف في أوائل السُّوَر من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً، ليدلَّ بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

والذي ينقسم إليه هذه الحروف: على ما قسّمَه أهل العربية، وبَنوا عليها وجوهها: أقسامٌ نحن ذاكروها: فمن ذلك أنهم قسّموها إلى: حروف مهموسة، وأخرى مجهورة، فالمهموسة منها عشرة، وهي: الحاء، والهاء، والخاء، والكاف،

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/١٦٤ ـ ١٨٠.

والشين، والثاء، والفاء، والتاء، والصاد، والسين: وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورةٌ. وقد عرَفنا أنّ نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان»[١].

ثم يُضيف أنّ ما وَرَدَ في هذه الحروف المقطّعة هو نصف الحروف الحلقية، ونصف الحروف الشديدة، ونصف الحروف المطبقة[٢].

وقد جاء مِن بعد الباقلاني من أضافَ إليها ملاحظاتٍ وأسراراً أخرى من صفات الحروف، كما فَعَلَ الزمخشري في تفسيره (١٤١٣هـ/١، ٢٩ ـ ٣٠)، والسيوطي في كتابه: معترك الأقران في إعجاز القرآن ١/٧٠ ـ ٧١)، وغيرهما.

وخلاصة القول فيما تشتمل عليه هذه الحروف من أسرارٍ صوتية ودلالية، جمعناها من كتب المتقدمين، وأضفنا إليها ما ارتأيناه، ما يلي:

٣. ١. ٣. ١. ١ ـ عدد الحروف المقطعة وعدد سور القرآن

١ ـ وردت هذه الحروف مستَفتَحاً بها في تسع وعشرين سورةً من سور القرآن الكريم، أي بعدد حروف المعجم مع احتساب الألف اللّينة غير الهمزة. وإنما جاءت الأحرف «في تسعة وعشرين سورة لتكون عِدّة السُّوَر دالّةً على عدّة الحروف»[٣].

وفي افتتاح رُبع سُوَر القرآن بحروف الهجاء «إشارةٌ للتنبيه إلى أنّ هذا الكتاب مؤلَّف من جِنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطَبين به من العرب. ولكنه ـ مع هذا ـ هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يُمكن أن يصوغوا من تلك الحروف مثله»[٤].

---

(١) إعجاز القرآن: ٣٦.

(٢) م.ن: ٣٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ١/١٧٨.

(٤) في ظلال القرآن: ١/٣٨.

٢ ـ إنّ عدد هذه الحروف المقطّعة (بعد استثناء الحروف المكرّرة) أربعة عشر حرفاً هي: (الألف، اللام، الميم، الصاد، الراء، الكاف، الهاء، الياء، العين، الطاء، السين، الحاء، القاف، النون) مجموعة في عبارة: (نَصٌّ حكيمٌ قاطعٌ له سِرٌّ) فهي نصف عدد حروف المعجم الثمانية والعشرين[١].

وكأنّ «الحروف التي ألغَى اللهُ ذكرَها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقّت في كلِّ شيء حكمته. وقد علمتَ أنّ معظم الشّيء وجُلّه ينزل منزلةَ كلِّه، وهو المطابق لِلَطائف التنزيل واختصاراته»[٢].

٣. ١. ٣. ١. ٢ ـ أنصاف الصفات في الحروف المقطّعة

عند إمعان النظر في الحروف المقطّعة الأربعة عشر نجدها تشتمل على أنصاف أجناس «الحروف الهجائية على أيِّ وجهٍ من الوجوه التي اصطلح عليها علماءُ اللغة بعد نزول القرآن بزمنٍ طويلٍ»[٣]، ففيها:

١ـ نصف حروف الهمس، وهي: (الصاد، والكاف، والهاء، والحاء، والسين)، فهذه خمسة من مجموع حروف الهمس العشرة.

٢ـ نصف حروف الجهر، وهي: (الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والباء، والنون)، فهذه تسعة من مجموع حروف الجهر الثمانية عشر.

---

(١) على اعتبار أنّ الهمزة والألف الّلينة المعدودة مع اللام في (لا) حرفاً واحداً، وإلاّ فهي تسعة وعشرون حرفاً ينظر: (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/ ٢٩)، و(البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٧٦).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/ ٣٠.

(٣) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأرزق: ١٤١.

٣ـ نصف حروف الشِّدَّة، وهي: (الألف، والكاف، والطاء، والقاف)، فهذه أربعة من مجموع حروف الشِّدّة الثمانية.

٤ـ نصف حروف الرَّخاوة، وهي: (اللام، والميم، والراء، والصّاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون)، فهذه عشَرَة من مجموع حروف الرّخاوة العشرين.

٥ـ نصف الحروف الحلقية، وهي: (العين، والحاء، والهاء)، فهذه ثلاثة من مجموع حروف الحلق الستة.

٦ـ نصف الحروف غير الحلقية، وهي ما عدا حروف الحلق الثلاثة من الحروف الأربعة عشر.

٧ـ نصف حروف الإطباق، وهي (الصّاد، والطّاء)، فهذان حرفان من مجموع حروف الإطباق الأربعة.

٨ ـ نصف حروف الإنفتاح، وهي: (الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون)، فهذه اثنا عشَرَ حرفاً من مجموع حروف الإنفتاح الأربعة والعشرين.

٩ـ نصف حروف الإستعلاء تقريباً، وهي: (الصّاد، والقاف، والطّاء)، فهذه ثلاثة من مجموع حروف الإستعلاء السبعة.

١٠ـ نصف حروف الاستفال تقريباً، وهي: (الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون)، فهذه أَحَدَ عشَرَ حرفاً من مجموع حروف الاستفال الحادية والعشرين[1].

(١) إعجاز القرآن: ٣٦ ـ ٣٧ ، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/٢٩ ـ ٣٠.

ومن عجيب ما يُلاحَظ في حروف الاستعلاء والاستفال أنها لَمّا كان مجموع كلٍّ منهما من ذوي الأعداد الفردية فقد استحال التنصيف فيها، لذا أُنقِصَ من نصف حروف الاستعلاء شيءٌ، وللتعويض عن هذا الحذف أُضيف ما بِمقداره إلى نصف حروف الاستفال التي هي ضدّها «وبهذا يتمَّ التنصيف على أتَمِّ صورة»[1].

وقد ذهب الباقلاني إلى أنّ مَجِيء هذه الحروف على حَدِّ التنصيف مِمَّا تواضَع عليه العلماء بعد عهدٍ طويل من نزول القرآن دليل قاطع على كونه من عند الله عَزَّ وجلّ لأنه يجري مجرَى علم الغيوب «وكلُّ ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذِكر هذه الحروف عَلَى حَدٍّ يتعلّق به الإعجاز من وجه»[2].

٣. ١. ٣. ١. ٣ ـ أبنية الكلمات العربية في أبنية الحروف المقطّعة

افتُتِحت السُّوَر التسعة والعشرون بهذه الحروف الأربعة عشر بصور مختلفة من حيث عدد الأحرف المستَفتَح بها، وذلك بالشكل التالي:

١ــ الافتتاح بحرفٍ واحدٍ كما في: (ص) و (ق) و (ن). في سور: ص، ق، والقلم.

٢ـ الافتتاح بحرفَين، كما في: (طه) و (طس) و (يس) و (حم)، موزَّعة على تسع سُوَر هي: طه، والنمل، ويس، وغافر، وفُصِّلَت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

٣ـ الافتتاح بثلاثة أحرف، كما في: (الم) و (الر) و (طسم)، موزّعة على ثلاث عشرَة سورة هي: البقرة، وآل عمران، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم،

---

(١) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني: ١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) إعجاز القرآن: ٣٧.

والحِجر، والشعراء، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسّجدة.

٤ــ الافتتاح بأربعة أحرف، كما في: (المص) و (المر)، في سورَتَي الأعراف والرعد.

٥ـ الافتتاح بخمسة أحرف، كما في: (كهيعص) و (حمعسق)، في سورَتَي مريم والشورى.

والسِّرُّ في ورود الأحرف المقطّعة بهذه الصُّوَر الخمسة من حيث تركيبها راجع إلى «أنّ أبنيةَ كلماتهم على حرفٍ أو حرفين إلى خمسة أحرُفٍ لم تتجاوز ذلك، سَلَك بهذه الفواتح ذلك المسلك»[1] فقد صيغَت هذه الأحرف على صِيَغِ تركيب الكلمة في العربية.

كما أنّ اللّهَ تعالى عدّدَ على العرب الألفاظَ التي منها تراكيبُ كلامِهم، وذلك تَبكيتاً لهم، وإلزاماً للحُجَّة عليهم»[2].

٣. ١. ٣. ١. ٤ ـ الدلالة الصوتية للحروف المقطّعة

كثرت آراء علماء الإعجاز ومفسري القرآن الكريم حول دلالة الحروف المقطّعة في مفتَتَح السُّوَر، وما يمكن أن تعنيه، وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي فيما ذُكر فيها من أقوال: «قد تَحصَّلَ لي فيها عشرون قولاً وأزيَد، ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعِلمٍ ولا يصِلُ منها إلى فهم»[3].

والرأي الذي يكاد يُجمِع عليه أهلُ النظر في دلالة هذه الحروف هو «أنّ هذه

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/ ٣١.

(٢) م.ن: ١/ ٣٠.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٣٠.

الحروف ذُكِرَتْ لتدلّ على أنّ القرآن مؤلَّفٌ من الحروف التي هي: أ، ب، ت، ث... فجاء بعضها مقطّعاً، وجاء تَمامها مؤلَّفاً، ليدلّ القوم الذين نزل القرآنُ بلغتهم أنه بالحروف التي يعرفونها، فيكون ذلك تقريعاً لهم، ودلالةً على عجزهم أن يأتوا بمثله، بعد أن يعلموا أنه مُنزَّل بالحروف التي يعرفونها ويبنون كلامهم منها»[1].

ولهذا فإنّ جميع السُّوَر التي افتُتِحَتْ بالحروف المقطّعة ذُكرَ فيها «الإنتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته[2]، وهذا معلوم بالإستقراء، وهو الواقع في تسعٍ وعشرينَ سورةً»[3]، ولهذا يقول تعالى:

﴿الٓمٓ﴾ثم يليه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢]

﴿الٓمٓ﴾ ثم يليه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣]

﴿الٓمٓصٓ﴾ ثم يليه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١ ـ ٢]

﴿الٓر﴾ثم يليه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم: ١]

وغير ذلك من الآيات الدّالة على صِحّة دلالة هذه الحروف على أنّ القرآن مُعجِز جاء من مألوف حروفهم. وهذا بِحَدِّ ذاته يُمكن حَمْلُهُ على جهة الدلالة الصوتية، على اعتبار أنّ أصوات هذه الحروف رغم افتقارها للدلالة الذاتية إلاّ أنها دلّت هنا

---

(١) م.ن: ٣٢/٣.

(٢) جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم. (البرهان في علوم القرآن: ١٧٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣٩/١.

على معنى بعينه، فالله سبحانه وتَعالَى يقول: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١] ويقول: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ١] أي: إنّه على الرغم من أنّ هذه الحروف ليست مُبينةً في ذاتها، إلاّ أنها عندما ائتلَفَت صارت قرآناً وكتاباً مبيناً ومُعجزَةً، فهذا عجزٌ عن شيءٍ هم يَملكونه. ومن هذه النكتة ذاتها، وهي ورود لفظ القرآن تارةً، وورود لفظ الكتاب تارةً أخرى بعد الحروف المقطّعة ندخل في صميم دلالتها الصوتية فنُشير إلى الوجوه الصوتية التالية:

١ ـ يَلي الحروف المقطّعة عادَةً لفظ (القرآن) وحده، أو لفظ (الكتاب) وحده، أو كلاهما معاً. ويجيء استعمال هذين اللّفظين بعد الحروف المقطّعة باعتبارهما اسْمَي علَمٍ لكتاب الله يدلاّن على خصوصيّتين من خصائصه المهمة وهما القراءة والكتابة، فاسم (القرآن) مُشتَقٌّ من القراءة، لأنه يُقرأ ويُتلَى آناء الليل وأطراف النهار، واسم (الكتاب) مأخوذ من الكتابة لأنه مكتوب بين الدفتين، فكلام الله مقروءٌ فهو ﴿قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ ومكتوب فهو ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]، وعندما تَعَهّدَ الله تعالى بحِفظِه ذَكَرَ هاتَين الصفَتَين فقال: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧].

و قد لوحِظَ أنّه إذا كانت الحروف المقطّعة تتكوّن من مقطعٍ واحدٍ، أو مقطعين أحدهما أو كلاهما مقطع متوسط مفتوح (ص م) فإنّ الذي يليها هو لفظ (القرآن). فما ورد منها على مقطع واحد قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]، و ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وكلٌّ من (ص) الملفوظة: (صاد) و (ق) الملفوظة: (قاف) مقطعٌ واحدٌ لا غير، ومِمّا ورد منها على مقطعين قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه]، و ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس]، وكلٌّ من (طه) الملفوظة: (طا ـ ها)، و(يس) الملفوظة: (يا ـ سين) مكوّنة من مقطعين: هما في (طه)

مَقطَعان مُتَوسِّطان مفتوحان، وفي (يس) أوّلهما: متوسط مفتوح (يا)، والثاني: طويل مغلَق بصامت (ص م ص) (سين).

ولكن إذا كان المقطعان المفتَتَح بهما كلاهما من النوع الطويل المغلَق بصامت، كما في (حم) الملفوظة: [(حاء – ميم) = (ص م ص ــ ص م ص)]، وهو ما يتطلَّب جهداً أكبر أثناء النطق، فإنّ الذي يَليها هو لفظ (كتاب) لا لفظ (القرآن)، كما في أوائل سُوَر الحواميم التالية:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر]

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت]

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف]

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان]

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية]

ويُستَثنى منها سورة الشورى التي افتُتِحَت بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى] فهي تختلف عن أخواتها في أمرين: أحدهما: ورود آية (عسق) بعد الآية الأولى (حم). والثاني: عدم ورود لفظ (القرآن) فيها مباشرةً بعد هذه الحروف المقطّعة، وإنما ورد في الآية السابعة منها في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

أمّا عند مجيء (القرآن) و (الكتاب) معاً بعد فواتح السُّوَر كما في سورتَي (النمل): ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، و(الحجر): ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ حيث وَلِيَ ﴿طسٓ﴾ قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ

مُّبِينٍ ﴾ ، وولِيَ ﴿الٓر﴾ قولُه : ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾. فإنّ الملاحَظ فيها أيضاً أن يتَقدَّم لفظ (القرآن) عندما تكون الحروف المقطّعة قليلةً، و يتَقدَّم لفظ (الكتاب) عندما تكون الحروف المقطّعة كثيرة.

و ربما العِلّة في جميع ذلك أنّ القراءةَ أسهل بكثير من الكتابة، فهي متيسِّرة لجميع الناس، والكتابة ليست كذلك، كما أنّ الكتابةَ يُبذَلُ فيها جُهدٌ أكبر من القراءة لاحتياجها إلى أدواتٍ من قلم و دواةٍ وقرطاس، والقراءة ليست كذلك، ولهذا فإنّ قِلّةَ الحروف المقطّعة، وما ينتج عنها من قلّة مقاطعها الصوتية، وسهولة ذلك على النطق والقراءة ناسَبه ورود لفظ (القرآن).

أمّا كثرة الحروف المقطّعة، وما ينتج عنها من كثرة المقاطع الصوتية، فإنها أثقل نطقاً، لذا تلاها لفظ (الكتاب)، لِتَناسُبِ الجهد المبذول في الكتابة مع الجهد المبذول في نطق المقاطع الكثيرة في الحروف المقطّعة.

٢ ـ سِرُّ تركيب﴿الٓمٓ﴾ ودلالة كلٍّ صوت من أصواتها الثلاثة، فإنّ «الألف إذا بُدِئَ بها أوّلاً كانت همزةً، وهي أوّل المخارج من أقصَى الصدر، واللاّم من وسط مخارج الحروف، وهي أشدّ الحروف اعتماداً على اللِّسان، والميم آخِر الحروف ومخرجها من الفم. وهذه الثلاثة هي أصل مخارج الحروف؛ أعني: الحلق واللسان والشفتين، وترتّبت في التنزيل من البداية، إلى الوسط، إلى النهاية...

وكلّ سورة استُفتِحَت بهذه الأحرف فهي مشتملة على مبدأ الخلق ونهايته وتوسّطه، مشتملة على خلق العالم وغايته، وعلى التّوسُّط بين البداية من الشرائع والأوامر. فتأمّلْ ذلك في سورة البقرة، وآل عمران، وتنزيل السجدة، وسورة الروم»[1].

(١) البرهان في علوم القرآن: ١٦٨.

٣ ـ السُّوَر المفتَتَحة بالحروف المفردة، وهي: (ق) و (ص) و (ن) تشتمل الكثيرُ من كلماتها على الحرف المبدوء بها. فالسورة المفتَتَحة بقوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] «مبنيّةٌ على الكلمات القافيّة؛ من ذِكر القرآن، ومن ذِكر الخلق، وتكرار القول ومراجعته مِراراً، والقرب من ابن آدم، وتَلقّي الملكَين، وقول العَتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق، والقرين، والإلقاء في جهنّم...

وسِرٌّ آخَر وهو أنّ كلَّ معاني السورة مناسب لِما في حرف القاف من الشِّدّة والجهر والقلقلة والانفتاح»[١].

أما سورة (ص) فإنّ الصوت الصفيريّ الذي افتُتِحَت به فسببه الخصومات المتعدّدة التي اشتملت عليها السورة وأوّلها «خصومة الكفّار مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصْمَين عند داود، ثم تَخاصُم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم، وهو الدّرجات، والكفّارات، ثم تَخاصُم إبليس واعتراضه على ربِّه بالسجود، ثم اختصامه ثانياً في شأن بنِيه وحَلِفه لَيُغوينّهم أجمعين إلاّ أهل الإخلاص منهم»[٢].

وكذلك الأمر في سورة: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ «فإنّ فواصلَها كلَّها على هذا الوزن، مع ما تضمّنَت من الألفاظ النونيّة»[٣].

وقد أفاد بعض المعاصرين من ذلك فعَدَّ هذه الحروف وقال: «وقد عدَدتُ القافات التي وردت في هذه السورة (ق) فوجدتُها (٥٧) مع أنّ آياتها (٤٥). وفي سورة (ن) قد

---

(١) م.ن: ١٦٩.

(٢) م.ن: ١٧٠.

(٣) م.ن: ١٧٠.

تكرّرَ هذا الحرف فيها (١٢٤) مرّةً، وآياتها (٥٢)، وجميع فواصل هذه السورة تنتهي بهذا الحرف وهو (ن) إلاّ عشر آيات تنتهي بالحرف (ميم)، وهذان الحرفان متقاربان موسيقيّاً، إذ هما حرف الغنَّة التي تخرج من الخيشوم، وقد ارتضَى هذا الرأي من المستشرقين (نولدكه)، و (رودويل) في مقدمة ترجمته للقرآن»[1].

إنّ هذه الملاحظات الصوتية وغيرها مِمّا أهملنا ذكرها تدلّ، بشكل لا يقبل الشك أو الترديد، على أهمية الجانب الصوتي في القرآن الكريم بِبُعدَيه الإعجازي والدلالي، وتدلّ كذلك على الدور الكبير الذي اضطلع به علماء الاسلام في رصد الأبعاد الصوتية المختلفة لكتاب الله.

٣. ١. ٤ ـ ضياء الدين ابن الأثير

لعلّ من أكثر الباحثين الذين عناهم إعجاز القرآن من الناحية الصوتية هو ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ) الذي عَكَفَ على كتب المتقدمين من أصحاب البيان والإعجاز دراسةً وتَمحيصاً، قبل تأليف كتابه: (المثل السائر) فانتهى إلى تحديد مقياس (الذّوق) أداةً للحُكم الجمالي على ألفاظ اللُّغة.

فالحسَن من الألفاظ هو ما استَحسَنه الذَّوق السليم، يقول: «واعلم أيها الناظر في كتابي أنّ مَدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم»[2].

وقد ثبت عنده أنّ «الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيّن وإنما كان ظاهراً بَيّناً لأنه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حُسنِه، وحُسنُه مُدرَك

---

(١) الفاصلة في القرآن: ٢٠١.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٥/١.

بالسّمع، والذي يُدرك بالسمع إنما هو اللّفظ لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف، فما استلذَّه السّمع منه فهو الحسَن»[١].

وفي محاولة منه لإثبات نظريته هذه يلجأ إلى قياس حاسة السّمع التي تلتقط الأصوات ومقارنتها بالحواس الأخرى فيقول: «ومن له أدنى بصيرة يعلم أنّ للألفاظ في الأذن نغمةً لذيذةً كنغمة أوتار، وصوتاً مُنكَراً كصوت حمار، وأنّ لها في الفم أيضاً حلاوة كَحَلاوة العَسَل، ومَرارة كمَرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرَى النّغمات والطّعوم»[٢].

وممّا اهتدى إليه ابن الأثير في تصويره لكيفية تلقّي الألفاظ من قِبَل المتلقّي قوله: «وبعد هذا فاعلم أنّ الألفاظ تجري من السّمع مَجرَى الأشخاص من البصَر، فالألفاظ الجزلة تُتَخيّل في السّمع كأشخاص عليها مَهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تُتَخيّل كأشخاص ذي دَماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سِلاحهم وتأهَّبوا للطِّراد وترَى ألفاظ البحتري كأنها نساءٌ حِسان عليهم غلائل مُصبَّغات وقد تَحَلّين بأصناف الحلّي، وإذا أنعمتَ نظرك فيما ذكرتُه ههنا وجدتَني قد دلَلْتُك على الطريق وضربتُ لك أمثالاً مناسبة»[٣].

ومثله الأعلَى في كلِّ ذلك هو أسلوب القرآن الكريم لأنّنا «إذا نظرنا إلى كتاب الله تعالى الذي هو أفصح الكلام وجدناه سَهلاً سَلساً، وما تضمّنه من الكلمات الغريبة يسيرٌ جداً، هذا وقد أُنزل في زمن العرب العرباء، وألفاظه كلّها من أسهل الألفاظ

---

(١) م.ن: ١/ ٨٢.

(٢) م.ن: ١/ ١٥٦.

(٣) م.ن: ١/ ١٨١.

وأقربها استعمالاً وكفَى به قدوة في هذا الباب»[١].

٣. ١. ٤. ١ ـ معايير الإعجاز الصوتي في القرآن

وبعد أن حَدّد ابن الأثير روحَ الجمال اللُّغوي وجوهره الذي حصره في (إمتاع الصوت للأذن) عَمَد إلى القرآن مُتلمّساً الشواهد التي تُؤيد مذهبه، بالإستناد إلى عدد من المعايير (جمالية المفردة القرآنية عند ضياء الدين بن الأثير: ٧) منها:

٣. ١. ٤. ١. ١ ـ عدد أحرف الكلمة

نفَى أن يكون من أوصاف الكلمة أن تكون مؤلّفة من أقلّ الأوزان تركيباً كما ذهب ابن سنان الخفاجي «والدليل على ذلك أنّه قد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طِوال وهي مع ذلك حَسَنة كقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] فإنّ هذه اللّفظة تسعة أحرف، وكقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] فإنّ هذه اللّفظة عشرة أحرف، وكلتاهما حَسَنة رائقة، ولو كان الطُّول مِمّا يوجب قُبحاً لَقَبُحَتْ هاتان اللّفظتان»[٢].

وتأييداً لما ذهب إليه ابن الأثير في شأن جمال هاتين الكلمتين قال مصطفى صادق الرافعي: «وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروفٍ ومقاطع مِمّا يكون مُستَثقَلاً بطبيعة وضْعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التي أومَأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجاً سِرِّياً، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوةً وأعذبها منطقاً، وأخفّها تركيباً، إذ تراه قد هَيّأ لها أسباباً عجيبةً من تكرار الحروف، وتنوّع الحركات، فلم يُجرِها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها، كقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] فهي

(١) م.ن: ١/١٦٢.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٩١.

كلمة واحدة من عشرة أحرف، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف، ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات، إذ تُنطق على أربعة مقاطع، وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع، وقد تكرّرت فيها الياء والكاف، وتوسّط بين الكافين هذا المدُّ الذي هو سِرُّ الفصاحة في الكلمة كلّها»[١].

٣. ١. ٤. ١. ٢ ـ خفّة الحركة وثقلها

ويَقصد بها دور الحركات القصيرة في سهولة نطق الكلمات أو صعوبته، فيقول: «ومِن أوصاف الكلمة أن تكون مبنيّةً من حركات خفيفة ليخفّ النطق بها، وهذا الوصف يَترتّب على ما قبله من تأليف الكلمة، ولهذا إذا تَوالَى حركتان خفيفَتان في كلمة واحدة لم تُستَثقَل، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة فإنه إذا توالَى منها حركتان في كلمة واحدة استُثقِلَت، ومن أجل ذلك استُثقِلَتْ الضّمة على الواو، والكسرة على الياء، لأنّ الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس الياء، فتكون عند ذلك كأنّها حركتان ثقيلَتان»[٢]. ثم يأتي إلى القرآن فيذكر ما شَذّ من ذلك فيقول: «واعلم أنه قد توالت حركة الضّم في بعض الألفاظ ولم يُحدِث فيها كراهةً ولا ثقلاً كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] فحركة الضَّمِّ في هذه الألفاظ متوالية وليس بها من ثِقَلٍ ولا كراهة»[٣].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٦٢.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٩٣.

(٣) م.ن: ١/١٩٤.

واعتماداً على مقياس الذوق، الذي صرّح به في أوّل كتابه، فقد عزف ابن الأثير عن أن يفسِّر علّة عدم الثقل أو الكراهة في هذه الأمثلة. فجاء الرافعي بعد قرون، وقدّم رأياً وجيهاً في تعليل ذلك بقوله: «من ذلك لفظة (النُّذُر) جمع نذير، فإن الضّمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جَسْأة هذا الحرف ونُبُوِّه في اللِّسان، وخاصةً إذا جاء فاصلةً للكلام. فكلّ ذلك مِمّا يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في القرآن على العكس، وانتفَى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾.

فتأملْ هذا التركيب، وأنعِمْ ثم أنعِم على ما تأمله، وتذوّق مواقع الحروف، وأجْرِ حركاتِها في حِسِّ السَّمع، وتأمّل مواضع القلقلة في دال (لَقَد)، وفي الطاء من (بَطْشَتنا)، وهذه الفَتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تَماروا)، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفّة التتابع في الفتحات إذا هي جرَت على اللسان؛ ليكون ثِقل الضَّمة عليه مُستخَفّاً بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم ردِّد نظرَك في الراء من (تَمارَوا) فإنها ما جاءت إلا مساندةً لراء (النُّذُر) حتى إذا انتهَى اللِّسان إلى هذه انتهَى إليها من مثلها، فلا تَجفُ عليه ولا تغلُظ ولا تَنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنَّة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها، وللغنَّة الأخرى التي سبقت الذال في (النُّذُر)»[1].

٣. ١. ٤. ١. ٣ ـ الجِدّة وعدم الابتذال

جعل ابن الأثير من أسباب جمال المفردة «أن لا يكون طول الاستعمال قد ابتذلها، فمَجّها الذوق، وكرهَها السمع. ويلوِّح أنّ قانون التغيّر يُصيب كلَّ شَيء؛

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٦١.

فما كان جديداً في زمن يغدو سَفسافاً حين تلوكُه الألسنة، ويغدو مُلكاً للناس جميعاً، ومن هنا يَجنح البلغاء إلى اصطناع كلِّ وسيلة لمباغتة المتلَقِّي بالجديد. وكأنّ المبدأ القائل انّ (لكلّ جديد روعة) ينسحب على اللغة نفسها»[1].

ويضرب لذلك مثلاً من الشعر في استعمال لفظ (آجُرّ)، واستعمال القرآن لهذا المعنى دون لفظه فيقول: «فمن ذلك قول النابغة الذبياني في قصيدته التي أوّلها:

مِن آلِ ميّةَ رائحٌ أو مغتدي ....

أو دُمية في مَرمَرٍ مرفوعة بُنيت بآجُرٍّ يُشادُ بِقرمدِ

لفظة (آجرّ) مبتذَلة جداً، وإن شئت أن تعلم شيئاً من سَرِّ الفصاحة التي تضمّنها القرآن فانظر إلى هذا الموضع، فإنه لما جِيء فيه بذكر (الآجرّ) لم يُذكَر بلفظه، ولا بلفظ القرمد أيضا، ولا بلفظ الطّوب الذي هو لغة أهل مصر، فإنّ هذه أسماء مبتذلة، لكن ذُكر في القرآن على وجهٍ آخَر، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨] فعبّر عن الآجرّ بالوقود على الطين»[2].

وجاء الرافعي فقدّم تفسيراً رائعاً لعزوف القرآن عن استعمال هذه اللفظة أو ما يرادفها مِمّا استعمله العربُ في كلامهم وضمّنوه آدابَهم، واختياره لهذا التعبير دون غيره. فقد تبين له «في الاستخدام القرآني لهذه الصورة وجوهاً من المعاني والأغراض مِمّالم يُلِمّ به ضياء الدين، ولا اقترب منه»[3].

يقول الرافعي عن لفظة (آجرّ) بأنها «ليس فيها من خفّة التركيب إلا الهمزة،

---

(١) جمالية المفردة القرآنية عند ضياء الدين بن الأثير: ٨.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٣) جمالية المفردة القرآنية عند ضياء الدين بن الأثير: ٩.

وسائرها نافِر متقَلقِل لا يَصلح مع هذا المدّ في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن، فلمّا احتاج إليها لَفَظَها ولَفَظَ مرادفَها وهو (القرْمد) وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، ثم أخرج معناها بألْطَف عبارة وأرقّها وأعذبها، وساقها في بيان مكشوف يفضح الصُّبح، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾.

فانظرْ، هل تَجد في سِرِّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرَع وأبدَع من هذا؟ وأيّ عربيّ فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يَملِّكه حِسُّه، ولا يسوِّغه حقيقة نفسه، ولا يُجَنُّ به جنوناً، ولا يقول آمنتُ بالله ربّاً، وبِمحمدٍ نبيّاً، وبالقرآن معجزة؟ و تأمّل كيف عَبّر عن (الآجُرّ) بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، وانظر موضع هذه القلقَلَة التي هي في الدال من قوله: (فأوقدْ) وما يتلوها من رقّةِ اللاّم، فإنها في أثناء التلاوة مِمّا لا يُطاق أن يُعبَّر عن حُسنِه.

وكأنما تنتزع النفس انتزاعاً. وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب، ولكن ما ترمي إليه إعجاز آخر؛ فإنها تحقر شأن فرعون، وتصِف ضلالَه، وتُسَفِّه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب أسباب السّموات فيطّلع إلى إله موسَى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سلّماً، إلاّ شيئاً يصنعه هامان من الطين»[1].

٣. ١. ٤. ١. ٤ ـ المناسبة الصوتية في اختيار لفظ دون آخَر

وهو أن تكون هناك لفظتان مترادفتان، على وزن واحد، وكلتاهما حَسَنة في الاستعمال، إلاّ أنّ إحداهما قد تصلح لموضع دون أختها من جهة السّبك فَيُفَرَّق

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٦٥ ـ ١٦٦.

بينهما لهذا السبب. وهذا أمر لا يُدركه، كما يقول ابن الأثير، إلا من دَقّ فهمُه، وجَلّ نظرُه. ويمثل له بقوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقولـه تعـالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمـران: ٣٥] «فاسـتعمل (الجوف) في الأولى و(البطن) في الثانية، ولم يستعمل (الجوف) موضع (البطن) ولا (البطن) موضع (الجوف). واللّفظتان سَواءٌ في الدلالة، وهما ثلاثيّتان في عدد واحد، ووزنهما واحد أيضا، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل؟»[(١)].

و يمكن أن يكون السبب في هذا الاختيار عائداً إلى الدلالة الإيحائية لكلّ من هاتين اللفظتين، وذلك لأنّ «مادّةَ كلٍّ منهما تختلف بعض الاختلاف عن مادّةِ اللّفظة الأخرى. فمادّة (الجوف) توحي بالضمور والخلوّ والانحسار والعُمق، وخاصة بِما يرسمه (الجيم) وبعده (الواو) الساكن ثم (الفاء) من دلالة إيحائية، على عكس مادّة (البطن) التي توحي بالنتوء والبروز والانكشاف، وهي أنسَب للحَمل من مادّة الجوف؛ فالجنين المكنَّى عنه بقوله تعالى على لسان مريم عليها السلام: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ يناسبه كثيراً النتوء والبروز والانكشاف، مثلما هي حال (الحامل)، ويناسبه، تبعاً لذلك، لفظ (بطن) دون (جوف)»[(٢)].

ويدخل في هذا الباب استعمال ألفاظ وردت في القرآن مجموعةً لا غير، وعُدل عن استعمال مفردها أو ما يرادفها، ويعزو ابن الأثير ذلك إلى الذوق السليم واصفاً إياه بقوله: «وهذا موضع عجيب لا يُعلَم كُنْهُ سِرِّه، فمن ذلك لفظة (اللُّبّ) الذي هو (العقل) لا لفظة اللُّبّ الذي تحت القشر، فإنها لا تَحسُن في الاستعمال إلا مجموعةً،

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٥٠.

(٢) جمالية المفردة القرآنية عند ضياء الدين بن الأثير: ١٠.

وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وهي مجموعة، ولم ترِد مفردةً كقوله تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١] وأشباه ذلك، وهذه اللّفظة الثلاثية خفيفة على النطق، ومخارجها بعيدة وليست بِمُستَثقَلَة ولا مَكروهة»[١].

ويرصد الرافعي هذه الملاحظة من ابن الأثير فيعرِّج عليها ببيانه البديع مُحلِّلاً ومُفَسِّراً دون الاكتفاء بالتعليل الذي قدّمه سَلَفه مِن ردِّه إلى الذوق السليم فحسب، فيقول: «ومِمّا لا يَسَعه طوق الإنسان في نظم الكلام البليغ، ثم مِمّا يدلّ على أن نظم القرآن مادّة فوق الصنعة ومن وراء الفكر، وكأنها صُبَّت على الجملة صَبّاً أنك ترى بعض الألفاظ لم يأتِ فيه إلا مجموعاً، ولم يُستعمَل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها: كلفظة (اللُّبّ) فإنها لم ترد إلاّ مجموعةً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] ونحوهما، ولم تجئ فيه مفردةً، بل جاء في مكانها (القلب)؛ ذلك لأنّ لفظ (الباء) شديد مجتمع، ولا يُفضي إلى هذه الشِّدّة إلاّ من (اللاّم) الشديدة المستَرخِية، فلمّا لم يكن ثَمَّ فصل بين الحرفين يتهيّأ معه هذا الانتقال على نسبةٍ بين الرخاوة والشدة، تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها؛ نصباً أو رفعاً أو جرّاً، فأسقَطَها من نظمه بتّة، على سعة ما بين أوله وآخره، ولو حَسُنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حَسَنَةً رائعة، وهذا على أن فيه لفظة (الجبّ)، وهي في وزنها ونطقها، لولا حُسْن الائتلاف بين (الجيم) و (الباء) من هذه الشدة في الجيم المضمومة»[٢].

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٦٤.

ويورد ابن الأثير أمثلة أخرى فيقول: «وإذا تأمَّلتَ القرآن الكريم ودقّقت النظر في رموزه وأسراره وجدتَ مثل هذه اللفظة قد رُوعيَ فيها الجمع دون الإفراد كلفظة (كوب) فإنها وردت في القرآن مجموعةً ولم تَرِد مفردةً، وهي وإنْ لم تكن مستَقبَحةً في حال إفرادها فإنّ الجمع فيها أحسَن»[١].

ثم إنه يورد عكس ذلك من استعمال القرآن للفظٍ مفردٍ، والعزوف عن استعمال جمعه فيقول: «وفي ضدِّ ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفرَداً ولم يَرِد مجموعاً كلفظة (الأرض)، فإنها لم تَرِد في القرآن إلاّ مفردةً، فإذا ذُكرَت (السماء) مجموعةً جِيء بها مفردةً معها في كلِّ موضع من القرآن، ولَمّا أُريدَ أن يُؤتَى بها مجموعةً قيل: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]»[٢]. وقد علّل الرافعي سبب عدم قوله: (وسبع أرضين) «لهذه الجسْأة التي تدخل اللّفظ ويَختلّ بها النظم اختلالاً»[٣].

ونظير ذلك «مِمّا ورد من الألفاظ مفرداً فكان أحسن مِمّا يرد مجموعاً لفظة (البقعة)، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [القصص: ٣٠]، و الأحسن استعمالها مفردةً لا مجموعةً وإن استُعمِلَت مجموعةً فالأولى أن تكون مضافةً كقولنا: بقاع الأرض أو ما جرَى مَجراها»[٤].

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٧٨/١.

(٢) م.ن: ٢٧٩.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٦٤.

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٧٩/١.

٣. ١. ٤. ١. ٥ ـ التقديم والتأخير بسبب صفات الحروف

ويستشهد له بالكلمات الخمسة المعطوفة على بعضها البعض في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. وفيها يقول: «وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غُصنا منه في بحرٍ عميقٍ لا قرارَ له، من ذلك هذه الآية المشار إليها فإنها قد تَضمّنت خمسةَ ألفاظٍ هي: (الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدّم)، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي: الطوفان والجراد والدّم، فلمّا وردت هذه الألفاظ الخمسة بِجُملَتها قُدّمَ منها لفظة الطوفان والجراد، وأُخِّرتْ لفظة الدَّم آخراً، وجُعلت لفظةُ القُمّل والضفادع في الوسط، ليطرقَ السمعَ أولاً الحسَنُ من الألفاظ الخمسة وينتهي إليه آخراً، ثم إنّ لفظة الدم أحسَن من لفظَتي الطوفان والجراد، وأخَفّ في الاستعمال، ومن أجل ذلك جِيءَ بِها آخراً. ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية»[1].

ويأتي الرافعي فيضع النقاط على الحروف مفسِّراً سِرَّ ذلك التقديم والتأخير فيقول: «وما يَشذُّ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز، حتى أنك لو تدبّرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهي بالطبع مظنَّة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز، فإنك ترَى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وَجِهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروفه ومكانه من النطق في الجملة، أو لنكتةٍ أخرَى من نُكَت المعاني التي وردت فيها الآية، بحيث يُوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء.

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٥٤ ـ ١٥٥.

تأمّلْ قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ فإنها خمسة أسماء، أخفُّها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم)، وأثقلُها (القمَّل و الضفادع)، فقدَّم (الطوفان) لمكان المَدّيْن فيها، حتى يأنسَ اللسان بِخِفّتها، ثم (الجراد) وفيها كذلك مَدٌّ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفِّهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغُنَّة فيه، ثم جِيء بلفظة (الدّم) آخِراً، وهي أخفّ الخمسة وأقلُّها حروفاً؛ ليُسرِعَ اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم، ويتمُّ بهذا الإعجاز في التركيب»[1].

٣. ١. ٤. ١. ٦ ـ ملائمة جرس اللفظ للسياق

كان ابن الأثير قد عطف الأنظار على أمرٍ في غاية الخطورة، وذلك أن يكون جَرْسُ اللفظة خالياً من الحسْن شديد الثقل خارج السياق، ولكنه يتحوّل إلى لفظ في غاية العذوبة عندما يَنضَمّ إلى السياق الذي يلائمه. ومثاله لفظة (ضِيزَى) فقد ردّ علَى من أنكر حُسنَ هذه اللفظة بقوله: «فإنها في موضعها لا يَسُدّ غيرها مسدّها، ألا ترى أنّ السورة كلّها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف (الياء) فقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ١ ـ ٢] وكذلك إلى آخر السورة. فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢] فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه، وغيرها لا يَسُدُّ مَسَدَّها في مكانها، وإذا نزلنا معك أيها المعاند! على ما تريد قلنا: إنّ غير هذه اللفظة أحسَن منها، ولكنها في هذا الموضع

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٦٦.

لا تَرد ملائمةً لأخواتها ولا مناسبة، لأنها تكون خارجة عن حرف السورة، وسَأُبيِّن ذلك فأقول: إذا جئنا بلفظةٍ في معنى هذه اللفظة قلنا: قسمة (جائرة) أو (ظالمة) ولا شك أنّ (جائرة) أو (ظالمة) أحسَن من (ضيزى) إلاّ أنا إذا نظَمنا الكلام قلنا: (ألَكُم الذّكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ظالمة) لم يكن النظم كالنظم الأول، وصار الكلام كالشيء المعوزِ الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على مَن له ذوق ومعرفة بنظم الكلام»[1].

ويُعلِّل الرافعي مجيء هذه اللفظة الغريبة تعليلاً جميلاً، ويُعدّد لها خمس دلالاتٍ صوتية، فيقول: إنها وردت «في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بناتٍ لله مع أولادهم البنات، فقال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾، فكانت غرابة اللفظ أشدّ الأشياء ملاءمةً لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلّها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها، الإنكارَ في الأولى والتهكُّمَ في الأُخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكّنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكِّم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدّين فيها إلى الأسفل والأعلى. وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللّفظية...

وإن تعجبْ فاعجبْ لنظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها، إذ هي مقطعان: أحدهما مدٌّ ثقيل، والآخر مدٌّ خفيف، وقد جاءت عَقِب غُنَّتين في (إذن) و (قسمةٌ). وإحداهما خفيفة حادّة، والأخرى ثقيلة متَفَشِّية، فكأنّها بذلك ليست إلا مجاوَرة صوتية لتقطيع موسيقي. وهذا معنى رابع للثلاثة التي عددناها آنفاً. أما خامس

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٦٢.

هذه المعاني، فهو أنّ الكلمة التي جمعت المعاني الأربعة على غرابتها، إنما هي أربعة أحرف أيضاً»[1].

إذا كانت الملاحظة التي يمكن أن يُؤاخَذ عليها ابن الأثير في نظرته إلى إعجاز القرآن الصوتي هي عدم تدعيم ما ذهب إليه في أغلب الأحيان بالأدلة القاطعة، وذلك اعتماداً منه على مبدأ الذوق السّليم الذي رفَعَه شعاراً له في كتابه (المثل السائر)، فإنّ ما يُحسَب له هو وضْعُه تلك المعايير الصوتية التي لم يَكد يُشَر إليها من قِبَلِ سابقيه، وإيراده الأمثلة العديدة من كتاب الله، بحيث لا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتابه من آية من آياته، وكذلك فَتْحُه الطريق لمن جاء بعده للنظر فيما أورده من نماذج دلالية صوتية، كما فعل الرافعي الذي يُعَدّ من أكثر المعاصرين اهتماماً بإعجاز القرآن.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٦٢ ـ ١٦٣.

المبحث الثاني

٣. ٢ ـ الإعجاز الصوتي عند المعاصرين

تناول الباحثون المعاصرون الإعجاز الصوتي للقرآن ضمن إطار الإعجاز البياني، شأنهم في ذلك شأن الباحثين القدامى، وعلى الرغم من الأبحاث الصوتية الدقيقة التي صدرت عن بعضهم في ثنايا دراساتهم لإعجاز القرآن البياني، إلاّ أنها في الغالب تبقَى حَبيسة الذوق الفنيّ السليم الذي أسّس له ابن الأثير، وبذلك لا يمكن أن تَرقَى في مُجمَلها إلى مستوى الدراسة العلمية الشاملة.

أما الدراسات المحكَمة التي مَزَجَت بين الجانب البياني والجانب الفني فأبرزت ملامحَ من عنصرَي الصّوت والإيقاع في القرآن فتكاد تكون معدودة، ولعلّ أوفَى مَن كتب في هذا المجال مصطفى صادق الرافعي وسيد قطب.

٣. ٢. ١ ـ الرافعي

ذهب الرافعي إلى أنّ جهات الإعجاز كلّها إنما هي صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه. ولما وَجَدَ أنّ سِرَّ الإعجاز منعقد في نظمه فقد حَصَرَ جهات النظم في ثلاث: الحروف، والكلمات، والجمل[1].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٥٠.

٣. ٢. ١. ١ ـ جهات الإعجاز في الصوت القرآني

٣. ٢. ١. ١. ١ ـ الحروف وأصواتها

ينطلق الرافعي في دراسة النظم من أصغر وحدة في الكلام، وهي الصوت الذي يُحدِثه الحرف، ويجعل هذه الوحدة أساساً لحدوث النغم، فأصوات الحروف «إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسَلة في جملتها كيف اتّفَقَت، فلابدّ لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حتى يُمازج بعضُها بعضاً، ويتألف منها شيء مع شيء، فتَتَداخل خواصُّها، وتجتمع صفاتُها، ويكون منها اللَّحن الموسيقيّ، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يُثير بعضُه بعضاً على نِسَبٍ معلومةٍ ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده»[١].

ويمزج الرافعي بين الدلالة الصوتية للحرف القرآني وبين دلالته النفسية البعيدة، باعتبار أنّ مادّة الصوت تُمثِّل مظهرَ الانفعال النفسي، فالأصوات التي تأتلف في الجملة مقصودة لذاتها، لأنه «إنما يكون الكلام سامياً إذا جاءت مادّة صوته مُكيَّفةً بشكلٍ موسيقيّ دالّ»[٢]، وذلك على عكس طريقة العرب في تَرَسُّلهم وخَذمِهم[٣] في منطقهم كيفما اتَّفَقَ لهم.

ولكنهم (عرب الجاهلية) سرعان ما فطنوا إلى هذا البون الشاسع بين أساليبهم التي ألفوها من شعر ونثر، وبين الأسلوب الجديد الذي طلع عليهم فجأة، وذلك أنهم «لما قُرِئَ عليهم القرآن، رأَوا حروفَه في كلماته، وكلماتِه في جُمَلِهِ، ألحاناً لغويةً

---

(١) م.ن: ١٥١.

(٢) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية: ٢٦٦.

(٣) خذم في قراءته: إذا أسرع.

رائعة ؛ كأنها لائتلافها وتناسبها قطعةٌ واحدةٌ، قراءتُها هي توقيعها، فلم يَفُتْهُم هذا المعنَى، وأنه أمر لا قِبَلَ لهم به... وحَسبُك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقيّ في القرآن، وأنه مِمّا لا يتعلّق به أحد، ولا ينفق على ذلك الوجه الذي فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير، وغير ذلك»[١].

ويُلمِّح الرافعي قبل أن يُنهي بحثه هذا إلى أهمية الحركات أو الأصوات القصيرة الصرفية والنحوية في تشكيل صور الحروف وصفاتها باعتبارها تمثل مظاهر الكلمات[٢]، لذا تناول الحديث عنها في المبحث التالي.

٣. ٢. ١. ١. ٢ ـ الكلمات وحروفها

بعد أن أزاحَ الرافعي الستارَ عن الجانب الصوتي المعجز في القرآن انتقل إلى بناء الألفاظ التي تقوم على اجتماع الحروف بعضها إلى بعض. فدرس الكلمات من ثلاثة جوانب:

الجانب الأول: صوت النفس: دَرَسَ فيه دلالة الكلمة باعتبار حقيقتها الوضعية والتي يرى أنها «صوت النفس ؛ لأنها تلبس قطعةً من المعنى فتختصّ به على وجه المناسبة قد لحِظته النفس فيها من أصل الوضع حين فُصِّلت الكلمة على هذا التركيب»[٣]. وهو مبحث قديم سبقَت الإشارة إليه من قبل الخليل وسيبويه وابن جني

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٥٢.

(٢) م.ن: ١٥٥.

(٣) م.ن: ١٥٥.

وغيرهم، وقد عَرَضْنا له في الفصل الأول[١].

الجانب الثاني: صوت العقل: وقصد به الصوت المعنوي وما يشتمل عليه جملة الكلام من الوجوه البيانية التي يُداوَر بها المعنى.

الجانب الثالث: صوت الحسّ: وهو تفاوت الجمل في دقة التصوير «والابداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرّةً وموادَعَتها مرّةً، واستيلائه على مَحضها بما يورد عليها من وجوه البيان، أو يسوق إليها من طرائف المعاني»[٢].

وعندما يتحدّث عن الحركات القصيرة ودورها في إيفاء الألفاظ لمعانيها يقول الرافعي: «ولو تدبّرتَ ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرَى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة... حتى إنّ الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيّها كان، فلا تعذُب ولا تُساغ... فإذا هي استُعملت في القرآن رأيتَ لها شأناً عجيباً، ورأيتَ أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفَتْها بضروب من النّغَم الموسيقيّ حتى إذا خرجتْ فيه كانت أعذبَ شيءٍ وأرقّه»[٣].

ثم يستعرض لذات الأمثلة التي استشهد بها ابن الأثير معلّقاً، ومضيفاً إليها ما وَسِعَه من التعليل والتفسير مِمّا أوردنا قسماً منه في الصفحات السابقة.

٣. ٢. ١. ١. ٣ ـ الجمل وكلماتها

من الحروف تتشكّل الكلمات، ومن الكلمات تتكوّن الجمل التي هي مظهر

---

(١) يراجع مبحث: (١. ٢. ١. ٣. ١ ـ المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله)، و(١. ٢. ١. ٤. ٢ ـ دلالة الصيغة الصرفية) و(١. ٥. ١ ـ الدلالة الصوتية).

(٢) م.ن: ١٥٦.

(٣) م.ن: ١٦٠.

الكلام، وهذا الكلام لا يكون معجِزاً في رأي الرافعي إلاّ إذا بَعُدَ «وأمعن حتى يكون بدقائق تركيبه وطرق تصويره كأنما يفيض النفسَ على الحواسّ إفاضةً، ويترك هذا الإنسان من الإحساس به كأنه قلب كلُّه، ثم يبلغ من ذلك إلى أن يكون روح لغة كاملة وبيان أمة برمّتها... فذلك هو الكلام المعجز»[1].

ولقد تَهيَّأت للقرآن الكريم «من جهة تركيبه الذي انتظم أسبابُ الإعجاز من الصوت في الحرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمرُ مقدَّراً على تركيب الحواسّ النفسية في الإنسان تقديراً يُطابق وضعَها وقواها وتصرّفها»[2].

لقد أفاض علينا الرافعي بأسلوبه البديع في بيان تَصَوُّره للإعجاز الصوتي في القرآن من خلال إيمانه بنظمه المعجِز ابتداءً من الحرف فالحركة فالكلمة فالجملة، ولكنه لم يَزِدْ على الشواهد القرآنية التي أوردها ابن الأثير شيئاً كثيراً إلاّ ما كان من تعليله إيّاها التعليل المناسب وتوجيهها التوجيه السليم.

٣. ٢. ٢ ـ سيِّد قُطب

يُعتبر سيد قطب أكثر الباحثين المعاصرين اهتماماً بالجانب الصوتي والإيقاعي في القرآن الكريم، ويمكن ملاحظة ذلك في كتبه العديدة التي كان القرآن محورَها الأساسيّ، وكان للصّوت والإيقاع فيها جميعاً نصيبٌ وافٍ وسَهمٌ وافِر.

لقد شُغِفَ سيد قطب بالقرآن الكريم، لأنه وَجَدَ فيه «سِرّاً خاصّاً، يشعر به كلُّ

(١) م.ن: ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) م.ن: ١٦٨.

من يواجه نصوصَه ابتداءً، قبل أن يشعر أنّ هنالك شيئاً ما، وراء المعاني التي يُدركها العقل من التعبير، وأنّ هنالك عنصراً ما، يَنسكب في الحسِّ بِمجرَّد الاستماع لهذا القرآن. هذا العنصر يصعب تحديد مصدره:

- أهو في العبارة ذاتها؟
- أهو المعنى الكامن فيها؟
- أهو الصور والظلال التي تشعُّها؟
- أهو الإيقاع القرآني الخاصّ، المتميِّز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟
- أهي هذه كلُّها مجتمعة؟
- أم إنّها هي، وشيء غيرها غير محَدود؟

ذلك سِرٌّ مودَع في كلّ نَصٍّ قرآنيّ، يشعر به كلُّ من يُواجه نصوصَ هذا القرآن ابتداءً... ثمّ يأتي وراءَه الأسرار المدرَكة بالتّدبُّر والنظر والتفكير في بناء القرآن كلِّه»[1].

ولكنه بعد بحثه الطويل في تحليل البيان القرآني وأسرار إعجازه خَلصَ إلى الاحتمال الأخير، فَعَدّ خمسةَ عناصر أساسية للبيان القرآني المعجز تَستمد منها العبارةُ القرآنية بشكل خاصّ دلالتَها، وهذه العناصر الخمسة يدور جُلُّها حول مِحوريَ الصوت والإيقاع وهي:

١ـ مفردات الدلالات اللغوية للألفاظ.

٢ـ الدلالة المعنوية: الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نَسَق معيّن.

٣ـ الإيقاع الموسيقيّ: الناشئ من مجموعة إيقاعات الألفاظ، متناغماً بعضُها مع بعض.

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٣٩٩.

٤ـ الصور والظلال: التي تشعُّها الألفاظ متناسقةً في العبارة.

٥ـ الأسلوب: أو طريقة تناول الموضوع والسير فيه؛ أي: التنسيق الذي يسمح لكلِّ لفظٍ بأن يشعّ شُحنتَه من الصور ومن الإيقاع، والذي يُؤلف إيقاعاً متناسقاً بين الألفاظ، وظلالاً متناسقةً من ظلال الألفاظ(١).

وقد تناول السيد أغلب هذه العناصر في مؤلفاته العديدة، فمنها ما بَثَّه في تفسيره ذي المسحة العصرية: (في ظلال القرآن)، ومنها ما فصّل القول فيه كالإيقاع، والصور والظلال، وتناسق الألفاظ في كتابَيه الرائعين: (مشاهد القيامة في القرآن) و (التصوير الفني في القرآن) اللّذين خَصَّصَهما لبيان إعجاز القرآن الفني في جوانبه المختلفة.

٣. ٢. ٢. ١ ـ التناسق الصوتي في القرآن

قد رأى سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) أن يكشف عن أوجُه التناسق الفني التي تبلغ في التصوير القرآني ذُروَتَها. ومِمّا اهتدَى في الكشف عنه مِمّا تدخل فيه الدلالة الصوتية كعنصر أساسيّ:

٣. ٢. ٢. ١. ١ ـ تخيُّر الألفاظ

وهو التنسيق في تأليف العبارات بتخيُّر الألفاظ، ثمّ نظمها في نسق خاصّ من التأليف، وصولاً إلى أرقَى درجات الفصاحة. وقد اعترف سيد قطب بأنّ مَن سبقوه قد أكثروا من القول فيه، وبلَغوا غاية مداه(٢). إمّا ما جاء هو به فتحديده لقيمة اللفظ القرآني في كونه «يرسم الصورة، تارةً بجرسه الذي يُلقيه في الأذن، وتارةً بظلِّه الذي

---

(١) النقد الأدبي أصوله مناهجه: ٤١.

(٢) التصوير الفني في القرآن: ٧٢.

يُلقيه في الخيال، وتارةً بالجرس والظلّ معاً»[1]. ويضرب لكلٍّ من هذه الأنواع الثالثة أمثلةً وشواهد قرآنية ما سُبق إليها.

ومن الألفاظ التي ترسم صورة الموضوع وتدلّ عليه بجرسها الذي تُلقيه في الأذن: لفظة (لَيُبَطِّئنَّ) في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٢] فيقول إنك لتقرأ هذه اللفظة من هذه الآية «فترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلّها وفي جرس ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾خاصةً. وإنّ اللِّسان ليكاد يَتَعثّر، وهو يتخبَّط فيها، حتى يصل بِبُطءٍ إلى نهايتها»[2].

ومن الألفاظ التي ترسم صورة الموضوع بظلِّها الذي تُلقيه في الخيال لفظة (انسلخ) في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥] «فالظلّ الذي تُلقيه كلمة ﴿ٱنسَلَخَ﴾ يرسم صورةً عنيفةً للتملُّص من هذه الآيات، لأنّ الانسلاخ حركة حسِّية قوية»[3].

أما الألفاظ التي يشترك الجرس والظلّ معاً في رسم صورة الموضوع فمثالها لفظة (الدّعّ) في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣] فلفظة (الدّعّ) تعني «الدفع في الظهور بعنف، وهذا الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يُخرج صوتاً غير إرادي فيه عينٌ ساكنة هكذا: (أعْ) وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس (الدّعّ)»[4]. فيكون قد اشترك جرسه وظلُّه معاً في تصوير مدلوله.

---

(١) م.ن: ٧٦.
(٢) م.ن: ٧٦.
(٣) م.ن: ٧٩.
(٤) م.ن: ٧٩.

٣. ٢. ٢. ١. ٢ ـ الإيقاع الموسيقيّ

وهو الإيقاع الناشئ من تَخيُّر الألفاظ ونظمها في نَسَقٍ خاصٍّ، وهو الذي اقتصر حديث القدامى عنه بالاشارة إلى الإيقاع الظاهري «ولم يَرتَقِ إلى إدراك التعدُّد في الأساليب الموسيقية، وتناسق ذلك كلّه مع الجو الذي تُطلَق فيه هذه الموسيقى، ووظيفتها التي تؤدِّيها»[1].

وهذا الأمر أي ـ وظيفة الإيقاع الدلالية ـ هو مالم يتنبّه إليه الأقدمون، على الرغم من أنّ أهم ما يجب ملاحظته في هذا الجانب هو كون الإيقاع الموسيقيّ للقرآن «يتناسق مع الجوّ ويؤدّي وظيفةً أساسيّةً في البيان»[2].

وهذه الموسيقى القرآنية المتعدّدة الأنواع تُلقي بظلالِها على مُجمل النصِّ القرآنيّ، وهي «تابعة لِقِصَرِ الفواصل وطولها، كما هي تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة»[3]. وهذا كلّه تابع للغرض الدلاليّ الذي انتُدِبَت له الآية أو الآيات أو السورة.

ويتجلّى هذا الإيقاع في السياق القرآني حيثما تُلِيَ القرآن، ولكنه يزداد وضوحاً في السُّوَر القصار ذات الآيات القصيرة والفواصل القصيرة، وقد يتوارَى قليلاً أو كثيراً في السُّوَر الطوال. ونختار مِمّا استشهد به سيد قطب نَموذجاً واحداً فقط لأننا سنفصِّل القول في الإيقاع في الفصل الأخير. فلنقرأ معاً سورة النجم مثلاً، ثم نُسجِّل ملاحظاته عليها حَتَّى نتبيّن منهجه الذي اعتمده في التحليل الإيقاعي:

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٧٢.

(٢) م.ن: ٨٤.

(٣) التصوير الفني في القرآن: ٨٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾

يُعلِّق سيد قطب على هذه السورة بقوله: «والإيقاع الموسيقي هنا متوسط الزمن تَبَعاً لتوسّط الجملة الموسيقية في الطول، متّحد تبعاً لتوحّد الأسلوب الموسيقيّ، مسترسِل الرويّ كَجَوِّ الحديث الذي يُشبه التسلسل القصَصيّ. وهذا كلُّه ملحوظ. وفي بعض الفواصل يبدو ذلك جليّاً مثل: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾. فلو أنك قلتَ: (أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة)، لاختلّت القافية [الفاصلة]، ولَتأثّرَ الإيقاع. وكذلك في قوله: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ فلو قلت: (ألَكُم الذكرُ وله الأنثى؟ تلك قسمةٌ ضيزى)، لاختلَّ الإيقاع المستقيم بكلمة (إذن). ولا يعني هذا أنّ كلمة ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ وكلمة ﴿إِذًا﴾ زائدتان لمجرّد القافية [الفاصلة] أو الوزن، فهما ضروريّتان في السياق لنُكَتٍ معنويةٍ خاصّة»[1].

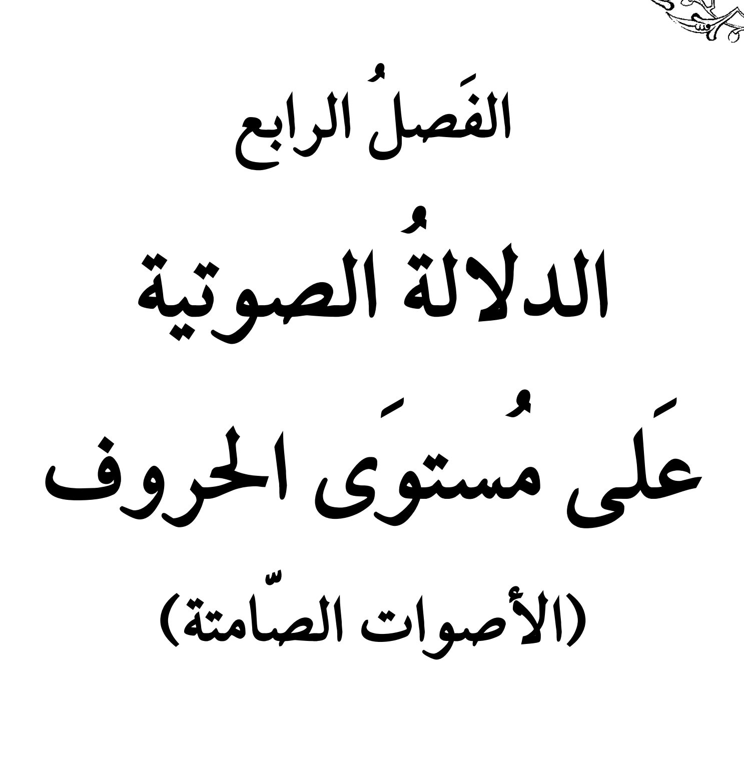
فالإيقاع القرآني لا يقوم على حساب المعنى، كما هو شأن الشعر حيث يستقيم الوزن وتقوم القافية في أغلب الأحيان على حساب المعنى، فالوزن والقافية كثيراً ما

---

(١) م.ن: ٨٦.

يَسُوقان الشاعر، وهو ينظم قصيدته، إلى معانيه سوقاً، قد لا يقصدها أو إذا قصَدَها فقد لا يرتَضيها. أما في القرآن فإنّ الإيقاع والفاصلة يتعانقان سويّة في رسم الصورة الفنية من جهة، وبيان الجانب الدلالي من جهة ثانية، من دون أن ينقص من هذا شيء أو يزيد على ذلك شيء.

من هذا التقسيم لمظاهر التنسيق الصوتي في القرآن والمتمثل في عنصري اللفظ والإيقاع ننطلق إلى مباحث الدلالة الصوتية، حيث ستتمّ دراسة اللّفظ، وما ينضوي تحته من فونيمات صوتية، في الفصول الثلاثة التالية، وقد خُصِّصَ الفصل الأخير لدراسة الإيقاع.



الفَصلُ الرابع

الدلالةُ الصوتية عَلى مُستوَى الحروف

(الأصوات الصّامتة)

- المبحث الأوّل: تناوب الصّوت في اللّفظ القرآني
- المبحث الثاني: ذكر الصوت وحذفه في اللفظ القرآني
- المبحث الثالث: دلالة توالي بعض الأصوات في اللفظ القرآني
- المبحث الرابع: دلالة توالي بعض الأصوات في التركيب القرآني

الفصل الرابع
الدّلالةُ الصّوتية عَلى مُستوَى الحروف
(الأصوات الصّامتة)

تمهيد

انتهينا في الفصل السابق إلى أنّ القرآن الكريم معجِزٌ بأصواته وألفاظه وتراكيبه، فهو كتاب ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ لا في معانيه ولا في ألفاظه، لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصِّلت: ٤٢]، وسيتناول هذا الفصل مَظهراً من مظاهر هذا الإعجاز من خلال دراسة دلالة الفونيمات الرئسية التي يشتمل عليها اللفظ القرآني، وهي الحروف أو الأصوات الصامتة. ويُمثِّل الصّوت الصامت أصغر وحدة صوتية في بنية الكلمة العربية التي لا تبدأ إلاّ به، كما أنه يُعتبَر الأساس الذي عليه تقوم بقيّة الفونيمات من حركات وغيرها.

وسوف تتم دراسة بعض هذه الأصوات مِمّا ورد في الذكر الحكيم متناوباً على اللّفظ القرآني تارةً ومذكوراً أو محذوفاً تارةً أخرى، وما ورد متوالياً في الألفاظ حيناً وفي التراكيب حيناً آخَر. وسنقف عند كلٍّ منها على أسرارٍ من هذا الكتاب المعجز تَشخَص لها الأبصار وتخشع القلوب، وبالتالي تطمئن إلى حقيقة خالدة هي أنّه «ليس

في آي القرآن المجيد حرف إلاّ تَحته سِرٌّ ومصلحة فضلاً عمّا وراء ذلك»[1].

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣/٢٣٠.

المبحث الأوّل

٤ . ١ ـ تناوب الصّوت في اللّفظ القرآني

يوجد في العربية ألفاظ كثيرة تشترك في دلالتها، وفي نوعها، وبنيتها، وحروفها إلاّ في حرف واحد يُمَيِّزها، فيشترك لفظان أو أكثر في الدلالة من جهة العموم، ويُفرِّق الصّوت المتمايز، بناءً على خُصوصِيّته الصّوتية، دلالةَ أحدها عن سواه من جهة الخصوص[١].

ومن ذلك على سبيل المثال ألفاظ: (القَطْف) و (القَطْع) و (القَطْر) التي تشترك جميعاً في دلالتها على القطع من خلال حَرْفَيها الأوّلَين (قَطْ)، ولكنّها تتمايز عن بعضها في الحرف الأخير، الذي يَمنح كلّ واحد منها دلالة خاصّة بناءً على خصوصيّته الصّوتية.

فالفاء: صوت شَفَويَ، رَخْو، مهموس، مَرَقّق، فهو يناسب معاني الرِّقّة واللّطف، لذا استُعمل (القطف) للزهور والفاكهة، وما شابه ذلك مِمّا لا يلزم (قطعه) إلى إعمال الشِّدَّة. ومنه قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقّة: ٢٢ ـ ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الانسان: ١٤]

أما العين: فصوت حَلقيّ، مجهور، يتميّز بالغِلظة، فهو يناسب معاني الشّدّة والقوّة، لذا استُعمل (القطع) لكلِّ ما يلزمه ذلك، ماديّاً كان، كما في قوله تعالى على لسان فرعون مخاطباً سَحَرة بني إسرائيل بعد إيمانهم بربِّ العالمين: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

(١) يراجع مبحث: (١. ٥. ١. ١ ـ تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني).

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، أو معنوياً، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

أما الرَّاء: فما يُميِّزه عن سائر الحروف أنه صوت مُكرّر، يُفَخّم تارةً ويُرَقّق أخرى، فهو يناسب تكرار القطع، لذا استعمل (القَطْر) للماء وغيره، كما في قوله تعالى على لسان ذي القرنَين: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [الكهف: ٩٦].

وقد وردت في القرآن الكريم نماذج من هذه الألفاظ؛ المترادفة من جهة العموم، والمتمايزة بصوت واحد، والتي تَمَّ فيها اختيار لفظ دون نظيره في موضع، وترجيح هذا دون ذاك في موضع آخر، بسبب مناسبة هذا الصوت الفارق للمعنى المراد. ومن ذلك:

٤. ١. ١ ـ الهمزة والهاء في (أزَّ) و (هَزَّ)

ورد لفظا (الأزّ) و (الهزّ) في سورةٍ واحدة، ولكن في موضعين مختلفَين متباينَين:

(الأزّ) في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣].

و(الهزّ) في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: ٢٥].

وكما يبدو من موضعَيهما في الآيتين أعلاه فهما لفظان متقاربان صوتاً ودلالةً؛ أمّا من جهة الصّوت فهما يشتركان في الحرف الأخير، وهو (الزّاي) المشدّدة، ويختلفان في الحرف الأول. وهذا الاختلاف في الحرف الأول هو في حقيقته اختلاف جزئيّ لأنّ

«(الهمزة) و (الهاء) لفظان متقاربان»[١] صوتياً باعتبار مخرجهما المشترك، لأنهما حرفان حَنجريّان[٢].

وأما من جهة الدلالة فإنّ «الأزَّ، والهزَّ، والاستفزاز: أخَواتٌ»[٣]، إلاّ أنّ «أزَّهُ أبلَغُ من هَزَّهُ»[٤]. وتَفَوُّقُ (الأزّ) على (الهزّ) من حيث القوّة راجع إلى «الهمزة لأنّها أقوى من الهاء»[٥]، لاتّصاف الأُولى بالشِّدّة، والثانية بالرخاوة[٦].

ولهذا خُصَّ الشياطين بالهمزة، فقيل: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾، وخُصّت مريم عليها السلام بالهاء، فقيل لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ﴾ حيث إنّ الاختلاف بين هذين الصّوتين من شأنه أن يجعل « (الأزّ)[٧] أعظم في النفوس من (الهزّ)[٨]»[٩].

ونستطيع أن نتبيّن بسهولة ضَعف هاء ﴿وَهُزِّيٓ﴾ في هذه الآية من خلال النظر

---

(١) الخصائص: ١٤٦/٢.

(٢) الصوتيات والفونولوجيا: ١٢٣.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤٢/٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٢٦.

(٥) الخصائص: ١٤٦/٢.

(٦) الصوتيات والفونولوجيا: ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٧) جاء في اللسان: أزّتِ القِدرُ تَؤزُّ وتَئِزُّ أزاً وأزيزاً وأزازاً، وائتَزَّت ائتِزازاً إذا اشتدَّ غَلَيانُها... والأزُّ: التهييج والإغراء، وأزَّهُ يَؤزُّهُ أزّاً: أغراهُ وهيَّجَهُ، وأزَّه: حَثّهُ... وفي قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال الفراء: أي: تزعجهم إلى المعاصي وتغريهم بها... وقال ابن الأعرابي: الأُزّاز: الشياطين الذين يَؤُزُّون الكفار، وأزّهُ أزّاً وأزيزاً مثل هَزَّهُ، و أزَّ يَؤُزُّ أزاً: هو الحركة الشديدة (لسان العرب: مادة: أزز).

(٨) الهزُّ: تحريك الشَّيء، كما تُهَزُّ القناة فَتَضطربُ و تَهتزُّ، وهزَّهُ يَهزُّهُ هَزّاً، وهَزَّ به، وهَزَزَهُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: حَرِّكي (لسان العرب: مادة: هزز).

(٩) الخصائص: ١٤٦/٢.

إلى الضّعف الجسدي الذي كانت عليه السيِّدة مريم عليها السلام وقد ألجأها ﴿ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، والضّعف المعنوي في قولها: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

وهناك ملاحظة أخرى وهي أنه ليس من المنطقي أن يكون المراد من ﴿هُزِّىٓ﴾ هنا أنْ تَهُزَّ مريم عليها السلام جذعَ النخلة فيضطرب بيديها الضعيفتين كما تضطرب القناة، وإنما يُحمَلُ هذا (الأمر) على الأخذ بالأسباب والوسائط التي هي سُنّةُ الله «وقد كان قادراً على سقوط الرطب دون هَزٍّ ولا تَعَبٍ»[1]. ولذلك قيل: إنّ ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ﴾ بمعنى: «وخُذي إليك»[2].

فإذا كان (الهزّ) بمعنى (الأخذ)، وهو يبدأ كذلك بالهمزة، وقد عُدِلَ عنه إلى (الهزّ) تبيّن مدى الضّعف الذي يُوحِي به هذا اللّفظ بسبب صوت (الهاء).

وفي مقابل ذلك الضّعف البيِّن، فإنّ قوّة الشياطين هي كذلك ظاهرة بيّنة، وقد زادَ من هذا الوضوح ورود لفظ (الأزّ) مكرّراً، هكذا: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ على أسلوب المفعول المطلق، الذي يُفيد قوّة (الأزّ) وتوكيده.

٤. ١. ٢ ـ الهمزة و التاء في (اللائي) و (اللاتي)

(اللائي) و (اللاتي) اسمان وُضعا لجمع المؤنث، وقد أتى بهما القرآن في مواضع عدّة، اختصَّ (اللائي) منها بأربعة، و (اللاتي) بعشرة[3]. أمّا (اللائي) بالهمز فورد

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/١٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/١١٨.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤٥.

في الآيات التالية:

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢].

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

والآيتان الأولى والثانية موضوعهما الظِّهار[١]، والثالثة — التي تكرَّر فيها (اللائي) مرَّتين ـ موضوعها الطلاق. وبذلك يكون الاستعمال القرآني قد خَصَّصَ (اللائي) لهذين الموضوعَين فقط.

ولعلّ حالتَي الظِّهار والطّلاق من أعظم حالات الشِّدَّة والضِّيق التي تواجه المرأة في حياتها الزوجية، ولهذا اختِيرَ لهما اللّفظ الأثقل والأقوى المشتمل على صوت الهمزة الحنجريّ.

وقد رأى أحد العلماء أنّ جرس لفظ (اللائي) قد يوحي باشتقاقه من (الّلأْي) ممّا يعلِّل اختصاصه بالظِّهار والطلاق فقال: «ومن الطريف أنّ بناءَ (اللائي) وجَرسَها يُوحي بذلك، فكأنّها مُشتَقّة من الّلأْي، وهو الإبطاء والاحتباس والجهد والمشقّة. والمظاهِر والمطَلِّق محتبِسٌ عن امرأته مُبطِئٌ عنها، وفي ذلك ما فيه من الجهد والمشَقّة للطَّرفَين، فانظُرْ حُسنَ المناسَبة في اللَّفظ والمعنى والاستعمال»[٢].

---

(١) الظِّهار يعني: «قَولُ الرجل لامرأَتِه أنتِ عَلَيَّ كظَهر أُمي» (الجامع لأحكام القرآن: ١٤/١١٨).

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٥٧.

أمّا (اللاتي) الذي هو «أخَفّ من اللائي، لكونه بغير همزة»[1] فقد ورد في مواضعه العَشرة تَعبيراً عن حالاتٍ لا تتضَمّن ضِيقاً أو عُسْراً أو نحو ذلك، كما في الآيات التالية:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠].

وهذه الآيات ونظائرها التي استُعمل فيها لفظ (اللاتي) وردت في سياقات لا تتضمّن مشقّة الظِّهار ولا شِدَّة الطلاق، بل إنها موضوعات عامة، فموضوع الآية الأولى تحريم، والثانية تحليل، والثالثة إخبار، وهكذا بقية الآيات.

٤. ١. ٣ ـ الباء والميم في (بكّة) و (مَكّة)

يبدو للوهلة الأولى أنّ هذين اللّفظين مترادفين في دلالتهما على أمّ القرى التي تضمُّ بيت الله الحرام. فعادةً ما تُطالعنا كتب اللغة عند تعريف الأوّل بالقول: «بكّة: هي مكّة، والباء بدل من الميم»[2].

---

(١) شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ١/ ١٨٨.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ٣٧٣.

ولكن بالنظر إلى السياق الذي ورد فيه هذان اللّفظان، وبالتأمل الدقيق في معاجم اللغة التي أشارت إلى ما قيل في دلالتهما الوضعية ينكشف لنا سِرٌّ من أسرار الاستعمال القرآني المعجِز، وتخيُّرِه للألفاظ وفق معايير دقيقة، قد يشغل فيها معيار الصوت مساحةً واسعة.

فقد ورد كلٌّ من (بكّة) و (مكّة) في التنزيل الحكيم مرّةً واحدة، وذلك في سياقين مختلفين حيث: وردت (بكّة) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ــ ٩٧].

ووردت (مكّة) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

فلفظ (بكّة) ورد في سياق حَجِّ البيت، ووجوب قصده على مَن تتوفّر فيهم القدرة والاستطاعة من المسلمين أين ما كانوا، ومن كلِّ فجٍّ عميق. وهذا المعنى يناسبه استعمال لفظ (بَكّة) التي سُمِّيَت به، لأنّ الناس يَبُكُّ بعضُهم بعضاً في الطّواف، فهم يَتَبَكبَكون في موسم الحجّ، أي: يزدحمون. وتَباكّ القومُ تَزاحَموا وفي الحديث: فتباكَّ الناسُ عليه، أي: ازدحموا، والبَكبَكَة: الازدحام وقد تَبكبَكوا أي: ازدَحَموا[1].

أمّا لفظ (مكّة) فقد وَرَدَ في سياق آخَر غير الحجّ، وهو سياق ظَفَر المسلمين وانتصارهم ببطن مكّة، إمّا يوم الفتح، وإمّا «كان ذلك في غزوة الحديبية، لما رُوي أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائةٍ، فبعَث رسولُ الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم

(١) لسان العرب: مادة: بكك. والمفردات في غريب القرآن: ٦٧.

مَن هزَمَه وأدخلَه حِيطانَ مَكّة»[1].

وسياق غلبة المسلمين هذا في مكّةَ ذاتِها يُناسِبه لفظ (مكّة) التي سُمِّيَت «بذلك لأنّها كانَت تَمُكُّ مَنْ ظَلَمَ بِها، أي: تَدُقُّهُ وتُهلِكُه»(المفردات في غريب القرآن: ٤٧٤).

وهكذا فإنّ تناوُبَ صوتَي (الباء) و (الميم) على هذا اللفظ يُغيِّرُ من خصوصيّته الدلالية، من دون أن يُخرجه عن دلالته العامّة، وهذا التغيُّر الدلالي ناتج بطبيعة الحال عن صفات هذين الصوتين؛ فإذا كان لفظ (مكّة) بالميم هو اسم العلم المشهور لأمِّ القرى فإنّ استبدال (الميم) منه بـ (الباء)، في سياق الحج، لابدَّ أن يعود إلى دلالته الصوتية؛ حيث يوصَف صوت (الباء) بالجهارة، والانفجار؛ وهما صفتان تتلاءمان مع أصوات الضجيج والضوضاء التي يُصدرها الناس عند ازدحامهم.

٤. ١. ٤ ـ السين والصّاد في (البَسْط) و (البَصْط)

ورد كلٌّ من (السين) و (الصّاد) في القرآن الكريم متناوبَين؛ تارةً على المصدر، كما في: (بَسْطَة) و (بَصْطَة)، وتارةً على الفعل المضارع، كما في: (يَبْسُطُ) و (يَبْصُطُ). و في كلا المثالين وردا بذات المعنى، مع فرقٍ دلاليٍّ يعود إلى طبيعة (السين) و (الصّاد) الصوتية.

٤. ١. ٤. ١ ـ (بَسْطَة) و (بَصْطَة)

أما المصدر (بَسْطَة) بالسين، والمصدر (بَصْطَة) بالصّاد فقد جاء كلٌّ منهما مرةً واحدة فقط في الذكر الحكيم، وذلك في الآيتين التاليتين:

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٣٤١/٤.

قولــه تعــالى: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩].

وإذا نظرنا إلى عامل النصب في هذين المصدرين وجدناه واحداً، وهو الفعل (زادَ)، وفاعله في كِلَيْهما هو الضّمير المستَتِر فيه العائد على لفظ الجلالة (الله)، وهكذا اشترك المصدران ﴿بَسْطَةً﴾ و ﴿بَصْۜطَةً﴾ في الآيتين في الفعل والفاعل.

أما جهة الاختلاف ففي ضمير النصب المتصل بالفعل (زادَ)، فهو في الآية الأولى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ مفرد عائدٌ على الملك طالوت، وفي الآية الثانية: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ جمع عائدٌ على قبيلة عادٍ قوم هود. فقد ورد هذا اللفظ بـ (السين) وصفاً لشخصٍ واحدٍ، بينما ورد اللفظ ذاته بـ (الصاد) وصفاً لقبيلة، بل أمة نبيٍّ من أنبياء الله[1].

وعلّة ذلك أنّ «(الصّاد) كما ترَى أقوى صَوتاً من (السِّين)، لما فيها من الاستعلاء... فجَعَلوا (الصّاد) لِقُوّتِها للمعنَى الأقوى و (السِّين) لضَعفِها للمعنَى الأضعَف»[2].

وهكذا عَمِلَت صفاتُ الجهارة والاستعلاء والإطباق والتفخيم في (الصّاد) على جَعْلِ (بَصْطَة) للجمع الكثير، أما صفات الاستفال والترقيق في (السِّين) فَخَصَّصَت (بَسْطَة) بالشخص المفرد. و بذلك فَرَّقَ الصّوت بين صِفَتَي الموصوفَيْن لعدَم تساويهما في العدد، فنالَ كلٌّ منهما ما يَستَحِقُّه من البيان.

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٥٨.

(٢) الخصائص: ٢/١٦٠.

٤. ١. ٤. ٢ ـ (يَبْسُطُ) و (يَبْصُطُ)

أما الفعل المضارع منه فقد ورد (يَبْسُطُ) بالسين اثنتي عَشْرَة مَرّة[1]؛ تِسع مرّاتٍ في (بَسْطِ الرِّزق)، كما في الآيات التالية:

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦].

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ [العنكبوت: ٦٢]

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩]

ومرّةً واحدةً في (بَسْطِ السَّحاب)، قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم: ٤٨]

ومرّةً واحدةً في (بَسْط اليَد)، في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ [المائدة: ١١]

ومرّةً أخرى في (بَسْط اليَد واللِّسان) معاً، في قوله تعالى:

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [الممتحنة: ٢]

ففي جميع الآيات الاثنتي عشرة التي وَرَدَ فيها الفعل (يَبْسُطُ) بالسين جاء الفعل مُقَيَّداً؛ أحياناً بالرِّزق، وأحياناً بغيره. في حين ورد الفعل (يَبْصُطُ) بالصاد مَرَّةً واحدة لا غير، من دون تقييد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

جاء في (البرهان) فصل: (في حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى)

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ١٣٠.

بخصوص تناوب السِّين والصّاد في الأمثلة أعلاه قوله : «فبالسِّين السَّعة الجزئـيَّة كذلك علّة التقييد ، وبالصّاد السّعة الكلِّيَّة ؛ بدليل عُلُوِّ معنى الإطلاق ، وعُلُوِّ الصّاد مع الجهارة والإطباق»[١].

ويقصد بالسّعة الجزئية المقيّدة في (يبسط) تحديد سَعة الانبساط بالقيد اللاّزم له ، وهو الرِّزق أو السّحاب أواليد أو غير ذلك ، فناسبها صوت (السين) المستفِل المرقّق ، أما السّعة الكلِّية المطلقة في (يَبصُطُ) فلا يَحُدُّها قيد ، لأنه «يَحتمِل البَسطَ في الرِّزق وفي الأنفُسِ وفي الملك وغيرها»[٢] ، فناسب عُلُوّ الاطلاق فيها علوّ صوت (الصّاد) المجهور المطبق ، فجاء في الجزئي المقيَّد بالسِّين ، وفي الكلِّي المطلق بالصّاد انطلاقاً من قاعدة تخصيص الأقوى بالأقوى ، والأضعف بالأضعف التي أشار إليها ابن جني بخصوص هذين الحرفين[٣].

وهناك ملاحظة أخرى يَحسُنُ الإشارةُ إليها ، وهي أنه انطلاقاً من هذه الخصوصية الصوتية للسين والصّاد فقد تكرّر مجيء (يبسُطُ) المقيّدة في مواضع متعدِّدة من القرآن الكريم ، وذلك بسبب تعدُّد القيود ، أما (يبصُطُ) المطلقة فلإنها تفيد العموم فلم تَرِدْ إلا مَرَّةً واحدةً فقط ، وذلك ليتناسب كلٌّ فعل مع حقيقته حيث يَتعدَّد القيد ، ويتفرّد الإطلاق.

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ١/٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٥٨.

(٣) كان ابن جني قد أشار إلى هذا ، وضَرَبَ له أمثلةً منها : «(القَسْم) و (القَصْم) فالقصم أقوى فعلاً من القَسْم لأنَّ القَصْم يكون معه الدَّقُّ ، وقد يقسم بين الشيئين فلا يُنْكَأُ أحَدُهما ، فلذلك خُصَّت بالأقوى الصّاد وبالأضعف السِّين» (الخصائص : ٢/١٦١) ، ويراجع مبحث : (١. ٥. ١. ٢ ـ إمساس الألفاظ أشباه المعاني) من هذه الدراسة.

٤ . ١ . ٥ ـ الواو و الياء في (عُتُوّ) و (عِتِيّ)

لفظا (عُتُوّ) و (عِتِيّ) مصدران للفعل عَتا يَعتو، ومعناهما في الحالين: «النُّبُوّ عن الطاعة»(١)، والأصل فيهما (عُتُوّ) بالواو(٢)، وهو الكثير، «إلاّ أنهم استثقلوا تَوالي الضَّمَّتَين والواوَين، فكَسَروا التاء فانقلبت الواو ياءً لِسُكونها وانكسار ما قبلها، ثم قُلِبت الواو ـ التي هي لام ـ ياءً لسبق الأولى بالسكون»(٣).

فالمصدران يشتركان في المعنى، إلا أنهما يختلفان بِحَرَكَتَين قَصَيرتَين وحَرفين مُدغَمَين؛ حيث: تَوالي الضَّمّ فالواوين في (عُتُوّ)، وتَوالي الكَسر فالياءَين في (عِتِيّ). وقد عَلِمنا أنّ لفظَ (عُتُوّ) أثقل وأقوى من لفظ (عِتِيّ)، لأنَّ الضَّمَّة أثقل وأقوى من الكَسرة، كما أنّ الواو أثقل وأقوى من الياء.

وقد لاحظَ القرآن الكريم هذه الخصوصيّة الصَّوتية فيهما فاستَعمَلَهما منصوبَين؛ (عُتُوّاً) و (عِتِيّاً)، بذات المعنى(٤) في موضعين مختلفين:

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/٨٣.

(٣) العكبري، التبيان في إعراب القران: ٢/١١١.

(٤) أي بمعنى النُّبُوّ عن الطّاعة كما ذُكر، وقد ورد لفظ (عِتِيّ) بمعنىً آخرَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] وهو هنا «يعني النهاية في الكِبَر واليُبس والجفاف» (الجامع لأحكام القرآن: ١١/٨٣)، وبهذا يكون للفظ (عِتِيّ) معنَيان فوردا في القرآن هما: «عَتا يَعتو عُتُوّاً و عِتِيّاً: استكبر وجاوَزَ الحدَّ... عَتَا الشَّيخُ عِتِيًّا و عَتِيّاً بفتح العين: أَسَنَّ وكَبِر وولَّى» (لسان العرب: مادة: عتا)، والمعنى الأوّل الذي يشترك فيه (عِتِيّ) مع (عُتُوّ) هو المقصود مِمَّا قَدَّمنا.

والثـاني: في قولـه تعـالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٩]

وعند النَّظر في السِياق الذي وردت فيه هذه الصِّفة في الآيتين أعلاه نَجِدُ «أنّ اتِّصاف المذكورين بالعُتُوّ في الفرقان أشَدُّ مِمّا في مريم، فاختار لهم اللفظ الأثقل والأقوى»[1]، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال اتصافهم بما يلي:

١ـ أنهم يكفرون باليوم الآخِر، فهم لا يرجون لقاءَ الله.

٢ـ أنهم اشترطوا للإيمان إنزال الملائكة عليهم.

٣ـ فإنْ لم تنزل عليهم الملائكة، فينبغي أن يَرَوا ربَّهم رأي العين.

٤ـ ذكر أنهم استكبروا في أنفسهم؛ أي: رأوا أنفسهم كبيرةً.

٥ـ ذكر أنهم ﴿ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾، فأكّد الفعل بالمصدر ووصفه بالكبر.

٦ـ ذكر في مريم أنّه لَيَنزعَنَّ مَن كان ﴿ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ فقيَّد العُتُوّ بالرحمن، في حين أطلقه في الفرقان، فهم عُتاة على الرحمن وعلى خلقه، وبذلك جعل أخَفّ العُتُوَّين ما كان خاصّاً وأثقلهما ما كان عامّاً[2].

وهكذا فقد كان لصفة الثِّقَل الملحوظة في حرف الواو وحركته، في مقابل حرف الياء وحركته، دورٌ أساسيٌّ في اختيار اللَّفظ الأشَدّ ثِقلاً لسياقٍ أكثر اتِّصافاً بهذه الصفة، وذلك في دلالة واضحة على مدى أهمية البعد الدلالي للصوت القرآني.

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٦٠.

(٢) م.ن: ٦٠ ـ ٦١.

المبحث الثاني

٤. ٢ ـ ذكر الصوت وحذفه في اللفظ القرآني

يتناول هذا المبحث ما حُذِف من حروف أو (أصوات) من ألفاظ القرآن الكريم مِمّا أصله أن يُذكر. فَوَرَدَ اللَّفظ تارةً بإثبات الصّوت و ذِكْرِه، وَ ورد تارةً أخرى وقد حُذِف منه، وفي كلا الحالتين يحتفظ هذا الصّوت بدلالته التي يفرضها السِّياق؛ فإنْ ذُكِرَ أو أُثبِتَ فَلَهُ دلالَتُه، وإنْ حُذِفَ فَلَهُ دلالَته أيضاً. ومن أمثلة ذلك:

٤. ٢. ١ ـ إثبات (التاء) وحذفه

٤. ٢. ١. ١ ـ (تَستَطِعْ) و (تَسطع)

وردَ هذان الفِعلان مرّةً واحدةً، مُجتَمِعَين في سورةٍ واحدةٍ، وقصّةٍ واحدةٍ، وموقفٍ واحدٍ، ولكن في سياقين مختلفين؛ تطلّبَ السِّياق الأوّل مجيء (تَسْتَطِعْ) بالتاء، وتَطلَّبَ السِّياق الثاني مجيء (تَسْطِعْ) بحذف التاء، بفاصل أربعة آيات بين الأوّل والثاني.

فقد وردا في سورة الكهف، في قصّة موسى مع الخضر (عليهما السلام) عندما طلب إليه نبي الله موسى أن يتَّبعَه على أن يُعلِّمَه مِمّا عُلِّمَ رُشدا، فَرَدَّ عليه الخضر بقوله: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فقال له موسى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

وحدث ما توقَّعه الخضر بِخرق موسى الاتفاق بينهما ؛ بأنْ لا يسأله عن شيءٍ مما يقوم به ، وذلك عندما أنكر عليه قيامه بخرق السفينة أوّلاً ، ثم قتله للغلام ثانياً ، ثم ببنائه للجدار ثالثاً. وعند ذاك نفد صبر الخضر عليه السّلام فـ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨]، فجيء بالفعل (تَسْتَطِعْ) بإثبات التاء. وبعدما أنبأ الخضرُ موسى بِالذي ضاق به ذرعاً ، ولم يَستطع عليه صبراً ، وفَسَّرَ له حقيقةَ أفعاله الثلاثة ، وانكشف الأمر لموسى أنّ ما فعلَه الخضر ماكان بأمرٍ منه ، بل بأمرٍ من الله ، عند ذاك خَتَمَ الخضر كلامَه بقوله : ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢]، فجيء هنا بالفعل (تَسطِعْ) بحذف التاء.

فقبل أنْ يتعرَّفَ موسى على حقيقة الأمر كان الإشكال بالنسبة إليه قويّاً ثقيلاً ، فَشَعَرَ بِثِقَلٍ كبير ، وهمٍّ عظيم لرؤية وليٍّ من أولياء الله يَخرق سفينةً ، ويَقتُل غلاماً ، ويُقيم جداراً من غير أجر ، فهي أعمال تبدو وكأنّها تخالف حكم الله والمنطق.

فَلَمّا كان هذا السياق ثقيلاً قويّاً ، وعظيم الوَطء على موسى قال له الخضر : ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ مستعملاً لفظ (تَسْتَطِعْ) بالتاء ، وهو لفظ ثقيل قياساً إلى لفظ (تَسطِعْ) بدون التاء ، ولكن بعد تفسير الأمر وبيانه وتوضيحه وإزالة المشكل عَمَدَ إلى هذا اللّفظ الخفيف بقوله : ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ «فقابل الأثقل بالأثقل والأخفّ بالأخفّ ، كما قال : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف: ٩٧] وهو الصعود إلى أعلاه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] وهو أشَقُّ من ذلك ، فقابَلَ كُلاً بما يناسبه لفظاً ومعنًى. والله أعلم»[1].

وهناك وجه دلالي آخَر في إثبات هذه (التاء) وحذفها من هذا الفعل في هاتين

(١) تفسير القرآن العظيم : ١٠١/٣.

الآيتين وهو «أنّ المقام في الآية الأولى مقامُ شرحٍ وإيضاحٍ وتبيين، فلم يحذفْ من الفعل. أما الآية الأخرى، فهي مقام مفارقة، ولم يتكلّمْ بعدها بكلمة وفارقه فحذف من الفعل»[1].

وهذا الوجه في حقيقته مُتَرتِّبٌ على الوجه الدلالي السابق؛ فحالة موسى النفسية قبل معرفته بالحقيقة كانت تتطلّب هذا الشرح والتطويل، فلذلك قال له الخضر: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾. ولكن بعد أن انتهى الخضر من تأويل كلٍّ ما حدث جاء مقام المفارقة الذي يتطلّب الايجاز والاختصار فختم كلامه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وهكذا فقد راعَى السِّياقُ القرآني الحالةَ النفسيةَ لنبيِّ الله موسى ﷺ قبل اطِّلاعه على الحقيقة، وما تستدعيه من أساليب البيان، فأثبتَ (التاء) في الفعل (تَسْتَطِعْ) الذي يقوم بناؤه على ثلاثة مقاطع: (تَسْ/تَـ/طِعْ)، ليناسب بين شدّة الوَطأة النفسية وثِقَلها، وبين ثِقَل الكلمة بِمَقاطعها الثلاثة.

أما بعد زوال هذه الحالة النفسية بزوال أسبابها، والشعور بالاسترخاء بمعرفة الحقيقة فقد روعِيَ التَّخفيف فحذفَ (التاء) من الفعل (تَسْطِعْ) فغَدا بِمَقطَعَين: (تَسْ/طِعْ)، وذلك مراعاةً للتَّخفيفِ الحاصِلِ في السِّياق تبعاً للحالة الشعورية لصاحب الموقف.

وقد فسّر بعضهم الفرق الدلالي بين كلمتَي (تَسْتَطِعْ) و (تَسْطِعْ) تفسيراً قريباً من هذا، بقوله: إنّ «في الأولى يُهيِّئ الخضر ذهن موسى لاستقبال التفسير للأحداث التي أنكرها وتشوّق إلى معرفتها، ولذلك استخدم فعل الاستطاعة كاملاً. ولكنه بعدما أتَمَّ

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١٩.

عرض التأويلات القاطعة المطَمئِنة ختَمَ ذلك بالفعل (تَسْطِعْ)، وهو يستعمل هذا التعبير بعد إسناد كلّ ما فعَلَه إلى أمر الله، فيكون في تقصير مساحة الفعل تصوير عجيب لتقصير مسافة الآثار التي احاطت بالصورة الأولى»[1].

ومن خلال عبارة ابن كثير السّابقة تَبَيَّن لنا أنّ لهذا الإثبات والحذف ما يُناظره، وهو إثبات (التاء) في (أستطاعوا)، وحذفها في (أسطاعوا) في الآية السابعة والتسعين من سورة الكهف.

٤. ٢. ١. ٢ ـ (استَطاعوا) و (اسطاعوا)

وَرَدَ هذان اللّفظان: (اسطاعوا) بحذف (التاء)، و (استَطاعوا) بإثباتِها في آيةٍ واحدةٍ، بفاصل ثلاث كلمات فقط، في قوله تعالَى: ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٩٧]، وذلك لتتناسب خِفّة اللّفظ مع خِفَّة الفعل في الأوّل، ويَتَناسب ثِقَل اللَّفظ مع ثِقَل الفعل في الثاني.

وهذه الآية وردت بخصوص السَّدّ الذي بناه ذو القرنين من قطع الحديد المذاب لِيَقِفَ حائلاً دون هَجَمات يأجوج ومأجوج. وخلاصة القِصَّة يَرويها لنا القرآن الكريم في الآيات الخمسة التالية:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف].

---

(١) القصة في القرآن: ٣٠٥.

ومعنى قوله: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: «ما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يَعلُوَا الردمَ الذي جَعَلَه ذو القَرنَين حاجزاً بينهم وبين مَن دونهم من الناس، فيصيروا فوقَه ويَنزِلوا منه إلى النّاس»[١]، وذلك لأنّ الردمَ «أملس مُستَوٍ مع الجبل، والجبل عالٍ لا يُرام»[٢].

ومعنى قوله: ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي: ما استطاع يأجوج ومأجوج وجَيشُهما الجرّار أن يَحفروا الردمَ أو ينقبوه «لِصَلابَته وسُمكِه»[٣].

فاستعمل الفعل (اسطاعوا) بحذف (التاء) تخفيفاً، لتسلُّق السَّدّ، واستعمل الفعل (استطاعوا) بإثبات (التاء) لنقب هذا السّدّ وحفره. وكما هو معلوم فإنّ تَسَلُّقَ السَّدِّ المبنِيِّ من قِطَع الحديد والنحاس المنصهر أيسَرُ من نقبه و أخَفُّ بكثير، لأنّ المتسلِّق يَتَخَفَّفُ من الوسائل، والمَنَقِّب يحتاج إلى الوسائل، ليَتَمكَّنَ من إحداث ثقبٍ في الحديد المذاب، لذا خُفِّفَ الفعل في العمل الخفيف، وطُوِّل الفعل للعمل الثقيل الطويل[٤]، فدلَّ حرف (التاء) على التمييز بين العمل الشّاق والعمل الأشقّ من خلال حذفه تارةً وإثباته أخرى في فعل واحدٍ.

وربما كان حذف التاء في (اسطاعوا) كناية عن عجلة قوم يأجوج ومأجوج في تسلُّق السَّدّ عندما رأوه أوّل مرة وظنوا أنهم قادرون على أن يَعتلوه، فحاولوا ذلك مراراً فلم يُفلحوا، ولَمّا يَئِسوا منه تَحَوّلوا عنه، وأخذوا العدّة لنقبه فباءت محاولاتهم

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٦/١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٦٢/١١.

(٣) تفسير الجلالين: ٣٩٤.

(٤) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: ٦٥٥/٢.

بالفشل الذريع أيضاً[١]. ففي حذف (التاء) إشارة إلى إسراعهم في محاولة تسلُّق السَّدّ، وفي إثبات (التاء) إشارة إلى أخذهم العدّة لنقب السَّدّ وبذلهم الجهد في ذلك. والله أعلم.

٤. ٢. ١. ٣ ـ (تَتَنَزَّل) و (تَنَزَّل)

ورد الفعل المضارع (تتنزّل) بتاءين مُسنَداً إلى الملائكة مرّةً واحدةً في قوله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وورد الفعل (تَنَزَّلُ) بتاءٍ واحدةٍ مرَّتين؛ أُسند في إحداهما إلى الملائكة في قوله تعالَى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٣ ـ ٤]، وأُسند في الثانية إلى الشياطين في قوله تعالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢].

والأصل فيهما أنْ يكون الفعل بتاءين لا بتاء واحدة، فـ (تَنَزَّل) أصلها (تَتَنَزَّل)، وحذف أحد التاءين تخفيفاً[٢].

ومعنى ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أنّ الملائكةَ تنزل على الذين آمَنوا بالله ثم استقاموا «عند الموت بالبشرى، وقيل البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم»[٣]، فالتَنزُّل في هذا السياق كثير جداً، وهو قائم في كلِّ زمان ومكان؛ حيث يموت في كلِّ لحظة إنسان مؤمن، ويُودَع القبر، ثم إنه يشمل

(١) نهايات الآيات القرآنية بين إعجاز المعنى وروعة الموسيقا: ٨٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٤ ـ ٦٧.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١٩٩/٤.

الحياة الدنيا من أوّلها وحتى قيام السّاعة، فناسبه مجيء الفعل تامّاً غير ذي نقص بإثبات التاء. وهناك مناسبة أخرى بين تكرار التاء وبين تكرار حدث النزول.

أمّا (تَنزّل) في ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ فإنه يَحدث مرّةً واحدةً في ليلةٍ واحدةٍ من العام ؛ هي ليلة القدر، وكذلك الأمر في ﴿تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فإنها لا تنزل على كلِّ كافرٍ، بل تنزل على الكذوب الفاجر من الكُهّان[1]، فالتَّنزُّل ليس فيه سعة الزمان في الأول، وليس فيه سعة الأفراد في الثاني، ولهذا لم يأْتِ الفعل فيهما تاماً، بل جِيءَ به مقتَطَعاً منه حَرفٌ، ليناسب الاجتزاءُ في الفعل الاجتزاءَ في الزمان والأفراد.

ثم إنّ التشديد في (تَنَزَّل) يتناسب مع ثِقَل تَنَزُّل الملائكة من السَّماء إلى الأرض بإذن ربِّهم من كلِّ أمرٍ، ويناسب التشديد كذلك الشدَّةَ في تَنَزُّلِ الشّياطين وهو ما يُؤكِّده تكرار الفعل (تَنَزَّل) مرّتين في سورة الشعراء، أما تكرار التاء في (تَتَنَزَّل) فهو ليس كذلك، وإنما هو تكرار خفيف رحيم ؛ فالخفيف ؛ من جهة تكرار حركة الفتح الخفيفة، والرحيم ؛ من جهة الرحمة في بشارة المؤمنين بالجنة.

٤. ٢. ٢ ـ إثبات (النون) في (يَكُنْ) وحذفه من (يَكُ)

نَهَى اللهُ تَعالَى نَبِيَّه المصطفَى محمّد ﷺ مَرّتين في كتابه العزيز عن أنْ يَحزَنَ، أو أنْ يكون في صدره حرجٌ مِمّا يَمكُرُ الماكرون، وقد وَرَدَ الفعل المضارع المجزوم بلا الناهية بإثبات (نون) (يَكُنْ) في إحدى المرّتين، وذلك في قوله تعالَى:

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٠]

و ورَدَ هذا الفعل ذاته وقد حُذِفَ منه (النون) فصارَ (يَكُ) في قوله تعالَى:

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٥٤.

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧]

ولَمّا كان الأصل في هذا الفعل إثبات النون لا حذفه، فقد وجب البحث عن العلّة التي دَعَت إلى الحذف في هذا الموضع دون نظيره، وعند النظر في السياق الذي ورد فيه الحذف تتبيَّن العلة، حيث سبق ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل]. فقد نزلَت بعد أنْ مَثَّلَ المشركون بقَتلَى المسلمين يوم أُحُد فوقَفَ رسول الله ﷺ على عَمِّه حمزة ؓ «فرَآهُ مبقور البطن فقال: (أما والذي أحلِفُ به، لَئنْ أظفرني الله بهم لأُمَثِّلَنَّ بِسَبعين مكانك)، فنزلَت، فكَفَّرَ عن يَمينه وكَفَّ عَمّا أرادَه»[1].

فقد أُوصِيَ النبِيُّ ﷺ في هذه الآيات بالصَّبر ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾، ونُهِيَ عن أنْ يكون في ضيقٍ من مَكر الكافرين ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي: لا يَكُ في صدرك ضِيقٌ مهما قَلَّ أو ضَؤُلَ «فَحذف النون من الفعل إشارةً إلى ضرورة حذف الضِّيق من النَّفس أصلاً. وهذا تطييبٌ مناسبٌ لضخامة الأمر وبالغ الحزن، وتخفيفٌ لأمر الحدَث وتَهوينه على المخاطَب، فَخَفَّفَ الفعل بالحذف إشارةً إلى تخفيف الأمر وتَهوينه على النّفس»[2].

أما الآية الثانية التي جاء فيها (يكن) بإثبات (النون) فقد وردت في سياق إنكار

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢/٦٤٥.

(٢) التعبير القرآني: ٧٧.

الحشر والمعاد من قبل الكافرين مِمّا لا يحتاج معه إلى تصبير وتخفيف في قوله تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل].

وهذا الحذف ليس مقصوراً على الآية السابقة فحسب، بل تكرَّر حذف النون من (يكن) في مواضع كثيرة من الذكر الحكيم، مِمّا جعل الزركشي يعقد له فصلاً في كتابه البرهان سَمّاه: (فصل في حذف النون).

وقد عَلّلَ الزركشيّ هذا الحذف تعليلاً بديعاً، معتَبِراً إيّاه «تنبيهاً على صِغَر مبدأ الشَّيء وحقارته، وأنّ منه يَنشَأ ويزيد، إلى ما لا يُحيطُ بعلمِه غير الله، مثل: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ [القيامة: ٣٧]، حُذِفَت النون تنبيهاً على مهانة مُبتَدَأ الإنسان وصِغَرِ قدره بحسَب ما يُدرِك هو من نفسه، ثم يترقّى في أطوار التكوين ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤]، فهو حين كان نُطفةً كان ناقص الكون...

وكذلك: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، حُذِفَت النون تنبيهاً على أنّها وإن كانت صغيرة المقدار، حقيرةً في الاعتبار، فإنّ إليه ترتيبها وتضاعيفها. ومثله: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان: ١٦].

وكذلك: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ [غافر: ٥٠] جاءتهم الرسل من أقرب شيءٍ في البيان، الذي أقَلّ من مبدأ فيه وهو الحسّ، إلى العقل، إلى الذكر. ورقّوهم من اخفض رُتبةٍ ـ وهي الجهل ـ إلى أرفع درجةٍ في العلم ـ وهي اليقين ـ وهذا بخلاف قوله تعالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]؛ فإنّ كون تلاوة الآيات قد أكمل كونه وتَمَّ. وكذلك: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] هذا

تَمَّ كونُه»[1].

فإذا كان الشَّيء ضئيلاً ناقصاً قابلاً للنموّ والزيادة استُعملَ له الفعل منقوصاً منه حرف النون، وإذا كان الشيء مكتملاً تامّاً استعملَ له الفعل تاماً دون نقصٍ، فخصّصَ اللّفظ الناقص للشّيء الناقص، و خصّصَ الفعل التام للشّيء التام.

ومن العجيب أن يَفتَتِحَ حرفُ (النون) سورةَ القلم، مُتَصدِّراً قَسَمَ العليّ الأعلَى بأداة الكتابة ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، فكأنّ في ذلك إشارة إلى تمام هذا الكتاب المسطور وكماله وتضمُّنه للأسرار الصوتية العجيبة.

٤. ٢. ٣ ـ إثبات (الواو) وحذفه

سقط من آخر الفعل المضارع المعتل الناقص حرف الواو في أربعة مواضع من الذكر الحكيم، من دون أن يكون هناك سبب نحوي من جزم أو نصب يدعو إلى الحذف. والمواضع التي سقط منها الواو هي:

﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الاسراء: ١١]

﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦]

﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]

﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤]

وقد قيل في علّة ذلك أقوال: منها: أنها حذفت من المصحف للوقف عليها[2]،

(١) البرهان في علوم القرآن: ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٢) الخصائص: ٢/٢٩٣.

ومنها لالتقاء الساكنين[١]، أمّا الزركشيّ فقد علّلَ ذلك تعليلاً آخَر، فقد ذكر بأنّ الواو سقط من هذه الأفعال الأربعة «تنبيهاً على سُرعة وقوع الفعل، وسُهولته على الفاعل، وشدَّة قبول المنفَعل المتأثِّر به في الوجود»[٢].

ففي الآية الأولَى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ يدلُّ حذف الواو على «أنه سهل عليه ويُسارع فيه، كما يعمل في الخير، وإتيان الشَّرِّ إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير»[٣]، وفي الآية الثانية: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾[القمر: ٦] «حذف الواو لسرعة الدعاء وسرعة الاجابة»[٤]، وهكذا في الآيتين الأُخرَيين اللّتين سنقف عندهما بعد قليل. وتفسير الزركشي هذا أقرب إلى المنطق من سابقَيه؛ فأيُّ وقفٍ يكون بين الفعل وفاعله؟! أو بين الفعل ومفعوله؟! كما انّ التقاء الساكنين لا يمكن أن يكون سبباً للحذف؛ لورود كثير من نظائر هذا في القرآن من غير حذف، كما في ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، ولهذا سنأخذ المثالين الأخيرين من هذه الأربعة ونقارنهما بنظيريهما مِمّا لم يُحذف منهما الواو، حتى نتبيّن السبب.

٤. ٢. ٣. ١ ـ (يَمْحُو) و (يَمْحُ)

صدر هذان الفعلان عن فاعل واحد لكليهما هو لفظ الجلالة (الله)، وقد ورد (يَمْحُو) بإثبات الواو في قوله تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ

---

(١) التبيان في اعراب القران: ٢/٢٢٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٠/٢٢٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/٣٩٧.

(٣) م.ن: ١/٣٩٨.

(٤) م.ن: ١/٣٩٨.

وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩].

وقيل في معناه: «يَمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة»[١]، وقيل أيضاً: «يَنَزِّلُ اللهُ كلَّ شيءٍ في السنة في ليلةَ القدر، فيمحو ما يشاء من الآجال والأرزاق والمقادير»[٢]، وقيل: «هو الرجلُ يعمل الزمَنَ الطويلَ بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله، فهو الذي يَمحو، والذي يُثْبِتُ؛ الرجلُ يعملُ بمعصية الله الزمانَ الطويل، ثم يتوب فيمحوه الله من ديوان السَّيِّئات ويُثْبِّته في ديوان الحسَنات»[٣].

وفي كلِّ هذه الأقوال يمتدُّ زمن المحو لمدَّةٍ طويلة؛ سواءٌ من زمان كفر الإنسان حتى زمان توبته، أو من ليلة القدر، التي يُنزِّل الله فيها الآجال والأرزاق والمقادير حتى ليلة القدر من السنة التالية. ولذلك ثبت (الواو)، ليُناسب طولُ اللفظ طولَ المدة التي يقتضيها مَحوُ تلك الآجال والأرزاق والمقادير أو إثباتها.

أمّا (يَمْحُ) بحذف الواو فقد ورد في قوله تعالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الشورى: ٢٤].

وكما هو معلوم فإنّ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ جملة مستأنفة، لا تعلُّق لها بما قبلها، ولا هي داخلة في جواب الشرط من ﴿فَإِن يَشَإِ﴾، والفعل ﴿وَيَمْحُ﴾ مرفوعٌ بدليل العطف عليه بقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾[٤].

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢/٥٣٤.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٣/١٦٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٩/٣٣٢.

(٤) الفصول المفيدة في الواو المزيدة: ١١٩.

وإذا استثنينا توجيه حذف (الواو) بِحَملِهِ على المعنى كما قيل[١]، كما استثنينا حَملَه على التقاء الساكنين، فعند ذاك يبقى التوجيه الذي ذكره الزركشي وهو أنّ (الواو) حُذِفَت منه «علامة على سُرعة الحقِّ، وقبول الباطل له بسرعة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الاسراء: ٨١]»[٢]، أي: سريع الزوال والاضمحلال، حيث يُقال: «زَهَقَ فلانٌ بين أيدي القوم يزهقُ زُهوقا: إذا سَبَقَهم فَتَقَدَّمَهم»[٣]. وهكذا حُذِف الواو من ﴿وَيَمْحُ﴾ ليناسبَ قِصَرُ اللَّفظِ وسُرعةُ النُّطقُ به سرعةَ ذهاب الباطل واضمحلاله.

٤. ٢. ٣. ٢ ـ (يَدْعُو) و (سَنَدْعُ)

ورد الفعل (يَدْعُو) بإثبات الواو و الفعل (سَنَدْعُ) بحذف الواو وإسقاطها لفظاً وكتابةً، وذلك في الآيتين التاليتين:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥]

﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: ١٨]

وقد تَمَّ اختيار هذين الفعلين من هاتين الآيتين لأنّ فاعلهما واحد؛ هو (الله)، وهو وجه الاشتراك الذي يستقيم به الاستدلال، أمّا وجه الاختلاف الذي أثبت الواو في الأول، وأسقطه من الثاني فهو الصيغة والسياق.

فالواو ثابتة في ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ من الآية الأولَى لأنّ السياق يدلُّ على أنّ الفعل المضارع هذا يفيد الاستمرار والدوام، فالله سبحانه وتعالى دعوته إلى دار السلام دائمة ثابتة،

---

(١) العكبري، التبيان في اعراب القرآن: ٢/٢٢٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/٣٩٨.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٠/١٥٣.

وليست محدودةً في زمن خاص، فقد رُوي أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم طلعت شَمسُه إلا للمقدام مَلَكان يناديان نداءً يسمعه خلقُ الله الثقلين: يا أيها الناس هَلُمُّوا إلى ربِّكم إنّ ما قَلَّ وكَفَى خيرٌ مِمَّا كَثُرَ وألهى، ولا آبت الشمس إلا وكان بِجَنبيها مَلَكان يناديان نداءً يسمعه خلقُ الله الثقلين: اللّهم أعطِ مُنفقاً خَلَفاً، وأعطِ مُمسِكاً تَلَفاً، وأنزل اللهُ في ذلك قرآناً في قول الملكين: يا أيها الناس هلُمّوا إلى ربكم في سورة يونس ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾»[1].

ولَمّا كان الفعل﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ يدلُّ على الاستمرارية والدوام فقد ثبت الواو ــ وهو حرف مدٍّ ـ ليتناسب طول الفعل والمدّ الذي ينتهي به مع استمرار الدعوة ودوامها.

وكذلك عمل السياق على حذف الواو من ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، حيث لا يدل الفعل هنا على الدوام والاستمرار، بل هو فعل صرفه (السين) إلى المستقبل الذي هو يوم القيامة الذي يُباغت الناس أمره ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، حيث تُدعَى الزبانية؛ الملائكة الشِّداد الغِلاظ للنَّيْلِ من أبي جهل الذي مَرَّ «على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يُصَلِّي ثَمَّ المقام فقال: أَلَمْ أَنْهَكَ عن هذا يامحمد؟ فأغلَظَ له رسولُ الله (صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم) فقال أبو جهل: بأيِّ شيء تُهددني يا محمد؟ والله إني لأكثرُ أهل الوادي هذا نادياً، فأنزل الله عز وجل ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧ ـ ١٨]»[2].

فعنصر المباغتة في يوم القيامة، وفي دعوة الزبانية التي تكون كلمح البصر أو هو أقرب، هو الذي دعا إلى حذف الواو من ﴿سَنَدۡعُ﴾ إشارةً إلى «سرعة الفعل، وإجابة

(١) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف: ٢/٢٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/١٢٧.

الزَّبانية، وقُوَّة البَطش، وهو وعيدٌ عظيم ذُكِرَ مبدؤه وحُذِفَ آخره»[1]، كما ذُكِرَ مبدأُ الفعلِ ﴿سَنَدْعُ﴾ وحُذِفَ آخِرُه؛ (الواو)، فناسبه من هذه الجهة ايضاً، فالسُّرعةُ التي فيها اختزالٌ للوقت في الزمان قَابَلَها اختزالُ الحروف في الكلمات.

٤. ٢. ٤ ـ إثبات (الياء) وحذفه

حُذِف (الياء) من آخر اللَّفظ القرآني، في مواضع عديدة، رغم أصالة ذكره في اللّفظ، مثلما ورد مُثبَتاً في ذات الألفاظ في مواضع أخرى، وليس من علَّة موجبةٍ لهذا الحذف والذكر سوى المناسبة الصوتية. ويمكن تقسيم هذا الحذف والذكر إلى أقسام ثلاثة، هي:

١ ـ إثبات (الياء) وحذفه من آخر الاسم المنقوص.

٢ ـ إثبات (الياء) وحذفه من آخر الفعل الناقص.

٣ ـ إثبات (الياء) المتكلِّم وحذفه من آخر الاسم و الفعل.

٤. ٢. ٤. ١ ـ (ياء) الاسم المنقوص

حُذف (الياء) من الاسم المنقوص في مواضع عدّة من القرآن الكريم، منها ما كان في نهايات الآيات، ومنها ما ورد في درج الكلام، وهو ما يحتاج إلى بيان العلّة فيه، ومن أمثلة الحذف الذي ورد في نهايات الآيات:

﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ من قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

و﴿ٱلتَّنَادِ﴾ في قوله تعالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/٣٩٧ ـ ٣٩٨.

و﴿يَسۡرِ﴾ في قوله تعالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤].

وهذا يدخل في باب الوقف على رؤوس الآيات، وهو توجيه يدخل في باب الايقاع، وإن كان لبعضها توجيه يدخل في باب الدلالة الصوتية، ومن ذلك حذف الياء من ﴿يَسۡرِ﴾ فقد «قال المؤرج: سألتُ الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من ﴿يَسۡرِ﴾ فقال: لا أُجيبك حَتى تَبيتَ على باب داري سنة، فَبِتُّ على باب داره سنةً، فقال: الليل لا يسري وإنما يُسرَى فيه، فهو مصروف، وكلُّ ما صَرَفْتَهُ عن جِهَتِهِ بَخستَهُ من إعرابه؛ ألا تَرى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾[مريم: ٢٨]، ولم يقل (بغيّة) لأنه صرفها عن (باغية). [قال] الزمخشري: وياء (يسري) تُحذف في الدرج إكتفاء عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتُحذف مع الكسرة»[1].

ومن أمثلة حذف الياء من الاسم المنقوص مِمّا ورد في غير رؤوس الآيات الأسماء التالية:

(الْجَوَابِ)[2] في قوله تعالَى: ﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]،

(الْبَادِ)[3] في قوله تعالَى: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج: ٢٥]،

(الْجَوَارِ) في قوله تعالَى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٤٣.

(٢) «الأولى أن تكون بالياء ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها فلما كان يقال جواب ودخلت الألف واللام أقر على حاله فحذف الياء. وواحد الجوابي جابية وهي القدر العظيمة» (الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٧٥).

(٣) الباد: «أهل البادية ومن يقدم عليهم» (الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٣٢).

أمّا ماجاء من الأسماء المنقوصة بإثبات الياء تارةً، وبحذفه تارةً أخرى فهو (المهتدي) و (المهتد).

٤. ٢. ٤. ١. ١ ـ (المهتَدي) و (المهتَدِ)

وردت كلمة (المهتدي) في القرآن الكريم بإثبات (الياء) مرّةً واحدة فقط، في قوله تعالَى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وذلك في سياق الهداية العامة، من دون إرادة شخصٍ ما وتخصيصه بهذه الهداية، بدليل قوله تعالَى قبله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦ ـ ١٧٧].

وقد وردت ذات الكلمة ولكن بحذف (الياء) من آخرها (المهتَدِ) والاجتزاء بالكسرة بدلاً منها وذلك مرّتين:

الأولى: في قوله تعالَى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الاسراء: ٩٧]، وهي في سياق هداية نبيّ الاسلام محمد ﷺ، بدليل قوله تعالَى قبله: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الاسراء: ٩٦].

الثانية: في قوله تعالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]، وهي في سياق هداية أصحاب الكهف والرقيم، حيث سبق ذلك مباشرةً قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ١٧].

فلَمّا جاءت الهداية في سياق العموم من دون تخصيص أُثبِتَ (الياء) ولم ينقص

من الكلمة شيءٌ لمناسبة عموم اللّفظ لعموم الخلق. ولكن عندما جاءت الهداية في سياق الخصوص واقتصرت على شخص دون غيره (في سورة الاسراء)، أو مجموعة دون غيرها (في سورة الكهف) قصر اللّفظ بحذف (الياء) من آخره.

وربما دلَّ حذف ياء (المهتدِ) في السياقين أعلاه على سُرعة الهداية وحسمها بصورة نهائية لا ضلالة بعدها[1]؛ والنبي الهادي ﷺ هو أحقّ خلق الله بهذه الهداية، وقد كان أسرعهم إليها، وكذلك كان أهل الكهف في زمانهم، حيث قال عنهم ربهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف].

وهناك ملاحظة أخرى بخصوص هذين اللفظين، وهي أنّ لفظ (الهداية) تردَّدَ في سورة الأعراف التي ورد فيها (المهتدي) بإثبات الياء أكثر مِمّا تردّدَ في سورتي الاسراء والكهف مُجتَمِعَتَين وهما اللّتان ورد فيهما (المهتدِ) بحذف الياء. «فقد ورد في الأعراف سبع عشرة مرّة، في حين ورد في الإسراء ثماني مرّات وفي الكهف ستّ مرّات، فلَمّا زادت ألفاظ الهداية في سورة الأعراف على ما في السورتين زاد لفظ: (المهتدي) على ما في السورتين»[2]. فهذه ثلاثة أدلّة صوتية على سبب إثبات (الياء) وحذفها من هذا اللفظ في الذكر الحكيم، والله أعلم.

٤. ٢. ٤. ٢ ـ (ياء) الفعل الناقص

٤. ٢. ٤. ٢. ١ ـ (يَأتِي) و (يَأتِ)

ورد هذا الفعل مسبوقاً بلفظ (يوم)، ويُقصَد به (يوم القيامة)، في ثلاثة مواضع في

---

(١) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ١٢٨.

(٢) التعبير القرآني: ٨٥.

القرآن الكريم؛ مرّتان بإثبات (الياء) على الأصل في (يَأتي)، ومرةً بحذف (الياء) من (يأتِ) دون سبب نحويٍّ، وذلك في الآيات التالية:

- ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

- ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف].

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود].

ولإثبات (الياء) في الآيتين الأولى والثانية، وحذفه في الآية الثالثة ما يُبرِّرُه، ويمكن تلخيص ذلك بالنقاط التالية:

أولاً: وردت الآية الأولى في سياق حال الذين لم يؤمنوا في الحياة الدنيا ولم يكسبوا في إيمانهم خيراً، وبيان عاقبة أمرهم يوم القيامة، فطُلب منهم الانتظار حتى ذلك اليوم الموعود، دون أن يكون هناك ما يدعو إلى العجلة ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾.

ووردت الآية الثانية في سياق حال اؤلئك الذين نسوا آيات الله في الحياة الدنيا فندموا يوم القيامة، وتَمنَّوا الشَّفَاعة ليعودوا إلى الدنيا فيعملوا غير الذي كانوا يعملون.

ففي الآيتين هناك بيان لعاقبة الذين لم يُؤمنوا وبيان مصيرهم يوم القيامة، فكأنها تحُثُّهم على العمل في الدنيا والتزوُّد ليوم الآخرة، ولهذا أُثبتَ (الياء) وطالت الكلمة فيهما، أملاً في أن يعودوا فيما تبقّى من حياتهم إلى الصراط المستقيم.

أما الآية الثالثة فواردة في سياق الاعتبار بما حَلَّ بالأمم الكافرة، والتخويف من عذاب يوم القيامة الذي لم يُؤخَّر إلا لأجَلٍ معدود غير بعيد، فهو لا يلبث أن يأتي كلمح البصر، ولهذا حُذفَ (الياء) من (يأتِ) في إشارةٍ إلى سرعة حلول ذلك اليوم، فيأخذوه بحُسبانهم.

ثانياً: جاء في عدّة مواطن من سورة هود، التي ورد فيها (يأتِ) بحذف الياء، تعجُّل الذين كفروا للعذاب، وقابله تردُّد الوعد بقرب نزول هذا العذاب فقد جاء فيها من ذلك:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ [هود: ٨].

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢].

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥].

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١].

فلَما تكرَّر ذكر استعجال العذاب وتكرَّر كذلك الحديث عن قرب حلوله بِمَن كذَّبَ بالرسُل جاء الفعل (يأتِ) بحذف ياء المد من آخره لِيُشعرَ بقُربِ هذا الوعد وبأنّ زمانه غير مديد وبأنه ليس عن الظالمين ببعيد.

ثالثاً: وقد أحصَى بعضُهم تَرَدُّد ذكر الإتيان باشتقاقاته المختلفة في السور الثلاثة فبلغت في سورتي الأنعام والأعراف أربعاً وعشرين مرّةً في كلٍّ منهما، وثلاثة عشر مرة في سورة هود أي: ما يُقارب النصف مِمّا في تلك فخلص إلى أنّه «لَمّا كثر الفعل في سورتي الانعام والأعراف كثّر البناء، ولَما قلّ تردّده في (هود) قلّلَ من البناء»[1].

٤. ٢. ٤. ٢. ٢ ـ (نبغي) و (نبغِ)

ورد الفعل المنقوص (نبغي) مرّتين فقط في الذكر الحكيم مَرَّةً مع إثبات (الياء)، وهو الأصل، في قوله تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ [يوسف: ٦٥]، ومَرّةً باجتزاء (الياء) والاكتفاء بالكسرة، في قوله تعالَى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ [الكهف: ٦٤].

وبالرجوع إلى كتب التفسير نجد أنّ (ما) السابقة لهذا الفعل في قوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي﴾ تفيد الاستفهام ترجيحاً[2]، فيكون معنى«﴿مَا نَبۡغِي﴾ أي: ماذا نريدُ؟ هذه بضاعَتُنا رُدَّتْ إلينا»[3]. والسياق الذي وردت فيه هذه الجملة يُفيد ذلك، حيث وردت بعد قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ

(١) التعبير القرآني: ٨٩.

(٢) «ويجوز أن تكون نافية... أي: ما نطلب الظلم» (التبيان في اعراب القران: ٢/٥٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/٤٨٥.

هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴾ [يوسف]

فجملة ﴿مَا نَبۡغِي﴾ الاستفهامية قالها إخوة يوسف لأبيهم بعد رجوعهم من عند عزيز مصر (يوسف عليه السلام) الذي طلب منهم إحضار أخيهم الصغير، فأخذوا يراودون أباهم للموافقة على إرساله معهم، ولكن أباهم رفض ذلك، لتذكُّره يوسف وما فعلوه به، ولَمّا فتحوا متاعهم الذي جاؤا به من مصر وجدوا بضاعتهم أي: أثمان ما استلموه من عزيز مصر قد رُدّت إليهم فسرَّهم ذلك، وقالوا لأبيهم: «أيَّ شيءٍ نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا»[1]، وماذا «نبتغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسِّع ذات أيدينا»[2].

فأُثبِتَتْ (الياء) في﴿نَبۡغِي﴾ لأنَّ بضاعتهم المردودة إليهم هي تمام ما يَبغونه، بل كان ذلك فوق ما يحلمون به، فجاء تمام اللّفظ متناسباً مع تَمام البُغية.

أمّا (ما) السابقة لـ ﴿نَبۡغِ﴾ المحذوفة الياء في سورة الكهف فهي موصولة بمعنى: الذي، فيكون معنى ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾ أي: «ذلك الذي كنا نطلب»[3]، ومرجع ﴿ذَٰلِكَ﴾ في ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾ إلى ما سبق ذكره، حيث قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا

(١) تفسير الجلالين: ٣١٣.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢/ ٦٥.

(٣) م.ن: ٢/ ٧٣٣.

﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف]، فإنّ موسى وفتاه كانا في طريقهما للبحث عن الخضر عليه السلام، فَنَسِيا حوتَهما عند صخرة، ولم يَشعرا بذلك إلاّ بعد أن أرهَقَهما السَّفَر وقت الغَداء، وطلب موسى الحوت ليأكُلاه، فأخبَره فَتاهُ بأنه نَسِيَه عند الصخرة، واقترح عليه أن يأويَا إليها. وهنالك قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: ما كنّا «نطلبه، فإنه علامة لَنا على وجود مَن نطلبه»[1]، وهو الخضر، «لأنّ موسى كان قيل له: صاحبك الذي تُريده حيث تَنسَى الحوت»[2].

ونفهم مِمّا سَبَق أنّ نسيان الحوت عند الصخرة ليس هو بُغية موسى ومراده، وإنما كان مراده لقاء الخضر في ذلك المكان كما قيلَ له، «لذلك حُذِفَت (الياء) من فعل ﴿نَبْغِ﴾ للإشارة إلى عدم إرادة المكان لذاته، فإرادة المكان ناقصة وليست تامّة، وحُذِفَت (الياء) ليكون الفعل ناقصاً حرفاً، وبذلك يتوافق عدمُ تمامِ الفعلِ مع عدمِ تمامِ البُغية عند الصّخرة؛ لأنها وسيلة للغاية وهي لقاء الخضر عندَها»[3].

ويمكن أن يكون هناك سبب آخَر للحذف وهو أنّ المقام كان مقام مفاجأة وسرعة وكلاهما يقتضي الاختصار والحذف، فقد كان موسَى ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، فإذا هو يسمع بِما يَدلُّه على بُغيته (لقاء الخضر)، فأسرع بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ وحذف الياء كأنه يستعجل الرجوع لينال مبتغاه[4].

---

(١) تفسير الجلالين: ٣٩٠.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٥/ ٢٧٥.

(٣) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني: ٢٤٩.

(٤) التقطت ملاحظة كون الموقف موقفسرعةوهويستدعي الاختصارمن الدكتورحسام سعيد النعيمي، ذكرها في برنامج (لَمسات بيانية) الذي تعرضه قناة (الشارقة) الفضائية، وذلك بتاريخ ٢٠٠٦/٤/٢٧

ويؤكّد مقام السرعة هنا ما تَبِعَ لفظ ﴿نَبۡغِ﴾ مباشرةً من (الفاء) العاطفة والفعل **(ارْتَدَّا)** في قوله: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ أي: أسرَعا و«رَجَعا في الطريق الذي كانا سَلَكاه»[(١)]، فالفاء تفيد العطف بدون تراخي، والفعل الذي تلاها **(ارْتَدَّا)** يفيد معنى ردِّ الفعل السريع وهما يتعرّفان فجأةً على موضع مَن يبحثان عنه، فحذف الياء من ﴿نَبۡغِ﴾ استعجالاً في بلوغ الغاية.

وهكذا فَرَّقَ التعبير القرآني حين استعمل فعلاً واحداً يُفيد الغاية والإرادة، لسياقَين مختلفين، فما كانت الغاية فيه مطلوبة لذاتها استعمل له الفعل كاملاً من دون نقص، ليناسب تمامُ الفعل تمامَ الغاية. وما كانت الغاية فيه غير مطلوبة لذاتها، بل هي محطّة لبلوغ الغاية الحقيقية استعمل له الفعلَ ناقصاً حرفاً، ليناسب نقصانُ الفعل نقصانَ الغاية. كما ناسب الحذف والاختصار مقام السرعة والاستعجال.

وما من شكٍّ فإنّ هذا التعليل في حذف الياء من ﴿نَبۡغِ﴾ أقرب إلى إعجاز القرآن الصوتي منه إلى التعليل الذي قدّمه القدامى بقولهم: «فَحَذْفُ الياء في هذا ونحوه في الوقف إنما هو لرؤوس الآي وتشبيههم إياها بالقوافي»[(٢)]، وذلك لأنّ الحذف لم يكن مقصوراً على الفاصلة القرآنية فحسب، بل ورد في غير رؤوس الآيات منه الشيء الكثير، كما إنّ في التوجيه الصوتي ذي الدلالة البيانية تنزيهاً للقرآن عن تشبيهه بالشعر.

٤. ٢. ٤. ٣ ـ (ياء) المتكلّم

في الساعة السابعة مساءً بتوقيت بغداد. وأضفت له موقف المفاجأة.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٥/٢.

(٢) سِرُّ صناعة الإعراب: ٤٧١/٢.

كان الزركشي قد خَصَّصَ قسماً في كتابه البرهان بعنوان: حذف الياء، استعرض فيه حذف ياء المتكلم معتبراً «أنها إنْ كانت للعبد فهو الغائب، وإن كانت للربّ فالغيبة للمذكور معها، فإنّ العبد هو الغائب عن الإدراك في ذلك كلّه، فهو في هذا المقام مُسلم مؤمن بالغيب، مُكتَفٍ بالأدلّة، فيقتصر في الخط لذلك على نون الوقاية والكسرة»[1].

ويضرب لذلك أمثلةً يكتنف تعليل حذف (الياء) فيها وإثباتها بعض الغموض، أيسرها: حذف الياء وإثباتها في (عِباد) و (عِبادي)، فيقول في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ﴾ [الزمر: ١٠] أنهما «خطاب لرسوله عليه السلام على الخصوص، فقد توجّه الخطاب إليه في فهمنا، وغاب العباد كلُّهم عن علم ذلك، فهم غائبون عن شهود هذا الخطاب؛ لا يعلمونه إلا بوساطة الرسول، وهذا بخلاف قوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [الزخرف: ٦٨]، فإنها ثبتت[2]، لأنه خطاب لهم في الآخرة غير محجوبين عنه... وكذلك: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] ثبت الضمير وحرف النداء في الخط، فإنه دعاهم من مقام إسلامهم، وحضرة امتثالهم إلى مقام إحسانهم، ومثله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [العنكبوت: ٥٦] في العنكبوت، فإنه دعاهم من حضرتهم في مقام إيمانهم، إلى حضرتهم ومقام إحسانهم، إلى ما لا نعلمه من الزيادة بعد الحسنَى»[3].

ويُؤخَذ عليه عدم وضوح التعليل من جهة، واستشهاده بآية الزخرف وتوجيه

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٤٠٣/١.

(٢) هذا خلاف ما في المصحف حيث جاءت في المصحف محذوفة: ﴿يَٰعِبَادِ﴾.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٤٠٤/١ ـ ٤٠٥.

إثبات الياء فيها، في حين وردت في المصحف محذوفة الياء هكذا: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ﴾. وبسبب كثرة الشواهد من حذف (ياء) المتكلم وإثباتها في التنزيل الحكيم سيتمّ الاكتفاء ببعضٍ من تلك النماذج التي تتجلّى فيها الدلالة الصوتية كسبب منطقيّ للحذف والذكر.

٤. ٢. ٤. ٣. ١ ـ (عبادي) و (عِباد)

قد يُحذف ياء المتكلم من الاسم المجموع فيكون هذا الحذف دليلاً على القلّة، ثم عندما يُذكر في نفس اللّفظ في سياق آخَر يكون الذكر دليلاً على الكثرة؛ أي: «إنّ ما ذُكرَتْ فيه الياءُ أوسع وأشمل مِمّا حُذِفَتْ منه، فكأنّ طول البناء إشارة إلى سَعة المجموعة»[1]. ومثالهما: (عبادي) و (عِبادِ) اللّذان وَرَدا كثيراً في القرآن الكريم، ويُكتَفى هنا بالإشارة إلى ما ورد منهما في سورة واحدة فقط ليكون الاستقراء دقيقاً.

فقد وردت (عبادِي) بإثبات الياء مَرّةً في سورة الزمر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وعباد الله من الذين أسرفوا على أنفسهم يُمثلون أكثرية الخلق بدليل قوله تعالَى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]، فهم الأكثرية مقابل الأقلّية من المؤمنين: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣]، ولذلك جاءت (عبادِي) بإثبات الياء لِيُناسب كثرةُ البناء كثرةَ الجمع.

أمّا (عِبادِ) المحذوفة الياء فقد وردت في السورة ذاتها ثلاث مرّات وصفاً للقلّة القليلة من المؤمنين، في الآيات التالية:

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٣١.

١ ـ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ [الزمر: ١٠]

٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر: ١٧]

٣ ـ ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٦]

والآيتان الأولَى والثانية بيِّنتا الدلالة على اختصاصهما بالمؤمنين، أما الآية الثالثة فرغم أنها تتحدّث عن أهل النار ثم ذُيِّلت بقوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ إلا أنّ المخاطبين بها هم أولياء الله كما ذكر ذلك ابن عباس حيث قال في ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ «أي: يا أوليائي فخافون»[1]. ولذلك جاءت ﴿عِبَادِ ﴾ بحذف الياء لِيُناسبَ قلّةُ البناء قلّةَ الجمع.

٤. ٢. ٤. ٣. ٢ ـ (اتَّبعَني) و (اتَّبعَنِ)

ونظير الذكر والحذف في (عِبادي) و (عِبادِ) إثبات ضمير المتكلم في (اتَّبَعَني) من قوله تعالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، وحذفه من (اتَّبَعَنِ) في قوله تعالَى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

فقد أُثبِتَتْ الياء في الآية الأولَى التي تتحدّثُ عن المؤمنين الذين يدعون إلى الله على بصيرة، وحُذفت من الآية الثانية التي جاءت في سياق الدخول في الاسلام حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٤٣/١٥.

جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران]، فجاء الإثبات والحذف في الموضعين من جهتين:

١ـ إنّ المؤمنين الدّاعين إلى الله في الآية الأولَى أشدُّ إيماناً بالرسول وأكثر اتباعاً له، لذا فهم أكثر التصاقاً بالرسول ﷺ من غيرهم من المسلمين، ومن هنا أُثبت ضمير المتكلم العائد على الرسول، وأُلصِقَ بالفعل (اتَّبَعَ) المتضمِّن للضمير المستتر العائد على اؤلئك الذين اتَّبعوا الرسول من المؤمنين، فطابق اتباعُ الضمير للفعل اتباعَ المؤمنين للرسول، أمّا المسلمون في الآية الثانية فهم متفاوتون في درجة الإيمان، وإنّ منهم من آمن بلسانه دون قلبه، وهو الأعَمّ الأغلب، فحُذف الضمير ولم يتبع الفعل لقلّة المتَّبعين للرسول قولاً وعملاً. فناسبَ اللّفظ المعنى حين ذُكر، وحين حُذِف.

٢ـ إنّ المذكورين في آية ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ داخلون حتماً في آيــة ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾، فهم مسلمون إضافةً إلى كونهم مؤمنين، وليس العكس صحيحاً، أي: لا يُشترَط دخول المذكورين في الآية الثانية من المسلمين في جماعة المذكورين في الآية الأولَى من المؤمنين، إذ ليس كلُّ مسلم داعياً إلى الله على بصيرة. وبهذا كان اتّباع الرسول في الآية الأولى أكثرَ لأنّه يشمل الاتّباع الثاني وزيادة، ومن هنا «كان ذكر الياء فيها أولَى من الاجتزاء بالكسرة لأنّ الياء عبارة عن الكسرة وزيادة، فلَمّا زاد الاتّباع زاد بذكر الياء، فوضع كل تعبير في مكانه المناسب»[1]. والله أعلم.

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٢٩.

٤. ٢. ٤. ٣. ٣ـ (أخَّرتَني) و (أخَّرتَنِ)

ورد لفظ (أخَّرتَني) بإثبات الياء و(أخَّرتَنِ) بحذف الياء كلٌ منهما مرَّةً واحدة فقط في الذكر الحكيم ؛

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الاسراء: ٦٢].

وقد أوردنا اللّفظين في سياقهما كاملين لنتبيّنَ الفرق بينهما، فقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ بإثبات الياء جاء على لسان من نَزَلَ به الموتُ فقال: ياربِّ هَلاّ أخَّرتَني فَتُمَهِّلَ لي في الأجل إلى أجل قريب؛ فأُزكي مالي، وأكُنْ من الصالحين، وأعمل بطاعتك، وأُؤدِّي فرائضَك[1].

أمّا قوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ بحذف الياء فجاء على لسان إبليس بعدما امتنع عن السجود لآدم فأقسَمَ مخاطباً ربّه: لَئن أخَّرتَ إهلاكي إلى يومِ القيامة لأستَولِيَنّ على ذريّة آدمَ[2]، أو «لأستأصِلنَّهم بالإغواء»[3]. والفرق بين التعبيرين يتجلّى في أمرين أدّيا إلى الذكر تارةً والحذف أخرى:

الأوّل: إنّ الطلب في قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِ﴾ أراد به قائله تأخير أجله هو نفسه

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١١٧/٢٨.

(٢) م.ن: ١١٦/١٥.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٦٧٧/٢.

دون غيره، فهو طلبٌ صريحٌ؛ ولذلك صرَّحَ بالضمير، أمّا كلام إبليس فليس بطلب في حقيقته، «وإنّما هو شرطٌ دخلَ عليه القسَمُ، فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ فهو من باب الطَّلب الضمنِيّ، وليس من باب الطَّلب الصّريح»[1]، ولذلك لم يُصرّح فيه بالضمير.

الثاني: إنّ الموت إذا نزل بعبد لم يُؤدِّ ما فَرَضَ اللهُ عليه فإنه يكون أكثر تَشَبُّثاً بنفسِهِ وبالحياة، فيتَضاعَفُ لديه حُبُّ البقاء حيّاً ولَو إلى أجل قريب، وهذا التشبُّثُ بِبَقاءِ النَّفسِ حيّةً متصلةً بالحياة يُلائمه إبقاء ضمير المتكلم (المدّ اليائي) متصلاً بالفعل. أما إبليس فإنه لَمّا تَيقَّنَ أنّ جَزاءَهُ جَهنّم جَزاءً موفوراً، ويَئِسَ تَماماً، وانقَطَعَ كُلُّ أمَلٍ له بالرَّحمَة الإلهيَّة، فَقَد ناسَبَهُ أهمالُ الضَّميرِ وقَطْعُ الفِعلِ عنه.

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٢٨.

المبحث الثالث

٤. ٣ ـ دلالة توالي بعض الأصوات في اللفظ القرآني

أُشير في مواضع متفرقة من الفصول الثلاثة السابقة إلى مستويات متعددة من علاقة الأصوات بالمعاني، ودلالة بعضها على معانٍ خاصة، انطلاقاً من طبيعة كلِّ صوتٍ وصفاته المميِّزة. فالأصوات المتَّصفة بصفات الجهر والشدّة و التفخيم وما شاكلها، وتلك المتَّصفة بأضدادها من صفات الهمس والرخاوة والترقيق وما شاكلها كثيراً ما تَرِد في الألفاظ التي تدلّ على المعاني القريبة من هذه الصفات. وهكذا الأمر في سائر صفات الأصوات كالصفير والتفشِّي والتكرير والغُنَّة وغيرها، فكان أن انتهينا إلى ما انتهى إليه السيوطي بقوله: «وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني»[1].

وقد شغلت دلالة الأصوات المفردة واختصاصها بمعاني بعينها المعاصرين أيضاً، منهم على سبيل المثال، رشيد سليم الخوري وعباس محمود العقّاد؛ فقد قال الأول بهذا الشأن: «وقد تنبّهتُ بطول المراجعة إلى أنّ حرف الفاء هو نقيض حرف العين بدلالته على الإبانة والوضوح؛ فتَح، فضَح، فرح، فلق، فجر، فسر.. إلخ مِمّا يُعيي إحصاؤه ويندر استثناؤه، وأنّ حرف الضّاد خُصّ بالشؤم يسِمُ جبين كلَّ لفظةٍ بمكرهة لا يكاد يسلم منها اسم أو فعل: ضجر، ضَرَّ، ضيْر، ضجيج، ضوضاء، ضياع، ضلال، ضنك، ضيق، ضنَى، ضوي، ضراوة، ضيزى، وبعكسه الحاء التي تكاد

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١/ ٤٠.

تحتكر أشرف المعاني وأقواها: حُبّ، حَق، حُرِيّة، حياة، حَسَن، حرَكة، حِكمة، حِلم، حَزم...»[١].

أمّا العقّاد فقد أجمَل رأيه في مقالٍ له بِخصوص هذه القضية بقوله: «والنتيجة بعد هذه الملاحظات السريعة قد تكون كبيرة الجدوَى مع التَّوسُّع فيها، وتَعَدُّد الناظرين إليها من جميع جوانبها وخلاصتها:

أولاً: إنّ هناك ارتباطاً بين بعض الحروف ودلالة الكلمات.

ثانياً: إنّ الحروف لا تتساوى في هذه الدلالة، ولكنّها تختلف باختلاف قوّتها وبروزها في الحكاية الصوتية.

ثالثاً: إنّ العِبرة بموقع الحروف من الكلمة لا بِمجرّد دخوله في تركيبها.

رابعاً: إنّ الاستثناء في الدلالة قد يأتي من اختلاف الاعتبار والتقدير، ولا يلزم أن يكون شُذوذاً في طبيعة الدلالة الحرفية..»[٢].

ولَمّا كان القرآن الكريم كتاب هداية ورحمة فإنّ أكثر ما ورد فيه من مفردات تُشير إلى هذه المعاني السامية وتنطق بها. ومعاني الرحمة والخير والهداية غالباً ما تُتَّخَذُ لَها أفضل الأصوات، وأسهلها نطقاً، وأخَفّها على اللِّسان، ومن هنا فقد كثر في كتاب الله ورود «أسهل الكلمات نُطقاً؛ تلك التي تتركّب من الأحرف الآتية: اللام. النون. الميم. الدال. التاء. الباء. أحرف المدّ»[٣].

فالنِّسَب التقريبية لشيوع الحروف في القرآن الكريم هي كالآتي: «في كلِّ ألف من الحروف ترد اللاّم (١٢٧) مرّة، والميم (١٢٤)، والنون (١١٢)، والهمزة (٧٢)،

---

(١) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب: ٤٣.

(٢) م.ن: ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) موسيقى الشعر: ٣٣.

والهـاء (٥٦)، والـواو (٥٢)، والتـاء (٥٠)، واليـاء (٤٥)، والبـاء (٤٣)، والكـاف (٤١)، وكلٌّ من الراء و الفاء (٣٨)، والعين (٣٧)، والقاف (٢٣)، وكـلٌّ مـن السِّين والدال (٢٠)، والـذال (١٨)، والجيم (١٦)، والحـاء (١٥)، والخـاء (١٠)، والصـاد (٨)، والشين (٧)، والضاد (٦)، وكلٌّ من الغين والثاء (٥)، وكـلٌّ مـن الـزاي والطـاء (٤)، والظاء (٣)»[1].

وهذه النسب الصوتية المنضبطة التي ورد عليها القرآن الكريم تُعتبر نتيجة طبيعية لِهذا التَخَيُّر الدقيق للصوت، باعتبارٍ من دلالته الصوتية على عموم المعَنى من جهة، وعلى تَمام المعنى من جهة ثانية.

٤. ٣. ١ ـ دلالة الصوت المفرد على عموم المعنى

تكاد تكون لكلِّ حرف من الحروف العربية خصوصيّته الدلالية التي تُميّزه عن غيره، وإجراء مَسحٍ شاملٍ للكشف عن المعاني الكليّة لكل حرف على حِدَة يتطلّب جهداً كبيراً يفوق حدود القدرات الفردية، لذا سيتم الاكتفاء بذكر السِّمَة الدلالية الغالبة لصوتَين، أحدهما: (النون) وهو أكثر الأصوات شيوعاً في القرآن الكريم، والثاني (الظاء) وهو أقلّها وروداً فيه.

٤. ٣. ١. ١ ـ صوت (النون)

من الحروف التي تدلُّ خصائصها الصوتية على عموم المعنى خارج اللّفظ: حرف (النون). ومن أهم ما يُميِّز هذا الصوت غُنَّته التي تُصاحبه في حالَتَي السكون

(١) م.ن: ٣٦.

والحركة[١]. وهذه الغُنّة المحبّبة إلى النفس التي لا تكاد تفارق صوت (النون) تعود إلى خاصِّية هذا الصوت النطقية المتمثِّلة بحرية مرور الهواء عبر الأنف دون عائق أو مانع، مِمّا يجعله هو وصوت (الميم) يتشاطران الصفة الأنفية أو الخيشومية[٢].

ولقد شاع ورود صوت (النون) في ألفاظ القرآن الكريم فتقاسم مع صوتَي (اللاّم) و (الميم) المرتبة الأولى مع فارق بسيط جداً[٣]، أما وروده في فواصل الآيات كحرف رويّ تُختَم به نهايات الآيات القرآنية فإنّ صوت (النون) يحتلّ الصدارة من بين سائر الأصوات دون منازع؛ فقد بَلَغَت نسبة وروده فيها (٣١٥٢) مرّة، في حين بلغت نسبة ورود سائر الحروف مجتمعةً (٢٩٥٢) مرّةً[٤]، أي: إنّ نسبة ورود حرف (النون) لوحدِهِ رويّاً في فواصل الآيات القرآنية تفوق نسبة ورود الحروف العربية الـ (٢٧) مجتمعةً.

إنّ ورود هذا الكم الهائل من الفواصل القرآنية على حرف النون يعود إلى طبيعة هذا الصوت النغمية المؤثرة، فآخر صوتٍ يُلامس أُذُن السامع من الآيات وهي تُتلَى يبقى يَتردَّد صداه في النفس أكثر من غيره من الأصوات، فيُشعرها بالسكينة والإطمئنان، ولذلك أوعَزَ السيوطي خَتم الفواصل القرآنية بالنون مسبوقاً بحروف المد واللِّين إلى وجود التمكُّن من التطريب بذلك، مستنداً إلى قول سيبويه: «إنهم إذا تَرَنَّموا يُلحِقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مَدَّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم

---

(١) الموضح في التجويد: ٩٧.

(٢) علم الأصوات: ٣٥٨.

(٣) موسيقى الشعر: ٣١.

(٤) الفاصلة في القرآن: ٢٩٦.

يترنَّموا. وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع»[١].

إنّ هذه الخصوصية النغمية الأصيلة والأثيرة لصوت (النون) تكاد تُلقي بظلالها أيضاً على الحروف المجاورة له أيّاً كانت، فمجاورة النون «لأيِّ حرفٍ آخَر من حروف الهجاء تَستَسيغها الآذان، ولا يَتعَسَّر فيها النطق»[٢]، وهكذا فإنّ هذا التأثير ينسحب على مُجمَل اللّفظة التي يَرد فيها فَيُحَوِّلُها إلى لفظٍ عذبٍ رخيمٍ ينفَذ بِيُسرٍ إلى عُمق الوجدان الانساني، فيبعَثُ فيه الاحساس بالأمن والاطمئنان والسكينة، ولذلك كثر ورود النون في الألفاظ الدّالة على هذه المعاني، وكذلك في السياق الذي يَمُتُّ إلى هذه المعاني بِصِلَة. ومن ذلك؛ التعبيرات القرآنية التالية:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾[الأنفال: ١١].

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [النحل: ١١٢].

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾[آل عمران: ١٥٤].

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ ﴾[النساء: ٨٣].

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[الرحمن: ٥٤].

وهل يعني الاتّكاء على فُرُش الجنة الدانية القطوف إلاّ الاطمئنان والأمن والسكينة الأبدية. ثم لنتأمّل قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ونُنعِم «النَّظَرَ في ما

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٥٩.

(٢) موسيقى الشعر: ٢٨.

أحدَثَته (النون) و (التنوين) من صوت الغنّة الذي يَملأ القلوب أمناً وسكينةً واطمئناناً وإيماناً لدَى الناس بِشهر الرحمَة والهدَى ﴿رَمَضَانَ﴾ ، ثُمّ بين الناس وكتاب الرحمة والهدَى والمغفرة ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾»[1].

إنّ هذا الصّوت القرآنِيّ الأليف الذي يَتَرَدّد صَداه بِصُوَرٍ مختلفةٍ[2] في كتابِ الله، والذي نالَ النصيبَ الأوفرَ من حروف كلام الله وفواصل آياته، لابدّ أنّه هو الذي ينهض بالعِبءِ الأكبَر، من بين سائر أصوات القرآن، في تسكين النفوس وتطمين القلوب، فهو أدَلُّ ما يكون على معاني السَّكينة والاطمِئنان، وكيف لا يكون كذلك؟! والذين آمَنوا لا تطمئنُّ قلوبهم إلاّ بذكر الله وترديد كلماته وتلاوة آياته ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨].

وبعد فإنّ بين صوت (النون) وبين كلام الله وكتابه شأنٌ من الشأن، بل سِرٌّ من الأسرار الإلهية، لا يُدرَك كُنهُه، ولا يُبلَغ مداه، يتجَلّى من خلال التمهيد بهذا الحرف لِقَسَم الله بأداة الكتابة والتدوين، وهو القلم في السورة التي تبدأ بقوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم: ١] وتُختَمُ بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[القلم: ٥٢].

فأيُّ سِرٍّ هذا الذي يجمع بين صوت (النون) وبين الذكر الحكيم المنزَّل رحمةً للعالمين وبين القلم الذي أقسَمَ به ربُّ العِزّة «تعظيماً له، لِما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة، ولِما فيه من المنافع والفوائد التي لا يُحيط بها الوصف»[3].

---

(١) الزوبعي، ١٩٩٦م/٣٨٥.

(٢) يرد حرفاً أصيلاً في بنية الكلمة، وعلامةً للجمع والتثنية، وحرفاً للتوكيد المُخفّف والمثقّل، وتنويناً لصرف الأسماء وغير ذلك.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/٥٨٤.

٤ . ٣ . ١ . ٢ ـ صوت (الظاء)

يَقفُ (الظاء) على النقيض من حرف (النون) من جهتين ؛ من حيث دلالته العامة التي تناسب معاني الفظاظة والغلظة والشدّة ، وبالتالي من حيث نسبة وروده في القرآن الكريم ، فقد بَلَغَت نسبته التقريبية في كلِّ ألف حرف ثلاث مرّات فقط[1] ، أي : إنه أقَلّ الحروف وروداً في كتاب الله تعالى ، كما هو الحال في وروده في ألفاظ العربية على وجه العموم[2] .

وقد نظم أحدهم الألفاظ العربية التي ورد فيها حرف (الظاء) على بحر (الخفيف) فبلغَت (٨٨) كلمةً فقط ، وهي التي يقول في أوّلها[3] :

أيُّها السّائلي عن الظاءِ والضّاد لِكَي لا تُظِلُّه الألفاظُ
إنّ حِفظَ الظاءاتِ يُغنيك فاسْمَعْها استماعَ امرىءٍ له استيقاظُ
هي ظمياءَ والمظالِمُ والإظلامُ والظُّلمُ والظُّبَى واللِّحاظُ
والعظا والظليمُ والظَّبْيُ والشَّيظَمُ والظِّلُّ واللَّظَى والشُّواظُ

وهذه الكلمات في أغلبها غير مستعمل ، وقد اقتُصِر في المعجم الوسيط على ذكر (٦٨) مصدراً منها فقط[4] .

وعِلَّةُ قِلّة استعمال العرب لهذا الحرف يعود للثِّقَل الذي فيه[5] ، وهو ثِقَلٌ ناشئٌ

---

(1) موسيقى الشعر : ٣٦.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء : ٢٣٧/٩.

(٣) المزهر في علوم اللغة وأنواعها : ٢٤٨/٢.

(٤) خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٢٥.

(٥) المزهر في علوم اللغة وأنواعها : ١٥٥/١.

عـن كونـه «مـن فِخـامِ حُـروف الشّـجر»[١]، حيـث اجتمعَـت فيـه صـفات الجهـارة والاستعلاء والإطباق[٢]، ولهذا دلَّت أغلب الكلمات التي وردت فيه على معاني الشِّـدّة والقسـاوة والامـتلاء، رغـم دلالـة القليـل منهـا علـى معـاني الرقَّـة والأناقـة والنضارة[٣].

وهكذا ورد هذا الصّوت في كتاب الله، فقد دلّت أغلب الكلمات التي جاء فيها على معاني الشدّة والقسوة والإمتلاء، ويبدو ذلك أكثر وضوحاً وجلاءً حين تُقرَن هذه الألفاظ إلى ما يُقابلها من ألفاظ الرحمة واللِّين، كما في قوله تعالَى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فأصـوات (الـلاّم) و (النـون) و (التـاء) المرقّقـة في لفـظ ﴿لِنتَ﴾ خطابـاً لنبِـيِّ الرحمة، وكذلك في لفظ ﴿لَهُمْ﴾ التالي له، قابَلَها جَميعاً صوتُ (الظاء) المفخَّم المكـرَّر في لَفظَـيْ ﴿فَظًّا﴾ [٤] و﴿غَلِيظَ﴾[٥]. وقـد زادَ مـن تفخـيم (الظّـاء) وغِلظَتِـه التّشـديدُ والتنـوينُ في ﴿فَظًّا﴾، ووجـوب تفخـيم[٦] صـوت (الغـين) المفتـوح في أوّل ﴿غَلِيظَ﴾.

---

(١) لسان العرب: /مادة: ظئر.

(٢) اللباب في معرفة البناء والإعراب: ٤٦٧/٢.

(٣) خصائص الحروف العربية ومعانيها: ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٤) «الفَظّ: الكريه الخَلق، مستعار من الفظّ: أي: ماء الكَرِش، وذلك مكروه شُربُه لا يُتناوَل إلاّ في أشَدّ ضرورة» (المفردات في غريب القرآن: ٣٨٤).

(٥) غليظ: من الغِلظة ضد الرقّة (المفردات في غريب القرآن: ٣٦٦).

(٦) نَصَّ علماء العربية على أنّ أصوات (الغين) و (القاف) و (الخاء) يجب تفخيمها إذا أُتبعت بفتح أو ضمٍّ قصيراً كان أم طويلاً (علم الأصوات: ٤٠٠).

وقد وردت هذه الشِّدَّة والغِلظة في الألفاظ ضِمنَ جملة الشرط، ثُمَّ جاءت جملة جواب الشرط ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ مُترتِّبةً عليها معنًى ولفظاً؛ فلو كان نبيّ الرحمة ﷺ متَّصِفاً بصفات الفظاظة والغِلظة لترتّب على ذلك (انفضاض) المسلمين وتفرقهم عنه، فامتنع الثاني لامتناع الأوّل معنًى، وثبتَ ما في الثاني من غلظة الصّوت وشِدّته لثبوته في الأوّل لفظاً.

والشدّة في جملة جواب الشرط تَكمُن في صوت (الضاد) الانفجاري المفخَّم في لفظ ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ الذي هو قريبٌ جداً من صوت (الظاء) «لقُرب مَخرَجَيهما، وذلك أنّ (الضاد) مخرجها من أوّل حافّة اللِّسان وما يليها من الأضراس، ومخرج (الظاء) من طرف اللِّسان وأطراف الثنايا العليا، ولأنّ كُلاً من الحرفين من الحروف المجهورة، ومن الحروف الرخوة، ومن الحروف المطبقة، فلهذا كلّه اغتُفِرَ استعمال أحدهما مكان الآخر لِمَن لا يُمَيِّز ذلك»[1].

وكما زاد التشديد في ﴿فَظًّا﴾ من فخامة صوت (الظاء) وغلظته في جملة الشرط، كذلك زاد التشديد في ﴿غَلِيظَ﴾ من فخامة صوت (الضاد) وغلظته في جملة الجزاء، وزاد في اللفظ الأخير وجود حركة الضّمّ التالية للضاد، وما يليها من المد الواوي الذي مَنَحَ (الضاد) المفخَّمة امتداداً مشفوعاً بنبرة صاعدة في أوّل جملة الجزاء، فناسب اللّفظُ الشديدُ في جملة جواب الشرط اللّفظَ الشديدَ في جملة الشرط.

إنّ صفات الرحمة واللِّين التي اتَّصفَ بها رسول الاسلام، وتَنَزُّهه عن صفات الفَظاظة والقَسوة في تَعامُله مع المؤمنين، وتَعامل المؤمنين بعضهم مع بعض، وما اتّصفوا به من صفات الإيمان مَثَّلَها الله في كتابه بقوله: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/٣١.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح : ٢٩]، فعبارة : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ تعليلٌ «لِما دَلَّ عليه تشبيههم بالزَّرع من نَمائهم وتَرقِّيهم في الزيادة والقوّة»[١]، فجاءت العلّة موازيةً للمعلول لفظاً كما هي معنًى، وذلك باشتراك فِعلَيهما (**اسْتَغْلَظَ**) و (**يَغِيظَ**) بِحرفَي (الغين) و (الظاء).

ويُقابل تعامل الرسول مع المؤمنين، وتعامل المؤمنين بعضهم مع بعض ما أمَرَ الله به نَبِيَّه من كيفية التعامل مع الكفّار والمنافقين بِما يَليق بهم، فقال جلَّ شأنه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة : ٧٣]، ثم خاطب المؤمنين بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً﴾ [التوبة : ١٢٣].

لكنّ هذه الصفة ليست بالصفة الثابتة في شخصية الإنسان المسلم، لأنّ اللهَ وصف المؤمنين بـ ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران : ١٣٤]، وفي ﴿ٱلۡغَيۡظَ﴾ شدّة وقَساوة وتَمَكُّن، لأنّه «أشَدُّ غَضَبٍ وهو الحرارة التي يَجدها الإنسان من فَوَرانِ دَمِ قلبه»[٢]، ولهذا أمَرَ الله عباده بِالتَّزوُّد بِما يُوازي هذه الصفة من الفعل لِكَبح جِماحِها وحَبْسِها، فجاء (الظاء) في اللّفظين معاً، لِيُحدِثَ الموازنة اللّفظية إضافةً إلى الموازنة المعنوية.

أمّا الذين كفروا فأنّ ﴿ٱلۡغَيۡظَ﴾ يأكلهم كما تأكل النار الحطب، لأنّهم كما قال الله تعالى مخاطباً الذين آمنوا : ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾ [آل عمران : ١١٩]، فَفِعلُ فَوَرانِ ﴿ٱلۡغَيۡظِ﴾ عند المنافقين يَنتُجُ

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : ٣٤٨/٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن : ٣٧١.

عنه فِعلٌ يُوازيه وهو (العَضُّ)، ثم يَنتج عن ذلك الموتُ بهذا ﴿ٱلْغَيْظِ﴾، وهو النهاية المناسبة لمثل هذا الفعل في هذه الدنيا.

أما في الآخرة فقد أعَدَّ الله للكافرين سَعيراً تُناسب في تَغَيُّظها ولَظاها ما كان يصدر من هؤلاء في هذه الدنيا معنًى ولفظاً وصوتاً، فهي ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، بل إنها لَـ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ[1]﴾ [الملك: ٨] وهي فوق ذلك ﴿...لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥ ــ ١٦] و ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦].

وفي كلِّ ذلك ناسب اللّفظُ اللَّفظَ كما ناسبَ الفعلُ الفعلَ، وجاء (الظاء) بشخصيته الصوتية المتميِّزة وكأنه قد أُعِدَّ للقيام بدور العنصر الصوتي المشترك، ولخلق الموازنة اللَّفظية في هذه الأمثلة بين كلٍّ من الفعل وردِّ الفعل، والسّبب ومُسَبَّبه، والعَمَل ونتيجته، ولكنّه لم يَخرج عن إطاره الدلالي الذي انتُدِبَ له وهو الشِّدَّة والقساوة والامتلاء.

٤. ٣. ٢ ـ دلالة الصَّوت المفرد على خصوص المعنى

من مجموع ما انتهينا إليه من عموم دراستنا لمبحث الدلالة الصوتية، وما ذكرناه آنفاً، تَوَصَّلنا إلى عدّة نتائج منها: أنّ أصوات اللّفظة الواحدة قد يُعبِّر كلٌّ منها عن جزءٍ من المعنى الذي تُعبِّر عنه اللّفظة بأصواتها جميعاً، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن

---

(١) في (الغيظ) استعارة و «حقيقته: من شدّة الغلَيان بالاتّقاد، والاستعارة أبلغ منه، لأنّ مقدار شدّة الغيظ على النفس محسوس مُدرَك، ما يدعو إلى شدّة انتقام في الفعل، وفي ذاك أعظم الزجر وأكبر الوعظ، وأوّل دليل على سعَة القدرة وموقع الحكمة» (النكت في إعجاز القرآن: ٨٧).

جني من ألفاظ مثل: (بَحَث) و (جَرَّ) و (شَدَّ)[1] حيث يُعبِّر كل حرف من هذه الألفاظ عن جزء من المعنى الكلِّي للّفظة.

لكنَّ البحث في القرآن الكريم أوقفنا على ألفاظٍ ذهبت أبعد من ذلك، منها:

١ ـ أنْ يُعبِّرَ الصوتُ المفرد على تَمام المعنى الذي تُعبِّرُ عنه اللَّفظة بتمام أصواتها.

٢ ـ أنْ يكون هذا الصوتُ هو الحرف الأوّل من اللَّفظة.

٣ ـ أنْ تَجتمع ثلاثة ألفاظ بهذه الصفة، وبصورة متوالية في أكثر من موضع من الذكر الحكيم.

٤ ـ أنْ تشترك حَركات هذه الألفاظ الثلاثة ومقاطعها الصوتية إلى جانب أصواتها للدلالة على معانيها وزيادة.

وقد اجتمعت هذه المواصفات في قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ حيث وردت هذه الكلمات الثلاثة مجتمعةً في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم. فهي إضافة إلى ورودها في قوله تعالى:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ١٨] وردت كذلك في سورة البقرة، في قوله تعالى:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]. ووردت مرَّةً ثالثةً، في قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الاسراء: ٩٧].

---

(١) يُراجع مبحث: (١. ٥. ١. ٢ ـ إمساس الألفاظ أشباه المعاني).

وكما نرى، فإنّ هذه الكلمات الثلاثة قد سِيقَت مرفوعةً، في الآيتين الأُولى والثانية، عَلَى سبيل تَمثيل المنافقين والكافرين في الدنيا. بينما سِيقت في الآية الثالثة على النَّصب، حالاً[1] من الضّالين يوم القيامة.

وقد وَقَع الاختيار على الآية الأولى لِقِصَرِها؛ فهي تتكوَّن من سِتِّ كلمات فقط، ولكونها مُصَدَّرة بالكلمات الثلاث، مِمّا يَمنَحُها استقلاليتَها المعنويَّة والصّوتيَّة.

٤. ٣. ٢. ١ ـ دلالة الصَّوت الأوّل في ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾

تبدأ كلُّ كلمة من هذه الكلمات الثلاث بحرف يكاد يُلقي بظلاله القويّة على مجمل الكلمة من الناحية الصوتية. فـ﴿ صُمٌّ ﴾ تبدأ بحرف الصاد، و﴿ بُكْمٌ ﴾ تبدأ بحرف الباء، و﴿ عُمْىٌ ﴾ تبدأ بحرف العين. وعند سَماع تلاوة هذه الكلمات الثلاث، أو عند قراءتها، منتظمةً إلى بعضها البعض، أو منفردةً، نكاد نتلمّس حروفَها الأولى ونتحسّسها، أكثر من سائر حروف الكلمة، لأسباب، منها:

١ـ يلي هذه الحروف الثلاثة حرفا الميم والنون، وهما صوتان أغنّان[2] مِمّا أَلِفَتْه الآذان بسبب كثرة ورودهما في القرآن الكريم، خاصة في الفواصل القرآنية[3]. وكثرة ورود هذين الصّوتين في القرآن الكريم منح تلك الحروف الثلاثة صفة البروز

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٤/٤١٥.

(٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٦.

(٣) تنبه اللغويون إلى هذه الخاصية اللغوية المتعلقة بحرف النون و نغمته الإيقاعية، فقال السيوطي بهذا الشأن: «كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن مع التطريب بذلك، كما قال سيبويه: إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أردوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا، وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع» (الإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٥٩).

والانكشاف والتألُّق، في هذه الكلمات، خاصةً وإنّ هذه الصفات تكاد تكون من سِماتها البارزة، حيث إنّ (الصاد) حرف احتكاكي، و(الباء) حرف انفجاري، و(العين) حرف حلقي احتكاكي(١)، وذلك يزيد من نصاعة هذه الحروف، بإزاء حرفَي الغنّة (الميم والنون).

٢ـ إنّ كلاًّ من ﴿ صُمٌّ ﴾ و ﴿ بُكْمٌ ﴾ و ﴿ عُمْيٌ ﴾ تتكوّن من مَقطَعَين مُتَماثِلَين؛ وهو مقطع متوسط مغلَق، يبدأ وينتهي بصوت صامت، يتوسَّطُهما صوتٌ صائتٌ قصير أي: إنه يتكون من (صامت +حركة قصيرة + صامت) ويُرمَز له بـ: (ص ح ص). وكما أسلَفنا فقد تَكرَّرَ بشكلٍ مُتَوالٍ ومُتَناسق، سِتَّ مَرّات؛ مرتين في كل كلمة.

كلمة ﴿ صُمٌّ ﴾ تتكوّن من مقطَعَين مُغلَقين هما: (صُمْ) و (مُنْ).

وكلمة ﴿ بُكْمٌ ﴾ تتكوّن من مقطعين مُغلَقين هما: (بُكْ) و (مُنْ).

وكلمة ﴿ عُمْيٌ ﴾ تتكوّن من مقطعين مُغلَقين هما: (عُمْ) و (يُنْ).

والجدول التالي يبيِّن جزئيات كلِّ مقطع من هذه المقاطع الستة التي اشتملت عليها الكلمات الثلاث:

---

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٧٥ ـ ١٧٨.

الكلمة	المقطع	صامت	+	صائت قصير	+	صامت
صُمٌّ	١	ص	+	ـُ	+	مْ
	٢	م	+	ـُ	+	نْ
بُكْمٌ	٣	ب	+	ـُ	+	كْ
	٤	م	+	ـُ	+	نْ
عُمْيٌ	٥	ع	+	ـُ	+	مْ
	٦	ي	+	ـُ	+	نْ

وكما هو واضح، فإنّ المقاطع جميعاً تشترك في النوع نفسه، وكذلك تشترك في جزئيات الصائت القصير، حيث حركة الضّم تتوسّط المقاطعَ كلَّها.

وبِما أنّ النَّبر في هذه الكلمات يقع على المقطع الأول منها فإنّ كلَّ حرفٍ من هذه الحروف الثلاثة (الصاد) و (الباء) و (العين) الذي يُشكِّل الحرف الأول من المقطع المنبور يُنطَق بصورةٍ أوضح وأجلَى نسبيّاً من بقيةِ الحروف التي تُجاوره. ووجود النَّبر على الحروف الأولى من هذه الكلمات الثلاثة يعود لِسَبَبَين:

أحدهما: طبيعة المقاطع التي تشتمل عليها هذه الكلمات[1]، مِمّا يستدعي النبر

(١) يُراجع مبحث: (٢. ٤. ٢. ١. ٣ ـ النبر على المقطع الذي قبل الأخير) من الفصل الثاني.

علَى المقطع الأول من كلِّ كلمة، والتركيز على الحرف الأول منها بشكل خاص.

والثاني: أنها جملة تقريرية، وقد تَمّ حذف المسند إليه فيها، فيقع النَّبر على حروفها الأولى تَعويضاً عن الكلمة المحذوفة مَرَّةً، وتأكيداً على حقيقة الخبر، واتصاف المخبَر عنه به مَرّةً ثانية.

١ ـ إنّ كلَّ حرف من هذه الحروف الثلاثة؛ (ص) و (ب) و (ع) تدلُّ ماهيته دلالةً قويةً على معنى الكلمة التي يتصدّرها، ويختزل في طبيعته الصوتية السيميائية، كلَّ ما توحي به الكلمة من معانٍ، وما تنطوي عليه من دلالات. فكلُّ حرف من هذه الحروف يدلّ، بشكلٍ أو بآخَر، من خلال إيحاءاته الصوتية، على المعنى المعجمي للكلمة التي يبدأ بها. وهذه الدلالة يُمكن أن تَتَداعى في ذهن المتلقي العربي لغةً، أثناء إنصاته لهذه الآية، أو حين تلاوته لها.

فَلْنُلقِ نظرةً على صفات هذه الحروف، وخصائصها، لنطَّلعَ على مَدَى التناسُب والارتباط بين أصوات ألفاظها وبين معاني كلماتها.

٤. ٣. ٢. ١. ١ ـ حرف الصاد

حين نُصغي لحرف الصاد، نكاد نتلمَّس حقيقة هذا الصّوت، ونَتحسّس ماهيَّته. فهو من الحروف الصفيرية[(١)]، وعند النطق به يصحَبه صفيرٌ وأزيز[(٢)]، ولهذا فهو يَصلح لِمحاكاة الأصوات الطبيعية.

يقول عنه الدكتور حسن عباس: «ولقد مَنَحَتْه هذه الخصائص الصوتية شخصيةً فذَّةً، طَغَى بِها على معاني معظم الحروف، في الألفاظ التي تَصَدَّرَها، لِيُعطيَها من نَقاء

(١) الكتاب: ٢/٥٠٩.

(٢) أسس علم اللغة: ٨٥.

صوته صفاءَ صورةٍ وذكاءَ معنًى، ومن صلابته شدَّةً وقوةً وفاعلية، ومن طبيعته الصفيرية مادةً صوتيةً نقيّة، ماكان أصلَحها لمحاكاة الكثير من أصوات الناس والحيوانات وأحداث الطبيعة. فمن مئةٍ وخمسةٍ وأربعين مَصدراً تبدأ بحرف الصاد في المعجم الوسيط، كان منها ستة وعشرون مصدراً تدلُّ معانيها على أصواتٍ يتوافَق معظمها مع خصائصه الصّوتية»[1].

فالصاد إذن حرف يدلُّ فيما يدلُّ عليه، حين يتصدَّر الكلمة، على المعاني التي تَتَناسب وخصائصه الصّوتية، وتَصَدُّر هذا الحرف لقوله تعالى: ﴿ صُمٌّ ﴾أي: (لا يسمعون)، فيه إشارةٌ، وتلميحٌ إلى الصّوت الذي يَسمعه الإنسان عَبْر حاسّة السمع. لكنّ مَن أُطلَقت في حَقِّهم هذه الكلمة مِمّن﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧] عُطِّلَت فيهم حاسّةُ السّمع، فحُرِموا من سماع أضعف الأصوات، بل إنهم لعاجزون عن سَماع أصغر وحدةٍ صوتية، وهو الحرف، مُتَمثِّلاً بالصاد.

٤. ٣. ٢. ١. ٢ ـ حرف الباء

يَصِفُ علماءُ الأصوات حرفَ الباء بأنّه من الأصوات الصامتة المجهورة الشَّفوية الانفجارية[2]. وهو كذلك من حروف القلقلة التي توصَف بـ «شِدَّة الصّوت»[3]. يقول العلايلي عن دلالة هذا الحرف: «إنه لبلوغ المعنى، وللقوام الصلب بالتفعُّل. ويقول عنه الأرسوزي: إنه يوحي بالانبثاق والظهور»[4].

---

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها: ١٤٩.

(٢) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٧٨.

(٣) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية: ١٥٦.

(٤) خصائص الحروف العربية ومعانيها: ١٠١.

وهذا الحرف إذا ما لُفظَ في مقدمة اللَّفظة دونَما مَدٍّ فإنه «بِحُكم خروج صوته من انفراج الشّفتين بعد انطباقهما علَى بعضها بعضاً، هو أصلح ما يكون لتمثيل الأحداث التي تنطوي معانيها على الانبثاق والظهور والسيلان، بما يُحاكي واقعة انبثاق صوته من بين الشّفتين إيماءً وتَمثيلاً»[1].

وعند الجمع بين هذه الأقوال نلاحظ إنّ هذا الحرف ينسجم تماماً ومعنى التعبير الشفوي بالفم واللِّسان، فعندما يَنوي الإنسان التكلُّم تَنفرج شفتاه، فتنبثق عنهما أصوات، وتظهر كلمات، تؤدِّي معنىً خاصّاً.

فالباء حرف تدلّ خصوصيته الصّوتية على التكلُّم والنطق، وليس أدلّ على ذلك من تواضع العلماء على المرحلة التي يبدأ بِها الطفل بتلفُّظ أُولى الحروف اصطلاح (البأبأة)، وهي ثاني مرحلةٍ من مراحل نشوء اللغة عند الطفل.

أما أُولى مراحل تعلُّمِهِ للُّغة فتُسمّى (مرحلة المناغاة). وفي هذه المرحلة «لا ينطق الطفل أصواتاً مُمَيَّزة، وإنما يَقتصر على ترديد ما يُشبه الحركة المعروفة لدينا بالفتحة، مع شيءٍ من الأنفية أحياناً، وقليلٍ من الاحتكاك بأقصَى الفَم أحياناً أخرى، حتى تختلط بما يشبه الغين، ومن هنا سُميت (مرحلة المناغاة)...

ومع تقدم سِنّ الطفل يتقدّم نُمُوُّه اللُّغوي إلى المرحلة التالية التي سَمّاها (جسيرسن) مرحلة (البأبأة). وإنما أطلق عليها هذه التسمية لسبب بدهي وبسيط، هو أنه قد لُوحظ أنّ أوّل صوتٍ يلعب به الطفل في بدءِ نُضجه هو الباء، كان ذلك بالنسبة إلى جميع الأطفال بلا استثناء. ولقد يحدث أن يأتي الطفل بأصواتٍ أخرى مع الباء، مثل التاء، أو الميم، أو الحاء، أو الخاء، أو الكاف. ولكن المهمّ أنه ينطق بالباء أولاً، فإذا لاحَظَ مَن حوله أنه أتَى بِهذا الصّوتِ المُحَبَّب بادَروا إلى تَشجيعِهِ، وأخَذوا يُردِّدون

---

(١) م.ن: ١٠١.

له هذا الصَّوتَ ترديداً مُستمِرّاً»[(١)].

واصـطلاح (البَأبَـأة) يعادلـه في الانكليزيـة مصـطلح (babbling) أو (babble) ومعناه: «يتكلم على نحوٍ يصعُب فهمُه، يُغمغِـم»[(٢)]. أو إنّه بتعبير أدقّ «نُطق الطفل الصغير بكلام مختلط يعوزه النظام والوضوح والمعنى»[(٣)]. ولا يَخفى ما لوجه الاشتراك بين المصطَلحَين العربي والانكليزي ـ وهو تكرار حرف الباء ـ من دلالة على ارتباط هذا الصوت بمعناه.

إذن فالدلالـة الصـوتية لحـرف البـاء لا تكـاد تَخلـو مـن معنـى النطـق والكـلام. وتَصدُّرُه لكلمة: ﴿بُكۡمٌ﴾ يُضيف إلى معناها سِرّاً لطيفاً من أسرار البيان القرآني، ففيه دلالة خفيّة ودقيقة على حِرمان المنافقين والكافرين من نعمة الكلام، التي يَختزلُها صوت (الباء)، وكذلك صوت (الكاف) الانفجاري الشَّديد الذي يليه والمتصدر للفظ (الكلام)، بل إنّ هؤلاء لعاجزون عن النطق بأبسط الألفاظ، وأدناها إلى لغة الوليد الذي يبذل كلّ ما في وسعه للنطق، ولكنه لا يُفلح إلا بأصوات تكاد لا تبين. فكأنّ المعنَى إنّ هؤلاء عاجزون حتى عن التَّفَـوُّه بلغة الأطفال غير البَيِّنة، وهي (البأبأة)، فكيف بلغة الكبار وهي (الكلام).

٤. ٣. ٢. ١. ٣ ـ حرف العين

يتصدّر (العينُ) قولَه تعالى: ﴿عُمۡيٌ﴾، ويُوصَف هذا الحرف فونولوجياً، بأنه حرفٌ حَلْقِيٌّ مجهورٌ، احتكاكيٌّ، وهذه الصفات تؤيِّد ما ذهَبَنا إليه من اتصاف هذا الحرف بصفة البروز والتألُّق والانكشاف في هذه الكلمة. ولكنّ ما يعنينا هنا، هو

---

(١) في علم اللغة العام: ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) قاموس اكسفورد الحديث: ٤٧.

(٣) سيكولوجية اللغة والمرض العقلي: ٨٧.

الاشارة إلى نَمط هذا الحرف لفظاً، و خطاً. حيث إنّ سَماعَه أو التلفُّظ به، وكذلك رؤيته مكتوباً، يقود الذهن مباشرةً إلى (العين) التي هي حاسة المعاينة والرؤية البصرية، صارفاً إيّاه عن حَرفيَّتِه، إلى دلالتِه الصَّوتية والخطِّيَّة على آلة البصر أو (العين) الباصرة. وهذه الحاسة هي التي فَقدها أولئك المنافقون، الذين استَحبُّوا العَمَى علَى الهدَى.

فوجود حرف العين في أول ﴿عُمْيٌ﴾ كسابقَيه، لا يكاد يخلو من إشارة إلى ذلك الشَّيء المفقود لدى أُؤلئك، وهو نعمة النَّظر والمعاينة والمشاهدة رغم امتلاكهم لآلته، وذلك بسبب كفرهم وإصرارهم على الباطل.

ورُبّ معترض يقول إن هذه صفات تعود إلى أصل اللغة العربية، فما شأنُها والإعجاز القرآني ؟ فيُجاب بأنّ اللغة العربية غنية بالمترادفات، وأنّ هناك من الألفاظ ما يُعادل الصَّمَم والبَكَم والعَمَى، كالطَرَش والخَرَس والكَمَه[1]، وغيرها كثير. وليس في أوائلها من الأصوات ما يدل على معانيها. ولم ترد في الاستعمال القرآني. فالعِبرَة في بيان القرآن الكريم إنما هي في تَخيُّرِه للألفاظ المناسبة، وفي انتظام هذه الألفاظ انتظاماً دقيقاً في التراكيب والجمل.

فلا يمكن إذن أن يكون كلُّ ذلك قد حدث على سبيل المصادفة، خاصةً مع ورود هذه الكلمات متواليةً بهذه الصيغة المتَفَرِّدة والمتكرِّرَة في القرآن الكريم. كلُّ هذا يُضاف إلى ما تشتمل عليه هذه الكلمات الثلاثة مجتمعةً من تناغم وانتظام في النَّسَق المقطعي، والحركي، والصوتي، والايقاعي.

---

(١) لسان العرب مادة: (طرش)، و مادة: (خرس)، ومادة: (كمه).

المبحث الرابع

٤ . ٤ ـ دلالة توالي بعض الأصوات في التركيب القرآني

لا تنحصر دلالة الصوت على وروده داخل اللفظ القرآني، بل كثيراً ما تتعدّاه إلى الجملة القرآنية، وأحياناً إلى تركيب خاص داخل الجملة. فقد يتوالى عددٌ من الأصوات المتباينة في جملةٍ قرآنيةٍ ما، أو في تركيب قرآني مُعَيّن، فيكون لطبيعة تواليها، أو لصفات الأصوات المجتمعة بعضها إلى جانب البعض الآخَر، دلالةٌ خاصةٌ تناسب المعنى من زاويةٍ بعينها؛ كأن تُصَوِّر طبيعةَ الحدث، أو تُشير إلى خصوصيّةٍ من خصائصه، أو تُؤكِّد معناه، أو غير ذلك. وسَيُشار إلى بعضٍ مِمّا تَمَّ رَصدُه منها.

٤ . ٤ . ١ ـ الدلالة على طبيعة الحدث

من خلال تَدَبُّر جملة قرآنية مقتضبة، تَمَّ رصد ملمح صوتي إعجازي مهم يُشير، بصورة لا تقبل الشك، إلى حقيقة علمية بارزة يقوم عليها عالم الطبيعة؛ ألا وهي أنّ كلّ عنصر من عناصر الكون، وأنّ كلّ جُزَيءٍ من جزيئات هذه العناصر ـ حتى لو كان وزنه مثقال ذرّة ـ هو في حركة محورية وانتقالية دائمة. ومنها جميع الكواكب ومجموعات النجوم والمجرّات، حيث تدور مَرَّةً حول نفسها في حركة محورية، وفي ذات الوقت تدور في مداراتها في حركة انتقالية. والجملة القرآنية التي تدل على هذه الحقيقة هي قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. وقد وردت بهذه الصيغة مَرّتين في الآيتين أدناه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠]

وقبل الدخول في التفاصيل يَحسُن تحليل هذه الجملة نحوياً وبلاغياً ليتسَنّى الوصول إلى دلالتها المعنوية :

ـ ﴿كُلٌّ﴾ : مبتدأ ، ساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم ، وإنّ التنوين فيه عوضٌ عن كلمة مضافة ؛ أي : كلُّ واحد من الشمس والقمر وغيره.

ـ ﴿فِى فَلَكٍ﴾ : متعلّقان بـ ﴿يَسْبَحُونَ﴾.

ـ جملة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ : خبر، والواو فاعل ؛ لأنه نُزِّلَ منزلةَ العُقلاء ، فلما وُصِفَ الشمس والقمر والنجوم والكواكب بالسِّباحة ، وهي من أوصاف العقلاء ، ساغ إنزالهم منزلتهم.

ـ جملة ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ غير المسبوقة بواو في سورة الأنبياء محلُّها النصب على الحال من الشمس والقمر[1].

ومعنى الفلك : مدار النجوم ، والجمع أفلاك ، والفَلَكُ : قِطَعٌ من الأرض تستدير وترتفع عما حولها ؛ والواحدة فَلَكةٌ ، بفتح اللام. والفَلْكةُ ، وفَلْكة المِغْزَل : معروفة سُمِّيَت لاستدارتها ، وكلُّ مستدير فَلْكة[2] ، ويسبحون بمعنى : يدورون ، كما نُقلَ عن ابن عباس ، وبذلك يكون معنى ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي : يدورون في فلك السماء «كما يدور المغزل في الفلكة ، قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلاّ بالفلكة ولا الفلكة إلاّ بالمغزل كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلاّ به ولا يدور إلاّ بِهِنَّ»[3] ، وقال

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٥/ ٢٧ ـ ٦/ ٣٢٨.

(٢) لسان العرب : /مادة : فلك.

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٣/ ١٧٩.

الزجّاج: إنّ لكلٍّ واحدٍ منها فَلَكٌ[(١)].

والملمَح الصوتي الذي تَمَّ رصدُه في هذه الجملة القرآنية يَكمُن في تصوير أصواتها مجتمعةً، وفقاً لتواليها في الجملة، لهذه الظاهرة الطبيعية؛ وهي دوران الكواكب والنجوم والمجرات في مداراتها في حركة انتقالية ودورانها حول نفسها في حركة محورية. حيث يقوم نظم الأصوات في الكلمات الثلاثة الأولى منها، وهي قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ بتصوير حركة الأجرام عَبر مداراتها، بينما تقوم الأصوات في ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ببيان نوع الحركة ومحوريتها.

أما كيفية قيام الأصوات (الحروف) في ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ بتصوير حركة الأجرام عبر مداراتها، فإنّ ذلك مُبتَنٍ أساساً على وجه من وجوه البديع؛ يُسَمّى: القلب المستوي، أو ما لا يستحيل بالإنعكاس، وهو: «أن تُقرَأ الكلمةُ من أوّلها إلى آخِرها، كما تُقرَأ من آخرها إلى أوّلها»[(٢)]. وهذا النوع من أقسام البديع «قليل نادرٌ صَعب المسلك، وَعْرُ المرتقَى لا يكاد يأتي به إلاّ مَن أفلقَ في البلاغة، وتقدّمَ في الفصاحة، وقد يأتي في النثر والنظم، فَمِمّا جاء في كتاب الله قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣] ومنه قول بعضهم: (مَوَدَّتي لِعَلِيٍّ تَدوم)... وأعجَبُ الحسنِ في هذه الأمور أن تكون الألفاظُ تابعةً للمعاني، فعند هذا تَروق وتَحسُن، فأمّا إذا جاءت على العكس من هذا نزلَ قدرُه ولم يكن مُعجِباً كلّ الإعجاب»[(٣)].

---

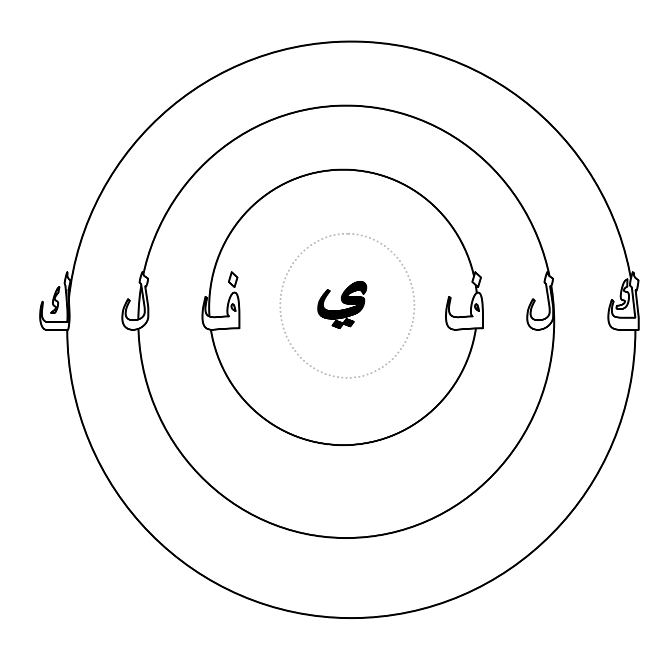
(١) لسان العرب: /مادة: فلك.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٢٥٩/١.

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٥٤/٣.

ولم تجئ الألفاظ في ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ تابعةً للمعنى فقط، بل صَوَّرته أدَقَّ تصوير، فجاءت وكأنها صورة رقمية التقطتها سفينة فضائية متوغلة في أعماق الفضاء السّحيق بواسطة أعظم آلات التصوير الحديثة. صورة لمشهد من أعظم مشاهد هذا الكون الفسيح، وهو حركة الأجرام الهائلة في مداراتها.

فهذه الجملة تتكوّن من سبعة أحرف، على عدد السّماوات والأرضين؛ منها ثلاثة مكرّرة؛ هي (الكاف) و (اللاّم) و (الفاء)، وقد انتظم كلّ حرفين متماثلَين فيها ضمن مدارٍ واحد ؛ فالكافُ (الأول والسابع) يشكِّل المدارَ الأول، واللاّمُ (الثاني والسادس) يشكِّل المدارَ الثاني، والفاءُ (الثالث والخامس) يشكِّل المدارَ الثالث، فجاءت وكأنها تُمثِّل الكواكب والأجرام، باتخاذ كلٍّ حرف منها لمدار خاص. أما صوت الياء (الرابع) الذي يتوسّطها جميعاً فهو صوت مَدِّي، يمتاز بالقوة والشِّدّة من بين الحركات الطويلة، كما هو شأن الكسرة من بين الحركات القصيرة، ويدل مَدّ الياء فيما يَدُلّ على السّحب والجذب والجرّ بقوة، وقد قام هنا بدور قوة الجذب المركزية التي تجذب الكواكب والنجوم باتجاهها، فتحفظ لكلٍّ موقعه في مداره. والشكل التالي يصور دلالة هذه الأصوات على هذه الظاهرة الطبيعية.



فكأنّ معنى العموم الذي في ﴿كُلٌّ﴾ الذي يُراد به الشمس والقمر والنجوم قد امتدّ ليشمل حتّى هذه الحروف التي انتُدبَت للتعبير عن هذا المعنى، فاستقرَّ كلُّ حرفٍ من الأحرف المتماثلة في مدارٍ واحد، أما الياء المنفردة فحلّت في وسطها قُطباً جاذباً جامعاً.

وإذا كانت أصوات (الكاف) و (اللاّم) و (الفاء) مع (الياء) قد صوّرت الحركة الدورانية الانتقالية للأجرام السماوية حول مركزها، فإنّ أصوات (السين) و (الباء) و (الحاء) في لفظ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ قد صوّرت الحركة المحورية الذاتية لتلك الأجرام، أي إنها اضطلعت ببيان نوعٍ آخَر من الحركة مصاحبٍ للحركة الدورانية الانتقالية، وهي الحركة الذاتية المغزلية، وهذه الحركة تشمل الشمس والقمر والأرض وغيرها من الأجرام السماوية، ففي الوقت الذي يدور فيه القمر حول الأرض دورته الانتقالية، فإنه في ذات الوقت يتحرك حول نفسه حركة محورية، وكذلك الأمر بالنسبة للأرض

والشمس وسائر الأجرام؛ فإنّ لكلٍّ منها حركتين؛ «حركة انتقالية دورانية مصحوبة بحركة ذاتية مغزلية»[(١)].

والذي يُفسِّر هذه الحركة الذاتية المغزلية (المحورية) هو استعمال الفعل (يسبح) بدلاً من الفعل (يدور)؛ ففعل الدوران يُعبِّر عن الحركة الدورانية الانتقالية وحسب، أي حركة الإنتقال عَبر المدار أو الفلك حركة دورانية. أما فعل السِّباحة الذي يعني (العوم) في الماء أو الفضاء (لسان العرب: /مادة: سبح) فإنه إضافةً إلى تعبيره عن الحركة الإنتقالية، فإنه يُعبِّر كذلك عن الحركة الذاتية المحورية، التي تكون فيها الأجسام حرةً منطلقة، غير مرتكزة إلى قاعدة تُحَدِّد حركتها أو هيأتها، فالسّبح يدلّ على الجرْي والدوران والتقلُّب معاً، ومنه «السّابح في الماء لتَقَلُّبه بيديه ورجليه»[(٢)]، وقد قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] أي: متَقَلَّباً طويلاً[(٣)].

وهذا التعبير القرآني هو الذي أثار «دهشة المفسرين القدماء، لأنهم لم يكن في مقدورهم أن يتخيّلوا السباحة في فلك دائريّ لكلٍّ من الشمس والقمر في الفضاء، وبهذا فقد قدّم القرآن في وقت نزوله مفهوماً جديداً لم يتَّضح إلاّ بعد قرون عديدة»[(٤)].

وتتضّمن مادة (سبح) بتقليباتها المختلفة في هذه الجملة مفهوماً دقيقاً آخَر؛ وهو أنّ جميع الألفاظ المستعملة من هذه المادّة، فيما يُعرَف بالاشتقاق الأكبر[(٥)]، نجدها

---

(١) القرآن الكريم والعلم الحديث: ١٧١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٤٢/١٩.

(٣) معجم الصحاح: مادة: سبح.

(٤) القرآن الكريم والعلم الحديث: ١٧١.

(٥) يراجع مبحث: (١. ٣. ١. ٤ ـ الإشتقاق الأكبر).

مَتَضَمَّنةً في هذا السياق ؛ فالألفاظ المستعملة من تقليبات هذه المادة إضافة إلى (سَبَحَ) هي : (سَحَبَ) و (حَبَسَ) و حَسَبَ) ، أما (بَحَسَ) و (بَسَحَ) فإنهما مُهمَلان[1]. فلفظ (سَحَبَ) : مُتَضَمَّنٌ فيه لكون هذه الأجرام مسحوبة بقوة الجاذبية نحو مراكزها. ولفظ (حَبَسَ) يعني أنّ هذه الأجرام محبوسة في مداراتها لا تنفكّ ولا تحيد عنها. أما لفظ (حَسَبَ) فإنه يعني أنّ هذه الحركة المزدَوَجَة للشمس والقمر وسواهما محسوبة بدقّةٍ متناهية ، فإذا اختلّت مقدارَ شعرة اختلَّ النظام الكوني برُمَّتِهِ ، وهو مصداق لقوله تعالى : ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ﴾ [الرحمن : ٥].

إضافةً إلى هذه المعاني فإنّ تشديد الباء من الفعل (سَبَحَ) يُحَوِّله إلى (سَبَّح) ، وقد جاء الاستعمال القرآني بالفعل ﴿يَسۡبَحُونَ ﴾ واصفاً الأجرام بفعل من يعقل[2]. وكلّ عاقل في هذا الكون مدرك لعظمة خالقه ، لذا فهو يُسَبِّح له ويُقدِّسه ، فلا شَكَّ إذن في أنّ هذه الحركة الدائبة المنتظمة لكلِّ عنصر من عناصر هذا الكون الفسيح ، إنما هي تسبيح لله العلي القدير فاطر السماوات والأرض ، لكن الإنسان ، الذي لم يُؤتَ من العلم إلاّ قليلاً ، لا يفقه مثل هذا التسبيح ، وقد صدق بديع السّموات والأرض حين قال : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ [الإسراء : ٤٤]. وصدَقَ الحكيم الخبير حين يقول : ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣].

---

(١) معجم كتاب العين : مادة : بحس وبسح.

(٢) لسان العرب : مادة : فلك.

٤ . ٤ . ٢ ـ الدلالة على صوت الحدث

يَتَوخّى الأسلوب القرآني أقصى درجات الدقّة في تصوير الأحداث ذات الأبعاد المادية الحسِّيّة، ومن ذلك أنّ كثيراً من المعاني القرآنية التي تحمل بُعداً سَمعياً، أي أنّ لها في الواقع المادي صدى صوتي خاص، فإنّ القرآن حريص على أن تتجلّى ملامح من أصواتها المادية تلك في الحروف التي تحملها، منفردة كانت أو مجتمعة، فيستشعر قارئ القرآن، أو المستمع إليه صوتَ المعنى الحِسِّيّ المعَبَّر عنه، وكأنه يطرق مسامعه، فيعيش أجواء الحدث صورةً مُتَخيّلةً، وصوتاً يكاد يُسمَع على حقيقته.

وكثيراً ما يقوم بهذا الدور حرف أو صوت واحد في لفظة ما فيمنحها ملامح صوتية أو جرساً خاصّاً يجعلها أقرب إلى حقيقة ما تدلّ عليه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] فصوت (السين) المهموس الاحتكاكي في ﴿حَسِيسَهَا﴾[1] يُضفي على هذه الكلمة ملمَحاً صوتياً وجرساً خاصّاً يكاد ينقل إلى السمع أصوات النيران وحركة تلهّبها. ومثله صوت (الخاء) المهموس الاحتكاكي أيضاً في ﴿مَوَاخِرَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢] فالكسر الذي في هذا الصوت جعل منه صوتاً شديداً مُخَنخَناً، انضاف إلى دلالته الكلية على المطاوعة والانتشار والتلاشي كما يقول العلايلي[2]. لذلك فإننا نكاد نسمع منه صوت خرير الماء الهدّار عندما تشقّ الفلك عُباب الأمواج بجُؤجئها. وهذا الموضوع يدخل في مجال جرس اللّفظ القرآني الذي سَيُبحَث في حينه. أما ما نحن بصدده هنا فموضوعه تداخل الأصوات المتباينة في الجملة أو التركيب القرآني، وفيما يلي نموذجين منه.

---

(١) الحسيس: الصوت الخفيّ (لسان العرب: مادة: حسس).

(٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها: ١٧٤.

٤. ٤. ٢. ١ ـ محاكاة الحروف لطبيعة الصوت

يَتّصف حرفا (التاء) و (القاف) بخصائص صوتية معيّنة، منها اشتراكهما بصفتَي الشِّدَّة و الإنفجار أثناء النطق بهما. كما أنّ لكلٍّ منهما إيحاءات سَمعية خاصة؛ فصوت (التاء) يوحي بالقرع، وذلك على حَدِّ وصف الشيخ الرئيس ابن سينا له بأنه يُسمَع «عن قرع اليد بإصبعٍ بقوّة»[١]. أما صوت (القاف) فيصفه «العلايلي بأنه: (للمفاجأة تُحدث صوتاً). ويصفه الأرسوزي بأنه: (للمقاومة). وكلا الوصفين يُفضيان به إلى أحاسيس لَمسية من القساوة والصلابة والشدة، وإلى أحاسيس بصرية وسَمعية، من فقاعة تنفجر، أو فخارة تنكسر»[٢].

وإذا ما اتفق أن توالَى ورود هذين الصوتين في لفظ أو تركيب، وتكرَّر أحدهما أو كلاهما فيه، فإنّ تردُّداتهما الصوتية حينئذٍ تبلغ أقصى درجات الشِّدّة في السّمع، مِمّا يُؤدي إلى مضاعفة الإحساس بهذه الصفات.

ونلمح هذا بوضوح في عبارة: ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣]. وهذه الآية، والتي قبلها، نزلت بعد الانتصار العظيم الذي حَقّقه المسلمون على مشركي مكة في واقعة بدر الكبرى. وقد جاءت لِتُبيِّنَ شِدّة بأس المسلمين في مقارعة أعداهم، وما أبلوه من بلاءٍ حسَن في تلك المعركة الحاسمة، حيث أيّدهم الله بنصره. أمّا شأن نزولها فكان الردّ على يهود المدينة، مِمّن قَلّلوا من شأن هذا

(١) أسباب حدوث الحروف: ٢٦.

(٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها: ١٤٤.

الانتصار، لكي يعتبروا بهذه الآية الكبرى، فيكفُّوا أيديهم عن الرسول ﷺ[1].

وعلى الرغم من أنّ الآية تُشير إشارةً عابرةً إلى التقاء المسلمين بالكافرين، من دون وصفٍ لساحةَ القتال أو تصويرٍ لشِدّة النزال، إلاّ إنّ أجواء المعركة تكاد تكون ظاهرةً للعيان، طارقةً للآذان، من خلال توالي صوتَي (التاء) و (القاف) في لفظ ﴿ٱلْتَقَتَا﴾.

فإنّ توسُّطَ صوت (القاف) المفتوح بين تاءين مفتوحتين في ﴿ٱلْتَقَتَا﴾، إضافةً إلى إشباع حركة التاء الأخيرة بألف المَدّ ينقل إلى الأسماع أجواءَ المعركة التي تعلو فيها أصواتُ قعقعة السيوف والرماح على أيِّ صوت آخَر.

والملاحَظ في هذه اللّفظة أنّ الصوتَ البارز المسموع منها هو **(تَقَتَا)**، لأنها عندما تُتلَى مع ما قبلها من الجار والمجرور ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ فإنّ اللاّم القمرية التي في أوّلها، والمسبوقة بهمزة الوصل، تدخل في نطاق المقطع الأخير من الكلمة السابقة لها، فتُشكِّلُ نونُ ﴿فِئَتَيْنِ﴾ مع لام ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ مقطعاً متوسطاً مغلَقاً، وذلك على الوجه التالي:

[فِيْ + فِ/ ئَ/ تَيْ/ نِلْ + تَ/ قَ/ تَا]

وعندما تدخل لام ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ في حَيِّز كلمة ﴿فِئَتَيْنِ﴾ فإنّ لفظ **(تَقَتَا)** يبدو وكأنه

---

(١) سبب النزول «أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: يا معشر زفر أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً. فقالوا: يا محمد لا يغُرّنّك من نفسك أن قتلتَ نَفَراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتَلتَنا لعرفت أنا نحن الناس، وإنك لم تلقَ مثلنا. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] إلى قوله: ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لعبرة لأولي الأبصار» (تفسير القرآن العظيم: ١/٣٥١).

لفظ مستقل، لا تدلّ أصواته الإنفجارية الشديدة على أيِّ شيء بقدر ما تدلّ على محاكاتها لقعقة السِّلاح.

وإذا كانت الخصائص الصوتية المذكورة لصوتَي (التاء) و (القاف) قد جَسّدت المسموع من صوت المعركة، فإنّ المقاطع الصوتية للفظ **(تَقَتَا)** جَسّدَت المحسوس من إيقاع المعركة ؛ فهو يَتَكوّن من ثلاثة مقاطع مفتوحة ؛ قصيرين فطويل ؛ (ص ح + ص ح + ص م)، وهذا من حيث الإيقاع يُضارع وزن (UU-)، أي: إنه يشتمل على ثلاث نقرات تتوالَى سِراعاً دون تريُّث فيما بينها، ثم تَمتد النقرة الثالثة بواسطة ألف المدّ لتختم الكلمة. وهذا الإيقاع السريع الممتدّ المضطرب يُجسِّد بلا ريب حركة الإيقاع السريعة والمضطربة للمعركة.

ونظير هذا الفعل الماضي ﴿ٱلْتَقَتَا﴾، المسند إلى المثنى المؤنث، الفعلُ الماضي ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾، المسند إلى جمع العاقل، في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩]، إلاّ أنّ هذا أخَفُّ من ذاك، لأنّ القاف فيه متطرفة، وداخلة مع نون ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ السابقة لها في مقطع واحد، فيبقَى منه لفظ **(تَتَلُوا)**، وهو وإن كان مساوياً لـ **(تَقَتَا)** من حيث الإيقاع، إلاّ أنه أخَفُّ منه أصواتاً. ولا شكّ في أنّ اقتتال المؤمنين فيما بينهم، وإن كان شديد الوطء على قلوبهم. إلاّ أنه أخَفُّ من اقتتالهم مع أعدائهم الكافرين.

٤. ٤. ٢. ٢ ـ محاكاة الحروف لإيقاع الصوت

يمكن التمثيل لهذا النوع بما ورد على لسان الهدهد وهو قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] وذلك عندما تفقّده نبي الله سليمان فلم يَجِدْه، فتوعّدَه بالعذاب الشديد، أو الذّبح إن لم يأتِ بعُذر بَيِّنٍ يُبرِّرُ به غيابَه،

فقد جاء قبل هذا قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل].

وعند النظر في جملتَي مقول القول اللّتين وردتا على لسان الهدهد نجدهما، من حيث توارد الأصوات فيهما، تختلفان عَمّا سبقها من كلام ورد على لسان سليمان، كما تختلفان عما جاء في الآيات الأربعة التالية من كلام الهدهد ذاته، الذي راح يَقُصّ فيها ما رأى من مملكة سبأ، ومَلِكَتِهم، وقومها وما يعبدون.

فالجملة الأولى ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ التي قالها الهدهد، وبِها «أعلَمَ سليمانَ مالم يكن يعلمه، ودفع عن نفسه ما توعَّدَه من العذاب والذبح»[1] تَتَميّز بما يلي:

ـ تكرّر أصوات (الحاء) و (الطاء) و (التاء) في فِعلَي ﴿أَحَطتُ﴾ و ﴿تُحِطْ﴾.

ـ مجيء التكرار مقلوباً بالنسبة لصوت التاء، فهو آخر حرف في ﴿أَحَطتُ﴾ والأول في ﴿تُحِطْ﴾.

ـ تكرّر صوتا (الباء) و (الميم). والجدول التالي يُبيِّن مقدار هذا التكرار وتوزيعه:

أ	ح	ط	ت	ب	م	ا	ل	م	ت	ح	ط	ب	ه
-	١	٢	٣	٤	٥	-	-	٥	٣	١	٢	٤	-

ـ قراءة الفعل ﴿أَحَطتُ﴾ «بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق»[2].

وعلى الرغم من أنّ هذا الإدغام واجب لتقارب المخرج «إلاّ أنّه لَمّا كان من

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/١٨١.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٣/٣٥٩.

أحكام الإدغام أنّ الحرف إذا كان له فضيلة ومِزية على مُقاربِهِ امتنع الإدغام، وكان للطاء فضيلة ومِزيةٌ على التاء بالأطباق الذي في الطاء كُرِهَ ذَهابُ إطباقها بالإدغام مع القلب المحض، فغادروا فيه صُوَيتاً من الإطباق لئلاّ يُجحِفوا بها ويَسلبوها مَزِيّتها فأُدغِمَت في التاء مع إبقاء شائبةٍ من الطاء لذلك»[1]. فهناك اضطراب يحصل أثناء نطق هذا اللّفظ بسبب تفاوت هذين الصوتين بين إطباق الطاء وفخامته، وبين رقة التاء.

إنّ هذه الخصائص الأربعة مجتمعةً تُشعِر بنوع من الارتباك والاضطراب في أصوات هذه الجملة، على الرغم من أنّ إيقاعها جاء مقارباً لوزن المتقارب الذي يَمتاز بنغمة واحدة (فعولن) متكرِّرة قوامها مقطع قصير، وآخران طويلان يليانه على هذا الترتيب: [أَ ـ حَط ـ تُ/ ب ـ ِمَا ـ لَمْ /تُ ـ حِطْ ـ بِه]. ويوصَفُ إيقاع المتقارب بأنه مضطرد التفاعيل، منساب، يَصلح لكلِّ ما فيه تعدادٌ للصفات، وسَرْدٌ للأحداث في نَسَق مستمر[2]، فهو من هذه الجهة مناسب لما سيسرده الهدهد، إلاّ أنّ انسيابية الإيقاع لم تتحقّق في هذه الجملة، بسبب الخصائص الصوتية المذكورة أعلاه.

لقد بادر الهدهد في جملته الأولى فقال لسليمان بأنه اطّلع على ما لم يطّلع عليه هو ولا جنوده، وذلك ليُثيرَ فيه حِسَّ التطلّع إلى المعرفة، فيأمن عقابَه. أما في جملته الثانية: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فقد أسرع ليستفِزَّ فيه شعوراً آخرَ، مَهّدَ له بالتأكيد على حقيقة ما اطّلع عليه من أخبار مملكة سبأ. وهذه الجملة كسابقتها تمتاز بخصائص صوتية جديرة بالتأمل، أهمها:

ـ تكرار صوت النون.

---

(١) الموضح في التجويد: ١٥٠.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: ٣١٢/١.

ـ الإتيان بلفظين متشابهين في الوزن والرويّ[(١)]، وما ترتّبَ على ذلك من تكرار في الأصوات، والحركات، والمقاطع الصوتية.

ـ نَتَجَ عن ذلك صرف كلمة (سبأ)، لأنها مِمّا لا ينصرف، ووجه التنوين فيها مناسبتها لـ (نَبَأ) كما نُوِّن (سلاسلاً) لمناسبة (أغلالاً) [الإنسان: ٤][(٢)].

ـ كثرة توالي الحركات، وهو ما يعني زيادة المقاطع القصيرة المفتوحة وتواليها. وهذا من شأنه أن يُسَرِّع من إيقاع الجملة. والجدول التالي يُبيِّن قِلة عدد السكنات، فهي ستٌّ فقط مقابل أربعة عشر حرفاً متحرِّكاً

وَ	جِئْـ	تُـ	كَ	مِنْ	سَـ	بَـ	إنْ (مْ)	بِ	نَـ	بَـ	إنْ (يْ)	يَـ	قِيْنْ
م	م/ س	م	م	م/ س	م	م	م/ س	م	م	م	م/ س	م	م/س/س

إنّ هذه الخصائص الصوتية والمقطعية ؛ من التكرار وسرعة الإيقاع، تُشعر هي الأخرى، كما في الجملة الأولى، بنوع من الإضطراب، وربما التلكُّؤ في نُطق الأصوات، وربما كانت صورة نطق هاتين الجملتين ؛ صوتاً وإيقاعاً، شبيهةً بصورة نطق الطائر للأصوات.

والذي يُقوِّي الإحساس بهذا المعنى أنّ ما سبق هذه الآية، مِمّا جاء على لسان سليمان، لا تُلحَظ فيه هذه الخصائص، أما الآيات التالية لها، والواردة على لسان الهدهد نفسه فإنه قالها بعد أن هَدَأَ رَوعُه، واطمأنّت نفسه، وقد بدأ يَقُصُّ فيها من الحقائق ما يُعَدُّ حُجّةً بيِّنةً، تَدرأُ عنه العقاب، وتَجُبُّ ما كان يَخشاه من حساب وكتاب.

(١) وهو ما يُطلق عليه البلاغيون اسم: «التضمين المزدوج ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: المؤمنون هينون لينون» (التعريفات: ٢٧٠).

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٣٢٥/٢.

٤ . ٤ . ٣ ـ الدلالة على حقيقة المعنَى

هناك حروف في العربية تتميّز بخصائص صوتية متمكِّنة في ذاتها ، فإذا ما ورد أحدها في لفظٍ ما فقد يُضفي عليه خصوصيته أو سِمَته فيتلوّن اللّفظ بها. ومن هذه الحروف (الهاء) الذي أُطلِقَ عليه اسم (المهتوت) ، «لما فيه من الضّعف والخفاء»[1] ، فعندما ورد هذا الحرف في لفظ (وَهَنَ) نقل إليه هذه الصفة ، فأشار إلى حقيقة معناه ، كما في قوله تعالَى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [مريم : ٤]. وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت : ٤١].

وأحياناً يتوالَى أكثر من حرف في لفظ أو تركيب فتدل أصواتها مجتمعةً على حقيقة معنى ذلك اللّفظ ، فتكون الأصوات دالّةً على معانيها. وإذا كان اختيار المفردة المجرَّدة من الحروف المزيدة يقوم على أساس مفاضلتها بِما يُرادفها من المفردات ، فإنّ اللّفظ المرَّكب ، علاوةً على تَخَيُّره وفقاً لهذا المعيار ، يُلاحَظ فيه كذلك ما يجب أن يلحق به من حروف سابقة أو لاحقة أو متداخلة ، ليأتي التركيب الصوتي منسجماً مع المعنى المراد ، منطبقاً عليه. و هذا التَّخيُّر الدقيق للألفاظ وأصواتها لتدلّ على المعاني لا يمكن الوثوق إليه إلاّ في الاستعمال القرآني المعجز.

ومِن التراكيب التي دلّت فيها الأصوات المتوالية على حقيقة ما تعنيه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾ الذي ورد في سياق الآيات التالية : ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس].

وهذا التركيب مِمّا ذكره أرباب البلاغة في باب القول على فصاحة المفرد الذي

(١) سِرُّ صناعة الإعراب : ٧٤/١.

اشترطوا فيه خلوصه من تنافر الحروف، الذي يوجب ثِقَلاً على اللِّسان وعُسراً في النطق[١]. وقد جعل ابن سنان الخفاجي مخارج الحروف المتباعدة شرطاً في اختيار الألفاظ، لأنّ قرب المخارج سببٌ للثقل المخِلّ بالفصاحة[٢]. كما ذهب إلى أنّ حروف الحلق إذا تقاربت كانت قبيحةً، وقُبحُ اللّفظ يُمكن أن يُدرَك «كما يقبح عندك بعضُ الأمزجة من الألوان وبعضُ النّغَم من الأصوات»[٣].

وبناءً على ذلك فقد زَعَمَ بعضُهم إنَّ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ثِقَلاً قريباً من المتناهي، لاجتماع ثلاثة أصوات، ليست قريبة المخرج، بل إنها من مخرج واحد، وهي: (الهمزة) و (العين) و (الهاء) الحلقية، وهذا مِمّا يُخِلُّ بفصاحة الكلمة. و بذلك عَدُّوا كلمة ﴿أَعْهَدْ﴾ في هذا السياق القرآني غير فصيحة، ولكنهم استدركوا بأنّ الكلام الطويل المشتمل على كلمة غير فصيحة لا يَخرج عن الفصاحة. وهذا الرأي ظاهر الفساد، كما ذهب التفتازاني؛ لأنّ «مُجرّد اشتمال القرآن على كلمةٍ غير فصيحة مِمّا يقود إلى نسبة الجهل أو العجز إلى الله، تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيرا»[٤].

وقد اعترض ابن الأثير على ماذهب إليه ابن سنان الخفاجي من اعتبار مخارج الحروف المتباعدة شرطاً للفصاحة، معتبراً الذوق السليم معياراً لتَخَيُّر الألفاظ «فما استلذه السّمع منه فهو الحسَن، وما كَرِهَه فهو القبيح، والحسَن هو الموصوف بالفصاحة، والقبيح غير موصوف بفصاحة لأنه ضدّها»[٥].

---

(١) شرح المختصَر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني: ١/١٤.

(٢) سر فصاحة الاعراب: ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) م.ن: ٦٧.

(٤) شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني: ١/١٥ ـ ١٦.

(٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/٨٢.

ويبدو أنّ الإختلاف ليس حول وجود الثِّقَل من عدمه في هذا التركيب القرآني، فالجميع مُجمِعٌ على وجود الثِّقَل في ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾، إلاّ أنهم لم يجدوا التعليل المنطقي لهذا الثقل الفريد من نوعه في اللّفظ القرآني.

ومن الواضح أنّ الثقل لا يَكمُن في توالي ثلاثة أصوات مشتركة المخرج في لفظ ﴿أَعْهَدْ﴾ فحسب، بل إنّ هناك مؤثِّرات صوتية أخرى تزيد من هذا الثقل وتُؤكِّده، وهي:

ـ وجود (الدّال) المقلقلة في آخر لفظ ﴿أَعْهَدْ﴾ يُضيف نوعاً من الشِّدّة إلى ذلك الثِّقَل.

ـ توالي صوت الهمزة في أوائل الكلمات الثلاثة: ﴿أَلَمْ﴾، ﴿أَعْهَدْ﴾، ﴿إِلَيْكُمْ﴾. والهمزة صوت حنجريّ قويّ «في غاية الظهور والثقل»[1]، بل إنه «من أشَقِّ الحروف وأعسرها حين النطق، لأنّ مخرجَها فتحة المزمار، ويُحِسُّ الإنسانُ حين ينطق بها كأنه يختنق»[2].

ـ مَجيء لفظ ﴿أَعْهَدْ﴾ على مقطعَين طويلَين مُغلَقين؛ (أعْ/ هَدْ) وهذا المقطع تكرَّرَ كذلك في ﴿أَلَمْ﴾؛ (أ / لَمْ)، كما تكرَّرَ مرّتين في ﴿إِلَيْكُمْ﴾؛ (إ / لَيْ / كُمْ). وتوالي هذا المقطع، المتمثِّل بنقرة طويلة، يوحي بالشّدة والثِّقَل أيضاً.

ـ يُضاف إلى هذا الثقل اللّفظي الثِّقَل المعنوي المتمثل بأسلوب التوبيخ[3] والتقريع الموجّه «من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين،

---

(١) الموضح في التجويد: ١٢٨.

(٢) موسيقى الشعر: ٢٨.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/ ٤٣٠.

وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم»[١].

إنّ هذا الثِّقَل الناشئ عن توالي هذه الأصوات والمقاطع في هذا التركيب القرآني جاء لِيُناسِبَ ثِقَل ذلك العهد الذي عَهِدَ الله به إلى بني آدَم بـ «ما ركَزه فيهم من أدلّة العقل، وأنزلَ عليهم من دلائل السّمع»[٢]ليحتكموا إلى هذا العهد المكين، تاركين طاعة الشيطان إلى عبادة الرحمن. وليس هناك ما هو أثقل من هذا العهد الإلهي، وهو الأصل الأوّل في خلق الجن والإنس ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وعند الرجوع إلى التفاسير نجد أنّ هذا العهد الذي تضمَّنَ معصية الشيطان وعبادة الرحمن ليس سوى تلك الأمانة التي قال الله فيها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فهو «يُريد بالأمانة الطاعة، فعظّمَ أمرها وفخَّمَ شأنَها»[٣]. وقد ذكر صاحب الميزان إنّ «في التعبير بالحمل إيماءٌ إلى أنها ثقيلةٌ ثِقَلاً لا يَحتملها السّماوات والأرض والجبال»[٤].

وبناءً على هذا الثقل في معنى (العهد) الذي لا يُوازيه ثقلٌ آخَر، والذي لم تُطق السّماوات والأرض والجبال حَملَه، جاء لفظ ﴿أَعْهَدْ﴾ كذلك ثقيلاً على اللِّسان عَسِراً في النطق كما ذكر البلاغيون. فإذا كانت تلك الأجرام الكونية الهائلة عاجزةً عن حَمل المعنى، فإنّ اللِّسان أولَى بالعجز عن حمل اللّفظ. والله تعالَى أعلم.

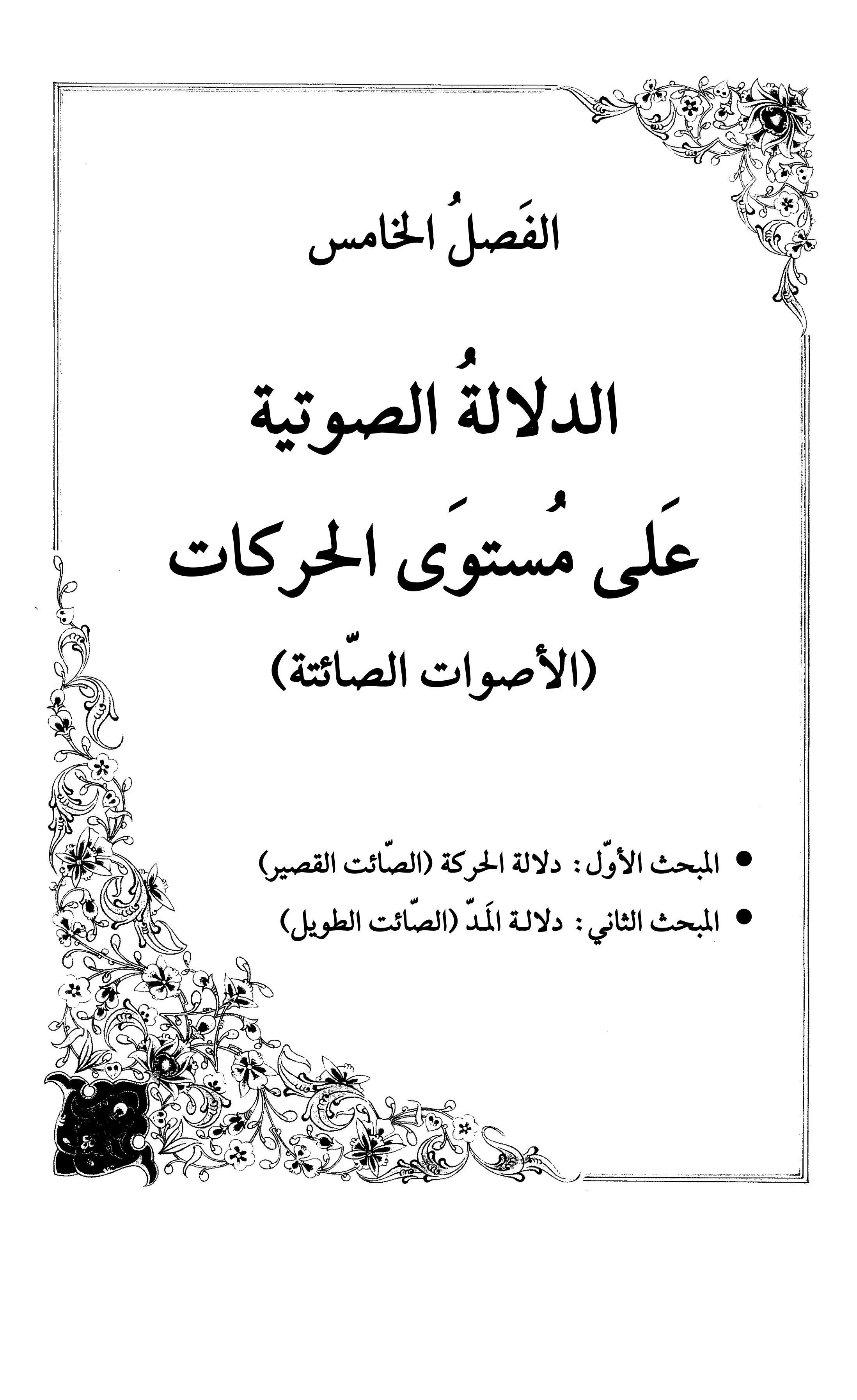
---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٧٧/٣.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢٣/٤.

(٣) م.ن: ٥٦٤/٣.

(4) الميزان في تفسير القرآن: ١٦/ ٣٧٣.



الفَصلُ الخامس

الدلالةُ الصوتية
عَلى مُستوَى الحركات
(الأصوات الصّائتة)

- المبحث الأوّل: دلالة الحركة (الصّائت القصير)
- المبحث الثاني: دلالة المَدّ (الصّائت الطويل)

الفصل الخامس

الدّلالةُ الصّوتية عَلى مُستوَى الحركات

(الأصوات الصّائتة)

تمهيد

على الرغم من أنّ الحركات (الصوائت) تقوم أساساً على الحروف (الصوامت)، إلاّ أنها هي الأخرى تمثل وحدات أو فونيمات صوتية، لكنَّ ما يُميِّزها عن الحروف هو عدم إمكان الابتداء بها في العربية، وتنقسم الحركات إلى نوعين: حركات (صوائت) قصيرة: وهي (الفتحة، الضَّمَّة، الكسرة)، وحركات (صوائت) طويلة: وهي أصوات المدِّ، أو ما تسمّى بأصوات اللِّين أو العلّة، وهي: (ألف المد، واو المد، ياء المد).

وقد تَمَّ الجمع بين الحركات القصيرة وأصوات المدّ معاً في فصلٍ واحد، لأنهما من جنس واحد؛ فلكلِّ حركةٍ صوتُ مَدٍّ يُجانسه، يُعَدُّ جزءاً منه؛ فالفتحة يُجانسها الألف، والضّمّة يُجانسها الواو والكسرة يُجانسها الياء. يتحدّث ابن جني حول علاقة الحركات بأصوات المدّ فيقول: «اعلم أنّ الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي: الألف والياء والواو، فكما أنّ هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهي:

الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يُسمّون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة»[1].

وعلماء اللغة المعاصرون يُطلقون على الحركات اسم الحركات القصيرة، وعلى أصوات المد اسم الحركات الطويلة. وسنتناول كلاً منهما في مبحث خاص.

---

(١) سرُّ صناعة الإعراب: ١/١٧.

المبحث الأول

٥. ١ ـ دلالة الحركة (الصّائت القصير)

من المعلوم إنّ للحركة في اللغة العربية دوراً كبيراً في تحديد معنى الكلمة، سواءٌ على صعيد بنيتها التشكيلية، أو على صعيد حالتها الإعرابية. كما أنّ الفتح أوالكسر أوالضم، وكذلك السكون الذي يَعتَوِرُ الكلمة، بِنِسَبٍ متفاوتة، من شأنه تشكيل ملامح الكلمة، وتحديد صورتَها النطقية، بسبب الصفات التي تُميّز كُلاًّ منها.

وتَسمية الحركات بهذه الأسماء مأخوذٌ من خصائصها. ويدل على ذلك ما قام به أبو الأسود عندما أراد تنقيط المصحف الشريف. فقد أخضع عمله للتجريب والتذوُّق الفعلي للحركات، اعتماداً على وضع الشفاه من فتح وكسر وضّمّ لها[١]، ومن ثَمَّ كانت التسمية التقليدية المعروفة: الفتحة والكسرة والضمة.

٥. ١. ١ ـ خصائص الحركات الثلاثة

تنبع أهمية الحركات من خصائصها التي تنماز بها من بين سائر الأصوات، وهي:

أولاً: أثناء النطق بالحركات يَمُرُّ الهواء حُرّاً طليقاً عَبْرَ الفم دون عائقٍ أو مانعٍ يقطعه أو ينحو به نحو جانِبَي الفم أو الأنف، ومن دون تضييق لِمَجراه من شأنه أن يُحدِث احتكاكاً مسموعاً.

ثانياً: غالباً ما تكون الحركات مجهورةً.

---

(١) يُراجع مبحث: (٢. ١. ١ ـ أبو الأسود الدؤلي).

ثالثاً: نتيجة للخاصّتين السابقتين، وباعتبار وظيفة الحركة مقطعياً فإنّ الحركات تُعَدُّ أقوى الأصوات وضوحاً في السّمع (most sonorious)[١].

هـذه كانت الخصائص العامة للحركات، أما خصوصيات كلٍّ من الحركات الثلاثة؛ فإنّ الفتحة تُضارع السكون في خِفّتها، وهي أخَفُّ الحركات أي إنها أخَفّ من الضّمة والكسرة[٢]. كما أنّ الضّمّة أثقل من الكسرة وأقوى منها «وإنما ضَعُفَت الكَسرةُ عن الضمة لقُربِ الياء من الألف وبُعدِ الواو عنها»[٣]، مِمّا يعني أنّ النُّطق بالضمّة يَحتاج إلى جهدٍ عضَليّ أكثر من الكسرة والفتحة، وذلك لأنها لا تُنطَق إلاّ بانضمام الشَّفتَين وارتفاعهما ولا تَحتاج الكسرة ولا الفتحة إلى ذلك[٤].

ولَمّا كانت الفتحة أخَفّ الحركات، والضمّة أثقلها وأقواها فقد انتفَى «في الثنائي على قلّة حروفه ما أوّله مضموم إلاّ القليل، وإنّما عامّته على الفتح نحو: هَل، وبَل، وقَد، وأن، وعَن، وكَم، ومَن، وفي المعتل: أو، ولَو، وكَي، وأي، أو على الكسر نحو: إن، ومِن، وإذ، وفي المعتل: إي، وفِي، وهِي، ولا يُعرف الضَّمُّ في هذا النحو إلا قليلا»[٥]. وعليه فإنّ لكلِّ حركةٍ خصائصها التي تُميِّزها عن أُختَيها، والجدول التالي يُوضِّح طبيعة هذا الإختلاف[٦]:

---

(١) علم الأصوات: ٢١٧ ـ ٢١٩.

(٢) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٥٩.

(٣) م.ن: ١/٦٩.

(٤) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١١٥.

(٥) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٦٩.

(٦) التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث: ٤٧.

الحركات	موضع نطقها	درجة الانفتاح بالنسبة للفم	صفتها بالنسبة للشفتين
الفتحة	وسطية	منفتحة	منفرجة
الكسرة	أمامية	منغلقة	منفرجة
الضّمّة	خلفية	منغلقة	مستديرة

وهكذا فإنّ أقوى الحركات وأثقلها هي الضمةُ، ثم تليها الكسرةُ، ثم تليها الفتحةُ أخفّ الحركات. و لهذا التدرُّج في خِفّة الحركات وثِقَلها، وقوّتِها وضَعفها (حركات بناءٍ كانت أم إعراب) دَورٌ في دلالة النّصّ القرآني. ففي القرآن الكريم نماذج كثيرة اختيرت فيها الكلمات اختياراً دقيقاً، ليشاطرَ بناؤها الحركي حالتَها التعبيرية. كما اختيرت فيه كلماتٌ أخرى، ورُكِّبت في جُمل بحيث يتساوق بناؤها الحركي إضافةً إلى حركتها الإعرابية، مع الحالة التعبيرية.

٥. ١. ١. ١ ـ دلالة حركات البناء

قد تدلّ صيغة الكلمة من ناحية الحركات على المعنَى، ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم من استعمال كلمة (الحَياة) للدنيا، واستعمال كلمة (الحَيَوَان) للآخِرة، حيث استُعمِلَ لفظ (الحياة) أكثر من سبعين مرّة مقروناً في أغلبه بالدنيا، في حين استُعمل لفظ (الحَيَوَان) مرّةً واحدةً فقط، وُصِفَت به (الدار الآخِرة) في مقابل (الحياة الدنيا)، وذلك في قوله عَزَّ مِن قائل:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكوت: ٦٤].

وتفسير الآية «﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ التي يتمتع منها هؤلاء المشركون ﴿إِلَّا لَهۡوٞ

﴿وَلَعِبٌ﴾. يقول: إلاّ تعليل النفوس بِما تلتذّ به، ثم هو مُنقَضٍ عن قريب، لا بقاءَ له ولا دوام، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ يقول: وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها»[1]. فالحياة لفظ أُطلِق على الدنيا باعتبارها دارُ لَهوٍ ولَعِب وزوال، والحَيَوَان لفظ أُطلِق على الآخرة باعتبارها دارُ كرامةٍ وعزٍّ وبقاء

والعلّة في تخصيص القرآن الكريم كلمةَ (الحَيَوَان) للدار الآخرة، وتخصيص كلمة (الحياة) لدار الدنيا، مع أنّ كُلاً منهما مصدر للفعل: (حَيِيَ، يَحيَى)، هي أنّ كلمةَ (الحَيَوَان) صيغة مبالَغة بالألف والنون، وفي بنائها «زيادةُ معنًى ليس في بناء (الحياة)، وهي ما في بناء (فَعَلَان) من معنى الحركة والاضطراب.. والحياةُ حركة، كما أنّ الموتَ سُكون، فمجيئه على بناءٍ دالٍّ على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرَت (الحَيَوَان) على (الحَياة) في هذا الموضع المقتضِي للمبالغة»[2].

وقد علَّل سيبويه ذلك بأنّهم «قابَلوا بِتَوالي حَرَكات المثال تَوالي حَرَكات الأفعال»[3] دونما إشارةٍ منه إلى هذا المثال. فلَمّا كانت الحياةُ في الآخرة متواليةً متداومةً لا نهاية لأمَدِها ناسبَها لفظ (الحَيَوَان) الذي تَتوالَى فيه حركة الفتح مبالغةً في أمَدِها، ولَمّا كانت الحياة الدنيا منقضِيةً زائلةً ناسَبَها لفظ (الحياة) التي تفتقر إلى هذه الخصوصيّة.

٥. ١. ١. ٢ ـ دلالة حركات الإعراب

وردت في القرآن الكريم كلمات مُحَرّكة بغير الحركة الإعرابية المألوفة على

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٢/٢١.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤٦٣/٣.

(٣) الخصائص: ١٥٢/٢.

المشهور من القراءات القرآنية، وذلك نحو قوله تعالَى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] بضمّ (الهاء) في ﴿عَلَيْهُ﴾ المسبوق بفتح فسكون، وفي ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾ المسبوق بكسرٍ فَمَدٍّ يائيٍّ، رغم أنّ المشهور في مثل هذا هو كَسْرُ (الهاء) كما في قوله تعالَى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١].

٥. ١. ١. ٢. ١ ـ دلالة اختيار حركة الضم

حُكم حركة (هاء) ضمير الغائب المذكّر أن تُحرَّك بالضَّمّ إذا لَم تُسبَق بياء ساكنة أو كسرة مثل: (لَهُ) و (يَعلَمُهُ) و (مِنْهُ) ونحو ذلك، فإذا سُبِقَتْ بياء ساكنة أو كسرة فللعرب فيها طريقتان؛ بعضهم يُبقيها على أصل الضَّمِّ، وهم أهل الحجاز فيقولون: (عَلَيْهُ) و (بِهُ)، وسائر العرَب يكسرون (الهاء) لمناسبة الياء والكسر فيقولون: (عَلَيْهِ) و (بِهِ)[1].

وقد نزل القرآن في هذا بلغة سائر العرب، إلاّ في هذين المثالَين: ﴿عَلَيْهُ﴾ و ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾، حيث اختار لهما حركة الضّم التي هي أقوى الحركات، كما أسلَفنا، مُرجِّحاً إيّاها على حركة الكسر التي هي دونها في القوّة والثقَل. وهنا بالذات تكمن عِلّة اختيار الضَّمّ لهذين اللّفظين في سياقَيهما.

٥. ١. ١. ٢. ١. ١ ـ النموذج الأول (عَلَيْهُ)

ورد لفظ ﴿عَلَيْهُ﴾ بضم الهاء مرّةً واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ

(١) القراءات واللهجات من منظور علم الأصوات الحديث: ١١٦.

عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠]. وقد اختيرت حركة الضّمة هنا لكونها أثقل الحركات وأقواها لتتناسب مع ثِقَلِ هذا العهد وعَظَمته وقوّته، وتكمن عَظَمَة هذا العهد في جملة نواحٍ منها:

أولاً: إنّ المقصود ببيعة المؤمنين للرسول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ هي بيعة يوم الحديبية، حيث بايع المؤمنون النبيَّ ﷺ «على أن لا يَفِرّوا ثَمّ لقاء العدو ولا يُولّوهم الأدبار»[١]. فهي بيعة على الموت في نُصرة الرسول ﷺ ونصرة دينه، والبيعةُ على الموت أشدّ وأثقل أنواع البيعات وأقواها.

ثانياً: إنّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ تعظيماً لشأن هذه البيعة، لأنّ الله الجبار العظيم هو الطرف المُبايَع.

ثالثاً: إنّ قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يَعني أنّ «قوةَ الله فوق قوتهم في نصرة رسوله صلى الله عليه وسلم»[٢]، ففيه توكيدٌ لما قبله وتوثيقٌ لأمرِ هذه البيعة العظيمة، وبيانٌ لقوّتِها وثقلها.

رابعاً: إنّ عظَمَة هذه البيعة ينسحب على نَكثِها كما ينسحب على الوفاء بها، أمّا نقض البيعة ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ «أي إنما يعود وَبالَ ذلك على الناكث والله غَنِيّ عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً»[٣].

فلَمّا كانت البيعة عظيمةً وكان العهد ثقيلاً فقد «ناسَبَ أن يأتيَ بأثقل الحركات، وهي الضّمّة مجانِسةً لِثِقَلِ هذا العهد»[٤].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٦/٢٧.

(٢) م.ن: ٢٦/٢٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/١٨٦.

(٤) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١١٦.

وهناك مُلاحَظتان صوتِيّتَان أُخريَان في اختيار الضَّمِّ بدَلاً من الكسر في هذا اللَّفظ، أشار إليهما صاحب تفسير (روح المعاني) بقوله: «وحَسَّنَ الضَّمَّ في الآية التَّوَصُّلُ به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمرِ العهد المشعِر به الكلامُ، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائمٌ للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نَقضِه»[1].

فالملاحَظة الأولى: تفخيم لفظ الجلالة.

والملاحَظة الثانية: الإبقاء على أصل الحركة.

أمّا التفخيم فإنّ الذي يلي (عَلَيْهُ) هو لفظ الجلالة (اللَّهَ) الذي يجب تفخيم (اللاّم) فيه هنا، لأنه مسبوق بحركة الضم، فينتج عن ذلك تفخيم لفظ الجلالة، فيُناسب تفخيم الصوت تفخيم العهد، فإذا كان لفظ (عَلَيْهِ) مكسور الهاء فإنّ النُّطق بلفظ الجلالة كان سيكون بترقيق (اللاّم).

وأما قوله: «إبقاء ما كان على ما كان ملائمٌ للوفاء بالعهد و إبقائه وعدم نقضه» فيعني به أنّ الأصل في حركة (هاء) ضمير الغائب المذكر هو البناء على الضم، كما أسلفنا، وإنما يستبدلها غير أهل الحجاز بالكسر إذا سُبِقَت بياء ساكنة أو كسرة لمناسبة الياء والكسر، ومجانسة حركة الكسر لهما. ولكن أُبقِيَ على الحركة الأصلية للهاء في هذا المثال، لكي يتناسب إبقاؤها مع الإبقاء على العهد وعدم نقضه.

٥. ١. ١. ٢. ١. ٢ ـ النموذج الثاني (أَنسَانِيهُ)

النموذج الثاني الذي ورد فيه (هاء) ضمير الغائب المذكَّر مضموماً على الأصل، خِلافاً للمشهور فيه من حركة الكسر، ما جاء على لسان فتى موسَى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ

(١) روح المعاني في تفسير القرآن الكريم: ٩٧/٢٦.

مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف].

فالآيات تتحدث عن قصة موسى وفتاه وبحثهما عن الرجل الصالح، فقد أمَرَ اللهُ نبيَّه موسى عليه السلام أن يتزوّد هو وفتاه حوتاً مَشوياً مُمَلَّحاً يُصيبان منه حاجتَهما إلى الطعام، فحيثما فَقَداه فهو موضع الخضر عليه السلام[1].

وكان من أمر هذا الحوت المشويّ الممَلَّح المأكول منه أنْ رَدَّ اللهُ إليه روحَه فسرَب في البحر، ثُمَّ أمسَكَ عنه «جريةَ الماء فصار مثل الطاق»[2]، فصار الحوت يجري في داخله وفتى موسى ينظر إليه، وموسى نائم، فلمّا استيقظ نَسِي الفتَى أن يُخبره بأمر الحوت يومه وليلته تلك، مع أنه رأى من هذا الحوت أمرين من أعجب ما يكون:

أحدهما: جريانُ الروح فيه، رغم كونه كان مشوياً ومأكولاً منه.

والثاني: جريانه في البحر وقد انعقد الماءُ من فوقه كالطاق فكان له كالنَّفَق.

وهاتان الصورتان مِمّا لَم يألفه إنسان ولا سَمع به ولا رَآه، وهذا من شأنه أن يَعلَق في الذهن فلا يُنسَى الدهرَ كلّه، فكيف به يُنسَى بعد لحَظات، ولَمّا كان هذا من أقوى مواطن النسيان وأغربها وأعجبها فقد «عُدِلَ في التعبير من الكسر إلى أقوى الحركات وهي الضمّة، للإشارة إلى نُدرة مثل هذا النسيان وقُوَّته، فناسَبَ بين قوة

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/١١.

(٢) م.ن: ١٤/١١.

النسيان وقوّة التعبير، ونُدرةِ مثل هذا النسيان ونُدرة مثل هذا التعبير»[١].

والمقصود من ندرة هذا التعبير استعمال (أنْ) والفعل المضارع بدلاً من المصدر، وما فيه من التقديم والتأخير، فإنّ قوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ «في موضع نصبٍ رَدّاً على الحوت، لأنّ معنى الكلام: وما أنساني أنْ أذكرَ الحوتَ إلاّ الشّيطانُ، سبق الحوت إلى الفعل، ورد عليه قوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾»[٢]. فمناسبة حركة الضَّمّ في هذا الموضع تكون «من جهتين:

١ـ قوة الحركة وهي الضّمّة مناسبةٌ لقوّة النسيان.

٢ـ نُدرة هذه الحركة في مثل هذا الموطن مناسبة لِنُدرة النسيان في مثل هذا الموطن»[٣].

٥. ١. ١. ٣ـ دلالة حركات البناء مع الإعراب

كثيراً ما يكون لصيغة الكلمة من ناحية الحركات، إضافةً إلى حالتها الإعرابية في التركيب، دلالة على المعنى، ومن ذلك ما يكون في الكلمة الواحدة، ومنه ما يكون من اجتماع أكثر من كلمة في التركيب.

٥. ١. ١. ٣. ١ـ اجتماع حركات البناء والإعراب في الكلمة

قد تكون الكلمة الواحدة لفظاً مستقِلاً قائماً بذاته غير مقترن بحرف أو أداةٍ أو ضمير، فتُشَكِّل حركة البناء والإعراب فيها معاً بُعداً دلالياً يُضاف إلى الدلالة الأصلية للكلمة، وقد لا تكون الكلمة الواحدة كذلك، أي: أن تكونَ مُرَكَّبةً من أكثر من لفظ

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١١٨، وروح المعاني في تفسير القرآن الكريم: ٣١٨/١٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٧٥/١٥.

(٣) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١١٩.

واحدٍ، فتلحق بها الحروف والأدوات والضمائر، فتتعاضدُ فيها الحركات لتدلَّ على المعنى أو تُصَوِّرَه أو تزيده وضوحاً.

٥. ١. ١. ٣. ١. ١ ـ اللّفظ المفرد

سبقت الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ ﴾[1] الذي يتألّف من ثلاث كلمات مستقلّة قائمة بذاتها غير مقترنة بحرف أو ضمير، وقد تَمَّت دراسة دلالة الأصوات أو الحروف الأُولَى من كلِّ كلمةٍ فيه، وهنا نتناول الحركات التي تقوم على تلك الحروف، والتي تُضيف بُعداً دلالياً مهماً إلى معاني هذه الآية المباركة.

وقد علمنا فيما سبق أنّ هذه الكلمات الثلاثة تتكوّن من ستَّة مقاطع صوتية، لذا يكون نَسَقُ ورودها مجتمعةً كالآتي:

[صُمْ ← مُنْ ← بُكْ ← مُنْ ← عُمْ ← يُنْ]
[ص ح ص ← ص ح ص ← ص ح ص ← ص ح ص ← ص ح ص ← ص ح ص]

وبما أنّ الحركة (الصائت القصير) المقترنة بالحرف الأوّل من كلِّ مقطعٍ هي الضَّمَّة، فسيكون نَسَق المقاطع مجتمعةً كالتالي:

[صُمْ ← مُنْ ← بُكْ ← مُنْ ← عُمْ ← يُنْ]
[صُ ـ ص ← صُ ـ ص ← صُ ـ ص ← صُ ـ ص ← صُ ـ ص ← صُ ـ ص]

(١) يُراجع مبحث: (٤. ٣. ٢ ـ دلالة الصَّوت المفرد على خصوص المعنى).

وهي كما تبدو مقاطع متساوية تَماماً من جهتين هما: الايقاع والحركات. وهذا التناسب المزدوَج الرائع نسقٌ فريدٌ، يكاد يختصُّ بهذه الجملة القرآنية، وقد لا نَجدُ له نظيراً في سائر جمل وتراكيب القرآن الكريم، على الرغم من أنّ لكلِّ عبارة قرآنية نسيجها المعجز المتفرد الخاص بها. ويكاد يُشبه هذا النسَق من جهة النسيج الايقاعي فقط، دون الحركات، قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. فهو يشتمل على إيقاعٍ يُناظر تَماماً إيقاع البحر المتدارك المشعّث (فَعْلُنْ)(١).

ولكن يبقَى الإيقاع في ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ متفوّقاً على الإيقاع الشعري من جهتين:

الأُولى: ورود الكلمات القرآنية الثلاث جاءت مختومةً بالتنوين، مِمّا يُضفي على الإيقاع لوناً نغمياً خاصّاً.

الثانية: ورود الحرف الأوّل من كلِّ مقطع منها مضموماً، ليتولّد منه حسب الإيقاع الشعري سبب خفيف(٢) متكرِّر، حركة أوَّله الضَّمّ، لا غير.

أما في الشعر فإن الحركة التي تلي السكون في السبب الخفيف، قد تكون مضمومةً أو مفتوحةً أو مكسورةً، دون أيِّ امتياز لحركةٍ على غيرها. حيث الاعتبار في الايقاع الشعري يحدِّده التنوُّع في توالي الحركات والسكنات ـ دونما اعتبارٍ لنوع الحركة ــ وفق نَمط تناغميٍّ خاص يُدعَى البيت. ويتكرَّر هذا البيت بذات الايقاع ليشكل القصيدة. في حين لا نجد التعبير القرآني يلتزم بنمط إيقاعي محدَّد، بل نراه يتلوّن بتلوُّن المعاني والأغراض، والأحوال والمقامات، مع مراعات الموسيقى الداخلية للتعبير، ابتداءً من الحرف فالحركة فالمقطع فالكلمة فالجملة، فالسياق العام للآيات.

وعند ملاحظة طبيعة الحركات التي وردت في قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ نجد

---

(١) موسيقى الشعر العربي: ١٦٩.

(٢) السبب الخفيف: هو عبارة عن مقطع مكوَّن من حرفين أولهما ساكن والثاني متحرك.

أنفسنا ملزَمين بالإجابة عن تساؤلٍ يطرح نفسه هنا بقوة، وهو: بِماذا يمكن أن يُوحي اجتماع هذا التنوين الثلاثي، آخر كلِّ كلمة، مرتكزاً على حرف مضموم الحركة في كل مرّة؛ (مرتين على الميم، ومرّةً على الياء)، إلى جانب حركة الضم التي في بداية كلِّ مقطع، وما يرافقها جميعاً من إطباق للفم[1] بإحكام، مصحوبٍ بنغمة صاعدة في المقطع الأول، ونغمة هابطة في المقطع الثاني[2]، من كلِّ كلمة، هكذا على التوالي ثلاث مرّات؟

ويُجاب على هذا السؤال بتساؤلٍ آخر، وهو: أليس في إغلاق الفم المتكرِّر أثناء تلاوة هذه الكلمات صعوداً وهبوطاً، ثم الإطباق على النون في آخرها ما يُشيرُ إلى الإغلاق والطّمس والختم الذي ابتُلي به المنافقون والكافرون في حواسِّهم بسبب إصرارهم على الباطل، وحَبْسِ أنفسهم على الضلال والعمَى. فَصُمّت لذلك آذانُهم، وسُدّت أفواهُهم، وخُتِم على أبصارهم؟!. ثم ظهر هذا الإغلاق متكرِّراً على الفم عند تلاوة هذه الكلمات.

وهكذا فقد دلّت حركة الضّمّ المتكرِّر في أبنية هذه الكلمات الثلاثة، بتعاضدها مع الحركة الإعرابية المتمثِّلة بتنوين الضّم فالسكون، على معاني الإغلاق والختم وإحكام السّد في حواسّ الكافرين إضافة إلى دلالة الألفاظ ذاتها على هذه المعانى، وتناسب ذلك مع حركة الشفتين وإغلاقهما.

---

(١) وصف علماء الأصوات الضّمة بأنها: خلفية، منغلقة، مضمومة، وفيها يتجمع اللسان في مؤخَّر الفم تحت أقصى الحنك. كما إنها تنفرد باستدارة الشفتين، أو ضمهما، ومنه جاءت تسميتها (الصوتيات والفونولوجيا: ١٢٧ ـ ١٢٨).

(٢) إن الكلام لا يجري على طبيعة صوتية واحدة بل يرتفع الصوت عند بعض مقاطع الكلام أكثر مما يرتفع عند غيره، وذلك ما يعرف بالتنغيم.

٥. ١. ١. ٣. ١. ٢ ـ اللّفظ المركّبَ

مثال ما دلّت عليه الحركات في الكلمة المركَّبة من أكثر من لفظ واحد، ما ورد من تكرار الضَّمّ في كلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ من قوله تَعالَى:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[هود: ٢٨].

وهذه الكلمة تتألّف من عشرة أحرف، أي إنها واحدة من ثلاث أطول كلمات في القرآن الكريم، ونظيرها كلمة﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾[النور: ٥٥]، وكلمة ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحِجر: ٢٢].

وأصل كلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ الفعل (نُلزِمُ) وقد اجتمع إليها عِدّة أحرف؛ أوّلها الهمزة التي للاستفهام الانكاري، «وفي هذا الفعل ثلاثة ضمائر: الأوّل مستتر تقديره: نحن، وهو الفاعل، والثاني ضمير المخاطَب أي: الكاف وهو المفعول الأوّل، والثالث ضمير الغائب، أي: الهاء، وهو المفعول الثاني، والميم علامة جمع الذكور، والواو لإشباع حركة الضّمّ على الميم، وليست ضميراً، وقد روعِيَ الترتيب فيها؛ لأنّ المتكلِّم أخَصّ بالفعل، ثم ضمير المخاطَب، ثم ضمير الغائب»[1].

وقيل في (هاء) ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنّها شهادة أن لا إله إلاّ الله، وقيل: إنها ترجع إلى الرحمة، وقيل: إلى البيِّنة[2]. فجملة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ تعني: «أنُكرِهُكُم على قبولها ونُقسِرُكم على الاهتداء بها، وأنتم تَكرهونَها ولا تَختارونَها، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضميرَي المفعولَين مُتَّصِلَيْن جميعاً، ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٤١٢/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٥/٩.

كقولك: أُنلزِمكُم إيّاها»[١]. فعُدِلَ عن الفصل بين ضميرَي المفعولَين إلى الوصل بينهما، فبانَت حركة الضّمّ المتكرِّر والمتوالي على أجلَى صورة، حيث لَحِقَ بالضَّمّة الثالثة التي على حرف الميم مدٌّ واويّ زاد من وقع هذه الحركة القوية الثقيلة فأشعَر بمعاني الإلزام والإكراه والإجبار.

وزاد من الاحساس بهذه المعاني ورود حركة الضم مرَّتين على حرف الميم الذي تنطبق الشفتان عند النطق به انطباقاً تامّاً، وينفرجان عن استدارة مُمتدّة للفم مع المدّ الواوي. ولا يَخفى ما للضمة التي على الكاف (الاحتكاكي) التي تتوسّطهما من تأثير سَمعي يُشعر بالإلصاق والإلزام، وكذلك التمهيد لهذه الضّمّات الثلاثة بالكسر الذي على حرف الزاء الصفيري.

ومِمّا يُلاحَظ أيضاً بخصوص ضميرَي المفعولين أنه لا يُسَوَّغ تركُ المتصل إلى المنفصل، فَلَمّا كان «المتصل أخصَر لَم يُسَوِّغوا تَركه إلى المنفصل إلاّ عند تَعَذُّر الوصل»[٢]، وقد تَعذّر الوصل في الآية بين الكافرين وبين إيمانهم بالله؛ فقد أُنكر إلزام المفعول الأوّل (جمع المخاطَبين) بقبول المفعول الثاني (الشهادة) أو (الإيمان) كرهاً، فجاء المفعولان متصلاً أحدهما بالآخَر غير منفصلين لِيُناسِبَ اللّفظ المعنى، ولينطبق حكم الإنكار على المعنى واللّفظ معاً، فالإيمان أمر خارج عن طبيعة الكافرين، وإلزامهم به أو إكراههم عليه خارج عن حقيقة الإيمان الصادق، فلذلك جاء الإنكار وكأنه يشمل اللّفظ كما شَمل المعنى.

ونظير الضَّم في ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ حركات الضَّمّ في الفواصلُ القرآنية التالية من سورة الحاقة: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٣٩٠/٢.

(٢) المفصّل في صنعة الإعراب: ١٦٧.

فكلمات ﴿خُذُوهُ﴾ و ﴿فَغُلُّوهُ﴾ و﴿صَلُّوهُ﴾ و﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أفعال أمرٍ اتَّصَلَ بِها ضَميرُ الغائب العائد على ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]. وقد جاءت فيها «حروف الواو لِتُصوِّرَ دفعه إلى جهنّمَ دفعاً»[١]، كما توالت فيها حركةُ الضّم وخُتِمت بِها، فالضَّمّات ومعها الواوات دلّت جميعاً على معاني الإلزام والإكراه والإجبار[٢].

٥. ١. ١. ٣. ٢ ـ اجتماع حركات البناء والإعراب في التركيب

أمّا دلالة الحركة في التركيب فيُقصَد بِها ما يدلّ عليه توالي ورود الحركات في الجملة أو في الآية الواحدة أو الآيات المتصلة المعنى، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر].

فقد دعا نبيُّ الله نوحٌ عليه السلام ربَّه أن ينصرَه على قومه الذين كذبوه، فما لبثت أبوابُ السماءِ أن انفتحتْ على مصراعَيها[٣]، فانْهَمَرَ منها مَطَرٌ غَزيرٌ، وغَدَت الأرضُ كلُّها عيوناً متفجرةً بالماء، فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أمْرٍ قَدْ قَدَّره الله.

فكلمة ﴿فَفَتَحْنَآ﴾ تبدأ بثلاث فَتَحَات متوالية، تنسجم تَماماً مع فعلِ فتحِ أبوابِ السماء. ويقوِّي الاحساس بفعل الفتح انتهاء هذه الكلمة بفتحة رابعة مختومة بِـ (مَدٍّ

(١) دراسة أدبية لنصوصٍ من القرآن: ١٥٥.

(٢) يُراجَع مبحث: (٥. ٢. ١. ٣. ٢,٣ ـ الدلالة على الغؤور في الشيء).

(٣) قيل في تفسيرها: «إنه فَتَحَ رَتاجَها وسَعَةَ مَسالكها، وقيل: إنه المَجَرَّة وهي شَرج السَّماء» (الجامع لأحكام القرآن: ١٣٢/١٧).

منفصل)[١]، يُمَدُّ بمقدار أربع أو خمس حركات، يوحي بِمقدار ذلك الفتح الذي وَسِعَ السّماءَ كلَّها.

ومن ثَم تَتَوالَى حركةُ الفتح على كلمة ﴿أَبْوَٰبَ﴾ المنصوبة، ثم ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، مع ملاحظة الحرف الأخير منهما، المردوف بألف المدّ المرتكز على حركة الفتح، وما يوحي من الاستطالة والسّعة والامتداد، ثم تُختَم الكلمةُ الأخيرة ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ بِحرفٍ مَكسورٍ إيذاناً بنزول الماء منها، لِتَتَوالَى بعدها حركةُ الكَسر في كَلِمَتَي: ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾، وتُختَمان بِها.

ولا يَخفى ما بين حَرَكة الكسر المتكرِّر، وبين فعل نزول الماء من السَّماء إلى الأرض من تلاؤم وتناغم، إضافةً إلى ما يُوحي به تنوينُ الكسر في نِهاية الكلمَتَين الأخيرَتَين من شِدّة الانهمار، وكذلك ما يدلُّ عليه صوتُ (الراء) في آخر ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ من توالي انهمار المطر، بسبب خاصيته التكريرية، وهو ما يتناسب مع المعنى اللغوي لهذه اللّفظة التي تعني الماء المندفق الذي يَنصبّ انصباباً[٢].

أمّا قوله تعالى بعده: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فنلاحظ فيه عودةَ حركة الفتح من جديد لتتناسب مع حركة تفجُّر الماء من الأرض بِحركةٍ عكسيةٍ هذه المرة؛ من الأسفل إلى الأعلى، وقد جاء المد بالألف في كلمتَي: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ و ﴿عُيُونًا﴾ ليوحي بتلك الحركة التصاعدية للماء.

وقد دأبَ المفسرون والبلاغيون عند وقوفهم على الجملة القرآنية الأخيرة

---

(١) يسمى هذا المد بالمد الجائز المنفصل: وهو أن يأتي حرف مد في آخر كلمة، ويأتي بعده الهمز في أول الكلمة التالية (مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦١٦).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩٢/٢٧.

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ على القول بأنّها تعني: «وجعلنا الأرضَ كُلَّها كأنّها عيون تتفجّر، وهو أبلغ من قولك: (وفَجّرنا عيونَ الأرضِ)»(١).

ومن خلال ما تقدّم نستطيع إضافة وجه صوتي إلى الناحية البلاغية يُعزِّز الاختلاف بين الجملتين أعلاه، ويُرجِّح كفّة الجملة القرآنية ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ على قولهم: (وفَجّرنا عيونَ الأرضِ). وتكمن هذه الميزة الصوتية في الحركة التصاعدية المتوالية للجملة القرآنية، فهي تبدأ بحركة تصاعدية وتنتهي بها أيضاً، وهذه الحركة التصاعدية ناشئة من خلال تكوّنها من [فعل وفاعل (نا) + مفعول به (منصوب)+ تمييز (منصوب)](٢)، ويترتَّب على هذا التركيب النحوي اشتماله على حركة الفتح المتكرِّر، واعتلاؤه أواخر الكلمات الثلاث، إضافةً إلى تكرار مدّ الألف.

وهذه الحركة التصاعدية لا نلاحظها في التركيب النحوي، ولا في الحركات الإعرابية للجملة القرآنية فحسب، بل يُمكن ملاحظتها أيضاً في الحركة الإيقاعية المتأتِّية من طبيعة المقاطع الصوتية للجملة وهي كالآتي:

(وَ / فَجْ / جَرْ / نَلْ / أرْ / ضَ / عُ / يُو / نا).

في حين تبدأ جملة (وفَجّرنا عيونَ الأرضِ) بحركة تصاعدية، ولكنها تنتهي بحركة هابطة، وذلك لأنها مختومة بتركيب إضافي. ويُمكن ملاحظة هذه الحركة التنازلية من خلال الحركة الإعرابية للمضاف إليه وهي الكسرة في آخِره، وكذلك من خلال الحركة الإيقاعية لهذا التركيب والتي هي كالآتي:

(وَ/ فَجْ / جَرْ / نا / عُ / يُوْ / نَلْ / أرْ / ضِ).

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/٤٣٤.
(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٧/٣٥١.

وعندما نصِلُ إلى الجملة التالية من الآية، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ نَجِدُ حركاتها قد فُصِّلَت تفصيلاً كما قُدِّرَ الماء فيها تقديراً، فمعناها أنه قد «التقَى ماءُ السماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد قَدَّرَهُ اللهُ وقَضاه»[1]، والتقاءُ ماءُ السَّماءِ والأرض واختلاطهما معاً ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ لا يُناسبه حركة الفتح أو غيرها، بل يُناسبه التقاء الحركات بعضها مع بعض، لأنّ هناك التقاء واختلاط، فقُدِّرَ للعلامات الأربعة (الفتحة والسكون والضَّمَّة والكسرة) أن تَلتقيَ وتتوالَى جميعاً في عبارة التقدير: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾.

وتكرار حَرفَي (القاف) و (الدّال) مَرَّتَين في كلمتَين متتاليتَين هما: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ فيه مناسبة لأمرَين اثنين:

الأوّل: ناسَبَ التقاء شَيئَينِ هما: ماء السّماء وماء الأرض، رغم مجيء (الماء) على لفظ المفرد[2].

الثاني: الشِّدّةُ والقلقلة اللّتان في صَوتَي (القاف) و (الدال) المكرَّرَين ناسَبَتا شِدَّةَ الماء المنهمِر من السماء، والماء المندفق من عيون الأرض. أمّا الصّوت الناشئ عن الحركات المتباينة فَتحاً وسُكوناً وضَمّاً وكسراً، وما يكتنف كلَّ ذلك من إيقاع مضطرب [ص ح ص + ص ح + ص ح ص] فإنّه يُناسبُ ما يَصدر من أصوات وحركات شديدة مضطربة عند التقاء الماء. والله أعلم.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٧/٩٢.

(٢) دلَّ لفظ الماء على ذلك لأنَّ «الالتقاء إنَّما يكون في اثنين فَصاعداً، لأنّ الماءَ يكون جَمعاً وواحداً، وقيل: لأنَّهما لَمّا اجتمعا صارا ماءً واحداً. وقرأ الجحدري: فالتقى الماءان، وقرأ الحسن: فالتقى الماوان... وهي لغة طيء. وقيل: كان ماءُ السَّماء بارداً مثل الثلج، وماءُ الأرضِ حاراً مثل الحميم» (الجامع لأحكام القرآن: ١٧/١٣٢).

كلُّ هذه الصُّوَر الصوتية من شأنِها تحويل حاسّة السّمع في القارئ أوالسامع إلى حاسّة إبصار، فيغدو وكأنه يسمع ويرى ذلك الحدث الرهيب. والنماذج القرآنية التي يُمكن أن تُساق كأمثلة على هذين النوعين من دلالة الحركة ومناسبتها للمعنى، من الوفرة والتنوُّع بِمكان، بحيث يُمكن أن تُفرَدَ لها البحوث الطوال، إذا ما توفّرت في دارسي النَّصِّ القرآنِيّ مُعطَيات البحث الصوتي والسيميائي والألسني.

المبحث الثاني

٥. ٢ ـ دلالة المَدّ (الصّائت الطويل)

المدّ لغةً: هو الجذب والمطل، ومَدَّ الحرفَ يَمُدُّه مَدّاً: طَوَّله، ومنه في التنزيل الحكيم: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾[الحجر: ١٩][١]. وهو اصطلاحاً: إطالة الصوت بحرفٍ من أحرف المدّ الثلاثة التالية: الألف الساكنة المفتوح ما قبلها، الواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها، وقد اجتمعت هذه المدود في كلمة: (نوحيها)[٢].

وتشترك أصوات المدّ هذه مع الحركات القصيرة؛ الفتحة والضمة والكسرة في كونها جميعاً من الصوائت، إلاّ أنّ ما يُميِّز الأولى عن الأخيرة هو مقدار مَدِّ الصوت، حيث «إنّ بِمقدور صوت المدِّ أن يستمر أية مدة ممكنة لكونه يَحدث، في حقيقة أمره، من اتخاذ اللِّسان والشّفتين وَضعاً خاصّاً... في الوقت الذي يستمر فيه الهواء بالخروج من الفم استمراراً حُرّاً»[٣].

ومن هنا كان « حُكم حرف المدّ الذي يَحدث عن تَمكين الحركة ومَطلها واستطالتها هو من هذا الوجه في حُكم الحركة، والحركة في حكمه، لأنه لا يُمكن فصل الحركة منه والعود إلى استتمامه، لأنّ هذه المدة المستطيلة إنما تُسَمَّى حَرفاً لَيِّناً ما دامت متصلة، فمتى عُقتَها عن الاستطالة بفصلٍ ما فقد أخرجتَها عن اللِّين والامتداد

---

(١) لسان العرب: مادة: مدد.

(٢) مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦١٨.

(٣) في الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: ٣٧.

الذي في شرطها»[١]. وهذان هما الشرطان اللّذان تفتقر إليهما الحركات، ولهذا تَمَّ إطلاق هذين الاسْمَين معاً على الصوائت الطويلة فسُمِّيَت بأصوات المدّ واللِّين، فأما «المدّ فلأنّ الصوت يَمتد بها، وأما اللين فلأنها لانت في مخارجها واتسَعَت»[٢]. وليست الفتحة والضمة والكسرة كذلك؛ فلا يُمَدُّ بها الصوت أثناء النطق بها، ولهذا قيل: «إنّ الحركات أبعاض حروف المدِّ واللِّين»[٣].

٥ . ٢ . ١ ـ وظيفة أصوات المَدّ

إنّ الجانب الوظيفي لأصوات المدّ يرتبط بالطبيعة الفسلجية والصوتية التي تتصف بها هذه الأصوات، وأهمُّ صفتين تتصف بهما في هذا المجال هما:

١ ـ الوضع التشريحي الحر، وعدم وجود احتكاك في أثناء الأداء.

٢ ـ كونها تملك قوّة إسماع عالية جداً تفوق قوّة إسماع الصوامت بكثير.

وعلى الرغم من أنّ الحركات القصيرة تشاطر أصوات المدّ هاتين الصفتين، كما أُشير سابقاً[4]، إلاّ أنّ تفوُّق هاتين الصفتين في أصوات المد مَيّزها عن الحركات. وقد ساعد عدم وجود احتكاك أثناء أداء أصوات المدّ على أن تكون هذه الأصوات «وسيلةً تُمكِّن جهاز النطق من الانتقال من وضع صوتٍ صامت إلى الذي يليه، وبهذا صارت أصوات المدّ وسيلة لربط سلسلة من الصوامت في أثناء الكلام، ولأنّ قوّة الإسماع في هذه الصوامت واطئة جداً، بل معدومة في طائفةٍ منها، فقد اعتمد قوّة الإسماع العالية

(١) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٣٢.

(٢) كتاب أسرار العربية: ٣٦٢.

(٣) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/١٧.

(٤) يُنظر مبحث: (٥ . ١ . ١ ـ خصائص الحركات)

في أصوات المدّ على إعطاء الصوامت التي تكتنفها في الكلام قدراً على الإسماع»[١].

وكما تفاوتت قوّة الإسماع بين أصوات المد وبين الحركات القصيرة، فتفوّقت الأولى على الثانية، كذلك تفاوتت هذه القوّة بين أصوات المدّ ذاتها، «ذلك أنّ أصل المد وأقواه وأعلاه وأنعمه وأنداه إنما هو للألف، وإنما الياء والواو في ذلك محمولان عليها وملحقان في الحكم بها»[٢] فالألف أكثر هذه الأحرف رسوخاً في المد، لذلك فهو يحتفظ بِتَمامه ويتَمادَى الصّوت به، ثم يليه الياء، ثم الواو.

و اختلاف صوت المد الطويل عن القصير لا يقف عند حدود الكمية فحسب، ذلك أنّ كلّ درجة من درجات الصوت في العربية تملك استقلالاً فونيمياً عن الأخرى، بحيث إنّ أيّ تغيّر في درجة مدّ الصوت في كلمة ما من شأنه أن يُغيِّر معناها، أو أن يُضفي عليها مسحةً دلالية خاصة، كما في الفروق الدلالية في الأمثلة التالية: ضَرَبَ: ضَارَبَ، قَتَلَ: قَاتَلَ، جلَسَ: جَالَسَ.

وتَتجلّى هذه الفروق الدلالية في القراءات المختلفة لبعض الألفاظ القرآنية، حيث يقوم المدّ بدور وظيفي فيُغيِّر من دلالة الكلمة، كما في اختلاف القرّاء في قراءة ﴿ءَاتَيْتُم﴾ الأُولَى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] حيث «قرأ الجمهور ﴿ءَاتَيْتُم﴾ بالمدِّ بِمَعنى: أعطيتم، وقرأ ابن كثير ومجاهد وحميد بغير مَدٍّ بمعنى: ما فَعَلتُم من رباً لِيَربو، كما تقول: أتيتُ صَوَاباً وأتيتُ خطأً»[٣].

ومن ذلك أيضاً قراءة﴿لَأَتَوْهَا﴾ بالقصر والمدِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ

(١) في الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: ٤٥.

(٢) الخصائص: ١/١٢٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/٣٦.

﴿أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾[الأحزاب: ١٤] «أي: لَجاءوها، هذا على قراءة نافع وابن كثير بالقصر وقرأ الباقون بالمد أي لأعطوها من أنفسهم وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم»[(١)].

ونظيرهما قراءة ﴿أَتَيْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾[الأنبياء: ٤٧] فقد قرأها الجمهور بالقصر، فيكون معنى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: جِئنا بِها للمجازاة عليها، وقرأها بعضهم «﴿آتَيْنَا﴾ بالمدّ على معنى: جازَينا بِها، يُقال: آتَى يُؤاتي مؤاتاة»[(٢)].

وقد رأينا كيف أنّ قراءةَ المَدّ في الأمثلة السابقة غيَّرَت من معانى كلماتها، وذلك استناداً إلى القاعدة التي تقول: إنّ الزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى، أمّا القواعد التي وضَعها علماء القراءة والتجويد للمَدِّ وأنواعه فتحكمها ضوابط صوتية خالصة، و هي وإن كانت لا تُغيِّر من الدلالة الأصلية للكلمات، كما رأينا في الأمثلة السابقة، إلاّ أنها كثيراً ما تكشف عن قيمٍ دلالية في غاية الأهمية تُضاف إلى المعنى العام للكلمة.

٥. ٢. ١. ١ ـ دلالة ألف المد

يتتني صوت الألف (المديّ) الصائت على حركةِ فتحٍ قائمةٍ على صوتٍ صامتٍ، وصوت الألف هو أوسع أصوات المدّ وألينها، وتكون صورة الحلق والفم مع النطق به منفَتِحَين غير معترضَين على الصوت بضغط أو بحصر[(٣)]. وهذه الصورة من الانفتاح في

(١) م.ن: ١٤/ ١٤٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٩٤.

(٣) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/ ٨.

الحلق والفم تنعكس كذلك على صور الكلمات التي يرد فيها هذا الصوت، وغالباً ما يكون هذا الانفتاح متجهاً إلى الأعلى في حركة تصاعدية تتناسب فيها الصّورة مع المعنى. ويمكن إجمال دلالة هذه الحركة التصاعدية في ثلاثة أبعاد رئيسية: أحدها البعد المادي، والثاني البعد المعنوي، والثالث البعد الحسِّي الشعوري.

٥. ٢. ١. ١. ١ ـ البعد المادي لألف المد

ومن أمثلة البعد المادي لحركة ألف المدّ التصاعدية ما نلاحظه من ألفات المدّ التي تختم أربع كلمات متتالية في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٣٣] فـ ﴿ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ ما دامت منزوعة الحياة، لاحَراك فيها، فقد جاءت منزوعةً من أيِّ صوت مدِّيٍّ، لأنّ في المدّ حركة، وفي الحركة حياة، ولكن عندما يجيء (المسند) وما يدخل تحته من كلمات، ليبعث في (المسند إليه) الحياة، تتوالَى مدود الألف المستطيلة الواحدة تلو الأخرى، مُحلِّقةً في سَماء الكلمات، في حركة توحي بحركة الإحياء من جهة، وتُجسِّد صورة إخراج الحبِّ من تحت الأرض وانطلاقه شاقّاً تربتها نحو الأعالي من جهة ثانية، هكذا: ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾.

وعندما ننتقل من لفظ الأرض إلى لفظ السَّمآء نجده يشتمل على مَدٍّ أَلِفيٍّ متصل، يُمَدُّ عند النطق به بمقدار أربع حركات، وهو مَدٌّ يناسب معنى الكلمة في حقيقة وضعها، حيث قيل في معناها: «كُلُّ ما عَلاكَ فأظَلَّكَ فهو سَماء»[1].

وكثيراً ما يَرِدَ الحديث عن السّمآء وما فيها في التنزيل الحكيم مقروناً بِمَدِّ الألف مناسبةً لمعناها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦] فعندما بدأ الحديث عن بناء السَّمآء، وتزيينها بزينة الكواكب

---

(١) فقه اللغة وأسرار العربية: ٤٣.

تَوالَى مَدُّ الألف مكرّراً مرّتين في كلٍّ من لفظ ﴿بَنَيْنَهَا﴾ و﴿وَزَيَّنَّهَا﴾ مسبوقاً بحركات فتح متوالية، فالبناء حركة مادية تصاعدية، وكذلك الكواكب فإنها أجرام مادية تمتد إلى أعالي الكون الفسيح لتزيّن السّماء، فناسب هاتين الصورتين مَدُّ الألف الممتد إلى الأعلى. ولكن عندما انتقل الكلام إلى نَفي (الفروج) عن السّماء وهي: الشقوق والفتوق[1] جِيء بِمَدِّ الواو مسبوقاً بحركتَي ضَمّ لِيُناسب الضِّيقَ والضَّمَّ الذي يدلّ عليه هذا اللفظ، فقيل: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

وكذلك الأمر عند الكلام عن المطر النازل من السّمآء، ودوره في عملية الإحياء والإنبات كما في الآية التالية ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] فقد توالت مدود الألف في كلماتها الستة الأُولى: ﴿نَزَّلْنَا﴾، ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿مَآءً﴾، ﴿مُّبَٰرَكًا﴾، ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وكلُّها مِمّا يُناسبها الإمتداد المادي العمودي، ثم إنه عندما انتقل إلى ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ جِيء بِمدِّ الياء الأفقيّ لأنّ ﴿ٱلْحَصِيدِ﴾ يعني: «ما يُحصّد مِمّا منه القوت»[2]، فَمنظر الحبّ أو الزرع الممتدّ على سطح الأرض يُناسبه المدُّ اليائيّ المنبسط.

ونظير هذا ما سبقه في نفس السورة من قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧] حيث جاء الإنبات بألف المدِّ، ثم جاء لفظ ﴿بَهِيجٍ﴾ بِمَدِّ الياء، لأنّ صورة النباتات التي تُغطي السهول والحقول بأنواعها المختلفة وألوانها الزاهية البهيجة على امتداد البصر تتناسب والإمتداد الأفقي.

وسورة [ق] رغم قصرها، مليئة بِصُوَرِ المدِّ المتنوعة التي تبعث على العجب، ومن

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٧٧.

(٢) م.ن: ١٢٨.

مَدِّ الألف فيها أيضاً ما تكرَّرَ منه في ﴿سِرَاعًا﴾ من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، فالآية تتحدّث عن النشور، فإنّ الله جلّت قدرته عندما ينفخ نفخة البعث «تخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السَّماء والأرض»[١]. فناسب المدّان المتعاليان حركةَ انبعاث الأرواح وانطلاقها نحو آفاق السماء.

ونظير هذا المعنى ما ورد في سورة المعارج عن يوم البعث أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] حيث انتُدب لفظ ﴿سِرَاعًا﴾ في الآيتين ليصوِّر مشهد خروج الأرواح من أجداثها وتحليقها نحو بارئها، في حركة مادية تصاعدية، فجاء ألفا المدّ وكأنهما جناحان تحلِّق بهما حروف (س ر ع) التي يدلّ كلٌّ منها أيضاً على جزءٍ من المعنى الذي تُصوِّره «فالحركة تخرج من احتكاك السين المهموسة المصفورة المستفلة المصمَتة لتتمادَى في تيّار الراء، ثم لتظهر مندفعةً بالعين الحلقية المظهَرة، وتلك هي حالة حركة الإسراع التي تجري في صور لا تتناهى»[٢].

وبعد فهذا غيض من فيض هذه السورة المباركة المبدوءة بقسم الله تعالى بكلماته التّامّات وكتابه المجيد: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] فكان حقيقٌ بالذين ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [ق: ٥] أن يعجبوا لهذا الإعجاز الصوتي، لا أن يعجبوا لـ ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، فيقولوا فيه: ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

٥. ٢. ١. ١. ٢ ـ البعد المعنوي لألف المدِّ

يفوق البعدُ المعنوي لألف المد بُعدَه الماديّ، لأنّ لهذا البعد مسَوِّغات موجبة لِمَدِّ

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٢٧.

(٢) جدلية الحرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة: ٤٧٦.

الألف مَدّاً زائداً عن المدِّ الطبيعي، وهذه المسوِّغات إمّا أن تكون معنوية مَحضة، وإما أن تكون صوتية مَحضة؛ والأوّل: يتحوّل فيه المد الطبيعي إلى مدٍّ زائد عن المد الأصلي، من دون أن يكون هناك مسوِّغٌ من قاعدة صوتية أو تجويدية، وإنما الداعي إلى زيادة مَدّ الألف جانبٌ معنويٌّ بَحت يتطلّبه معنى الكلمة التي ورد فيها، وقد عُرِفَ هذا النوع عند العلماء بِمَدِّ التعظيم، أما الثاني: فإنّ المدّ الزائد تستوجبه المماثلة الصوتية للتفريق بين معنيين؛ أحدهما مقصود، والآخَر غير مقصود.

٥. ٢. ١. ١. ٢. ١ ـ مدّ التعظيم

إنّ ظاهرة مَدّ بعض حروف كلمات القرآن الكريم مَدّاً زائداً على المدِّ الأصلي الطبيعي(١) أثناء التلاوة يدلُّ في كثير من الأحيان على تفخيم هذه الكلمات وإضفاء دلالة خاصّة على المعنى المعجمي واللّغوي لها. فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه كان يَمُدُّ مَدّاً عندما كان يَقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم «يَمُدُّ بسم الله، ويَمُدُّ الرحمن، ويَمُدُّ الرحيم»(٢). ومَدُّ اسم الله وصفاته الحسنى فيه تفخيم لهذه الكلمات، ومن ثَمَّ تعظيم لذات الله العليا.

---

(١) ينقسم المد إلى قسمين مدّ أصلي، ومدّ فرعي أما المدّ الأصليّ فهو المد الطبيعي الذي لا تقوم ذات حرف المد إلا به، ولا يتوقف على سبب من همز أو سكون. و سُمِّي طبيعياً لأنّ صاحب الفطرة السليمة لا يُنقصه عن حدِّه، ولا يزيد عليه ومقداره حركتان؛ وصلاً ووقفاً. والحركة بمقدار قَبضِ الإصبع أو بسطه، نحو: قَال ـ يقُول — قِيل. أما المدّ الفرعيّ فهو المدّ الذي له سبب من همزٍ أو سكون. ولكل من المدّين أنواع وأقسام. ينظر: أحكام المدود وأقسامها (مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦١٨ ـ ٦٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٨ وصحيح البخاري: ٤/ ١٩٢٥.

٥. ٢. ١. ١. ٢. ١. ١ ـ مدّ التعظيم في (لا)

ومن هنا فقد ربط العلماء بين المد والمعنى، جاعلين له أسباباً معنويةً إضافة إلى أسبابه اللفظيّة والصوتية، وقد تحدّث ابن الجزري عن السبب المعنوي للمدِّ ذاكراً منه مَدَّ التعظيم أو المبالغة بقوله: «وأمّا السبب المعنوي فهو قصد المبالغة في النفي، وهو سبب قوي مقصور عند العرب وإن كان أضعف من السبب اللفظي عند القرّاء، ومنه مدُّ التعظيم في نحو:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1]،

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2]،

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾[3]،

وقد ورد هذا عن أصحاب القصر في المنفصل لهذا المعنى. نصَّ على ذلك أبو معشر الطبري وأبو القاسم الهذلي وابن مهران والجاجاني وغيرهم، وقرأتُ به من طريقهم وأختارُه، ويُقال له أيضاً: مَدُّ المبالغة، قال ابن مهران في كتاب المدّات له: إنّما سُمِّيَ مَدُّ المبالغة في نفي إلهيّة سوى الله سبحانه، قال: وهذا معروف عند العرب لأنّها تَمُدُّ عند الدعاء، وعند الاستغاثة، وعند المبالغة في نفي شيء، ويَمُدّون ما لا أصل له بهذه العلّة. قال: والذي له أصل أولَى وأحرَى، قلت: يشير إلى كونه اجتمع سببان وهما: المبالغة ووجود الهمزة[4]، كما سيأتي، والذي قاله في ذلك جيِّد ظاهر،

---

(١) وردت هذه العبارة في موضعين: [الصافات: ٣٥] و [محمد: ١٩].

(٢) وردت هذه العبارة في ثلاثين موضعاً من الذكر الحكيم، أولها في [البقرة: ١٦٣].

(٣) وردت هذه العبارة في موضع واحد: [الأنبياء: ٨٧].

(٤) يَقْصد به: المدّ الجائز المنفصل: وهو أن يأتي حرف مد في آخر كلمة، ويأتي بعده الهمز في أول الكلمة التالية، كما في: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ [الكوثر: ١]. و يُمَد هذا النوع بمقدار أربع أو خمس حركات ←

وقد استحَبَّ العلماء المحققون مَدّ الصوت بـ (لا إله إلا الله) إشعاراً بما ذكرنا وبغيره»[1].

ومِمّا اجتمع فيه السببان: اللّفظي والمعنوي أيضاً مَدّ ألف (لا) من قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، حيث يُمَدُّ مَدّاً مُشبَعاً على أصله في المدّ، لأجل الهمز[2]. ويُطلَق على هذا المدّ اسم: مَدُّ المبالغة للنفي في (لا) التي للتبرئة. ومن أمثلته التي وردت لسبب معنوي فقط الأمثلة التالية: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾[3]، ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[4]، ﴿لَا جَرَمَ﴾[5][6].

ويمكن ملاحظة مَدّ المبالغة في نفي (لا) التي للتبرئة مكرّرة أربع مرات متوالية في سورة (الكافرون)، وذلك باجتماع السببين اللفظي والمعنوي معاً، كما تكرّر فيها مَدّ التعظيم في (ما) مرّتين بالسببين معاً.

٥. ٢. ١. ١. ٢. ١. ٢ ـ مدّ التعظيم في (ما)

تظهر دلالة مد التعظيم في ألف (ما) في سورة (الكافرون)، حيث تكررت أربع

←(مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦٢٠) ونظيره ﴿لَآ﴾ المنتهية بِمَدّ الألف والتي يليها ﴿إِلَٰهَ﴾ المبدوءة بالهمزة في الأمثلة الثلاثة المذكورة أعلاه.

(١) النشر في القراءات العشر: ١/٣٤٤.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ١/٣٣٦.

(٣) وردت هذه العبارة في أربعة عشر موضعاً من الذكر الحكيم، أولها في البقرة: ٢.

(٤) وردت هذه العبارة في ثلاثة مواضع: الروم: ٤٣ و الشورى: ٤٧، ووردت مسبوقة بالفاء في الرعد: ١١.

(٥) وردت هذه العبارة في خمسة مواضع: هود: ٢٢، النحل: ٢٣، النحل: ٦٢، النحل: ١٠٩، غافر: ٤٣.

(٦) النشر في القراءات العشر: ١/٣٤٥.

مرات في أربع آيات متوالية ؛ اثنتان منهما يلزم قراءتهما بالمد وجوباً، واثنتان منهما ليس فيهما مَدٌّ إطلاقاً. قال تعالى مخاطباً نبيه المصطفى :

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾
لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾
وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾

وقد ذُكرت آراء في (ما) هذه، وخلاصة ما أورده المعربون فيها «أنها بمعنى: الذي، فإنّ (ما) المراد بها الأصنام كما في الأُولى والثالثة، فالأمر واضح لأنهم غير عقلاء، و(ما) أصلها أن تكوت لغير العقلاء، وإذا أُريد بها الباري تعالى كما في الثانية والرابعة، فاستدلّ به مَن جوّزَ وقوعها على أُولي العلم، ومَن منعَ جعلَها مصدرية، والتقدير: ولا أنتم عابدون عبادتي، وقال أبو مسلم: (ما) في الأولين بمعنى الذين، والمقصود: المعبود، وما في الأُخريين مصدرية، أي: لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك، وترك النظر، ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين، فتحصّل من مجموع ذلك ثلاثة أقوال:

١ـ أنها كلّها بمعنى الذي.

٢ـ أنها كلّها مصدرية.

٣ـ أو الأوليان بمعنى الذي والأخرَيان مصدريتان»[1].

وفي جميع هذه الأقوال فإنّ (ما)

لثانية والرابعة في قوله: ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ مرجعها ذات الله تعالى، ولذلك جاءت بالمدّ

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٨/٤٣١.

وجوباً، تعظيماً له جلّت عظمته. أما (ما) الأولى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ والثالثة: ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ فمرجعها الأصنام التي كان يعبدها الكافرون، وقد وردت دون مَدٍّ، تحقيراً لها، وإنقاصاً من شأن عابديها.

تلك كانت العلة المعنوية لِمَدِّ (ما) الثانية والرابعة في ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾. أما العلّة اللفظية (الصوتية) التي اجتلَبت إليها المدّ دون (ما) التي في الأولى والثالثة، فهي مجيء حرف الهمزة تالياً لها، ذلك «أنّ حروف المدّ في غاية الخفاء والخفّة، والهمزة في غاية الظهور والثقل، فهما ضدّان، فجاء المدّ مقرِّباً لهذه الحروف ومُظهراً لخفائها، لِيحصُل هناك مناسبةٌ ما تُحصِّن الهمزةَ وتَحرسُها، ولولا ذلك لم يُؤمَن من أن يَغلِبَ خفاؤها على الهمزة، فَتَضعُفَ وتتلاشَى»[1].

لقد جاءت الألفاظ القرآنية في هذه السورة، كغيرها من السور، في مواضعها التي يجب تكون عليها، ليتحقّق بذلك الإعجاز في النظم القرآني، فجاءت الهمزة تاليةً لألف المد العائد على ذات الله فصار من الواجب مَدُّ الألف إظهاراً لخفاء صوته من جهة، و إظهاراً لعظمة المعبود من جهة ثانية، وقد انتفَى ذلك من (ما) التي وردت للدلالة على ما يُعبَد من الأصنام والأوثان، لكي لا تتساوى مع المعبود الحقيقيّ، فلا يُمَدُّ بها الصوت، ومن ثَمَّ لا تدور على اللِّسان أثناء التلاوة إلاّ بالقدر المخصّص لها.

٥. ٢. ١. ١. ٢. ١. ٣ ـ مَدُّ تعظيم شأن أهل الجنة

لا يقتصر مَدّ التعظيم في ألف المدّ على ذات الله جلّ شأنه، بل يمتدّ أيضاً إلى الصّالحين من عباده الذين أعَدَّ لهم جنّات النعيم خالدين فيها، وقد وُصفوا في القرآن بتعبير: ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ في أربع مواضع هي:

---

(١) الموضح في التجويد: ١٢٨.

- ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠].
- ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].
- ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١].
- ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

ويشتمل لفظ ﴿ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ على ألف مَدٍّ متلوٍّ بهمز في الكلمة نفسها، لذا يجب مَدُّه بمقدار خمس حركات، وهو ما يُطلق عليه أصحاب القراءات اصطلاح: المدّ الواجب المتصل[١]. كما يشتمل هذا اللفظ على مَدٍّ آخَر هو الواو، وعند الوقف على النون يبلغ مَدُّه ستَّ حركات، ويُسَمّى بالمدِّ العارض للسكون[٢].

والذي يبدو من هذين المدّين أنّ فيهما تأكيدٌ على عظمة شأن أهل الجنة، وأنهم هم الفائزون لا غيرهم ، وهذا يُضاف إلى ما في ضمير الفصل أو العماد ﴿هُمُ﴾ من معنى «التوكيد، وإيجاب أنّ فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره»[٣].

ومن الملاحَظ في لفظ ﴿ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ الذي جاء مُسنَداً في هذا التعبير، أنه سُبِقَ بمَدٍّ واجبٍ آخَر قبله في الآيات الأربعة أعلاه ؛ ففي آيتَي التوبة والنور ورد مسبوقاً بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ، وهو المسند إليه، وفيه مَدّ واجب متصل. وفي آية (المؤمنون) سبقه ﴿إِنِّي

---

(١) مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦٢٠.

(٢) م.ن: ٦٢١.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤٦/١، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٤٧٠.

جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ ...﴾ ، وفيه مدٌّ واجب منفصل في ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ لمجيء همزة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بعده، ومرجع الواو في ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ وفي ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ واحد، فأكّدَ أحدُهما الآخَر. أما آية الحشر فإنها بدأت بقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ فجاء المدّ الواجب المنفصل في لفظ ﴿يَسْتَوِىٓ﴾ لمجيء همزة ﴿أَصْحَٰبُ﴾ تالياً له، وفي المدِّ الزائد هنا إشارة إلى مَدَى بُعدِ الشّقّة والاختلاف بين ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ و ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وذلك تَمهيداً لوصف هؤلاء بـ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ، ومَدٍّ هذا الوصف بِمَدّين زائدَين تعظيماً لشأنهم، وبياناً لعظمة منزلتهم وامتداد خلودهم.

٥. ٢. ١. ١. ٢. ٢ ـ مَدُّ الصلة الكبرى

يلحق بِمدّ التعظيم نوع آخَر قريب منه، هو مدّ الصلة الكبرَى: «وهو حرف مدٍّ زائد، يتحصّل من إشباع الحركة على هاء الضمير الواقعة بين متحركين ثانيهما همزة قطع»[1]. وحركة هاء الضمير هذه إما أن تكون مضمومةً، فإذا أُشبِعَت صارت واواً، وإما أن تكون مكسورةً، فإذا أُشبِعَت صارت ياءً، ويُمَدُّ كسابقه بِمقدار أربع أو خمس حركات. وأمثلته عديدة ومتنوعة، ومِمّا كانت هاء الضمير فيه مضمومةً قوله تعالى:

- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]

- ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]

ومِمّا كانت هاء الضمير فيه مكسورةً قوله تعالى:

---

(١) مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦٢١.

- ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤]

- ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]

وهاء الضمير في الآيات المذكورة جميعاً عائدٌ على ذات الله تعالَى، ومدُّ الصوت به فيه تعظيم لشأنه سبحانه، وتأكيد على المعاني التي ورد عليها، فإشباع حركة الضم في هاء ﴿غَيْرُهُۥ﴾ ومدُّها في الآية الأولى فيه تعظيم لمرجع الضمير، كما فيه تأكيدٌ على نفي الألوهية عن غير الله من جهة، وتأكيدٌ على عبادته دون سواه من جهة ثانية، وكذا دلالة المد على معانيها في بقية الآيات.

٥. ٢. ١. ١. ٢. ٣ـ مَدّ الفرق

من دلالات المدّ المذكورة في أحكام التجويد دلالة مَدّ الفرق، حيث يقوم صوت المدِّ بالتفريق بين جملة الإنشاء وجملة الخبر. ومن دون صوت المدِّ لا يُمكن معرفة نوع الجملة القرآنية، وبالتالي لا يمكن الوقوف على المقصود بها. ويقوم هذا النوع من المدّ عندما تدخل همزة الإستفهام على اسم معرف بـ (أل) التعريف، فتجتمع عندئذ همزتان، فتُبدَل ألف (أل) التعريف ألفاً مديةً، ليُفرق بين الاستفهام والخبر، فيتكوّن من ذلك مَدٌّ أُطلق عليه اسم مَدّ الفرق.

وقد حَدَّدَ علماء التجويد طول هذا المد بست حركات[1]، وهو أطول ما يُمكن أن يكون عليه صوت المد. والأمثلة القرآنية التي ورد فيها مدّ الفرق، جاءت جميعها على سبيل الاستفهام الإنكاري، وهي: قوله تعالى:

ـ ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [الأنعام: ١٤٣]

---

(١) مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦٢٣.

ـ ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]

ـ ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]

ـ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]

٥. ٢. ١. ١. ٣ ـ البعد الشعوري لألف المد

يمكن ملاحظة البعد الشعوري لمد الألف في المواقف التي تمتاز بغلبة عنصر الشعور أو الحسّ الإنساني بمستوياته المتعددة، والتي عادةً ما يكون التكرار قاسماً مشتركاً يجمع فيما بينها، فتارةً تظهر ألفات المد على مستوى الشعور بالندم والتحسُّر، وتارةً تبدو على مستوى التعجب والانبهار، وتارةً أخرى تُطلّ من خلال كلمات التضرّع إلى الله وطلب العفو والمغفرة، وهكذا دواليك.

٥. ٢. ١. ١. ٣. ١ ـ مستوى الشعور بالندم

يمثل الشعور بالندم والتحسُّر على ما مضى من أشدّ ما يُؤلم الإنسان، ويَحُزُّ في نفسه، فإذا جاء هذا الإحساس متأخِّراً، أو أصبح تصحيح الأخطاء متعذِّراً كان ذلك الإحساس أشدُّ وطأةً على النفس، لأنه لات ساعة مندم. وعادةً ما تنتهي عبارات التحسُّر والأسى بألف المدّ نحو: (ياحَسْرتا) كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]، وكقولهم: (يا أسفَى) كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، وكقولهم: (ياويلتَى) التي تُطلق في التحسُّر كما في التعجُّب، ومن الأخير قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]

وهناك آيات عديدة تمثل هذا المستوى من الشعور، ومن ذلك قوله تعالى وهو يُصوِّرُ مشهداً فريداً من مشاهد الندم، فيعرضه عرضاً طويلاً مديداً، يُخيّل للسامع أن لن ينتهي ولن يبرح، إنه مشهد الظالم وهو يَعضُّ على يدَيه أسَفاً على ما فرّط في جنب الله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان]. فديدن من يغلبه الندم والأسَى على ما لا رجعة فيه أن يرفع عقيرته نادباً منتحباً ماداً في صوته المتحسّر ونبراته الأسيفة، صارخاً بنغمة طويلة ممطوطة وموسيقى متموجة مديدة[1].

وقد عملت المدود الثلاثة على تصوير ذلك المشهد المهيب، لكن الغلبة كانت لِمَدّ الألف على أخَوَيه، وذلك بسبب مجيئه ألف إطلاق بعد الرويّ في الفواصل، إضافةً إلى وروده في ثنايا الآيات. فإطلاق ألف المد في نهايات الآيات، ومَدُّ الصوت به، يُناسبُ ما يُطلقه المتحسِّر النادم من أصوات، والترجيع بها في نهاية كل جملة أو مقطع.

ويتجلّى تصوير هذا المدّ لحالة الشعور بالأسَى والندم بشكل لا لبس فيه، في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب] حيث مُدَّ لفظ ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾، وتَمَّ تثبيت ذلك في المصحف الشريف، في حين وردت ذات اللفظة في الآية الرابعة من السورة ذاتها ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ فلم تُمَدّ، «وذلك أنّ الأولى في كلام أهل النار وهم يصطرخون فيها ويَمُدّونَ أصواتهم بالبكاء، فجاء بالمَدّ، وهو

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ١١٣.

المناسب لِمَدِّ الصّوت بالبكاء ورفعِه، بخلاف الآية الثانية»[١].

٥. ٢. ١. ١. ٣. ٢ ـ مستوى الشعور بالإنبهار

إنّ التعبير العفوي عن الشعور بالانبهار بشيءٍ ما، أو التعجُّب منه يُصاحبه، عادةً، حركات لا شعورية تظهر على ملامح الوجه وقسَماته، وبخاصّة على فم الإنسان المتعجِّب، فنراه يفغر فاه عندما يعتريه ذلك الشعور، وتصدر منه أصوات قد لا يُسمع منها سوى ألف المد من جرّاء ذلك. وتُستعمل للتعجب عادةً ألفاظٌ مثل: يا لَلعَجَب! وعَجَبا!، قال ابن مالك في ألفيته:

ولامُ ما استُغيثَ عاقَبَتْ أَلِفْ وَمِثْلُهُ اسمُ ذو تَعَجُّبٍ أُلِفْ[٢]

و (عَجَبا) بألف الإطلاق أكثر استعمالاً، قال الشاعر [من الطويل]:

ويا عَجَباً للدَّهْرِ شَتَّى طَرائِقُهْ ولِلْمَرْءِ يَبْلُوهُ بِما شاءَ خالِقُهْ

«كذا أنشده سيبويه ياعجباً، منوناً، وفي بعض كتب ابن جني: ياعَجَبَا، أراد ياعَجَبي، فقلب الياء ألفاً لمدِّ الصَّوْت، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤]»[٣].

وقد وردت في القرآن سورةٌ جميع فواصلها على هذه الصيغة (فَعَلَى) إلاّ ما ندر، ولكن بقيت ألف الإطلاق قاسِماً مشتركاً لها جميعاً، وهي سورة الكهف، ولعلّ اختصاص هذه السورة بهذه الصيغة في فواصلها يعود إلى ما تَميّزت به من ذكر أعجب القصص القرآني، حيث ابتدأت بقصة أصحاب الكهف التي جاءت أول آياتها مختومة بفاصلة (عَجَبا)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟

---

(١) التعبير القرآني: ١٠٤.

(٢) شرح ابن عقيل: ٢٨١/٣.

(٣) لسان العرب: / مادة: طرق.

﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، وكأنّ في ذلك تنبيه إلى ما تتضمنه هذه القصة من العجائب والخوارق ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾.

كما وردت في هذه السورة قصص أخرى عجيبة؛ كقصة موسى مع الخضر، وما تضمَّنَتْه من أمور خارقة؛ كبعث الحياة في السمكة المشوية المأكول منها، وما قام به الخضر من أمورٍ رآها موسى عجيبةً إلى أن زال ذلك العجب بقول الخضر لموسى ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وفي هذه السورة أيضاً قصة ثالثة من غرائب القصص التي أثارت اهتمام الناس أيام الدعوة الاسلامية، لما فيها من العجائب، فطلبوا من الرسول أن يُنزل اللهُ فيها ذكراً، فنزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾. وقد قصّ الله رحلته وبناءه سَدّاً عظيماً من قطع الحديد والنحاس المذاب ليَحول دون هَجَمات يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾.

فهذه القصص العجيبة التي وردت في سورة الكهف هي التي جعلت من ألف الإطلاق صوتاً تُختَم به فواصل الآيات جميعاً، وقد جاءت أغلبها على صيغة (فَعَلَى) المكوّنة من ثلاثة مقاطع مفتوحة؛ قصيران فمتوسط؛ (ص ح / ص ح / ص م)، وكأنّ هذه الفتحات المتتالية المختومة بألف الإطلاق جاءت لتناسب حالة التعبير عن مشاعر الانبهار والتعجب التي تُثيرها هذه القصص في نفوس المؤمنين.

٥. ٢. ١. ١. ٣. ٣ـ مستوى الشعور بالحاجة إلى التضرُّع

أشار بيت ابن مالك المذكور آنفاً إلى أنّ الإنسان يَمُدُّ بصوته أثناء التعجب من شيء كما يَمدُّ به أثناء الاستغاثة. ومفهوم الاستغاثة مفهوم عام، لكونه يشمل الاستغاثة بالله والبشر، والاستغاثة بالله تعني: التضرُّع إليه، والتوسل به، وطلب الحوائج منه. وغالباً ما تُلجِئ الشدائدُ الانسانَ إلى الله، فيَمدُّ بصوته بين يدَي مولاه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: إنه «يُطيل المسألةَ في الشّيء الواحد، فالكلامُ العريضُ ما طالَ لفظُهُ وقَلَّ مَعناه»[١]، ويصدق مفهوم إطالة اللّفظ على مَدِّ الصّوت في أواخر المفردات والجمل الدعائية.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة، حيث تكرّر مَدُّ الألف أكثر من ثمانين مرّةً؛ اختصَّ أكثر من ستين منها بأواخر ألفاظ مقول القول الدعائية. ويكفي أن نُلقي نظرةً خاطفةً على هاتين الآيتين لندركَ مدى انتشار هذا الحرف المتطاول إلى الأعلى وكأنّ الكلمات، هي الأخرى، كما الذين آمنوا، ترفع أيديها نحو السّماء متضرِّعةً إلى بارئها متوسِّلةً إليه بأنغام مديدة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ
لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ
وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾
لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/١٠٥.

رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ
رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ
وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ
أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

٥ . ٢ . ١ . ٢ ـ دلالة ياء المد

يبتني صوت الياء (المديّ) الصائت على حركةِ كسرٍ قائمةٍ على صوتٍ صامتٍ، وتتخذ الشفتان عند النطق به وضع الانفراج، بحيث تكون زاويتا الشفتين مسحوبَتَين إلى الوراء[١]. كما تكتنف الأضراس السُّفلَى والعُليا جنبتَي اللِّسان فتضغطه، وتحدث فَجوة ما بين الحنك وظهر اللّسان فيجري الصوت من خلالها[٢].

٥ . ٢ . ١ . ٢ . ١ ـ الدلالة العامة لياء المد

إنّ وضع حركة الشفتين المسحوبتين إلى الوراء أثناء نطق ياء المد، والضغط الحاصل على اللِّسان، وما يصدر عن ذلك من صوت مضغوط متضايق، يكاد يوحي بحركة جذب هابطة، مخالفة لحركة ألف المد الصاعد، فإذا ما سبق هذا المد كسرٌ غير الكسر الذي يقوم عليه زاد الإحساس بتلك الحركة الهابطة وشدّة وقعها، وذلك على العكس مِمّا لوحِظ من توالي الفتحات قبل ألف المد في الأمثلة السابقة. فلا عجب بعد ذلك أن يأتِيَ كثير من أمثلة هذا النوع وقد تضمّنَ ملامحَ من هذا المعنى. ومن ذلك لفظ ﴿سِجِّيلٍ﴾ في الآيات التالية:

﴿ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴾ [الفيل]

---

(1) في الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: ٣٤.

(٢) سِرُّ صناعة الإعراب: ٨/١.

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤]

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢]

وقد اختُلف في معنى ﴿سِجِّيلٍ﴾؛ ومِمّا ذهبوا إليه أنه «حجرٌ وطين مختلط، وأصله فيما قيل فارسيٌّ مُعَرَّب»[1] منحوت من كلِمَتَي (سَنك) و (كِل)، والأُولى بمعنى حجر، والثانية بِمعنى طين[2]. وقد ورد هذا اللّفظ في الآيات الثلاث مقترناً بمعنى السقوط الشديد من أعلى إلى أسفل، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل: ٥] في المثال الأول، وقوله: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ في المثالَين الأخرَيْن. ويكاد تشديدُ صوت الجيم المجهور السّابق لِمَدّ الياء في ﴿سِجِّيلٍ﴾ يزيد من الإحساس بشدّة سقوط هذه الحجارة وثقلها، وذلك بما يُضفيه على هذا اللّفظ من شدّة وثِقَل.

وربما قيل: إنه بناءً على ما سبق فقد كان من المناسب لـ ﴿سِجِّيلٍ﴾ أن تجيء صفته ﴿مَّنضُودٍ﴾ بالياء دون الواو؛ أي أن تأتي على زنة ﴿نَّضِيدٌ﴾ وهما بمعنًى واحد، أي: رَكِبَ بعضُه بعضاً[3]، وبذلك تُشارك الصفةُ موصوفَها بياء المدّ الدّال على السقوط والهويّ، فتكون مناسَبة اللّفظ لمعناه على أتَمِّ وجه.

والجواب على مثل هذا التساؤل: «إنّ قوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ من نعت ﴿سِجِّيلٍ﴾ لا من نعت الحجارة، وإنما أُمطِرَ القومُ حجارةً من طين؛ صفة ذلك الطين أنه نُضِدَ بعضُه

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٢٣٠.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٢/٩٣.

(٣) لسان العرب: مادة: نضد.

إلى بعضٍ فيصير حِجارةً، ولم يُمطَروا الطينَ فيكون موصوفاً بأنه تتابع على القوم بمجيئه»[(١)]. فالطين المنضود بعضُه إلى بعض والمتحوِّل إلى حجارة صَلدَة هو الموصوف هنا، وتراكم الطين الطريّ شبه السائل بعضه إلى البعض لا يُصيِّرُه إلى صفائح حجرية مستوية، بقدر ما يجعله يتخذ أشكالاً أقرب ما تكون إلى قِطَع حجرية مستديرة، ومن هنا جاء المدُّ الواوي بدلاً من المدِّ اليائي، ليناسب صورة الاستدارة، وصورة ضَمّ الشّيء بعضه إلى بعض ، بينما جيء بـ ﴿نَّضِيدٌ﴾ ذات الياء الممدودة صفةً لصورة الأشياء المتراكمة التي رُصِفَ بعضها إلى جانب بعض، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾[(٢)] [ق: ١٠].

ونظير ﴿سِجِّيلٍ﴾ لفظ ﴿سِجِّينٌ﴾ الذي ورد مرّةً واحدةً، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ [المطففين: ٧ ـ ٨]، فالياء الممدودة القائمة على صامت مكسور مسبوقة بحركة كسر أخرى. وقد أطلَق القرآن ﴿سِجِّينٌ﴾ اسماً «لجهنَّم[(٣)] بإزاء عِلّيين، وزِيدَ لفظه تنبيهاً على زيادةِ معناه»[(٤)]. وهو على وزن فِعِّيل، ومشتقٌّ «من السِّجن وهو الحبس والتضييق، لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم»[(٥)]، فجاء هذا اللفظ متضايقاً بهاتين الكَسرَتَين، ومتثاقلاً بِمَدِّ الياء المسبوق

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٢/٩٥.

(٢) يُنظر مبحث: (٥. ٢. ١. ٤. ١. ٣ـ (باسِقات) و (نَضيد)).

(٣) وقيل هو «كتاب جامع هو ديوان الشّر: دوّنَ الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس» (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/٧٢١).

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٢٣٠.

(٥) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/٧٢١.

بتشديد الجيم، ليُشعِرَ بالحبس والتضييق الذي سيؤول إليه الفجّار وهم يُساقون مجذوبين إلى دركات جهنم.

وقد يُقال: بأنّ دلالة مدّ الياء المردوف بكسر على الحبس والتضييق والجذب، كما في لفظ ﴿سِجِّينٌ﴾ مُمتَنع من حيث المعنى في لفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾، وهو الذي يكاد يكون على زنته، لأنه «جَمعُ عِلِّيّ: وهو فِعِّيل من العُلُوّ» (سرُّ صناعة الإعراب: ٦٢٥/٢). وقد قيلَ في معناه: «هو اسمُ أشرفِ الجِنان كما أنّ (سِجِّيناً) اسم شَرِّ النيران»[١]. فإذا صدقت دلالته تلك على ﴿سِجِّينٌ﴾ لأنه يعني أسفل دركات الجحيم، فإنها لا تصدق على ﴿عِلِّيِّينَ﴾، لأنّ معناه: «أعلى الأمكنة، وقيل: معناه عُلُوٌّ في عُلُوٍّ مضاعَف، كأنه لا غاية له»[٢]، فكيف يدلُّ اللّفظ على الشّيء ونقيضه.

ويُجاب على ذلك من عدّة وجوه يَجمعها عنصر الإختلاف بين هذين اللّفظين:

أولاً: إنّ زنة هذين اللّفظين ليست متطابقة، حيث إنّ الذي يُطابق زنةَ ﴿سِجِّينٌ﴾ هو المفرد من ﴿عِلِّيِّينَ﴾ وهو (عِلِّيّ)، والياء والنون فيه علامة الجمع. أما ﴿سِجِّينٌ﴾ فهو «اسم علم منقول من وصف، كحاتم، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلاّ سبب واحد وهو التعريف»[٣]، فاللّفظان مختلفان زنةً ونوعاً.

ثانياً: إنّ مجيء كلمة ﴿سِجِّينٌ﴾ في هذا السياق من سورة المطففين إنما هو استعمال قرآنيّ مَحض، فهي من الكلمات التي جاء بها القرآن الكريم، بدليل اختلاف اللّغويين

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٢/١٩.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٧٢١/٤.

والمفسرين بصدد اشتقاقها[١] من جهة، ومعناها[٢] من جهة ثانية. أما لفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ فإنه مِمّا أَلِفَ العربُ استعماله قبل الإسلام، فقد اعتادوا «أن يقولوا لأهلِ الشَّرَف في الدنيا والثَّرْوَة والغِنى: أَهل عِلِّيِّين، فإِذا كانوا مُتَّضِعِين قالوا سِفْلِيُّون. والعِلِّيُّون في كلام العرب: الذين يَنزلون أعاليَ البلاد، فإذا كانوا ينزلون أسافِلَها فهم سِفْلِيُّون»[٣]. وسِيّان بين أن يكون الاستعمال مبتكَراً، مقصوداً به ذات اللّفظ، لِيُناسب المعنى الذي سيق إليه، كما في ﴿سِجِّينٌ﴾، وبين أن يكون الإستعمال جَرياً على العُرف اللُّغوي السائد، كما في ﴿عِلِّيِّينَ﴾.

ثالثاً: المتعارَف في اللَّفظ المركَّب أنّ دلالةَ أصله اللّغوي، وما تحمله من إيحاءات وظلال، هي التي تَستفزّ في المتلَقّي تداعيات تَصَوُّر المعنى، وما يتركه هذا التصَوُّر من انطباعات وأحاسيس، فإذا كان الإنطباع الأوّلي الذي يتركه لفظ ﴿سِجِّينٌ﴾ في المتلَقّي هو السجن بِما يحمله من إيحاء بالشدّة والقسوة والانحطاط، فإنّ أوّل ما يمكن أن يتركه لفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ في ذهن المتلقي هو العُلُوّ والصُّعود ورفعة الشّأن، وذلك انطلاقاً من تداعيات الأصل اللّغوي لكلِّ لفظ في أذهان أهل اللّغة.

رابعاً: إنّ مجيء ﴿عِلِّيِّينَ﴾ بعد ﴿سِجِّينٌ﴾ ربما كان من قبيل المشاكلة اللّفظية، التي من صورها الجمع بين «كلمتين متجاورتين أو غير متجاورتين، شكلهما واحد

---

(١) منهم من قال: باشتقاقها من السجن وهو الأرجح، كما أُشير، ومنهم من قال بأنها بمعنى (سِجِّيل)، وقد استبدل اللاّم منها بالنون، ومنهم من زعم أنها مأخوذة من (السِّجِلّ) أي الكتاب. ينظر: (التبيان في إعراب القرآن: ٢/ ٢٨٣ للعكبري).

(٢) للإطلاع على آراء المفسرين واللغويين بشأن معنى (سِجِّين) يُراجع: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩٤/٣٠ ـ ٩٦)، و (الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٨/١٩)، و (لسان العرب: مادة: سجن).

(٣) لسان العرب: مادة: عَلا.

ومعنَياهما مُختلفان»[1]. والأسلوب القرآني يزخر بهذا الضرب من ضروب البلاغة.

خامساً: إنّ حركة الكسر التي يقوم عليها المد اليائي في ﴿عِلِّيِّينَ﴾ هي حركة الياء السابقة له، حيث اجتمعت ياءان قبل ياء المد، وذلك في مقابل اجتماع جيمين قبل ياء المدّ في ﴿سِجِّينٌ﴾. ويُعَدُّ الياء لخفته ولينه من أنصاف الحركات أو أنصاف الصوامت، فهو بالنسبة إلى موقعه الصوتي للغة صوت صامت وظيفياً، ولكنه يُشبه الحركات نُطقاً[2]، فكأنّ الشِّدَّة التي يكون عليها الفجّار في أسفل دركات الجحيم، يُقابلها اللِّين الذي يكون عليه الأبرار في أعلى درجات الجنة. ومن هنا جاء مدّ الياء في ﴿عِلِّيِّينَ﴾ هَيِّناً رفيقاً رغم كونه مُبالَغاً فيه، وذلك في مقابل الشِّدَّة والضِّيق المبالَغ فيها في لفظ ﴿سِجِّينٌ﴾. وهو ما شهدت به آيات سورة المطففين التي صوَّرَت نعيم أولئك وجحيم هؤلاء.

٥. ٢. ١. ٢. ٢ ـ الدلالة الخاصة لياء المد

ليس المقصود بالدلالة الخاصة لياء المد الخروج عن دلالته الكلِّية، وإنما يُراد بها دلالتها على معنى خاص في لفظ خاص بعينه. وهو بصورةٍ عامة غير المدِّ الأصلي الذي حَدّده أصحاب القراءات القرآنية، فمن المعلوم أنّ هناك أنواع من المدود تحكمها قواعد وضوابط خاصّة، ومن هذه المدود ما هو لازم، أي: يجب مَدُّه فوق المدِّ الطبيعي لسببٍ ما.

والمدّ اللازم هو: «أن يأتي حرف مَدٍ، وبعده ساكن سكوناً لازماً، سواءٌ أكان حرفاً ساكناً سكوناً أصلياً، أم حرفاً مشدَّداً، وقد سُمِّي مَدّاً لازماً، للزوم السكون في

---

(١) الوافي في العروض والقوافي: ٢٩٦.

(٢) علم الأصوات: ٣٧٤.

حالَتَي الوصل والوقف، أو للزوم مَدِّهِ عند كلِّ القُرّاء ستَّ حركات»[١]. وعلّة هذا المدّ هو التفريق بين الساكنين الملتقيين[٢]، وهما سكون المدّ وسكون الحرف التالي له، ومن أقسامه: المدّ اللاّزم المثَقّل[٣]؛ وهو الذي يأتي فيه بعد حرف المدّ حَرفٌ مُشَدَّدٌ، نحو: الضّالّين.

وقد وردت كلمة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في مواضع عديدة من الذكر الحكيم، إلاّ أنها جاءت معطوفةً مرّةً واحدةً، وذلك على سبيل تقسيم الخارجين على الصراط المستقيم إلى قسمين؛ منهم مَن غَضِبَ الله عليهم، ومنهم من سَمّاهم بـ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، وذلك في سورة الفاتحة من قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

والثابت عن رسول الله ﷺ أنّ المغضوب عليهم يُقصَد بهم: اليهود، وأنّ الضالين يُقصَد بهم: النصارى[٤]. ومِمّا لا شكَّ فيه أنّ عدد النصارى منذ نزول القرآن وحتى الآن أكثر بكثير من عدد اليهود. ومن هنا جاء المَدّ في ألف ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ على أتَمِّهِ، بما لا مزيد عليه، ليُناسب كثرة عدد النصارى أو لِيَدُلَّ عليها، في حين جاء مَدّ الواو في ﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ بدون مَدٍّ زائد ليُناسب قلّةَ عدد اليهود أو للدلالة على ذلك[٥].

---

(١) مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦٢٢.

(٢) الموضح في التجويد: ١٢٩.

(٣) يُطلَق عليه أيضاً اسم: مدّ العدل: «لأنه يعدل حركة: أي يقوم مقامها في الحجز بين الساكنين» (الإتقان في علوم القرآن: ١/ ٣٣٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣١.

(٥) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ٢٠٢.

وطبيعة مقاطع كلمة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هي الأخرى تدلُّ على الكثرة، فهي بدون الألف واللام تتكوّن من مقطعَين متماثلَين من نوع (طويل المدّ) المغلق بصامت وهما: (ضَالْ / لِينْ)، أي: (ص م ص) مكرّر مرّتين، وهذا المقطع نادر في العربية إلاّ في حالة الوقف في أواخر الكلمات، وقد تَمَيَّزَ هذا اللفظ بورود هذا المقطع فيه مرتين؛ في أوّله وفي آخره، وهذه الصيغة لا نكاد نجدها في القرآن الكريم إلاّ في كلمات معدودة؛ نحو: ﴿ٱلْعَآدِّينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣] و﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصّافات: ١]، وكلاهما يتضمّنان معنى الكثرة، لأنهما صفتان للملائكة.

وعلى الرغم من تساوي مقطَعَي ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ كَمّاً ونوعاً، إلاّ أنّهما يختلفان في صوت المدّ الذي يتوسّط الصّوتين الصّامتين، فهو في المقطع الأول (ضَالْ) ألف، وفي المقطع الثاني (لِينْ) ياء. ويترتّب على هذا الاختلاف اللّفظي اختلاف في تنغيم المقطعَين؛ فالأول يتميّز بنغمة صاعدة، والثاني يتميّز بنغمة هابطة. ويزيد من نغمتَي الصعود والهبوط التشديدُ السّابق لصوتَي المدّ في المقطعين.

وهذا التنغيم الفريد لكلمة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ يناسب دلالتها المعنوية؛ لأنّها مشتقة من ضَلَّ، ومصدره الضّلال: وهو العدول عن الطريق المستقيم، وضِدُّه الهداية، ويُقال الضّلال لِكُلِّ عُدولٍ عن المنهج، فهو «ترك الطريق المستقيم عَمْداً كان أو سَهواً، قليلاً كان أو كثيراً»[1]. وهذا يعني: أنّ الضّالين كانوا في أوّل أمرهم مهتدين سائرين على الطريق المستقيم، ثم انحرفوا عنه وضَلّوا. ومن هنا ناسَبَت النغمةُ الصاعدةُ في المقطع

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٠١.

الأول هدايتهم بادئ الأمر، وناسَبَت النغمةُ الهابطةُ في المقطع الثاني ضلالَتهم فيما بعد.

ويُمكن توجيه وجهةً أخرى وهي: أنّ ألف المدّ ناسَبَت تَمادي الضّالِّين في ضلالتهم وعُلُوّهم على الله علوّاً كبيراً، ثم جاءت ياء المدّ المستندة إلى اللاّم المشدّدة لِتُناسبَ شِدَّةَ سقوط هؤلاء، ومدَى امتداد هذا السقوط. وقد بَيّن الله تعالى حال المشركين الضّالِّين بحال مَن يَخرّ من السماء فتهوي به الريح في مكان سحيق بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١]. فكلّ عُلُوٍّ على الله يَتبَعه سقوط إلى أسفل سافلين.

٥. ٢. ١. ٣ ـ دلالة واو المد

يبتني صوت الواو (المديّ) الصائت على حركةِ ضَمٍّ قائمةٍ على صوتٍ صامتٍ، وعند النطق بهذا الصوت تُضَمّ مُعظَم الشّفتَين، بحيث يبقَى بينهما بعض الانفراج، لِيَتَخرّج فيه النَّفَس ويَتَّصِلُ الصّوت[1]، وبذلك تَتَّخِذُ الشّفتان وَضْعَ الاستدارة، وتكون زاويَتا الشّفَتَين مُتقَدِّمَتَين إلى الأمام[2].

٥. ٢. ١. ٣. ١ ـ الدلالة العامة لواو المد

إنّ وضعية ضَمّ الشّفتين أثناء النطق بواو المدّ هي بالتأكيد غير وضعية الانفراج التي تُميِّز ألف المدّ، كما أنها غير الوضع المحايِد المنسحِب إلى الوراء الذي يُميِّز ياء المدّ، ولذلك فإنّ دلالة واو المد لابدّ أن تكون مغايِرةً لذينك المدَّين، وربما دلّ في الغالب على الإندفاع نحو الأمام، مع الإيحاء بالتضييق والضّمّ والتكوُّر الذي تَمنحه حركة

---

(١) سِرُّ صناعة الإعراب: ١/٨.

(٢) في الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية: ٣٤.

الضّمّ المبتنية عليه. ولكن على العموم فإنّ الصّوت الصّامت الذي تقوم عليه الضّمّة هو الذي يَمنح المدَّ القسمَ الأعظمَ من دلالته المعنوية، وعادةً ما يكون هذا الصوت، الذي يُمثل قاعدة المدّ ونقطة انطلاقه عينَ الكلمة أو لامَها. وعليه يقع العِبءُ الأكبر من النبر، باعتباره يُمثِّل البعد الدلاليّ الأهمّ للكلمة.

فواو المدّ في لفظ (مَنشور) مثلاً يستند إلى عين الكلمة، وهو صوت (الثاء) لأنه مشتق من (نَثَرَ)، ولذلك فإنّه (واو المدّ) هنا يكتسب ملامح هذا الصوت الدلالية، لتُضاف إلى ملامحه الخاصة، وذلك لوقوع الثقل الأكبر من جَرس الكلمة عليه؛ ويتميّز حرف الثاء بثلاث ظواهر صوتية مستقاة من طبيعته النطقية:

الأولى: انفراج الأسنان السفلى عن العليا عند خروج صوت (الثاء)، ومن ثم تراجع طرف اللسان إلى الداخل. وهذا يُماثل الأحداث الطبيعية التي تتضمن الشَّقّ والانفراج.

الثانية: بعثرة النَّفَس ببطء أثناء خروجه بين طرف اللسان والأسنان العليا عند حدوث الصوت، مِمّا يماثل الأحداث الطبيعية التي تتضمن البعثرة والتخليط.

الثالثة: حفيف رقيق يسمع لصوت (الثاء) مع اللثغ، مِمّا يوحي بالرقة والطراوة والدفء[1].

فصوت المدّ الواوي يَضُمُّ هذه المعاني الثلاثة لصوت (الثاء) إلى دلالته العامة على الضّم والتكوُّر والاندفاع، فيُؤدي باللفظ مجتمعاً إلى تصوير معنى (منثور) تصويراً دقيقاً. وقد ورد هذا اللفظ منصوباً في كتاب الله العزيز، فصَوّرت أصواتُه هذه المعاني أدقّ ما يكون التصوير، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا** ﴾ [الفرقان: ٢٣].

---

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها: ٦٠ ـ ٦١.

فكلّ صوت في هذه الآية قام بالدور الدقيق المرسوم له لتوصيل المعنى وتصويره، حيث ورد واو المد المستند إلى عين الفعل في ﴿مَّنثُورًا﴾ مسبوقاً بآخَر مستنداً إلى لام الفعل في ﴿عَمِلُواْ﴾، فجاء (المد) أولاً في ﴿عَمِلُواْ﴾ ليُصَوِّرَ إسراف المجرمين بِحَقِّ أنفسهم، بِما ارتكبوا من إعمال ضَمُّوها إلى صحيفة أعمالهم، ثم جاء ثانيةً في ﴿مَّنثُورًا﴾ لِيُصَوِّر تبديد ما تراكم من أعمالهم تلك وذهابها سُدى. وقد صَوّرَ الإنتقال من واو المد إلى ألف الإطلاق عمليةَ الإنتقال من حالة الضّمّ إلى حالة التبدُّد، فالصورة البيانية للآية قائمة على أساس تشبيه المعقول بالمحسوس، حيث شُبِّهت الأعمال بالهباء في القِلّة والحقارة.

وقد جاء صوت الهاء المهتوت في أول هباء، بما فيه من الضعف والخفاء[1]، لِيُعبِّرَ عن حقيقة وجه الشبه، وذلك في مقابل صوت العين الحلقي المجهور. فالأعمال التي يَظُنُّ صاحبها أنها من القوة بمكان، هي في حقيقتها أضعف ما يكون، فهي كالهباء: الذرّات الصغيرة الشبيهة بالغبار الخارجة من الكُوّة مع ضوء الشمس. وقد وُصِفَ عمل المجرمين بالمنثور من هذا الهباء، لأنه يبدو منتظماً مع الضوء فإذا حَرّكته الريح تناثَرَ وذهبَ كلَّ مذهب[2].

فصوت الثاء الدّال على التبعثر الممتد، مع صوت المد الواوي الدّال على الضّمّ والتكور صَوّرَا معاً عملية التبدُّد، ثم جاء صوت الراء الدّال على الكثرة والتكرار مُمتداً مع ألف الإطلاق، ليُكمِلَ تصوير عملية تلاشي تلك الذرات الكثيرة وذهابها أدراج الرياح.

---

(١) سِرُّ صناعة الإعراب: ٧٤/١.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢٤٧/٣.

٥. ٢. ١. ٣. ٢ ـ الدلالة الخاصة لواو المد

وهي الدلالة المعنوية التي يكتسبها اللّفظ عن طريق مَدِّ الواو مَدّاً زائداً عن المدّ الطبيعي. ويأتي هذا المدّ الزائد لأسباب، منها أن يأتي حرفُ مدٍّ في آخر كلمة، فيأتي بعده الهمز في أول الكلمة التالية له. وهو ما يُطلَق عليه اسم: المدّ الجائز المنفصل[1]. وصفة الخصوص في هذا النوع من الدلالة يُراد بها اختلافها من لفظ لآخَر، وإنْ كان القاسم المشترك لها جميعاً هو دلالة المدّ الواوي على الضّم.

ولا يعني هذا اطِّراد دلالة لفظ ما كلّما ورد فيه مدّ زائد، لإنّ السياق هو الذي يَحكم وجود تلك الدلالة من عدمها، أو تساويها مع غيرها من عدمه. وتَتَعَدَّد المعاني الخاصّة التي يوحيها مَدّ الواو المتلوّ بصوت الهمزة كتعدّد معاني الألفاظ التي يرد فيها، ومنها على سبيل المثال مايلي:

٥. ٢. ١. ٣. ٢. ١ ـ الدلالة على الإكثار من الشيء

يمكن التمثيل لهذه الدلالة بالمدّ الذي في فعل الأمر ﴿ٱذۡكُرُوٓاْ﴾ في الآيتين أدناه من سورة الأعراف:

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾

فالمدّ الزائد في واو فعل الأمر في الآية الأولى سببه اللّفظي هو مجي همزة (إذ) تاليةً له، أما دلالته المعنوية فهي أنّ الذكر أو التذكُّر يجب أن يكون من الكثرة بحيث يتناسب مع جعلهم (قوم عاد) خلفاء في الأرض، أو ملوكاً، ويتناسب كذلك مع ما أنعم الله

---

(١) مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦١٦.

عليهم من البسطة في الطول والبدانة. ولقد تكرّر الفعل ﴿ٱذْكُرُوٓاْ﴾ ثانيةً، ليشمل هاتين النعمتين، وما سواهما من العطايا[1]، وليؤكِّدَ على أنّ شرطَ فَلاحِهم مشروطٌ بِأن يُناسبَ الذكرُ منهم مِنَنَ الله عليهم. وكذلك الأمر في الآية الثانية؛ فإنّ ذكرَ أهلِ مَدين يجب أن يكون مديداً كثيراً حتى يتناسب مع ما آلوا إليه من زيادة عددهم بعد أن كانوا قلّة قليلة.

ونظير هذا مِمّا ورد على صيغة الأمر الفعلُ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فقد طُلِبَ من الذين كفروا أن ينتظروا ذلك اليوم الموعود، فإنه مهما طال زمن الانتظار فَسَيحين موعده. وطول الانتظار هنا يناسب ما يراه الكافرون من بُعد ذلك اليوم لـ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ [المعارج: ٦]، لكنّ واقع الأمر عند الله تعالى أنه قريبٌ، لقوله سبحانه، وقوله الحقّ: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٧]. وبذلك فإنّ مدّ الواو مَدّاً زائداً على مقداره الطبيعي جاء مناسباً لما يتصوّره الكافرون من بُعد ذلك اليوم، وما يترتّب على ذلك التصوّر عندهم من الإحساس بِبُعد ذلك اليوم.

ومِمّا يُلاحظ في هذه الآية أنّ الفعل ﴿يَأْتِيَ﴾ الذي يتحدّث عن مَجيء يوم القيامة قد ورد بإثبات الياء، وهو مناسب لزيادة مَدّ الواو هنا، في حين ورد هذا الفعل بهذا المعنى في موضع آخر محذوف الياء، أي: ﴿يَأْتِ﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، والسبب اختلاف السياق، حيث إنّ حذف الياء المديّ هنا جاء لأنّ السياق يتحدّث عن حقيقة قُربِ ذلك

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١١٧/٢.

اليوم، وأنه يأتي على حين غَرّة. وهو غيره هناك[١].

وكما ورد هذا النوع من المدّ في فعل الأمر، ورد كذلك في الفعل الماضي، نحو: ﴿صَبَرُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، فهو يدلّ على الصبر الطويل الذي تَحمَّلَه هؤلاء الصابرون، والذي عوَضهم الله تعالى عنه بالجزاء الجزيل (الكثير)، وهو الفوز بالجنان خالدين فيها. فدوامهم على الصّبر، وتَحَمُّلهم لأعبائه الكبيرة والكثيرة كوفِئوا عليه بِدوام خلودهم في جنّاتٍ عدنٍ وملكٍ لا يفنى، فناسَبَ عظيمُ الجزاء وكثيرُه عِظَمَ الصبر وكثرتَه.

ونظيره من الفعل الماضي أيضاً الفعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ويتضمّن هذا الفعل ــ كسابقه ـ دعوةً إلى الصبر، وقد خُصِّص بالاسترجاع عند المصائب والإكثار من قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ لأنّ بذكر الله تطمئن القلوب.

٥. ٢. ١. ٣. ٢,٢ ـ الدلالة على التأمُّل في الشيء

تكاد دلالة المدّ على التأمّل تُضارع دلالتَه على الإكثار، لأنّ التأمُّل ودِقّة النظر تتطلّب بَذْلَ المزيد من الوقت. ومن السياقات التي ورد فيها هذا النوع من المدّ سياقُ الدعوة إلى تدبُّر آيات الله العديدة، والإكثار من التأمّل فيها.

وقد اختلفت أساليب التعبير التي ورد فيها واو المد بهذا المعنى، منها أسلوب الاستفهام الإنكاري، كما في قوله تعالى من سورة (ق): ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ

---

(١) يُراجع مبحث: ٤. ٢. ٤. ٢. ١ ـ (يَأتِي) و (يَأتِ) من هذا الفصل.

زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾. ومنها أسلوب الطّلب الأمري، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فالسّماء المترامية الأطراف، والكواكب التي تُزيّنها، ومَدّ الأرض، وإلقاء الرواسي، وإنزال المطر، وإنبات الزرع، كلُّها آياتٌ، فيها ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٨] عليه أن يُبصِرَها، ويُمعِنَ النظرَ فيها، ويتذكّرَها حتى تتبيّن له قدرةُ الله وعظمتُه.

وقد جاء المدّ الزائد في ﴿يَنظُرُوٓا۟﴾ الدّال على كثرة التأمل، ودقّة النظر، مناسباً لكثرة الممدود في آيات الله التي يجب تَدبُّرها، مثل: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿بَنَيْنَـٰهَا﴾، ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾، ﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾، فعظمة آيات الله ودقّة صنعها ممّا يتطلّب إطالة النظر ودقته. وكلّما زاد العبد من النظر فيها زاد إيمانه بخالقه، وتوطّدت علاقته به، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وفي هذه الآية أيضاً زاد المدّ في فعل ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ المتلوّ بهمزة ﴿أَشَدُّ﴾، لأنّ هؤلاء المؤمنين ليسوا كغيرهم، فهم شديدو الحب لله، بل هم أشَدُّ حُبّاً.

٥. ٢. ١. ٣. ٢. ٣ ـ الدلالة على الغؤور في الشيء

تشترك هذه الدلالة مع سابقتها في معنى النفوذ إلى عمق الشّيء؛ ففي التأمل تعمُّق ذهني، وهنا تعمُّق ماديّ. ومن ذلك صيغة الفعل ﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾

[الكهف: ١٦]، حيث جاء بعد مَدّ الواو فيها الهمزة التي في أول حرف الجر (إلى) فلزم مدُّ الواو مَدّاً زائداً، ولعلّ السبب المعنوي في مَدّ هذه الكلمة لا يَقِلُّ أهمية عن السبب اللفظي، وربما كان أولَى به منه.

وبيان ذلك أنّ الطلب من الفتية المؤمنين باتخاذ الكهف مأوىً جاء «حين صَمّمَت عزيمتهم على الفرار بدينهم»[1] واعتزال قومهم لِمدّة معيّنة حتى يفتح الله عليهم، فما كان يدور في خلدهم أنهم سيعتزلون قومهم مدةً طويلة، بدلالة فعل الاعتزال الذي يعني تجنُّب الشيء بالبدن أو القلب[2]، لأمرٍ ما. والعزلة بالبدن تعني عدم الاختلاط بالناس، وهي لا تعني بالضرورة ابتعاداً مكانياً، فقد يكون في بيت أو غيره[3]، لهذا جاء مَدُّ الواو في ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ على الأصل في المدّ، بلا زيادة. لكنّ إرادة الله شاءت أن تكون عزلتهم لمدة طويلة خارجة عن القدرة البشرية، وعَيَّن لهم المكان الذي يأوون إليه، وهو الكهف، فلهذين السببين جاء مد الواو في جواب إذ، وهو ﴿فَأۡوُۥٓاْ﴾ مَدّاً يفوق المدَّ الطبيعي، وذلك لِيُناسبَ البعدين الزماني والمكاني؛ أما الزماني فذَكَرَه الله بقوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥]، وأما المكاني فيدلُّ عليه لفظ (الكهف)، وما يحمله من إيحاءات بالضيق والغؤور في عمق الجبل، فجاء هذا الواو الممتد المندفع وكأنه يسوقهم إليه سوقاً، ويدفعهم لولوجه دفعاً، ليَأووا إليه، ويتحصّنوا به من بطش الظالمين.

وكما أُشير سابقاً من أنّ الصوت الصامت الذي يقوم عليه المد يترك الكثير من ملامحه على دلالة المد، فقد جاء عمل صوت الواو شبه الصامت المضموم قبل المد

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٧٠٧/٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٣٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٢/١٠.

على تصوير ضيق الكهف وانغلاقه، ثم جاء المد بعده لينتقلَ إلى تصوير عُمقه وامتداده في جوف الجبل.

ويمكن الوقوف على حقيقة دور صوت الواو السابق للمد هنا من خلال مقارنته بصوت الراء السابق للمد في كلمة ﴿ فَفِرُّوٓاْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[الذاريات: ٥٠]، فصوت الراء الصامت المكرّر هذا مَنَحَ هذه الكلمة دلالتها على الحركة المتواصلة السريعة، تاركاً لواو المد تصويره لمعنى الإنصراف التام إلى طاعة الله وثوابه، بعيداً عن أيِّ معصية تستوجب عقابه.

وتبدو هذه الدلالة بصورة أجلى وأوضح في فواصل الآيات التالية من سورة الحاقة: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴾ حيث التأمَت حركات الضم القصيرة[1] والطويلة معاً، فواكبت معاني الغلّ والتصلية في الجحيم بسلسلة ذات سبعين ذراع لتُصوِّرَ بشكل دقيق دلالة الواو على التوغُّل في الشيء والنفوذ فيه.

٥. ٢. ١. ٤ ـ تقابل أصوات المد

رأينا فيما سبق كيف أنّ المدّ يتنوّع بتنوّع أصواته، فدلالة مدّ الألف الصاعد هي غير دلالة مدّ الياء الهاوي، وهذان يختلفان عن دلالة المد الواوي. ويمكن الوقوف على حقيقة التباين الدلالي بين هذه المدود من خلال مقابلة بعضها ببعض، وهذه المقابلة قد تكون داخل السياق، وقد تكون خارجه. والأوّل: قد لا تكون فيه أصوات المد جزءاً من صيغة الكلمة، وإنما قد يكون المد فيها عارضاً تبعاً لتركيبها، أو حالتها الإعرابية، كما قد لا تكون الألفاظ المتقابلة متساوية الدلالة. أما الثاني: فإنّ المدود فيها تكون

---

(١) يُراجع مبحث: (٥. ١. ١. ٣. ١.٢ ـ اللّفظ المركّبَ) ضمن موضوع دلالة اختيار حركة الضم.

علامة بارزة في صيغة الكلمة، كما تكون الألفاظ المتقابلة متساوية في الدلالة.

٥. ٢. ١. ٤. ١ ـ تقابل أصوات المدّ داخل السياق

قد يكون المد جزءاً من بنية الكلمة، وقد لا يكون كذلك، وإنما يعرض عليها من خلال تركيبها، وما يدخل عليها من السوابق واللواحق، أو من خلال ما يعترضها من حالاتٍ إعرابية خاصة كحالة النصب التي يلحقها ألف المدِّ عند التنوين، وحالة جمع المذكر السالم في حالتي الرفع بالواو والنصب بالياء وغير ذلك مِمّا يَمنح الكلمة مَلمَحاً صوتياً جديداً فيُضيف إليها بُعداً دلالياً خاصّاً.

وغالباً ما ترد المدود في السياق القرآني حاملةً معها دلالات خاصة، يشي بها عنصر المقابلة فيما بينها، فيكشف الكثير من أسرارها وما تحمل في طيّاتها من معاني داعيةٍ إلى تَخيُّرها في هذا الموضع دون غيرها، ومجيء غيرها في ذات السياق لتكون نِدّاً لتلك أو مخالفةً لها، وذلك بهدف تصوير المعنى أدَقّ تصوير وأحسنه. وسَيُكتَفَى بالإشارة إلى بعضٍ من هذه النماذج.

٥. ٢. ١. ٤. ١. ١ ـ (أُريدَ) و (أرادَ)

اجتمع هذان الفعلان في جملة واحدة، هي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، وفي هذه الآية مقابلة من النوع الخلافي كما ذكر بعض البلاغيين، حيث قوبل الشَّر بالرشد، وهما «خلافان لا نقيضان فإنّ نقيضَ الشَّر الخير، والرشدَ الغيّ»[١].

وكما قوبل بين مصدرَي: (الشّر) و (الرشد)، قوبل كذلك بين فِعلَي: ﴿أُرِيدَ﴾

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٣٢٨/٣.

و ﴿أَرَادَ﴾، فجاء الأوّل على البناء للمجهول وجاء الثاني على البناء للمعلوم على الرغم من كون الفاعل في كليهما هو الله تعالى ؛ وذلك أنّ الشياطين كانت تسترق السّمع في بعض الأحوال، فلمّا بُعثَ رسول الله ﷺ كثُرَ الرجم وزاد زيادةً ظاهرة ؛ حتى تَنَبّه لها الإنس والجنّ، ومُنِعَ الإستراق أصلاً، ولما حدث هذا قال نفرٌ من الجن: «ما هذا إلاّ لأمر أراده الله بأهل الأرض، ولا يخلو من أن يكونَ شرّاً أو رشداً أي: خيراً من عذابٍ أو رحمة، أو من خذلان أو توفيق»[1].

وقد جاء الفعل ﴿أُرِيدَ﴾ مبنيّاً للمجهول على سبيل (التنزيه)، أي: تنزيهُ الفاعل وهو الله عن إرادة الشّر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]. أما الفعل ﴿أَرَادَ﴾ فجاء مبنيّاً للمعلوم، لأنّ المرادَ به إرادةُ الخير.

والمقابلةُ بين هذين الفعلين ليست من هذه الجهة فحسب، بل بينهما مقابلة صوتية بين مَدّي الياء والألف ؛ فمع إرادة الشّر جِيءَ بياء المدّ الدّال على الإرتكاس والإنحطاط، ومع إرادة الخير جِيءَ بألف المد الدّال على العلّو و السُّمُوّ. فناسبَ كلُّ مَدٍّ السياقَ الذي ورد فيه.

٥. ٢. ١. ٤. ١. ٢ ـ (أيقاظاً) و (رُقود)

اجتمع هذا اللّفظان في قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف: ١٨]، وهما من الألفاظ المتقابلة أيضاً، لكنهما من النوع النقيضيّ، لأنهما من باب الرقاد المقابَل باليقظة[2]. وأيقاظ: جمع يقظ ويقظان وهو المنتبه، ورقود: جمع راقد،

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٦٢٧/٤.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٣٢٨/٣.

كالجلوس: جمع جالس، والقعود: جمع قاعد[١]. وقوله: ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كقولهم: هم قومٌ ركوعٌ وسجودٌ وقعودٌ، وصفاً للجمع بالمصدر[٢].

وهذه الجملة القرآنية واردة في سياق قصة أصحاب الكهف، عندما ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عدداً، فأنامهم إنامةً ثقيلةً لا تُنبِّههم فيه الأصوات. وقد فُسِّرت بأنّ عيونهم كانت مُفَتّحةً وهم نيام، فيَحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً[٣].

وقد جِيءَ بلفظ ﴿أَيْقَاظًا﴾ مشتملاً على مَدّين: أولهما أصليّ، والآخَر عارض بسبب النصب، فناسَبَ هذان المدّان المفتوحان انفتاح عينَي كلٍّ منهم، وقد قوّى من هذا التناسب، والإحساس به، ابتداءُ كلِّ مقطع من مقاطعه الثلاثة بحركة الفتح؛ (أَيْ / قَا / ظَا)، وتساوي هذه المقاطع من حيث الإيقاع؛ فكلٌّ منها سبب خفيف.

أمّا ﴿رُقُودٌ﴾ فجِيءَ به مشتملاً على مَدٍّ واويٍّ مسبوقٍ بحركة ضَمٍّ في أوّله، ومتلُوٍّ بآخَرَ بعدَه، فناسَبَ الضّمُّ كونَهم مضروب على حواسِّهم؛ فهي ممتنعة عن أداء وظائفها، وناسَبَ واو المدّ حقيقةَ نومهم الطويل العميق. وقد قَوّى من الإحساس بهذا المعنى طبيعةُ ورود مقاطع هذا اللّفظ؛ حيث ابتدأ بـ (مقطع قصيرٍ) مضمومٍ هو: (رُ)، ليُناسب ضَم الحواسّ وإغلاقها، ثم تلاه (مقطعٌ طويل مفتوح) مديد بالواو، هو: (قُوْ)، لِيُناسِبَ طول مُدّة نومهم.

ويصير الإحساس بطول ﴿رُقُودٌ﴾ أصحاب الكهف أقوى وأبلغ عند الوقف على

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٥/ ٢١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٧٠.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢/ ٧٠٨.

هذه الكلمة أثناء التلاوة، وهو وقف جائز[(١)]، لانتهاء الجملة بها، وعندئذٍ يُدمَج المقطع الثاني الطويل المفتوح (قُوْ) بالمقطع الثالث الطويل المغلَق (دُنْ)، فيتحوّلان معاً إلى مقطع مَديد مغلَق بصامت (قُوْدْ) وهو أطول المقاطع العربية.

إنّ كلَّ ما أُشير إليه من الدلالة الصوتية في ﴿رُقُودٌ﴾ ما كان لِيُقال لو كان قد اختير بدلاً من هذا اللّفظ لفظٌ آخَر، وإن كان ذلك الآخَر أقيَس منه وأعرَف، نحو: (رُقَّد) الذي هو إضافة إلى كونه مُساوياً له في الدلالة، فإنه أقيس منه، وأعرف[(٢)]. وكذلك إذا كان قد اختير بدلاً منه لفظٌ مِمّا يُرادفه، نحو: (نيام). وكذا الأمر في علّة اختيار لفظ ﴿أَيْقَاظًا﴾ دون سواه مثل: يِقاظ، ومستيقظين. لكنّ الاستعمال القرآني يأبَى إلاّ اختيار أدقّ الألفاظ وأنسبها وأكثرها ملاءَمةً للمعنى.

ونظير هذه المقابلة الصوتية بين مَدَّي الألف والواو المقابلةُ بين ﴿قِيَـٰمًا﴾ و ﴿وَقُعُودًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ [النساء: ١٠٣].

---

(١) ربما كان الوقف هنا أنسب، لأنّ الذي يلي جملة ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وفيها التفاتٌ من المخاطب إلى المتكلم. والله أعلم.

(٢) إنّ صيغة (رُقَّد) أقيس من صيغة (رقود) ؛ ذلك لأنّ (رقود) لا يمكن تشخيص كونها جمعاً لـ (راقد) إلاّ إذا جاءت وصفاً لجمع المذكر، كأن يُقال: قوم رقود، وإلاّ فإنّ الأصل فيها أنها مصدر مثل جلوس وقعود وقد وصف بها الجمع، كما إنّ (رُقَّد) أعرف منها لإنّ معاجم العربية عند تعريفها للفظ (رقود) تقول: وقوم رقود: أي رُقّد. يُنظر: (لسان العرب، مادة: رقد).

٥. ٢. ١. ٤. ١. ٣ ـ (باسِقات) و (نَضيد)

ورد ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ بألف المدّ الصّاعد وصفاً للنخل، و﴿نَّضِيدٌ﴾ بياء المد الهابط وصفاً لطلع النخل، وذلك في سياقٍ واحدٍ، هو قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

ولفظ ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ مُشتقٌ من البُسوق؛ وبَسَقَ الشَّيءُ: تَمَّ طوله، والباسق من النخل: المرتفع في عُلُوِّه[١]، قال الخليل: يُقال بَسَقَتِ النَّخلةُ بُسُوقاً إذا طالَتْ وكَمُلَتْ[٢].

أما ﴿نَّضِيدٌ﴾ فَمُشتقٌ من النضد: ونضَدَتُ الشَّيء: جَعَلْتُ بعضَه على بعض؛ وفي التهذيب: ضَمَمْتُ بعضَه إلى بعض، ونضيد بمعنى: منضود: وهو ما كان بعضُه فوق بعض[٣]، وهذا يعني أنّ (نضيد) و (منضود) مترادفان، إلاّ أنّ الأوّل يعني انضمام الشّيء بعضُه على بعض وإلى بعض، والثاني يعني انضمام الشّيء بعضُه فوق بعض، وهذا يُفسِّر سبب اختيار (نضيد) في هذا السياق القرآني؛ حيث إنّ الطلع متراكم على بعضه وإلى بعضه، فجاء مَدُّ الياء فيه لِيُصَوِّرَ هذا الرصف الأفقيَّ المتهدِّلَ إلى أسفل.

ويستطيلُ مدّ الألف في ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ وياء المدّ في ﴿نَّضِيدٌ﴾ عند الوقف على هذين اللّفظين أثناء التلاوة، فيما يُعرف في علم القراءات والتجويد بالمدِّ العارض

(١) لسان العرب: مادة: بسق.

(٢) معجم مقاييس اللغة: باب: بسق.

(٣) لسان العرب: مادة: نَضَدَ.

للسكون[١]، فيبلغ مقدارُ مَدِّ الصوت بهما ستَّ حركات. وهذا الامتداد المشرَئبّ في ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ يُصَوِّرُ بجلاء بُسوقَ النخل وارتفاعه إلى الأعالي بتلك الرشاقة الجميلة «فإذا تَلا القارئ بعد ذلك لفظةَ ﴿نَّضِيدٌ﴾، ووقف على الدّال، استشعَرَ السّامعُ بهذا المدّ الهابط (الياء) خِلافَ ما استشعَرَه بذلك المدّ الصّاعد، الذي قبله في ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾؛ إذ يستشعر بسمعه قبل بصره، هذا التنضيد الذي في الطّلع، وقد غُطِّيَ بغطائه الربّانيّ الجميل، ذي الرائحة الذكيّة العَبِقة»[٢]. فالمقابلة الصوتية بين مَدّي الألف والياء صَوّرت حركتين متضادّتين: صاعدة وهابطة؛ دلّت الأوّلى على عُلُوّ النخل وبُسوقه، ودلّت الثانية على تراكم الطّلع وتَدَلِّيه نحو الأسفل.

٢.٤.١.٢.٥ ـ تقابل أصوات المد خارج السياق

يُمثل المدُّ ونوعه في بنية الكلمة عنصراً مهماً في تحديد المعنى، أو إضفاء طابعٍ دلاليٍّ خاصٍّ عليها. وهناك كثير من المفردات التي تشترك مع غيرها في الجذر اللغوي، لكنها تختلف معها في المعنى، ثم لا نجد لهذا التباين الدلالي بين اللفظين سوى صوت المد أو نوعه الذي يُميز أحدهما عن الآخر. ولعل خير مثال على هذا ما يُردِّده المسلم عشرات المرات يومياً من ذكر البسملة المشتملة على لفظي: (الرحمن) و (الرحيم)، حيث يُميِّز الأوّل مَدُّ الألف والثاني مَدُّ الياء.

فالرحمن والرحيم «اسمان مشتقّان من الرحمة»[٣]، والرحمة وإن كانت تعني:

---

(١) وهو أن يأتي بعد حرف المد حرف متحرك، يوقَف عليه بالسكون (مفردات القرآن ـ مصحف التجويد: ٦٢١).

(٢) الإيحاء الصوتي في تعبير القرآن: ١٥٤.

(٣) لسان العرب: مادة: رحم.

الرقّة والتَّعطُّف إلاّ أنّ الصيغة التي اشتق عليها كلٌّ من الرحمن والرحيم جعلت لكلٍّ خصوصيته المعنوية، وقد فصّل المفسرون القول في الفرق بينهما، واختلفوا في ذلك، ويُكتفَى هنا بنقل حديث للإمام الصادق عليه السلام بخصوصهما لِيُعرَفَ مدى تفاوتهما دلالياً، فقد روي أنه قال: «الرحمن: اسم خاص بصفة عامة ، والرحيم: اسم عام بصفة خاصة»[1].

أما ما يُمكن أن يُشعِرَ به الجرسُ الصوتي لكلٍّ من مَدَّي الألف والياء في هاتَين الصيغتين، فَيُفرِّقَ بينهما من هذه الجهة، فإنّ «الرحيم مُشعِرٌ باللُّطف والرِّفق، كما أنّ الرحمن مُشعِرٌ بالفخامة والعظمة»[2]. وهذا ناتج عن الإمتداد الأفقي لياء المد في صيغة فَعِيل، والإمتداد العمودي لألف المد في صيغة فَعْلان، مِمّا يجعل من (الرحيم) صفة مستقرّةً ثابتة[3]، ومن (الرحمن) صفةً غير مستقرّة وغير ثابتة[4]، ذلك أنّ رحمة الله قد تُستَبدَل بغضبه. ومن هنا فقد كان العربيّ ترتعد فرائصه خوفاً وفَرَقاً وهو يستمع إلى الصفة الأولى من صفات الله تعالى في البسملة، وهي (الرحمن)، ولكنه سرعان ما يذهب عنه روعه، ويطمئنُّ قلبه عندما تطرق أسماعه الصفة الثانية من صفاته، وهي (الرحيم).

وإذا كان لفظا (الرحمن) و (الرحيم) مَمّا أَلِف الإنسان المسلم سَماعَهما أو

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٢١.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ٢٥٠.

(٣) شأنها في ذلك شأن الصفات التي على زنة فعيل نحو: كريم و قديم وعظيم التي تمتاز بالثبات والديمومة.

(٤) شأنها في ذلك شأن الصفات التي على زنة فَعلان نحو: تعبان وعطشان وجوعان التي تمتاز بعدم الثبات فالاستراحة وشرب الماء وتناول الطعام عوامل كفيلة بإزالة هذه الصفات العارضة.

تلاوتهما مجتمعَين في سياق واحد، كما في البسملة، وفاتحة الكتاب، فإنّ هناك الكثير من الألفاظ الثنائية التي تشترك في جذرها اللغوي، وتفترق في صوت المد، وقد ورد أحدهما في سياق قرآني، وجاء الآخَر في سياق غيره، وقد تَمَّ رصد نوعين من هذه المشتقّات ؛ منها ما يدخل في باب الصفات، وما يدخل في باب الجموع.

٥. ٢. ١. ٤. ٢. ١ ـ دلالة المد في التفريق بين الصِّفات

عَبَّرَ القرآن الكريم عن انتصار الحقّ على الباطل، وهزيمة الباطل أمام الحق في موضعَين من كتابه المجيد ، واصفاً الباطل فيهما بصفة (الزُّهوق)، إلاّ أنها جاءت بصيغتَين مختلفين، تبَعاً للسياق الذي وردتا فيه. فمرّةً وُصِفَت هزيمة الباطل بلفظ (زاهِق) بألف المد، وأخرى بلفظ (زَهوق) بواو المد، وذلك في الآيتين التاليتين:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨]

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]

وكلا الصيغتين مشتقتان من الفعل زَهَقَ ؛ يُقال: «زَهَقَ الشّيء يَزْهَقُ زُهوقاً فهو زاهِقٌ وزَهوقٌ: بطَل وهَلَك واضْمَحَلّ» (لسان العرب: /مادة: زهق).

و(زاهق): اسم فاعل، واسم الفاعل في حقيقته نعتٌ، لأنّ «كلَّ فعلٍ ماضيه على (فَعَلَ) بفتح العين فإنّ النعت منه على (فاعل) نحو ناصِر وضارِب»[١]. واسم الفاعل يفيد الحدوث والتجدّد لأنه يدل على ما يدل عليه الفعل، ويُستعمل في الأزمنة الثلاثة، ويعمل منها في الحال والاستقبال»[٢].

و(زَهوق): صفةٌ مشبّهةُ، على وزن (فَعول)، والصفة المشبّهة أبلَغ من اسم

---

(١) نزهة الطرف في علم الصرف: ٢٣.

(٢) المنهج الصوتي للبنية العربية: ١١٧.

الفاعل وأوكد منه. وهي تُفيد «اتصاف الذات بالحدث على وجه الثبوت والدوام»[1]

والفرق بين السياقين اللّذَين ورد فيهما هذان اللّفظان واضحٌ جَليّ؛ فالمقصود من الآية الأولى التي ورد فيها لفظ ﴿زَاهِقٌ﴾ هو الإخبار عن تَغَلُّب الحقِّ على الباطل، وهزيمة الباطل أمام الحقّ، وقد جاء التركيز في الآية على بيان قوّة الحقّ في مواجهة الباطل، وقوّة سَحقِه له، لذلك جاء التوكيد في الإخبار عن تلك القوّة الماحقة للباطل بثلاثة ألفاظ، هي: ﴿نَقْذِفُ﴾ و ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ و ﴿إِذَا﴾ الفجائية. وقد عَبّرت ﴿إِذَا﴾ الفجائية أيضاً عن سُرعة زَهْق الباطل أمام الحق. لهذا ناسَبَ السياقَ ورودُ اسم الفاعل ﴿زَاهِقٌ﴾؛ فهو من حيث المعنى يُناسب الحدث، لأنه تطلّبَ المبالغةَ في بيان قوّة الحقّ، فتمَّ تأكيده بِما يَدلُّ على ذلك. وليس في السياق ما يدعو إلى المبالغة في التعبير عن زهق الباطل.

أما السياق الذي ورد فيه لفظ ﴿زَهُوقًا﴾ فغير ذلك؛ حيث تَمَّ التركيز على زهوق الباطل وانسحاقه أمام الحقّ، ولذلك لم يؤكَّد على قوّة الحق، بل اكتُفيَ بالإخبار عن مجيئه ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾، وما ترتَّبَ على مجيء الحق من زهق الباطل ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾. وبعد تقرير هذه الحقيقة بطرفيها جاء الإخبار عن قاعدة عامّة، وسُنّة مطّردة، وصفة دائمة للباطل: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ فالباطل زَهوق مضمحلٌّ حيثما وُجِدَ وأينما كان. وهذا المعنى لا بُدَّ له من الصفة المشبّهة (زَهوق) التي تدُلّ على ملازمتها للموصوف بها وعدم انفكاكها عنه[2].

وقد جاء اختلاف صوتَي المدّ في الصيغتين لِيُناسِبَ هو الآخَر سياقَ كلٍّ من

---

(١) أبنية الصرف في كتاب سيبويه: ٢٧٥.

(٢) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني: ٢٩٥.

الآيتين ؛ فصيغة ﴿زَاهِقٌ﴾ مكوّنة من مقطعَين :

المقطع الأول: متوسط مفتوح بألف المدّ (زَاْ) فهو يتميّز بنغمة صاعدة.

المقطع الثاني: متوسط مغلَق بصوت مسبوق بكسر (هِقْ) فهو يتميّز بنغمة هابطة.

وهذا الصعود فالهبوط الشّديد السريع في نطق لفظ ﴿زَاهِقٌ﴾ يُناسب صعودَ الباطل وتعاليه، ثم سقوطه فجأة و زواله. وسوى ألف المد، فإنّ هذا اللّفظ يتميّز بِميزتين صوتيتين تناسبان معناه :

إحداهما: ابتداءُ المقطع الأوّل بصوت صفيري مجهور، يقوم عليه صوت المدّ الصاعد إلى الأعلى، وهذا الصوت يُناسبُ ضجيجَ الباطل وخواءَه أثناء صعوده وتَضَخُّمه.

والثانية: ابتداءُ المقطع الثاني الهاوي بصوت مهتوتٍ، غايةً في الضّعف والخفاء، هو (الهاء)، وانتهاؤه بصوتٍ انفجاريّ مقلقَل، غايةً في الشِّدّة، هو (القاف). فالأوّل يُصَوِّرُ، بضَعفه وخفائه، ضَعفَ الباطل وهو يتهاوى مقذوفاً بالحقِّ مدموغاً به، والثاني يُصَوِّرُ، بانفجاره وقلقلته، قُوّةَ هذا السُّقوط و شِدّة انفلاقه وتداعيه.

أما صيغة ﴿زَهُوقًا﴾ فإنها مكوّنة من ثلاثة مقاطع :

المقطع الأول: قصير مفتوح (زَ)

المقطع الثاني: متوسط مفتوح بواو المد (هُوْ)

المقطع الثالث: متوسط مفتوح بألف المد (قَا)

وقد ناسب هذا اللّفظ، بِمقاطعه الثلاثة، ومَدَّيه المتواليَين، اطِّرادَ المعنى وصفةَ الدوام التي تَضَمَّنَتها جملة ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، أي: إنّ طولَ هذا اللّفظ وامتداده يناسبُ تَمكُّنَ صفة (الزهوق) من (الباطل) وملازمتها له. أما المَدُّ الواويّ في ﴿زَهُوقًا﴾

فإنّ ما يوحي به من معاني الضّمّ والضيق والإنغلاق تكاد تكون هي نفسها المعاني التي يوحي بها لفظ الباطل، والتي هي الأخرى لا تنفك عن ملازمتها له سواء في الواقع أو في الذهن.

٥. ٢. ١. ٤. ٢. ٢ ـ دلالة المد في التفريق بين الجموع

يظهر دور المد بصورة جلية في تمييزه بين الجموع المتساوية الدلالة في الاستعمال، والتي تنحدر من جذرٍ لغويٍ مشترك، إلاّ أنّ الاستعمال القرآني لهذه الجموع اتَّخذَ من أصوات المدّ المميِّزة لها سبيلاً إلى التفريق بينها، وتخصيص كلٍّ منها للمعنى الذي يتلاءم وصوت المد الذي يشتمل عليه.

ولقد أشار فقهاء العربية إلى فروق دلالية دقيقة تُميِّز بين مباني الجموع المتّحدة في دلالتها على الكثرة، من تلك الإشارات ما أوردوه في مطاوي كتبهم اللغوية، ومنها ما أفردوا له المصنّفات الخاصة كما في كتب (الفروق)، لكنهم لم يتطرقوا إلى تعليل أسباب تلك الفروق، وإن كانت في أغلبها تعود إلى اللهجات العربية المختلفة وتباين القبائل في استعمالها اللغوي.

ولما كان القرآن الكريم قد نزل بلغات العرب، فقد جاء فيه من تلك الجموع ما يُظن أنه متساوٍ في الدلالة، وأنه يمكن أن يَحلّ أحد الجمعين مَحَلّ الآخر. ولما كان كلام الله يفوق كلام البشر، فقد كان لابد لترجيح لفظ على آخر ما يبرره، ولذلك فإنه آثَر استعمال لفظ في موضع، وآثر نظيره في موضع آخر انطلاقاً من طبيعة الدلالة الصوتية لهذا اللفظ أو ذاك، ومناسبة لفظه لمعناه، ومناسبته للسياق. وفيما يلي استعراض لبعض تلك الجموع.

٥. ٢. ١. ٤. ٢. ٢. ١ ـ (عباد) و (عبيد)

للفظ (عبد) جموع كثيرة منها: أعبُد، وعَبيد، وعباد، وعُبُد، وعِبدان، وعُبدان، وعِبِدّان، وغيرها[١]. وقد ورد منها في الذكر الحكيم عبيد وعباد[٢]. وقد استند أهل اللغة إلى ما ورد منهما في القرآن الكريم فقالوا: إنّ «أكثر اللغة أن تستعمل (العبيد) للناس، والعباد لله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[الزمر: ١٦]، وهو كثير. وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، ومن أبيات الكتاب:

أتوعدني بقومك يا ابنَ حجلٍ — أشابات يخالون العبادا

بِما جَمَّعتَ من حضنٍ وعمروٍ — وما حضنٌ و عمرو والجيادا

أي: يخالون عبيداً، أي: مماليك»[٣].

ففي استعمال لفظة (عباد) بألف المد رفعة واستعلاء بسبب إطلاقها صفة على الذين يعبدون الله، أمّا لفظة (العبيد) بياء المد ففيها تحقير وتصغير للشأن لأنّها تُطلَق على طاعة غير الله، وهذا ما درج عليه الاستعمال القرآني، يقول ابن عطية بهذا الخصوص: «والذي استقرأتُ في لفظة العباد أنه جمع عبد متى سيقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة، دون أن يقترنَ بها معنى التحقير وتصغير الشأن. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[البقرة: ٢٠٧]﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾

---

(١) لسان العرب: مادة: عبد.

(٢) وأجاز بعضهم في (عَبَدَ) من قوله تعالى: (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) [المائدة: ٦٠] أن يُراد به «جمع الجمع من العبد كأنه جمع العبد عبيداً ثم جمع العبيد عبداً مثل ثمار وثمر» (جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٦/٢٩٤).

(٣) المحتسب: ١١٢.

[الأنبيـاء: ٢٦] ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمـر: ٥٣] وقول عيسى في الشفاعة والتعريض لرحمة الله ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] فنوه بهم... وأما العبيد فيُستعمل في التحقير، ومنه قول امرئ القيس:

قولا لدودانَ عَبيدِ العَصا ... مـا غَرّكم بالأسَدِ الباسِلِ

ومنه قول حمزة بن عبد المطلب: وهل أنتم إلاّ عبيدٌ لأبي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] لأنـه مكـانُ تشـقيق وإعـلام بقلّـة انتصـارهم ومقدرتهم، وأنه تعالى ليس بظلّام مع ذلك. ولَمّا كانت لفظة العباد تقتضي الطاعةلم تقع هنا، ولذلك أنس بها في قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ فهذا النوع من النظر يسلك به سبيل العجائب في ميز فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة»[1].

ويبدو إنّ هذا النظر الدقيق والسديد لم يُقنع أبا حيان الأندلسيّ حين ذهب إلى تساوي دلالـة لفظتي عباد وعبيد، مُبَـرِّراً كثـرة ورود (عبـاد) في القـرآن بكونـه هـو الأقيس، ومجيء (عبيد) فيه توخِّياً للفاصلة، بقوله: «وإنما كثر استعمال عباد دون عبيد، لأنّ (فِعالاً) في جمع (فَعْل) غير اليائي العين قياس مطّرد، وجمع (فعل) على (فعيل) لا يطّرد. قال سيبويه: وربما جاء فعيلاً وهو قليل، نحو: الكليب والعبيد. انتهى.

فلما كان (فِعال) هو المقيس في جمع (عبد) جاء (عِباد) كثيراً، وأما ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فحَسَّنَ مجيئه هنا، وإن لم يكن مقيساً، أنه جاء لتوخي الفواصل. ألا ترى أنّ قبله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وبعده ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧] فَمُحَسِّن مجيئه بلفظ (العبيد) مواخاة هاتين الفاصلتين.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٤٨١/٢.

ونظير هذا قوله في سورة ق: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [٢٩]، لأنّ قبله ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨]، وبعده ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[ق: ٣٠].وأمامدلوله ومدلول(عباد)سواء»[1].

ويُرَدّ على ابن حيّان بأنّ مراعاة الفاصلة ليست ظاهرة مطّردة في جميع فواصل الآيات التي ورد فيها (عبيد) وكذلك (عباد)، فإذا كانت لفظة (عبيد) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[الأنفال: ٥١] قد ناسبت الفاصلة السابقة لها وهي: (الحريق)، لأنها على وزنها، فإن الفاصلة اللاّحقة لها وهي: (العقاب) يناسبها لفظة (عباد)، لأنهما على وزن واحد أيضاً وهو (فعال). وفوق ذلك فإن لفظة (عباد) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[آل عمران: ٣٠] وردت مسبوقةً بالفاصلة (قدير)، ولحقتها الفاصلة (رحيم)، وكلاهما على وزن (فعيل)، والذي يناسبهما أكثر لفظة (عبيد) التي تشترك معهما بنفس الوزن لا لفظة (عباد).

وكذلك يُؤيد صوابَ رأي ابن عطية وصِحّة استقرائه لمواضع الجمعين في كتاب الله المجيد ورود لفظ (العباد) في القرآن سبعاً وتسعين مرةً (إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٤٤٥ ـ ٤٤٦)، ومعظمها صريح في دلالته على الطاعة وإخلاص العبودية لله، كما في الآيات التالية:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠]

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]

---

(١) البحر المحيط: ٢/٥٠٥.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

وورد قليل منها فيما ظاهره خلاف العبودية لله، نحو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٧ ـ ١٨].

فما من شَكٍّ في أنّ العباد المنسوبين إلى الله هنا هم من أهل المعاصي الذين عبدوا غير الله في الحياة الدنيا، وليس في نسبتهم إليه ترفيع لشأنهم ولا امتداح بالطاعة، ولكننا عند التأمل في الآية قليلاً نجد وراء وصفهم بلفظ العباد سِرّاً من أسرار الإعجاز القرآني، لأنّ هذا الحوار الدائر بين الله وخلقه من المعبودين وعابديهم إنما هو في يوم المحشر، وقد تقطّعت فيه الأسباب بين المخلوقين، وخلصت فيه العبودية لله وحده، فالله يُخاطبهم بما هو كائن في ذلك اليوم صيرورة الملك والعبودية إليه وحده، فهو القاهر فوق العباد ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ومِمّا ورد منه ما يبدو في ظاهره خلافاً لرأي ابن جني وابن عطية قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢] حيث ورد (عباد) مضافاً إلى ضمير المخاطَبين، كما أنّ في عطف الإماء عليه دليل قاطع على أن المراد بالعباد هنا هم الرقيق، فكان من اللاّزم بناءً على ما تقدّم أن يأتي بلفظ العبيد بدلاً من العباد، إلاّ أنّ الأسلوب القرآني الدقيق أَبَى إلاّ أن يختار صيغة (العباد) للصالحين من الرقيق وذلك تكريماً لهم، واستنفاراً لمشاعر الأخوة في الدين عند مالكيهم ليُحسِنوا معامَلَتهم ويُرفقوا بهم، لأنّ الله رفع

بإسلامهم وصلاحهم منزلتهم، وعُتقت رقابهم من عبودية البشر بعبادتهم لربهم، وفي هذا التعبير من أدب الإسلام ما يجب على المالكين أن يتمثّلوه فلا ينعتوا مواليهم الذين هم إخوانهم في الدين بالوصف الذي يجرح مشاعرهم، ويَحطّ من شأنهم[1]. وما ورد من ذلك فهو نظيره في التأويل والتعليل. أما لفظة العبيد فقد وردت في القرآن خمس مرات فحسب[2]، وقد وقعت في جميع ذلك تذييلاً بنفي وقوع الظلم من الله على عبيده، كما جاءت مسبوقةً بصيغة المبالغة (ظلاّم)، والآيات هي:

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ في سورتَي: [آل عمران: ١٨٢] و[الأنفال: ٥١]

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الحج: ١٠]

وهذه المواضع جميعاً يصدق عليها قول ابن عطية السابق من أنها «تشقيق و إعلام بقلّة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه تعالى ليس بظلّام مع ذلك»، لأنها وردت في سياق الحكم على الكافرين يوم القيامة بما قدّمت أيديهم ظلماً وعدواناً، فهم في موقف الذليل الذي لا ناصر له، ولا حول له ولا قوّة، فكان لفظ (العبيد) دون غيره هو المجَسِّد لذلّتهم وضعفهم.

ونعود إلى السِّر في اختيار القرآن للفظ (العباد) وإضافته للفظ الجلالة (الله)، وما يتضمّنه من الشأن الرفيع، وتخصيص لفظ (العبيد) بالناس، وما يتضمّنه من معنى

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٤٤٦.

التحقير وتصغير الشأن، والذي لا يمكن أن يكون قد ورد في كتاب الله اعتباطاً (حاشا لله). فما يقف وراء هذا الاختيار هو جرس كلٍّ من هذين اللفظين اللّذَين يُفرِّق بينهما صوت مَدّ (الألف) الصاعد في (عِبَاد)، وصوت مدّ (الياء) الهابط في (عَبِيد)، فإنّ «الانتقال في (عباد) من الكسرة إلى الفتحة ثم إلى الاستطالة بالألف الرامزة إلى الرفعة وانتصاب القامة، يُشير إلى أنّ الانتساب إلى الله بعبادته ينقل الإنسان من وَهدَة الرذيلة والخنوع للندّ من البشر إلى سُمُوّ النفس والوجه في حضرة المعبود، والانتقال في (عبيد) من الفتحة إلى الكسرة فالاستطالة بالياء، يوحي بانكسار النفس، واستغراقها في الذلّ، ومهانتها باستعباد الناس لها»[1].

٥. ٢. ١. ٤. ٢. ٢. ٢ ـ (إخوان) و (إخوة)

هذان اللفظان من صيغ الجمع المتفاوتة التي حدد الاستعمال القرآني كل صيغة منهما بدلالة خاصة تبعاً لطبيعته الصوتية المتمايزة، فإخوان و إخوة كلاهما جمع (أخ)، إلاّ أنّ الأوّل غلَبَ استعماله في الصداقة، والثاني غلَبَ استعماله في النسَب. جاء في لسان العرب: «وأكثر ما يستعمل الإخوان في الأصدقاء، والإخوة في الولادة»[2]. وجاء في الاتقان: «وحيث ورد (الأخ) مجموعاً في النسَب قيل: (إخوة)، وفي الصداقة قيل: (إخوان)، قاله ابن فارس وغيره. وأورد عليه في الصداقة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وفي النسب ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]»[3].

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ١٧٤.

(٢) لسان العرب: مادة: أخا.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ٣٥٩/١.

وهذا الإيراد المأخوذ على ابن فارس لا يمنع من القول: أنّ الغالب في الاستعمال القرآني دلالة (الإخوة) على أُخوّة النسَب، عدا ما في سورة الحجرات الدالّة على أُخوّة الدين، ودلالة (الإخوان) على أُخوّة الصداقة، عدا ما في سورة النور وغيرها الدالّة على أُخوّة النسب.

أما استعمال (إخوة) في رابطة الدين لا رابطة النسب في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] والخروج فيه على الاستعمال القرآني المألوف لهذه الصيغة، فيمكن أن يقف وراء ذلك «إبراز القرآن لقوة العلاقة التي تربط المؤمن بأخيه، والتي يجب أن يكون لها من الحمية وصدق المودة ما يكون للأخوّة من النسب، وهذا هو السِّرّ في إيثار اللفظ الدال على أقوى روابط الأُخُوّة. والمقام الذي استدعاه هو مقام الحثّ على وقف نزيف الدماء بين المؤمنين , وإزالة أسباب العداء، فلما كان العربي حريصاً على دم أخيه من النسب، مِمّا يدفعه إلى بذل نفسه حمايةً له أو ثأراً من قاتله، فقد أراد القرآن بهذا اللفظ استنفار المؤمن، واستثارة دوافع حرصه الفطري على حقن دم أخيه من النسب، في مواجهة ما يعرض للمؤمنين من خصومات تصل إلى إراقة الدماء، حتى يهبّ بكل قواه للصلح بين المتقاتلين»[(١)].

وأما الخروج على الغالب من استعمال (إخوان) للصداقة، وخروجه في موارد قليلة دالاً على أخي النسب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، فإنّ الاستعمال القرآني أَبى إلا أن يتوخّى أقصى درجات الدقة عند تفصيله لآيات الأحكام وتبيينها، لكي لا يترك مجالاً

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ١٨١.

للإبهام، فلفظ (أخوَة) يُفيد عموم الأبناء ذكوراً وإناثاً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] «أي: إخوان وأخَوات»[١]، فحيث أُريد من النص تعيين جنس الذكور من الإخوة عَمَد الاسلوب القرآني إلى استعمال لفظ (إخوان) الخاص بالذكور، والذي يُقابله (أخَوات) الخاص بالإناث، وذلك بدلاً من استعمال (إخوة) الذي يمكن أن يوهم استعماله شُموله للجنسين؛ الذكور والإناث معاً.

فالإطّراد في القرآن وضع كلاً من الإخوَة والإخوان في موضعه الذي خصَّصه الاستعمال، ولم يتمّ العدول عن ذلك إلاّ حيث كان هناك غرضٌ يتعلّق بوضع الصيغة موضع الأخرى على سبيل التجوّز. أما العلّة في تخصيص كلٍّ من هاتين الصيغتين باستعمالٍ خاص فيمكن القول بأنّ «اختصاص الأخ المجازي بزيادة المد بالألف يتناسب مع بُعد الرابطة، وكأنّ هذا المدّ الزائد بما يستغرقه من إطالة زمن النطق يُشير إلى مسافة أبعد في رابطة الأخوّة، وبقيت (الإخوة) بقلّة حروفها، وقِصَر زمن النطق بها، رمزاً لقرب الصلة المتمثلة في رابطة النسب»[٢].

وكذلك فإنّ لفظ إخوان بما فيه من صوت المد المختوم بصوت النون المشعر بالإطمئنان والسكينة يتناسب مع أُنس الأصدقاء، واطمئنان بعضهم إلى البعض الآخَر، فيطول بينهم الحديث والسَّمَر، وهي صفة من صفات أصحاب الجنة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وفي هذه الآية أُضيف مَدٌّ آخَر إلى المد الأصليّ، وهو المدُّ الناشيء عن الحركة الإعرابية

(١) المفردات في غريب القرآن: ٢٢.

(٢) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ١٨١.

فجاء مَدّاً الألف تأكيداً على امتداد العلاقة وسُمُوِّها بين أصحاب أهل الجنة. والله أعلم.

٥. ٢. ١. ٤. ٢. ٢. ٣ ـ (أسارى) و (أسرى)

يُجمع أسير على أسرى وأسارى و أُسارى وأُسراء (لسان العرب: /مادة: أسر)، وإن كان القياس في (فَعيل) أن يُجمع على (فَعلَى)، وقد ورد في كتاب الله على القياس؛ (فَعلَى) أي: (أسرى)، وعلى صيغة (فُعالى) أي: (أُسارَى)، وذلك حملاً للأسير على الكسلان، وتشبيهاً لأُسارى بكسالى[1]، وبيان ذلك أنّ «فعيل بمعنى مفعول، الأصل فيه أن يُجمع على فعلى، كقتلَى وجرحَى، والأصل في فعلان أن يُجمع على فَعالَى بفتح الفاء، وفُعالَى بضمّها، كسكران وسُكارَى، وكسلان و كُسالَى.

قال سيبويه: فقالوا في جمع كسلان: كسلَى، شبّهوه بأسرى كما قالوا: أسارَى شبّهوه بكُسالَى، ووجه الشبه أنّ الأسر يدخل على المرء مكرَهاً كما يدخل الكسل، وفعال إنما يجيء فيما كان آفةً تدخل على المرء»[2].

فكلٌّ من الأسر والكسل آفة تُصيب الإنسان فتشلّ حركته، وتمنعه من ممارسة نشاطه الطبيعي، أما سبب استعارة صيغة (فُعالَى) في الاستعمال القرآني إضافة إلى صيغة (فَعلى) فعائد إلى الخصوصية الصوتية التي تتمتع بها (أسارى) والتي ناسبت الموضع الذي وردت فيه، فما في هذه الصيغة «من زيادة المعنى بحرف المد الزائد يُجسِّد أمامك شدّة الأسر وعنفه، كما أنّ زيادة المد في كسالى ترك إغراقاً في الكسل، وتمادياً

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/٣٣.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/٣٤٣.

في التثاؤب والتمطّي»[(١)].

وقد تنبّه أبو عمرو بن العلاء إلى هذا الفرق في المعنى بين أسرى و أسارى ونقله لنا صاحب تفسير البحر المحيط بقوله: «الأسرى من في اليد، والأسارى من في الوثاق»[(٢)] فزيادة مَدّ الألف في (أسارى) تعني زيادة معاناة الأسير، فالذي يَرسُف في أغلاله لا يُمكن أن يُقارَن بِمن لا يُقيِّده وثاق أو قيد وهم الأسرى. ويُؤيد هذا الإختلاف بين معنى (الأسرى) ومعنى (الأسارى) قول بعضهم «إنّ معنى الأسرى استئسار القوم بغير أسر من المستأسر لهم، وإنّ معنى الأسارى معنى مصير القوم المأسورين في أيدي الآسرين بأسْرِهم وأخذِهم قهراً وغلبةً»[(٣)].

ومن هنا جاء الاستعمال القرآني مُفرِّقاً بين هذين الجمعين، واضعاً كلاً في موضعه الذي يُناسبه، حيث وردت صيغة (الأسرى) مرّتين، وذلك في أسرى الكافرين مِمّن في أيدي النبي والمسلمين في الآيتين التاليتين:

ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠].

ـ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وفي الآيتين تلميح إلى المعاملة الحسنة التي يُوليها المسلمون لأسراهم، فأسرى الكافرين لدى المسلمين لا يُقيّدون بقيد أو وثاق، ولا يُساء إليهم، بل لقد شجّع الإسلام على الإحسان إليهم، والتقرب إلى الله بإكرامهم وإطعامهم، كما جاء في

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ١٨٤.

(٢) البحر المحيط: ١/٢٨١.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١/٤٠٠.

سورة الإنسان: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾.

أمّا لفظ (أُسارى) فقد ورد مرّةً واحدة فيمن يقع في أسر بني إسرائيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ ﴾ [البقرة: ٨٥]. نزلت في اليهود من بني قريظة وبني النظير اللّذَين افترَقا وتقاتلا وتظاهرا على بعضهم بالإثم والعدوان، فنزل فيهم قوله تعالى «يوبِّخُهم بذلك ويعرِّفهم به قبيحَ أفعالهم التي كانوا يفعلونها»[1].

وبذلك خَصَّصَ الاستعمال القرآني لمن يقع من المشركين في أسر المسلمين لفظ (أسرى)، وهو مكوّن من مقطعين هما: (أسْ / رَى)؛ أوّلهما مغلق والثاني مفتوح بِمَد الألف، في حين خَصّصَ لمن يقع في أسر اليهود لفظ (أُسارى)، وهو مُكوّن من ثلاثة مقاطع هي: (أُ / سَا / رَى)؛ أوّلها قصير والأخيرين مفتوحين بِمَدَّي الألف. وقد ناسب الأوّل بقِصَره وخِفَّته خِفَّةَ معاناة الأسرى لدى المسلمين، بينما ناسب الثاني بطوله وشِدّته شِدّةَ معاناة المأسورين لدى اليهود.

يُضاف إلى ذلك إنّ ما ينتج عن المَدّين في آخر (أُسَارَى) من إطالة الصّوت وامتداده يُناسب تَماماً أنين المعَبَّر عنهم، وهم يَئِنُّون تحت وَطأة الظلم والعدوان من قبل اليهود، وهم الذين خاطبهم الله في الآية ذاتها، ووعدهم جزاءً على فعلتهم تلك بالخزي في الدنيا وأشدّ العذاب في الآخرة بقوله: ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ٨٥].

---

(١) م، ن: ١/ ٣٩٨.

٥. ٢. ١. ٤. ٢. ٢. ٤ ـ (عيون) و (أعين)

الأصل في كلمة (العين) أن تكون لحاسّة البصر والرؤية، وتخرج كذلك لِمعانٍ أخرى مجازيةٍ، منها إطلاقها على يَنبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري. وتُجمع (عين) لكلٍّ من العين الباصرة وعين الماء، على (عيون) وهو الكثير، وعلى (أعين)، ويستوي استعمال هذين الجمعين من الناحية الدلالية عند العرب[1].

وقد ورد لفظ (عين) في القرآن الكريم مفرداً بالمعنيين المذكورين، فمن أمثلة العين الباصرة قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣]، ومن أمثلة عين الماء قوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢]. وكذلك ورد الجمعان (عيون) و (أعين)، إلاّ أنّ الاستعمال القرآني فَرّق بينهما في التعبير، رغم تساوي دلالتيهما عند العرب، فلفظ (عيون) اختصّ بالدلالة على عيون الماء الجارية، و لفظ (أعين) اختصّ بالدلالة على الأعين المبصرة.

وقد وردت (عيون) عشر مرّات في الذكر الحكيم كلّها تعني (عيون الماء)، وذلك في الكلام على الجنّة ونعيمها، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]، وقد وردت (أعين) اثنتين وعشرين مرّةً[2]، تعني جميعها حاسّة البصر عند الإنسان، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]. ويمكن القول «إنّ هذا التوزيع في اختيار أبنية الجمع لاختلاف الدلالة شيءٌ من خصائص هذه اللغة الكريمة مِمّا لا نعرفه في النصوص الأخرى»[3].

ولَما فُرِّقَ بين (العيون) و (الأعين) في الاستعمال القرآني، فاختصَّ كلٌّ بمدلول

---

(١) لسان العرب: مادة: عين.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

(٣) من وحي القرآن: ١٢٥.

خاصٍّ، ومن ثَمَّ اطّرَدَ هذا الاستعمال دون أن يكون مألوفاً في العرف اللغوي عند العرب، فقد كان لابد من البحث عن سبب يُبَرِّرُ هذا التوجُّه القرآني في استعمال هذين اللفظين، وليس أمام الاستدلال العلمي في تبرير هذا التوجُّه سوى الأصوات التي يشتمل عليها هذان الجمعان.

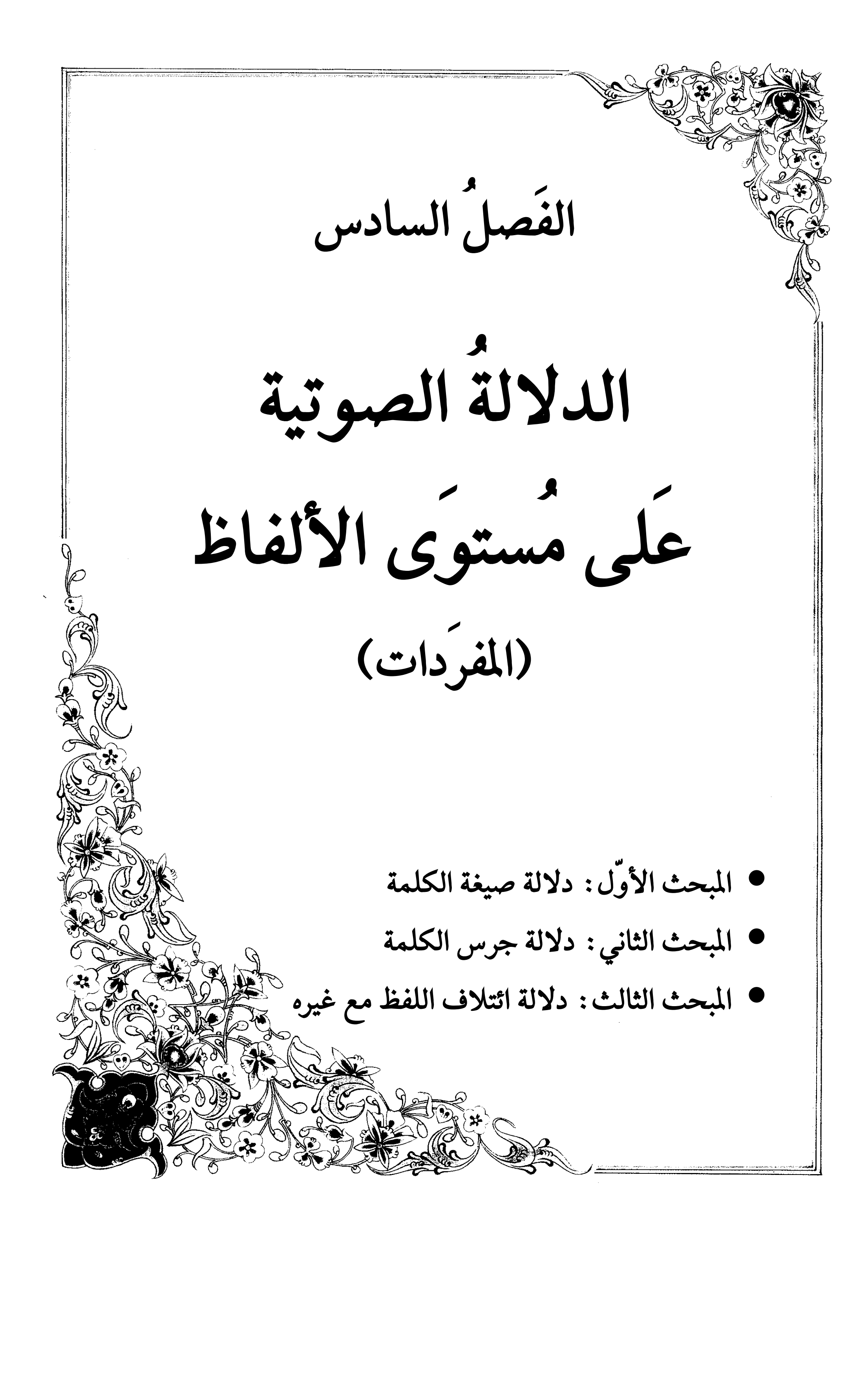
وما يُلاحَظ هو اشتمال (عيون)، المستعملة في عيون الماء الجارية، على صوت المدّ الواوي المسبوق بحركة الضّمّ القصيرة المستندة إلى صوت الياء، وجريان النفَس بهذا الصوت الممتد في (عيون) يُناسب جريان الماء المتواصل من العيون والينابيع. وقد جاء «في الحديث: (خَيرُ المال عينٌ ساهرة لِعينٍ نائمة) أراد: عين الماء التي تجري ولا تنقطع ليلاً ونهاراً، وعين صاحبها نائمة فجعل السّهر مثلا لجريها»[1]. فعين الماء يَمتد بها جريانها، فلذلك اختير لها هذا اللّفظ الذي يمتد معه جريان النفس، أمّا عين الإنسان فلا يَمتد بها إبصارها، ليلاً ونهاراً لذلك اختير لها لفظ (أعين) الخالية من حرف مَدّ.

وهناك تناسب هندسي بين لفظ (أعين) وبين عيني الإنسان اللّتين يُبصِرُ بهما، وهو أنّ هذا اللفظ يتكوّن من مَقطَعَين مُتَماثِلَين مُتَساوِيَين مُغلَقَين هما: (أَعْـ / يُـنْ) وهذا التساوي في مقطَعَي (أعين) يُناسب خلق الإنسان في أحسن تقويم بعينين متساويتين متماثلتين، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ [البلد: ٨]. أما لفظ (عُيون) فيتكون من مقطعين أيضاً، إلاّ أنهما مقطعان متباينان أشد التباين، هما: (عُـ / يُونْ)، فالأول: قصير مفتوح، والثاني: طويل مُغلَق بصامت، والأول يتناسب مع حالَة تدفق الماء السريع، والثاني يتناسب مع جريان ذلك الماء وامتداده.

---

(١) لسان العرب: مادة: عين.

وبعد الوقوف على هذا الإعجاز الصوتي لابد أن يُقال لأولئك الذين عَمو عن آيات الله بأنهم كالأَنْعامِ بَل هُم أضَلُّ، مادامت﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾[الأعراف: ١٧٩].



الفَصلُ السادس

الدلالةُ الصوتية عَلى مُستوَى الألفاظ

(المفرَدات)

- المبحث الأوّل: دلالة صيغة الكلمة
- المبحث الثاني: دلالة جرس الكلمة
- المبحث الثالث: دلالة ائتلاف اللفظ مع غيره

الفصل السادس
الدّلالةُ الصّوتية عَلى مُستوَى الألفاظ
(المفرَدات)

تمهيد

يتناول هذا الفصل الدلالة الصوتية انطلاقاً من اللّفظ القرآنيّ الذي يحتضن الفونيمات الصوتية التي تَمَّ تناولها في الفصول السابقة، حيث سَتُدرَسُ المفردة القرآنية كمُمَيِّز صَوتيّ مستقلّ، وذلك بالنظر إلى بنيتها المقطعية والتركيبية والصرفية، وغيرها من العوامل المؤثرة فيها صوتياً مِمّا يمنَح الكلمة ذائقةً سَمعيةً مُتَفرِّدة تجعلها تختلف عَمّا سواها من الكلمات التي تؤدي نفس المعنى. وهذه الاستقلالية الصوتية تتجلّى «إما في الصدى المؤثِّر، وإما في البعد الصوتي الخاص، وإما بتكثيف المعنى بزيادة المبنى، وإما بإقبال العاطفة، وإما بزيادة التوَقُّع، فهي حيناً تَصُكُّ السّمع، وحيناً تُهَيِّئ النفس، وحيناً تُضفي صيغة التأَثُّر؛ فَزَعاً من شيء أو توجُّهاً لشيء، أو طمعاً في شيء، وهكذا»[1]. ذلك أنّ المفردة القرآنية تمتاز بثلاث مَيِّزات رئيسية هي:

١ـ جمال وقعها في السمع.

(١) الصوت اللغوي في القرآن: ١٦٤.

٢ـ اتساقها الكامل مع المعنى.

٣ـ اتساع دلالتها لِما لا تتَّسع له عادةً دلالات الكلمات الأخرى.

وقد نجد بعض هـذه الميزات الثلاثـة في أسـاليب كبـار الأدبـاء والشـعراء كالجـاحظ والمتنبي وغيرهمـا، أمّـا أن تجتمـع كلُّهـا معـاً، وبصـورة مطّـردة لا تتخلَّـف ولا تَشـذّ، فذلك مِمّا لم يتوافر إلاّ في كتاب الله[1]. ويمكن استشراف هذه الميزات الثلاثة من خلال عنصرَين أساسيّين تقوم عليهما الكلمة القرآنية هما: الصيغة الـتي تنتظمهـا، والجـرس الذي تَشِفُّ عنه، وكلّ ما يترتّب على هذين العنصرين من أبعاد صوتية ودلالية. وعلى الرغم من كونهما كثيراً مـا يجتمعـان في لفـظ واحـد، إلاّ إنّـه أُفـرِدَ مبحـث خـاصٌّ لكـلٍّ منهما، حتى تَتَحَدَّد أبعاده و تتبيّن ملامحه بصورة أجلى وأظهر.

---

(١) من روائع القرآن: ١٤٢.

المبحث الأوّل

٦ . ١ ـ دلالة صيغة الكلمة

كثيراً ما تنبري صِيَغ الكلمات وتراكيبها ـ بِما تَحمله من قوالب صوتية مُميّزة ـ للتعبير عن معانٍ خاصّة مشتركة في دلالتها العامّة، فإذا ما طَرأ أدنى تغيير عليها تَغَيَّرت دلالتها تلك، منصرفةً للتعبير عن معانٍ أخرى، قد لا تكون جديدة، ولكنها تحمل سِمات دلالية متفاوتة.

ومن هذه الصِّيغ ما وُضِعَ أساساً في اللّغة للتعبير عن دلالة مُعيّنة، كصيغة اسم الفاعل للدلالة على القائم بالفعل، وكصيغة اسم المفعول للدلالة على من يَقَع عليه الفعل، وكصِيَغ المبالغة التي وُضِعَت لتقوية المعنى والمبالغة فيه، وغير ذلك مِمّا تَتَبَّعه النحويون والصرفيون، فأفاضوا في تبيينه.

ولَمّا كان القرآن قد نزل باللغة العربية، فقد جاءت صيغ ألفاظه وفقاً لِما وُضِعَت له عند أصحابها. لكنّ هناك صيغاً انتقاها الاستعمال القرآني للتعبير عن مدلول خاصّ في سياق خاصّ، وذلك بسبب مناسبة هذه الصيغة أو تلك من الناحية الصوتية والإيقاعية لِما انتُدبَت له، فجاء التعبير القرآني بديعاً متفرِّداً.

٦ . ١ . ١ ـ دلالة الصيغة الوضعية

يحرص الاستعمال القرآني على اختيار الصيغة المألوفة في العرف اللّغوي فَيُوظِّفها للمعنى المطلوب توظيفاً دقيقاً بحيث لا يَسُدُّ مَسَدَّها صيغة أخرى، وإن اتّحدت معها في الدلالة على الظاهر. وأحياناً يَعدِل عن صيغة متعارَفَة إلى أخرى لنفس السبب، وفي

كِلا الحالَين فإنّ الصّوت الذي يَحكم كلَّ صيغة، هو الذي يُحدِّد ملامِحَها الدلالية فيُميِّزها عن غيرها.

٦. ١. ١. ١. ١ ـ دلالة اختيار صيغة دون أخرى

اتّبع العرب طرائق متعددة لتقوية معاني المفردات أو للمبالغة فيها، منتهجين في ذلك مبدأ «الزيادة في البناء لزيادة المعاني»[1]. فعندما تُضاف إلى الصيغة الأصلية فونيمات صوتية جديدة ينضاف إلى دلالتها معانٍ جديدة، كما في (كاذب) عندما تتحوّل إلى (كذّاب) و (كذوب)، و(عالم) عندما تتحوّل إلى (عَلاّم) و (عَليم) و (عَلاّمة) وغيرها. و قد جاءت العبارة القرآنية دقيقةً في اختيار صيغةٍ ما دون غيرها، فوُزِنَ كلُّ شيءٍ فيها بميزان لا ينقص منه شيءٌ ولا يزيد.

٦. ١. ١. ١. ١. ١ ـ صيغة (فَعَلَ) و (افتَعَلَ)

تُستعمَل صيغة (فَعَل) أكثر من أي صيغة أخرى في العربية، للدلالة على القيام بفعلٍ ما بصورة طبيعية، دون أن يكون لهذا الفعل ما يُميِّزه من تأكيد أو مبالغة، ولكن بإضافة أصوات أخرى إلى هذه الصيغة تتغيّر دلالتها، كما هو الحال عند إضافة صوتَي الألف والتاء إليها فتصير (افتَعَلَ)، وتأتي هذه الصيغة الجديدة للتعبير عن أغراضٍ و معانٍ عِدّة منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] حيث تَمّ استعمال صيغة ﴿كَسَبَتْ﴾ لفعل الخير، وهي الصيغة الأصلية والأكثر استعمالاً وشيوعاً، في حين اختيرت صيغة ﴿ٱكْتَسَبَتْ﴾ للدلالة على فعل الشّر.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/ ٦.

وقد أفادت صيغة (افتَعَلَ) في هذه الآية عدّة معاني ناسبت السياق منها: التصرُّف والطلب و الاجتهاد، قال سيبويه: «وأمّا كسبَ فإنه يقول أصابَ، وأما اكتسبَ فهو التصرُّف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب»[1]. و هذه المعاني تناسب التعبير عن النزوع إلى الشّر لاكتساب المعصية، لما فيه من مخالفة للفطرة السليمة والخروج على الأعراف السائدة، وهذان مِمّا لا يسهل الخروج عليهما، ولا يُتحَصّلان إلا بالطلَب والاضطراب. وقد ذكر بعضهم أنّ «اكتَسَبَ افتَعَلَ يدلُّ على شدّة الكلفة وفعل السيئة شديد لما يؤول إليه»[2].

وقد أشار الزمخشري إلى سبب تخصيص الخير بالكسب والشّر بالاكتساب بقوله: «في الاكتساب اعتمال، فلما كان الشّر مِمّا تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمّارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجَدّ، فجُعِلَت لذلك مكتسَبةً فيه. ولَمّا لم تكن كذلك في باب الخير وُصفَت بِما لا دلالة فيه على الاعتمال»[3]. ومن هنا عَدَّ آخَرون هذا الاستعمال القرآني من لطف الله ورحمته، لأنّه «جعل الثواب على أدنى ملابسة للطاعة، فلهذا أتَى فيه بالثلاثي المجرّد، وجعَلَ العقاب على مزاولة عظيمة للفعل وعلاج، فلهذا خَصّه ببناء المبالغة بالزيادة على الثلاثي»[4].

والذي يبدو من خلال تَقَصِّي استعمال هاتين الصيغتين في القرآن أنّ صيغةَ (كَسَبَ) قد جاءت بمعنى (اكتسب) ؛ أي إنها تضمّنَت معنى الخير والشرّ معاً، أو الشّر وحده، في غير هذه الآية، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]

(١) الكتاب: ٢٨٨/٢.

(٢) التبيان في اعراب القران للعكبري: ١٢٢/١.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٣٣٢/١.

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٨٧/٢.

و قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: ٨١]. إلاّ أنّ صيغة (اكتسب) انفردت للتعبير عن فعل الشر فقط. بمعنى أنّ القرآن لم يُعبِّر عن معنى كَسْبِ الطاعة إلاّ بصيغة (فَعَلَ)، أما في المعصية فقد عبّر بـ (فَعَلَ) و (افتَعَلَ)؛ ذلك أنّ من المعاصي ما يحتاج إلى اعتمال وتكلّف واجتهاد، ومنها ما لا يحتاج إلى ذلك. ويُمكن تبرير ذلك بحمل الفعل المجرد (كَسَبَ) في حقّ العاصي على معنى إلفِه لارتكاب المعاصي فلم يَعُد يتكلَّفَها[1].

أما المواضع التي ورد فيها الفعل (اكتَسَبَ) فأربعة؛ اثنان منها في آية واحدة تتحدّث عن اكتساب المال، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢]. أمّا الموضعان الآخَران فأحدهما قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ [النور: ١١] والثاني الآية التي نحن بصددها من سورة البقرة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾. ومن البديهي إنّ اكتساب المال والإثم والشَّر أمور تتطلّب اجتهاداً وكلفةً واضطراباً. ومن هنا جاء الاستعمال القرآني في غاية الدقّة في وضع كلِّ صيغة في موضعها في الآية الأخيرة حين «أتى بلفظ الاكتساب المشعِر بالكلفة والمبالغة في جانب السّيِّئة لثقلها»[2].

وفي مقابل اختيار صيغة (افتَعَلَ) للفعل الذي يتطلّب جهداً وتكلُّفاً واضطراباً، تَمَّ اختيار صيغة (فَعَلَ) لما لا يتطلّب ذلك، لأنّ في (اكتَسَبَ) زيادة بناء وزيادة مقاطع على ما في (كَسَبَ)؛ فالبناء في زيادة الهمزة والتاء، والمقاطع في اشتماله على مقطع (طويل مغلَق) في أوّله (اكْ). فناسبَت زيادة الحروف والمقاطع واضطرابها زيادة الفعل

(١) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: ١٣١.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ٣٨٩.

واضطرابه. وبناءً على ذلك فإنّ المدّة الزمنية التي يتطلّبها النطق بـ (اكتَسَبَ) تفوق المدّة الزمنية التي يتطلّبها النطق بـ (كَسَبَ)، وهذا ما يُناسب استغراق كلٍّ من فعلَي الشّر والخير، فإنّ الشر يُشتَرَط في تَحقُّقه ارتكاب الفعل حقيقةً، وهذا يتطلّبُ زمناً مُعيّناً، أما كَسْب الخير فيتحَقّق بمجرد انعقاد النيّة في القلب، و إن لم يتحقّق الفعل في الواقع، وهذا ما قد لا يستغرق زمناً إطلاقاً. وقد رُويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «نِيّةُ المؤمن خَيرٌ مِن عَمَلِه»[١]. وقال أيضاً: «إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لامرِئٍ ما نَوَى»[٢].

ويُمكن ملاحظة تناسبٍ آخَرَ بين جملَتَي: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ اللّتين وردت فيهما هاتان الصيغتان ؛ فقد جاء الفعل ﴿كَسَبَتْ﴾ مسبوقاً بحرف الجر (لـ) وهو عبارة عن صوت مفرد، ذي مقطع واحد، ينتمي إلى الأصوات المائعة المرقّقة. في حين جاء في مقابله الفعل ﴿ٱكْتَسَبَتْ﴾ مسبوقاً بحرف الجر (علَى) المكوّن من مقطعَين، والمشتمل على ثلاثة أصوات، أوّلها صوت العين الحلقي المجهور، وبذلك ناسبَ كلُّ حرف جرٍّ فعلَه من ثلاث جهات: من حيث لين الأصوات وشدّتها، ومن حيث سهولة الأداء وثقله، ومن حيث عدد المقاطع. فجاء التركيب في كلٍّ منهما مناسباً للمعنى إضافةً إلى مناسبة كلِّ صيغةٍ لمعناها.

وأخيراً فإنّ ألف المدّ في ﴿مَا﴾ الموصولة السابقة لـ ﴿كَسَبَتْ﴾ تأخذ حقّها الطبيعي من التلاوة، فتُمَدُّ مَدّاً طبيعيّاً بِمقدار حركتين، لا ينقص منها شيءٌ، أما ألف المدّ في ﴿مَا﴾ الموصولة السابقة لـ ﴿ٱكْتَسَبَتْ﴾ فإنّها تُلغى من التلاوة تماماً لمجيء همزة الوصل تاليةً لها، و بذلك تُلفَظ ﴿مَا﴾ الأولى كما هو حقُّها إعظاماً لشأن الخير،

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٦١/١.

(٢) سنن البيهقي الكبرى: ٤١/١.

وتُلغَى الثانية من التلاوة تقليلاً من شأن الشّر، و صوناً للّسان عن ذكر ما هو عائد عليه.

٦ .١ .١ .١ .١ .٢ ـ صيغة (فَعَّلَ) و (أفعَلَ)

ورد استعمال صيغتَي فَعَّلَ و أفعَلَ مثل نَجّى وأنجى، وأنزَلَ و نَزَّلَ، وأوصَى و وَصَّى، في القرآن الكريم بمعنًى واحدٍ على ما يبدو للوهلة الأولى، إلاّ أنّ تَتَبُّع هاتين الصيغتين للأصل الواحد يوقفنا على فروق دلالية دقيقة بينهما يُبَيِّنها السياق.

فصيغة (فَعَّل) تدل على معانٍ عديدة أهمها وأكثرها تردُّداً معنى التكثير[1] ومعنى المبالغة[2] نحو: (غلَّق) كما في قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣]. ونحو (فَجَّرَ) كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء]، فقد جاء في الينبوع ﴿تَفْجُرَ﴾ بالتخفيف، وجاء في الأنهار ﴿فَتُفَجِّرَ﴾ بالتضعيف للتكثير. ونحو (قَطَّعَ) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣١] للمبالغة.

ومعنى التكثير والمبالغة في صيغة (فَعَّل) مستمَدٌّ في حقيقته من تكرار صوت عين الفعل بسبب التضعيف، وهذا يَعني تكرُّر هذا الصوت في مقطعَين من أصل الفعل (فَعْ / عَ / لَ)، هما ؛ نهاية المقطع الأوّل (فَعْ)، وبداية المقطع الثاني (عَ). وهذا التكرار هو الذي ينقل إلى الذهن دلالة التكثير والمبالغة في الحدث. فإنّ «من مقتَضيات التكثير والمبالغة في الحدث، استغراق وقتٍ أطولَ وأنّه يُفيدُ تَلَبُّثاً ومُكثاً»[3]. وهذه المعاني غير

(١) شرح ابن عقيل: ٢٦٣/٤.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٤٩٣.

(٣) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٦٢.

متوفرة في صيغة (أفعَلَ) التي تفيد التعدية غالباً، وقد تخرج إلى معانٍ أخرى[١].

ومن الاستعمال القرآني لهاتين الصيغتين في الأصل الواحد **(أكرَمَ)** و **(كَرَّمَ)**، حيث استُعمِل (أكرَم) بمعنى الإكرام بالمال، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، وقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، في حين استُعمِلَ (كَرَّمَ) لِما هو أبلَغ وأدوَم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. ومثله ما جاء على لسان إبليس في: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، فهذا تكريم على وجه العموم والدوام، وهو أبلغ من إكرام الإنسان واليتيم بالمال قطعاً.

ومنه استعمال **(وَصَّى)** و**(أوصَى)** حيث خصّ استعمال (وَصَّى) بالأمور المعنوية في الأحد عشرَ موضعاً التي وردت في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: ٨]. وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. في حين خصّ استعمال (أوصَى) في الأمور المادية، في جميع المواضع التي وردت فيها، كما في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] إلاّ في قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] وذلك لاقتران الصلاة بالزكاة[٢]. وبذلك جاءت الصيغة الأقوى، بسبب ما فيها من التشديد، للأمر الأقوَى والأهمّ.

---

(١) شرح ابن عقيل: ٤/٢٦٣.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٦٢.

ومنه استعمال **(نزَّلَ)** و **(أنزلَ)** اللّذين اجتمعا في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ ﴾ [النساء: ١٣٦]. وفي قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣]

فقد خصّ ﴿نَزَّلَ﴾ بالقرآن، وخصّ ﴿أَنزَلَ﴾ بكلّ كتابٍ أنزل على النبيين[١]. والسبب في ذلك «أنّ لفظ (نَزَّلَ) يقتضي التكرار لأجل التضعيف. تقول: (ضَرَبَ) مُخَفَّفاً لِمَن وقع منه ذلك مرّةً واحدةً، ويحتمل الزيادة. والتقليل أنسَبُ وأقوى. أما إذا قلنا: (ضَرَّبَ) بتشديد الراء، فلا يُقال إلاّ لِمَن كَثُرَ ذلك منه. فقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ يُشير إلى تفصيل المُنَزَّل وتنجيمه بحسب الدواعي، وأنّه لَم ينزل دفعةً واحدةً.

أما لفظ (أنزَلَ) فلا يُعطي ذلك إعطاء (نَزَّلَ) وإن كان مُحتَمَلاً. وكذلك جرَى أحوال هذه الكتب في وقتٍ واحد... أمّا الكتاب العزيز، فَنَزَلَ مُقسَّطاً من لدنِ ابتداء الوحي»[٢]. و أما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١] فيعني به: إنزاله من اللَّوح المحفوظ إلى السّماء الدنيا قبل التنجيم[٣].

فإذا كان استعمال (نَزَّلَ) قد أفاد معنى التدرُّج والتكثير، فأنه أفاد كذلك معنى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤١٥/٥.

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: ١٤١/١.

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٤٩٣.

الإهتمام والمبالغة[١]. لأنّ القرآن هو أهم الكتب السماوية وأعظمها شأناً، وقد ناسَبَ الثِّقَل الموجود في هذه الصيغة ثِقَلَ الآيات التي كانت تُلقَى على النبيّ ﷺ في كلّ مرّة، كما جاء ذلك في أوّل نزول الوحي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

٦. ١. ١. ١. ٣ ـ صيغة (فَعَلَ) و (أفعَلَ)

استعملت هاتان الصيغتان في أصل لغويٍّ واحد، بصيغة الماضي، في فعلَي: (سَقَى) و (أسقَى)، وهما لغتان عند العرب، يُقال: «سَقاهُ اللّهُ الغيثَ أَسْقاهُ، وقد جَمَعَهما لَبيدٌ في قوله:

سَقَى قَوْمي بني مَجْدٍ وأَسْقى نُمَيْراً والقبائِلَ من هِلال»[٢]

وإذا كانت العرب تتصرّف في استعمال إحدى هاتين الصيغتَين مكان الأخرى، دون تمييز أو تفريق، فإنّ الاستعمال القرآني فرّقَ فيما بينهما؛ فخَصّ (سَقَى) بشراب الجنة، و(أسقَى) بشراب الدنيا. وقد أشار السيوطي إلى ذلك بقوله: فأمّا «الفرق بين (سَقَى) و(أسقَى) فإنّ (سَقَى) لما لا كُلفةَ معه في السُّقيا؛ ولذا أوردَه تعالَى في شَراب الجنّة، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. و(أسقَى) لما فيه كُلفة؛ ولهذا أورده في شراب أهل الدنيا، فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسَلات: ٢٧]. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]. لأنّ السّقيَ في الدنيا لا يَخلو من كُلفة أبداً»[٣].

وهذه الكلفة التي في صيغة (أسقَى) متأتّية من شيئين: أحدهما: من مقاطعها

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٦٤.

(٢) لسان العرب: مادة: سقي.

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ٢٥٠.

الصوتية؛ فهي مكوّنة من مقطَعَين: طويل مغلَق (أَسْـ)، وطويل مفتوح (قَـى). والثاني: من تصدُّره بالهمزة، وهو صوت حنجريّ قويّ «من أشَقِّ الحروف وأعسرها حين النطق»[1]، وذلك على الرغم من كونه حرف مزيد في هذه الصيغة. أمّا صيغة (سَقَى) فإنها تخلو من هذا الصّوت. كما أنّ المقطع الأوّل منها قصير مفتوح (سَـ) وهو أخَفّ نُطقاً من الطويل المغلَق (أَسْـ) الذي في (أسْقَى).

٦. ١. ١. ٢ ـ دلالة العدول عن صيغة إلى أخرى

يُقصَد بمصطلح العدول تجاوز استعمال لفظٍ ما، يستدعيه العرف اللّغوي أو الاستخدام الشائع للألفاظ، والعدول عنه إلى استعمال لفظٍ آخَر غيره، يستدعيه المستوى الفني المنسجم مع الغرض الدلالي. فمصطلح الاختيار يشترك مع مصطلح العُدول في كونهما انتقاء للفظٍ وترجيح له على غيره، ولكنه يَتميّز عنه في عدم خروجه على العرف أو المألوف اللّغوي.

وقد عُبِّر عن مصطلح العدول في التراث العربي بألفاظ عديدة منها: النقل، والتحريف، والإنصراف، ومخالفة مقتضى الظاهر، والحمل على المعنى، والترك، ونقض العادة، وغير ذلك[2]. أما في الدراسات الحديثة فقد عُبِّرَ عنه بمصطلحات أخرى، منها: الإنحراف، والإنزياح، والتجاوز، والمخالفة، وخرق السّنن، والإطاحة، والتحريف.. إلخ[3].

وقد اشترط ابن الأثير للعدول، وبيّن مدى أهميته بقوله: «إنّ العدول عن صيغة

---

(١) موسيقى الشعر: ٢٨.

(٢) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: ١٤١.

(٣) الأسلوبية والأسلوب: ٩٤.

من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوعٍ خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلاّ العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطّلع على أسرارهما وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كلِّ كلام فإنه من أشكَل ضروب علم البيان وأدقّها فهماً وأغمضها طريقاً»[1].

وكما تعدّدت الألفاظ المعبِّرة عن مصطلح العدول تتعدّدت كذلك صوره وأقسامه، وسَيُشارُ إلى بعضٍ مِمّا يدخل منها في باب الدلالة الصوتية، أو ما يكون الصّوت فيها سبباً إلى ذلك العدول.

٦. ١. ١. ٢. ١ ـ العدول في المصادر

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٨] أي: «تكذيباً عجيباً يُصِرّون عليه»[2] حيث عُدِلَ فيه عن المصدر (تكذيباً) إلى هذه الصيغة التي تدلّ على المبالغة في الكذب والإصرار عليه.

وهناك مُسوِّغ آخَر للعدول غير المبالغة وهي مناسبة إيقاع الفاصلة، لأنّ آيات سورة النبأ، من الآية السادسة وحتى آخرها، جاءت فواصلها مطلقةً، متحركةَ الرويّ، مردوفةً بِمدّ الألف موصولةً بلين نحو: (حِسَابا) و (كِتَابا) و (عَذَابا)، فإذا جاءت فاصلة هذه الآية (تَكذِيبًا) تغيّرَ الإيقاع لتغيّر الردف من ألف المد إلى ياء المدّ، وهما صوتان متناقضان ؛ فالألف له نغمة صاعدة، والياء له نغمة هابطة.

وكان سيزداد الإحساس باضطراب هذه الفاصلة كون النبر فيها يقع على المقطع الذي قبل الأخير (ذِي) أي: على صوت ياء المدّ، بينما وقع النبر في بقيّة فواصل الآية

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٢/٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٦٧/٢٠.

على المقطع ذاته، ولكن على صوت ألف المدّ، وبذلك يكون قد روعِيَ في العدول عن صيغة (تكذيبا) إلى صيغة ﴿كِذَّابًا﴾ أمران هما: دلالتها المعنوية، ودلالتها الصوتية الإيقاعية.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨] أي: أخلِص له إخلاصاً، وكان يجب أن يقول: (تَبَتُّلاً) لأنّ المراد: اصطفاكَ لنفسه تبتيلاً، فتبتّل أنت أيضاً إليه، وقيل إنما قال: ﴿تَبْتِيلًا﴾ لِيُطابق أواخرَ آيات السورة[1]. وبذلك تَمَّ العدول عن المصدر (تَبَتُّلاً) إلى المصدر ﴿تَبْتِيلًا﴾ مراعاةً للمعنى والإيقاع معاً.

والذي يُلاحَظ بين هاتين الصيغتين أنّ (تَبَتُّلاً) على وزن (التفعُّل) الدالّ على التكلُّف والتحمُّل، فاكتُفيَ بالإتيان «بالتبتُّل في الأمر ليتضمّن معنى التكلُّف والتحَمُّل. والتصَبُّر على المشاقّ مخالفٌ لمألوف النفس... وأتى في المصدر بـ﴿تَبْتِيلًا﴾ وهو على وزن (تفعيل) الدالّ على التكثير ليدلَّ على أنّ المراد هو الإكثار من هذا التبتُّل والإنقطاع»[2]. فالتبتُّل في بادئ الأمر يتطلّب تكلُّفاً و تصبُّراً، ولكن بعد الإكثار منه تعتاده النفس، فيسهل عليها ويرتفع ذلك التكلّف، ولذلك عُدِلَ في المصدر عن صيغة (التَّفَعُّل) الشديدة المضطربة بصوتَي التشديد، إلى صيغة (التفعيل) الانسيابية الهادئة الخالية من التشديد والمشتملة بدلاً من ذلك على صوتَي لين هما: ياء المد وألف الإطلاق، وهذا ما يُناسب الإنقطاع إلى الله والإطمئنان إلى عفوه ورحمته.

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٣٧٧.

(٢) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: ١٦٦.

٦. ١. ١. ٢. ٢ ـ العدول إلى صيغة الفعل

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧] حيث عُدِلَ عن صيغة (فَعِّل) المشدّدة في **(مَهِّلِ)** إلى صيغة (أفعِل) في **(أَمْهِلْ)**. و قوله: «﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: لا تَدْعُ بِهلاكهم ولا تستعجل به. ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ أي: إمهالاً يسيراً»[١].

وذهب ابن جني إلى وجود مخالفتَين في هذه الآية؛ إحداهما في ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ والثانية في ﴿رُوَيْدًۢا﴾ التي عُدِلَ بها عن (إمهالاً)، فهو يقول في قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ﴾ «غَيَّرَ اللفظ لأنه آثَرَ التأكيد، وكَرِهَ التكرير، فلمّا تَجشّمَ إعادةَ اللّفظ انحرَفَ عنه بعض الإنحراف بتغييره المثال، وانتقل عن لفظ فَعَّلَ إلى لفظ أفعَلَ فقال: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ ، ولَمّا تَجَشّمَ التثليث جاء بالمعنى وترك اللّفظ ألبتّة فقال: ﴿رُوَيْدًۢا﴾»[٢]. وابن جني يُبرِّر هذا العدول بِتَحاشي ثِقَل تكرار اللّفظ بعينه.

وقد علّلّ الزمخشري ذلك بالمخالَفة اللّفظية أيضاً بقوله: «وكَرَّرَ وخالَفَ بين اللّفظين لزيادة التسكين منه والتصبير»[٣] إلاّ أنه فَسّره بزيادة تسكين النبيّ ﷺ وتصبيره. وذلك لِما تُشعِرُ به صيغة **(مَهِّلِ)** من طول مدّة التمهيل، لدلالتها على التكثير غالباً[٤]. لذلك عدل عنها إلى صيغة **(أَمْهِلْ)** التي تدل على التعدية غالباً، «فجمَعَ بين التشديد والتخفيف»[٥].

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٧٣٧/٤.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٧١/٥.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٧٣٧/٤.

(٤) شرح ابن عقيل: ٢٦٣/٤.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٣٦/٢٩.

وقد ناسبت الشدّة التي في **(مَهِّلِ)** الموضعَ الذي وردت فيه من الآية ﴿ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ، لأنّ العذاب الذي ينتظر الكافرين شديد مَهين غَليظ ، لقوله تعالى في موضع آخر بهذا الخصوص : ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [آل عمران : ١٧٨]. وقوله أيضاً : ﴿ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ [لقمان : ٢٤]. فاختير اللّفظ الشديد ليناسب شدّة العذاب المعَدّ للكافرين. ثم عُدِلَ عن هذا اللفظ الشديد إلى لفظ آخَر أيسَر منه نُطقاً هو **(أَمْهِلْ)** ، لِيُناسب موضعه من الآية أيضاً ، لأنه مقام تَسكين لقلب النبيّ ﷺ و تصبيرٍ له ، فجاء اللفظ خَفيفاً يسيراً. وبعد كلّ ذلك جِيءَ بـ ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ بمعنى : إمهالاً يسيراً ، منصوباً «على المصدر ، والأصل : إرواداً ، فهو تصغير ترخيم بحذف الزوائد»[١]. فطابق مقامَ التخفيف عن النبيّ ﷺ في لفظه ؛ المصغَّر المرخَّم ، وفي معناه ؛ بِما يوحيه من السَّير على مَهلٍ وتؤدة[٢].

٦. ١. ١. ٣ ـ دلالة التكرار داخل الصيغة (التضعيف)

سبقت الإشارة في الفصل الأول[٣] إلى عبارة ابن جني من أنّ «المصادر الرباعية المضعّفة تأتي للتكرير نحو الزّعزعَة والقَلقَلة والصَلصَلة...»[٤]. وقد ورد عدد من هذه المصادر في القرآن الكريم ، وفي جميعها ما يدلّ على هذا المعنى ، نحو : كُبكِبَ و زُلزِلَ و زُحزِحَ و دَمدَمَ و صَرصَرَ. و الملاحَظ أنّ الألفاظ القرآنية التي جاءت على هذه الصيغة يَتضمّن أغلبها ، إلى جانب معنى التكرير ، معاني أخرى ، مثل معنى الارتكاس

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٨/ ٢٨٠.

(٢) لسان العرب : /مادة : رود.

(٣) يُراجع مبحث : (١. ٥. ١. ٢ ـ إمساس الألفاظ أشباه المعاني).

(٤) الخصائص : ٢/ ١٥٣.

و الشِدّة، ودلالة كلٍّ منها على صوت الحدث الذي تُعبِّر عنه.

٦. ١. ١. ١٣ ـ (كُبْكِبُوا)

وردَ لفظ (كُبْكِبَ) في قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء: ٩٤]. وأصل **(كُبْكِبُوا)** «كُبِبوا، لأنه من كَبَبْتُ الرجلَ على وجهه، إلاّ أنهم استَثقَلوا اجتماع ثلاث باءات فأُبدِلَ من الوسطى كاف»[١]، فهو مأخود من (الكَبّ) وهو القلب، إلاّ أنّ تعليلَ تكرار الباء فيه بالثقل لَم يَرُق البلاغيين وأصحاب الإعجاز، فَردّوه إلى المبالغة[٢]، حيث إنّ لفظ **(كُبْكِبُوا)** «أبلغ من (كُبّوا) للإشارة إلى أنهم يُكبّون كَبّاً عنيفاً فظيعاً»[٣]. ففي تكرار الكَبّ إذن «دلالة على الشِّدّة»[٤]والعنف. ومن هنا كان معنى ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ أي إنهم «دُهدِهوا وطُرِحَ فيها بعضُهم على بعضٍ جَماعةً جَماعةً»[٥].

ولَمّا جاءت هذه الصيغة على البناء للمجهول، ومسندَةً إلى جمع المذكّر الغائب، فقد تَكَرّرَت فيها حركة الضّمّ مَرّتين، وخُتِمَت بواو المدّ، وفي اجتماع حَرَكَتَي الضّم القصيرة والطويلة ما يُشير إلى معنى الضّم و الجمع الذي فُسِّرَ به هذا اللفظ، من طرح الغاوين وكَبِّ بعضِهم على بعض.كما أنّ في الانتقال من حركة الضّم إلى الكسر، ثم إلى حركة الضمّ ثانيةً ما يُوحي بشِّدّة هذا الكّبّ وثِقَله، وذلك بسبب شدّة ثِقَلِ هاتين الحركتين من جهة، واستنادهما إلى صَوتَي الكاف والباء الانفجاريين من جهةٍ ثانية. و بهذا صَوّرت هذه المفرَدة بصيغتها و أصواتها وحركاتها المعنى تصويراً دقيقاً، ونقَلَته إلى

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف، لابن الانباري: ٧٨٨/٢.
(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٨٧/٢.
(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٢٥٠/١.
(٤) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان: ٤٧٤.
(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٩١/٤.

المتلَقِّي صوتاً مسموعاً، كما رسَمَته في ذهنه صورةً تَضجُّ بالحياة والحركة.

٦. ١. ١. ٣. ٢ ـ (زلْزلوا)

ونظير **(كُبْكِبُوا)** في صيغته، وفي بنائه للمجهول، وإسناده إلى جمع المذكر العاقل لفظ **(زُلْزِلُوا)** في قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١] ومصدره الزَّلزَلَة، والزلزلة: شِدّة التحريك[1] وهي مأخوذة من الزَّلل في الرأي فإذا قيل: زُلزِلَ القومُ فمعناه: صُرِفوا عن الاستقامة وأُوقِعَ في قلوبهم الخوفُ والاضطراب، وفي الحديث الشريف (اللّهمَ اهزمِ الأحزابَ زَلزِلْهم) أي: اجعل أمرَهم مضطرباً مُتقَلقِلاً غير ثابت[2].

وقد عَبّرَت هذه الصيغة، بِما فيها من تكرار، عن مدى تَمكُّن الخوف والاضطراب من قلوب المسلمين في يوم الأحزاب ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب: ١٠]. وإذا كان لصوتَي الكاف والباء في **(كُبْكِبُوا)** دورٌ كبير في تصوير ونقل صوت الكَبّ والطرح في نار جهنم بشدّة وعنف، فإنّ لصوتَي الزاي واللاّم في **(زُلْزِلُوا)** دوراً تصويريّاً مهماً أيضاً في تصوير الحدث وتسجيل ملامحه الصوتية.

فصوت الزاي المجهور الصفيري الاحتكاكيّ يُناسب الأصوات العديدة التي تعالت آنذاك من صيحات المنافقين، و إرجافات المرجفين، وحجج الخائفين للفرار من الزحف، وغير ذلك من الأصوات. كما صوّرت ذلك الآيات التالية ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤/٣.

(٢) لسان العرب: مادة: زلل.

يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾. أما صوت اللاّم فقد عَبَّرَ بِلِينِهِ وميوعَته واضطرابه عن ذلك الحذر والإضطرابَ وعدم الثبات في الموقف.

٦.١.١.٣.٣ـ (زحْزِحَ)

ومثل (زُلْزِلُوا) تماماً لفظة ﴿زُحۡزِحَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فإنّ صيغتها المضاعفة، وصوت الزاي مع الحاء، إضافةً إلى ظلِّ هذه الكلمة وجرسها صوّرت مجتمعةً «مشهدَ الإبعاد والتنحية بكلِّ ما يقع في هذا المشهد من أصوات، وما يصحبه من ذُعرِ الذي يَمرّ بِحَسيس النار ويسمعه ويَصلاه، ولو فتّشتَ جميع معاجم اللغة وقواميسها لا تَجدُ كلمةً تُصورِّ هذا المشهد إلاّ كلمة ﴿زُحۡزِحَ﴾»[1].

وقد وردت هذه اللفظة في موضع آخَر بصيغة اسم الفاعل، مجرورة بالباء، ومضافة إلى الضمير المتصل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]، فصوّرت «كلمة ﴿بِمُزَحۡزِحِهِۦ﴾ ـ المقَدَّمة في التعبير على الفاعل لإبرازها ـ صورةَ الزَّحزَحَة المعروفة كاملةً متحرِّكةً، من وراء هذه اللفظة المفردة»[2]، حيث جاءت هذه الكلمة مجرورة بحرف الجر (الباء)، فنَقَلَت حركةَ الجر إلى الضمير العائد على المشرك، فبدت وكأنها تُزَحزِحُهُ دافعةً به نحو العذاب. فجاء التَّضعيف في الصيغة مُساوقاً لسنوات العمر المضاعَفة.

---

(١) الإعجاز في نظم القرآن: ١١٦.

(٢) التصوير الفني في القرآن: ٧٧.

٦ . ١ . ١ . ٣ . ٤ ـ (دَمْدَمَ)

ورد التضعيف بصيغة الفعل الماضي على البناء للمعلوم بلفظ **(دَمْدَمَ)** وفاعله ﴿رَبُّهُم﴾ والضمير المتصل فيه عائد على ثمود قوم صالح، وذلك في قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٤] ومعنى دَمدَمَ مأخوذ من «دَمْدَمْتَ الشّيء إذا أَلْزَقْتَهُ بالأرض وطَحْطَحْتَه. ودَمَّهُمْ يَدُمُّهُمْ دَمّاً: طَحَنَهم فأهلَكَهم»[1]. قال الفرّاء في هذه الآية «دَمْدَمَ أي: أرجَفَ، وحَقيقةُ الدَّمدَمَة تضعيف العذاب وترديده ويقال: دمَّمْت على الشّيء أي أطبقت عليه... فإذا كرّرت الإطباق قلت: دَمْدَمْت، والدمدمة إهلاك بإستئصال»[2].

فالتضعيف في دَمْدَمَ صَوّرَ تكرار فعل الدَّم والإطباق حتّى يتحقّق التدمير والإهلاك الكاملين، بدليل عَود الضمير في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ على الدمدمة، والمعنى: «فَسَوّى الدمدمة عليهم جميعهم فلم يفلت منهم أحَد»[3]. وقد أدّى كلٌّ من صَوتَي التضعيف في هذه الصيغة دورَه في رسم صورة الحدث وصوته، فـ (الدّال) بصوته الشديد الانفجاري المجهور جَسّدَ قوّة الضرب والاطاحة، في حين جَسَّدَ (الميم)، بانطباق الشفتين عند النطق به انطباقاً كاملاً، صورةَ الإطباق والإلصاق التي تُعبِّر عنها هذه الكلمة، أما اجتماع هذين الصوتين معاً وتكرارهما فقد جَسَّدَ صوتَ ذلك الحدث وإيقاعَه الصّاخب المدَوِّي.

---

(١) لسان العرب: مادة: دمم.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٧٩/٢٠.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢١٤/٣٠.

٦.١.١.٣.٥ ـ (صَرْصَر)

ونظير الألفاظ السابقة كلمة (صَرْصَرْ) الواردة ثلاث مرّات في القرآن الكريم، كُلّها صفة للريح التي أهلَكَ اللهُ بها قومَ عاد. وذلك في الآيات التالية:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فُصِّلت: ١٦].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر: ١٩].

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦].

و (صَرْصَرْ) هذه أصلها من (صَرّ) وهو البرد، فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل كما في (كُبكِبوا) أصله (كُبِبوا)[١]. وقد فُسِّرَت في هذه الآيات بالصاعقة التي أُرسِلَت على قوم عاد، والتي تعني: «ريحاً باردةً شَديدةَ البرد، وشديدةَ الصّوت والهبوب»[٢]، تكاد «تَصطَكُّ الأسنانُ بما يُسمَع من صوتها لِشِدَّةِ بَردِها»[٣].

فصوت الصّاد الصفيري يَحمل معه صوت صفير الريح وأزيزها، كما يَحمل صوت اصطكاك الأسنان بسبب شِدّة البرد. أمّا صوت الراء المكرَّر فَيُجسّدُ الصورةَ التكرارية لذلك الاصطكاك، كما يُصَوِّرُ استمرار هبوب تلك الريح العاتية؛ فقد جاء في الآيات أنّ الله أرسلَها عليهم ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ و ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾، أي: «دائمِ الشؤم، واستمر عليهم بنُحوسِهِ واستمَّرَ عليهم فيه العذاب إلى الهلاك، وقيل: استمر بهم إلى نار جهنم»[٤].

---

(١) لسان العرب: مادة: صرر.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٧/١٥.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣٤٣/٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٣٥/١٧.

ومن قدر الله وقضائه أن يكون عقابه على قدر معصية العاصين، ولَمّا كان قوم عادٍ قد استكبروا في الأرض بغير الحقّ ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلت: ١٥] أراد الله أن يُريَهم أنّ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فأرسَلَ عليهم ريحاً صَرصَراً عاتية أي: «ريحاً شديدةَ الهبوب ذات بَردٍ شديدٍ جداً، فكان سَببُ إهلاكهم من جنسهم؛ فإنهم كانوا أعتى شَيءٍ وأجبره، فسلّط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشَدّ قوة»[1]. فكما كان العقاب مُجانساً للمعصية، كان اللّفظ كذلك مُجانساً للمعنى وصوتِه.

ومِمّا يَجدر ذكره هنا أنّ ﴿صَرْصَرًا﴾ جاءت صفةً لـ (ريح) في الآيات الثلاثة. و(ريح) مفرد وجمعه: (رياح)، وقد ورد كلا اللّفظين في الذكر الحكيم. وقد فرّقَ التعبير القرآني بينهما، ذلك أنّ «عامّة المواضع التي ذكَرَ الله تعالَى فيها إرسال الرِّيح بلفظ الواحد فعبارةٌ عن العذاب، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه بلفظِ الجمع فعبارةٌ عن الرَّحمة»[2].

ومن أمثلة ورود لفظ (الريح) مفرداً الآيات أعلاه، ومنه أيضاً قوله تعالَى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧] وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]. أمّا لفظ (الرياح) جمعاً فمنه قوله تعالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨] وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

ومَجيء (صَرصَر) صفةً لـ (رِيح) سواء في حالة النصب ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ كما في

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٤٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٢١١.

آيَتَي: فُصِّلَت والقمر، أو في حالة الجر ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ كما في آية الحاقّة، فيه نوع من التجانس المقطعي، فتكرار صوتَي (الصاد) و (الراء) مَرَّتين في صيغة (صرصر) جاء مجانساً لتكرار المقطع الطويل مَرَّتين في لفظ (رِيْ/حِنْ) في حالَتي النصب والجرّ، فجاء التركيب الوصفي بنَغَماته القويّة، ونَبَراته الحادّة مُشعِراً بِهَول تلك الضربات وشدّتها وتكرارها. ولو جِيء بلفظ (الرياح) بدلاً من (الريح) في هذا التركيب لَما كان له هذا الوقع المدَوِّي، ولا هذه النغمة الصارخة.

وهناك ألفاظ أخرى من هذه الصيغة استعملها القرآن الكريم ليدُلّ كلٌّ منها بتضعيفها وأصواتها على صورة المعنى من جهة وصوته من جهة أخرى، ومن تلك الألفاظ: (حَصْحَصَ) في قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]، حيث يُصوِّرُ صوتُ الحاء المهموس مع صوت الصاد الصّارخ صوتَ الحق حين يَعلو على كلِّ صوت فلا يُسمَع سِواه. ومنها لفظ (عَسعَسَ)، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] الذي يُصَوِّر التضعيفُ فيه إقبالَ الليل وإدباره، كما يُصوِّرُ صوتُ السِّين بهمسه سكونَ الليل واستتاره. وكذا بقية الألفاظ.

٦. ١. ٢ ـ دلالة الصيغة الإنتقائية

إنّ جميع ما أُشير إليه من الألفاظ السابقة كانت قد اكتسبت دلالاتها من خلال أوضاعها اللغوية الخاصة التي ألف العرب استعمالها، أمّا صورها وإيحاءاتها الصوتية التي تَمَّ تشخيصها فقد استُدِلَّ على كلٍّ منها من خلال ورودها في السياق القرآني الملائم لها. وهناك ألفاظ وصيَغ قرآنية خاصّة كان لها أيضاً استعمالاتها المألوفة في العرف اللّغوي، إلاّ أنّ القرآن الكريم لاحَظ فيها طبيعة أصواتها وخصوصيّتها المقطعية المتفرِّدة فاختارها، ابتداءً، لِيُعبِّرَ بها عن مدلولٍ بعينه دون سواه، فغدَت هذه الألفاظ وكأنها موضوعةٌ أساساً لهذا المعنى الذي ابتدعه الأسلوب القرآني.

ومن الألفاظ التي تَفرَّد القرآن في تخصيص دلالتها: (الحاقَّة) و (الطّامَّة) و (الصّاخّة)، وكذلك (الواقعة) و(القارعة) و (الآزفة) و (الراجفة) و (الرادفة) وأمثالها، وهي كلُّها أوصاف اشتقّها القرآن ليوم القيامة ووصف السّاعة[١]، وذلك انطلاقاً من طبيعتها الصوتية. وهذه الألفاظ، وإن كانت جميعها تنتمي إلى صيغة صرفية واحدة، إلاّ أنّ الصّدى الصوتي لكلِّ مجموعة يختلف تَماماً عن الأخرى فضلاً عن الملاحَظات الصّوتية التي تُمَيِّزُ كلَّ لفظة عن أخواتها.

٦. ١. ٢. ١ ـ دلالة المجموعة الأولى (الحاقّة وأخواتها)

تَتَمَيَّز ألفاظ هذه المجموعة المؤلَّفة من (الحاقّة) و (الطّامَّة) و (الصّاخّة) بصدًى صوتيٍّ مُدَوٍّ، يأخُذُ بِمجامع القلوب، ويَشُدُّها إلى ارتقاب ذلك الحدث الموعود بذهولٍ ووَجَلٍ، لأنه حدَث ليس كَكُلِّ الأحداث وواقعة ليست كَكُلِّ الوقائع، حيث ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. وقد اختيرت هذه الألفاظ بدقّة متناهية لِتُصَوِّر ذلك اليوم، وتصفة بهذه الصفات العنيفة.

وخصوصية هذه الألفاظ متأتِّية من كونها «كلمات تستدعي نسبةً عالية من الضغط الصوتي، والأداء الجهوري لِسماع رنّتها، مِمّا يتوافق نسبياً مع إرادتها في جلجلة الصّوت، وشدّة الإيقاع، كل ذلك مِمّا يوضع مجموعة العلاقات القائمة بين اللّفظ ودلالته في مثل هذه العائلة الصوتية الواحدة، فإذا أضفنا إلى ذلك معناها المحدّد في كتاب الله تعالى، وهو يوم القيامة، خرجنا بحصيلة علمية تنتهي بِمصاقَبة الشِّدَّة الصوتية للشِّدَّة الدلالية بين الصّوت والمعنى الحقيقي»[٢].

وهذه الشِّدَّة الصوتية التي تتميّز بها هذه الصيغة متحَصّلة من طبيعة المقاطع

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٨/٢٩.

(٢) الصوت اللغوي في القرآن: ١٦٨.

الصوتية التي تشتمل عليها؛ فهي مكوّنة من ثلاثة مقاطع، فكلمة (الحاقَّة) مثلاً مقاطعها كالآتي:

قَهْ	حَاقْ	أَلْ
ص ح ص	ص م ص	ص ح ص
متوسط مقفَل	طويل مَدّ مُغلَق بصامت	متوسط مقفَل

فهي تبدأ وتنتهي بمقطع (متوسط مقفَل)، و يَتَوسَّطها مقطع (طويل مَدّ مُغلَق بصامت)، وكذلك كلمة (الطَّامَّة) و (الصَّاخَّة)، مع مراعاة كون الحرف الأوّل منهما من الحروف الشمسية.

وهذا التركيب المقطعي تكاد تنفرد به هذه الألفاظ الثلاثة في القرآن الكريم. وقد وردت هذه الصيغة مجرّدةً من الألف واللاّم في مثل: كافَّة[1] ودابَّة[2]، إلاّ أنها لا تحمل الخصوصية الصوتية التي تحملها تلك، لأنها تقلّ عنها بمقطع.

والخصوصية الصوتية التي منَحَها هذا التركيب المقطعي لألفاظ (الحاقَّة) و (الصّاخّة) و (الطّامّة) قوامها توفّرها على المقطع (طويل المدّ المغلَق بصامت) الذي يتوسّط كُلاًّ منها؛ فهذا المقطع من المقاطع النادرة جداً في الكلمات العربية، وهو إذا ما وُجِدَ فعند الوقف على أواخرِ الكلمات التي يسبق الحرفَ الموقوفَ عليه لينٌ طويلٌ، كما في المقطع الأخير من كلمة (الكريم) = (ألْ + كَ + رِيْمْ). فهذا المقطع لا يَرِدُ في

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وسط الكلمة، أو قبل المقطع الأخير منها إلاّ نادراً، وإذا ما حدث ذلك، كما في أوصاف القيامة أعلاه، فإنّ هذا المقطع يبلغ غاية الشِّدّة والثقل ؛ ذلك أنّ المقطع ـ حينئذٍ ـ يبدأ بصائت مديد يَعلو بألف المدّ، ثم يهوي فجأةً بقوّة على صوتٍ مُضَعّف، هو القاف الانفجاريّ في (الحاقَّة)، والخاء الاحتكاكيّ في (الصّاخّة)، والميم المجهور في (الطّامَّة).

فالشِّدّة التي في هذه الألفاظ المدغَمة مصدرها ـ إضافةً إلى ما ذُكِرَ من صفات أصواتها ـ يكمن في كونها «يَنبغي أنْ يُشبَع التشديدُ [التالي لألف المد] بعد إعطاء المدّ حَقّه، لأنّ المدّ إنّما حدَثَ من أجل التشديد»[1]. فبعد أن ينطلق الصّوت بالمقطع الأوّل (ألْ) في (الحاقَّة)، و(أَصْ) في (الصّاخّة)، و (أطْ) في (الطّامَّة) يرتفع بعدَها مُحَلّقاً بألف المدّ الصّاعد، مانِحاً إيّاه ما يستحقّه من الامتداد، وقبل أن ينقطع النَّفَس يُغَيِّر التنغيم اتجاهَه، بحركة عكسيّة تَماماً، فيهوي كالصّاعقة على حروف القاف والخاء والميم ضاغطاً عليها بقوّة، ثم ينقطع الصّوت بعدها مباشَرَةً. فَتُحدِث من الوقع في النَّفْس ما تُحدِثُه الصّاعقة في الأشياء، حين تَهوي فجأةً فتقضي على ما يَعترضُها دفعَةً واحدةً، فتسكن بعدها مباشرَة، وكأنّ شيئاً لم يكن.

ومن غرائب الاستعمال القرآني أن نجدَ هذا المقطع الشديد النادر الوقوع قد ورد في الألفاظ الدّالة على محاربة الله ورسوله، مثل: ﴿يُحَآدُّونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]. ونظيره ﴿حَآدَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ومثلهما فعل ﴿يُشَآقِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ

(١) الموضح في التجويد: ١٤٢.

شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٤].

والأغرب من ذلك أنّ الله تعالى وَصَفَ مَن يُحادّ الله ورسوله ويُشاقّهما بقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦] فهو إذن (ضَالّ)، وهذا اللّفظ يَشتمِل على هذا المقطع أيضاً، وقد وردَ مجموعاً بالياء والنون (الضَالّين) في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، فاجتمع فيه مقطع (طويل المَدّ المُغلَق بصامت) مَرّتين، ويبدو ذلك جليّاً عندما يُقَطَّع، بدون (أل) التعريف، كالآتي: (ضَالْ/ لِيْنْ)، حيث وقع هذا المقطع قبل المقطع الأخير[1]، ثم تكرَّرَ ثانيةً في المقطع الأخير بسبب الوقف، فهذا اللّفظ موقوف عليه دائماً لأنه يُمثِّل نهاية آيةٍ حيثما وَقَعَ في القرآن الكريم[2].

واشتراك لفظ (الضّالّين) وأوصاف القيامة بهذا المقطع النادر جداً له دلالته الصوتية، وذلك بسبب ما بينهما من ارتباط مُحكَم وثيق، فهؤلاء (الضّالّين) هم الذين يحزنهم الفزع الأكبر يومَ القيامة. ولهذا اختيرَت الألفاظ المعبِّرة عن صفات هذا اليوم، لِتكونَ على قدر اللّفظ الجامع لهؤلاء، والمعبِّر عن صفة الضّلالة المستحكَمة فيهم.

٦. ١. ٢. ١. ١ ـ (الْحَاقَّةُ)

إنّ الخصوصية الصوتية المتميِّزة لألفاظ القيامةِ هذه تظلّ مفتقرَةً إلى معانيها الأصلية

---

(١) تحوّل صوت اللّين (الألف) إلى همزة في بعض اللّهجات العربية، في ضالّين و دابّة ونحوهما، فنُطِقَت: ضَألين و دأبة فتخلّصَت بذلك من هذا المقطع، ينظر: (دراسة الصوت اللغوي: ٢٥٧).

(٢) ورد هذا اللّفظ ثماني مرّات كلُّها في نهايات الآيات، وهي مِمّا يُوقَف عليه، إلاّ في آيةٍ واحدةٍ يَمتنع فيها الوقف، لاتصال ما بعدها بما قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ [الواقعة].

التي اشتُقّت منها، والتي يُعبِّرُ كلٌّ منها عن صفة خاصّة لذلك اليوم، كما يَمنحها السياق قدراً آخَر من تلك الخصوصية؛ فـ (الحاقَّة) التي وردت ثلاث مرّات متوالية في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة] تعني: النازلة وهي الداهية أيضاً. والـحَقَّةُ والـحاقَّةُ بمعنى واحد؛ وفي التهذيب: الـحَقَّةُ: الداهية والـحاقَّةُ: القيامة، وقد قيل في سبب تسمية القيامة بالحاقَّة أقوال منها:

- أَنها تَـحُقُّ كلَّ إنسان من خير أو شر.
- لأن فيها حَواقَّ الأُمور والثوابَ.
- أَنها تَـحُقُّ كلَّ مُحاق في دِين اللَّه بالباطل أي: كل مُجادِل ومُخاصم فتَـحُقُّه

أي: تَغْلِبه وتَخْصِمه، من قولك حاقَقْتُه أُحاقُّه حِقاقاً ومُحاقَّةً فَحَقَقْتُه أَحُقُّه أي غلبته وفَلَجْتُ عليه[1]. فإحقاقُ الحقّ، ومَحقُ الباطلِ وسَحقِهِ هي المعاني التي يَدُلُّ عليها هذا اللفظ.

أمّا الأسلوب الذي ورد فيه فإنه هو الآخَر له دلالاته الخاصّة؛ فقد كان القياس في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، كما هو شأن ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [القارعة] أن يُقالَ: (الحاقَّة! ماهي؟) و (القارعة! ما هي؟)[2]. إلاّ أنه وضَع الظاهر موضع المضمَر، فأعاد المبتدأ بلفظه[3] لأنّ المقامَ مقامُ تهويل وتفخيم، شأنهما في ذلك شأن ﴿وَأَصْحَٰبُ

---

(١) لسان العرب: مادة: حقق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٤١٦/١.

(٣) «﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ الأولى: رفع بالابتداء، والخبر: المبتدأ الثاني وخبره، وهو: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ لأنّ معناها: ماهي، واللّفظ استفهام معناه التعظيم والتفخيم لشأنها، كما تقول: (زيد ما زيد!) على التعظيم لشأنه» (الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٧/١٨).

ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٢٧][١].

ولم يكتفِ التعبير القرآني بالإتيان بِهذا اللّفظ بصورة الإستفهام المراد به تفخيم الحدث وتعظيمه، بل «زادَ سبحانه في التهويل فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ أي: كأنك لستَ تَعْلَمُها، إذْ لَمْ تُعايِنْها، ولَمْ تَرَ ما فيها من الأهوال. قال الثوري: يُقال للمعلوم ﴿ مَآ أَدْرَىٰكَ ﴾، ولِما ليس بِمعلوم **(مَا يُدْرِيكَ)** في جميع القرآن، وإنّما قال لِمَن يَعلمُها: ﴿ مَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ لأنه يعلمها بالصِّفة»[٢] ويجهل حقيقة أمرها وتفاصيل أهوالها، فالمخاطَب لا يَعلم عنها سوى «أنّ فيها يَتَحَقَّق الوعد والوعيد، ولهذا عَظَّم اللهُ أمرَها فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾»[٣].

وهكذا اجتمعت في لفظ ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ الوارد في القرآن الكريم عِدَّةُ عوامل معنوية وصوتية ساهَمَت مُجتَمعَةً في أن تَختاره اللغة القرآنية، فتُطلِقَه صِفةً للقيامة أو اسماً من أسمائها، والعوامل المعنوية هي: دلالته العامة، والأسلوب الذي وردَ فيه، ثم السياق أو التعبير الذي انتظمَ كلَّ ذلك.

أمّا العوامل الصوتية فتَتمثَّلُ في طبيعة أصواته ومقاطعه وصيغته الصرفية. وهذه العوامل الصوتية الثلاثة هي التي جَسّدَت الجانب التصويري لهذا اللّفظ فَمَنَحَته «جَرساً خاصّاً، هو أشبه شيءٍ برفع الثِّقَل ثم استقراره استقراراً مكيناً، رفعه في مَدِّه الحاء بالألف واستقراره في تشديد القاف بعدها، والانتهاء بالتاء المربوطة التي يُوقَف

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٤٧٣.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٣٤٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/٤١٣.

عليها بالهاء السّاكنة»[١]. ولهذا تمَّ اختياره لِيُصَوِّرَ ملامحَ من ذلك اليوم الرهيب الذي ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وتذهل فيه القلوب.

٦. ١. ٢. ١. ٢ ـ (الصّاخّة)

و ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ مثل ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ إلاّ أنّه لم يَرد بصيغة الاستفهام الذي بمعنى التفخيم والتعظيم، ولم يَرِد سوى مَرّة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس]. ولكنّه يَمتاز عن ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ بتكرار التضعيف فيه؛ فإضافةً إلى تضعيف الإدغام الذي في (الخاء)، هناك تضعيف آخَر في (الصّاد) لأنه من الحروف الشمسية.

ويَكتسب هذا اللفظة قُوّته الدلالية من صيغته ومقاطعه الصوتية وأصواته، كما يَكتسبها من دلالته المعنوية الخاصّة. وقد أُشير إلى الصيغة الصرفية والمقاطع الصوتية، أمّا أصواته فإنّ ثِقَلَ النبر في ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ يقع على الصّوتَين المضَعّفين فيها وهما: الصاد والخاء، وهذان الحرفان من الحروف الدّالة في طبيعتها على الأصوات الطبيعية، فالصاد من حروف الصفير التي يصحَب النطق بها أزيزٌ[٢]، والخاء صوت حلقيّ احتكاكيّ، فيه شيءٌ من الغِلظة، يكاد يُسمَع في بعض مظاهر الطبيعة، ولهذا استُعمل النضخ بدلاً من النضح في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦][٣][٤].

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن: ١٨٠.

(٢) يُراجَع مبحث: ٤. ٣. ٢. ١. ١ ـ حرف الصاد.

(٣) الخصائص: ٢/١٥٨.

(٤) يُراجَع مبحث: ١. ٥. ١. ٢ ـ إمساس الألفاظ أشباه المعاني.

وصوتا الصاد والخاء هما الأصل المكوِّن للفظ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، وقد جاء في المقاييس «صخّ: الصاد والخاء أصلٌ يدلُّ على صوتٍ من الأصوات. من ذلك الصَّاخَّة، يقال: إنَّها الصيحةُ تُصِمُّ الآذان»[١]. وهذا المعنى مأخوذٌ من الصوت الصادر عن «الضرب بالحديد على الحديد، والعصا الصلبة على شيءٍ مُصمَتٍ[٢]. وَصَخُّ الصخرة وَصَخِيخُها: صوتُها إذا ضربتها بحجر أو غيره... تقول: ضربت الصخرة بحجر فسمعت لها صَخَّةً. والصاخَّةُ: القيامة، وبه فسر أبو عبيدَة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ ؛ فإما أن يكون اسم الفاعل من صَخَّ يَصخُّ، وإما أن يكون المصدَر»[٣]. وقد سُمِّيَت القيامة بهذا الاسم لأنّ «الصّيحةَ التي تكون فيها القيامة تصُخُّ الأسماعَ أي: تُصِمُّها فلا تَسمَعُ إلاَّ ما تُدعَى به للإحياء»[٤].

وأخيراً فإنّ الخصائص الصوتية للفظ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، من صيغته ومقاطعه وأصواته، تجعل منه لفظاً يمتاز بـ «جرسٍ عنيفٍ نافذٍ، يَخرُق صُماخَ الأذن، وهو يَشُقُّ الهواءَ شَقّاً، حتى يصِلَ إلى الأذن صاخّاً مُلِحّاً... وهو يُمهِّدُ بهذا الجرس المزعِج للمشهد الذي يليه: مشهد المرء يَفِرُّ وينسلِخُ من ألصَقِ الناس به ﴿مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أؤلئك الذين تربطهم به روابط لا تنفَصِم؛ ولكن هذه الصّاخّة تشرَخُ الروابط شَرخاً وتَشُقُّها شَقّاً»[٥]. وهذا ما يُفسِّر اختيار هذا اللّفظ دون أخوَيه في هذا

---

(١) معجم مقاييس اللغة: مادة: صخ.

(٢) المصمَت: الذي لا جوف له.

(٣) لسان العرب: مادة: صخخ.

(٤) نفس المصدر والمادة.

(٥) مشاهد القيامة في القرآن: /٦٢.

الموضع من السورة، حيث الطبيعة الصوتية والمعنوية لهذا اللّفظ تناسب صَمَم الآذان عن سَماع أصوات أقرب الناس إلى المرء وأشَدّهم لُحمةً به.

٦. ١. ٢. ١. ٣ـ (الطّامّة)

لفظ ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ واستعماله في القرآن جاء نظيراً للفظ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ من عِدّة نواحٍ: فهما إضافة إلى اشتراكهما بالصيغة الصرفية و بالمعنى الاصطلاحي، فقد ورد كلٌّ منهما مرّةً واحدة، في السياق ذاته، وبالأسلوب ذاته، في سورتين متتاليتين:

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات]

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس]

أمّا السياق؛ فقد وردا بعد تعداد نعم الله العديدة المختلفة، في السورتين، وخَتْمِ كلٍّ منهما بآية واحدة مشتركة، تُبيِّنُ عِلّة ذلك، وهي قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ ثم تلَتْها الآية التي فيها ذكر هذين اللّفظين، والتي جاءت بأسوب واحد في السورتين، وهو أسلوب (إذا) الشرطية لما يُستقبل من الزمان، والمتضمّنة معنى الشرط، والجواب فيهما محذوف. ثم جاءت الآية التالية مبتدئة بـ (يوم) على البدل من (إذا)[1] ومفسِّرةً معنى هذين اللّفظين بيوم القيامة.

ولفظ ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ مشتقٌّ من «طَمَّ الشيءَ يَطُمّه طَمّاً: غَمَرَه... يُقال للشَّيء الذي يَكثُر حتى يَعْلو: قد طَمَّ وهو يَطِمُّ طَمًّا. وجاء السَّيلُ فَطَمَّ كلَّ شيء أي علاه،

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٨/٢١٣ـ ٢٢٨.

ومن ثَمَّ قيل: فوق كلِّ شيء طامَّةٌ، ومنه سُمِّيت القيامة طامّة»[١]. وسبب تسميتها بذلك «أنها تَطُمُّ على كلِّ شيء فتعُمّ ما سواها، لِعِظَمِ هَولِها أي: تَقَلُّبه»[٢]. وهذا المعنى يُفسِّر سبب اختيار لفظ ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ في هذه السورة دون غيره، حيث جاء بعده قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي: أُظهِرَت النارُ وكُشِفَ عنها الغطاء فيراها الخلق عياناً وهي تتلَظّى[٣]. ومشاهدة نيران الجحيم المستعرة وأهوالها من شأنها أن تُهَوِّنَ كلَّ عظيمةٍ سواها فَتَطُمّها وتُخفيها. فاستُعير هنا صوت الطاء الانفجاريّ المطبَق المفخَّم المضعّف الممتد مع الألف بتثاقل، لِيُصَوِّرَ طغيان تلك النيران وغلَبتها على ما سِواها، بينما استُعير الميم المدغَم المضغوط عليه بقوّة، والذي تُغلَق عنده الشفتان إغلاقاً تامّاً لِلتصوير امِّحاء كلِّ شكل من أشكال الهول عدا ما يُرى من أهوال الجحيم.

٦. ١. ٢. ٢ ـ دلالة المجموعة الثانية (الواقعة وأخواتها)

تشترك هذه المجموعة مع سابقتها من حيث المعنى والصيغة الصرفية، ولكنها تختلف عنها من حيث الصيغة الصوتية؛ فكلٌّ منها يتكوّن من أربعة مقاطع متماثلة، فمقاطع ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ مثلاً كالآتي:

أَلْ	وَا	قِ	عَهْ
ص ح ص	ص م	ص ح	ص ح ص
متوسط مقفَل	متوسط مفتوح	قصير	متوسط مقفَل

(١) لسان العرب: مادة: طمم.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٩/٢٠٦.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٤٣٤.

وهذا التركيب المقطعي لا يختلف عن التركيب المقطعي للمجموعة الأولى، إلاّ في افتقاره إلى التضعيف؛ فتلك الصيغة الصوتية كان فيها صوت مُدغَم أو صَوتَان، وهذه تخلو منه تَماماً، ولهذا فإنّهما يختلفان في المقطع الوسطي فقط؛ فمَدَّ الألف الصّاعد في هذا التركيب لا يَهبط على صامت مقفَل، من نفس المقطع، كما في ذلك، بل يهبط على صامت متحرك بالكسر، من المقطع الذي يليه، وهو المقطع الثالث هنا، فزادَ في هذه المجموعة مقطع على ما في تلك.

وألفاظ هذه المجموعة هي: الآزفة / الواقعة / الراجفة / الرادفة / الغاشية / القارعة، بحسب تسلسل ورودها في المصحف الشريف وقد جاءت ثلاث منها أسماءً للسُّوَر التي وردت فيها وهي: الواقعة والغاشية والقارعة. فتمَّ اعتمادها أساساً في هذا التسلسل.

٦.١.٢.٢.١ـ (الآزِفَة)

لفظ ﴿ٱلْأَزِفَةُ﴾ هو أوّل ماورد من ألفاظ القيامة، وهو اختيار قرآنيٌّ مَحض لهذا المدلول، وقد ورد مَرّتين: الأولى في سورة غافر ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ وقد أضاف إليه لفظ يوم ﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾ للدلالة على أنّ المراد به يوم القيامة، ثم أردفه بـ ﴿إِذِ﴾ بدلاً من ﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾ لزيادة التوضيح والتبيين. والمرّة الثانية التي ورد فيها هذا اللفظ جيء به فاعلاً، وجاء فعله مُنبِئاً عن قرب حلوله. وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴾ [النجم: ٥٧].

فقد أنذرهم اليوم الموعود في الآية الأولى، ثم بيَّن قُربَ موعد حلول ذلك اليوم الذي لابدَّ منه في الآية الثانية. فجاء ورود لفظ ﴿ٱلْأَزِفَةُ﴾ قبل نُظرائه مناسباً لمعناه،

والمعنى: «أَزِفَ يأْزَفُ أَزَفاً وأُزُوفاً: اقْتَرَبَ. وكُلُّ شيءٍ اقْتَرَبَ، فقد أَزِفَ أَزَفاً أي: دنا وأفِدَ. والآزِفةُ القيامة لقُرْبِها وإن اسْتَبْعَدَ الناسُ مداها، قال الله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴾؛ يعني القيامة، أي دَنَتِ القيامةُ»[1]. ولابدَّ أنّ مَجيء ﴿ أَزِفَتِ ﴾ هنا بصيغة الماضي يُرادُ به بيانُ حتمية وقوع الآزفة وضيق وقتها[2]، فقد جيء بالفعل ماضياً، وأُريد به المستقبل القريب جداً.

ونظير هذا ذكر الشّيء وإرادة ضِدِّه، فإنّ الظاهر من رِقَّة لفظ ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ وخِفّة أصواته، أُريد به الوجه الآخَر من خصائص أصواته؛ فإنّ «رقّةَ الآزفة في لفظها بانطلاق الألف الممدودة من الصدر، وصفير الزاي من الأسنان، وانحدار الفاء من أسفل الشّفة، والسّكت على الهاء منبعثة من الأعماق، كالرقّة في معناها في الدنوّ والاقتراب وحلول الوقت، ومع هذه الرقّة في الصّوت والمعنى، إلاّ أنّ المراد من هذا الصفير أزيزُه، ومن هذا التأفُّف هديرُه ورجيفه»[3]، فإنّ قُربَ يوم القيامة غير قُربِ الحبيب، ودُنوّ الساعة غير دُنوّ المواعيد، أنه الوعد الحقّ، واليوم الفصل، إنه ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾.

٦. ١. ٢. ٢. ٢ ـ (الْوَاقِعَةُ)

يبقى لفظ (الآزفة) بمعناه الدّال على عموم القرب ماثلاً في الذهن، وإن تَمَّ اعتماده اسماً من اسماء القيامة إلاّ أنّ القرآن الكريم عطف على ذلك الاسم اسماً آخَر

---

(١) لسان العرب: مادة: أزف.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٢٦.

(٣) الصوت اللغوي في القرآن: ١٧٤.

هو ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، أوقع في النّفس من اللفظ الأوّل، ذلك أنه أقرب في معناه اللغوي واستعماله إلى المدلول الذي استُعيرَ له، وهو يوم القيامة، بسبب ما يتّصف به هذا اللفظ من معاني. فالواقعة في اللغة «الدّاهيةُ. والواقِعةُ: النازِلةُ من صُرُوف الدهر»[1]. وكلمة الواقعة لا تُطلَق «إلاّ في الشِّدَّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وقَعَ) جاء في العذاب والشَّدائد»[2]، ولكثرة ما يقع في القيامة من الشدة أو لشدة وقعها سُمِّيَت بهذا الاسم[3].

إضافةً إلى الظلال المعنوية التي يُلقيها العُرف اللغوي على هذا اللفظ، فإنّ لصوتَي القاف والعين دوراً مُهماً في إبراز كُنه معناه وتصويره؛ فصوت (القاف) يُمثِّل، بِمفرده، المقطعَ الذي قبل الأخير (الْ /وا /قِ /عَه) فهو يُشكِّل هنا المقطع المنبور[4] دون سواه من المقاطع. ولَمّا كان الانتقال إلى هذا الصّوت الانفجاري الشّديد المكسور يَتمّ عبر ألف المدّ (صعود فهبوط مفاجئ على الكسر)، لذا فإنّ النبرَ سيكون أشَدّ وقعاً، وأبعد صدًى. ومن هذا النبر الحاد الشديد ينتقل الصدى الصوتي مباشرةً إلى صوت (العين) المفتوح في أوّل المقطع الأخير، وينتهي عنده.

وعلى الرغم من أنّ الانتقال من أقصى الحنك إلى أقصى الحلق يُصاحبه هنا انتقال من كسر إلى فتح، إلاّ أنّ مجرد الانتقال من مخرج القاف إلى مخرج العين يلزم بذل مزيد من الضغط على جهاز النطق حتى يخرج اللفظ كما يجب. وبالتالي فإنّ الطبيعة المقطعية لصيغة ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ «بِما فيها من مَدٍّ ثُمَّ سكون أشبه بسقوط الجسم الذي يرتفع ثم يُترَك

---

(١) لسان العرب: مادة: وقع.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٥٤٤.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٢١٤.

(٤) يُراجَع مبحث: (٢. ٤. ٢. ١. ٣ـ النبر على المقطع الذي قبل الأخير).

فيهوي واقعاً، فينتظر له الحسّ فرقعةً ورَجَّة؛ وهكذا يُلبي السياق ما يتوقّعه الحسّ، فهي ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ تلك الأرجحَة التي يُحدثُها سقوط الأجسام الثقيلة تُحدثُها كذلك ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ في عالم الحسّ كما تُوقعها في عالم المعاني، يوم تشيل أقدار وتهوي أقدار»[1]. وإنّ الشِّدَّة والثقَل اللّذين في لفظ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ تناسِبان الشِّدَّة والثقَل الملازمين لدلالته، ولهذا تَمَّ تَخَيُّره لمعنى القيامة.

وزيادةً في إبراز هذه الشِّدَّة اللفظية والمعنوية فقد جيء به، في المرّتين اللّتين وردا فيه في القرآن، مسبوقاً بفعل من نفس المادة اللغوية، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة]، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة].

٦. ١. ٢. ٢. ٣ـ (القَارِعَةُ)

ورد لفظ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ بعد ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أوّل مَرّة في المصحف في سورة الحاقّة ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ فكأنما جيء به لتعريف معنى ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾. ثم ورد ثانيةً متصدِّراً السورة التي يحمل اسمها وهي: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ وذلك بذات أسلوب التفخيم والتعظيم الذي ورد فيه لفظ ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾.

وربما جاء لفظ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ بعد ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ بسبب ما فيه من زيادة معنى الشِّدّة، وذلك مراعاةً لتقديم ما هو أعمّ على ما هو أخَصّ؛ فقد جاء بعد لفظ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قوله

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن: ١٠٧.

تعالى: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾، في حين جاء بعد ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾.

والقارعة في اللغة هي «البليّة التي تَقرَع القلبَ بِشِدَّة، والقرعُ: الضربُ بشدة الاعتماد؛ قرَع يقرَع قرعاً، ومنه المقرعة، وتقارَعَ القومُ في القتال: إذا تضاربوا بالسيوف... وقوارع الدهر دواهيه»[(١)]. ولَمّا نزل القرآن اختار هذا اللفظ ليكون اسماً «من أسماء القيامة كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك. ثم قال تعالى مُعظِّماً أمرَها ومُهَوِّلاً لشأنها: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾»[(٢)]. ولقد سُمِّيت القيامة بالقارعة «لأنها تقرع الناس بأهوالها يقال: أصابتهم قوارع الدهر أي أهواله وشدائده»[(٣)]. فإذا كانت ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ تعني وقوع النازلة الشّديدة، فإنّ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ تعني إضافةً إلى ذلك، صفةَ تلك النازلة وشَدّةَ وقعها على القلب.

وكما تَفوَّق لفظ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ على سابقه في المعنى، تَفوَّق عليه كذلك في اللفظ؛ ذلك أنّ المقطع الثاني منه: (قَا) أقوى من نظيره في ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ الذي هو: (وَا)، فشتّان ما بين صوت (القاف) الانفجاري المجهور الشديد، وبين صوت (الواو) الجوفي اللِّين الذي لا صوت له ولا جَرْس (الالكلمة دراسة لغوية معجمية: مادة: جرس). أمّا صوت الراء المكسور، الذي يُشكِّل المقطع الثالث، فإنّ صفة التكرار فيه تناسب ما ذكَرَه الطبرسي من أنّ القارعةَ تقرعُ القلبَ بشِدّة، فتزيد من ضَرَبانه وهيَجانه.

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٥٣١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/٥٤٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/٢٥٨.

٦. ١. ٢. ٢. ٤ ـ (الراجفة) و (الرادفة)

ورد هـذان اللّفظـان مترادِفَين في قولـه تعـالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات] وهما بِحسب ورودهما في المصحف الشريف تاليان للفظ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، فجاءت ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ لِتزيدَها وضوحاً وبياناً؛ فالرّجَفان بمعنى الاضطراب الشديد، ورَجَف الشّيء: خَفَقَ واضطرَبَ اضطراباً شديداً. ومنه «رجَفَ الشجرُ يرْجُفُ: حَرّكَتْه الريحُ، وكذلك الأسْنانُ. ورَجَفَتِ الأرضُ إذا تَزَلْزَلَتْ. ورَجَفَ القومُ إذا تَهيَّؤُوا للحرب»[1]. و﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ في هذه الآية تعني: «الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى: وُصِفَت بِما يَحدث بِحُدوثها»[2].

ويترتّب على حدوث هذا الارتجاف في الطبيعة اضطرابُ القلوب وارتجافها. ويكفي صوت (الراء) المكرّر والمضعّف، المتوزِّع في مقطعين من هذه الصيغة، بياناً وتصويراً لشِدّة هذا الارتجاف والاضطراب. خاصّة أنّ الانتقال من الفعل إلى الفاعل في: ﴿تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ يَتِمُّ عبرَ همزة الوصل إلى هذا الصّوت مباشرةً، فيُدغَمُ المقطع الأخير من ﴿تَرْجُفُ﴾ بالمقطع الأوّل من ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ هكذا: **(تَرْ/جُ/فُرْ/رَا/جِ/فَه)** فَيَتّحِدُ اللّفظان اللّذان هما مُتَّحِدان أساساً لكونهما مُشتقّان من جذر واحد. فلنتَخيَّل ما يُمكن أن تُحدِثُه أصوات هذا التركيب المتكرّرة من اضطرابٍ في القلوب وارتعادٍ للفرائص، بتصويرها للحدث وكأنّ الأرض ترتجف تحت أقدام أصحابها.

---

(١) لسان العرب: مادة: رجف.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٦٩٣/٤.

ثم تأتي ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ حاملَةً نفس ملامح ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ لأنها تابعةٌ لها، مقتفيةٌ آثارَها؛ فهي تعني «النفخة الثانية التي تعقب النفخة الأولى... أي: اضطرابة أخرى كائنة بعد الأولى في موضع الردف من الراكب فلا تزال حتى تَفنى كلُّها»[1]. وبذلك يتكرّر المشهد كما تكرّرت الأصوات من قبل، وعندئذٍ تَجِفُ القلوب وتَخشَعُ الأبصار، وكيف لا يكون ذلك آنذاك «ونحن على البعد، وبتأثير هذا الإيقاع اللاّهث، وهذه الإرهاصات المذعورة، قد وَجَفَت قلوبنا واهتزَّت مشاعرُنا، وغَمَرَنا شُعورٌ غامض بالرَّجفة والاضطراب ؟!»[2].

٦. ١. ٢. ٢. ٥ ـ (الْغَاشِيَة)

وأخيراً يأتي دور ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ في أوّل آيةٍ من السورة التي تحمل اسمها ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ فكأنّ يوم القيامة مازال بحاجةٍ إلى توضيح وبيان وتوصيف، بعد كلّ الأسماء التي استعارها القرآن لذلك اليوم الموعود؟. ويأتي الجواب من المعنى اللّغوي لهذا اللّفظ؛ فالغاشية هي «المجلِّلَة للشّيء بانبساطِها عليه، وغَشِيَهُ إذا غطّاه والغِشاء: الغِطاء»[3]. يُقال: «غَشَّيْتُ الشّيءَ تَغْشِيةً إذا غَطَّيْته... وقيل للقيامةِ غاشِية لأنها تُجَلِّلُ الخَلَقَ فَتَعُمُّهم»[4].

فجاء هذا اللّفظ آخِراً لِيدُلَّ بِمعناه على أنّ أوصافَ القيامة تلك لا تَخُصُّ جماعةً من الخلق دون سواهم فالجميع يُجلِّلهم ذلك اليوم، فيَعُمّهم بِشِدّته واضطرابه. وقد

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٤٢٩.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن: ١٩١.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣/٢٦٧.

(٤) لسان العرب: مادة: غشي.

جاءت أصوات هذا اللّفظ ملائمة لهذا المعنى الذي انتُدَب له، وأهمّ صوتين فيه، كما في جميع ألفاظ هذه الصيغة الصوتية، هما: الصوت السابق للمدّ واللاّحِق له؛ أي: الغين والشين. فالطبيعة الصوتية للغين تدلّ على أهم الخصائص المعنوية للفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، فهو يوحي بالغموض والخفاء والظلام كما يوحي بالامّحاء والعدم[1]. وهذه المعاني كلُّها متَضَمَّنَة في هذا اللّفظ، وقد جاء صوت الغين مستطيلاً بألف المدّ، ليدلّ على امتداد هذه الصفات واستطالتها. كما دَلَّ صوت (الشين) بتفشّيه وانتشاره على انبساط الغاشية واتساعها.

وهكذا فقد اجتمعت في الألفاظ التي اختارها القرآن الكريم أسماءً للقيامة عِدَّةُ عوامل؛ ساهَمَت مجتمعةً في رسم مشاهد دقيقة ليوم القيامة، توافرت فيها الصورة والحركة والايقاع. ويُمكن تقسيم هذه العوامل إلى قسمين: معنوية وصوتية:

تَتمثَّلُ العوامل المعنوية في: دلالة اللفظ اللّغَوية/ الأسلوب الذي انتظم فيه اللفظ/ السياق الذي ورد فيه.

وتَتمثَّلُ العوامل الصوتية في: الخصائص الصوتية للفظ / طبيعة مقاطعه / وصيغته الصرفية.

فجاء كلُّ لفظٍ منها مُتَّسِقاً بلفظه ومعناه وجرسه وإيقاعه، لذلك جاء كلٌّ منها وهو يحمل معه ظلالاً وإيحاءات حَرّكت الساكن من الألفاظ، وقَرّبت البعيد من الأحداث، فكانت الواقعة وكأنها وقعت السّاعة، وكانت القارعة وكأنها تقرع القلوب كلّ لحظةٍ لا كلّ ساعة.

---

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها: ١٢٦.

المبحث الثاني

٦. ٢ ـ دلالة جرس الكلمة

الجَرْسُ بفَتح الجيم وكسرها: الصوت «يُقال: سَمعت جَرْسَ الطير إذا سَمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله وفي الحديث: (فيسمعون جَرْسَ طير الجنة). وجرس الحِلْي أيضا صوته. و أجْرَسَ الطائر: إذا سُمِعَ صوتُ جَرسِه»[١]. وهو أيضاً الصوت الخفيّ، يُقال: «ماسَمعنا له جَرْساً ولا هَمْساً»[٢]. كما يُمكن أن يدلَّ على عموم الكلام فإنّ معنى «جَرَسْتُ الكلامَ: تكلَّمْتُ به. وجَرْسُ الحَرْف: نَغْمَةُ الصَّوْتِ. والحُروفُ الثلاثة الجُوفُ لا صوتَ لها ولا جَرْسَ، وهي: الواو والياء والألف اللَّينة، وسائر الحروف مَجرُوسةٌ»[٣].

ولقد حَدَّ القدامى مصطلح (الجرس) انطلاقاً من مفهومه اللغوي، فقالوا: الجرس: هو الصوت والنغَم. وقد حدّدوا مزية الحسن في اللفظة بأنه «ضربٌ من التأليف في النغم»[٤]، وهذه المزية في الألفاظ تُدرَك بالسّمع، كما تُدرَك الألوان بالبصر، والأطعمة بالفم، وإنّ «مَن له أدنى بصيرة يعلم أنّ للألفاظ في الأذن نغمةً لذيذةً كنغمة أوتار، وصوتاً مُنكَراً كصوت حمار، وأنّ لها في الفم أيضاً حلاوةً كَحَلاوة العَسَل، ومَرارةً كمَرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري

(١) معجم الصحاح: مادة: جرس.

(٢) أساس البلاغة: ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) كتاب العين: مادة: جرس.

(٤) سر فصاحة الاعراب: ٥٥.

مجرَى النّغمات والطّعوم»[١].

وقد كان عبد القاهر الجرجاني يرى «الجرس واللفظ قيمةً ينصرف لها الذهن في بعض مواضع الكلام، كما يُضفي تأدية الألفاظ بأجراسها قيمة بيانية يبلغ المتكلم بها المبلغ الذي لا مزيد عليه»[٢].

وهذه القيمة البيانية لجرس الألفاظ اطلق عليها بعض المعاصرين مصطلح (الصورة السّمعية) بقوله: «يندر أن تحدث الاحساسات المرئية للكلمات بمفردها، إذ تصحبها أشياء ذات علاقة وثيقة بها، بحيث لا يُمكن فصلها عنها بسهولة، وأهم هذه الأشياء (الصورة السمعية) أي: وقع جرس الكلمة على الأذن الباطنية، أو أذن العقل»[٣].

فالجرس إذن يُشكِّل خاصيةً ذاتيةً محسوسة في بناء اللفظة، يُشارك في ذلك تَباين أجراس حروفها من حيث المخرج، والنوع، والصفة، والحركة، وطبيعة ائتلاف كل هذا بعضه مع بعض داخل اللفظ المفرد، أو في منظومة التركيب اللغوي. فأدنى تغيُّر في صيغة اللفظ من شأنه أن يُغيّر من طبيعة جرسه، مِمّا يُؤدي إلى تغيّر الانطباع السمعي حياله. ويُمكن ملاحظة ذلك في الفروق النغمية الواضحة التي تحدث عند الانتقال من مفردات بعض الألفاظ إلى جموعها، أو عند الانتقال باللفظ الواحد من صيغة إلى أخرى.

وقد حَرَصَ التعبير القرآني على تَخيُّر اللفظ الذي يمتاز بجرس تستلذه الأذن وتستريح إليه الأسماع، وبالمقابل عدَل عن استعمال الألفاظ التي تَمُجُّها الأسماع، أو تستوحشها النفوس، أو ما كان غيرها أعذب منها جرساً، وأندى لفظاً. وكان الجاحظ

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٥٦.

(٢) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: ١٤.

(٣) مبادئ النقد الأدبي: ١٧١.

(ت٢٥٥هـ) من أوائل من رَصَد نماذج من ذلك في القرآن الكريم، فهو يقول: «ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذَكَرَ (الابصار) لم يقل (الاسماع)، واذا ذكر (سبع سموات) لم يقل (الأرضين). ألا تراه لا يجمع الارضَ أرضين ولا السمع أسماعاً»[١].

فهو حيثما ذكر الأبصار والأفئدة جمعاً جاء بالسمع على صيغة الإفراد كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. وكذلك فإنه لَم يَرد في القرآن لفظ (الأرض) إلاّ مفرداً، ولم يأتِ مجموعاً قط، وإذا ما أُريد الاتيان ببيان جمعه عُدِلَ عنه إلى تعبير يُؤدي معناه. وعلى العكس منه لفظ (اللّبّ) فقد جيء به مجموعاً حيثما ورد في القرآن الكريم، ولم يرد بصيغة الإفراد[٢].

وينسحب هذا على الألفاظ المتكافئة من حيث المعنى؛ فقد يُؤثر القرآن لفظاً على نظيره المرادف له، لأنّ جرسه أجمل في السمع، وألذُّ في الأذن. ومن ذلك (العسل) و (الشهد)، فعلى الرغم من أنّ كليهما حَسَن ومستعمل إلاّ أنّ القرآن آثَر استعمال لفظ (العسل). يقول ابن الأثير فيهما: «هاتان لفظتان هما العسل والشهد، وكلاهما حَسَن مستعمل لا يُشَكُّ في حُسنه واستعماله، وقد وردت لفظة (العسل) في القرآن دون لفظة (الشهد) لأنها أحسن منها»[٣]. ولعلّ السِّرَّ في ذلك يكمن في أنّ حروف العين والسين واللاّم في لفظ (العسل) تتدرّج من الشدّة إلى الرخاوة؛ فهي تبدأ من أقصى الحلق إلى وسط الفم منتهية بذرب اللِّسان. في حين تبدأ حروف الشين والهاء والدال في لفظ (الشهد) من وسط الفم، ثم تنطلق إلى أقصى الحلق، فتعود أخيراً إلى أول الفم.

وللتركيب الذي يرد فيه اللفظ دَورٌ كبير أيضاً في تحديد جمال جرسه، وعذوبة

---

(١) البيان والتبيين: ٢٦/١.

(٢) يُراجع مبحث: (٣. ١. ٤. ١. ٤ ـ المناسبة الصوتية في اختيار لفظ دون آخَر).

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٥١/١.

إيقاعه، وذلك بسبب ائتلاف حروفه مع سائر حروف الألفاظ المجتمعة إليه ؛ فلفظ الشهد قد يرد في تركيب فَيَبُزّ لفظ العسل بِحُسنه[١] ذلك «أنّ تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها لأنّ التركيب أعسَر وأشق. ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامَهم ويعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب»[٢].

نخلص مَمّا سبق إلى أنّ جرس اللفظ لا يتأتّى من ذات اللّفظ فحسب، بل إنّ اللّفظ الواحد قد يَحسن في تركيبٍ ما، فلا يكون له مثل هذا الحسن في تركيب آخَر. وهذا هو مذهب عبد القاهر الجرجاني، حيث يقول: «أنك ترى الكلمة تروقك وتُؤنِسُك في موضعٍ ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضعٍ آخَر»[٣]. ويُمكن التمثيل لذلك بلفظة (تُؤذي) ومقارنة مجيئها في موضعين: أحدهما في القرآن الكريم، والآخَر في بيتٍ من الشعر، فجاءت في القرآن جزلة متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة، أمّا ورودها في القرآن فهو في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. «وأما بيت الشعر فهو

---

(١) ومن ذلك مجيء (الشهد) في قول أبي الطيب المتنبي [من الطويل]:

إذا شئت حَفَّت بي على كلِّ سابحٍ   رجالٌ كأنّ الموتَ في فمها شَهْدُ

ومجيء (العسل) في قول الأعرج [من مشطور الرجز]:

نحن بنو الموت إذا الموت نزل   لا عار بالموت إذا حمّ الأجل

الموت أحلى عندنا من العَسَل

«فإن لفظة الشهد وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج» (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/١٥١).

(٢) ن.م. والصفحة.

(٣) دلائل الإعجاز: ٥٤.

قول أبي الطيب المتنبي [من الوافر]:

تَلَذُّ لَهُ المروءَةُ وَهْيَ تُؤْذي وَمَنْ يعشَقْ يلَـذُّ لَهُ الغَرامُ

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة، إلاّ أنّ لفظة (تُؤذي) قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن؛ فَحَطّتْ من قَدْرِ البيت، لِضَعْفِ تركيبها، وحَسُنَ مَوقِعُها في تركيب الآية»[1]. ويمكن ملاحظة الكثير من الأمثلة التي يكون فيه الجرس ملائماً للسياق ومنسجماً فيه، ومن ذلك مناسبة لفظة (ضِيزَى) الواردة في سورة النجم للسياق الذي وردت فيه[2].

ويبقى جرس الألفاظ قيمةً جماليةً بالغة الأهمية، سواء تَأتّى هذا الجرس من طبيعة البناء اللفظي للكلمة، أو من السياق الذي التأمَت فيه، أو من كليهما معاً، وهو الأعمّ الأغلب في القرآن الكريم. وبما أنّ الجرس قيمة حسّية، لأنه قائم بالأصوات، فهو أقرب نواحي الجمال في النص الأدبي إلى النفس، وأسرعها وصولاً إليه، ولكنه في ذات الوقت شديد الخفاء[3]، لأنه كما وصَفه طه حسين وزملاؤه في كتاب (التوجيه الأدبي) بأنه «نوع من الموسيقى يُوحي إلى الأذهان، بمعنًى فوق المعنى الذي تدلّ عليه الألفاظ»[4]، ولعلّ هذه المزية هي أخصّ مزايا اللّغة القرآنية.

ومن هنا فقد كان تمييز جرس الألفاظ، وتحديد قيمته التعبيرية على الإيحاء والتصوير، أمراً بالغ الأهمية والصعوبة في آنٍ واحد، فضلاً عن تَقصِّيه في جميع ألفاظ القرآن الكريم. وقد تَمَّ الوقوف على نماذجَ من تلك الألفاظ جاء جرسها دالاًّ على

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٥٢/١ ـ ١٥٣.

(٢) يُراجع مبحث: (٣. ١. ٤. ١. ٦ ـ ملائمة جرس اللفظ للسياق).

(٣) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: ٢٠.

(٤) التوجيه الأدبي: ١٣٧.

معانيها، وجاء البعض الآخَر مناسباً للسياق الذي وردت فيه. نورد فيما يلي بعضاً منها على سبيل الذكر لا الحصر.

٦. ٢. ١ ـ دلالة الجرس على المعنى

قد يدلّ جرس اللفظ على تمام معناه، أو على جزء منه، وذلك كأنْ يدلّ على حالة من حالات المعنى الذي يدل عليه، كصوته، وحركته، وطبيعة الفعل، أوصورةً من صوره.

٦. ٢. ١. ١ ـ دلالة الجرس على الصوت

أُشير في الفصل الرابع، في مبحث توالي الأصوات، إلى دلالة الصوت المفرد على صوت الحدث[1]. وقد تَمَّ التمثيل له بنماذج من الألفاظ التي يدلّ الصوت المفرد فيها على حقيقة صوت المعنى. أمّا هنا فنحن بصدد دراسة الجرس الذي يُميِّز تمام اللفظ، ودلالة ذلك على أصوات المعاني التي تؤدِّيها.

٦. ٢. ١. ١. ١ ـ (يَصْطَرِخُونَ)

من الألفاظ التي يدلّ جَرسُها على صوت معناها كلمة ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ... ﴾ [فاطر]. والاصطراخ بمعنى «الصياح والنداء بالاستغاثة افتعال من الصراخ قُلِبَت التاء طاءً لأجل الصاد السّاكنة قبلها، وإنما فعل ذلك لتعديل الحروف بحرف

(١) يُراجع مبحث: (٤. ٤. ٢ ـ الدلالة على صوت الحدث).

وسط بين حرفين يُوافق الصّاد في الاستعلاء والإطباق، ويُوافق التاء في المخرج»[(١)].

واستعمال ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ «أبلغ من يصرخون؛ للإشارة إلى أنهم يصرخون صُراخاً مُنكَراً خارجاً عن الحدّ المعتاد»[(٢)].

فهذه الكلمة بجرسها الغليظ الصّاخب، ورنينها الخشن المدوّي تكاد تنقل إلى الأسماع ذلك الصراخ الشديد المحشرَج المنبعِث من نفوس تَئِنُّ تحت وطأة العذاب الأليم الذي لا يُخَفَّف عنهم، ولا يَقضي عليهم فيموتوا، صراخ يعلو ويعلو، يملأ جهنم من أقصاها إلى أقصاها، من قبل أولئك الذين غدَوا حَطَباً لها.

وما مِن شكٍّ في أنّ الجرس الغليظ والصدى الصّاخب لهذه الكلمة مصدره اجتماع أصوات الصاد والطاء والراء والخاء معاً؛ فالصاد الصفيريّ الاحتكاكيّ المفخّم، والطاء الانفجاريّ، والراء المكرّر، والخاء الاحتكاكي المخَنخَن، عَمِلَت مجتمعةً، إضافة إلى واو المدّ ونون الترنم، على إبراز الصوت في ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ بِمثلِ هذه الصورة المتفرِّدة الغليظة «فهل كنتَ تُحِسُّ شيئاً من ذلك لو وُضِعَت كلمة (يدعون) الهادئة الوديعة مكان ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ الهادرة العنيفة. وهل كنت تقف على بلوغ قلقهم المدوّي لولا كلمة ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ الملائمة لجوهم النفسيّ أدَقّ مُلاءمةْ وأبرعها»[(٣)].

ولَما كان الاصطراخ بمعنى الصياح والنداء والاستغاثة، فهل كنا سنُحِسُّ بشيءٍ من هذه الأصداء لو قُيِّضَ لأحَدِ هذه الألفاظ أن يَحِلَّ مَحَلَّ هذه الكلمة. ولنا بعد ذلك

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/ ٤١٠.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ٢٥٠.

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ١/ ٢٦٣.

أن نتصوَّر اختلاط أصوات هؤلاء بصوت نار جهنّم التي ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾، وملاءمة جرس ﴿حَسِيسَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] لصوت استعار النيران، فإنّ معنى لفظة «الحسيس: الصوت يُحَسّ»[1] وهي «من الألفاظ المصوِّرة بِجرسها لحقيقتها. وإنه لَجرسٌ يَتفزَّعُ له الجِلدُ ويَقشَعِرّ»[2].

٦. ٢. ١. ١. ٢ ـ (مُتَشَاكِسُونَ)

نظير كلمة ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ في تصوير جرسها لصوت الحدث كلمة ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، وهي مشتقة من: شَكِسَ، والشَّكِسُ: السَّيِّئُ الخُلُق، و﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: متشاجرون، لِشكاسَةِ خُلُقِهم[3]. فهي كلمة تُعبِّر عن الخصومة والعناد، وقد تُساويها في المعنى كلمة (متخاصمون) بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] إلاّ أنّ التعبير القرآني آثَرَ استعمال هذه الكلمة حفاظاً على الدلالة الصوتية التي تُعطي معنى المخاصمة القائمة على الصراخ، «وقد جُمِعَت في هذه الكلمة حروف التفشّي والصفير في الشين والسين تعاقباً، تتخلّلهما الكاف من وسط الحلق، والواو والنون للمدِّ والترنُّم، والتأثر بالحالة، فأعطَت هذه الحروف مجتمعةً نغماً موسيقياً خاصاً حَمّلها أكثر من معنى الخصومة والجدل والنقاش بما أكسبها أزيزاً في الأذن، يبلِّغ به السامع أنّ الخصام ذو خصوصية بلغت درجة الفورة، والعنف والفزع من جهة، كما أحيط السمع بِجرْسٍ مهموس معيّن ذي نبرات تؤثر في الحس

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١٣٧/٣.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن: ١٦٩.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٢٦٩.

والوجدان من جهة أخرى»[(١)].

٣.١.١.٢.٦ـ (خَرَّ)

حيثما وقعت مادّة (خَرَّ) في القرآن الكريم يدلّ جرسُها على تَلَبُّس هذا اللفظ بالصوت، ومجيئه على سَمت الحدث، ومن ذلك ورودها في الآيات التالية:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

وإضافةً إلى الدليل المعنوي في مجيء هذا اللّفظ مقترناً بالصوت، أنه غالباً ما يقترن لفظ (البُكم) بِلَفظَي (الصُّمّ) و(العُمْي) في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، إلاّ أنه تَخَلَّفَ عنهما عندما وردا حالاً من واو الجمع الذي في الفعل ﴿يَخِرُّوا۟﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] وذلك لدلالة هذا اللّفظ على مَعنَيين: هما السقوط، والصّوت الملازم له وهو الخرير، ولَمّا كان البكم دالاً على امتناع الصوت فإنه لم يرِد في هذه الآية كما هو مألوف، فإنّ صفتَي الصَّمَم والعَمَى عن سَماع الحقّ

---

(١) الصوت اللغوي في القرآن: ١٦٧.

عند أهل النفاق أقوى من صفة البكم، وإنما اللّسان عندهم هو آلة النفاق. وقوله: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا﴾ «ليس بِنفيٍ للخرور، وإنّما هو إثباتٌ له، ونفي للصّمم والعَمَى... والمعنى: أنهم إذا ذُكِّروا بها أكبّوا على استماعها، وأقبلوا على المذكِّر بها وهم في إكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يُذَكَّرون بها فتراهم مُكِبِّين عليها مُقبِلين على مَن يُذكِّر بها، مُظهِرين الحرصَ الشديد على استماعها، وهم كالصُّمّ العُميان حيث لا يَعونها ولا يَتبصّرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم»[1].

وقد نَبّه الراغب الاصفهاني إلى الدلالة الصوتية لهذه اللّفظة عندما أشار إلى معناها في الآيات السابقة بقوله: «فمعنى خَرَّ: سَقَطَ سُقوطاً يُسمَعُ منه خريرٌ، والخرير: يُقالُ لِصوتِ الماء والريح وغير ذلك مِمّا يَسقُطُ من عُلُوٍّ. وقوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ [السجدة: ١٥] فاستعمال الخرّ تنبيهٌ على اجتماع أمرَين: السُّقوط، وحصول الصّوت منهم بالتّسبيح، وقوله من بعده: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ فتنبيهٌ أنّ ذلك الخرير كان تسبيحاً بحمد الله لا بشيءٍ آخَر»[2].

ويُمكن ملاحَظة مَعنَى السُّقوط ومعنى الصّوت في لفظ (خَرَّ) من طبيعة أداء صَوتَي الخاء والراء؛ فصفة الاحتكاك الخالص والخنخنة في الخاء تُؤدِّيان معنى انفصال الشّيء عن غيره، وما ينتج عنه من صوت، كما ينفصل أقصى اللِّسان عن أقصى الحنك عند النطق بصوت الخاء. أمّا صفتا الجهر والتكرار في الراء المضَعّف فتُؤدِّيان معنى هاتين الصفتين معاً في الصّوت الحاصل من ذلك السقوط.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢٩٥/٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١٥٠ ـ ١٥١.

٦. ٢. ١. ٢ ـ دلالة الجرس على الحركة

إنّ جرسَ اللّفظ يتأتّى أساساً من أمرين: أصواته التي يتشكّل منها، ومقاطعه الصوتية التي ينتظم فيها. وتقوم المقاطع الصوتية عادةً، بِما تمنحه من إيقاعات خاصة، بتصوير حركة المعنى، خاصّة عندما يكون اللفظ قد انتُدِبَ للتعبير عن معنى حسّيٍّ متحرك. وهذه خصيصة يَتَميّز بها اللّفظ القرآني، حيث يَتمّ إجراء تحوير مقصود على الصيغة الأصلية للّفظ، أو شكله المألوف لغوياً عند أهل اللغة، لِيَتحوّل إلى صورة خاصّة، ذات جرسٍ خاص، تنقل صورة الفعل وحركته كما هي في واقعها المادي المحسوس. وفيما يلي بعض هذه الألفاظ التي يُصَوِّرُ جرسُها حركة مدلولاتها أو يدل عليها.

٦. ٢. ١. ٢. ١ ـ (اثَّاقلْتُمْ)

وردت هذه اللفظة مَرّةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم﴾ [التوبة: ٣٨] وقد جاءت هذه الآية في سياق توبيخ المؤمنين على ترك الجهاد، ومعاتبتهم على التثاقل عن الاشتراك في جيش العسرة الذي أعدَّه النبيّ ﷺ للخروج إلى قتال الروم في غزوة تبوك[١]. وقد بلغَ تقاعس المسلمين عن الجهاد حَدّاً انتقلت فيه الآية التالية من التوبيخ إلى التهديد، حيث قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩].

وقد جاءت كلمة ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ بِجرسها ومقاطعها لتُصَوِّرَ معنى التقاعس والتثاقل

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣/ ٣٠.

والتقاعد عن المبادرة إلى الخروج أبدع تصوير وأدقَّه. فأصلُ هذه الكلمة «تثاقلتم، أُدغمت التاء في الثاء لِقربِها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن. ومثله ادّارَكوا وادّارأتم واطّيرنا وازّيّنت»[1]. وقد جاء هذا التحوير في صيغة (تَفاعلتم) إلى صيغة (افّاعلتم) لِيَتهيّأ للفظة ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ أن تقوم بأعباء الأداء الفني المطلوب لها في هذا السياق. فهذه اللفظة بكلِّ ما تكوّنت به من حروف، ومن صورة ترتيب هذه الحروف، ومن حركة التشديد على الحرف اللّثوي (الثاء) والمدّ بعده، ثم مجيء القاف الذي هو أحد حروف القلقلة، ثم التاء المهموسة، والميم التي تنطبق عليها الشّفتان ويخرج صوتها من الأنف، إضافةً إلى نظام الحروف، وصورة أداء الكلمة ذاتها، كل ذلك يُوحي بالمعنى، قبل أن يَرِدَ علينا المعنى من جهة المعاجم[2].

ولنا أن نتصوّر بعد ذلك حقيقة حركة هؤلاء المتقاعسين الثقيلة المتباطئة من خلال مقاطع هذه اللفظة؛ فهي مكونة من أربعة مقاطع متساوية من حيث الإيقاع: (اثْ / ثَا / قَلْ / تُمْ)، لأنها جميعاً من نوع السبب الخفيف (متحرك فساكن). وهذا الإيقاع الرتيب الذي شَبّهه العروضيون بـ (قطر الميزاب) و(ضرب الناقوس)[3] من شأنه أن يُصوِّر في الخيال صورة «ذلك الجسم المثَّاقل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثِقَل. إنّ في هذه الكلمة (طنّاً) على الأقلّ من الأثقال! ولو أنك قلتَ: تَثاقَلتُم، لَخَفَّ الجرس، ولَضاعَ الأثَرُ المنشود، ولَتَوارَت الصُّورة المطلوبة التي رَسَمَها هذا اللّفظ، واستقلَّ برسمِها»[4].

وصورة الجسم المثّاقل الذي يرفعه الرافعون فيسقط في ثِقَل، تُصَوِّرُه المقاطع

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٨/١٤٠.

(٢) التعبير الفني في القرآن: ١٨٠.

(٣) فن التقطيع الشعري والقافية: ١٩٧.

(٤) التصوير الفني في القرآن: ٧٦.

الصوتية أحسن تصوير فلفظ ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ يبدأ بمقطع طويل مُغلَق: (إثْـ)[1] أوّله مكسور، وثانيه (ثاء) ساكنة، وحرف الثاء من ألصَق الحروف بالتراب والأرض، والانتقال إليه من الكسر يوحي بالسكون إلى الأرض والالتصاق بها، ثُمّ يليه مقطع طويل ممدود إلى الأعلى (ثَا) يبدأ من حيث انتهى المقطع الأوّل، وهو صوت الثاء، فَيُوحي بالنهوض والارتفاع، ولكنّ هذا النهوض، القائم على التشديد في صوت الثاء، سرعان ما يَهوي عندما يليه مقطعان مُغلَقان متتاليان: (قَلْـ/ تُمْ) من جنس المقطع الأوّل، فكأنّ اللفظ عاد من حيث بدأ قارّاً ساكناً، مع زيادة في الإغلاق والسكون.

قد ذكر أصحاب التفاسير في لفظ ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ أنه عُدِّي بـ (إلى) لِتَضَمُّنِهِ معنى (الميل) و(الإخلاد) فكانه قيل: (إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله مِلتُم إلى الدنيا وأخلدتم إلى الأرض). والتضمين عندهم إشراب لفظٍ معنى لفظٍ آخر، فيُعطَى حكمُه في تعديته بالحرف الذي يتعدى به الثاني[2]. يقول صاحب الكشّاف في معنى ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ «أي تباطَأتم وتقاعَستُم، وضُمِّنَ معنَى الميل والإخلاد، فَعُدِّيَ بإلى، والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاقّ السفر ومتاعبه، ونحوه: (أخلَدَ إلى الأرض واتَّبَعَ هَواه) وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم»[3]. وبذلك يكون هذا اللفظ قد جمع إلى معناه الأصلي وهو الثِّقَل معنى الميل والإخلاد بقرينة تعدِّيه بحرف الجر (إلى).

وعند النظر إلى دلالة الفعل الذي قيل إن فعل ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ قد ضُمِّنَ معناه وهو

---

(١) الهمزة في ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ للوصل، لذا يَتم الانتقال إلى المقطع الأوّل من هذا اللفظ من كسرة الهاء التي آخر لفظ الجلالة (الله) لأنها تسبقها.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٦٤٨.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢٧١/٢.

الفعل (مال) و (أخلد) نجد أنّ في الفعل (مال) رقةً وليناً لا تناسبان حالة عِصيان أمر الله والخروج عن طاعته، أمّا الفعل (أخلد) فإنه يَعني السكون إلى الشيء، وهذا المدلول مفتقر بدوره إلى الحركة التي نجدها في قوله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ إضافة إلى افتقاره إلى ما فيه من معنى القوة والعنف.

وأخيراً فإنّ للمقابلة الصوتية بين الكلمة التي دُعِيَ إليها المتقاعسون عن الجهاد، وهي ﴿ٱنفِرُواْ﴾ وبين الكلمة التي جَنَحوا إليها، وهي ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ دوراً كبيراً في رسم ملامح هذه الكلمة، ومنحها هذا الإيقاع البَطِيء المّثاقل. فالرقّة والخفّة التي في ﴿ٱنفِرُواْ﴾ بسبب خفاء نونها، ورقّة فائها ورائها، والمدّ الذي في آخِرها، وإيقاعها، جعلت من هذا اللفظ يُوحي بالانطلاق والحركة السريعة. ثم جاء اللفظ المقابل له على الوصف الذي ذُكر، فبرزَ الثِّقَل فيه أشدُّ وَطْءاً، وبَدَت حَرَكَته أكثر بُطءاً مِمّا هو عليه.

٦. ٢. ١. ٢. ٢ ـ (لَيُبَطِّئَنَّ)

من عجائب التعبير القرآني؛ أنه كما دلّ جرس لفظ ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ المشتق من الثقَل على معنى البُطء، دلّ جرس لفظ ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ المشتق من البُطء على معنى الثِّقَل، وقد جاء هذا اللفظ في ذات المعنى، وذات السياق الذي جاء فيه ذلك، ولكن في سورةٍ أخرى، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ...﴾ [النساء].

والتبطئة في اللّغة «التأخّر عن الأمر، يُقال: ما بطّأ بك عنّا، أي: ما أخّرَك عنّا، ومثله الإبطاء وهو مُدَّة العمل لِقلّةِ الانبعاث، وضِدُّه الإسراع وهو قِصَر مدّة العمل للتدبير فيه، ويُقال: بَطّأ في مَشيِه يُبَطِّئ بُطءاً إذا ثَقلَ»[1]. وبذلك يكون «معنى

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ٧٤.

﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ لَيَتشاقلنّ ولَيَتَخَلَّفنّ عن الجهاد»[١]. وقيل المعنى: أن يتثاقَل الانسان عن الجهاد، فيتثبّط هو في نفسه، ويُثَبِّط غَيرَه[٢].

ويقوم معنى التوكيد المتمثل باللاّم المؤكِّدة للفعل في أوّله، ونون التوكيد الثقيلة في آخِره، إضافة إلى تضعيف صوتَي الطاء والنون بتصوير ملامح الثقَل في هذه اللّفظة، كما «ترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلّها، وفي جرس ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ خاصّةً. وإنّ اللِّسان لَيَكاد يتعثّر، وهو يتَخَبّط فيها، حتى يَصِلَ ببطءٍ إلى نهايتها»[٣].

وبالإضافة إلى المعنى اللغوي لهذا اللفظ، والأدوات المؤكِّدة له، فإنّ التركيب المقطعي يأخذ على عاتقه قدراً كبيراً من عملية تصوير الثقل الموجود في جَرس هذا اللفظ، وتصوير حركته الإيقاعية البطيئة:

لَـ	يُـ	بَـطْ	طِـ	ئَـنْ	نَ
قصير	قصير	طويل مقفَل	قصير	طويل مقفَل	قصير

فهذا اللفظ وإن كان يبدأ بمقطعين قصيرَيْن هما: (لَـ / يُـ)، إلاّ أنه يصطدم فجأةً بمقطع طويل مقفَل على صوت الطاء الانفجاريّ المفخَّم (بَـطْ)، يليه مباشَرةً مقطع قصير ثقيل، لأنه مكوَّن من حرف الطاء أيضاً مقروناً بحركة الكسر الثقيلة (طِـ)، ثم يأتي مقطع طويل آخَر مقفَل على صوت النون، فيليه مقطع قصير مفتوح من هذا

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٥٣٢/١.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٦٢.

(٣) التصوير الفني في القرآن: ٧٦.

الحرف أيضاً. فَثِقَل اللّفظ وبُطْؤهُ ناشئٌ عن هذا التناوب بين المقاطع القصيرة المفتوحة والمقاطع الطويلة المقفلَة من جهة، ومن مَجيء المقطعَين القصيرَين الأخيرَين على نفس الصّوت الذي ينتهي به المقطع السابق لهما، وهما الطاء والنون.

وعند الأخذ بنظر الاعتبار ورود هذا اللفظ ضمن عبارة ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ فسيكون من السهولة بِمكان إدراك «أنّ صورةَ التبطئة أدّتها الكلمة ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ بِجَرسها إضافةً إلى ما أدّتْه النونات في الكلمتين السّابقتَين[1] من تأكيدٍ لِهذا الجرس الخاصّ»[2] وقد لوحظ بالإضافة إلى ذلك تأثير توالي المقاطع الصوتية، وتكرار صوت الطاء في أداء تلك الصورة.

٦. ٢. ١. ٢. ٣ـ (يَصَّعَّد)

وقد يأتي جرس اللفظ لِيُصَوِّرَ بأصواته ومقاطعه، دون معناه، معنى الثِّقَل والبُطء. ويُمكن ملاحظة ذلك في لفظ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وفي الآية تشبيه تمثيليّ حيث «شَبَّه اللهُ الكافرَ في نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تَكَلّفَ ما لا يُطيقه، كما أنّ صعودَ السماء لا يُطاق»[3].

---

(١) أخطأ الكاتب في عبارته هذه حيث تكرَّر صوت النون في الكلمات الثلاثة السابقة للفظ ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، وليس في كلمتين فقط. ومبعث الخطأ أنه نقل العبارة القرآنية وقد حُذِفَ منها كلمة ﴿لَمَن﴾، فاقتضَى التنويه.

(٢) التعبير الفني في القرآن: ١٨٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٨٢/٧.

والأصل في ﴿يَصَّعَّدُ﴾ يَتَصَعَّد، أدغمت التاء في الصاد، لِيتضاعَف التشديد في اللّفظ فيأتي جرسُه متناغماً مع معنى الصُّعود الثقيل البطيء، فقد جاء في مجمع البيان في «معنى يتصعّد أنه يثقل الاسلام عليه، فكأنه يتكلّف ما يثقل عليه شيئاً بعد شيء، كقولهم: يَتَعَفَّف ويَتَحَرَّج ونحو ذلك، مِمّا يَتعاطَى فيه الفعل شيئاً بعد شيء. ويَصّاعَد مثل ﴿يَصَّعَّدُ﴾ في المعنى فهو مثل ضاعَفَ وضَعَّفَ وناعَمَ ونَعَّمَ، وهما من المشقَّة وصعوبة الشَّيء»[1]. فجاء هذا اللّفظ على القراءة المشهورة بهذه الصيغة دون لفظِ (يَتصَعَّد) الذي عُدِلَ عنه، ودون لفظِ (يَصّاعَد) الذي يُشاطره المعنى، فرَجَحَهما لتَفوُّقه عليهما بتضعيف صَوتَين متعاقِبَين، هما: الصّاد والعَين، وتكرار مقطعَين متماثِلَين متعاقبَين، أوّلهما: الطويل المقفل، والثاني القصير المفتوح، وذلك كالآتي:

دُ	عَـ	صَعْـ	يَصْـ
قصير مفتوح	قصير مفتوح	طويل مغلق	طويل مغلق

إنّ هذا التكرار في الأصوات والمقاطع هو الذي مَنَحَ لفظ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ جَرساً مُشعِراً بِثِقَل الحركة، وبُطْء الإيقاع، وهما ثِقلٌ وبُطءٌ يُناسبان تماماً المعنى المراد، ويُصَوِّرانه أدَقَّ تصوير.

ومِمّا يُذكر هنا، أنّه لا يُمكن تجاهل الطبيعة الإيقاعية لهذا اللفظ، ودورها في

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ٣٦٢.

تشكيل جرسه، حيث يُعادل إيقاع ﴿يَصَّعَّدُ﴾ العروضيّ وزن (مستفعلُن) المقطوع[1]، وهذه التفعيلة تُشبه إلى حَدٍّ كبير حركة قوائم الناقة المضطربة، ولهذا أطلَقَ الخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) على الوزن الشعريّ الذي يتشكّل من تكرار هذه التفعيلة اسم بحر (الرجز)، وذلك «لاضطرابه كاضطراب قوائم النّاقة»[2]. والثِّقَل والبُطء هما نتيجتان أكيدتان للحركة المضطربة.

ولقد تَمَّ التمهيد لاستشعار جرس هذا اللفظ الثقيل البطيء المضطرب بِما سَبَقَه، في الجملة ذاتها، من ألفاظ شديدة الإيقاع، بسبب ما فيها من أصوات شديدة أو مُضَعَّفة مثل: ﴿يُضِلَّهُۥ﴾، ﴿يَجْعَلْ﴾، ﴿ضَيِّقًا﴾، ﴿حَرَجًا﴾، ﴿كَأَنَّمَا﴾. في حين جاءت الجملة السابقة لها، والمقابلة لها في المعنى، رقيقة الألفاظ، خاليةً أصواتُها من أيّ تضعيف، فهي تَجري على اللِّسان كما يَجري الماء السّلسبيل، وتَهُبُّ نَفَحاتُها الفوّاحة كما يَهُبُّ النسيم العليل، ألا وهي قول اللّطيف الجليل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

٦. ٢. ١. ٣ـ دلالة الجرس على الفعل

كما دَلَّ جرس اللفظ على صوت المعنى وحركته، كذلك نجده في بعض الألفاظ دالاًّ على طبيعة وقوع الفعل ونوعه، وقد يكون هذا النوع من جرس الألفاظ دالاًّ في حقيقته على صوت الفعل وحركته معاً، إلاّ أنّ دلالته على نوع الفعل وطبيعته أجلى وأبيَن.

---

(١) القطع: علة من علل الزيادة تُصيب الوتد المجموع، فيُحذَف منه ساكنه، وهو في (مستفعلن) حذف النون فيصير (مستفعلُ).

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١، ١٣٦.

٦. ٢. ١. ٣. ١ ـ (يُدَعُّونَ . . . دَعًّا)

ورد لفظ (الدَّعّ) مكرّراً في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣] فجاءَ مَرّةً بصيغة الفعل المضارع، وأخرى بصيغة المفعول المطلق، والدَّعّ: الدفع العنيف، والمعنى: يُدفعون بإرهاق وإزعاج[١]. وقد قيلَ في كيفيّة ذلك «أنّ خَزَنَة النّار يَغُلّون أيديهم إلى أعناقهم، ويَجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويَدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزَخّاً في أقفِيَتهم»[٢].

وهذا اللفظ مِمّا يشترك فيه ظِلُّه بالإضافة إلى جَرسِهِ في تصوير معناه؛ فإنّ الدفع العنيف كثيراً ما يَجعَل المدفوع يُخرِجُ صوتاً غير إراديّ فيه عَينٌ ساكنة هكذا: (أعْ) وهو في جَرسه أقرب ما يكون إلى جَرس (الدَّعّ)[٣].

ولِجرس (العين) الحلقيّ الشديد المجهور حِصّة الأسد في تصوير معنى هذا اللّفظ، فقد ورد هذا الصّوت مُضَعَّفاَ في مقطَعَين من مقاطع كلٍّ من الفعل ومفعوله.

وتبدو دلالة جرس هذا اللفظ على معناه بصورةٍ جليّة في المفعول المطلَق ﴿دَعًّا﴾ المكوّن من مقطَعين: أوّلهما طويل مُغلَق (دَعْ) والثاني طويل مفتوح (عَا)؛ فكأنّ المقطع الأوّل (دَعْ) جاء مُصَوِّراً لفعل الدَّفع والزَّخّ كما يُلقيه في الذهن ظِلّ الأصل اللغوي المأخوذ منه هذا اللفظ، فقد جاء في المفردات: «الدَّعّ: الدفع الشديد، وأصله أنْ يُقالَ للعاثر: دَعْ دَعْ»[٤].

وإذا كان المقطع الأوّل (دَعْ) قد صَوَّرَ فعل الدَّفع وشِدَّته، فإنّ المقطع الثاني (عَا)

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٢/٢٧.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/٤٠٩.

(٣) التصوير الفني في القرآن: ٧٩.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ١٧٦.

جاء مُصَوّراً لِرَدِّة ذلك الفعل، فقد ابتدأ من حيث انتهى المقطع الأوّل وهو صوت العين، ولكنّه لَم يوقَف عليه، بل امتدّ لِيُصَوِّرَ مدى قوة الفعل، ولِيَنقُلَ إلى الأسماع حقيقةَ الصّوت الناتج عن ردِّة ذلك الفعل. ولهذا فإنّ مَن يُلقي السّمعَ لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يَكاد «يُحِسُّ بالدفع في ظهور المكذّبين، وهم يُزَخّون مدفوعين، تناسباً مع الخوض واللّعب الذي كانوا فيه. وبينما هم يُدَعّون في عُنفٍ وشِدّة، يُشارُ إلى نار جهنّم فيُقال لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٤]»[١].

٦. ٢. ١. ٣. ٢ ـ (دُكَّتِ ... دَكًّا دَكًّا)

ورد هذا التركيب في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [الفجر: ٢١]. والدَّكُّ بِمعنى «الدقّ، وقد دَكَكْتُ الشيء أَدُكُّه دَكّاً: إذا ضربته وكسرته حتى سوّيته بالأرض؛ ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤]. والدِّكْدِكُ والدَّكْدَكُ والدَّكْدَاكُ من الرمل: ما تَكَبَّس واستوى»[٢].

وعلى الرغم من أنّ أصحاب المعاجم ساوَوا بين الدّكّ و الدقّ، إلاّ أنّ المفسِّرين فرّقوا بينهما؛ بقولهم: «والدَّكّ أبلغ من الدقّ»[٣]. وربّما كانت بلاغة الدَّكّ بسبب ملاءمته للسياق، ومناسبته لحقيقة فعل الدكّ في الآيتين أعلاه. ففي الدّقّ: اختلاط الأجزاء ببعضها، وفي الدّكّ: تَفرُّق الأجزاء عن بعضها[٤]. وفي تَفَرُّق الأجزاء انبساط

(١) مشاهد القيامة في القرآن: ١٧٥.

(٢) لسان العرب: مادة: دكك.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٦٠١/٤.

(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٤٨/٨.

واستواء، ولذلك قيل في الدَّكّ بأنّه «حَطٌّ المرتَفَع بالبسط، يُقال اندكّ سنام البعير إذا انفرش في ظهره»[(١)]. ومن هنا فقد اختير لفظ الدَّكّ دون الدَّقّ في هذين الموضعَين لكونه أدقّ منه وأبلغ، فهو فيهما واقعٌ على الأرض التي وصفها خالقها بقوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ [الحجر: ١٩]. وعليه يكون معنى دكّ الأرض في قوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ «إذا رُجَّت وزُلزِلَت زلزلةً، وحُرِّكَت تَحريكاً بعد تَحريك»[(٢)]. لتستوي بما عليها فتكون هباءً منبثّاً.

وقد اختُلِف في تركيب ﴿دَكًّا دَكًّا﴾؛ هل الثاني توكيد لفظيٌّ للأوّل، أم أنه والأوّل مصدران في موضع الحال[(٣)] فقد عَدّه أكثر النحويين، ومنهم السيوطي، من باب التأكيد اللّفظي الاسميّ[(٤)]، إلاّ أنّ ابن هشام أنكر كونه من باب تأكيد الاسم، وذلك استناداً إلى أقوال المفسِّرين[(٥)]، ومنهم صاحب الكشّاف الذي فَسَّرَ ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ بقوله: «دَكّاً بعد دَكٍّ. كقوله: حسبته باباً باباً، أي: كرَّرَ عليه الدَّكَّ حتى عادَت هباءً منثوراً»[(٦)].

ولابدَّ أنّ الذين قالوا بالتوكيد اللّفظي استندوا إلى قوله تعالى: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] حيث فَهموا منه أنَّ الدكَّ عند قيام السّاعة إنّما يكون مرةً لا غير، بدليل التاء المؤذِن بالوحدة في ﴿دَكَّةً﴾ من جهة، والوصف المؤكِّد له من جهة ثانية. وقد علَّلَ

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٤٨٤.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٣٠/١٨٥.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٨/٣١٠.

(٤) الإتقان في علوم القرآن: ٣/٢٢٢.

(٥) شرح قطر الندى: ٢٨٩.

(٦) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/٧٥٠.

آخَرون مَجيء هذه الصفة «على جهة المبالغة بالإطناب في فخامة الأمر»[١].

ومهما يكن من أمر هذين التركيبين ودلالتيهما، فإنّ الذي يُلفتُ الأنظار فيهما تساوي القيم الإيقاعية بين كلٍّ من الفعل المجهول، والمفعول المطلَق، واللّفظ التالي لهما في كلِّ آية. فالألفاظ الثلاثة في (**دُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**) متساوية الإيقاع، فكلٌّ منها على وزن (فاعلن).

أمّا ﴿دُكَّتِ ...دَكًّا دَكًّا﴾ فإنّ كلاًّ منها على وزن (فَعْلُنْ). إلاّ أنّ جرس هذا الأخير أشَدُّ وضوحاً، وذلك لتساوي القيَم الصّوتية فيه إلى جانب القِيَم الإيقاعية. فقد اشترك في ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ كلٌّ من جرس اللفظ وايقاعه معاً في تصوير حقيقة الفعل ونوعه.

والجرسُ مصدرُه توالي حَرفَي الدال والكاف الانفجاريّيَن، إضافةً إلى التشديد الذي على الكاف. أمّا الإيقاع فَمُتَأتٍّ من تكرار المقطع المغلَق (ص ح ص) في ﴿دَكًّا﴾ مرّتَين، ثمّ تكرار هذا اللفظ مَرّتَين أيضاً، فتوالَت لذلك أربعة مقاطع مُغلَقة على النحو التالي:

دَكْ	كَنْ	دَكْ	كَنْ / كَا
ص ح ص	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ص / ص م

وبذلك التَأمَ الصّوت الحادّ، والإيقاع المنتظَم، مع السياق المفعَم بالزجر والوعيد، في تشكيل جَرس هذا اللّفظ العنيف، فاستطاع أن يُصَوِّرَ طبيعةَ الفعل من خلال صَوتَي الدال والكاف، وشِدَّتَه من خلال الإيقاع، ونوعَهُ من خِلال تكرار الصّوت والإيقاع معاً.

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٢٦/٢.

٦. ٢. ١. ٣. ٣ـ (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)

نظير لفظ ﴿دَكًّا﴾ ـ في دلالة جرسه على الفعل ونوعه، وتصويره لإيقاعه ـ لفظُ ﴿أَزًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. فهو كذلك مُكوَّن من مقطعين: أوّلهما طويل مُغلَق (أزْ)، والثاني طويل مفتوح (زَا)، حيث صَوَّرَ صوتُ (الزاي) الصّفيريّ المضَعَّف طبيعةَ الفعل الاهتزازية من جهة، ونوعَه؛ أي بيان شِدّتَه من جهة ثانية.

أمّا تصوير هذا اللفظ لإيقاع الفعل فَمَبعثُه اجتماع صِفَتَي (الصفير والتضعيف) إلى جانب طبيعة التركيب المقطعي **(أزْ / زَا)**.

فالمقطع الأوّل (أزْ) يُصوِّر نقطة انطلاق الفعل انطلاقةً قويةً بحرفٍ من أشَدِّ حروف العربية، وهو الهمزة.

أمّا المقطع الثاني (زَا) فيبدأ من حيث انتهى سابقه وهو صوت الزّاي، فكأنه يُصوِّرُ تلك الحركة الاهتزازية المرتَدّة عن المقطع الأوّل. ويبقى البابُ مفتوحاً في المقطع الثاني بألف المدّ الذي يُوحي بنوع الفعل الاهتزازي الذي لا يَتوقّف فجأة، بل يَمتدُّ بُرهةً تقِلُّ فيه الحركة شيئاً فشيئاً.

المبحث الثالث

٦. ٣ ـ دلالة ائتلاف اللفظ مع غيره

الائتلاف: الاجتماع والاتِّفاق، يُقال: ائتلَف الشّيء: ألِفَ بعضُه بعضاً. ذكر صاحب الطراز: «الإئتلاف و هو افتعال من قولهم ألَّفَ الخرَزَ بعضَها إلى بعض إذا جمَعَها»[١]. وجاء في اللِّسان: «وقد ائتلَفَ القومُ ائتلافاً وألَّفَ الله بينهم تأليفاً»[٢].

وتتنوّع صور ائتلاف اللّفظ مع غيره بِتَنَوُّع القِيَم الصوتية الداخلة في تشكيل اللّفظ، فهو ينطلق من أصغر وحدة صوتية كالصوت الصّامت، أو الصّوت الصّائت بنَوعَيه القصير والطويل. ثم يَمتدّ بعد ذلك إلى المقاطع الصوتية، ثم منه إلى ائتلاف اللّفظ مع غيره من الألفاظ، أو مع سياق الآية، أو الآيات التي تُمثِّل بُعداً معنوياً خاصّاً.

وجميع الأمثلة المذكورة سابقاً تُعَدُّ شواهد دالّة على ائتلاف اللفظ مع غيره، سواءٌ كان هذا (الغير) نظيره أي: لفظاً، أو قسيمه أي: معنىً، أو ضابطه أي: إيقاعاً، وغير ذلك. أمّا الائتلاف في هذا المبحث فيُقصَد به توالي الألفاظ وائتلافها في السياق لتدلَّ مجتمعةً، وفقاً لمعايير خاصّة، على المعنى المطلوب من غير جهته اللّغوية الظاهرة. وبتعبير آخَر فإنّ هذا التوالي والائتلاف في الألفاظ يدلّ على خصوصية من خصوصيّات المعنى، ويُصَوِّر جانباً من جوانب الحدث، لا يُدرَك إلاّ بإعمال الفكر ومُعاودَة النظر.

---

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣/ ٨٠.

(٢) لسان العرب: مادة: ألف.

٦. ٣. ١ ـ دلالة ائتلاف الألفاظ على نوع الفعل

ذكر أرباب البلاغة من أوجه ائتلاف الألفاظ أن يُلائم بعضها بعضاً، بأن يُقرَنَ الغريب بالغريب والمتداوَل بمثله، وتلتئم معاً بصورةٍ تناسب المعنى، وتنسجم معه. وكيفية تأليف اللفظ مع المعنى هو «أن تكون الألفاظ لائقةً بالمعنى المقصود ومناسبةً له، فإذا كان المعنى فخماً كان اللفظ الموضوع له جزلاً، وإذا كان المعنى رقيقاً كان اللفظ رقيقاً، فيُطابقه في كلّ أحواله، وهما إذا خَرَجا على هذا المخرج، وتلاءما هذه الملاءمة وقَعا من البلاغة أحسن موقع، وتألّفا على أحسن شكل وانتظما في أونق نظام، وهذا بابٌ عظيم في علم البديع، وجاء القرآن الكريم على هذا الأسلوب، فإذا كان المعنى وعيداً وزجراً أو تهديداً، أو إنزالِ عذاب، أو إيقاع واقعة، أُتِيَ فيه بالألفاظ الغريبة الجزلة، وإذا كان المعنى وعداً وبشارةً، أُتِيَ فيه بالألفاظ الرقيقة العَذْبة وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] فلمّا كان مفخّماً للخطب ومُهوِّلاً له وخِيفَ على يعقوب عليه السلام من دوام حزنه وطول أسفه جاء بالألفاظ الغريبة كقوله: (تَفتَأ)[١] و (الحَرَض)[٢]»[٣].

وإذا كان العلوي قد عَدَّ هذه الآية من باب ائتلاف اللفظ مع المعنى، فقد عَدَّها السيوطي من باب ائتلاف اللفظ مع اللفظ[٤]، مضيفاً إلى اللّفظين الغريبين السابقَين لفظاً غريباً آخَر وهو تاء القسم. بقوله: «أتى بأغرَب ألفاظ القَسَم وهي التاء ﴿تَٱللَّهِ﴾،

---

(١) يُقال: ما فَتِئتُ أفعلُ كذا، وما فتأتُ، كقولك: ما زلتُ. (المفردات في غريب القرآن: ٣٧٥).

(٢) الحَرَضُ: ما لا يُعتَدُّ به ولا خير فيه، ولذلك يُقال لِمَن أشرَف على الهلاك: حَرِضَ. (المفردات في غريب القرآن: ١٢١).

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣/ ٨٠.

(٤) يُنظر كذلك: (معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١٤).

فإنها أقَلّ استعمالاً، وأبعَدُ من أفهام العامّة بالنسبة إلى الباء والواو، وبأغرَب صِيَغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار ﴿تَفْتَؤُاْ﴾، فإنّ (تزال) أقرَب إلى الأفهام، وأكثر استعمالاً منها، وبأغرَب ألفاظ الهلاك وهو (الحَرَض)، فاقتَضَى حُسنُ الوضع في النظم أن تُجاوَرَ كلُّ لفظةٍ بلفظةٍ من جنسها في الغرابة تَوَخِّياً لِحُسنِ الجوار، ورغبةً في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع، وتتناسب في النظم. ولَمّا أراد غير ذلك قال: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٩]. فأتى بجميع الألفاظ مُتداولَةً لا غرابةَ فيها»[(١)].

وبذلك اجتمعت الغرابة في هذه الآية في أقسام الكلام الثلاثة: الاسم والفعل والحرف. وهذه الغرابة في الألفاظ ملائمةٌ تَماماً لمعنى الآية؛ فهي جاءت على لسان إخوة يوسف عندما خاطبوا أباهم مستغربين من كثرة ذكره لأخيهم، ومستنكرين عليه ذلك.

ولَمّا كانت هذه الآية تتضمّن مفهومَين؛ أحدهما مَتَرَتِّبُ عن الثاني، فقد جاءت الألفاظ فيها ملاءمة لهذين المفهومَين معاً. أمّا المفهوم الأوّل فهو مداومة يعقوب على ذكر يوسف وتكراره لاسمه. وأمّا المفهوم الثاني فهو استغراب أبناء يعقوب من كثرة هذا الذكر إلى درجة إهلاك النفس. فإذا كانت غرابة الألفاظ السابقة قد جاءت ملائِمةً لاستغراب الأبناء من فعل أبيهم، فقد جاء كذلك صوت التاء مكرَّراً في أوائل ألفاظ: ﴿تَٱللَّهِ﴾ و﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ و﴿تَذۡكُرُ﴾ ثم في ﴿حَتَّىٰ﴾ و﴿تَكُونَ﴾ ليكون تكرار هذا اللفظ ملائماً لمداومة يعقوب على ذكر يوسف وتكريره لاسمه.

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ٢٥٠.

٦. ٣. ٢ ـ دلالة ائتلاف الألفاظ على تكرار الفعل

ونبقى في سورة يوسف ﷺ نفسها، منتقلين من قِصّته مع إخوته إلى قِصّته مع امرأة العزيز. وفي ذات الوقت منتقلين من دلالة تكرار الصوت على تكرار الفعل إلى دلالة الألفاظ المؤتلفة على تكرار الفعل وتصويرها له. نخطو خطوات نحو بيت عزيز مصر ونتأمّل قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣]، لنَتَلَمَّسَ دلالة توالي الألفاظ وائتلافها على توالي الفعل وتكراره.

فالآية تُصوِّر مشهداً حيوياً من مشاهد الجهاد مع النفس الأمّارة بالسّوء، وذلك من خلال توالي ضميرَي المؤنث والمذكر العائدَين على امرأة العزيز وفتاها يوسف الصِّدّيق. إنه مشهد يُصوِّر تلك القوّة الجاذبة بين المرأة والرجل باعتبار غريزة الجنس المتحكِّمة فيهما، كما يُصوِّر في نفس الوقت تلك القوّة الدافعة (المقاوِمة) لعلاقة يُراد لها أن تقوم على غير الفطرة السليمة، وخلافاً للتعاليم السّماوية.

وَرَاوَدَتْ	ـــهُ	الَّتِي	هُوَ	فِي بَيْتِهَا	عَنْ نَفْسِهِ
هي	هو	هي	هو	هي	هو

نتأمّل مجيء ضميرَي التأنيث والتذكير فنجدهما متناوِبَين؛ أحدهما يردف الآخَر، يستتر تارةً في الفعل، وتارةً في الاسم، يظهر مَرّةً متصلاً وأخرى منفصلاً، فينتقل الذهن مع هذا الاستتار والظهور، وهذا الاتصال والانفصال إلى زُلَيخا حيناً، وإلى يوسف حيناً آخَر، هكذا في حركة غير مُتّزنة، ولكنها مرسومة بدقّة متناهية، في ألفاظ أقَلّ من أصابع اليدين اللتين يُتدافع بهما. ولكنها عصِيّة على الترجمة إلى أيّة لغة. وإذا

ما أُريد ذلك تطلب الكثير الكثير من الألفاظ.

ومن العجيب في توالي هذه الضمائر أنّها بدأت بتاء التأنيث، لأنّ امرأة العزيز هي صاحبة المبادرة في المراودة، وانتهت بضمير المذكر، لأنّ يوسف هو الذي امتنع عن الاستجابة لتلك المراودة. فمنها بدأ الفعل انطلاقاً من غريزتها الجامحة، ومنه كان ردّ الفعل بالانصراف عنها انطلاقاً من إيمانه بالله وفطرته الطاهرة.

وقد جاءت هذه الصورة المتداخلة من التدافع تمهيداً للانتقال بالذهن إلى صورة الحدث الواقعية المرسومة بتمام جزئياتها وتفاصيلها. فقد تلا هذه الجملة القرآنية مباشرةً قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾، فتلاه قولها له: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾، ولكنّ رَدَّ يوسف جاء قوياً واثقاً عندما ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ثم يتكرّر ورود ضميرَي المؤنث والمذكر؛ مستتراً فظاهراً، على التوالي في الآية التالية: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]. ولكنّ التناوب هذه المرّة جاء بطريقة مختلفة، وذلك وفق الصورة التالية:

هَمَّتْ	بِهِ	وَ	هَمَّ	بِهَا
هي	هو	-	هو	هي

فقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ جملة واحدة، أما قوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ فجملَتان؛ عُطِفَت إحداهما على الأخرى. وهما متساويتان كَمّاً ونوعاً؛ فهما جملتان فعليّتان، فعلهما واحد، لكنّ الفاعل و (المفعول) يتناوَبان مكانَيْهما في الجملتَين بسبب اختلاف القيمة الدلالية للفعل (هَمَّ) في

كلٍّ منهما. فالمعنى اللغوي للفعل «هَمَّ بالشيء يَهمُّ هَمَّاً: نَواه وأرادَه وعَزَم عليه»[(١)]. إلاّ أنَّ هناك فرقاً بين الْهَمَّتَين، لأنّنا «إذا حَمَلنا الهمَّ في الآية على العزم فلا بدّ من تقدير أمرٍ محذوف يتعلّق العزم به. وقد أمكنَ أن نُعلِّقَ عَزمَه عليه السلام بغير القبيح، ونجعله متناولاً لضَربها أو دفعها عن نفسه. فكأنه قال: (ولقد هَمَّت بالفاحشة وأرادت ذلك، وَهَمَّ يوسف عليه السلام بضربها ودفعها عن نفسه، كما يُقال: هَممتُ بفلانٍ أي: بِضَربه وإيقاعِ مكروهٍ به»[(٢)].

وبذلك يكون ﴿لَوۡلَآ﴾ في قوله تعالى بعده: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ متعلّق بـ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وحده[(٣)]. فهناك تقديم وتأخير، وعليه يكون تقدير الآية: لولا أن رأى برهانَ ربِّه لَفعَلَ ذلك؛ أي: لَهَمَّ بها[(٤)].

ولولا هذا التقدير في الجملة القرآنية، ولولا ذلك التقديم والتأخير لما تناوب الضميران بهذه الصورة. ولَما تَمايز الفِعلان في دلالتيهما، ولَما كانت الجملة الثانية نتيجةً للأولى، حتى تتساويان وتجيء الضمائر فيها وفق هذا النمط الذي يُزيل كلَّ شبهة أو شكّ حول براءة يوسف عليه السلام، حيث جاء فعل زليخا جاذباً، فجاء على إثره فعل يوسف دافعاً، فتساوت رَدّةُ الفعلِ مع الفعل كمّاً ونوعاً، لكنّها تفوّقَت عليها دلالةً، لعدم تساوي الفعل القبيح مع الفعل الجميل.

---

(١) لسان العرب: مادة: همم.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣/٢٢٣.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢/٤٥٦.

(٤) لسان العرب: مادة: همم.

٦. ٣. ٣ ـ دلالة ائتلاف الألفاظ على إيقاع الفعل

نلمح في سورة يوسف ذاتها نموذجاً من ائتلاف الألفاظ مع بعضها، وتواليها وفق نمط خاصّ ليتشكَّل من هذا الائتلاف إيقاع موسيقيّ يكشف بشكل دقيق عن الحالة النفسية التي يُصورها السياق المعنوي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ﴾ [يوسف: ١٦].

والإيقاع الملحوظ في هذه الآية الشريفة يُجسِّد بحقٍّ ما يُسمَى في اصطلاح الفن السابع بالموسيقى التصويرية، وهي الموسيقى المصاحبة للأفلام والقصص التلفزيونية والسينمائية.

ولما كانت قصة نَبِيِّ الله يوسف عليه السلام قد وردت كاملةً، مرّةً واحدةً في القرآن الكريم، وفي سورةٍ واحدةٍ منه، دون قصص سائر الأنبياء والرسل، فقد رُوعِيَ في سَردها جميعُ العناصر الفنية اللازمة لإخراج عَمَلٍ قَصَصيٍّ فَنِيٍّ مُتَميز، من تنوّعٍ في الشخصيات والأحداث، ومقدمة، وتصاعد درامي، وحبكة قصصية، فنهاية سعيدة، وما يكتنف القصة من إثارات فنية، وتغيير مفاجئ لمواقع الأحداث ومواقف الحوار.

وقد رافق كلّ ذلك إيقاعاتٌ مناسبةٌ للزمان والمكان والأحداث والمواقف والشخصيات. فكانت كما وصَفَها قائلها المبدع المصَور: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾، وذلك لما تَضَمَّنَتْه، إضافة إلى ما ذكرنا، «من العِبَر والنُّكَت والحِكَم والعَجائب التي ليست في غيرها»[1].

ونكتفي هنا بالاشارة إلى الإيقاع التصويري الذي تُجَسِّدُهُ هذه الآية فقط من تلك السورة الرائعة. فبعدما ألقَى إخوةُ يوسفَ أخاهم في غيابَة الـجُبّ، رَجعوا في ظلمة

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢/٤٤١.

الليل، وهم يبكون، ويُظهرون الأسَفَ والجزَع على يوسف، ويتغمّمون لأبيهم[١].

فالهيئة التي جاؤوا فيها إلى أبيهم، سواءٌ فيما يبدو على ملامحهم، أو على طريقة مَشيِهم، هي هيئة أو حالةٌ مفتَعَلة، كانوا يصطنعون فيها الأسى والحزن والجزع والبكاء على أخيهم، تمهيداً للإعتذار الذي عليهم أن يختلقوه لأبيهم عمّا سيزعمون وقوعه. فجاء الإيقاعُ كذلك مُفْتَعَلاً مُصطَنعاً رَتيباً، يوازي ذلك الحدث المفتَعل، ويناغم تلك الحالة المصطَنَعة.

ونستعين هنا بالايقاع العروضي، لتوضيح النمط الموسيقي الذي يُصوره توالي ألفاظ هذه الآية، وليتسنّى لنا تحديدُ ملامحها النغمية المتّسِقَة مع صورة الحدث. فنحن حينما نُخضِع هذه الآيَةَ للتحليل الإيقاعيّ نجدها على هذه الصورة:

يَبْكُون	عِشَاءً	أَبَاهُمْ	وَجَاءُوا
o — —	— — U	— — U	— — U

وهذا الإيقاع يناظر (عدا المقطع الأخير) إيقاعَ البحر المتقارب الذي يَمتاز بنغمة واحدة (فعولن) متكرِّرة. وقوام هذه النغمة مقطع قصير، وآخران طويلان يليانه على هذا الترتيب (U / ــ / ــ). وأقلّ ما يُقال عن هذا الإيقاع أنه مضطرد التفاعيل، منساب، يَصلح لكلِّ ما فيه تعدادٌ للصفات، وسَرْدٌ للأحداث في نَسَق مستمر[٢]. وهي صفات تتلائم تماماً والحدث الذي التأم للتعبير عنه في هذه الآية الشريفة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٧٢/٢.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: ٣١٢/١.

لكنّ الإيقاع الذي يحكم هذه الكلمات ويَضبِطها، ويَمنحَها القدرة على تصوير تلك الحالة النفسية المثيرة للشفقة لأخوة يوسف لا يكاد ينحصر في كثرة المقاطع الطويلة، وورودها بشكل متناسق فحسب، بل إنه ليكتسبُ خصوصيته النغمية كذلك من شيئين آخَرين لا يَقلَّان أهميةً عن ذلك، وهما:

ـ المدّ المتكرر في كلّ كلمة على المقاطع الطويلة.

ـ ما يتبع هذه المدود والمقاطع الطويلة من شِبه وقف، يتواصل معه النَّفَس دون انقطاع، وذلك ما بين آخر وأول كلٍّ من لَفظَتي: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ﴾، ولَفظَتي: ﴿أَبَاهُمۡ عِشَآءً﴾، حيث ينـدفع النفس ويبلغ أقصَى مَداه في أول الكلمة الأولَى منهما، ثم يَسترخي في آخرها هابطاً، ولكنه لا يلبث أن يَعترضَه حرف حلقي يخرج من أقصى الحلق، هو الهمزة في ﴿أَبَاهُمۡ﴾، وآخَر مثله يخرج من وسط الحلق، هو العين في ﴿عِشَآءً﴾. وهو ما يَمنح الآية امتداداً نغمياً حادّاً، يُوحي بالانفعال والبكاء، ونكاد نسمع منه حَشرَجَة الصّدر.

ونكاد نتلمّس حقيقة الإيقاع الذي يُميِّز هذه الآية، ويَمنحها بُعداً دلالياً مُوحِياً عندما نستنطق المقاطعَ الصوتيةَ الموزَّعة على كلماتها الأربعة، والتي تنتظم وفق الشكل الآتي:

الكلمة الأولى			الكلمة الثانية			الكلمة الثالثة		
وَجَاءُوا			أَبَاهُمْ			عِشَاءً		
المقطع الأول	المقطع الثاني	المقطع الثالث	المقطع الأول	المقطع الثاني	المقطع الثالث	المقطع الأول	المقطع الثاني	المقطع الثالث
وَ	جَا	ؤا	أ	بَا	هُمْ	عِـ	شَا	ءَ نْ (يْ)
ص ح	ص م	ص م	ص ح	ص م	ص ح ص	ص ح	ص م	ص ح ص

الكلمة الرابعة	
يَكُون	
المقطع الأول	المقطع الثاني
يَـْ	كُونْ
ص ح ص	ص م ص

والذي يبدو للوهلة الأولى من هذه المقاطع هو ما يلي :

١ــ اشتراك الكلمات الثلاث الأولى في عدد المقاطع. وهي ثلاثة لكلٍّ منها، واقتصار الكلمة الرابعة على مقطعين فقط.

٢ــ اشتراك الكلمات الثلاث الأولى في المقطعين الأول والثاني، وهما على التوالي: (ص ح) + (ص م)، أي: مقطع قصير مفتوح فمقطع مديد.

٣ــ اشتراك الكلمتين الثانية والثالثة في جميع مقاطعهما. فهما إضافة إلى اشتراكهما في المقطعين الأول والثاني كما أشرنا، يشتركان كذلك في المقطع الثالث، وهو (ص ح ص)، في حين جاء المقطع الثالث من الكلمة الأولى امتداداً للمقطع الثاني المشترك.

ومن خلال هذه المشتركات الثلاث يتشكّل الإيقاع المتفرد لهذه الآية، وتتحدّد طبيعتها النغمية المعبرة.

٤ـ اشتراك الكلمات الثلاث الأولى في كون المقطع الثالث في كلٍّ منها يبدأ بصامت حلقي، هو الهمزة في الكلمة الأولى، والهاء في الثانية، والهمزة في الثالثة. وكذلك اشتراك الكلمتين الثانية والثالثة في ابتدائهما بصوت حلقي أيضاً، هما الهمزة والعين. فابتداء كل مقطع ختامي من كلّ كلمة بصوت حلقي، ومجاورته لنظير له في المقطع الأول من الكلمة التالية، وما يتطلّبه كلّ ذلك من مَشَقّة في النطق، يُعزِّز حالة النبر في الكلمات، وما ينتج عنها من إيقاع ثقيل يزيد من التوازن الملحوظ في المقاطع.

٥ـ اشتراك المقطع الثالث من الكلمة الثالثة (ص ح ص) مع ما يليه، أي: مع المقطع الأول من الكلمة الرابعة، فهو كذلك (ص ح ص). ويتّحِد هذان المقطعان المتماثلان والمتواليان من خلال الإدغام الحاصل بينهما أثناء التلاوة، فينتهي المقطع السابق بالياء ويبدأ المقطع اللاّحق بالياء أيضاً. والغاية من هذا الإدغام ربط الحركة الإيقاعية لمشية إخوة يوسف مع حالة البكاء المصطنعة لديهم. ويُلاحظ عدم وجود إدغام بين الكلمتين الأولى والثانية، ولا بين الثانية والثالثة، وذلك بسبب ابتداء هاتين الأخيرتين بحروف الحلق، فيتعيّن القطع والنبر فيها ، مِمّا يُضفي توازناً إيقاعياً إلى الجملة ينسجم مع حركة مَجيء إخوة يوسف المفتَعَلَة باتِّجاه أبيهم.

٦ـ ينفرد المقطع الأخير وهو الثاني من الكلمة الرابعة بِمقطع: طويل (مديد) مغلَق بصامت (ص م ص)، لأنه أنسب لتصوير حالة البكاء التي جاؤوا عليها وما يرافقه من مدّ للصوت.

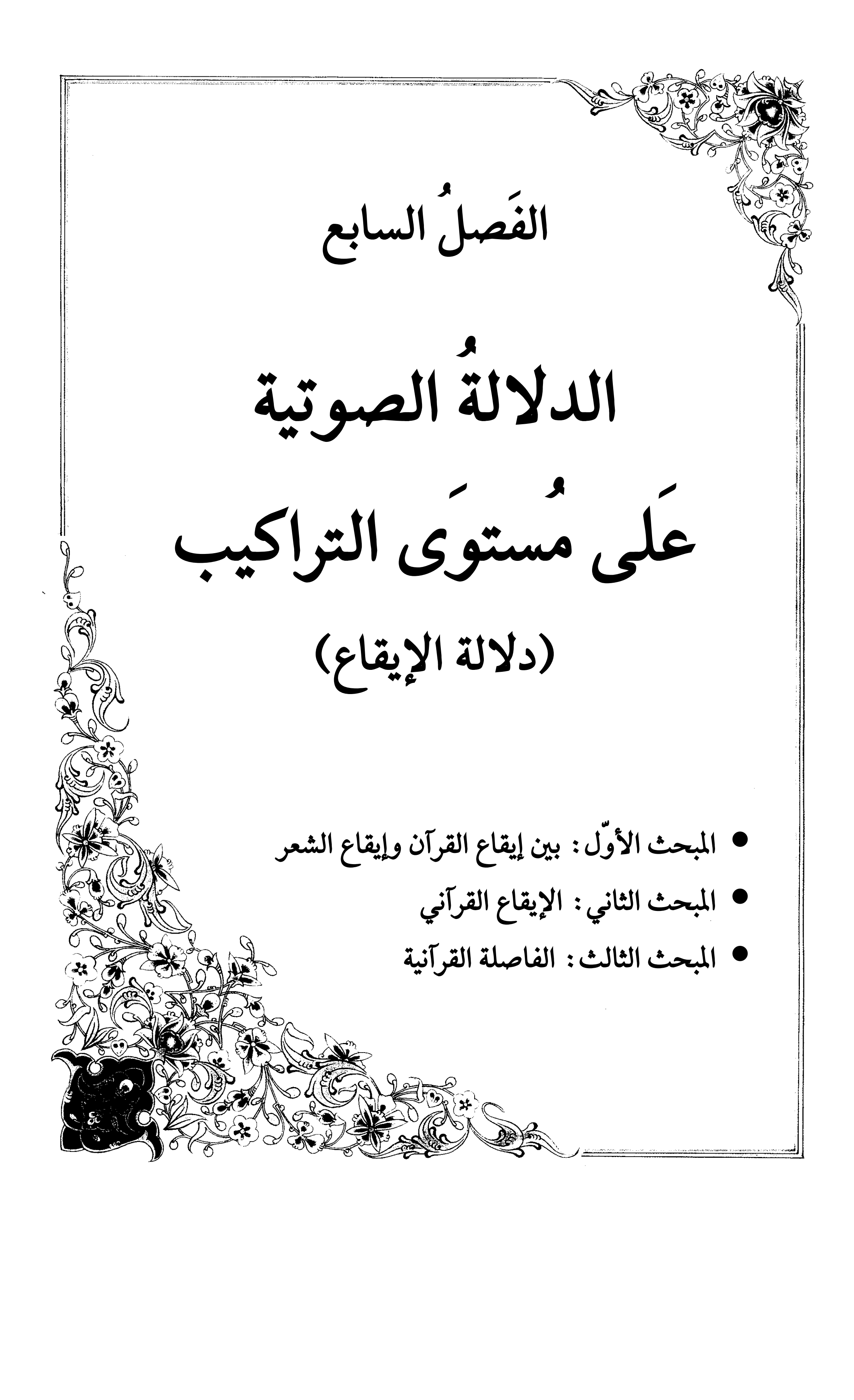
ثم تأتي الآية التالية، فيظهر اضطرابُ إخوةِ يوسف من خلال قصِّهم للحدث المزعوم، في قوله تعالى:

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٍ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧]، فيظهر في عباراتهم ــ وهم يعتذرون

لأبيهم ـ حرف المدّ مكرّراً خمس عشرةَ مرّة. سواءٌ مع نون المتكلم مع الغير (سبع مرّات)، أو دون ذلك (ثماني مرات). فتكرار هذه المدود وخاصة (نا) التي تظهر فيها صورة الأنا الجمعي، إضافة إلى استتارها في كلمتي ﴿نَسۡتَبِقُ﴾ و ﴿صَٰدِقِينَ﴾ دليل قويٌّ على تصنُّعهم واضطرابهم وتَخَبُّطهم بسبب ما ارتكبوه.

لذلك فقد طغَى هذا الاضطراب على إيقاع هذه الآية أيضاً، على العكس تماماً من الايقاع المتتابع والمضطرد للآية السابقة. ولو أُتيح لباحث دراسة هذه السورة، بل هاتين الآيتين، من الناحية الصوتية، دراسةً تفصيلية، لوقف على إعجازٍ جديدٍ لهذا الكتاب الكريم، لا يدع مجالاً لمشكِّك بمصدره الرباني.

ومن تحليل هذه الآية، بألفاظها الأربعة المؤتلفة مع بعضها موسيقياً، ننتقل إلى الفصل الأخير من الرسالة المخَصَّص لدراسة الإيقاع في النّصّ القرآني.



الفَصلُ السابع

الدلالةُ الصوتية عَلى مُستوَى التراكيب

(دلالة الإيقاع)

- المبحث الأوّل: بين إيقاع القرآن وإيقاع الشعر
- المبحث الثاني: الإيقاع القرآني
- المبحث الثالث: الفاصلة القرآنية

الفصل السابع
الدّلالةُ الصّوتية عَلى مُستوَى التراكيب
(دلالة الإيقاع)

تمهيد

في الفصول الثلاثة السابقة من دراستنا للدلالة الصوتية في القرآن الكريم تَمَّ الانتقال من مستوى الحروف إلى مستوى الحركات، ومن مستوى الحركات إلى مستوى الألفاظ. ومن هذه المستويات الثلاثة التي تُمثِّل الايقاعَ الداخلي ينتقل البحث إلى دراسة الايقاع الخارجي للنصّ القرآني. ويُقصَد بالايقاع الخارجي الموسيقى الناتجةُ عن ارتباط الألفاظ وتآلفها وتناسقها، حيث إنّ الايقاع العام لأيِّ نصٍّ إبداعيّ شعراً كان أم نثراً، إنما يتولّد من هذين الايقاعين معاً[1].

فهذا الفصل يتناول الدلالة الصوتية على مستوى التراكيب التي تَمتدّ لتشمل الجمل والآيات والسُّوَر القرآنية. فهذا المستوى من البحث يتناول البنية اللّغوية للنصّ القرآني باعتبارها وحدة عضوية متماسكة، متنوعة الأصوات والايقاعات بسبب تنوُّع الموضوعات والأغراض. ولَمّا كان القرآن الكريم كتاب حياة فقد تَمَيَّزَت كلُّ جملةٍ فيه

(١) الإبلاغية في البلاغة العربية: ٦٨ ـ ٦٩.

بلونٍ خاصّ وإيقاع خاصّ، كما الحياة في تعدّد ألوانها وتنوع إيقاعاتها.

وتكمن أهمية الإيقاع القرآني في توظيفه ـ باعتباره عنصراً جمالياً ـ لتوصيل المعنى ومنحه القدرة على التأثير. فالايقاع في القرآن ـ خلافاً لغيره من النصوص ـ يقوم بأداء وظيفتين اثنتين في آنٍ واحد: إحداهما جمالية والأخرى دلالية. ومن هنا فقد بلغ الايقاع القرآني قمّةً في الانسجام والتأثير، مِمّا أرغم أرباب الفصاحة والبيان على الاذعان بتفوّقه، والتسليم بعجزهم عن معارضته.

المبحث الأوّل

١.٧ ـ بين إيقاع القرآن وإيقاع الشعر

يكمن الإعجاز الفني للقرآن الكريم في بعدين أساسيينِ، أحدهما يتمِّم الآخر:

البعد الأول: هو كون القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين[١]، وهو نفس اللغة التي ألِفَ العرب استخدامها و أجادوا التعبير بها في فنون مختلفة من القول كالشعر و ضروب النثر: من سجع و خطابة. إلاّ أنهم وعلى الرغم من ذلك عجزوا عن معارضته، و باءت بالفشل الذريع كلُّ محاولاتهم في محاكاته أو تقليده، وفوق ذلك فإنّ فصحاء العرب وبلغاءهم كانوا قد أدركوا منذ اللحظات الأولى لنزول القرآن الكريم بأنه أرقى و أعظم مما أبدعَتْه قرائحهم، و أسمى و أجلّ من أن يعارضوه أو يأتوا بمثله، وذلك بعد أن بهرهم بديع نسجه، وأذهلتهم قوّة بنائه، فضلاً عن بلاغته وحكمته[٢]، مع انهم ينسجون من نفس الكلمات، و يبنون بذات اللّبنات التي عليها نسج القرآن، و بناء جمله و عباراته.

---

(١) صرّحت بذلك العديد من الآيات القرآنية. نذكر منها على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصِّلت: ٣].

(٢) اعترف أساطين البلاغة من الجاهليين ببلاغة القرآن الكريم، كالوليد بن المغيرة، وكان من ألدِّ خصوم الرسول صلى الله عليه وآله، فحين سمعه يتلو بعض آي الذكر الحكيم، أنطلق إلى نفر من بني مخزوم و قال لهم: «و الله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس و لا من كلام الجن، إنّ له لحلاوة، و إنّ عليه لطلاوة، و إنّ أعلاه لُمثمِر، و إنّ أسفله لُمغدِق، و انه يعلو وما يُعلى» (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٦٤٩/٤).

وها هنا يتجلّى البعد الفني الثاني لإعجاز القرآن الكريم، حيث إنه ـ و إنْ رُصِفَتْ آياته بذات الحروف و الكلمات العربية ـ خرج على العرب بهيكل جديد، و قالب خاص، و نسيج بديع ما عهدوه، و لم تُسْعِفْهم مواهبهم الفذّة في محاكاته أو النّسج على منواله، أو الإتيان بمثله[١]، فقد كان القرآن و لم يزل نسيج وحده.

٧.١.١ ـ نفي الشعر عن القرآن

عندما وجد مشركو قريش أنفسهم مكتوفي الأيدي إزاء البيان الفريد و النسيج المعجز للقرآن الكريم لجؤوا إلى التهوين من معجزة الرسول الكريم، فوصفوا القرآن بالشعر والسحر، و افتروا على صاحب الرسالة بأنه شاعر وساحر وكاهن[٢]، وغيرها من الصفات التي يجلّ عنها ﷺ..

ودحضاً لافتراءات أولئك المغرضين، ورداً على تطاولهم بالإساءة إلى الرسول والرسالة، فقد نزلت الآيات العديدة التي تنفي الشعر عن القرآن[٣]، و تُنزِّه

(١) كان الله تعالى قد تحدّى أمة العرب و البشر جميعاً أن يأتوا بمثل القرآن في بضع آيات منها قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

(٢) من الآيات التي أشارت إلى اتهامات المشركين، و افتراءاتهم قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القصص: ٣٦]، و ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، و ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٨]، و﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصّافات: ٣٦].

(٣) من الآيات القرآنية التي ردّت على افتراءات المشركين قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، و﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقّة]، و﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

الرسول ﷺ عن قول الشعر و غيره. فكان لتلك الآيات أنْ أفْحَمَتْهم وكمّمتْ أفواههم، وردّتهم على أعقابهم خاسئين. وأما افتراؤهم على الرسول الكريم ﷺ ووصمهم إيّاه والقرآن الكريم بتلك الصفات التي هي أبعد ما تكون عنهما، فليس له ما يُبَرِّرُهُ سوى إصرار المشركين على الشرك والكفر بالله.

وربّما كان وصفهم القرآن بالشعر، والنبيّ ﷺ بأنه شاعر على وجه الخصوص «محمولاً على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر لدقة نظرهم في وجوه الكلام، وطرق لهم في المنطق»[1].

إذن فليس وصفهم ذلك نابعاً من اعتقادهم بأنّ نظم القرآن هو كنظم الشعر، أو أنهم عثروا بين ثناياه على ما يمكن أن ينسبه إلى الشعر في شيء. و إذا ما كان لبعض الآيات القرآنية إيقاعات شبيهة بتلك التي تشتمل عليها القصائد الجاهلية، فانّ ذلك ليس من شأنه أن يطعن في قدسيّة القرآن الكريم. فمن المسلَّم به أنّ عبارات القرآن الكريم تحتشد «بصنوف مختلفة من الإيقاع المدهش... إلى الدرجة التي تلفت الانتباه. حتى إننا لا نكاد نَمُرّ بسورة أو مقطع أو حتى الآية المفردة إلاّ و نجدها ذات طابع إيقاعي خاص»[2]، وهو طابع ملحوظ في النص القرآني على نحو يسمه بالتفرُّد. وهو قبل ذلك له مبرِّراته، حيث إن الآيات القرآنية المباركة قد انتظمت بكلماتٍ عربية، و تألّفت وفق الأصول والضوابط الثابتة للّغة العربية التي عليها كلام العرب و آدابهم.

و لَمّا كانت كلمات أية لغة عند انتظامها ينتج منها إيقاعات متعددة و متنوعة خاصّة بها ـ مهما كان أسلوب النظم أو فن القول ـ فليس غريباً أن تظهر في طيّات بعض الآيات المباركة مقاطع، وجمل ذات إيقاعات معينة، تشبه إيقاعات الأوزان

---

(١) إعجاز القرآن: ٤٣.

(٢) الاسلام والفن: ٢٦.

الشعرية العربية، لأنها انتظمت بذات اللّغة التي نظم بها الشعر. وليس من المنطق أن يكون ذلك مدعاةً لإلصاق صفة الشعر بالقرآن.

وقد رَصَدَ علماء الاسلام نماذج من تلك التراكيب والآيات القرآنية التي جاءت على أوزان الشعر العربي، منهم السيوطي الذي أفرد له باباً سَمّاه الانسجام، عَرّفه بقوله: «هوأن يكون الكلام لِخُلوِّه من الانعقاد متحدراً كتحدّر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقَّةً، والقرآن كلّه كذلك. قال أهل البديع: وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونةً بلا قصد، لقوة انسجامه، ومن ذلك ما وقع في القرآن موزونًا»[١].

وبناءً على ذلك حاول بعض الباحثين المعاصرين أن يثبتوا وجود شعر في القرآن، «وقد صرّح المستشرق الشهير (بروكلمان) بأنّ محاولات نحاة العرب كالسيوطي و ابن فارس للكشف عن أبيات من الشعر في القرآن لم تكن مثمرة. كما أنّ نظرية (مولر) التي أيّدها (حاير)، وهي أنّ قالب القرآن من القوالب الشعرية قد رفضها (نولدكه). ولكن هدف الباحثين العرب كان مختلفاً كلّ الاختلاف عمّا رمَى إليه بعض هؤلاء المستشرقين، فالباحثون العرب كان همّهم أن يرصدوا كلّ الظواهر الفنيّة الموجودة في القرآن في محاولة لاستكشاف جوانبه المختلفة، أمّا المستشرقون فلعلّهم قد أرادوا أن يستغلّوا هذه الظواهر في تأييد فكرتهم في أنّ القرآن ليس وحياً من عند الله»[٢].

وكان الباقلاني قد أفرد في كتابه: إعجاز القرآن فصلاً مستفيضاً بعنوان: (في نَفْي الشعر من القرآن) حاول فيه، بما عُرف به من قدرة على المحاجّة و قوة في المنطق، أن ينفي الشعر عن القرآن الكريم من عدّة وجوه، نلخصها في أربع نقاط:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٢٩٦/٣.

(٢) القرآن الكريم وموقفه من الشعر والشعراء: ٩٤ ـ ٩٩.

١- إنّ فصحاء العرب لم يرَوا في القرآن شعراً أو أنه شبيه بشعرهم، وعليه فانهم لم يعارضوه كعادتهم في معارضة الشعر، مع سهولة ذلك عليهم و تفنّنهم في نظمه.

٢- يُجمع العروضيون على أنّ اقّل الشعر هو ما كان من بيتين، و زعم آخرون إنّ أقلّه ما تكوّن من أربعة أبيات مقفّاة، ومثل هذا لم يرد في القرآن الكريم.

٣- إنّ الأبيات إذا اختلف رويّها لم تعد شعراً كما يرى بعض العلماء.

٤- لا يُسمّى الكلام شعراً ما لم يُقصَد إليه قصداً، أو ما لم يَنْوِ قائلُه أو كاتبُه الشعر. أما أن يأتي الكلام موزوناً عَفواً و بِمحض المصادفة فلا يُعَدّ شعراً، و إلاّ لَعُدّ جميعُ الناس شعراء لاحتمال ورود مثل هذا الكلام الموزون على ألسنتهم جميعاً. فقد يقول العامي لصاحبه: (اغلق الباب و ائتني بالطعام) فيكون كلامه على وزن (فاعلاتن مُتَفْعلن فاعلاتن) و هو من الخفيف[1].

وكان الجاحظ قد استدل بكلام شبيه بهذا على نفي وجود الشعر في القرآن حيث قال: «اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل (مستفعلن فاعلن) كثيراً. وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً. ولو أنّ رجلاً من الباعة صاح (من يشتري باذنجان) لقد كان تكلّم بكلام في وزن (مستفعلن مفعولاتْ)، فكيف يكون هذا شعراً و صاحبه لم يقصد إلى الشعر؟! و مثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيّأ في جميع الكلام، و إذا جاء المقدار الذي يعلم انه من نتاج الشعر، و المعرفة بالأوزان و القصد إليها، كان ذلك شعراً»[2].

---

(١) إعجاز القرآن: ٤٣ ، وموسيقى الشعر: ٢٢٣.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ١٥٤.

٧. ١. ٢ ـ تراكيب قرآنية مُماثلة لأوزان الشعر

والتراكيب أو الآيات التي تجري على أنماط البحور الشعرية المعروفة كثيرة، منها ما يأتي نظير بيتٍ تامٍ، ومنها ما يُقابل مجزوء البيت، أو مشطوره، و أمثلتها على التوالي:

قوله تعالى: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] وإيقاعه يُماثل إيقاع البحر الوافر التام[١]، بعد ضَمٍّ لميم في ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، وإشباعها، وتحريك ميم ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾. وتحريك ميم الجمع، وإشباع الحركة من الضرورات الشعرية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ١٨]. وهو يُماثل مجزوء الخفيف[٢].

وقوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]. وهو يُماثل مشطور السّريع المطويّ الموقوف[٣]، بعد الوقف على ﴿تُوعَدُونَ﴾. وقد ضمّنه أحد الشعراء في بيتٍ له قائلاً:

قَدْ قُلْتُ لمّا حاولوا سَلْوَتي هَيْهاتَ هيْهاتَ لِما توعدون[٤]

---

(١) وتفعيلات الشطر الواحد منه: (مفاعَلَتن مفاعَلَتن فعولن).

(٢) وتفعيلات الشطر الواحد منه: (فاعلاتن مستفعلن).

(٣) الطَّيّ: من الزحاف المفرد، وهو حذف الحرف الرابع الساكن من التفعيلة. والوقف: من علل النقص، وهو تسكين الحرف السابع المتحرك من (مفعولاتُ). فتكون تفعيلات هذا الوزن: (مستفعلن مستفعلن مفعلاتْ).

(٤) إعجاز القرآن: ٤٣.

ونحن نكاد نعثر على نظير لكل إيقاعات البحور الستة عشر في ثنايا الآيات القرآنية المباركة. وقد ضمّن الكثير من أصحاب العَروض منظوماتهم بتلك الآيات الشّريفة كضوابط وشواهد ومفاتيح لأوزان الشعر العربي لكي يسهل حفظ تلك الأوزان على المتعلّمين، فيهتدوا إليها بواسطة تلك الآيات. ولعل أشهر تلك المنظومات هي منظومة شهاب الدين على بحور الشعر الستة عشر، وهي التي ضمّنها أسماء البحور، وصور تفاعيلها، و التراكيب أو الجمل أوالآيات القرآنية التي تُماثل كل بحر(1). نوردها هنا لنرى مدى التّنوّع الذي يمتاز به إيقاع القرآن الكريم:

١- الطويل:

أطالَ عَذولي فيك كُفْرانَهُ الهوى	وآمَنْتَ يا ذا الظَبْي فانْسَ و لا تَنْفَرْ
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن	﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

[الكهف: ٢٩]

٢- المديد:

يا مديد الهَجْرِ هَلْ مِنْ كِتابٍ	فيه آيات الشِّفا للسَّقيمِ
فاعلاتن فاعلن فاعلاتن	﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾

[يونس: ١]

٣- البسيط:

إذا بسطت يدي أدعو على فئةٍ	لاموا عليك عَسَى تخلو أماكنُهم
مستفعلن فعلن مسفعلن فعلن	﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾

[الأحقاف: ٢٥]

(1) ميزان الذهب: ١٠٥.

٤- الوافر:

غَرامي في الأحبّـةِ وَقّرَتْه وُشـاةٌ في الأزقّـةِ راكِزونَا

مفـاعلتن مفاعلـتن فعولن ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾

[المطففين: ٣٠]

٥- الكامل:

كمُلَتْ صِفاتُكَ يا رشا وأولو الهوى قــد بـايعـوك وحظّـهم بك قد نَما

متـفاعلـن متـفاعلـن متـفاعلـن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا ...﴾

[الفتح: ١٠]

٦- الهَزَج:

لَئِـنْ تَهــزَجْ بِعُشّـاقِ فهمْ في عِشقِهم تاهوا

مفــاعيلن مفـاعيلن ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾

[آل عمران: ١٧٣]

٧- الرجز:

يا راجزاً باللّومِ في موسى الذي أهوَى وَ عِشْقي فيهِ كانَ المُبتَغَى

مسـتفعلن مستفعلن مسـتفعلن ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾

[طه: ٢٤]

٨- الرمل:

إنْ رَمَـلْتُم نحو ظَبْيٍ نافرٍ فـاستَمِيلـوهُ بداعي أُنْسِهِ

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾

[يوسف: ٣٢]

٩- السَّريع:

سارِعْ إلى غِزْلانِ وادي الحمى	وقُلْ: أيا غيدُ ارْحموا صَبَّكُمْ
مستفعلن مستفعلن فاعلن	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾

[النساء: ١]

١٠- المُنْسَرِح:

تَنسرِحُ العَيْنُ في خُدَيْدِ رَشًا	حيَّ بِكَأسٍ وقالَ: خُذْهُ بِفِي
مستفعلن مفعولات مستفعلن	﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى...﴾

[الفتح: ٤]

١١- الخفيف:

خفَّ حَمْلُ الهَوى علَيْنا و لكنْ	ثَقَّلَته عَواذِلٌ تَتَرنَّمْ
فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن	﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾

[الفرقان: ٦٥]

١٢- المضارع:

إلى كَمْ تُضَارعونا	فَتىً وَجْهُهُ نَضِيرُ
مفاعيلُ فاعلاتُنْ	﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾

[الملك: ٨]

١٣- المقتضَب:

إقْتَضِبْ وُشاةَ هَوىً	مَن سَناكَ حاوَلَهُمْ
مفعلاتُ مُفْتَعِلن	﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾

[البقرة: ٢٠]

١٤- المجتَثّ:

إجتُـثّ مَن عَابَ ثَغْراً فيـهِ الجُمانُ النَّظـيمُ

مسـتفعلن فـاعلاتـن ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾

[البقرة: ٢٥٥]

١٥- المتقارب:

تَقارَبْ وَهاتِ اسْقِني كأسَ راحٍ وَباعِدْ وُشـاتَكَ بُعْـدَ السَّـماءِ

فعولن فعـولن فعـولن فعـولن ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ﴾

[الكهف: ٢٩]

١٦- المتدارك:

دارِكْ قَلْبي بِلَـمَى ثَغْـرٍ في مَبْسَـمِهِ نَظْمُ الجَـوهَرْ

فعلن فعلن فعلن فعلن ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾

[الكوثر: ١]

فهذه المنظومة وغيرها[١] تدلّ بوضوح على أنّ جميع إيقاعات الشعر العربي كانت قد احْتَوَتْها الآيات القرآنية، بِما فيها الأوزان التي كان يفتقر إليها الشعر الجاهلي، وهي: المضارع، و المقتضب، و المجتثّ، و المتدارك، مِمّا قد يدل على أنّ الأوزان التي توصّل إليها شعراء العصور اللاحقة إنّما قدِّر لها أنْ ترى النّور، و تظهر إلى الوجود، بفضل توفّر التراكيب والجمل و الآيات القرآنية على الإيقاعات المتنوّعة التي اهتدى بواسطتها الشعراء إلى وضع الأوزان الجديدة[٢].

(١) ينظر: منظومة د.صفاء خلّوصي في كتابه (فن التقطيع الشعري والقافية: ٣٦ ومابعدها).

(٢) نشأة أوزان الشعر العربي وتطورها: ١٠١ ـ ١٠٤.

ولكنّ مجيء هذه التراكيب والجمل القرآنية وفق أوزان الشعر العربي لا يُمكن أن يُعَدَّ امتيازاً للنظم القرآني، فهو تَماثل غير مقصود، وليس له ما يُبرِّره من الناحية الدلالية، إلاّ ما كان من انسجامه النّغَمي مع السياق العام للآية أو السورة.

فايقاع القرآن شيءٌ فوق هذه الأنغام المقتطعة من ذلك النسيج المحكَم السبك، المتفجِّر ألحاناً ليس كمثلها ألحان، لأنها من صنع الله الذي أتقنَ توقيعها، فحار في كُنهها العلماء وأرباب الفصاحة والبيان، فراحوا منذ بواكير نزول القرآن يتلَمّسون مكامن هذا الايقاع وسِرَّه، فانتهوا إلى حقيقة واحدة؛ وهي أنّ هذا الايقاع لا يُماثل أيّاً مَمّا ألفوه من ضروب القول عندهم، فلا هو من الشعر بقريضه ورجزه، ولا من النثر بسجعه وخُطبه.

وخلاصة القول فيه: «انّ النسّق القرآني قد جمَعَ بين مزايا النثر والشعر جميعاً. فقد أعفَى التعبير من قيود القافية الموحّدة والتفعيلات التّامّة، فنالَ بذلك حريّةَ التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة. وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تُغني عن التفاعيل، والتقفية المتقاربة التي تُغني عن القوافي، وضَمَّ ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا، فَشَأى النثرَ والنظمَ جميعاً»[1].

فالايقاع القرآني إذن يختلف عن إيقاع الشعر القائم أساساً على تفعيلة واحدة أو تفعيلتين يلتزمهما الشاعر في القصيدة الواحدة. كما أنّ الفواصل القرآنية تختلف هي الأخرى عن قافية الشعر الموحّدة مثلما تختلف عن قوافي السجع، فالقرآن لا يُقيِّد معانيه بقيودهما، ولا يُضَحِّي بالغاية من أجل الوسيلة. بل إنه يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه للإيقاع والفاصلة القرآنية، ويَمنحهما حرية الحركة والانطلاق ليأتِيَ كلٌّ منهما على قدرٍ معلومٍ مناسبٍ لقدرِ المعنى، ومُبيِّنٍ له.

(١) التصوير الفني في القرآن: ٨٥.

المبحث الثاني

٧. ٢ ـ الإيقاع القرآني

الايقاع (Rhythm) ظاهرة موغلة في القِدَم، عرَفها الانسان في حركة الكون المتعاقبة المتآلفة المنتظَمة، وعرَفها في حركة الكائنات من حوله، ثم اكتشفها في تكوينه العضوي فأدرَكَ أنها الأساس الذي يقوم عليه البناء الكوني بأسره ليضمن حركة الظواهر المادية بِما يُوفِّره لها من توازن وتناسب ونظام.

وقد حاول الانسان ذاته تجسيد هذه الظاهرة من خلال حركات جسده، ونبرات صوته، وتنسيقه للأشياء التي يتعامل معها على نحو يوفر لها الانسجام والتوازن، ليمنحَ الحواس شعوراً بالراحة والمتعة، فإذا به يُبدِعُ فنوناً عديدةً كالرسم والنحت والرقص والموسيقا والشعر، وهي كلّها إبداعات فنيّة تقوم على نظام من علاقات التوازي أو التوازن أو التكرار أو التناسب أو الانسجام، فالفنون ليست سوى تطبيقاً حيّاً لهذه المعاني لاقت في وجدان المبدِع تجاوباً شعورياً أحَسَّ معه إحساساً عميقاً بالروعة والجمال[١].

ومن هنا فقد ذهبَ أغلب الباحثين إلى اعتبار الايقاع السِّمَةَ المشترَكة بين الفنون جميعاً، وأنّ عدم وجوده في العمل الفني يسلب منه صفة الفن الجميل مهما كانت المعاني المتصلة به[٢].

وقد ربط أصحاب المعاجم العربية الايقاعَ بالموسيقى بقولهم: «الايقاع: من إِيقاع

(١) الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي: ١٧.

(٢) الأسس الجمالية في النقد العربي: ١١٥.

اللحْنِ والغِناءِ وهو أن يوقع الأَلحانَ ويبينها»[١]. ولابدّ أنّ هذا التعريف مأخوذ من تعريف الخليل بن أحمد الفراهيدي له لقوله: أنّ الايقاع «حركَاتٌ متساوية الأدوار لها عوداتٌ متوالية»[٢].

وتعريف الخليل هذا للايقاع صادر عن عقليته الموسيقية قبل أن يكون نتاج عقليته العروضية[٣]. وقد جاء فلاسفة الاسلام فيما بعد فأطلقوا الايقاع على الموسيقى والشعر معاً، حيث عرّفه ابن سينا بقوله: أنّه «تقدير لزمان النقرات، فإن اتفَقَ أن كانت النقرات منتظمَة كان الايقاع لحنيّاً، وإذا اتفَقَ أن كانت النقرات مُحدِثةً للحروف المنتظم منها كلام كان الايقاع شعرياً، وهو بنفسه إيقاعٌ مطلَقاً»[٤].

فالايقاع عنده عنصر أساس في فن صناعة الشعر الذي عرّفه بقوله: «إنه كلام مُخَيّل مؤلّف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفّاة، ومعنى كونها موزونة أن يكون لها عدد إيقاعيّ، ومعنى كونها متساوية هو أن يكون كلّ قولٍ منها مؤلّفاً من أقوالٍ إيقاعيةٍ، فإنّ عدد زمانه مُساوٍ لعدد زمان الآخَر»[٥].

هذا الفهم للايقاع الشعري يلتقي مع مفهوم الايقاع الموسيقي عبر عنصر الزمن الذي يقوم على تناسب المسافة بين الحركة والسكون، إلاّ أنّ «العرب لم يلحظوه في

---

(١) لسان العرب: مادة: وقع.

(٢) المخصّص: مادة: وقع.

(٣) قبل أن يضع الخليل أسس العروض العربي كان موسيقياً فذّاً، ذا باعٍ طويل في هذا الفن، وقد قيل عنه أنّه «كان أشهر علماء عصره في هذا الفن، وأوّل مَن صنّفَ في الموسيقى، وصنَعَ فيها كتاب النغَم وكتاب الايقاع» (الفهرست: ٦٥). وقد اهتدى للتوصّل إلى علم العروض وأوزان الشعر من خلال معرفته بالايقاع والنغم لأنهما متقاربان في المأخَذ (معجم الأدباء: ١١/٧٣).

(٤) الرياضيات: جوامع علم الموسيقا: ٨١.

(٥) المنطق: الشعر: ٢٣.

الشعر إلاّ من خلال الوزن الذي يقوم بدوره على التناسب في زمن نطق الحروف وتتابعها وترتيبها وتكرارها بِنِسَب محدودة، فحصروا الايقاع الشعري في إطار زمن النطق، ولم يتعدّوه إلى عناصر أخرى»[1]. والسبب في انحصار الايقاع الشعري في إطار زمن النطق هو غَلَبة الوزن الشعري بتفاعيله المكرّرة الرتيبة على عناصر الايقاع الأخرى، أو اعتماد الشعراء على الإيقاع الذي يولّده تتابع التفاعيل الشعرية، والقافية الموحدة.

أمّا مفهوم الايقاع الحقيقي فهو شيء فوق الوزن الشعري لأنّ الايقاع أمر لازم بخلاف الوزن، فهو «حركة الأصوات الداخلية التي لا تعتمد على تقطيعات البحر أو التفاعيل العروضية. وتوفير هذا العنصر أشَقّ بكثير من توفير الوزن. لأنّ الايقاع يختلف باختلاف اللغة والألفاظ المستعمَلة ذاتها، في حين لا يتأثّر الوزن بالألفاظ الموضوعة فيه. تقول (عين) وتقول مكانها (بئر) وأنت في مأمَن من عثرة الوزن. أمّا الايقاع فهو التلوين الصوتي الصادر عن الألفاظ المستعملة ذاتها. فهو أيضاً يصدر عن الموضوع في حين يُفرض الوزن على الموضوع. هذا من الداخل وهذا من الخارج»[2].

وهنا يكمن الفرق بين إيقاع الشعر وإيقاع القرآن، حيث إنّ الايقاع القرآني ينبع أساساً من اندماج عنصرين: «من نغمة خاصّة تناسب الفكرة، وتقوم القافية (الفاصلة القرآنية) فيها بدور المفتاح، ومن لحن ينتظم النّغَمات جميعاً على اختلاف درجاتها، وفي شكل منسجم ومتناسب يخلف في رَوْعِ المتلقّي شعوراً ما، بالنغمات يوقع إيقاعاتٍ شتّى على أوتار النفس. وباللحن المتساوق يترك وحدةَ الأثَر. والعلاقة بين النغَمات التي تصنع اللحن علاقة ذات أساليب شتّى، فقد تقوم على الشوق أو الترَقُّب، أو

(١) الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي: ٢٩.

(٢) الأسس الجمالية في النقد العربي: ٣٧٤.

على الترجيع، أو على سواها من قواعد التشكّل»[١].

ولعلّ أهم قواعد تشكّل النغم في موسيقى القرآن تسع هي: التنوّع، التقابل، الترجيع، التوقّع، الاضافة، الترنّم، السكت، القفلة، الفاصلة[٢]. يدخل بعضها في مبحث الايقاع، وبعضها في مبحث الفاصلة. وتشترك جميعاً في عنصر التناسب، سواءٌ على صعيد اللّفظ أو على صعيد المعنى، أو كليهما معاً. ولهذا سنبدأ به أوّلاً، ثم نُعَرِّج بعدها على أهم تلك الأنواع.

٧. ٢. ١ ـ التناسب

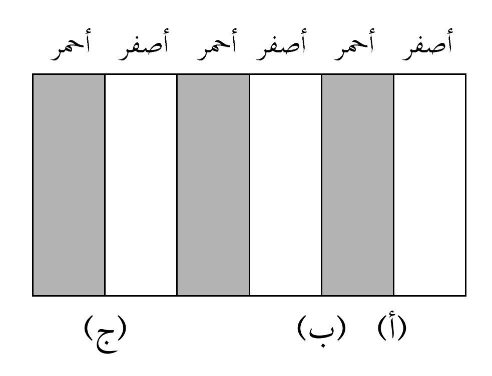
هناك عناصر أساسية تشترك فيها كلّ الفنون، سواءٌ التعبيرية (الزمانية) منها أو التشكيلية (المكانية). ويمكن أن تُرَدّ تلك العناصر جميعاً إلى قانونَين عامّين أساسيّن، هما: قانون الايقاع، و قانون العلاقات. ويكاد يكون التناسب أو الانسجام المبدأ الأوّل الذي يستمد منه الايقاع ماهيته، وذلك انطلاقاً من تعريف الايقاع الذي قدّمه (سوريو) بأنه «تنظيم مُتوالٍ لعناصر متغيِّرة كيفيّاً في خَطٍّ واحد، بِصرف النظر عن اختلافها الصوتي»[٣]. والشكل التالي يُقدم صورةً واضحة لمفهوم التناسب في الايقاع:

---

(١) عودة الى موسيقى القرآن: ٦٤.

(٢) قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن: ١٣٣.

(٣) الأسس الجمالية في النقد العربي: ١٢٠.



وفي هذا الشكل على بساطته تتمثّل سبعة قوانين هي:

١ - النظام: وهو يبدو بوضوح من خلال الترتيب الذي سارت فيه الخطوط الملونة بالأصفر والأحمر.

٢ - التغيُّر: ويتمثّل في أنّ اللّون الواحد لا يَملأ المساحة كلَّها، ولكن هناك تغيُّر من لون إلى آخَر.

٣ - التساوي: ويتّضِح في تساوي الخطوط.

٤ - التوازي: وهو في توازي هذه الخطوظ.

٥ - التوازن: وهو أنّ كلَّ خط مُلوَّن بالأصفر يتوازن ويتعادل مع خط آخَر مُلوَّن بالأحمر.

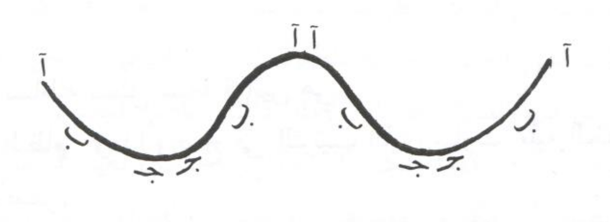
٦ - التلازم: وهو أنّ في كلّ خَطّين متجاورَين تلازماً يتمثّل في كل وحدة من الوحدات: أ، ب، ج.

٧ - التكرار: ويتمثّل في تكرار الوحدة المكوّنة من خَطّين.

وهذه القوانين السبعة تعمل جميعاً في آنٍ واحد فينتج عن عملها المتلازم جميعاً ما يُسَمّى بالايقاع «فالايقاع هو الصورة المجرّدة من هذه القوانين، وهي صورة نُدركها

إدراكاً حسِّياً مباشراً، ولكننا حين نحاول تحليل هذا الإدراك فإننا لا محالة مُضطرّون إلى الكشف عن هذه القوانين»[١].

لكنّ التناسب الايقاعي في هذا الشكل يبدو أصمّ لا حيوية فيه. مثله كمثل صوت القطار، فهو مُمِلٌّ رتيب. ويكاد الوزن الشعري الكلاسيكي ينتمي إلى هذا النوع من الايقاع لولا ما فيه من الموسيقى الداخلية. ومن هنا ظهرت الحاجة إلى إدخال عنصر جديد على هذا الايقاع يُلوِّنه ويبعث فيه الحياة. فإذا كان الايقاع في الشكل السابق تُمثِّله الرموز التالية: **[أ ب — أ ب — أ ب]** فإنّ هناك بناءً هو أكثر تعقيداً يُمكن أن تُمثِّله الصورة التالية:



وهذه هي الصورة الميلودية. ومصطلح الميلودي يعني «الارتباط بِسلّم تترتّب وفقاً لأبعاده العناصر المختلفة الكيفية، بحيث إنّ تلاحق كلّ عنصرَين مختلفَين لا يكون بُعداً واقعياً فحسب بل هو أيضاً انتقال من درجة إلى درجة وفق هذا البعد الثاني الذي يفرضه السُّلّم. وبهذا يُمكننا اعتبار الموسيقى الميلودية الخالصة معمارية ذات بُعدَين»[٢].

وإذا كانت عملية الانتقال المتناغم من عنصر إلى آخَر في هذه الصورة تمثل قانون

---

(١) الأسس الجمالية في النقد العربي: ١٢١.

(٢) م.ن: ١٢٢.

الايقاع، فإنّ نوع العلاقة والارتباط بين العناصر المختلفة لهذه الصورة تُمثِّل القانون الأساسيّ الثاني الجامع لعناصر العمل الفني وهو قانون العلاقات. ويُمكن التمثيل لهذه الصورة الميلودية بقانونَيها: الايقاع والعلاقات بقوله تعالى:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الروم: ١٩]

فالايقاع في هذه العبارة القرآنية مصدره اشتمالها على جميع قوانين الايقاع السبعة الآنفة الذكر؛ من نظام وتغيُّر وتساوي وتوازي وتوازن وتلازم وتكرار بين العنصرَين أ و ب.

﴿ يُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾	﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾
(ب)	(أ)

أمّا قانون العلاقات فيُمكن ملاحظته من خلال علاقة الألفاظ بعضها ببعض، حيث يتغيّر المعنى بتغيّر العلاقات، وإن لم تتغيّر الألفاظ في ذاتها. والتغيير هنا متوازنٌ مع الصورة الأولى لنظام الألفاظ توازناً عكسياً. وهو ما يُسَمّى في علم البديع بالتجنيس المعكوس في الكلمات[1].

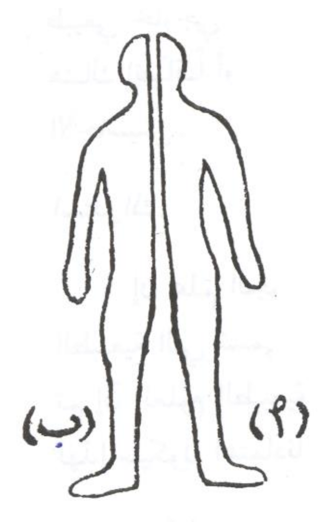
ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ	ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
ج ب أ	أ ب ج

بناءً على ما تقدّم فإنّ مقولة العلاقات في العمل الفني تعني وجود اجزاء متعدِّدة، كما تعني أنّ الجزء يكتسب جماله من علاقته بِما قبله وما بعدَه. وهذا ما يعكسه قانون

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٩٢/٢.

وحدة الشّتات. فالصورة الجميلة بنية حيّة، تشتبك وحداتها في علاقات فيما بينها، وهي في مجموعها تُؤلّف تلك الوحدة التي هي نتاج لتلك العلاقات[١].

إنّ قانونَي الايقاع والعلاقات، بِما يشتملان عليه من تناسب، هما اللّذان يحكمان الجانب الجمالي في الصورة الفنيّة الراقية، والتي يقف النصّ القرآني على قِمّتها. وهما يتّسعان ليحكما النظام الكوني بِرُمَّته، ومنه التكوين العضوي للإنسان. فنظرة بسيطة إلى تكويننا العضوي تكشف لنا عن كثير من القوانين التي تتحكّم في جمال الأشياء. كما يُصوِّره الشكل التالي:



ففي جسم الانسان يتمثّل التناسب والانسجام التام بين شطرَيه (أ، ب)، فهناك تَساوٍ بين الجزئين وتوازٍ وتوازن وتقابل بين جزئيات الوحدة (أ) والوحدة (ب). والوحدتان معاً، بأجزائهما المختلفة تجمعهما وحدة عامّة شاملة، تنسجم فيها علاقة

(١) فلسفة الجمال: ١٣٦ ـ ١٣٧.

الأجزاء بعضها مع بعض، وعلاقة كل جزء بالكل"[1].

ومن الجميل بعد ذلك أن نرى النصّ القرآني، باعتباره أرقى فنون البيان قاطبةً، خاضعاً لهذين القانونَين، شأنه في ذلك شأن خَلق الانسان في تكوينه العضوي، والكون بما فيه من أجرام سماوية غاية في النظام والدقة، ثم نجد كلّ ذلك مرسوماً بعضه إلى جانب بعض في لوحة فنية رائعة، هي سورة الرحمن (عروس القرآن):

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ...﴾

فلا عجب بعد أن كان كلّ ما في هذا الوجود قد وُضِعَ متناغماً، متناسقاً، منتظماً، متوازناً أن يأتي أمر الله الخالق لمخلوقيه بأن لا يَطغوا في الميزان، وأن يُقيموا الوزن بالقسط، ويُساووا بين كفَّتَي الميزان، فإنّ ذلك ممّا ينسجم مع طبيعة خلقهم وما يُحيط بهم. وهي كلّها آلاءٌ ونِعَم لا يُمكن لذي قلب أن يُكَذِّب بها.

٧.٢.٢ ـ التنَوُّع

إنّ التماثل الايقاعي في الشعر يُقابله التنوّع الايقاعي في النثر، ويَتجلّى هذا التنوّع في النصّ القرآني في أرقَى صوره. ذلك أنّه وظّف كلَّ ما يَمتلكه الصوت اللغوي من

(١) الأسس الجمالية في النقد العربي: ١٢٤.

قدرات، وبخاصة القدرة على التصوير والتنغيم بِهدف بلوغ أعمق مواطن التأثير في المتلقّي، فغدا الايقاع فيه صورةً متميزة للتناسق الفني، ومظهراً من مظاهر تصوير معانيه، وآية من آيات إعجازه الأسلوبي والبياني الرفيع.

لذا كان وقع القرآن على الآذان لا يجري وفق نمطٍ واحد رتيب، بل يتنوع بتنوع الموضوع، فتارةً يكون إيقاعُه هادئاً كنسيم الجنان، وتارةً يكون هادراً كريحٍ صرصرٍ عاتية، وتارةً أخرى يكون لا هذا ولا ذاك، فهو يتلوَّن بتلوُّنِ الأغراض الدلالية.

ومن هنا فقد أمر اللهُ بترتيله على أحسنِ وجه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. وقد جاء في الحديث الشريف أيضاً: «ليس مِنّا مَن لَم يَتَغَنَّ بالقرآن»[1]، والترتيل والتّغني هنا إنما هو قراءته جهراً في شيءٍ من التروِّي، بحيث تستبين حروفه، وتظهر حركاته، فيكون ذلك مدعاةً إلى إمعان الفكر فيه، وسبر أغواره، ومن ثم الوقوف على أسراره. وهو بعد ذلك وسيلة من وسائل تصوير المعنى باللّحن، حيث يَتمّ إعطاء كلّ تعبير ما يَستحقّه من النغَم الموافق لمعناه، والمنسجم مع جَوِّه العام.

وتتعدّد صور الايقاع في النصّ القرآني وفقاً للمعاني والأجواء التي ترد عليها الآيات أو السُّوَر. ويُمكن عَدُّها كالآتي:

١- تنوّع الايقاع بتنوُّع المعنى.
٢- تنوّع الايقاع والمعنى واحد.
٣- توحّد الايقاع رغم تعدد المعنى.
٤- توحّد الايقاع وتوحّد المعنى.

---

(١) صحيح البخاري: ٢٧٣٧/٦.

٥- اتساق الايقاع مع الجو العام وتعدّده بتعدّده. ويدخل فيه النوع الثاني.

٧. ٢. ٢. ١ ـ تنَوُّع الايقاع بتنوّع المعنى

لا يكاد يختلف إثنان على أصالة الإيقاع القرآني وتَفَرُّدِهِ، شَكلاً، وتنوُّعاً، وحلاوةً، وتأثيراً. و لعلّنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا: بأنّ جمالَ نظمِ القرآن، الذي هو أُسُّ أعجازِهِ، قائمٌ على اصطناع الإيقاع الذي يطبع بنيةَ كلِّ سورة من السُّوَر بطابع خاص. بل إن هذا الطابع الايقاعي يتنوّع بِصُورٍ وأشكالٍ مختلفة في السورة الواحدة تبعاً للمعنى.

ومن السُّوَر التي تمتاز بالخاصية الإيقاعية المتنوعة، فيتغيّر فيها الإيقاع مع المعنى كيفما تغيّر، سورة العاديات، وهي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾

فهذه السورة المباركة تنقسم بحسب مضمونها إلى ثلاثة أقسام[(١)]:

القسم الأول: مشهدٌ لفرسان يُغيرون على جماعة أخرى، يُصَوِّر صراعَ الانسان في هذه الحياة. ويشمل الآيات (١ إلى ٥). وهي آيات قصيرة جداً، تَتَوالى سراعاً. والفاصلَة في آياتها الثلاثة الأولى ـ وهي جُمل إسمية ـ ألفٌ ممدودةٌ مسبوقة بالحاء. أمّا

---

(١) دراسة أدبية لنصوصٍ من القرآن: ١٤ ـ ١٩.

في الآيتين الأخيرتين ـ وهما جُملتان فعليتان ـ فألف ممدودة أيضاً، ولكنها مسبوقة بالعين.

القسم الثاني: تحليل سريع وموجَز لنفسية الإنسان، في غفلته، وحُبِّه الشديد للمال، وكفره بنعم الله. ويشمل الآيات (٦، ٧، ٨). وهي كلُّها جمل إسمية مؤكَّدة بإنّ وباللام. وفواصلها جميعاً (دال) مردوفة بحرف مَدٍّ، هو الواو مَرّةً، فالياء مَرَّتَين.

القسم الثالث: تذكير بمصير الإنسان بعد الموت، وما ينتظره من بعث وحساب على الأعمال والنيات من قبل الله الخبير. ويشمل الآيات (٩، ١٠، ١١)، حيث تتوالى جُملتان فعليتان، فجملة إسمية. وفواصلها جميعاً (راء) مردوفة بحرف مَدّ، هو الواو مرتين، فالياء مَرّة.

فلكلِّ قسمٍ صياغتُه، وفاصلته الخاصة به، كما أنّ له إيقاعَه الذي يناسبه من الناحية الفكرية والتصويرية. أمّا القسم الأول فيُصور مشهداً حيّاً نابضاً بالحركة والحياة، تعدو فيه كوكبة من الفرسان، نكاد نُحِسُّ بحرارة أنفاس خيلها، ونسمع وقع حوافرها، ونُبصر الشَّرَرَ المتطاير منها، وما تُثيره من الغبار حولَها. فجاء إيقاعُها منسجماً تَماماً مع الحدث.

فالآيتان الأولَى والثانية: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ تنتظمان وفق نَسَق إيقاعي واحدٍ سريعٍ، يتناسب بشكل لا يقبل الترديد والشّك مع وقع حوافر الخيل وهي تعدو بأقصى سرعتها. وتقريباً لصورة هذا النسق الإيقاعي، حتى نتلمّس حقيقة مطابقته لوقع حوافر الخيل المسرعة، نستعين بالتفاعيل العروضية المطابقة له، وهي: (مُسْتَفْعِلُنْ فَعُوْلُنْ) لكلِّ آيةٍ. وهذا الوزن كثيراً ما كان فرسان العرب

يرتجزون به في ساحات القتال، وهم يَكـرُّون على أعدائهم[١]. وتنتظم مقاطع هاتين التفعيلتين عروضياً على الشكل التالي:

مُـسْ تَـفْ عِ لُـنْ / فَـ عُـوْ لُـنْ
— — U / — U — —

حيث يُمثل كل حرفٍ متحرك يليه ساكن نقرةً طويلةً، أو ما يسمى (مقطع طويل)، كما يُمثل كل حرفٍ متحرك بِمفرده نقرةً قصيرةً، أو ما يُسمَى (مقطع قصير). ومن خلال تكرار هذا الايقاع عدّة مرات متوالية يتبين بوضوح مدى انطباقه مع إيقاع عدو الخيل، وهي تضرب الأرض بحوافرها بقوة.

أما الايقاع الذي في الآية الثالثة: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ فيكاد يكون مطابقاً لسابقيه، لولا انحراف المد اليائي من الميم إلى الغين. ولكنه يظلُّ امتداداً طبيعياً لإيقاع الآيتين السابقتين وزناً وفاصلةً، لأنه يقاسِمُهما المعنى والصورة.

---

(١) يندرج هذا الوزن ضمن إيقاع بحر الرجز المنهوك الذي حذفت منه تفعيلتان من الصدر، ومثلهما من العجز، فبقيت له تفعيلتان فقط، واحدةٌ لكل منهما، الأولى (مستفعلن) صحيحة، والثانية (فعولن) مخبونة؛ (حذف الساكن الثاني) ومقطوعة (حذف السابع الساكن وإسكان ما قبله). ومنه ما قالته هند بنت عتبة لمشركي قريش يوم أحد:

نحـنُ بَنـاتُ طـارقْ   نَمشي عَلَى النمارقْ
الـدُّرُّ في المخـانِقْ   والمسكُ في المفـارِقْ
إنْ تُقـبِلُوا نُعـانِـقْ   أو تُدبِـروا نُفـارِقْ
فِراقَ غيـرِ وامِـقْ

(الاغاني: ١٢/٣٩٢).

أمّا فاصلة الحاء والمدّ الذي يليه في هذه الآيات الثلاثة ﴿ضَبْحًا﴾ ﴿قَدْحًا﴾ ﴿صُبْحًا﴾، فيُشكل عنصراً تصويرياً وصوتياً رائعاً، هو أقرب ما يكون إلى حَمْحَمَةِ الخيول المغيرة[1]، نافثةً بزفيرها الملتهب في الهواء الذي تَشُقُّه بأقصَى سرعتها.

لكنّ هذا الإيقاع الذي وجدناه متناغماً في الآيات الثلاث الأولى سرعان ما يسلك طريقاً آخر في الآيتين الرابعة والخامسة: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ وذلك لتضَمُّنِ فعلِ الحركةِ فيهما أداءً آخرَ للخيول. فهي هنا إضافةً إلى عَدْوِها، تُثيرُ غبارَ الأرضِ وتُهيِّجُه، وتتوسَّطه. لذا تَغَيَّرَ الايقاعُ فيهما تَبَعًا لِتَغَيُّرِ المعنَى، وزيادته. وإيقاع هاتين الآيتين عروضياً كالآتي:

فَـ عِـ لُـنْ / فَـ عِـ لُـنْ / فَعْـ لُـنْ
ـ ـ / ـ U U / ـ U U

وكما نلاحظ هنا فإنّ الإيقاع في التفعيلتين الأُولَيَين يمتاز بغلبة النقرات القصيرة على النقرات الطويلة، على العكس مِمّا سبق. وهذا معناه زيادة الحركات وتواليها، وذلك بسبب توالي فعلِ إثارةِ النقعِ وتَهييجه، ومَيَدَان الخيل في وسطه.

ولعلّ الملمح الأبرز في هذه الآيات الخمسة، إضافة إلى مَلمَح الإيقاع المناسب

---

(١) جاء في معجم العين، باب الحاء مع الميم: (والحَمْحمةُ: صَوْتُ الفَرَس دونَ الصوت العالي) وفي لسان العرب، باب الحاء: (والحَمْحَمَةُ والتَّحَمْحُم عَرُّ الفَرَسِ حينَ يُقَصِّرُ في الصَّهيلِ ويَسْتَعِينُ بنَفْسِهِ... وفي الحديث: لا يجيء أحدُكم يوم القيامة بفرس له حَمْحَمَةٌ. كما ورد في مفردات الراغب: ١٣٨ قوله: (أما حمحمتِ الفرسُ فحكاية لصوتها).

لحركة الخيول، هو الفاصلة المميزة لهذه الآيات. لأنّ الفاصلة القرآنية مبنية أساساً على الوقف «ولا يكاد الوقف القرآني يتّجه إلى غير الوقف بالسكون إلاّ في حالات قليلة، منها: الوقف على النون المنصوبة بالألف»[(١)]، كما في هذه الآيات الخمسة المباركة. فقد تَعانَقَ فيها الإيقاع المعبّر مع الفاصلة المتَحَرِّكة لِيُصَوِّرَا معاً الحدثَ أحسن تصوير وأدقَّه.

أما إيقاع ما تبقّى من آيات هذه السورة فإنه ينحو منحًى آخرَ مغاير تماماً، يَتَّسِم بالطول والانسيابية، من دون أن يتّخذ قالباً خاصّاً، وذلك بِما يتناسب والحالة التقريرية التي يُعَبّر عنها. فقد تَمَّ الانتقال فجأةً من الجمل الإنشائية، إلى الجمل الخبرية في الآيات (٦، ٧، ٨)، فترتَّبَ على ذلك، الانتقالُ من الايقاع المضطرب السريع إلى الإيقاع الهادئ البطيء. وهو ما يمكن ملاحظته بيُسر أثناء تلاوة السورة، من دون اللّجوء إلى التحليل الصوتي. وكذلك الأمر بالنسبة إلى فواصلها، حيث تَمّ الانتقال إلى قافية الدال المردوفة بحرف مدّ.

وعندما انتقل المعنى إلى الاستفهام الانكاري في الآيتَين (٩، ١٠) تَغَيَّرَ الايقاع مرّةً أخرى، وتغيّرَت معها الفاصلة أيضاً. وأخيراً جاءت الآية (١١) التي ختمت بها السورة على أسلوب الجملة التعليلية[(٢)]، حاملةً معها ملامح من المجموعَتَين السابقتَين لها على مستوى الفاصلة، وعلى مستوى الايقاع.

وبناءً على ما تقدَّمَ فإننا إذا ما أردنا أن نَرسم معمارية السورة طبقاً لتنَوّع الايقاع

---

(١) من محاضرة للدكتور ابراهيم أنيس منشورة في مجلة البحوث والمحاضرات (١٩٦١ ـ ١٩٦٢) ـ مجمع اللغة العربية – القاهرة – على هدى الفواصل: ١٠٩، نقلاً عن (الفاصلة في القرآن: ١٣٦).

(٢) آية ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ تعليل لعامل (إذا) المحذوف، وهو مفعول (يعلم)، أي: أفلا يعلم أنّا نُجازيه وقت ما ذكر، ثم عَلّلَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم...﴾ (إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٨/٣٨٩).

والفاصلة ، واتِّساقهما مع المعنى ، فسنلحظ نَسَقاً هندسيّاً متناغماً لبناء السورة الخارجي ، يُضاف إلى النسق الهندسي الداخلي ، وهو ما تكشفه اللّوحة التالية :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾

فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾

إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾

وفيما يلي نموذج آخَر من السُّوَر التي تنَوَّع فيها الايقاع بتَنوُّع المعنى ، وهي سورة الشّرح. وهذه السورة يُمكن أن تُرسَم وفقاً لايقاعيها اللّذين ينتظمانها وفقاً للشكل التالي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١
وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦
فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾

فالقسم الأوّل: يتألّف من أربع آيات، توزَّعَت على ثلاث جمل إنشائية طلبية خرج فيها الاستفهام إلى معنى الإنكار. وقد جاءت على أسلوب الخطاب الموجّه إلى الرسول الكريم ﷺ، مُتَضَمّنةً ما أولاه الله من النِّعَم، وهي: شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر. وقد جاءت آياتها جميعاً على إيقاع واحد مماثل تَماماً لايقاع بحر الرمَل المجزوء (فاعلاتن فاعلاتن). «ونغمة الرمَل خفيفةٌ جداًّ. وتفعيلاته مَرِنَةٌ للغاية، إذ كثيراً ما تصير (فاعلاتن) (فَعِلاتن)[1] ولا يكاد يُلحَظ ذلك. وفي رنّته نَشوَةٌ وطَرَب»[2].

ودلالة هذا الايقاع على النشوة والطرَب ملائمة للمعاني التي جاءت عليها هذه الآيات. فإنّ «أصلَ الشّرح: التوسعة، ويُعبَّر عن السرور بسعة القلب وشرحه»[3]. وكما جاء الايقاع في الآيات الأربعة الأولَى واحداً جاءت الفاصلة كذلك موحّدةً، وهي كاف الخطاب.

---

(١) أي: يُصيبها زحاف الخبن، وهو حذف الحرف الثاني الساكن من التفعيلة.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: ١/١١٦.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥/٥٠٧.

أمّا **القسم الثاني**: من السورة فجاء مُؤلَّفاً من آيتَين ؛ الثانية تكريرٌ للأولَى، وذلك لتقرير معناها في النفوس وتَمكينها في القلوب، أو غير ذلك[١]، وكلٌّ منهما جملة تقريرية خبرية مُؤكّدة بإنّ. فجاء التوكيد مَرَّةً بالأداة، ومَرّةً بالتكرار. وما دام المعنى في هاتَين الآيتَين هو غير المعنى السابق فقد تَغَيَّرَ الايقاع تَبَعاً لذلك، كما تَغَيَّرَت الفاصلة.

والايقاع هنا لا يَمُتُّ إلى سابقه بصلة، وإننا لَنُحِسُّ ونحن نتلو أو نسمع هذه السّورة بالايقاع يبدأ حثيثاً متسارعاً في آياتها الأربعة الأولى، ثم ما يلبث أن يصطدم بهاتَين الآيتين فيبدو بطيئاً متثاقلاً، فكأنه إعلام وتنبيه إلى أهميّة هذا المعنى ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ الذي يُشير إلى حقيقة خالدة. فكأنّ نوع الايقاع المغاير لما قبله وما بعده تأكيدٌ آخَر يُضاف إلى المؤكِّدَين السابقَين.

وجاءت فاصلة هذا القسم ﴿يُسۡرًا﴾ مساندةً للايقاع في ملائمة المعنى. فألف الإطلاق الممتدّ دون عائقٍ من وقف ــ كما في الفواصل السابقة ﴿صَدۡرَكَ﴾، ﴿وِزۡرَكَ﴾، ﴿ظَهۡرَكَ﴾، ﴿ذِكۡرَكَ﴾ واللاّحقة ﴿فَٱنصَبۡ﴾، ﴿فَٱرۡغَب﴾ ــ يُلائم معنى الانفكاك من ربقة العسر والتحرُّر من قيوده وأغلاله. أمّا حرف الراء المكرّر الذي رَدِفَ ألف المدّ فهو مناسبٌ لتكرار الآية، وملائم لِسَعة اليسر وتفخيمه[٢].

أمّا **القسم الثالث** والأخير ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ فقد جاءت الآيتان فيه على أسلوب الجملة الإنشائية الطلبية كالقسم الأوّل، لذا جاء إيقاعه على

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٧٧١/٤.

(٢) جاء ﴿يُسۡرًا﴾ نكرةً للتفخيم، كأنه قيل: إنّ مع العسر يُسراً عظيماً وأيّ يُسرٍ (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٧٧٢/٤).

إيقاعه، ذلك أنّه لَمّا عاد إلى مخاطبة النبيّ ﷺ عاد إلى الايقاع الأوّل الذي خاطبه به. كما أنّ هذا القسم عائدٌ على القسم الأوّل من حيث المعنى، ومتَعلّق به، أكثر مِن تعلّقه بالمقطع الثاني؛ فتعداد النعم السّالفة في القسم الأوّل هي التي تستوجب الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها.

٧. ٢. ٢. ٢ ـ توحّد الايقاع وتعدد المعنى

يمكن التمثيل لهذا النوع بسورة النجم، حيث يَتميّز الايقاع فيها بنغمة واحدة متتابعة من بدايتها وحتّى قبيل نهايتها على الرغم من تعدّد معانيها وموضوعاتها. فالسورة تتحدّث عن:

- صدق النبوة والوحي: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾.
- قصّة العروج إلى السماء: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾.
- عبادة الأوثان في الجاهلية: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾.
- الايمان بالله مالك الملك: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾.
- الايمان بالآخرة والملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾.
- حكاية خلق الانسان: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ...﴾.
- قصة الذي تولّى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾.
- وتحتشد السورة بشواهد من «المعجزات الكونية وعِبَراً من نماذج الأمم البائدة والسنن الكونية، وبالتالي تُنذر الناس بقرب وقوع الساعة، وتُحذرهم من الغفلة

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ وتدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد والسجود له»[١].

ورغم هذه الموضوعات المتعددة فقد جاء ايقاع السورة على وتيرة واحدة. ولكن هذا لا يعني أننا لا «نلحظ فروقاً دقيقة – رغم الفاصلة الواحدة – تتلامح في سرعة الإيقاع وبطئه إلاّ أنّ نوع الإيقاع لا يتغيّر وإن تغيّرت شدّته أو درجته، وقد تراوح طول الآية بين ثلاث كلمات في قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إلى أكثر من عشرين في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، بَيْدَ أنّ أسلوبَ الأداء الموسيقي واحد في السورة جميعاً، فهو متوسط الزمن، مَستَرسِل الرويّ حتى كأنه حديث يُتلَى، أو قصّةٌ تُحكَى»[٢].

ولكن يبقى التنوّع سِمَةً بارزةً في الأداء الموسيقي القرآني، فإن لم يكن ماثلاً في الايقاع فهو ماثلٌ في الفاصلة، وقد جاءت الآيات الستة الأخيرة من هذه السورة مختلفة الرويّ، لتكسر رتابة الايقاع من جهة، ولتُحَفِّز الذهن إلى تَلقّي الهدف الأصليّ من السورة؛ وهو التذكير بقرب القيامة، وطلب الاستعداد لذلك اليوم بعبادة الله. فجاءت الآيات وفق النمط التالي:

---

(١) بيان النظم في القرآن الكريم: ١٢٧.

(٢) قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن: ١٣٥.

﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾
لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾
أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾
فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ﴾

٧. ٢. ٢. ٣ـ توحّد الايقاع وتوحّد المعنى

نلمحُ هذا النوع من الايقاع في السُّورة الواحدة، كما يُمكن أن نلمحه في الآية الواحدة، حيث يأتي الايقاع مُوحَّداً متناغماً منسجماً، لأنّ المعنى المؤدّى واحدٌ متناغمٌ منسجم. وغالباً ما يُلاحَظ هذا النوع من الايقاع في السُّوَر المكيّة القصيرة. أمّا الآيات التي يتوحّد فيها الايقاع لتوحّد المعنى فغالباً ما تكون آيات مدنية، وهي عادةً آيات طويلة إلى حَدٍّ ما. وقد اخترنا من السوَر سورة الاخلاص، ومن الآيات آية المداينة.

فسورة الإخلاص، على قِصَر متنها وتقارب طرَفَيها، تُعَدُّ عِدلَ القرآن كلّه، وذلك لاحتوائها على صفات الله تعالى وعَدلِه وتوحيده، فهي تختصر العقيدة الإسلامية في وصف الله تعالى، ومحورها التوحيد، ويقوم بناؤها على أسلوبَي الاثبات فالنفي؛ الأوّل يُثبت أحديّة الله وصمديّته وقِدمَه، والثاني ينفي عنه صفات المشاركة والشّبَه والمجانسة[١].

وكما بُنِيَت السورة على أسلوبَين يتَقاسَمان المضمون بُنِيَ الايقاع فيها على مقطَعَين أساسيّين هما: المقطع القصير المفتوح، والمقطع الطويل المغلَق. ويكاد يختفي

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٨١٨/٤.

المقطع الطويل المفتوح من السورة لولا وجوده في لفظَين هما : لفظ الجلالة (الله) حيث ألف المدّ، ولفظ (يُولَد) حيث واو المد. وليس في القرآن الكريم كلّه سورة تخلو من ألف المد إلاّ هذه السورة المباركة التي اقتصر فيها ألف المد على لفظ الجلالة (الله)، وذلك إشعاراً باختصاصه سبحانه بصفة الألوهية، واقتصارها عليه دون سواه.

أمّا بخصوص الإيقاع فهناك عاملان طبَعَا إيقاع هذه السورة بطابعٍ خاصٍّ متميِّز، أحدهما : قصَر الكلمات والجمل. والثاني بناؤها على المقطعَين المذكورَين. فقد نتَجَ عن هذين العاملَين كثرة مواضع النبر. وبما أنّ كلمات هذه السورة مؤلّفة عادةً من مقطعٍ واحدٍ أو مقطَعَين[1]، فإنّ النّبر فيها إمّا أن يَقَع على الكلمة كُلّها إذا كانت أُحاديّة المقطع مثل : (قُلْ) و (لَمْ)، وإمّا أن يَقَع على المقطع الذي يسبق المقطع الأخير، ويَعني ذلك أن يَقَع النبر على المقطع الأوّل من سائر الكلمات، عدا لفظ الجلالة (الله) الذي يقع فيه النبر على المقطع الثاني. وذلك كما يلي :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

(١) عدا لفظ الجلالة (الله) و كلمة (كُفُواً) بضم الفاء، فإنهما مؤلَّفَين من ثلاثة مقاطع. فأمّا لفظ الجلالة فيقع النبر فيه على المقطع الذي قبل الأخير وهو المقطع الثاني منه، وأمّا (كُفُواً) فإنّ النبر فيه يقع على المقطع الذي يسبق المقطع الذي قبل الأخير وهو المقطع الأوّل منه. يُراجع مبحث (٢. ٤. ٣. ٢. ١. ٣ ـ النبر على المقطع الذي قبل الأخير)، ومبحث (٢. ٤. ٣. ٢. ١. ٤ ـ النبر على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير). وبذلك تفرّد اسم الله في هذه السورة بميزَتَين دون غيره من الألفاظ: إحداهما : اختصاصه بألف المدّ، والثانية : اختصاصه بالنبر على المقطع الثاني، وهو فيه ألف المدّ ذاته. ولَمّا كان محور السورة يدور حول توحيد الله تعالى، فقد تبيّنت دلالة هاتين الميزتَين دونما حاجة إلى بيان.

إنّ تتابع وقوع النَّبر على المقاطع الأولى من كلمات هذه السورة منحَها إيقاعاً حادّاً حاسِماً، يُمكن أن نتلَمّسه بوضوح من خلال النقرات القويّة المتتالية. وهذه الحدَّة في الايقاع والقوّة في النبر التي طبعت السورةَ كلّها جاءت متَّسقةً مع المعنى العام للسورة التي تقطع بوحدانية الله تعالى، وتنفي عنه ثلاثاً كلَّ صفات المشاركة والشَّبَه والمجانسة.

أمّا الآية التي يتوحّد فيها الايقاع لتوحّد المعنى فمثالها آية المداينة. وهي أطول آية في القرآن الكريم، وتتحدّث عن موضوع من موضوعات التشريع، خلافاً لسورة التوحيد التي كانت تتحدّث عن موضوع من موضوعات العقيدة. ولذلك اختلَف المضمون و الهدف والأسلوب؛ فالمضمون في سورة الإخلاص إثبات وحدانية الله، والهدف منها إصلاح عقيدة المشركين، والأسلوب فيها خبري. أمّا مضمون هذه الآية فهو بيان حكمٍ من أحكام المعاملات المالية. والهدف منها بناء نظام مالي قائم على إحقاق الحق، والأسلوب فيها إنشائيّ طلبي. وبناءً على اختلاف المضمون والهدف والأسلوب في السياقَين اختلف بناء الجمل فيهما كما اختلف نمط الايقاع. وهي قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ

جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]

وعلى الرغم من تباين الايقاعَين في المثالين المذكورَين أعلاه قِصَراً وطولاً، وتسارعاً وتباطؤاً، إلاّ أنّنا يُمكن أن نرصد وجهاً مشتَركاً بينهما ؛ وهو النغمة الحادّة والنبرة العالية ؛ فإذا كان مصدر هذه السمة في سورة الإخلاص عاملان هما : قصر الكلمات والجمل، وكثرة مواقع النبر، فإنّ مصدرها في آية المداينة عاملان أيضاً، ولكنهما مختلفان :

الأوّل: كثرة أساليب الأمر والنهي، نحو: فَٱكۡتُبُوهُ / وَلۡيَكۡتُب / وَلَا يَأۡبَ / فَلۡيَكۡتُبۡ / وَلۡيُمۡلِلِ / وَلۡيَتَّقِ / وَلَا يَبۡخَسۡ / فَلۡيُمۡلِلۡ / وَٱسۡتَشۡهِدُواْ / وَلَا يَأۡبَ / وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ / وَأَشۡهِدُوٓاْ / وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ / وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ .

الثاني: خلُوّ نهايات الجمل والفواصل من الامتدادات النغمية، كأصوات المد واللّين. فجاءت قويّة حادّة، وهو ما يُطلق عليه الموسيقيون (القفلات الحادّة)، مثل :

وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ .

فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ .

وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ .

وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡ .

ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ .

وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ .

وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ .

وهــذه النهايــات الحــادّة شــبيهة بنهايــات ســورة الاخــلاص ﴿أَحَدٌ﴾، ﴿ٱلصَّمَدُ﴾، ﴿يُولَدْ﴾، ﴿أَحَدٌۢ﴾ الخالية من أحرف اللّين، ولكنها تفتقر إلى ما يجمع هذه من وحدة حرف الرويّ وتناظر المقاطع وانسجام النغم.

ولعلّ أهمّ ما يُمكن أن نخرج به من المقارنة بين إيقاع سورة الاخلاص وإيقاع آية المداينة هو أنّ إيقاع سورة الإخلاص، بما يحمل من مضمونٍ عقائديّ، يُناشد وجدان المتلقي أوّلاً، ثم يُخاطب عقله، أمّا إيقاع آية المداينة التي تحمل مضموناً تشريعياً فإنه على العكس من ذلك تماماً، حيث يُخاطب العقل أوّلاً ثمّ يُناشد الوجدان، ذلك أنّ العقيدة تلامس القلب قبل أن تُلامس العقل، والأمر خلاف ذلك فيما يخص الأحكام والقوانين الشرعية.

٧. ٢. ٢. ٤ ـ اتساق الايقاع مع الجو العام

مِمّا لا شَكَّ فيه أنّ في القرآن إيقاعاً موسيقّياً مُتعدِّد الأنواع، يتناسَق مع الجوّ العام، ويُؤدّي وظيفةً أساسيّةً في البيان[1]. ويدخل ضمن هذا النوع تنوّع الايقاع والمعنى واحد، لأنه قد يكون المعنى واحداً ولكن الأجواء مختلفة، فيتنوّع الايقاع ويتعدّد ليكون متسقاً ومتناغماً مع الأجواء المتعددة. ويُمكن التمثيل له بثلاثة نماذج من الدعاء القرآني:

النوذج الأوّل:

وهو دعاء زكريا عليه السلام وهو قائم يصلي في المحراب لا ينى ينادي ربه نداء خفياً، مكرراً اسمه بكرة وعشياً قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٨٤.

أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم]، وهو نداء عذب سلس الإيقاع، كأنه غناء يصّاعد في السماء ألحاناً متناغمة روحانية رخية، تُعمقّها الفواصل بياءاتها المشدَّدة وتنوينها المحول عن الوقف ألفاً لينةً أشبه بألف الإطلاق التي ينفرج معها الفم ويذهب الصوت بعيداً في أجواء الفضاء.

النموذج الثاني:

في مقابل هذا اللون من الدعاء النديّ اللّيِّن، نلمَح هتافَ نوح الأبحّ وهو يدعو قومه ليلاً ونهاراً إلى عبادة الله الواحد الأحد، جهراً حيناً وسرّاً حيناً آخَر، ولكنّ دعوته المستمرة لهم لم تزدهم إلاّ فراراً من الهدى وبعداً عن الحق، وإصراراً على الكفر والعناد، فما كان من نوح عليه السلام، بعد أن يئس منهم، إلا أن تملّكه الغيظ، وصدحت حنجرته بكلمات الدعاء الثائرة الغضبى مدوِّيةً في وجوه المعاندين مجلجلةً صاخبة، بموسيقاها الرهيبة وإيقاعها العنيف وصرخاتها التي لا تبقي ولا تذر:

﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

النموذج الثالث:

وهناك أسلوب إيقاعي ثالث في أداء الدعاء يباين هذين الأسلوبين ينطلق هذه المرة من الحناجر الكظيمة المكبوتة، حناجر الكافرين النادمين يوم الحساب العسير، وقد لفحت وجوههم النار، يحاولون التنفيس عن مصابهم الأكبر بأصوات متقطعة متهدجة يفرغون عن طريقها ما يعانون من عذاب الجحيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:

٦٧ ـ ٦٨] هذه وغيرها أنواع من الإيقاع متعددة ومتغيرة، لا يضاهي تنوعها سوى وفرتها[١].

كانت هذه نماذج من سور مختلفة تنوّعت فيها الأجواء فتنوّع الايقاع. وقد تتنوّع الأجواء في السورة الواحدة، والمشاهد في القصّة الواحدة، فيأتي الايقاع منسجماً مع الجو أو المشهد ومكمِّلاً له. نكتفي من ذلك بمشهدَين من مشاهد قصّة طوفانِ نوحٍ عليه السلام، وقعا بعد أن دعا على قومه ذلك الدعاء فجاء أمر الله وفار التنور، واختصاص كلّ مشهد بإيقاعه الخاصّ.

المشهد الأوّل:

يُصوِّر قصّة نبي الله نوح مع ابنه وقد أورد القرآن المشهد على النحو التالي:

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣] إنّ التكوين الموسيقي لهاتَين الآيتين «لَيذهب طولاً وعَرضاً في عمق وارتفاع، ليشترك في رسم الهول العريض العميق. والمدّات المتوالية المتنوّعة في التكوين اللّفظي للآية تُساعد في إكمال الايقاع وتكوينه واتساقه مع جوّ المشهد الرهيب العميق»[٢]. فالايقاع هنا، بكلمة واحدة، إيقاع الطوفان.

المشهد الثاني:

أمّا المشهد التالي لهذا المشهد، والذي تُصوِّره الآية الرابعة والأربعون من سورة

---

(١) قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن: ١٣٧.

(٢) التصوير الفني في القرآن: ٩٣.

هود، فإنّنا نلمس فيه إيقاعاً غير سابقه، فهو إيقاع يُصوِّر الهدوء الذي يَلي العاصفة، حيث توقف المطر، وانحسار الماء، ورسُوّ السفينة بسلام على جبل الجودي:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وهذا الايقاع لا يُمكن الاحاطة به بهذا التعبير، وإنما هو بحاجة إلى تحليل صوتي دقيق، يُضاف إلى ما قَدَّمَه علماء البلاغة من تحليلات بيانية قَيِّمة، وهذا ما خصّصنا له الصفحات التالية.

٧. ٢. ٢. ٤. ١ ـ تحليل الآية (٤٤) من سورة هود

وجَّهَ الله تعالى نداءَه إلى الأرضِ أن تبلعَ ماءَها، وأمَرَ السّماء بأن تُقلِعَ، فغاض الماء وانتهى الطوفان فَرَست سفينة نوح عليه السلام بِمَن فيها على جبل الجودي، فصُبَّت اللعنة على الظالمين. كلُّ ذلك جاء في آيةٍ واحدةٍ، وهي قوله تعالى:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وقد تناول كثير من العلماء هذه الآية الشريفة بالتحليل من الناحية البلاغية فتوصلوا إلى تحديد أكثر من عشرين وجهاً بلاغياً[1]، تضمنته هذه الكلمات السبع عشرة. وقد أجمعوا على بساطة حروفها و ألفاظها وهي مفردة، خارج هذا السياق، أما المزية الظاهرة فيها هنا فهي «راجعة إلى تركيبها وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا

---

(١) يُنظر على سبيل المثال: (عبد القاهر دلائل الإعجاز: ٥٣)، و (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٥٢/١)، و (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٢٦/٣)، و (الايضاح في علوم البلاغة: ٣١١ ـ ٣١٤).

من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وكذلك إلى آخرها»[١].

فالحسن الذي تتوشّح به الآية متأتٍ من عنصر التأليف الذي يضمّ الأصوات (الحروف) إلى بعضها من جهة، والألفاظ (الكلمات) إلى بعضها من جهة ثانية، يقول الإمام العلوي: «فانظر إلى مفردات أحرف هذه الآية، ما أسلسها وأرقّها، وألطفها، ثم في تأليفه ما أسهله على اللسان، ثم انظر إلى مفردات ألفاظه، ما أعذبها وأجراها على الألسنة من غير صعوبة ولا عُسرة، ثم انظر إلى تأليف مفرداتها، كيف طابقت الغرض المقصود منها، وسيقَت على أتَمِّ سياقٍ وأعجبه»[٢].

ومن خلال انضمام هذه الأصوات والألفاظ بعضها إلى البعض يتولد هذا النغم البديع الذي يُضمّخ الآية بعبيره الزاكي، ولحنه الخالد، في إيقاعات متتالية متناغمة متلونة، تصطفّ إلى جانب المؤثرات الفنية الأخرى لتنقل القارئ والسامع إلى موقع الحدث المتغير من الطوفان الجارف، إلى انحسار الماء من سطح الأرض، وانقطاع هطوله من السماء، والهدوء الذي يليه، ثم رسو السفينة المباركة باسم الله على جبل الجودي، وانطلاق دعاء السوء على القوم الذين ظلموا فكانوا من المغرقين.

فالإيقاع والصوت يمثلان دوراً بارزاً في رسم الملامح الجمالية، يضافان إلى رصيد هذه الآية الشريفة من الجوانب البلاغية التي ذكرها البلاغيون. ويمكن القول بأنّ ماذكره أرباب الفصاحة بخصوص هذه الآية لا يتعدّى الخطوط العريضة لفصاحة الألفاظ من سلاسة الحروف والألفاظ، وسلامتها من التنافر، والغرابة، والتعقيد، ومن ثَمّ ائتلافها مع بعضها، أما إيقاع الآية فلم تتم الإشارة إليه إلا بكلمة (التأليف) التي شَملت الحروف والألفاظ. وأما الأصوات فقد ألْمَحوا إلى شذرات سنشير إليها أثناء التحليل.

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٥٢/١.

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٢٦/٣.

وقبل أن نبدأ بتحليل الآية إيقاعياً وصوتياً من الضروري ملاحظة الجدول التالي الذي يرسم طبيعة الملامح الإيقاعية ويحدد معالمها:

نوع الوحدة	ت	الوحدة التلاوية	عدد المقاطع	قصير	طويل	مفتوح	مغلق
طلب (أمر)	١	وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ق ط ق// ط ط ط ق ط ط ق ق	٨	٣	٥	٦	٢
	٢	وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ق ط ق ط ق ط ق ط	٨	٤	٤	٧	١
استجابة	٣	وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ق ط ط ق	٥	٢	٣	٤	١
	٤	وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ق ق ق ط ط ق	٦	٤	٢	٤	٢
	٥	وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ط ق ط ق ط ط ط	٧	٢	٥	٤	٣
طلب (دعاء)	٦	وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ق ط ق//ط ط ط ط ط ق ط// ق	٨	١	٧	٣	٥

تنقسم هذه الوحدات التلاوية الستّة إلى نوعين:

١ ــ وحدات طلب: وهي: (١) و (٢) و (٦)، حيث تفيد الأُولى والثانية الأمر، والسادسة الدعاء.

٢ ــ وحدات استجابة: وهي: (٣) و (٤) و (٥)، حيث جاءت جميعاً لبيان الاستجابة لأمر الله تعالى.

٧. ٢. ٢. ٤. ١. ١ ـ التحليل الإيقاعي

من خلال تحليل المكونات الإيقاعية للآية يُلاحَظ ما يلي:

أوّلاً: وحدات الطلب: (١) و (٢) و (٦) كلّها خطاب من الله تعالى[١]: الأولى إلى الأرض، والثانية إلى السماء، والثالثة هدفها إسماع الخلائق. وقد اشتملت كلّ منها على (٨) مقاطع صوتية. في دلالة واضحة على أنّ «فاعلها فاعل واحد لا يُشارَك في أفعاله»[٢].

فقد تساوى الخطاب الإلهي، رغم تنوّع المخاطَب، وتوحّدت مقاطعه، بسبب وحدة الحدث.

ثانياً: وحدات الاستجابة: (٣) و (٤) و (٥) اشتملت على المقاطع التالية: [٥ و ٦ و ٧] هكذا على التوالي، وبوتيرة تصاعدية متساوية ومتناغمة.

وهذا يوحي بتدرج فعل الاستجابة، وتوالي الأفعال الواحد تلو الآخر، بما تُمليه نواميس الطبيعة وقوانينها، فقد غِيض الماء أولاً، ثم قُضي الأمر ثانياً، ثم رَسَت السفينة على الجودي ثالثاً.

ثالثاً: وحدَتا الطلب الأمري (١) و (٢) اللّتان جاءتا على صيغة نداء؛ أحدهما موجّه إلى الأرض، والآخر موجّه إلى السماء، كلٌّ منهما تشتمل على (٨) مقاطع

---

(١) تصدّرت هذه الجمل الثلاثة كلمة (قيل) إمّا لفظاً أو عطفاً، وذلك على جهة المجاز عن الإرادة الألهية، وقد «حَذف الفاعل وجعله في طيّ الفعل إبهاماً وإعظاماً لحاله عن الذكر» (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٢٩/٣).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٣٩٨/٢.

فيكون مجموعهما (١٦) مقطعاً، وهو نفس عدد مقاطع وحدات الإستجابة الثلاثة التالية لهما مجتمعةً عند الوقف عليها[1].

وهذا يدلّ على أنّ الاستجابة من قبل الأرض والسماء، ومن ثَمّ استواء الفلك، قد جاءت على قدر الطلب الإلهي والمشيئة الإلهية دون زيادة أو نقصان.

رابعاً: وحدات الاستجابة الثلاث: (٣) و (٤) و (٥) تساوت في عدد مقاطعها المفتوحة، بحيث نالت كلٌّ منها (٤) مقاطع مفتوحة، في حين تدرّجت مقاطعها المغلقة على التوالي بحسب تدرّج عدد المقاطع الكلّي لها من واحد إلى ثلاثة، هكذا:

الوحدة	مجموع مقاطعها	المقاطع المفتوحة	المقاطع المغلقة
٣	٥	٤	١
٤	٦	٤	٢
٥	٧	٤	٣

(١) احتسبنا هاهنا عدد المقاطع أثناء الوقف على أواخر الوحدات، فينقص من الوحدة الثالثة مقطع واحد، ومثله من الوحدة الرابعة أسوةً بنظيرتهما الوحدة الخامسة التي تُختَم بها وحدات الاستجابة، فيوقف عليها كما هو دأب قُرّاء القرآن، فيصير مجموع مقاطعها جميعاً (١٦) مقطعاً. والذي سَوّغ لنا تَبَنّي ذلك في هذه النقطة هو توالي حدوث كلٍّ من هذه الوحدات بالتعاقب، وترتُّب اللاّحق منها على السابق، مع إمكان التراخي في هذا الحدوث، أما علّة عدم اعتماد ذلك في وحدَتَي الطلب فلكون الثانية منهما تنتهي بالياء أصلاً، أمّا الأولى فتستبين عليها حركة كاف الخطاب لكون الأمرَين صَدَرا دون تراخٍ، والله أعلم.

فالزيادة المتوالية في عدد المقاطع الكلية تَمّت بزيادة مقطع مغلق واحد لا غير على كلٍّ منها، بوتيرة تصاعدية، في مقابل تساوي عدد المقاطع المفتوحة. والنتيجة المتحصّلة من ذلك هي:

١- إنّ تساوي عدد المقاطع المفتوحة في الوحدات الثلاث يوحي بانفتاح عناصر الاستجابة على أمر الله القادر المتعال بدرجة واحدة من الإمتثال له، والنزول على مشيئته.

٢- إنّ الزيادة المتوالية في عدد المقاطع المغلقة يوحي بتدرّج فعل الاستجابة في غلق منابع الطوفان وانسداده بصورة متوازنة بحيث تبدو عملية نقصان الماء متدرّجة تماماً وفقاً لعملية الإغلاق والسد الذي يبدأ بإغلاق (واحد)، ثم (اثنين)، حتى يتم إحكام الغلق بـ (ثلاثة).

خامساً: اشتملت الوحدة الأخيرة رقم (٦) على أكبر عدد من (المقاطع المغلقة) من بين الوحدات الستة التي تكوّنت منها الآية، وعددها (٥) مقاطع مغلقة من مجموع (٨)، وذلك يدلّ على أمرين:

١- جاءت كثرة المقاطع المغلَقة متناسبةً مع انقضاء الأمر وتمامه حيث «سَكَنَ الماءُ وانسدّتْ ينابيعُ الأرضِ وأبوابُ السماء»[1].

٢- جاءت كثرة المقاطع المغلقة متناغمةً مع أسلوب الدعاء على الظالمين من قوم نوح بالإبعاد[2]، والهلاك والموت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فأطبقتْ

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/٤٤٩.

(٢) (بعداً) في قوله تعالى: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ «مصدر وُجّه على جهة الدعاء...عليهم بالإبعاد عن الرحمة باستحقاق العقوبة السرمدية» (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٣٠/٣).

عليهم الأمواجُ، وانسدّتْ في وجوههم منافذ الحياة فكانوا من المغرَقين.

سادساً: اشتملت الوحدة الأخيرة رقم (٦) على أكبر عدد من المقاطع الطويلة من بين الوحدات الستة التي تكوّنت منها الآية، وعددها (٧) مقاطع طويلة من مجموع (٨). وحيازة هذه الوحدة على هذا الكمّ الكبير من المقاطع الطويلة التي يتكوّن كلُّ مقطع منها من حرفين؛ أولهما متحرك والثاني ساكن، يَتَناسُب تماماً مع طبيعة الجملة الدعائية المختصّة هنا بدعاء السّوء[1]، والتي عادةً ما تتطلّب النَفَس الطويل والامتداد الذي لا تعترضه كثرة المتحَرِّكات.

٧. ٢. ٢. ٤. ١. ٢ ـ التحليل الصوتي

من خلال تحليل المكونات الصوتية للآية يُلاحَظ ما يلي:

أوّلاً: اشتملت وحدتا الطلب (١) و (٢) على حرفين حلقيين؛ هما: (الهمزة) و (العين)، ويتطلّب النطق بهذين الحرفين نوعاً من المشقة، وبذل طاقة غير عادية[2]، وقد زاد من مشقة النطق بهما أن تكرّرت الهمزة مرّتين، والعين مرّة في كل وحدة، فصار في كل وحدة ثلاثة أصوات حلقية، مِمّا مَنَحَ جملَتَي الطلب حِدَّةً وقوّة، بالقياس إلى سائر الوحدات. وهذه الحِدّة والقوة تتناسب مع قاطعيّة الأمر الإلهي، وما يترتَّب على هذا الأمر من حَتميّة الإستجابة له.

ثانياً: اشتملت وحدات الاستجابة الثلاثة (٣) و (٤) و (٥) على همزة وصل في كلٍّ منها. ومن خصائص همزة الوصل أنّ اللسان يُسرع بها أثناء النطق، كما أنّ فيها

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٢/٣٩٨.

(٢) ذكر علماء القراءة أنّ «جميع حروف الحلق يُعانَى عند النطق بها نوعُ مَشَقّة» (الموضح في التجويد: ١٠٣).

اختصار لحروف الكلمة. وفي ذلك دلالة على سرعة الاستجابة والانقياد لأمر الله لبلوغ المراد.

ملاحظتان:

١- إذا كانت الوحدتان [(٣) و (٤)] قد اشتملت كلّ منهما على همزة، غير همزة الوصل، فهي في كليهما خفيفة الوطء، سهلة النطق، وذلك لأنّها في الوحدة (٣) وردت آخر الجملة، وفي الوحدة (٤) وردت بحيث يجوز تلاوتها بالتسهيل.

٢- ابتدأت الوحدة (٣) بصوت (الغين)، ولكن خَفَّف من نطقه وروده بالكسر، ومناسبة المدّ اليائيّ الذي يليه لحركة الكسر.

ثالثاً: إنّ كسرة غين **(غِيضَ)** في أول الوحدة (٣)، والمَدّ اليائيّ الذي يليه متناسب مع نقصان الماء وغوره في باطن الأرض[١]. كما أنّ صوت (الغين)، وهو حرف حلقيّ قصيّ، عندما يُنطق به مكسوراً وممدوداً هكذا يُقرِّب صورة انحسار الماء عن سطح الأرض وابتلاعها له. ويمكن أن يُعَدّ هذا سبباً آخَر يُضاف إلى اختيار هذه اللفظة دون لفظة (غُيِّض) المشددة[٢].

رابعاً: إن صوت (الغين) في (غِيضَ) يُقرأ بـ (الاشمام)، وذلك لأنّ (غِيْضَ) أصلها (غُيِضَ) فنُقلت كسرة (الياء) إلى (الغين). والإشمامُ يعني: «الإتيانُ بالفاء بحركةٍ بين الضمِّ والكسر، ولا يظهر إلاّ في اللفظ، ولا يظهر ذلك في الخطِّ، وقد قُرِىء في السبعة قولُه تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ بالإشمام في (قِيل)، و(غِيض)»[٣].

---

(١) لسان العرب: مادة: غور.

(٢) جاء في كتاب الايضاح في علوم البلاغة أنّه قد «اختير (غِيضَ) الماء على (غُيِّضَ) المشدّدة لكونه أخصر وأخف وأوفق لقيل» (الايضاح في علوم البلاغة: ٣١١).

(٣) شرح ابن عقيل: ١/١١٧.

فالاضطراب في حركة (الغين) الناتج عن تلفظها بين الكسر والضم، والذي يظهر بشكل جلّي على حركة الفم وتكوّر الشفتين[١]، يضارع اضطراب حركة الماء وهو يدور ليغيض تحت سطح الأرض.

خامساً: حرف (العين) الحلقيّ في الوحدة (٥)، وحركة الفتح الملازمة له، وحرف (اللام) الذي يليه، إضافةً إلى وصل الحرف (على) بالكلمة التالية لها (الجودِيّ)، يناسب مفهوم استعلاء السفينة فوق الماء ثم استوائها علَى قمة الجبل.

سادساً: تم اختيار الفعل (اسْتَوَتْ) في الوحدة (٦)، وكان الأصل استعمال الفعل (جَلَسَتْ) «فَعُدِل عن اللفظ الخاص بالمعنى إلى مرادفه، لما في الاستواء من الإشعار بجلوس متمكّن، لا زَيغ فيه ولا ميل؛ وهذا لا يحصل من لفظ الجلوس»[٢].

يُضاف إلى ذلك اشتمال لفظ (استوت) على صوت (التاء) مرّتين، وهذا الصوت كما وصفه الشيخ الرئيس ابن سينا يُسمع «عن قرع اليد بإصبعٍ بقوّة»[٣]، وهو كما وصفه عبد الله العلايلي: يدلّ على الاضطراب في الطبيعة، والملامس لها في غير شدّة[٤]. وهذه الصفات التي تُميِّز صوت (التاء) المتكرر في لفظ (استوت) تناسب من

---

(١) ذكر ابن جني أنّ الإشمام يكون «للعين دون الأذن» (الخصائص: ٣٢٨/٢). أما علماء القراءة فقد ذكروا فيما يتعلّق بصورة نطق الإشمام من خلال تعريفهم له بأنه: «إبقاءُ جزءٍ من الحركة لكن بعد قطع الصوت قبل الإتيان بهذا الجزء، ولهذا تَمَحّضَ لروية العين فأدركه المبصر دون الأعمى، واختص به المرفوع والمضموم دون المكسور والمجرور والمفتوح والمنصوب، لأنّ الضمّ من الشفتين، وإذا أومأ بشفته نحوه أمكن الإيماءُ وأدركه الرائي، وإن انقطع الصوتُ، لأنّ الرائي يُدرك مخرج هذه الحركة وهو الشفتان، فأمكن أن يُدركها..» (الموضح في التجويد: ٢٠٩).

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١٩٥/١.

(٣) أسباب حدوث الحروف: ٢٦.

(٤) في التطور اللغوي: ١٠٠.

الناحية الصوتية اضطراب الفلك عند لحظة الاستواء وملامستها للجودي من غير شدّة لكي لا تُصاب هي، أو مَن فيها بأذى، لأنها صُنعت بعين الله، وجَرَت باسم الله، ورَسَت على بركة الله.

ثم إنّ هذا الصوت الذي يُسمَع من قرع الكفّ بالاصبع بقوة يكاد يُسمع من اصطكاك الفلك بالجبل أثناء الإستواء. ولهذا صُنّفَ هذا الحرف «في زمرة الحروف اللّمسية، لأنّ صوته يوحي فعلاً بإحساسٍ لَمسيٍّ مزيج من الطراوة والليونة»[1] والله أعلم.

سابعاً: اختيرت لفظة (الجوديّ)[2] بدلاً من (الجبل). وما يُميز الأولى أنّ فيها (مدّاً)، وهو ما يُمكن أن يُعَدّ تناسباً لفظياً مع حالة الإستواء التي عُبِّر عنها، حيث استوت السفينة على قمّة مستوية. ثم إنّ الانتقال من صوت المدّ الواوي إلى صوت (الدال) المجهور الشديد المتصلّب، نلحظ فيه إيحاءً قوياً بشدة الجبل وصلابته، واستواء السفينة على أرض ذات قرار مكين. ومن ثَم يتم الإنتقال من صوت الدال الانفجاري المكسور إلى الياء اللّينة المشدّدة الموقوف عليها في آخر الكلمة، وبهذا الصّوت الناعم يُسَجَّل انتهاء الحدث، ورسوّ الفلك على قمة الجبل الصلبة المستوية بِيُسرٍ وأمنٍ وسلام.

وبذلك عملت المقاطع الصوتية المتناسبة، إضافةً إلى الأصوات الدالّة التي اشتملت عليها هذه الآية على رسم ملامحها الايقاعية المتناغمة مع صورة الحدث، والتي جاءت مغايرةً تماماً للملامح الايقاعية للمشهد أو الموقف السابق الذي تمثل في الآيات التي سبقت هذه الآية. فأتَى كلٌّ وفقاً لما تطلّبه الموقف والحدث.

---

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها: ٥٦.

(٢) جاء في مفردات الراغب عن (الجوديّ) قوله: «قيل هو اسم جبل بين الموصل والجزيرة، وهو في الأصل منسوب إلى الجود» (المفردات في غريب القرآن: ١١٠).

٧. ٢. ٣ ـ التقابل

يمثل التقابل قانوناً آخَر من قوانين تشكّل الايقاع في النصِّ القرآني. كما يُعَدّ واحداً من أهم القيم الجمالية التي تقوم عليها الفنون بجميع أشكالها وصورها، منها الفنون السّمعية والبصرية. وقد تنبّه البلاغيون العرب إلى أهمية هذا العنصر من عناصر العمل الأدبي، فأولوه عناية بالغة.

وقد أدخل بعضهم المقابلة في باب الطباق ولكنّ أكثر المتأخرين جعلوه قسماً قائماً بذاته. يقول حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) «وإنما تكون المقابلة في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يُطابق بعضها بعضاً، والجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يُذكر مع الآخَر من جهةٍ ما بينهما تباين أو تقارب على صفة من الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر كما لاءم كلا المعنيين صاحبه... وليس يُشترَط تحاذي عبارتَي المعنيين المتقابلين في طرَفَي الكلام في الرتبة؛ وإذا أمكن فهو أنسب»[1].

وقد قسّم بعضهم المقابلة إلى ثلاثة أنواع: نظيري، ونقيضيّ، وخلافيّ: فمن مقابلة النظيرَين مقابلة (السِّنة) بـ(النوم) في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ومن مقابلة النقيضَين مقابلة (اليقظة) بـ(الرقاد) في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]. ومن مقابلة الخلافَين مقابلة (الشّر) بـ(الرشد) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠][2].

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ٥٢.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٢٨.

وقسّم آخَرون التقابل إلى أنواعٍ ، بحسب العدد :

الأوّل : مقابلة اثنين باثنين ، كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة : ٨٢].

فَلْيَضْحَكُواْ	قَلِيلًا
وَلْيَبْكُواْ	كَثِيرًا

الثاني : مقابلة ثلاثة بثلاثة ، كقوله تعالى : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف : ١٥٧].

وَيُحِلُّ	لَهُمُ	ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَيُحَرِّمُ	عَلَيْهِمُ	ٱلْخَبَٰٓئِثَ

الثالث : مقابلة أربعة بأربعة ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل].

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ	وَٱتَّقَىٰ	وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ	فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ
وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ	وَٱسْتَغْنَىٰ	وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ	فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ

وقد أوصلوا المقابلة إلى خمسة بخمسة[١]، كما أوصلها آخَرون إلى ستة بستة[٢].

ويتنوّع التقابل وتتشعّب صوره بحيث تتشكّل من خلاله تقابلات إيقاعية متنوّعة ؛ ففي النموذج الأخير من سورة الليل لا يقتصر التقابل على القيم الأربعة التي تَمَّ تسجيلها في حقولها، وإنّما تبدأ المقابلة من أوّل السورة، ولا تنتهي إلاّ بها. ويمكن ملاحظة ذلك عبر النظر إلى نظامها المعماري التقابلي المتفرد :

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾

وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾

إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾

فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾

وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾

فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾

لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾

وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾

وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾

فالسورة تبدأ بإيقاعين متقابلَين لصورتين متباينتَين، الأولى: صورة الليل حين

(١) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ٦٣٨

(٢) الإتقان في علوم القرآن : ٣/٣٢٨.

يغشى، ونقيضه النهار حين يتجلّى. والثانية: صورة الذكَر الذي يُقابل الأنثى في النوع وفي الخلقة. ثم تأتي الآية على الذي أعطى واتقى وصدّقَ بالحسنى، وسَيُيَسِّره الله لليسرى، فيقابَل بالذي بخل واستغنى وكذّبَ بالحسنى، وسَيُيَسِّره الله للعسرى، فكما قسّم الله بين هذا وذاك من الحقائق المتقابلة في الكون. قسّمَ كذلك بين الناس. لأنّ سعي البشر مختلف، وجزاءهم مختلف، فليس الخير كالشر، ولا الهدى كالضلال، ولا الصلاح كالفساد. فللبشرية منهجان في كلِّ زمان ومكان؛ أحدهما يُفضي إلى الجنة، والآخر يَسوقهم إلى ما يُقابلها وهي النار.

ومن بديع التقابل في هذه السورة «إنّ الآية الحادية عشرة ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ لا تقابلها مباشرة في النسق آية تَخُصُّ الذي أعطى واتقى، ولكن القرآن العجيب لا ينسى التوازن فسرعان ما يضيف إلى وصف المؤمن آيةً أو آيتين في نهاية السورة ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ حتى تنسجم مع تلك الآية، ويكون كمُّ التقابل واحداً أو يكاد»[1].

وكثيراً ما تكون المقابلة بين نقيضَين، فيرصد لهما التعبير القرآني جملتَين متوازيتَين متناظرَتين كمّاً إلى أقصى حدود المقابلة اللّفظية، لتقف في موازاة المقابلة المعنوية، وتعمل معها على رسم صورة ثنائية تكاملية، تتضافر فيها القيم اللفظية والمعنوية والصوتية والجمالية، فتُلقي في نفس المتلقي تأثيراً مدهشاً، ومن ثَمَّ تُثير فيه الاستجابة للهدف المرجو من التعبير. ومثاله المقابلة بين فعلَي الخير و الشر مهما قَلَّ، ومقابلتهما بالثواب والعقاب اللّذين غابا لفظاً، وعُبِّر عنهما معاً بالرؤية، وذلك في قوله تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

(١) قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن: ١٣٩.

يَـرَهُۥ	خَيۡرًا	ذَرَّةٍ	مِثۡقَـالَ	يَعۡـمَلۡ	فَـمَن
يَرَهُۥ	شَـرًّا	ذَرَّةٍ	مِثۡقَـالَ	يَعۡـمَلۡ	وَمَن

فالعمل خيراً كان أم شراً، مهما قَلَّ أو كثُر، لا يكاد ينفصل عن صاحبه، بل يُلازمه كأنه هو، حتى يُجازَى به، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر. وتتعانق هنا طريقة التلاوة مع صورة المقابلة اللفظية والمعنوية في الدلالة على المعنى وتجسيده بدِقَّة متناهية، دون زيادة أو نقصان؛ فكما أنّ مثقال الذّرة من عمل الانسان يُحسَب ويُرى، فإنّ كلَّ حرفٍ وصوتٍ في هذه الآية محسوب ومُشاهَد.

وقد لوحِظ في الآية مبدأ العلاقات بين الألفاظ وأصواتها؛ فهناك إدغام بغنّة بين النون والياء في قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾، والإدغام بين اللفظَين يعني عدم انفكاك أحدهما عن الآخَر، مِمّا يوحي بالتصاق العمل بصاحبه وعدم انفكاكه عنه. كما أنّ هناك إدغام مماثل بين لَفظَي: ﴿خَيۡرًا يَرَهُۥ﴾ ولَفظَي: ﴿شَرًّا يَرَهُۥ﴾ وهو تأكيدٌ للإدغام الأوّل، حيث يظَلُّ عمل الإنسان ملازماً له حتّى يُجازَى به لحظة صدوره يوم القيامة.

وبناءً على ما تقدّمَ من عرضٍ لنماذج من التقابل لوحظ تعانق اللفظ مع المعنى والايقاع مع الصوت والصورة، فكانت المقابلة حيثما وردت في كتاب الله صورةً جماليةً من صور الاعجاز اللفظي والمعنوي. ولهذا يُمكن تعريف التقابل الجمالي في النصّ القرآنيّ بأنّه «بنيةٌ تقابليةٌ لغويةٌ بلاغيةٌ إيقاعيّةٌ نَسَقيةٌ؛ تُجسِّد بنيةً نقديةً وفنّيّةً وجماليةً، تستند إلى علاقة المواجهة والتناسب والموازاة والتناغم، في جملَتَين أو أكثر،

على جهة الإئتلاف أو الإختلاف، لتحقيق وظيفة من الوظائف تتجه إلى هدفٍ ما في كل زمانٍ ومكان لإفادة المتلقي وإمتاعه»[(١)].

ومن خلال إلقاء نظرة خاطفة على طبيعة التقابل التناظري بين ألفاظ النموذج الأخير يتبدّى لنا قانون آخَر من قوانين تشكّل الإيقاع في النصّ القرآني، وهو قانون التكرار اللفظي، أو ما يُسَمّى موسيقياً بالترجيع.

٤.٢.٧ ـ التكرار

التكرار قانون آخَر مهم من قوانين الايقاع، بل عَدَّهُ البعض قاعدَته الأساسية، فقد جاء تعريف التكرار في معجم المصطلحات العربية في اللُّغة والأدب كما يلي: «التكرار (Repetition): الإتيان بعناصر متماثلة في مواضيع مختلفة من العمل الفنيّ، والتكرار هو أساس الإيقاع بجميع صوره، فنجده في الموسيقى بطبيعة الحال، كما نجده أساساً لنظرية القافية في الشعر»[(٢)].

والتكرار لا يَختصّ بالموسيقى والشعر فحسب، بل يدخل في جميع الفنون، ومنها فنون البيان والسَّرد على اختلاف أنواعها. لذلك عرّفَه آخَرون بقولهم: «يُعتَبَر التكرار وسيلة أساسية من وسائل الصنعة الفنية، فبحور الشعر والنبر والإيقاع في النظم وسائل تكرارية، وقد امتدّ استعمال المصطلح إلى علوم اللغة أخيراً وإلى علم السّرد»[(٣)].

والتكرار سُنّة من سُنن العرب في كلامها إظهاراً منها للعِناية بالأمر، كما قال

---

(١) التقابل الجمالي في النصّ القرآني: ٩٠.

(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة الأدب: ١١٧ ـ ١١٨.

(٣) المصطلحات الأدبية الحديثة: ٩١.

الشاعر [من الرجز]:

كَمْ نِعمَةٍ كانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وكَمْ

فكَرَّرَ لفظَ (كَمْ) للعناية بتكثير العدد[1]. ولا يَخفَى ما يتركه إيقاع هذا التكرار من أثَر عميق في نفس المتلَقي يُرَسِّخ فيه المعنى فيتفاعل معه.

وقد جاء القرآن الكريم على سُنن العرب، فكانت ظاهرة التكرار فيه جليّة واضحة، متعددة الصُّوَر والأشكال، ولكن ما يَهمّنا منها ثلاثة أنماط: تكرار اللفظ وتكرار الجملة وتكرار القالب الصّوتي.

٧.٢.٤.١ ـ تكرار الألفاظ

يتكرَّر اللفظ في القرآن على نوعَين: إمّا مفرداً، وإمّا مُرَكّباً، فالأوّل ما نجده في سورة الناس، حيث يُسمَع في نهايات آياتها السِّتّ لفظ (النّاس) سِتَّ مَرّات؛ خمس مَرّات بهذا اللفظ ومعناه، ومَرّة واحدة يُسمَع من لفظ (الخنّاس):

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢
إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤
ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

نّ الايقاع المتولِّد من تكرار هذا اللّفظ المتضمِّن لصوت السِّين المهموس من شأنه أن يُشيعَ جوّاً من الوسوسة يُناسبُ جَوّ السورة بشكل كامل[2]، خاصّة أنّ «حرف

(١) فقه اللغة وأسرار العربية: ٤٢١.

(٢) التصوير الفني في القرآن: ٧٨.

السِّين الذي تكرّرَ في هذه السورة صوت صامت مهموس لثوي احتكاكي، لا يستطيع الإنسان أن ينطق به وهو مفتوح الفم، بل إنه ليُحدث في نطق كثيرين له أن تلتقي الأسنان السفلى بالأسنان العليا. وقد اختير هذا الصوت بصفة خاصّة، لإبراز هذه الوسوسة التي يُخافت بها أهل الجرائم والمكائد، وما يُلقيه الشيطان في روع الإنسان ليزين له بذلك ارتكاب المعاصي، وهو أدلّ بجرسه الصوتي الاحتكاكي الهامس على تصوير حالة الهمس الخفي»[1].

أمّا أسلوب تكرار اللّفظ مركّباً فهو أن يأتي اللّفظ أوّلاً مفرداً مجرّداً، ثم يُعاد ثانيةً وقد أُضيفَ إليه حرفٌ أو حرفان، ومن ثَمَّ يتكرَّر اللّفظ ذاته وقد زيد عليه كلمةٌ أو كلمتان، ومثاله الآيات الثلاثة الأولى من سورتَي الحاقّة والقارعة:

﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

وكما ذُكِرَ سابقاً فإنّ هذين اللّفظين من الاستعمالات القرآنية المحضة[2]، في إطلاقهما على يوم القيامة. لذلك فإنّ «أوّل ما نشعر به أو نُحِسُّه من قراءة العبارتين هو الصوت قبل المعنى الغامض، يأتي الصوت قوياً مزلزلاً مفزعاً هائلاً، إنه قذيفة تُلقَى دفعةً واحدةً: ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾، ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، ثم يُترَك ليجدَ أثره في النفس، وفي كلّ صوت أثقال وأوزان، الصوت الأول ثِقَلٌ يرتفع عالياً مع الحاء والألف ثم يَحُطّ بجمعه مع القاف المشدّد والتاء الساكنة، والثاني ضخم رهيب يَقرع قرعاً مُجلجلاً ومُدوياً، وبكلا الثقلين أو الصوتين يتنبه حسّ الإنسان، يستيقظ ويترقب وينتظر، تتوجه أذناه

---

(١) دراسات قرآنية في جزء عمَّ: ١٦١.

(٢) يُراجع مبحث: (٦. ١. ٢ ـ دلالة الصيغة الإنتقائية).

نحو مصدر الصوت، ويتلفت قلبه يريد أن يعرف ما الخبر؟ فيُلقَى إليه باللّفظ ثانية بما أُضيف إليه فتزداد قوته ويزداد أثره ويزداد غموضه، وبالقوة والأثر والغموض يُستوفَز الإحساس، عندها تأتي الضربة أو القرعة الثالثة يترجع اللفظ أقوى وأعنف وأغمض ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟! فيها يحبس النفس، وتضطرب المشاعر، وترتعد الفصائل، ويقف الشَّعر فيأتي الخبر، ويكون الجواب»[1].

فالإيقاع هنا عبارة عن ثلاث موجات متعاقبة تكبر وتتّسع متصاعدةً في طولها ومدودها، وتتّصف كلّ واحدةٍ منها بالشِّدّة والمدّ في وسطها، ويتعدّد ذلك ويتكاثر في الثانية والثالثة. فهذا النوع من التكرار، وما ينتج عنه من إيقاع متصاعد، فيه ضرب من الإثارة، وهو وسيلة للتنبيه والمفاجأة، يتناسب، بِما فيه من الاستفهامات المتوالية المشوقة لمعرفة الجواب، مع هول الموضوع الذي هو يوم القيامة، كما أنه يتناسب مع العهد المكي الأوّل الذي كان فيه العربيّ سادراً في غَيِّه وغلوائه، غير مستعد للإصغاء إلى الدعوة الجديدة[2].

ثم يعقب ذلك التكرار المقابلةُ في السورَتين معاً، ليتمَّ الايقاع، فيأتي على أكمل وجه. ولكن هذه المقابلة متباينة؛ فهي في سورة الحاقّة من النوع النظيري، وقد جاءت على أسلوب الجمع والتفريق، في الآيات الثلاثة التالية:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾

أمّا في سورة القارعة فجاءت المقابلةُ التالية للتكرار من النوع النقيضيّ؛ وقد

(١) قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن: ١٤٠.

(٢) دراسة أدبية لنصوصٍ من القرآن: ١٥٣.

تكرّرت مرّتين ؛ إحداهما قوبل فيها بين القوّة والضّعف، والثانية بين الخفّة والثّقل. وذلك فيما بقي من آيات السورة:

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾

٧. ٢. ٤. ٢ ـ تكرار التراكيب والجمل

يتّخذ تكرار الجمل أشكالاً عدّة، يعنينا منها ما يكون التكرار متوالياً بحيث يُشكل نمطاً إيقاعياً خاصّاً يمكن الإحساس به بسهولة ويُسر.

ويمكن تقسيم التكرار في الجملة إلى ثلاثة أقسام: ما يقع منه في الجملة الاسمية، وما يقع منه في الجملة الفعلية، وما يقع منه في حروف المعاني التي ترتبط عادة بأحد نوعَي الجملة العربية[1].

فمثال ما وقع منه في الجملة الاسمية قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذي تكرّرَ في سورة المرسَلات عشر مرّات، فكلّما ذكر الله أمراً عظيماً من أمور الدنيا والآخرة ذُكرَت هذه الآية بما تحمل من أسلوب الوعيد والتهديد، فانقسَمت السورة بناءً على ذلك إلى عشرة أقسام ينتهي كلّ قسم بهذه الجملة التي تمثل آية بعينها، فبدت أشبه ما تكون باللاّزمة الايقاعية المترددة التي تُؤدّى بين كل فقرتَين من فقرات الأنشودة.

أمّا ما وقع من تكرار في الجملة الفعلية، فمنه ما كان الفعل مبنياً للمجهول، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر]. ومنه ما

(١) التكرار الأسلوبي في اللغة العربية: ٤٣.

كان الفعل مبنياً للمعلوم، كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الذي تكرّرَ في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرّةً. ورغم أنّ التكرار إذا ما زاد عن حَدِّه يُعَد إطناباً مُمِلاًّ، وخروجاً على مبدأ الايجاز، إلاّ إنه قد حَسُنَ في هذا الموضع، يقول الشريف المرتضى في ذلك «فأمّا التكرار في سورة الرحمن فإنّما حَسُنَ للتقرير بالنِّعَم المختلفة المتعددة، فكلَّما ذَكَرَ نعمةً أنعمَ بها قَرَّرَ عليها، ووَبَّخَ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: أَلَم أُحسِن إليك بأن خَوّلتكَ الأموال؟ أَلَم أُحسِن إليك بأن خَلّصتك من المكاره؟ أَلَم أُحسِن إليك بأن فعلتُ كذا وكذا؟ فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يُقَرِّره به، وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم»[1].

ولكن هذه اللاّزمة الإيقاعية المتردِّدة في هذه السورة ليست مجرّد تكرار هدفه التذكير بنعمة أو نقمة فحسب، إنّما هي جملة تُكسِب النصّ كلّما رُجِّعَت نغمةً جديدةً، وعُمقاً جديداً، وما إن تنتهي السورة حتى تكون اللاّزمة قد أدّت دورَها على أكمل وجه، فوقّعَت على أوتار النفس والقلب توقيعات شَتّى، وعَمّقَت لدى المتلقي الإحساس النهائي الذي خلّفَه في روعه النصّ من قرع وتنبيه وتحفيز وتذكير وإثارة. وهذا قبَسٌ من أسلوب القرآن في إيقاعه الفريد لا يُشاطره فيه فنٌّ آخَر، ولا عهد للعرب به في ما ألفوه من فنون القول[2].

أمّا ما وقعَ من تكرار في حروف المعاني فيُمكن التمثيل له بتكرار (واو) القسم. وهو كثير في القرآن، حيث تتوالَى الآيات المصدَّرة بحرف القسم في قصار السُّوَر، وهي السور المكيّة، كما في الآيات الأولى من سورة الشمس:

---

(١) أمالي المرتضى: ١/١٢٣.

(٢) قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن: ١٤١.

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾
وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾
وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾
قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾

فحرف القسم يتصدَّر الآيات الستّة الأولى من السورة مشفوعاً بعنصر التقابل في كل آيتين منها ؛ حيث (الشمس ــ القمر) و (النهار ــ الليل) و (السماء ــ الأرض). وتنفرد النفس ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ دون أن يكون لها ما يُقابلها ، إلاّ أنّ المقابلة تبرز فجأةً فيما تُلهم القيام به من خيرٍ أو شَر ، حيث يعقبها تقابل **(فُجُورَهَا ـ تَقْوَاهَا)** ، ثم يليها تقابل ثنائي في الآيتين الأخيرتَين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ بين **(أَفْلَحَ ــ خَابَ)** و **(زَكَّاهَا ــ دَسَّاهَا)**. فتتبدّى فيهما عِدّة قواعد أساسية لتشكّل الايقاع ، وهي : التناسب والتنوّع والتقابل وتكرار القالب الصوتي.

ومن أمثلة حروف المعاني المتكررة حرف الزجر والردع (كَلاّ) في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ]. وفي قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر]. وتكرار (كلاّ) في السورتين جاء في ذات السياق ، وهو تهديد المكذبين بيوم البعث والحساب. ويُلاحَظ في الموضعَين تكرار الحرف ضمن تكرار القالب الصوتي مع زيادة (ثُمَّ) ، وقد لوحِظ في المثال السابق أيضاً ، مِمّا يقودنا إلى نوع آخَر من التكرار وهو تكرار القالب الصوتي.

٧. ٢. ٤. ٣ ـ تكرار القالب الصّوتي

وهذا النوع من التكرار غالباً ما يمثل السمة المشتركة لكثير من آيات سور الجزء

الثلاثين من القرآن الكريم، حيث تُساق الألفاظ وفق نظام دقيق تجد له الأذن لَذّةً، وفي تكراره متعةً، تجعله قريباً إلى النفس، سريع العلوق بالقلب، وهي بمجملها قوالب صوتية مَقيسةً بدقّة متناهية في كثير من المواضع، فتتطابق الحركات والسكنات طولاً وقِصَراً في عبارات بليغة معجزة[1]. ومن أمثلتها الآيات التالية:

- ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقًا ۝١ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشۡطًا ۝٢ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبۡحًا ۝٣ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبۡقًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٤]
- ﴿فِي سِدۡرٍ مَّخۡضُودٍ ۝٢٨ وَطَلۡحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمۡدُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣٠]
- ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]
- ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الإنفطار: ١٣ ـ ١٤]
- ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٥ ـ ٢٦]
- ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦]
- ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣]

ومنه أيضاً، إذا تَمَّ تجاوز الفارق البسيط بين طول الصّائت وطول الصّامت، أو بين الصوت المضعّف وغيره، في الآيات الأولى من سورة التكوير:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢
وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤
وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧

(١) دراسات قرآنية في جزء عمَّ: ١٦٥.

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾

وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾

ومن ذلك ما يكون بين آيتين اثنتَين، كما في الآيتين [١١و١٢] من سورة الطارق:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾

ومنه ما يكون بين مجموعتين، كلٌّ منها تتكوّن من ثلاث آيات، ويُعاد القالب الصوتي الثاني بعد فاصل كبير، كما بين الآيات [٧ و ٨ و ٩] والآيات [١٨و ١٩و٢٠] من سورة المطففين:

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾

المبحث الثالث

٧. ٣ ـ الفاصلة القرآنية

الفاصلة في القرآن نظام من الألفاظ تنتهي به الآيات أو رؤوس الآيات، وهي كقافية الشعر وقرينة السجع[١]. ولَمّا كان أهم فنون القول عند العرب حين نزول القرآن الكريم هو الشعر وسجع الكهّان، فقد نسبَ مشركو مكّة هذا الوليد الجديد إلى الشعر تارةً، وإلى السجع أخرى، وكما كان الإيقاع القرآني متفرِّداً ومتمايزاً عن إيقاع الشعر، كذلك كانت فواصله متفرِّدةً ومتمايزةً عن قوافي الشعر وسجع الكهّان.

ورغم أنّ فواصل القرآن متنوعة شأنها شأن السجع، إلاّ أنّها تختلف عنها من جهة الغاية والهدف. يقول الرُّمّاني: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حُسنَ إفهام المعاني. والفواصل بلاغة، والأسجاع عيبٌ، وذلك أنّ الفواصل تابعةٌ للمعاني، وأمّا الأسجاع فالمعاني تابعةٌ لها، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة»[٢].

وقد أورد الزركشي أنّ الزمخشري ذكر في كشّافه القديم «أنّه لا تَحسن المحافظة على الفواصل لِمجرّدها إلاّ مع بقاء المعاني على سَدادها، على المنهج الذي يقتضيه حُسنُ النظم والتئامه. كما لا يَحسن تَخيُّر الألفاظ المونقة في السّمع، السّلسة على اللّسان إلاّ مع مجيئها منقادةً للمعاني الصحيحة المنتظمة: فأمّا أن تُهمَل المعاني، ويُهتمَّ بتحسين اللّفظ وحده، غير منظور فيه إلى مُؤدّاه على بالٍ، فليس من البلاغة في فَتيلٍ أو نَقير»[٣].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/٥٣.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ٩٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ١/٧٢.

وهناك أدلّة كثيرة تُشير بوضوح إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الفواصل القرآنية ليست مقصودة لذاتها، وإنما يتسابق هدفان وراء التزامها أحدهما يُكمِّل الآخَر؛ وهما لزوم المعنى وتشكّل الايقاع. فلو كان المعنى تابعاً للفاصلة في القرآن الكريم لتغيّرَت كثير من فواصله، حتى تكون مناسبةً لما قبلها، كما في الآية الأخيرة من سورة (الضحى): ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ التي خُتِمَت برويّ الثاء في لفظة ﴿فَحَدِّثْ﴾، في حين سبقتها آيتان مختومتان برويّ الراء، وهما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، فلو كانت الفاصلة مطلوبةً لذاتها لَروعِيَت بمثل لفظ: (فَخَبِّرْ)، لمشاكلة رؤوس الآيات بالعدول إلى هذا اللفظ عن ﴿فَحَدِّثْ﴾، إذ ليس في السورة كلّها (ثاء) فاصلة، بل ليس فيها ثاءٌ على الإطلاق[1].

٧. ٣. ١ ـ الوظيفة الصوتية للفاصلة القرآنية

بناءً على ما تقدَّم فإنّ الفاصلة القرآنية تضطلِع بوظيفتَين أساسيتين، لا غِنَى لإحداهما عن الأخرى، لأنهما جاءتا على قدر واحد. إحدى هاتين الوظيفتَين صوتية، والأخرى معنوية. ومادام البحث يتناول الجانب الصوتي، وإنّ الوظيفة المعنوية تتطلّب تتبُّعاً لجميع فواصل القرآن للخروج بنتائج وقوانين لهذه الوظيفة، فسيُكتَفَى بذكر الوظيفة الصوتية، مع التلميح، ما وسعنا، إلى الجانب الدلالي الذي يَحكم اختيار فاصلة دون أخرى. وتعتمد الوظيفة الصوتية للفاصلة القرآنية على عِدَّة عوامل منها:

أوّلاً: أنها تحسين للكلام، وراحة للنفس أثناء التلاوة حيث يَحسُن الوقوف

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأرزق: ٢٦٩.

عليها، لاكتمال المعنى غالباً، أو مقاربته الكمال، والذوق السليم يشهد بضرورة هذه الوقفة، ويدرك تماماً قيمته الجمالية.

ثانياً: أنها تُؤذِن بانتهاء آية، وتُمَهِّد للآية التالية، فهي تُميِّز بين الآيات من جهة، وتربط بينها برباط مُحكم دقيق النظم جميل التلاؤم من جهة ثانية.

ثالثاً: أنّ الفاصلة تُساعد على تلاوة القرآن مُرتّلاً مُجَوَّداً[(١)]، كما أُريد له ذلك؛ بأمر من الله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وبتأكيد من رسوله الكريم: «ليس مِنّا مَن لَم يَتَغَنَّ بالقرآن»[(٢)].

ومن أجل هذه الوظيفة اختصّت الفاصلة بأمور. أهمها:

أوّلا: أنها جاءت غالباً مختومةً بحروف المدّ واللّين للتمكُّن من التطريب، كما ذكر سيبويه: «إنهم إذا تَرنَّموا يُلحِقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مَدَّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنَّموا. وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع»[(٣)]. ومن هنا جاء رويّ الفواصل إمّا متماثلاً وإمّا متقارباً لكي تستكمل أداة التطريب ويتم لها جمال التناسق وحُسن الإيقاع.

ثانياً: أنها غالباً ما تتقدّم عليها ألفاظٌ تُمَهِّدُ لها، وتُعظِّم من وقعها في السّمع والنّفس. وذلك ما يُسَمّى بالتصدير: وهو «ردُّ العجز على الصدر أو ردُّ الأعجاز على الصدور»[(٤)]. كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

ثالثاً: أن تتكرر في بعض المواضع فاصلة بعينها، كما في سُوَر: الرحمن والقمر والمرسَلات.

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ١/٢٢٥.

(٢) صحيح البخاري: ٦/٢٧٣٧.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٥٩.

(٤) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣٥٥.

وهـذه الأمـور وغيرهـا ليسـت مختصّـةً بالوظيفـة الصـوتية فحسـب، بـل تـدخل في صميم الوظيفة المعنوية أيضاً. ويُمكن الكشف عن ذلك بقليل من البحث والتأمُّل[١].

٧. ٣. ٢ ـ مظاهر الإيقاع في الفاصلة القرآنية

وقف دارسـو الإعجـاز قـديماً وحـديثاً عنـد الفاصـلة[٢]، وأفاضـوا في الحـديث عـن أقسـامها؛ كـالمتوازي والمتـوازن والمطـرّف والمرصّـع والمتماثـل[٣]، وذكـروا لهـا أوصـافاً عديدةً كالتمكين والتوشيح والايغال والتصدير[٤].

وقد أدرك هؤلاء علاقة الفاصلة بالايقاع، ومدى ارتباط فواصل الآيات بالتشكُّل النغَمي. فقد نقـل السيوطي عـن شمـس الـدين ابـن الصـائغ (ت٧٧٦هـ) نيّفـاً وأربعـين وجهاً من وجوه مراعاة الفواصل للمناسبة سَمّاها: الأحكام الـتي وقعـت في آخـر الآي مراعاةً للمناسبة[٥].

واختصر الزركشي هذه الوجوه إلى اثني عشر وجهاً، وقدّمَ لها بقوله: «واعلم أنّ إيقـاع المناسَـبة في مقـاطع الفواصـل حيـث تطّـرد متأكّـدٌ جـداً، ومـؤثّر في اعتـدال نَسَـق الكلام وحُسن موقعه في النفس تأثيراً عظيماً ولذلك خَرَجَ عـن نَظْـم الكـلام لأجلـها في مواضع...»[٦].

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ١/ ٢٢٦.

(٢) لمزيد من الاطلاع يُراجع الفصل الثاني والثالث والرابع من كتاب الفاصلة في القرآن لمؤلفه الحسناوي (٢٠٠٠م).

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٣٥٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٧٨.

(٥) الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٣٣٩.

(٦) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٦٠.

وعند تتبّع هذه المواضع يُلاحَظ أمران:

أحدهما: أنّ المسوِّغ إلى ما عُدَّ خروجاً عن نَظْم الكلام ليس مسوِّغاً إيقاعياً فحسب، بل إنّ هناك دواعٍ دلالية مقصودة تصطفّ إلى جانب النسَق الإيقاعي. فالبعد الدلالي والإيقاعي متلازمان في النصّ القرآني، يُمكن الوقوف على أسرار هذا التلازم حيناً، وأحياناً يغيب عنّا بسبب قصور فينا أو تقصير منّا إزاء تدبُّر كتاب الله.

الثاني: أنّ كثيراً من هذه المواضع يفتقر إلى وضوح المسوِّغ النغمي، أو إنه أقرب إلى أن يُدرَس في علم المعاني من أن يُدرَس في ميدان الظاهرة الأسلوبية الإيقاعية[1].

وفيما يلي إشارة عابرة إلى أهم تلك الظواهر الداخلة في مبحث الفاصلة، والتي يُمكن أن تُعَدّ بِمُجملها ركيزةً أساسية من ركائز تشكل الإيقاع في النص القرآني، وسنختم البحث بدراسة بعضٍ منها بشيء من التفصيل.

---

(١) عودة إلى موسيقى القرآن: ٦٣.

الظاهرة	الصورة القرآنية	الصورة القياسية
١ـ التقديم:		
ـ تقديم المفضول على الفاضل	﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[(١)]	بِرَبِّ موسى وهارون
ـ تقديم الضمير على مايُفسِّره	﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[(٢)]	فأوجسَ موسَى خيفةً في نفسه
ـ تقديم ما هو متأخِّر في الزمان	﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[(٣)]	... الأولى والآخرة
ـ تقديم المفعول على الفاعل	﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾[(٤)]	ولقد جاء النذر آلَ فرعون
٢ـ العدل: نحو:		
ـ العدل عن المثنى إلى الإفراد	﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[(٥)]	... فتَشقَيا
ـ العدل عن الجمع إلى الإفراد	﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[(٦)]	... أئـمّة
٣ـ تغيير بنية الكلمة:	﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[(٧)]	... سيناء
٤ـ إيراد أحد الجزأين خلافاً للآخَر:	﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(٨)]	... الذين كذبوا
	﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[(٩)]	... الذين اتقوا
٥ـ صرف ما لا ينصرف:	﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾[(١٠)]	قوارير .. قوارير

(١) طه: ٧٠.

(٢) طه: ٦٧.

(٣) النجم: ٢٥.

(٤) القمر: ٤١.

(٥) طه: ١١٧.

(٦) الفرقان: ٧٤

(٧) التين: ٢.

(٨) العنكبوت: ٣.

(٩) البقرة: ١٧٧.

(١٠) الإنسان: ١٥ ـ ١٦.

٧. ٣. ٢. ١ ـ الحذف

سبق أن أُفرِدَ مبحث خاصّ بذكر الصوت وحذفه في اللّفظ القرآني[١]، لكنه لم يتناول الحذف الذي يطال الفاصلة القرآنية. وهو حذفٌ الغاية منه حفظ التوازن الإيقاعي بين الكلمات، وتحقيق المحاذاة بين الفواصل، انطلاقاً من خصوصيّته الدلالية وملاءمته للسياق.

والحذف، كما الزيادة، سُنّة من سُنن العرب في كلامها، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة [من الرمل]:

إنّ تقوَى ربِّنا خَيْرُ نَفَلْ ... وبإذنِ اللّهِ رَيْثي وَعَجَلْ

أي: وَعَجَلي. ومثله قول الأعشَى [من المتقارب]:

وَمِنْ شانِئٍ كاسِفٍ وَجْهُهُ ... إذا ما انتَسَبْتُ لَهُ أنْكَرَنْ

أي: أنكَرَني، بحذف ياء المتكلم في المثالَين[٢].

وقد نزلَ القرآن الكريم على سنن العرب في كلامها، فتتنوّعت فيه صُوَر الحذف في فواصله حفظاً للتوازن بين الكلمات وتحقيقاً للمحاذاة بين الفواصل القرآنية.

٧. ٣. ٢. ١. ١ ـ حذف المفعول

مثاله حذف (كاف الخطاب) من ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ في قوله تعالى مخاطباً حبيبه المصطفى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]. والقياس أن يكون (وما قَلاك)، وفحُذِفَ الكاف لتتحقّق المحاذاة الصّوتية بين هذه الفاصلة وبين ما قبلها وما بعدها، وهو قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

---

(١) يُراجع الفصل الرابع: المبحث الثاني (٤. ٢ ـ ذكر الصوت وحذفه في اللفظ القرآني).

(٢) فقه اللغة وأسرار العربية: ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

لكنّ هذا الحذف المتناغم إيقاعياً مع الفواصل، له دواعيه الدلالية أيضاً؛ فرغم دلالة السياق على المحذوف إلاّ أنه «تقتضيه حسّاسية مُرهَفة بالغة الدقّة واللّطف، هي تَحاشي خطابه تعالى رسولَه المصطفى، في موقف الإيناس، بصريح القول: (وما قَلاك. لِما في القِلَى من حِسٍّ الطّرد والإبعاد وشدّة البُغض. أمّا التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعلَّ الحسَّ اللّغوي فيه يُؤذِن بأنه لا يكون وداعٌ إلاّ بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلاّ مع رجاء العودة وأمل اللّقاء. وحُذِفَت كاف الخطاب في الفواصل بعدها[1]، لأنّ السياق بعد ذلك أغنى عنها. ومتى أعطى السياق الدلالة المرادة مستغنياً عن الكاف، فإنّ ذكرها يكون من الفضول والحشو المنَزَّه عنهما أعلَى بيان»[2].

٧. ٣. ٢. ١. ٢ ـ حذف الياء

وهو على أنواع منها:

- حذف ياء الإضافة: كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [3] بحذف ياء الإضافة من ﴿وَنُذُرِ﴾ وأصلها: (نُذُرِي). ونحوه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢]. و أصله (عِقَابِي).

- حذف ياء المنقوص: كما في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]. وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢] والأصل في فواصلها: (المتعالي) و(التلاقي) و(التنادي)، لأنّ الأصل عند أهل

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأرزق: ٢٦٩.

(٣) تكرّرت هذه الآية في سورة القمر أربع مرّات في الآيات [١٦، ١٨، ٢١، ٣٠].

اللّغة إثبات ياء الإسم المنقوص مجروراً ومرفوعاً، إذا اقترَنَ بـ: ال، أو أُضيف.

- حذف ياء الفعل غير المجزوم: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤].

وقد أكّدَ أكثر المفسرين على أنّ الحذف في هذه المواضع إنما قُصِدَ به رعاية الفواصل وتماثل رؤوس الآيات، ولكن لا يُمكن إرجاع الأمر إلى هذا العامل فحسب، إذ لابدّ من اقترانه بغاية دلالية داعية إلى هذا الحذف أيضاً، بدليل أنه لا يقتصر على فواصل الآيات فحسب «وإنّما حُذِفَت ياء المضارع المرفوع المعتلّ الآخر، وواوه أيضاً[1]، وياء المنقوص مضافاً ومُعَرَّفاً بأل[2]، في أواسط الجمل ودرج الكلام»[3].

وقد حاول بعض العلماء تفسير ذلك الحذف تفسيراً دلالياً يُضاف إلى التفسير الجمالي الإيقاعي[4]، ومازال الباب مفتوحاً لمزيد من التدبُّر في آيات الله التّامّات، مادامت عجائبه لا تنقضي، ولا يخلقه كثرة النظر.

٧. ٣. ٢. ١. ٣ ـ خطف ياء المتكلم

المألوف السائد في ياء المتكلم أنّ تُحذَف أو تُخطف حين تقع على رؤوس الآيات، حتى يتحقّق الانسجام الموسيقي. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦][5]، ذلك أنّ مبنى الفواصل قائم

---

(١) يُراجع مبحث: (٤. ٢. ٣ ـ إثبات (الواو) وحذفه).

(٢) يُراجع مبحث: (٤. ٢. ٤ ـ إثبات (الياء) وحذفه).

(٣) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأرزق: ٢٧.

(٤) يُنظر على سبيل المثال فصل (الناقص وأقسامه) في كتاب البرهان للزركشي (١/ ٣٨٨ ـ ٤٠٨).

(٥) على هدى الفواصل: ١٠٩.

على الوقف[١]. ويبدو هذا الانسجام ضرورياً جداً عندما يتكرّر ياء المتكلم، أكثر من مَرَّةٍ، على رؤوس فواصل سورة مبنية من أوّلها إلى آخرها على النون والميم الساكنتَين، كما في سورة الشعراء، حيث يتكرّرَ فيها ياء المتكلم اربع مرّات على التوالي في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ «وإنّما حذف الياءات لأنّه رؤوس الآيات. وهذا الكلام من إبراهيم عليه السلام إنّما صدَرَ على وجه الاحتجاج على قومه والإخبار بأنّه لا يصلح للإلهية إلاّ مَن فعَلَ هذه الأفعال»[٢].

فياء المتكلم في نهايات هذه الآيات خُطِفَت حتى تتناسب وتنسجم مع الفواصل السابقة واللاّحقة لها، مثل: ﴿تَعْبُدُونَ﴾، ﴿ٱلْأَقْدَمُونَ﴾، ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿ٱلدِّينِ﴾، ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، و﴿ٱلْءَاخِرِينَ﴾. ولو قُرأت بإثبات الياء لاختلَّ الايقاع، وذهب شَطر من الحُسن.

إضافة إلى مناسبة الايقاع فإنّ في هذا الحذف وجهان آخَران:

أحدهما: احترازٌ عن العبث بذكر ما هو معلوم ومذكور في كلِّ آية؛ حيث ذُكِرَ ياء المتكلم مَرّتَين في كلِّ آية من الآيات الأربعة[٣]؛ مَرَّةً قبل حرف العطف، وأخرى بعده.

الثاني: إنّ الإبقاء على ياء المتكلم هنا من شأنه أن يجعل ضمير (الأنا) يتكرَّر ثماني مرّات متتالية على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام وهو يُحاجج قومَه. وهذا أمرٌ ربّما يتنافى وخُلُق الأنبياء.

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/٦٩.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/١٩٢.

(٣) إلاّ في آية: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ حيث جاء فيها قبل حرف العطف ضمير المتكلم بدلاً من ياء المتكلم.

٧. ٣. ٢. ١. ٤ ـ حذف تاء التأنيث

تَميّزت سورة مريم، من حيث فواصلها، بأن كان معظَم الوقف في رؤوس آياتها على النون المنصوبة بالألف. ونسبة الوقف بالألف في فواصل الآيات قليلة جداً، فهي في حدود (٠/٠١٢) من مجموع الوقف على الفواصل القرآنية[1]. وقد ورد لفظ ﴿بَغِيًّا﴾ في هذه السورة، على سبيل الوصف للمؤنث، مَرَّتين:

الأولى: على لسان السيّدة مريم عليها السلام وقد نَفَت صفة البغاء (الزنَى) عن نفسها ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠].

الثانية: على لسان قومها وقد نَفَوا هذه الصفة عن أمِّها بقولهم لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]. وأصل ﴿بَغِيًّا﴾: (بغية) «فلمّا حُوِّلَ عن فاعل نقصَ منه حرف»[2].

وإنّما سوّغ المجيء بها على هذه الصيغة في القرآن تخفيفاً للّفظ من جهة، و«لأنّ ذلك مِمّا يوصَف به النساء دون الرجال فجرَى مجرَى امرأة حائض وطالق»[3].

وقد جاء اللّفظ السّابق لـ ﴿بَغِيًّا﴾ الوارد على لسان مريم، مُخَفّفاً أيضاً، في ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ حيث حذف النون من ﴿أَكُ﴾، وهو حذفٌ يُشعِرُ باستعجال مريم النطقَ ببراءتها من هذا الفعل المشين. وانطلاقاً من تجاور هذين اللّفظين فقد يكون لورود فاصلة ﴿بَغِيًّا﴾ بحذف تاء التأنيث وجهٌ آخَر، أو عِدّة وجوه، إضافةً إلى مناسبة هذه الفاصلة لسائر فواصل السورة، من هذه الوجوه:

---

(١) الفاصلة في القرآن: ١٣٦.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ١٩١/٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٧٨/١٦.

ـ أن يكونَ حذف (التاء) من ﴿بَغِيًّا﴾ بسبب المجاورة: وهو إعطاء الشّيء حكم الشيء إذا جاوره، كقول بعضهم: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ)، ومنه قراءة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالخفض، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦] على إنه عطف على ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ لا علَى ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، إذ الأرجل مغسولة لا ممسوحة، لكنّه خَفَضَ لمجاورة ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾[1]. فلَمّا حُذِفَ الحرف الأخير من ﴿أَكُ﴾ حُذِفَ كذلك الحرف الأخير من ﴿بَغِيًّا﴾، بسبب مجاورته له. وهو ما يُسَمّى أيضاً بالمحاذاة الصّوتية أيضاً[2].

أمّا ﴿بَغِيًّا﴾ الثانية الواردة على لسان قوم مريم فإنّها إن لم تتحقّق فيها المجاورة أو المحاذاة الصوتية، فقد تحقّقت فيها المشاكلة اللفظية؛ حيث شاكلت هذه سابقتها التي وردت على لسان مريم، فهي من قسم: المشاكلة بالثاني للأوّل[3] والله أعلم.

ـ إنّ الانصراف عن صيغة التأنيث إلى صيغة خالية من تاء التأنيث من شأنه أن يصرف الذهن عن تصوّر اتصاف مريم وأمها ـ وهما من جنس الإناث ـ بهذه الصفة، فكما أنّهما ليستا كسائر النساء، جاء اللّفظ كذلك خلافاً لسائر الألفاظ.

ـ ربما جاء الحذف صوناً للّسان عن التفوّه بهذا اللّفظ المشين بصورته الكاملة.

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٦٤٦.

(٢) المجاورة أو المحاذاة الصوتية على نوعين: محاذاة في الحركات؛ الضم أو الفتح أو الكسر، أو السكون، ومحاذاة في الأصوات عن طريق القلب، أو الحذف أو الزيادة، أو الإمالة، أو فكّ الإدغام (موسيقى اللغة: ١٢).

(٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٦٢٣.

٧. ٣. ٢. ٢ ـ الزيادة

كما أنّ من سُنن العرب في كلامها أن تَحذف في الكلام، من سننها أيضاً أن تزيد فيه، وذلك حفظاً للتوازن وإيثاراً له[١]. ولكي يتحقّق التناسب بين رؤوس الآيات، فقد وقع منه في فواصل القرآن أنواعٌ، نُشير فيما يلي إلى أهمّها.

٧. ٣. ٢. ٢. ١ ـ زيادة الألف

مثال زيادة الألف ما جاء في الفواصل الثلاثة التالية من سورة الأحزاب:

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [آية: ١٠].

﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [آية: ٦٦].

﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [آية: ٦٧].

فقد أُلحِقَت الألف بـ ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ و ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ «لأنّ مقاطع فواصل هذه السورة ألِفاتٌ منقلِبة عن تنوين في الوقف، فزيدَ على النون ألِفٌ لتساوي المقاطع، وتُناسب نهايات الفواصل»[٢].

ورغم أنّ القياس هو قراءة هذه الفواصل بغير ألف في الوصل والوقف إلاّ أنه «قُرِئ بزيادتها في الوصل أيضاً، إجراءً لها مجرى الوقف»[٣].

وقد ذكرَ صاحب البرهان أنّ بعض المغاربة أنكر أن تكون هذه الزيادة لإيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل، قائلاً: «لَمْ تُزَدْ الألف لتُناسبَ رؤوس الآي كما قال قومٌ، لأنّ في سورة الأحزاب: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]

(١) فقه اللغة وأسرار العربية: ٣٦٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٦١/١.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٥٢٧/٣.

وفيها: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وكلٌّ واحدٍ منها رأسُ آية وثبتت الألف بالنسبة إلى حالةٍ أخرى غير تلك في الثاني دون الأوّل؛ فلو كان لتَناسُبِ رؤوسِ الآي لثبت من الجميع»[1].

وفيما أورده الزركشي شيءٌ كثيرٌ من صواب الرأي؛ فكيف يُمكن أن لا يُمَدَّ لفظٌ في سورة، ثمَّ يُمَدُّ اللّفظ ذاته في السورة ذاتها، فيُفَسَّر هذا المدّ على أنه لرعاية الفواصل، والحال أنّ رؤوس الآي واحدة في تمام السورة.

والذي يرجّح هنا أن يُنظر إلى السياقين اللّذين ورد فيهما هذا اللفظ، لكي يتبيّن الدليل على مجيء لفظ (السّبيل) بدون زيادة الألف مَرّةً، وبها أخرى:

فالسياق الذي ورد فيه ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ ممدوداً بزيادة الألف هو قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

أمّا السياق أو الآية التي ورد فيها ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بدون زيادة الألف فهو قوله تعالى:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

وبنظرة سريعة إلى السياقَين يتبيّن لنا أنّ اللّفظة الأولى جاءت على لسان «أهل النّار وهم يصطرخون فيها، ويَمدّونَ أصواتهم بالبكاء، فجاء بالمدّ، وهو المناسب لِمَدّ الصّوت بالبكاء ورفعه، بخلاف الآية الثانية»[2] التي لم يستدعِ السياق فيها زيادة.

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/٦١.

(٢) التعبير القرآني: ١٠٤.

ولنفس السبب جاءت زيادة الألف في ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾، لأنها وردت في ذات السياق الذي وردت فيه لفظة ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ وعلى لسان أهل النار أنفسهم، وذلك على سبيل التحسّر والندم والتمني، وهي حالةٌ يُناسبها مدّ الصّوت واستطالته.

أمّا لفظة ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ فإنّ السياق الذي وردت فيه هو قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾. والآيات تتحدّث عن وقعة الأحزاب التي كانت شديدة الوطأة على المؤمنين؛ سواءٌ مَن ثبتت قلوبهم وأقدامهم، أو مَن كانوا من ضِعاف القلوب، كما شَمل الخطابُ المنافقين «الذين لم يوجد منهم الايمان إلاّ بألسنتهم، فظَنَّ الأوّلون بالله أنّه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، وأمّا الآخَرون فظنّوا بالله ما حكى عنهم. وعن الحسن: ظنّوا ظنوناً مختلفةً: ظنّ المنافقونَ أنّ المسلمين يُستأصَلون، وظَنَّ المؤمنون أنهم يُبتَلون»[1].

إنّ هذه الظنون الكثيرة المختلفة من هؤلاء جميعاً، التي زاغت معها الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، لَهي مِمّا يتناسب وهذا المدّ الذي في ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾؛ فكما امتدّت بهم الظنون وتجاوزَت حدود ما كُتِبَ لهم، كذلك امتدَّ الصّوت بهذه الفاصلة متجاوزاً حدود ما تستحقّه هذه اللفظة (الظنون) مِمّا وُضِعَ لها من أصوات.

٧. ٣. ٢. ٢. ٢ ـ زيادة هاء السّكت

زيدَت هاء السّكت في موضِعَين من الذكر الحكيم، وفي كلٍّ منهما جاءت الزيادة على صورةٍ خاصّةٍ؛ فَمَرَّةً زيدَت بعد ياء المتكلم في أكثر من مثال، وأخرى زيدَت بعد ضمير الفصل (هي) في مثال واحد.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٥٢٧/٣.

٧. ٣. ٢. ٢. ٢. ١ ـ زيادة هاء السّكت بعد ياء المتكلم

زيدَت هاء السّكت بعد ياء المتكلم في سياق سورة الحاقّة، في أربعة ألفاظ هي: ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ و ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و ﴿مَالِيَهْ﴾ و ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾. وردَ فيها اللّفظان الأوّلان مرّتين: إحداهما على لسان أهل الجنة، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ ــ ٢٠]. وفي المرة الثانية أُضيفَ إليهما اللّفظان الآخَران فوردا على لسان أهل النار، وهو قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩].

وعادةً ما يُعلِّلُ النحويون الزيادةَ في هذه المواضع وأشباهها بأنّها لبيان حركة الحرف الموقوف عليه، أو لتعويض الكلمة التي يسقط منها بعض حروفها عند الوقف[1]، لذلك فإنّ زيادة الهاء هنا تختصّ بحالة الوقف.

إلاّ أنّ إثبات هذه الهاء في المصحف أوقَعَ القرّاء في حَرَجٍ من عدم قراءتها عند الوصل أو إسقاطها. يقول الزجّاج في ذلك: «فالوجه أن يوقَف على هذه الهاءات ولا توصَل بأنها أدخلت الوقف، وقد حذفها قومٌ في الوصل، ولا أُحِبّ مخالفة المصحَف، ولا أن أقرأ بإثبات الهاء في الوصل، وهذه رؤوس آيات فالوجه أن يوقَف عندها، وكذلك قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠]»[2].

وبقليلٍ من التأمُّل في فواصل سورة الحاقّة التي وردت فيها هذه الزيادة نقف على حقيقة أخرى غير ما ذكره النحويون، وهي أنّ هذه الزيادة جاءت ليتواصل الإيقاع

---

(١) الوقف في القراءات القرآنية وأثره في الإعراب والمعنى: ١٦٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٢١٧/٥.

على نسَقٍ واحد. فالسورة تبدأ بفاصلة ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ مكرَّرة ثلاث مرّات، ثم تليها فواصل ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، ﴿عَاتِيَةٍ﴾... إلى أن يسبق هذه الفواصل المزيدة ألفاظ: ﴿وَاهِيَةٌ﴾ و ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ و ﴿خَافِيَةٌ﴾، لذلك جاءت ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ و ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و﴿مَالِيَهْ﴾ و ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ على شاكلتها.

وبالإضافة إلى مراعاة التناسب الإيقاعي، فهناك مراعاة للتقابل الإيقاعي بين الآيات التي وردت فيها هذه الزيادة، حيث قوبِلَ بين أهل الجنة وأهل النار بهذه الفواصل التي توحي بالاسترخاء والدّعة عند أولئك، وبالحسرة والتأوّه عند هؤلاء. والمقابلة هنا خمسة بخمسة؛ بعد إخراج قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ من سياق المقابلة، لأنّ المتحدِّث هنا مختلِف، فهو خطاب من الله عَزَّ وجَلَّ إلى أهل الجنة.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ	فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ
وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ	إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ
يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ	فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ
مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ	فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ
هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ	قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ

والذي يبدو من هذه المقابلة أنّ زيادة الهاء في فاصِلَتي ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ و﴿حِسَابِيَهْ﴾ جاءتا على لسان أهل الجنة والنار معاً، في مُبتَدأ كلامهما، ثم لم يَرِد بعد ذلك على

لسان أهل الجنة إلاّ فواصل أصلية الهاء غير مزيدة، في حين اختُتِمَ كلام أهل النار بفاصلَتَين مزيدَتَي الهاء كما ابتدأوا بِها: ﴿مَالِيَهْ﴾ و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾. فلَمّا زِيدَ في سياق أهل الجنة مخاطبةُ الله إيّاهم بأن يأكلوا ويشربوا ويهنؤا بالنعيم الذي لا مزيد عليه، كذلك فقد زيدَ في سياق أهل النار هاءُ السّكت إمعاناً في إبراز ما هم عليه من حسرة وتأوُّه.

٧. ٣. ٢. ٢. ٢. ٢ ـ زيادة هاء السّكت بعد ضمير الفصل (هي)

وردت هاء السكت بعد ضمير الفصل (هي) مرّةً واحدةً، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ٨ ـ ١١]. و﴿هِيَهْ﴾ إمّا ضمير ﴿هَاوِيَةٌ﴾، وإمّا ضمير الدّاهية على تقدير: (وأمّا مَن خَفّت موازينه فقد هَلَكَ)، ويكون عندئذٍ: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ من قولهم إذا دعَوا على الرجل بالهلَكة: هَوَتْ أمُّهُ. «والهاء للسّكت، وإذا وَصَلَ القارئُ حذَفَها. وقيلَ: حَقّه أن لا يُدرَج لئلاّ يسقطها الإدراج، لأنها ثابتة في المصحَف»[1] .

وبذلك يَصدق على هذه الهاء ما صدَقَ على الهاء المزيدة بعد ياء المتكلم، كما أنّها تُضارعها في إشاعة جَوٍّ التناسب الإيقاعي بين الفواصل السّابقة واللاّحقة لها. وكما زيدَت الهاء في سورة الحاقّة، ضمن سياق التقابل الإيقاعي، زيدت الهاء هنا كذلك في ذات السياق، لكنّ ما يُلفت الانتباه، في مضارعة هذه المقابلة لتلك، أنّ العنصر الأوّل منها جاء على فاصلَتَين، أمّا العنصر الثاني فجاء على أربعة فواصل، كالآتي:

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/ ٧٩١.

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ	وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ	فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ
	وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ
	نَارٌ حَامِيَةٌۢ

فقد تضاعفت الفاصلة هنا في أهل النار، كما تضاعفَت الفاصلة المزيدة هناك[1]. وفي ذلك من الدلالات ما يستحقّ مزيداً من الدراسة والتأمّل.

٧. ٣. ٢. ٣ ـ إيثار اللفظة الغريبة

للفاصلة دورٌ كبير في اختيار ألفاظٍ دون غيرها، حتى يتحقّق التناسب مع ما قبلها وما بعدها. وهذا التناسب لا يَختَصّ بالإيقاع فحسب، بل هو تناسب دلالي بالدرجة الأولى، إلاّ أنّه يبدو تناسباً إيقاعياً عند النظر إليه للوهلة الأولَى، وخاصّة فيما يتعلَّق بتلك الفواصل التي لم يَرِد ذكرها في القرآن الكريم إلاّ مَرَّةً واحدة، وعُرِفَت بغرابة ألفاظها.

والغريب من الكلام: ما غَمُضَ منه، ولفظة غريبة أي: غامضة[2] وعَرَّفَ السيوطي الكلمة الغريبة بقوله: «أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج في معرفتها إلى أن يُنقر عنها في كتب اللغة المبسوطة»[3].

---

(١) يتعدّى وجه الشّبه بين سورَتي الحاقّة والقارعة المقابلة التي رأيناها بين السياق والإيقاع والفواصل إلى المقابلة بين السورَتَين من حيث التكرار التصاعدي أو المركّب الذي بدأت به كلٌّ منهما، وهو ما كنّا قد أشرنا إليه من قبل. يُراجَع مبحث: (٧. ٢. ٤. ١ ـ تكرار الألفاظ).

(٢) لسان العرب: مادة: غرب.

(٣) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١٤٧/١.

٧. ٣. ٢. ٣. ١ ـ لفظة ﴿ضِيزَىٰٓ﴾

ومِمّا جاء من الألفاظ الغريبة في فواصل الآيات القرآنية لفظة ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢] «أي جائرةٌ، وهي فُعْلَى، مثل طُوبَى وحُبْلَى، وإنَّما كسروا الضاد لتسلَمَ الياء؛ لأنه ليس في الكلام فِعْلَى صفةً، وإنَّما هو من بناء الأسماء كالشِعْرَى والدِفْلَى»[1]. فأَصْلُ ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ (ضوزَى) وقد نُقِلَت الضَمّة إلى الكسرة فاستُبدِلَت الياء بالواو[2]. فهي، إذن، لفظة غريبة في معناها، وغريبة في صيغتها. إلاّ أنّها جاءت مناسبة من جهة الإيقاع مع فواصل سورة النجم المبنية على الألف المقصورة.

لكنّ مجيء ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ على هذه الصيغة لمناسبة الفواصل لا يَعفيها من دلالتها الدقيقة على المعنى ، وملاءمتها للسياق الذي وردَت فيه. فقد سبَقَها استفهام إنكاري على سبيل التعجُّب والاستغراب من تسمية شركاء لله، وذلك في قوله تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]. فهي في موضعها لا يسدّ مسدّها لفظة أخرى، لأنها جَمَعَت غرابة الإنكار إلى غرابتها اللفظية. وقد تَمَّ الحديث عن دلالتها فيما سبق[3].

٧. ٣. ٢. ٣. ٢ ـ لفظتا ﴿إِدّٗا﴾ و ﴿إِمۡرٗا﴾

من الفواصل الغريبة أيضاً لفظة ﴿إِدّٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ [مريم: ٨٩]. والإدّ والأدّ بكسر الهمزة وفتحها: العجب، وقيل العظيم المنكَر[4]. وقد

---

(١) معجم الصحاح: مادة: ضيز.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٧٣.

(٣) يُراجَع مبحث: (٣. ١. ٤. ١. ٦ ـ ملائمة جرس اللفظ للسياق).

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٣/ ٤٤.

جاءت على غرار فواصل سورة مريم المبنية على الوقف على النون المنصوبة بالألف. كما أنّ السياق الذي وردت فيه هذه اللفظة يكاد يُماثل السياق الذي وردت فيه لفظة ﴿ضِيزَىٰٓ﴾، حيث التعجُّب من أن يكونَ لله شريك أو ولد. وهو أمر غريب وادِّعاء عظيم ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩١].

وشبيه هذه اللّفظة ما جاء فاصلةً في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]. فلفظة ﴿إِمْرًا﴾ تعني: منكَراً من قولهم أمِرَ الأمرُ أي: كَبُرَ[1]. وهي واردة كذلك في سياق الإنكار والتعجُّب، فجاءت اللفظة المنكَرَة في غرابتها لتُلائم الأمرَ المنكَر الذي عبّرَت عنه، إضافةً إلى مناسبتها لفواصل سورة الكهف.

٧. ٣. ٢. ٣. ٣ ـ لفظة ﴿أَبًّا﴾

تُعتَبر كلمة ﴿أَبًّا﴾ الواردة في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] من أشهر الألفاظ الغريبة التي وردت في فواصل الآيات القرآنية، وكانت عصيّة على الفهم حتى عند كبار الصحابة؛ فقد رُويَ «عن أبي بكر الصديق رضِيَ الله عنه أنّه سُئل ما الأبّ؟ فقال: أيُّ سَماءٍ تُظلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني؟! إذا قلت في كتاب الله ما لا عِلمَ لي به. وعن عمرُ رضيَ الله عنه: أنّه قرأ هذه الآية فقال: كلُّ هذا قد عرَفنا، فما الأبّ؟ ثم رَفَضَ عصاً كانت بيده وقال: هذا لَعَمْرُ اللهِ التكلُّفَ، وما عليك يا ابن أمِّ عُمر أن لا تدري ما الأبّ!»[2].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٥.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/٧٠٤ ـ ٧٠٥.

وبسبب غَرابة لفظ (الأبّ) اختلف المفسرون في معناه على سبعة أقوال: فقيل هو: «ما ترعاه البهائم، وأمّا ما يأكله الآدميّ فالحصيد. والثاني: التبن خاصّة. والثالث: كلّ ما نَبَتَ على وجه الأرضِ. والرابع: ما سِوَى الفاكهة. والخامس: الثمار الرطبة... والسادس: أنّ رطب الثمار هو الفاكهة، ويابسها هو الأبّ. والسابع أنّه للأنعام كالفاكهة للناس»[1].

وقد جاءت فاصلة ﴿وَأَبًّا﴾ ملائمة للفواصل السابقة لها، وهي قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾. كما جاءت هذه اللفظة مناسبةً للسياق ومكمِّلةً للمعنى؛ فالآيات تتحدّث عمّا تُنبِتُه الأرضُ من أصناف الزروع مِمّا يعرفه العربُ ومِمّا لا يَعرفوه، مِمّا استأنَسوا به ومَمّا لم يستأنِسوا به، فلَمّا عَدَّدَ ما لهم به علمٌ من الحبِّ والعِنَبِ والقَضبِ والزيتون والنخل والحدائق والفاكهة، جاء أخيراً بلفظ (الأبّ)، وهو نوع من النبات لا يعرفونه ولم يألَفوه، لِيَدلَّ هذا اللفظ بِغرابته على كلِّ ما لا يَعلمه الإنسانُ من نباتات الأرض، فإنّ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. وإنّ الله لَهو ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].



(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٢٩٦.

الخاتمة

ظهر مما سبق أنّ القرآن الكريم كان ولا يزال يمثل منطلقاً وهدفاً أساسيّين لمباحث علمَي الدلالة والصَّوت ـ في اللغة العربية ـ يستلهمانه ويستمدّان منه مادّة بحثهما، بُغيةَ الوقوف على أسرار معانيه، وذلك منذ باكورة نشأتهما، وحتى اكتمالهما عِلمين شاخصين، لكلٍّ قواعده وأصوله.

ولقد تنبّه كثير من علمائنا القدامى والمحدثين إلى أهمية الجانب الصوتي في تشكيل الصورة الفنية، وأشاروا إلى بعضٍ مِمّا تنطوي عليه الأصوات اللغوية والظواهر الصوتية من معاني ودلالات وإيحاءات.

فالجانب الصوتي في اللغة العربية بصورة عامة، وفي القرآن الكريم بصورة خاصة، عنصر أساسيّ مهم لا يمكن الاستغناء عنه بأي حالٍ من الأحوال في بلوغ المعنى المراد، و الإحاطة به. وبناءً على ذلك إنّ تحليل النصّ القرآني يتطلّب الإحاطة بالمستويات الدلالية المختلفة جميعاً؛ فبالإضافة إلى المستوى اللغوي والصرفي والنحوي والسياقي، هناك المستوى الصوتي الذي يقف على القمّة من هذه المستويات، والذي لابدَّ من الاستعانة به، واتِّخاذه أداةً يُضيفها المفسِّر إلى أدواته العديدة الأخرى في التحليل والتفسير والتأويل.

أمّا أهم النتائج التي خرج بها البحث فيمكن إجمالها بالنقاط التالية:

١- إنّ هناك العديد من الظواهر الصوتية التي يمكن أن تتوافر عليها الحروف والحركات والكلمات القرآنية، منفردةً و مركّبة. وهي تتلاءم جميعاً وتتناغم، وفق نظام صوتي وإيقاعي خلّاب في رسم صور القرآن الكريم وتشكيل معانيه.

٢- هناك علاقة وثيقة ومحكمة بين الجانب البياني والجانب الصوتي في إبراز المعنى. وإن تشكيل الصورة الفنية للجملة القرآنية قائم على امتزاج الصُّورة البيانية بالصورة الصوتية والإيقاعيّة.

٣- إنّ أصغر وحدة صوتية في القرآن الكريم يمكنها أن تمثل مادّة بحثية لها قيمتها الدلالية. فكلّ صوت في هذا الكتاب الحكيم وُضِع موضعه الذي لا يَصلح غيره ليحلَّ محلّه، فإذا وُقِفَ على سرِّه انكشف بعضٌ مِمّا فيه، وخَفِي ما هو أعظم، فإنه ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾.

٤- إنّ القرآن الكريم معجزٌ بأَصواته وألفاظه وتراكيبه، فهو كتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا في معانيه ولا في ألفاظه، لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. وبالتالي فقد أثبتت الدراسة حقيقة خالدة أَلْمَحَ إليها البلاغي الكبير يحيى بن حمزة العلوي في كتابه الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز وهي قوله: «ليس في آي القرآن المجيد حرف إلاّ تَحته سِرٌّ ومصلحة فضلاً عمّا وراء ذلك».

٥- هناك نماذج كثيرة في القرآن الكريم اختيرت فيها الكلمات اختياراً دقيقاً، بحيث يشاطرَ بناؤها الحركي حالتَها التعبيرية. كما اختيرت فيه كلماتٌ أخرى، ورُكِّبت في جُمل بحيث يتساوق بناؤها الحركي إضافةً إلى حركتها الإعرابية، مع الحالة التعبيرية.

٦- إنّ لكلِّ حركةٍ في القرآن الكريم ـ قصيرةً كانت أم طويلةً ـ أبعادها الدلالية الخاصّة بها. وإنّ الاختلاف بين أصوات المد الطويلة والقصيرة لا يقف عند حدود الكمية فحسب، ذلك أنّ كلّ درجة من درجات الصوت في العربية تَمتلك استقلالاً فونيمياً عن الأخرى، بحيث إنّ أيّ تغيُّرٍ في درجة مَدّ الصوت في كلمة ما من شأنه أن يُغيِّر معناها، أو يُضفي عليها مسحةً دلالية خاصة. وقد جاء بناء القرآن الكريم كلّه وفقاً لهذه المعادلة الصوتية الدقيقة.

٧- تُمثل البنية اللّغوية للنصّ القرآني وحدةً عضويةً متماسكة، متنوعة الأصوات و الإيقاعات بسبب تنوُّع الموضوعات والأغراض. و لَمّا كان القرآن الكريم كتاب حياة فقد تَمَيَّزَت كلُّ جملةٍ فيه بلونٍ خاصّ وإيقاع خاصّ، كما الحياة في تعدّد ألوانها وتنوع إيقاعاتها.

٨- تكمن أهمية الإيقاع القرآني في توظيفه ـ باعتباره عنصراً جمالياً ـ لتوصيل المعنى ومنحه القدرة على التأثير. فالإيقاع في القرآن ـ خلافاً لغيره من النصوص ـ يقوم بأداء وظيفتين اثنتين في آنٍ واحد: إحداهما جمالية والأخرى دلالية. ومن هنا فقد بلغ الإيقاع القرآني قمّةً في الانسجام والتأثير، مِمّا أرغم أرباب الفصاحة والبيان على الإذعان بتفوّقه، والتسليم بعجزهم عن معارضته.

٩- إنّ مجيء بعض التراكيب والجمل القرآنية وفق أوزان الشعر العربي لا يُمكن أن يُعَدَّ امتيازاً للنظم القرآني، فهو تَماثل غير مقصود، وليس له ما يُبرِّره من الناحية الدلالية، إلاّ ما كان من انسجامه النّغَمي مع السياق العام للآية أو السورة. فإيقاع القرآن لا يُماثل أيّاً من ضروب القول عند العرب، فلا هو من الشعر بقريضه و رجزه، ولا من النثر بسجعه وخُطبه.

١٠- انّ النسّق القرآني قد جمَعَ بين مزايا النثر والشعر جميعاً. فقد أعفَى التعبير من

قيود القافية الموحّدة والتفعيلات التّامّة، فنالَ بذلك حريّةَ التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة. وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تُغني عن التفاعيل، والتقفية المتقاربة التي تُغني عن القوافي.

١١- إنّ قانونَي الإيقاع والعلاقات، بِما يشتملان عليه من تناسب، هما اللّذان يحكمان الجانب الجمالي في الصورة الفنيّة الراقية. و النصّ القرآني ـ باعتباره أرقى فنون البيان قاطبةً ـ يخضع لهذين القانونَين، شأنه في ذلك شأن خَلق الإنسان في تكوينه العضوي، والكون بما فيه من أجرام سماوية غاية في الدقّة والنظام.

١٢- إنّ التماثل الإيقاعي في الشعر يُقابله التنوّع الإيقاعي في النثر، ويَتجلّى هذا التنوّع في النصّ القرآني في أرقَى صوره. ذلك أنّه وظّف كلَّ ما يَمتلكه الصوت اللغوي من قدرات، وبخاصة القدرة على التصوير والتنغيم بِهدف بلوغ أعمق مواطن التأثير في المتلقّي، فغدا الإيقاع فيه صورةً متميزة للتناسق الفني، ومظهراً من مظاهر تصوير معانيه، وآية من آيات إعجازه الأسلوبي والبياني الرفيع.

١٣- إنّ الفاصلة القرآنية تضطلع بوظيفتَين أساسيتين، لا غِنَى لإحداهما عن الأخرى، لأنهما جاءتا على قدر واحد؛ إحدى هاتين الوظيفتَين صوتية إيقاعية، والأخرى معنوية دلالية.

١٤- مازال الباب مفتوحاً أمام الباحثين ليكتشفوا الكثير من أسرار القرآن الصوتية، ولابدّ أنّ القادم من الأيام والقرون بِما يحمله من اكتشافات معرفية وعلمية سيقوم بِحَلِّ كثيرٍ من رموزه الدفينة، وحِكَمِه الخفية، وآياته الباهرة ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

فهرس المصـادر

- **القرآن الكريم**.
- **الإبلاغية في البلاغة العربية**، أبو حمدن، سمير. (١٩٩١م)، ط١، منشورات عويدات الدولية، بيروت ـ باريس.
- **أبنية الصرف في كتاب سيبويه**، الحديثي، خديجة. (١٩٦٥م)، ط١، مكتبة النهضة، بغداد، العراق.
- **الإتقان في علوم القرآن**، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر. (١٣٦٧هـش)، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، ط٢، منشورات الرضيّ، إيران.
- **إحصاء العلوم**، الفارابي، أبو نصر.(١٩٤٩م)، تحقيق: عثمان أمين، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة.
- **الإحكام في أصول الأحكام**، الآمدي، علي بن محمد. (١٤٠٤هـ)، تحقيق: سيد الجميلي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت.
- **أساس البلاغة**، الزمخشري، محمود بن عمر. (د.ت)، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت.
- **أسباب حدوث الحروف**، ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله. (١٣٣٣هـش)، تصحيح: برويز ناتل خانلري ، انتشارات جامعة طهران، إيران.
- **الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة**، اسماعيل، عز الدين. (١٩٦٨م)، دار الفكر العربي، بيروت.

- **الأسس الجمالية للايقاع البلاغي في العصر العباسي،** حمدان، ابتسام أحمد. (١٩٩٧م)، ط١، دار القلم العربي، حلب، سوريا.
- **أسس علم اللغة**، ماريوباي، الباحث الأوربي.(١٩٧٣م)، ترجمة: أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس ، ليبيا.
- **الاسلام والفن،** البستاني، محمود. (١٩٩٢م)، ط١، مجمع البحوث الاسلامية، بيروت.
- **الأسلوب والأسلوبية**، هاف، كراهام. (١٩٨٥م)، ترجمة كاظم سعد الدين، دار آفاق عربية، بغداد.
- **الأسلوبية والأسلوب**، المسدي، عبد السلام. (١٩٧٧م)، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس.
- **الإشارات والتنبيهات**، ابن سينا. (١٩٦٠)، شرح نصر الدين الطوسي، تحقيق: د. سليمان دينا. ط ٢، دار المعارف، مصر.
- **أشتات مجتمِعات في اللغة والأدب**، العقّاد، عباس محمود. (١٩٦٣م)، دار المعرف بمصر، القاهرة.
- **أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين** ، قدّور، أحمد محمد. (٢٠٠٣م ـ ١٤٢٤هـ)، ط٢، دار الفكر، دمشق.
- **أصوات اللغة العربية**، هلال، عبد الغفار حامد. (١٤١٦هـ ١٩٩٦م)، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة.
- **الأصوات اللغوية**، أنيس، إبراهيم. (١٩٧٥م)، ط٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- **أصول تراثية في اللسانيات الحديثة**، حسام الدين، كريم زكي. (١٤٢١هـ ٢٠٠١م)، ط٣، مكتبة النهضة المصرية.
- **الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ**، الخضري، محمد الأمين. (١٤١٣هـ١٩٩٣م)، ط١، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة.

- **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ـ** دراسة قرآنية لغوية بيانية، بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن. (٢٠٠٤م)، ط٣، دار المعارف، القاهرة.
- **الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم**، هنداوي، عبد الحميد أحمد يوسف. (١٤٢٣هـ٢٠٠٢م)، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
- **إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني**، الخالدي، صلاح عبد الفتّاح. (١٤٢٥هـ٢٠٠٤م)، ط٢، دار عمّار، عمّان.
- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، الرافعي، مصطفى صادق. (١٤٢١هـ٢٠٠٠م)، ط١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **إعجاز القرآن**، الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيِّب. (٢٠٠١م)، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة**، شملول، محمد. (١٤٢٧هـ٢٠٠٦م)، ط١، دار السلام، القاهرة.
- **الإعجاز في نظم القرآن**، شيخون، محمود السيد. (١٩٨٨م)، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة.
- **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، الدرويش، محي الدين. (١٤٢٢هـ٢٠٠١م)، ط٨، دار ابن كثير ودار اليمامة، دمشق وبيروت.
- **أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة**، الساقي، فاضل مصطفى. (١٩٧٧م – ١٣٧٩هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- **الألسنية العربية**، طحّان، ريمون. (١٩٨١م)، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- **أمالي المرتضى**، المرتضى، الشريف. (١٣٧٣هـ١٩٥٤م)، مطبعة الحلبي.
- **إملاء ما مَنَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن**، العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين. (١٣٩٩هـ١٩٧٩م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **الإيحاء الصوتي في تعبير القرآن**، الزيدي، قاصد ياسر. (١٤٢٥هـ)، مجلة العرب، عدد (ذو القعدة وذو الحجّة). الصفحة الألكترونية: (www.hamadaljasser.com/article ـ ١٥٤=detail.asp?articleid).
- **الايضاح في علوم البلاغة**، القزويني، محمد بن سعد الدين بن عمر.(١٩٩٨م)، ط٤، دار إحياء العلوم.
- **البحث الدلالي عند ابن سينا**، العوادي، مشكور كاظم. (٢٠٠٣م)، ط١، مؤسسة البلاغ، بيروت.
- **البحث الدلالي في تفسير الميزان**، العوادي، مشكور كاظم. (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م)، ط١، مؤسسة البلاغ، بيروت.
- **البحر المحيط**، أبو حيان الأندلسي. (د.ت)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- **بدائع الفوائد**، ابن قيم الجوزية، محمد ابن أبي بكر. (د.ت)، إدارة الطباعة المنيرية، مصر.
- **البداية والنهاية**، ابن كثير، الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي. (د.ت)، مكتبة المعارف، بيروت.
- **البرهان في علوم القرآن**، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله.(١٣٩١هـ-١٩٧٢م)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، السّامرائي، فاضل صالح. (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، ط٢، دار عمّار للنشر والتوزيع ، عمّان، الأردن.
- **بنية العقل العربي**، الجابري، محمد عابد.(١٩٨٦م)، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- **بيان إعجاز القرآن ـ** ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم. (١٣٨٧هـ١٩٦٨م)، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط٢، دار المعارف بمصر، القاهرة.

- **بيان النظم في القرآن الكريم**، الزين، محمد فاروق. (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م)، ط١، مطبعة العلمية، دمشق، سوريا.
- **البيان والتبيين**، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (١٩٦٨م)، تحقيق: فوزي عطوي، ط١، دار صعب، بيروت.
- **تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية**، السامرائي، مهدي صالح. (١٣٩٧هـ-١٩٧٧م)، ط١، المكتب الإسلامي، دمشق.
- **التبيان في إعراب القرآن**، العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين. (د.ت)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- **التبيان في علم المعاني والبديع والبيان**، الطيبي، شرف الدين حسين بن محمد. (١٩٨٧م)، تحقيق: هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب ــ مكتبة النهضة العربية، بيروت.
- **التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة**، عكاشة، محمود. (٢٠٠٥م ــ ١٤٢٦هـ)، ط١، دار النشر للجامعات ، مصر.
- **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي. (١٤١٧هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **التشريع الجنائي الإسلامي**، عودة، عبد القادر. (١٩٨٥م)، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث**، البكوش، الطيب. (١٩٧٣م)، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس.
- **التصوير الفني في القرآن**، قطب، سيد. (د.ت)، دار الشروق، لبنان.
- **التطبيق الصرفي**، الراجحي، عبده. (١٩٩٣م)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.
- **التعبير الفني في القرآن،** شيخ أمين، بكري. (١٩٧٣)، ط١، دار الشروق، (بيروت- القاهرة).

- **التعبير القرآني**، السّامرائي، فاضل صالح. (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م)، ط٢، دار عمّار للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن.
- **التعريفات**، الجرجاني، علي بن محمد بن علي. (١٤٠٥هـ)، تحقيق: ابراهيم الأبياري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت.
- **التعليقات**، ابن سينا. (١٩٧٣م)، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- **تفسير الجلالين**، السيوطي + محمد بن أحمد. (د.ت)، ط١، دار الحديث، القاهرة، مصر.
- **تفسير القران العظيم**، ابن كثير .(١٤٠١هـ)، دار الفكر، بيروت.
- **التفكير البلاغي عند العرب**، صمود، حمادي. (١٩٨١م)، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، السلسلة السادسة، الفلسفة والآداب، مجلد عدد ٢١، تونس.
- **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، المسدي، عبد السلام. (١٩٨١م)، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس.
- **التفكير النقدي عند العرب**، العاكوب، عيسى علي. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت.
- **التقابل الجمالي في النصّ القرآني** ـ دراسة جمالية فكرية وأسلوبية، جمعة، حسين. (٢٠٠٥م)، ط١، منشورات دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
- **التكرار الأسلوبي في اللغة العربية**، خضر، السيد. (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م)، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر.
- **التنغيم في التراث العربي**، الحازمي، عليان بن محمد. (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها، جامعة أم القرى، العدد: (٢٣)، المجلد: (١٤)، عدد (شوال، ديسمبر).

- **التوجيه الأدبي**، طه حسين، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، و محمد عوض محمد. (١٩٥٢م)، المطبعة الأميرية بالقاهرة، مصر.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، الطبري، محمد بن جرير بن يزيد. (١٤٠٥هـ)، دار الفكر، بيروت.
- **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، ابو عبد الله، محمد بن احمد بن ابي بكر بن فرح (١٣٧٢هـ)، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، ط٢، دار الشعب، القاهرة.
- **جدلية الحرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة**، عنبر، محمد. (١٤٠٨هـ١٩٨٧م)، ط١، دار الفكر، دمشق.
- **جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب**، هلال، ماهر مهدي. (١٩٨٠م)، دار الرشيد للنشر، سلسلة دراسات (١٩٥)، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.
- **جَمالية المفردة القرآنية عند ضياء الدين بن الأثير**، العاكوب، عيسى. (١٤١٢هـ١٩٩١م)، مجلة التراث العربي، العدد (٤٤)، السنة (١١)، تموز ـ يوليو —محرم، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- **جمهرة اللغة**، ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن. (١٩٨٧م)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت.
- **حروف الجمل**، الزّجّاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق. (١٩٨٦م ـ ١٤٠٦هـ)، تحقيق: علي توفيق الحمد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية**، المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد. (١٤١٣هـ١٩٩٢م)، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر.
- **خصائص الحروف العربية ومعانيها**، عباس، حسن. (١٩٩٨م)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

- **الخصائص**، ابن جني، عثمان بن جني الموصلي. (١٩٥٥م)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- **خواطر من تأمل لغة القرآن**، حسّان، تمّام. (١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م)، ط١، عالم الكتب، القاهرة.
- **الدراسات الصوتية عند علماء التجويد**، الحمد، غانم قدوري. (١٩٨٦م)، وزارة الثقافة والشؤون الدينية، بغداد.
- **الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن حني**، النعيمي، حسام سعيد. (١٩٨٠م)، دار الرشيد للنشر، بغداد.
- **دراسات في علم اللغة**، بشر، كمال. (١٩٦٩م)، القسم الثاني، دار المعارف بمصر، القاهرة.
- **دراسات في فقه اللغة**، الصالح، صبحي. (١٩٦٠م)، ط٩، دار العلم للملايين، بيروت.
- **دراسات قرآنية في جزء عمَّ**، نخلة، محمود أحمد. (١٤٠٩هـ١٩٨٩م)، ط١، دار العلوم العربية، بيروت.
- **دراسات لغوية**، أبو مغلي، سميح عبد الله. (٢٠٠٤م ـ ١٤٢٥هـ)، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
- **دراسة أدبية لنصوصٍ من القرآن**، المبارك، محمد. (١٩٧٣م)، ط٤، دار الفكر، دمشق.
- **دراسة الصوت اللغوي**، عمر، أحمد مختار. (١٣٨١هـ١٩٧٦م)، ط١، عالم الكتب، القاهرة.
- **دلائل الإعجاز**، الجرجاني، عبد القاهر. (١٩٩٥م)، تحقيق: محمد التنجي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت.
- **الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية**، مطهري، صفية. (٢٠٠٣م)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

- **الدلالة اللسانية**، العياشي، منذر. (١٩٩٥م)، مجلة الموقف الأدبي، العددان: (٢٨٦و ٢٨٧) شباط وآذار، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- **الدلالة اللفظية**، عكاشة، محمود. (٢٠٠٢م)، ط١، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.
- **دور الكلمة في اللغة**، ستيفن اولمان. (١٩٦٢م)، ترجمة: كمال بشر، القاهرة.
- **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم**، الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود. (د.ت)، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي.
- **الرياضيات: جوامع علم الموسيقا**، ابن سينا. (١٩٥٦)، تحقيق: زكريا يوسف، المطبعة الأميرية، القاهرة.
- **زهر الآداب وثمر الألباب**، الحصري، أبو اسحاق ابراهيم بن علي القيرواني.(د.ت)، تحقيق: زكي مبارك، ط٤، دار الجيل، بيروت.
- **سر فصاحة الاعراب**، الخفاجي، ابن سنان. (١٩٦٩م)، صحّحه وعلّق عليه: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة.
- **سِرُّ صناعة الإعراب**، ابن جني، عثمان بن جني الموصلي. (١٩٨٥م)، تحقيق: حسن هنداوي، ط١، دار القلم ، دمشق.
- **سنن البيهقي الكبرى**، البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر. (١٤١٤هـ١٩٩٤م)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة.
- **سيكولوجية اللغة والمرض العقلي**، سيد يوسف، جمعة. (١٩٩٠م)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، رقم ١٤٥، الكويت.
- **السيمياء**، غيرو، بيار. (١٩٨٦م)، ترجمة: أنطوان أبي زيد، ط١، منشورات عويدات، بيروت.
- **شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، ابن هشام، عبد الله بن يوسف الأنصاري. (١٩٨٤م)، تحقيق: عبد الغني الدقر، ط١، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، سوريا.

- **شرح ابن عقيل**، ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري. (١٩٨٥م)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، دار الفكر، دمشق.
- **شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني**، التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله. (د.ت)، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر، القاهرة.
- **الشفاء: الإلهيات**، ابن سينا. (١٩٦٠م)، تحقيق: الأب قنواتي و سعيد زايد، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.
- **الشفاء: العبارة**، ابن سينا. (١٩٧٠م)، تحقيق: محمود الخضيري، دار الكتاب العربية للطباعة والنشر، القاهرة.
- **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. (١٩٩٣م)، تحقيق: عمر فاروق الطّبّاع، ط١، مكتبة المعارف، بيروت.
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، القلقشندي، أحمد بن علي. (١٩٨٧م)، تحقيق: يوسف علي طويل، ط١، دار الفكر، دمشق.
- **صحيح البخاري**، البخاري، محمد بن اسماعيل. (١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، دار اليمامة، بيروت.
- الصفحة الألكترونية: . ٢٣/
(http://www.uqu.edu.sa/majalat/shariaramag/mag.f١٩.htm).
- **الصوت اللغوي في القرآن**، الصغير، محمد حسين علي. (٢٠٠٠م ــ ١٤٢٠هـ)، ط١، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان.
- **الصوتيات والفونولوجيا**، حركات، مصطفى. (١٤١٨هـ١٩٩٨م)، ط١، الدار الثقافي للنشر، القاهرة.
- **ضحى الإسلام**، أمين، أحمد. (د.ت)، ط٢، مطبعة لجنة النشر والتأليف، القاهرة.

- **طبقات النحويين واللغويين**، الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن. (١٩٨٤م)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط٢، دار المعارف، مصر.
- **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، العلوي، يحيى بن حمزة بن علي اليمني. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت.
- **العبارة: كتاب في المنطق**، الفارابي، (١٩٧٦م)، تحقيق: محمد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب العرب.
- **علم الأصوات**، البهنساوي، حسام. (٢٠٠٤م)، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- **علم الأصوات**، بشر، كمال. (٢٠٠٠م)، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.
- **علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي**، عبد الجليل، منقور. (٢٠٠١)، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق.
- **علم الدلالة العربي**، الداية، فايز. (١٩٨٥م)، ط١، دار الفكر، دمشق.
- **علم الدلالة عند العرب**، الفاخوري، عادل. (١٩٨٥م)، ط١، دار الطليعة، بيروت.
- **علم الدلالة**، جرمان، كلود و لوبلون، ريمون (١٩٩٧م)، ترجمة: د. نور الهدى لوشن، ط١، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي.
- **علم الدلالة، دراسة نظرية تطبيقية**، حيدر، فريد عوض.(١٩٩٩م)، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- **علم الدلالة**، عمر، أحمد مختار. (١٩٨٨م)، ط٢، عالم الكتب، بيروت.
- **علم الدلالة**، لاينز، جون. (١٩٨٠م)، ترجمة: مجيد الماشطة وآخرون، مطبعة جامعة البصرة، العراق.
- **علم اللغة العام**، دي سوسير، فردينان. (١٩٨٥م)، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد.

- **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، السعران، محمود. (١٩٩٢م ـ ١٤١٢هـ) دار الفكر العربي، مصر.
- **علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)**، نور الدين، عصام. (١٩٩٢م)، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت.
- **على هدى الفواصل**، أنيس، إبراهيم. (١٩٦١ ـ ١٩٦٢م)، (البحوث والمحاضرات)، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة.
- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، القيرواني، ابن رشيق. (١٩٨١م)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت.
- **عودة إلى موسيقى القرآن**، اليافي، نعيم. (١٤٠٧هـ١٩٨٧م)، مجلة التراث العربي، العددان: (٢٥ و ٢٦) السنة السابعة، صفر وجمادى الاولى ـ تشرين الأول وكانون الثاني، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- **الفائق في غريب الحديث**، الزمخشري.(د.ت)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة، بيروت.
- **الفاصلة في القرآن**، الحسناوي، محمد. (١٤٢١هـ٢٠٠٠م)، ط٢، دار عمّار، عمّان، الأردن.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، العسقلاني الشافعي، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل. (١٣٧٩هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.
- **الفراهيدي عبقري من البصرة**، المخزومي، مهدي. (١٩٨٩م)، ط٢، دار السؤون الثقافية العامة، بغداد.
- **الفروق في اللغة**، العسكري، أبو هلال. (١٩٨٠م ـ ١٤٠٠هـ)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

- **الفصول المفيدة في الواو المزيدة**، العلائي، خليل بن كليلكلدي بن عبد الله الدمشقي الشافعي. (١٩٩٠م)، تحقيق: حسن موسى الشاعر، ط١، دار البشير، عمّان، الأردن.
- **فصول في علم اللغة العام**، الرديني، محمد علي عبد الكريم. (٢٠٠٢م)، ط١، عالم الكتب، بيروت.
- **فصول في فقه اللغة،** عبد التواب، رمضان. (١٩٨٠م)، مطبعة الخانجي، القاهرة.
- **فقه اللغة وأسرار العربية**، الثعالبي، أبو منصور. (٢٠٠١م)، تحقيق: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت.
- **فقه اللغة**، وافي، علي عبد الواحد. (١٩٤٥م)، ط٨، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- **فلسفة الجمال**، جاريت، أ.ف. (د.ت)، ترجمة: عبد الحميد يونس ورمزي يس وعثمان نوية، دار الفكر العربي.
- **فن التقطيع الشعري والقافية**، خلوصي، صفاء. (١٩٧٧م)، ط٥، منشورات مكتبة المثنى، بغداد ـ العراق.
- **فن الشعر**، ابن سينا. (١٩٧٣م)، من كتاب الشفاء ضمن فن الشعر لأرسطو، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، ط٢، دار الثقافة، بيروت.
- **الفهرست**، ابن النديم، محمد بن إسحاق. (١٣٤٨هـ)، المطبعة الرحمانية، القاهرة.
- **في الأصوات اللغوية ــ دراسة في أصوات المد العربية**، المطلبي، غالب فاضل. (١٩٨٤م)، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد.
- **في البنية الايقاعية للشعر العربي،** أبو ديب، كمال. (١٩٨١م)، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت.
- **في التطور اللغوي**، شاهين، عبد الصبور. (١٤٠٥هـ١٩٨٥م)، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- **في ظلال القرآن،** قطب، سيد. (١٩٧٧م)، دار الشروق، القاهرة.
- **في علم اللغة العام**، شاهين، عبد الصبور. (د.ت)، ط٣، مكتبة الشباب، القاهرة.
- **قاموس اكسفورد الحديث،** فيماير، سالي. (١٣٨٢هـ ش)، ترجمة: نجاح الشمعة، ط١، انتشارات محدث، طهران.
- **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، الدامغاني، الحسين بن محمد. (١٩٨٥م)، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت.
- **القراءات واللهجات من منظور علم الأصوات الحديث**، هلال، عبد الغفار حامد. (٢٠٠٤م)، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة.
- **القرآن الكريم والعلم الحديث**، حسب النبي، منصور محمد. (٢٠٠٢م)، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- **القرآن الكريم وموقفه من الشعر و الشعراء**، عمارة، محمد مصطفى. (١٩٦٧م)، مجلة العربي، العدد: (١٠٣) شهر (يونيو).
- **القصة في القرآن ـ** مقاصد الدين وقيم الفن، قطب، محمد. (٢٠٠٢م)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
- **قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب**، الوردني، أحمد.(١٤٢٤هـ٢٠٠٤م)، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- **قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن،** اليافي، نعيم. (١٤٠٤هـ١٩٨٤م)، مجلة التراث العربي، العددان: (١٥ و ١٦) السنة الرابعة ــ رجب وشوال ــ نيسان ابريل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق .
- **كتاب أسرار العربية**، ابن الأنباري، أبو بكر كمال الدين عبد الرحمن بن محمد. (١٩٩٥م)، تحقيق: فخر صالح قدارة، ط١، دار الجيل، بيروت.
- **كتاب الحروف**، الفارابي، (١٩٧٠م)، تحقيق: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت.

- **كتاب الحيوان**، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **كتاب العين**، الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (١٩٨٠م)، تحقيق: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد.
- **الكتاب**، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. (١٤١٠هـ١٩٩٠م)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- **كشّاف اصطلاحات الفنون أو موسوعة اصطلاحات العلوم**، التهانوي، المولوي. (١٩٦٦م)، منشورات شركة خياط للكتب والنشر، بيروت.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، الزمخشري.(١٤١٣هـ)، ط١ ، نشر البلاغة، قم — إيران.
- **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب. (١٤٠١هـ)، تحقيق: محي الدين رمضان، ط٢ ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- **الكلمة دراسة لغوية معجمية**، خليل، حلمي.(١٩٨٠م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية.
- **اللباب في معرفة البناء والإعراب**، العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين. (١٩٩٥م)، تحقيق: غازي مختار طليمات، ط١ ، دار الفكر، دمشق.
- **لسان العرب**، ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري.(١٩٥٦م)، ط١ ، دار صادر، بيروت.
- **اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي**، قدّور، أحمد محمد. (٢٠٠١م ـ ١٤٢٢هـ)، ط١ ، دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر، دمشق.
- **اللغة العربية معناها ومبناها**، حسّان، تمّام. (١٩٧٣م)، مطابع الهيأة المصرية العامة، القاهرة.

- **اللغة والمجتمع**، وافي، علي عبد الواحد. (١٩٥١م)، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي وشركاه، القاهرة.
- **اللغة**، فندريس. (١٩٥٠م)، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصّاص، مطبعة الأنجلو العربية.
- **مبادئ النقد الأدبي**، رتشاردز، أ. أ. (١٩٦٣م)، ترجمة: مصطفى بدوي، مطبعة مصر، القاهرة.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ابن الأثير، ضياء الدين. (١٩٩٥م)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، بيروت.
- **مجمع البيان في تفسير القرآن**، الطبرسي، أمين الدين أبو على الفضل بن الحسن. (١٣٧٩هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، الهيثمي، علي بن أبي بكر. (١٤٠٧هـ)، دار الريان للتراث – دار الكتاب العربي، القاهرة – بيروت.
- **المحتسب**، ابن جني. (١٣٨٩هـ ١٩٦٩م)، تحقيق: علي النجدي ناصف وعبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن عطية. (١٣٩٤هـ١٩٧٤م)، تحقيق: أحمد صادق الملاح، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- **مُختصر المنتهى الأصولي**، ابن الحاجب. (١٩٨٣م)، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **المخصّص**، ابن سيده. (١٩٧٨م)، دار الفكر، بيروت.
- **المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية**، عابدين، عبد المجيد. (١٩٥١م)، ط١، مصر.
- **مدخل إلى علم الدلالة الألسني**، أبو ناضر، موريس.(١٩٨٢)، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد: (١٨ ـ ١٩).

- **مدخل إلى علم الدلالة**، بالمر، فرانك. (١٩٩٧م) ترجمة: خالد محمود جمعة، ط١، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت.
- **المدخل إلى علم اللغة**، حجازي، محمود فهمي حجازي. (١٩٧٨م)، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.
- **مدخل إلى فقه اللغة العربية**، قدّور، أحمد محمد. (١٩٩٩م ـ ١٤٢٠هـ)، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت ، دار الفكر، دمشق.
- **مراتب النحويين**، اللغوي، أبو الطيب.(١٩٧٤م)، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة.
- **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، الطيب، عبد الله. (١٩٧٠م)، ط٢، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، السيوطي. (١٩٩٨م)، تحقيق: فؤاد علي منصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **المستصفى من علم الأصول**، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. (١٣٢٢هـ)، الطبعة الأميرية ببولاق، مصر.
- **مشاهد القيامة في القرآن**، قطب، سيد. (١٩٤٧م)، دار الشروق، القاهرة.
- **المصطلح الصوتي في الدراسات العربية**، الصيغ، عبد العزيز. (٢٠٠٠م ـ ١٤٢١هـ)، ط١، دار الفكر المعاصر بيروت ـ دار الفكر دمشق.
- **المصطلحات الأدبية الحديثة**، عناني، محمد. (١٩٩٦م)، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة.
- **معاني القرآن وإعرابه**، الزجّاج، أبو إسحاق إبراهيم السريّ. (١٩٩٤م)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط١، دار الحديث.
- **معاني القرآن**، الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الكوفي. (١٩٥٥م)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة.

- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، السيوطي. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م)، تحقيق: محمد عبد الرحيم، ط١، دار الفكر، بيروت.
- **معجم الأدباء**، الحموي، ياقوت. (١٩٨٠م)، ط٣، دار الفكر، بيروت.
- **معجم الصحاح**، الجوهري، إسماعيل بن حمّاد. (١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط١، دار المعرفة، بيروت.
- **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، مطلوب، أحمد. (٢٠٠٠م)، عربي ـ عربي، ط٢، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ـ لبنان.
- **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، وهبة، مجدي. وكامل المهندس. (١٩٨٤م)، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت.
- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، عبد الباقي، محمد فؤاد. (١٩٩٩م)، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- **معجم علم اللغة النظرية**، الخولي، محمد علي (١٩٨٢م)، انكليزي ـ عربي، مكتبة لبنان.
- **معجم مقاييس اللغة**، ابن فارس. (١٩٨١م)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٣، مطبعة الخانجي، مصر.
- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ابن هشام، عبد الله بن يوسف الأنصاري. (١٤١٩هـ-١٩٩٨م)، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- **مفاتيح الألسنية**، مونان، جورج. (١٩٨١م)، عرّبه وذيّله بمعجم عربي فرنسي: الطيّب البكوشي، مطابع الوحدة ، تونس.
- **مفتاح العلوم**، السكاكي. (١٣٥٦هـ١٩٣٧م)، ط١، القاهرة.
- **مفردات القرآن ـ مصحف التجويد**، الحمصي، محمد حسن. (١٤١٩هـ١٩٩٩م)، ط١، مؤسسة الايمان، بيروت.

- **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصبهاني، الحسين بن محمد. (٢٠٠٥م)، تحقيق: محمد خليل عيتاني، ط٤، دار المعرفة، بيروت.
- **المفصّل في صنعة الإعراب**، الزمخشري.(١٩٩٣م)، تحقيق: علي بوملحم، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- **مقالات في تاريخ النقد العربي**، سلوم، داود. (١٩٨١م)، دار الرشيد، بغداد، العراق.
- **مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب،** يونس علي، محمد محمد. (٢٠٠٤م)، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.
- **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن الزبير. (١٤٠٥هـ١٩٨٥م)، تحقيق: محمود كمال أحمد، دار النهضة العربية، بيروت.
- **من أساليب التعبير القرآني**، الزوبعي، طالب محمد أسماعيل. (١٩٩٦م)، ط١، دار النهضة العربية، بيروت.
- **من روائع القرآن**، البوطي، محمد سعيد. (١٩٧٠م)، ط٢، مكتبة الفارابي، دمشق.
- **من وحي القرآن**، السّامرائي، إبراهيم. (١٤٠١هـ١٩٨١م)، ط١، مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت.
- **مناهج البحث في اللغة**، حسّان، تمّام. (١٩٥٥م)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- **منجد المقرئين ومرشد الطالبين**، ابن الجزري. (١٣٥٠هـ)، تحقيق: محمد حبيب الله الشنقيطي وأحمد محمد شاكر، مكتبة القدس بالأزهر، القاهرة.
- **المنطق: الشعر**، ابن سينا. (١٩٦٦م)، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، القرطاجني، حازم. (١٩٨١م)، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

- **المنهج الصوتي للبنية العربية**، شاهين، عبد الصبور. (١٩٨٠م)، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- **موجز تاريخ علم اللغة**، روبنز، ر. هـ.(١٩٩٧م)، ترجمة: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، رقم ٢٢٧، الكويت.
- **الموسوعة الفلسفية**، روزنتال، م. (١٩٨٠م) وضع لجنة من العلماء السوفيت، إشراف: م. روزنتال و ن. يودين، ترجمة سمير كرم، ط٢، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
- **موسيقى الشعر العربي**، العاكوب، عيسى علي. (٢٠٠٠م)، ط٢، دار الفكر، دمشق، سوريا.
- **موسيقى الشعر**، أنيس، إبراهيم. (١٩٧٢م)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- **موسيقى اللغة**، إبراهيم، رجب عبد الجواد. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م)، دار الآفاق العربية، القاهرة.
- **الموضح في التجويد**، القرطبي، عبد الوهاب بن محمد. (١٩٩٠م)، تحقيق: غانم قدوري الحمد، ط١، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت.
- **ميزان الذهب في صناعة شعر العرب،** الهاشمي، أحمد. (١٩٦١م)، ط١٣، القاهرة.
- **الميزان في تفسير القرآن**، الطباطبائي، محمد حسين. (١٣٩٧هـ)، ط٣، دار الكتب الإسلامية، طهران. إيران.
- **النحو والدلالة**، عبد اللطيف، محمد حماسة. (٢٠٠٠م ـــ ١٤٢٠هـ)، ط١، دار الشروق، القاهرة.
- **نزهة الطرف في علم الصرف**، الميداني، أحمد بن محمد. (١٩٨١م)، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- **نشأة أوزان الشعر العربي وتطورها – من العصر الجاهلي وإلى نهاية العصر العباسي الثاني**، النجار، ماجد. (١٩٩٧م)، رسالة ماجستير، جامعة اصفهان، ايران.

- **نشأة الدراسة الدلالية العربية وتطورها**، عزوز، أحمد. (١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م)، مجلة التراث العربي، العددان: (٨١ و٨٢)، رجب و ذو الحجة ــ تشرين الأول (أكتوبر آذار(مارس) ـ السنة الحادية و العشرون. اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- **النشر في القراءات العشر**، ابن الجزري. (د.ت)، تصحيح: محمد علي الضباع، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة.
- **النقد الأدبي أصوله ومناهجه**، قطب، سيد. (د.ت)، دار الشروق، القاهرة.
- **النكت في إعجاز القرآن ــ** ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرُّماني، عليّ بن عيسى. (١٣٨٧هـ١٩٦٨م)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط٢، دار المعارف بمصر، القاهرة، مصر.
- **نهايات الآيات القرآنية بين إعجاز المعنى وروعة الموسيقا**، خليفة، أحمد عبد المجيد محمد. (١٤٢٦هـ٢٠٠٦م)، مكتبة الآداب، القاهرة.
- **النهاية في غريب الاثر**، الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد.(١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م)، تحقيق: طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.
- **الوافي في العروض والقوافي**، التبريزي، الخطيب. (١٣٩٥هـ١٩٧٥م)، تحقيق: فخر الدين قباوة وعمر يحيى ، ط٢، دمشق.
- **الوقف في القراءات القرآنية وأثره في الإعراب والمعنى**، حسين، مجدي محمد. (٢٠٠٢م)، دار ابن خلدون ، الاسكندرية، مصر.

فهرس المحتويات

الفَصلُ الأوَّل
عِلمُ الدّلالَة

الفَصلُ الثاني
عِلمُ الأصوات

الفَصلُ الثالث
الإعجازُ الصَّوتيِّ في القُرآنِ الكَريم

الفَصلُ الرابع
الدلالةُ الصوتية عَلى مُستوَى الحروف
(الأصوات الصّامتة)

الفَصلُ الخامس
الدلالةُ الصوتية عَلى مُستوَى الحركات
(الأصوات الصّائتة)

الفَصلُ السادس
الدلالةُ الصوتية عَلى مُستوَى الألفاظ
(المفرَدات)

الفَصلُ السابع
الدلالةُ الصوتية عَلى مُستوَى التراكيب
(دلالة الإيقاع)